كتاب

توفيق الرحمن * للتوفيق بين ماقاله علماء الهيئة
وبين ماجاء فى الاحاديث الصحيحة
وآيات القرآن *

﴿ تأليف ﴾

صاحب الغاية القصوى من التقريب والتحقيق * والنهاية العليا من التهذيب والتدقيق * العلامة مفتى الديار المصرية سابقا استاذنا الشيخ محمد بخيت * أدامه الله مصونا فى نفسه ودينه * متمكنا من ايمانه ويقينه * آمين *

(الطبعه الاولى)

﴿ حقوق الطبع محفوظة لحضرة المؤلف ﴾

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

R. UNIV. BIBLIOTHEEK LEIDEN

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقرا منيرا وجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى أرسله الله لكافة الخلق من الثقلين بصادق الصبح بشيرا ونذيرا وعلى آله وصحبه وكل من اتبعه و والاه وكان له مؤيدا ونصيرا . ﴿أما بعد﴾ فيقول العبد الفقير الى عفو الله الغنى بفضل ربه عمن سواه محمد بخيت ابن المرحوم الشيخ بخيت بن حسين المطيعى مولدا الحنفى مذهبا غفر الله له ولوالديه ولاخوانه فى الله تعالى ولكافة المسلمين

قد اشتبه على كثير من العلماء ما جاء فى علم الهيأة قديما وحديثا متعلقا بالسموات وأجرامها والارض وأقسامها وظنوا أن ذلك يصادمه ما جاء فى ديننا وشريعتنا السمحة وان الآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية المتعلقة بما ذكر معارضة لما قرره علماء الهيأة فى ذلك العلم ﴿فأردت﴾ أن أكتب كتابا صغيرا حجمه كبيرا ان شاء الله تعالى نفعه غزيرا علمه قريبا على الطلاب فهمه أجمعه مما كتبه فحول العلماء المحققين وأذكر فيه ما هو الحق الصريح وأبين ما هو الباطل وما هو الصحيح معولا فى ذلك على ما قاله أولئك الفحول وعلى ما فتح الله به على هذا العبد الضعيف عسى أن يزول الاشتباه ويميز الخبيث من الطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ويتبين الغث من السمين ويتضح الشك من اليقين وانى وان كنت قصير الباع قليل الاطلاع لكن الذى جرأنى على الدخول فى غمار ذلك العمل الشاق أنى لم أجد كتابا ألف فى هذا الصدد وافيا بهذا الغرض غير أنى وجدت رسالة فى ذلك صغيرة الحجم غزيرة العلم للمرحوم العلامة عبد الله باشا فكرى وزير المعارف المصرية سابقا قد اشتملت على نبذ يسيرة لانها

كانت خطابا منه رحمه الله تعالى لمحرر صحيفة تسمى وادى النيل فلم يسمح له المقام بالتوسع فيما كتب حتى يفى بالمرام وكانت فى صورة محاورة بينه وبين بعض المتورعين الذين ينكرون كون الارض كرة وأن القبة الزرقاء السماوية متخيلة الى غير ذلك مما ذكره بتلك الرسالة وقد نوه فيها عن وجود كتاب اسمه الاسرار الملكوتية عربى العبارة وشرحه الافكار الجبروتية تركى العبارة ولما لم أطلع على الاسرار الملكوتية ولم أصل الى الافكار الجبروتية مع تكرار البحث وشدة التنقيب ولم تكن تلك الرسالة وافية بالغرض الذى أرمى اليه ولا كافية فيما قصدته وعولت عليه اعتمدت على الله ملهم الصواب ومذلل الصعاب فانه الجواد الكريم الوهاب وليس الاعليه الاعتماد فى التوفيق الى طرق السداد وعزمت على اخراج ذلك من القوة الى الفعل فى هذا الكتاب وسميته (توفيق الرحمن * للتوفيق بين ما قاله علماء الهيئة وبين ما جاء فى الاحاديث الصحيحة وآيات القرآن)

وقبل الشروع فى المقصود أذكر مقدمة نافعة ان شاء الله تعالى أبين فيها تعريف علم الهيأة ومنزلته بين العلوم وحكم الله فيه تعلما وتعليما وما قاله العلماء اجمالا فيما يجب المصير اليه اذا خالف شىء مما جاء فى هذا العلم آية من كتاب الله أو حديثا صحيحا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول و بالله التوفيق والهداية لاقوم طريق

(الاول)

اعلم ان علم الهيئة هو قواعد كلية وقوانين عامة يبحث فيها عما يتعلق بالسموات والارض والنجوم ومداراتها التى هى افلاكها من حيثية مخصوصة والعرب يسمون هذا العلم علم الهيئة واليونان يسمونه (الاسترونوميه) ومعناها بالعربى قوانين النجوم * والارض معدودة من الاجرام السماوية لانها من جملة النظام الشمسى والاجرام التى تدور حول الشمس على رأى اهل هيئة اليوم أو هى مركز العالم الذى يدور حوله الشمس وسائر الاجرام العلوية على رأى الهيرخوسية والبطليموسية من اليونان وبناء على ذلك يقال فى تعريف علم الهيئة هو علم يبحث فيه عن احوال الاجرام السماوية من حيث حركاتها ومناظرها مفردة ومجملة وما يعرض لها كذلك من المقارنة والمقابلة والتثليث والتسديس وكيفية سيرها ومقدار حركاتها وارتفاعها وانخفاضها وما مضى من الليل والنهار والاطوال والعروض ونحو ذلك مما حواه علم الزيج والاصطرلاب والربع المجيب والمقنطر وما يتعلق بالشهور والسنين وفصولها والكسوف والخسوف وكل ما يحدث لتلك الاجرام مفردة ومجملة وعن علل تلك الحوادث وقواعدها وعن ما يوصل الى معرفة تلك الحوادث وعللها وقواعدها بالآلات والارصاد والحساب

من اجل ذلك قسموا علم الهيئة الى ثلاثة اقسام الاول وصفى وهو ما يبحث فيه عما يحدث فى تلك الاجرام على وجه ما ذكرنا والثانى طبيعى وهو ما يبحث فيه عن علل تلك الحوادث وقواعدها والثالث عملى وهو ما يبحث فيه عن معرفة ما يوصل الى القسمين الاولين بالآلات والحساب

وموضوع علم الهيئة هو الاجرام السماوية والارض التى هى واحد منها من حيث ما ذكر

﴿ الثانى ﴾

اعلم ان منزلة هذا العلم من العلوم انه من أقدم العلوم وقد اعتنى به الاشوريون والكلدانيون وأهل فنيقيا ومصر والهند والصين والعرب جاهلية واسلاما وغيرهم فى السابقة والحاضرة وكان فيثاغورس معلم هذا الفن فى مدرسة كروتونا فى ايطاليا قبل ميلاد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بخمسمائة عام وكانت تعاليمه دائرة على ان الارض دائرة على محورها ومركز نفسها من المغرب الى المشرق وان الحركة اليومية التى

عليها مدار شروق الشمس والقمر وسائر الاجرام من المشرق وغروبها فى المغرب تابعة لحركة الارض هذه لا لحركة الفلك الاعظم كما اعتقده الجمهور بعده ثم انشئت مدرسة الاسكندرية التى أنشأها الملوك البطليموسية وهناك اخترعت أولا آلات لقياس الزوايا ومن أشهر علمائها الفيلسوف هيبرخوس قبل الميلاد بنحو مائة وخمسين سنة وبطليموس قبل الميلاد بنحو مائة وأربعين سنة ألف كتابا فى هذا الفن سماه المجسطى اختار فيه القول بسكون الارض ودورة الشمس عليها وبنى مذهبه على ذلك فشاعت قواعده وتعاليمه بين الناس واشتهرت فى البلاد لاستيلاء الروم على كثير من أقطار الارض ثم نقلها الفارابى من فلاسفة الاسلام بعد ذلك فى مؤلفاته العربية فى أوائل القرن الرابع من الهجرة وتبعه ابو على ابن سينا وغيره ممن جاء بعده من فلاسفة الاسلام واشتهرت بين علماء الاسلام فاعتمدوا عليها واعتقدها من اعتقدها منهم وأدخلوها فى مؤلفاتهم وعولوا عليها فى كثير من مباحثهم وتعاليمهم ومنهم من قبلها على علاتها ومنهم من محصها وحققها ومخضها فاخرج زبدها وميز صحيحها من فاسدها حتى حمل كثير من المفسرين المحققين وغيرهم كثيرا من الآيات القرآنية المتعلقة بالسموات والارض على تلك التعاليم وهجرت الطريقة الاولى التى كان عليها فيثاغورس الى القرن الخامس عشر والسادس عشر حيث نبغ رجل من بروسيا يقال له كوبرنيكوس تمهر فى العلوم الرياضية واشتغل بعلم الهيئة والرصد والحكمة وهذا النابغة فى سنة الف وخمسمائة وثلاثين ميلادية ولينفر براهى فى دينمارك سنة الف وخمسمائة واثنتين وثمانين وكيلر فى جرمانيا سنة الف وستمائة وأربع وخمسين وغاليليو فى ايطاليا سنة الف وستمائة وتسع واربعين رجعوا جميعا الى الطريقة التى كان عليها فيثاغورس المؤسسة على حركة الارض وقرروا أن الشمس هى مركز العالم وأن الارض وباقى الاجرام السيارة تدور حولها فاولا عطارد ثم الزهرة ثم الارض ويتبعها القمر فيدور حولها ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل وأيدوا هذه الطريقة بتطبيقها على قواعد العلوم الرياضية وأبطلوا الآراء التى كان عليها البطليموسية ووضعوا هذا العلم على أساس حقيقى وأشهر ذلك كوبرنيكوس فى كتاب له عنوانه حركات الاجرام السماوية فحكم عليه فى مجمع كنيسة رومية بالزيغ والالحاد ونهوا عن اشهار كتابه وعن قراءته ولو تمكنوا من احراق كوبرنيكوس نفسه لاحرقوه ومع ذلك قد اشتهر كتابه وشاع مذهبه فنسب اليه وقيل هيئة كوبرنيكوس * وأما غاليليو فهو أول من استعمل النظارة فى علم الهيئة وبها كشف عن حقائق كثيرة كانت مجهولة قبل عصره ثم بقرب غرة القرن الثامن عشر كشف اسحاق نيوتون عن قواعد الجاذبية العامة التى تخضع لها جميع حركات الاجرام السماوية واوضح تلك القواعد وثبتها لابلاس الفرنساوى ثم قام بعد ذلك فى أوقات متفاوتة وجهات مختلفة من بلاد اوربا جماعات غير من ذكر واعتنوا بهذا العلم على هذه الطريقة حتى صارت هى المتعارفة فى الجهات الاوربية وعرفت عندهم بالهيئة الجديدة وان كانت هى القديمة فى الواقع ونفس الامر ولذلك كانت كل واحدة من الطريقتين منقولة نقلا مستفيضا فى الكتب الاسلامية قبل وجود كوبرنيكوس وبعده وممن ذكر الطريقتين العلامة عضد الدين بن عبد الرحمن بن احمد المتوفى سنة سبعمائة وست وخمسين هجرية وبعد أن ذكر الطريقة المؤسسة على حركة الارض ودورانها اعترض عليها بوجوه ثلاثة وقال ان أهمها ان فى الارض ميل حركة مستقيمة فلا يوجد فيها ميل حركة مستديرة لان الاول يقتضى ان يكون اتجاه الحركة على الاستقامة والثانى يقتضى اتجاهها على الاستدارة فلا يجتمعان وبعد ان رد الوجهين رد هذا أيضا بانا لا نسلم ان فى الارض ميل الحركة المستقيمة وان سلمنا فلا نسلم استحالة اجتماعهما كيف وقد وجدا معا فى العجلة والدحروجة * وعبارة متن المواقف مع شىء من عبارة الشارح قال فى الموقف الرابع وقيل انها يعنى الارض تدور على مركز نفسها من المغرب الى المشرق خلاف الحركة اليومية للفلك التى اعتقدها الجمهور والحركة اليومية لا توجد وانما تتخيل بحركة الارض اذ يتبدل الوضع

من الفلك بالقياس الينا دون اجزاء الارض اذ لا يتغير الوضع بيننا وبينها فانا على جزء معين منها فاذا تحركت من المغرب الى المشرق ظهر علينا من جانب المشرق كواكب كانت مختفية عنا بحدبة الارض وخفى عنا بحدبتها من جانب المغرب كواكب كانت ظاهرة علينا (فيظن ان الارض ساكنة والمتحرك هو الفلك) وليس كذلك بل ليس ثمة فلك اطلس وذلك كراكب السفينة يرى السفينة ساكنة مع حركتها حيث لا يتبدل وضع اجزائها منه والشط متحركا مع سكونه حيث يتبدل وضعه مع ظن انه ساكن وكذلك يجرى القمر سائرا الى جهة الغيم حين يسير الغيم اليه من امور قدمناها فى غلط الحس وابطلوا ذلك بوجوه ثلاثة الاول ان الارض لو كانت متحركة فى اليوم بليلته دورة واحدة لكان ينبغى للسهم اذا رمى الى جهة حركة الارض ان لا يسبق موضعه الذى رمى فيه بل تسبقه الارض واذا رمى الى خلاف جهة حركتها ان يمر على الموضع الذى رمى منه ويتجاوزه بقدر حركته وحركة الارض جميعا واللازم باطل لاستواء المسافة التى يقطعها السهم من الجانبين بالتجربة الثانى الحجر يرمى به الى فوق فيعود الى موضعه راجعا بخط مستقيم ولو كانت الارض متحركة الى المشرق لكان الحجر ينزل من مكانه الى جانب المغرب بقدر حركة الارض فى ذلك الزمان والوجهان ضعيفان لجواز ان يشايعها الهواء المتصل بها مع ما يتصل به من السهم والحجر وغيرهما فى الحركة كما يقولون بمشايعة النار للفلك فلا يلزم شىء من ذلك فان السهم حينئذ يتحرك بحركة الارض تبعا للهواء التابع لها فلا يتجاوز موضعه الذى رمى منه فى الجانبين الا بحركة نفسه فيتساوى المسافتان وكذلك الحجر يتحرك بحركتها وعمدتهم فى بيان ذلك وهو الوجه الثالث ان الارض فيها مبدأ ميل مستقيم بالطبع فلا يكون فيها مبدأ ميل مستدير والاعتراض عليه منع وجود ذلك المبدأ فيها وهو أى وجوده فيها مبنى على ان ما لا ميل له لا يتحرك قسرا والا لكانت الحركة مع العائق الطبيعى مثلها بدونه وقد عرفت ضعفه فى مباحث الخلاء من الكتاب المذكور ثم لا نسلم تنافيهما أى تنافى الميلين حتى يلزم المنافاة بين المبدئين لما ذكر من اجتماعهما فى العجلة والدحروجة انتهى كلام متن المواقف مع شىء من شرح السيد عليه ومثله فى اكثر الكتب الكلامية الاسلامية ومن هذا يعلم ان طريقة حركة الارض ودورانها على الوجه الذى قاله علماء الهيئة اليوم كانت معروفة كالطريقة المقابلة لها قبل سنة سبعمائة وست وخمسين هجرية التى توفى فيها صاحب المواقف وقبل اشتهارها وانتشارها فى البلاد الاوربية لان الذى اشهرها فيها هو كوبرنيكوس وهو قد اشتغل بالهيئة والرصد والحكمة من سنة الف وخمسمائة الى سنة الف وخمسمائة وثلاثين من الميلاد ورجع الى طريقة فيثاغورس وسنة الف وخمسمائة وثلاثين توافق سنة تسعمائة وسبع وثلاثين هجرية اى بعد وفاة صاحب المواقف بنحو مائة وثمانين سنة تقريبا

ويعلم ايضا ان القول بحركة الارض ودورانها على محورها وان على ذلك مدار الدورة اليومية ودوران جميع الاجرام السماوية من المشرق الى المغرب دورانا خياليا ظاهريا فقط تبعا لدوران الارض على محورها هو القول القديم السابق على غيره من المذاهب وانه هو المذهب الذى اختاره فيثاغورس وكان يعلمه تلامذته فى مدرسة كروتونيا من بلاد ايتاليا قبل ميلاد المسيح عليه وعلى نبينا افضل الصلاة واتم السلام بمدة خمسمائة عام

وان هذا المذهب وان سمى اليوم طريقة جديدة فى علم الهيئة الا انه فى الواقع هو الطريقة القديمة وانما كانت هجرت واهملت زمنا طويلا فلما تجددت شهرتها وعاد الاعتماد عليها والقول بها وأبطال القول بسكون الارض سميت طريقة جديدة وظن كثير من الناس انها طريقة مستحدثة وليس الامر كذلك

وان القول بسكون الارض ودوران الشمس وسائر الاجرام السماوية حولها وحركتها من المغرب الى المشرق حركة ذاتية وحركتها ودورانها من المشرق الى المغرب حركة قسرية تبعا لحركة الفلك الاطلس

والقول بالفلك الاطلس ووجوده هو المذهب الذى اختاره بطليموس الرومى وكان يعلمه لتلامذته والف كتابه الذى سماه المجسطى وكان هيرخوس قبل الميلاد بمائة وخمسين عاما يعلم هذا المذهب بمدرسة الاسكندرية التى انشأها الملوك البطليموسية * وفى اوائل القرن الرابع من الهجرة نقله الفارابى فى مؤلفاته العربية وتبعه من جاء بعده من فلاسفة المسلمين واشتهرت فى بلاد الاسلام كما اشتهرت من قبل ذلك فى البلاد الاوربية ثم هجرت هذه الطريقة اليوم وصار الذى عليه المعول هو طريقة فيثاغورس من القول بحركة الارض ودورانها على الوجه الآتى بيانه

وعلى كل حال فمزايا هذا العلم جليلة ومنافعه كثيرة ومناهله عذبة وهو مما تدعو الحاجة اليه فى معرفة مناطق الارض واقسامها وأحوالها وما فيها من المناطق الحارة جدا والمناطق الباردة جدا والمناطق المعتدلة واسباب كل ذلك وكما يعرف ذلك يعرف مناطق السماء التى هى الاصل ومناطق الارض تابعة لها ويعرف اطوال البلاد وعروضها واختلاف الاوقات فيها واختلاف الليل والنهار طولا وقصرا ووجودا وعدما وما يترتب على ذلك من اختلاف المطالع واوقات العبادات واحكام المواريث فيعرف من تقدم موته ومن تأخر اذا مات اثنان او اكثر وبينهم سبب من اسباب الارث فى وقت الزوال وأحد الاموات فى المشرق والأخر فى المغرب ويعرف كيف يهتدى بالنجوم فى ظلمات البر والبحر وغير ذلك مما يطول شرحه * وبالجملة فالذى يطلع على علم الهيئة الارضية والاجرام السماوية يكون كانه ساح فى اقطار السموات والارض وجاب السهل منها والحزن ووقف على كثير من الاسرار الالهية والحكم الربانية التى أودعها الله فى اجزاء الارض ومعادنها وفى الكواكب ومداراتها وحركاتها ذلك تقدير العزيز العليم * وسيأتى من ذلك شئ كثير ان شاء الله وان كان ما يصل اليه البشر من ذلك لا يبلغ مثقال ذرة مما لم يصلوا اليه وما اوتيتم من العلم الا قليلا

هذه المزايا التى ذكرناها انما هى لهذا العلم فى ذاته ولذلك اتفق عليها جميع علماء الهيئة قديما وحديثا من أهل المذهبين السابقين * وقد علمت ان علم الهيئة فى ذاته قد انقسم الى ثلاثة اقسام وصفى وطبيعى وعملى وقد علمت ما يبحث عنه فى كل قسم منها والآن نبين لك أنهم لم يختلفوا فيما يبحث عنه فى القسم الوصفى خلافا يذكر وانما اختلفوا فى القسم الطبيعى الذى يبحث فيه عن علل الحوادث التى تعرض للاجرام ويبحث عنها فى الوصفى واختلفوا ايضا فى القسم العملى الذى يبحث فيه عن كيفية ما يوصل الى معرفة ما يبحث عنه فى القسمين الاولين وعلة الاختلاف فى القسم الطبيعى هو الاختلاف فى القسم العملى والمدار فى القسم العملى على آلات الرصد ودقة الحساب وقد علمت ان اول من استعمل النظارات فى علم الهيئة هو غاليليو وبها كشف عن حقائق كثيرة كانت مجهولة قبل عصره وكان غاليليو فى سنة الف وستمائة وتسع واربعين ثم بقرب غرة القرن الثامن عشر كشف اسحق نيوتون عن قواعد الجاذبية العامة التى تخضع لها حركات الاجرام السماوية وأوضح تلك القواعد وثبتها لابلاس الفرنساوى ومن ذلك كله تعلم ان كل ذلك لم يكن معروفا فى زمن البطليموسية ومن جاء بعدهم الى زمن غاليليو واسحاق ومن بعدهما وكانت الآلات الرصدية قبل وجود النظارات المعظمة قاصرة ناقصة وكانت قوة الجاذبية العامة التى تخضع لها جميع حركات الاجرام السماوية مجهولة فلم يمكن الوقوف على الجاذب والمجذوب وما هو الجرم الذى يجب بمقتضى تلك القوة ان تدور سائر الاجرام حوله وان يكون هو الجاذب لها لما فيه من زيادة القوة الجاذبة ولذلك جزم اهل الهيئة اليوم بان مركز العالم هو الشمس وان الارض وسائر الاجرام السماوية تدور حولها لان جرم الشمس اكبر من جرم الارض وجرم كل واحد من سائر الاجرام باضعاف مضاعفة فكانت قوة الجذب فى الشمس اكثر واكبر فالمعقول ان تكون هى الجاذبة لما سواها وكأن اهل الهيئة اليوم بناء على ذلك ولشدة لمعان ضوء الشمس

وعدم امكان تحديد النظر اليها ولا بالنظارة التى استحدثت يجهلون حركة الشمس ويظنون انها ساكنة وبعد ان استحدثت النظارة الرصدية المعظمة المعروفة باسم (تلسكوب) المشتملة على الزجاجات الملونة لاضعاف شعاعها سهل النظر اليها وعلم انها متحركة على الوجه الآتى بيانه * وبناء على هذا الاختلاف العملى الناشىء عن اختلاف آلات العمل اختلف المذهبان فقال البطليموسية بسكون الارض وحركة الشمس وقال الآخرون بحركة الارض ودورانها حول الشمس

وان الشمس ليس لها حركة حول الأرض من المغرب الى المشرق وانما لها حركة على محورها فى مدة معينة وانه ليس هنالك فلك اطلس ولا غيره مما يقوله الاقدمون بل لا وجود الا للاجرام السماوية التى هى الكواكب ومداراتها التى هى افلاكها التى تسبح وتدور فيها وبين كل طبقة وطبقة من تلك الاجرام بعد شاسع ولا اتصال بين طبقاتها كما كان يقوله غيرهم

فانت ترى ان الخلاف انما هو فى علل ما يحدث فى الاجرام السماوية مما قدمنا بعضه بناء على اختلاف آلات الرصد وغيره مما يوصل الى معرفة العلل واما نفس تلك الحوادث التى تحدث للاجرام والمناظر التى تعرض لها فاكثرها مشاهد محسوس وهى التى عليها المدار فى منافع الخلق ومصالحهم كاختلاف الفصول فى السنة واختلاف الحر والبرد فى المناطق واختلاف الليل والنهار وغير ذلك مما فصلوه فى القسم الوصفى وما يتفرع على ذلك من الحوادث الكونية مما يجرى مجرى الطبيعى * وبالجملة فكل ما يبحث عنه فى القسم الوصفى وما يتفرع عنه لا يختلف ولا يتغير ولا يتخلف سواء نسبناها الى العلل والقواعد التى قال بها الفيثاغورسيه او نسبناها الى العلل والقواعد التى قال بها البطليموسية واختلاف الفريقين فى العلل والقواعد راجع الى اختلاف آلات الرصد فان ما وجد منها فى زمن الذين رجعوا الى طريقة فيثاغورس لم يكن موجودا فى زمن البطليموسية كما انه يوجد منها الآن ما لم يكن موجودا فى زمن غاليليو ولذلك استكشفوا من السيارات مثل اورانوس ونبتون مما لم يكن معروفا فى زمن غاليليو ولعل الله يحدث بعد ذلك امرا ويخلق ما لا تعلمون ولذلك كان الاستدلال على ما قصد الله تعالى الاستدلال عليه فى كتابه العزيز مما يتعلق بالاجرام السماويه من حدوث العالم ووجود الصانع ووجوب وجوده ووحدانيته وتمام ارادته وقدرته واحاطة علمه واتقان صنعه وعظيم حكمته وجليل نعمه وكمال منته على خلقه وسعة رحمته وفضله واحسانه وتدبيره لشؤونهم كلها صغيرها وكبيرها جليلها وحقيرها وانه لم يخلقهم عبثا ولم يتركهم سدى بل ارسل اليهم رسلا هادين الى صراط مستقيم وشرع قويم يكفل نظام معاشهم ومعادهم على اتم وجه واكمله قاصرا على ما يبحث فيه عن القسم الوصفى فقط لانه هو الاثر المعلوم المشاهد المتفق عليه ويشترك فى العلم باكثره الخاص والعام فهو الذى يليق ان يستدل به على ما ذكر ولا حاجة بعد ذلك فيما قصده الله تعالى فى كتابه وارشد خلقه اليه الى ان يتعرض فيه الى ذكر اسباب تلك الحوادث وعللها ولا الى ذكر الآلات التى توصل الى معرفتها لان معرفة ذلك كله والوقوف عليه موكول الى ما فطر الله عقولهم عليه وحرك نفوسهم الناطقة بمقتضى غرائزهم اليه فترك ذلك الى النظر فيه بقواهم النظرية والعمل فيه بقواهم العمليه وقد ارشدهم الى ذلك بما اودعه فى تلك الاجرام من الآيات الباهرة والدلائل الظاهرة وحضهم بذكر المعلولات والمسببات على تعرف العلل والاسباب ليتنافس فى ذلك المتنافسون وتتسابق اقدام العلماء المجدين فى ميدان الانظار والافكار ليحرز قصب السبق فى العمل والاختراع المجاهدون المجتهدون ويظهر فضل اولئك المجاهدين فى سبيل العلم والعمل على القاعدين وكان فضل الله عظيما

الثالث

اعلم ان الاجرام السماوية اما ان يبحث عنها باعتبار انها معلوم يبحث عنه من حيث ما يثبت له مما هو عقيدة دينية او مما يتوقف عليه ذلك وحينئذ يكون البحث عنه من هذه الحيثية من علم الكلام واما ان يبحث عنها باعتبار انه موجود يبحث عنه من حيث الوقوف على حقيقته ومبدئه وعلل وجوده وغير ذلك مما يتعلق بعلم الحكمة وحينئذ يكون البحث عنه من هذه الحيثية من علم الحكمة واما ان يبحث عنها باعتبار انها اجرام سماوية من حيث ما يحدث لها من الحركات ونحو ذلك وعلل ما يحدث مما ذكر وقواعده وعن كيفية ما يوصل الى هذين الامرين من الآلات والحساب وحينئذ يكون البحث عنها من هذه الحيثية من علم الهيئة واما ان يبحث عنها باعتبار انها أجرام سماوية أيضا لكن من حيث ما يتعلق بها من تأثيرها في بعض الحوادث الكونية ودلالتها على ذلك وعلى غيره من أخلاق وأوصاف ونحو ذلك والبحث عنه من هذه الحيثية من علم الاحكام وان شئت قلت ان ما يبحث عنه في علم الهيئة يسمى بالعلم الحسابي والارصادي وما يبحث عنه في علم الاحكام يسمى بالعلم الاستدلالي وكلامنا الآن قاصر على بيان حكم الله في علم الهيئة او علم الارصاد والحساب وفي علم الاحكام او العلم الاستدلالي فنقول * اما الاول منهما فالاشتغال به تعلما وتعليما غير منهي عنه كما صرح به الالوسي في تفسيره وغيره في غيره واما القسم الثاني منهما وهو علم الاحكام فهذا هو الذي اختلف العلماء في حكمه وهو علم يبحث فيه عن احكام الاجرام السماوية وتأثيراتها التي تترتب على أوضاعها وطبائعها على الوجه الذي يزعمه علماء هذا الفن فقال فريق بحرمة تعليمه وتعلمه لما جاء في حديث ابي داود وابن ماجه من انه صلى الله عليه وسلم نهى عن الخوض في النجوم والقائل بهذا قائل أيضا بحرمة تعليم علم السحر وتعلمه وفريق ذهب الى انه مكروه وفريق ثالث ذهب الى انه مباح وآخر انه فرض كفاية وفريق انه كفر وهذه الاقوال في بعضها افراط وفي بعضها تفريط والجمهور على الاول قالوا لان فيه ترويج الباطل وتعريض الجهلة لاعتقاد ان أحكام النجوم المعروفة بين اهلها حق وان الكواكب مؤثرة بنفسها وقيل انما حرم ذلك لانه منسوخ فقد قال الكرماني في عجائبه كان علم النجوم علما نبويا فنسخ وفيه انه لا معنى لنسخ العلم نفسه وان حمل كلامه على معنى ان تعلمه كان مباحا فنسخ ذلك الى التحريم كان في ذلك أخذ الدعوى في الاستدلال وهو مصادرة غير مقبولة وقال بعضهم لا حرمة في تعلمه وانما الحرمة في اعتقاد صحة الاحكام وتاثيرات الكواكب على الوجه الذي يقوله جهلة الاحكاميين لا مطلقا وقال هذا الفريق ان حديث ابي داود وابن ماجه السابق الاشارة اليه محمول على تعلم شيء من علم النجوم على وجه الاعتناء بشأنه كما يشير اليه لفظ اقتبس الذي جاء في الحديث وذلك لا يتم الا باعتقاد صحة حكمه وأن الكواكب مؤثرات فتعلمه على هذا الوجه حرام وفيه بحث من جهة ان الحديث لا يحتمل مثل هذا التأويل بدون قرينة تدل عليه وقيل ان الحديث فيمن ادعى علما يحكم من الاحكام اخذا له من النجوم قائلا الامر كذا وكذا لان النجم يقتضيه ألبتة وهو لا شك في اثمه وحرمة دعواه التي قامت الادلة على كذبها ولكن الكلام في صحة ارادة ذلك من الحديث ولا تكاد تتم لعدم ما يدل على ذلك وكلام بعض أجلة العلماء صريح في اباحة تعلمه متى اعتقد أن الله تعالى اجرى العادة بوقوع كذا عند حلول الكوكب الفلاني كالقمر منزلة كذا مثلا مع جواز التخلف واستظهر بعض حرمة التعلم مطلقا متى كان فيه اغراء الجهلة بذلك العلم وايقاعهم في محذور اعتقاد التأثير أو كان فيه غير ذلك من المفاسد وكراهته ان سلم من ذلك لما فيه من تضييع الاوقات فيما لا فائدة فيه ومبناه ظنون واوهام وتخيلات ولا يبعد القول بانه يباح للعالم الراسخ النظر في كتبه للاطلاع على ما قالوه والوقوف على مناقضاتهم واختلافاتهم لينفر الناس عنها ويرد العاكفين عليها كما يباح له النظر في كتب سائر أهل الباطل لذلك ولو قيل بسنيته لهذا الغرض لم يبعد والحق في هذا كله وفي تعلم سائر العلوم المماثلة لذلك من سحر وزجر

وفراسة وفأل وغير ذلك ان يقال ما قيل في تعلم علم الفلسفة العلمية والعملية والعلوم الطبيعية وفي النظر في شبه الملحدين وان تعلم ذلك كله جائز لكامل العقل والقريحة المتضلع من الكتاب والسنة علما وعملا للوقوف على ما قاله ارباب تلك العلوم وبيان ما لا يصادم ما علم ثبوته بالضرورة من ديننا وما يصادمه ذلك فيرد الثاني ولا يتصدى لابطال الاول بل ان كان فيه ما يقبله العقل ولا يرده الشرع قبلناه والا تركناه لاهله على عهدتهم ولان العالم على وجه ما ذكر لا يخشى عليه زيغ في العقيدة بل ان وجود عالم على هذا الوصف متبحر في جميع العلوم على اختلاف انواعها ليرشد المسترشدين بانارة المحجة ويرد شبه الملحدين الضالين المضلين باقامة الحجة فرض في كل مسافة قصر فان كل علم قيل فيه انه قبيح فالجهل به اقبح منه وتعلم الشر لا للشر بل لاتقاء الشر ومنعه عن الناس مندوب اليه ان لم يكن فرض كفاية وجميع ما قاله المانعون من تعلم علم الاحكام وما ماثله من الادلة لا يقتضي قبح ذلك العلم والمنع منه لذاته وانما ذلك للعوارض التي قالوها فالقبيح والممنوع انما هو تلك العوارض واما نفس العلم وتعلمه في ذاته فلا قبح فيه لان العلم اما بمعنى الملكة واما بمعنى القواعد المخصوصة واما بمعنى ادراكها على وجه التصديق بمعنى ادراك أن النسبة واقعة أو ليست بواقعة بقطع النظر عن مطابقة الواقع وعدمها وكل ذلك لا قبح فيه فالقبح اما راجع الى التضليل للجهلة أو لسوء الاعتقاد او نحو ذلك وكل هذا شيء خارج عن نفس العلم حتى لو تعلم علم الفقه لغرض سيء كالتحايل أو تعلم علم الكلام لغرض سيء كالجدل كان الممنوع ذلك الغرض دون تعلم الفقه او الكلام كما هو واضح لا شبهة فيه وقد قيل

ان العلوم كاثمار على شجر * فاجن الثمار وخل العود للنار

الرابع فيما قاله العلماء في ذلك اعلم ان حجة الاسلام الامام الغزالي قال في كتابه تهافت الفلاسفة ما نصه القسم الثاني ما لا يصادم مذهبهم (اي الفلاسفة) فيه اصلا من اصول الدين وليس من ضرورة تصديق الانبياء والرسل منازعتهم فيه كقولهم ان خسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الارض بينه وبين الشمس من حيث انه يقتبس نوره من الشمس وان الارض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب فاذا وقع القمر في ظل الارض انقطع عنه نور الشمس وكقولهم ان كسوف الشمس معناه وقوف جرم القمر (أي مروره) بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعهما في العقدتين وهما المسميان بالرأس والذنب على دقيقة واحدة وهذا الفن ايضا لسنا نخوض في ابطاله اذ لا يتعلق به غرض ومن ظن ان المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف امره فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويحقق ادلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما الى الانجلاء اذا قيل له ان هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه وانما يستريب في الشرع وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه اكثر ممن يطعن فيه بطريقه وهو كما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل فان قيل فقد قال عليه الصلاة والسلام ان الشمس والقمر لآيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله تعالى والصلاة فكيف يلائم هذا ما قالوه قلنا ليس في هذا ما يناقض ما قالوه اذ ليس فيه الا نفي وقوع الكسوف لموت أحد ولا لحياته والامر بالصلاة عنده والشرع الذي يأمر بالصلاة عند الزوال والطلوع والغروب من أين يبعد منه أن يأمر بها عند الكسوف استحبابا فان قيل فقد روي انه قال في أخر الحديث ولكن الله إذا تجلى لشيء خضع له فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التجلي قلنا هذه الزيادة لم يصح نقلها فيجب تكذيب ناقلها وانما المروي ما ذكرنا كيف ولو كان صحيحا لكان تاويله أهون من مكابرة أمور قطعية فكم من ظواهر أولت بالادلة القطعية لا تنتهي في الوضوح الى هذا الحد وأعظم ما يفرح الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع

فيسهل عليه طريق ابطال الشرع ان كان شرطه أمثال ذلك وهذا الان البحث فى العالم عن كونه حادثا أو قديما ثم اذا ثبت حدوثه فسواء كان كرة أو بسيطا أو مثمنا أو مسدسا وسواء كانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة كما قالوه أو أقل أو أكثر فنسبة النظر فيه الى البحث كنسبة النظر الى طبقات البصل وعددها وعدد حبات الرمان فالمقصود كونه من فعل الله تعالى فقط كيف كان اهـ غير أن الذى قاله الغزالى من أن نقل هذه الزيادة لم يصح ـ لم يصح بل نقلها صحيح ويجب تأويلها بأن كون الكسوف خضوعا سببه التجلى لا ينافى أن سببه الظاهرى الذى يدل عليه بحسب ما عندنا ونعلمه منه هو ما قاله علماء الهيئة وسيأتى تمام ذلك عند الكلام على قوله تعالى فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم ومن ذلك الذى قاله الغزالى تعلم أن هذا الفن الذى هو علم الهيئة بقسميها أرضية كانت أو سماوية وهو القسم الثانى من العلوم الفلسفية لا نخوض مع قائليه فى ابطاله ـ بل ما قام عليه البرهان القطعى وثبت بالادلة الهندسية والحسابية نقبله ولا يجوز أن نرده واذا صادم نصا من الكتاب أو السنة أولناه بما يوافقه لان نصوص الكتاب والسنة لا تجئ على خلاف البراهين العقلية القطعية وان الواجب على المكلف أن يؤمن بالله تعالى ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وبكل ما علم من الدين بالضرورة وأن يعتقد أن جميع ما سوى الله تعالى حادث باحداثه تعالى مخلوق بخلقه موجود بايجاده وحده لا شريك له بحيث لا يستند شئ من انحاء الوجود الا اليه تعالى فهو واجب الوجود الفاعل المختار على أى حال كان سواء كانت الشمس مركز العالم والارض وسائر الكواكب السيارة وما يتبعها تدور عليها أو أن الارض هى مركز العالم والشمس وسائر الكواكب المذكورة تدور حولها وسواء كانت الارض كرة أو بسيطة أو غير ذلك غير اننا اذا تتبعنا كلام أهل الهيئة اليوم فرأيناهم قد قرروا شيئا من قواعدهم على خلاف المشهور عن علماء الهيئة القديمة ثم اثبتوا شيأ مما ادعوه بدلائل قطعية هندسية أو حسابية أو أمور بصرية بحيث لا يمكن مقاومتها ولا يحسن فى العقل مكابرتها ثم رجعنا الى ما يتعلق بالهيئة من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فوجدنا ألفاظها لا تأبى أن تؤول بما يوافق تلك الادلة القطعية ورأينا علماء الشريعة الاسلامية قد تأولوا كثيرا من ظواهر الآيات القرآنية والاحاديث بمثل ذلك ورأوا كما قال الغزالى أن المصير الى التأويل فى مقابلة القاطع أولى من مكابرة الدليل القاطع ووجدنا كما سيتبين لك فيما نذكره بعد ذلك مفصلا فى هذا الكتاب أن كثيرا من المفسرين المحققين حملوا كثيرا من الآيات على ما يوافق ما قيل فى الهيئة القديمة مع أن كلا من أرباب الهيئة القديمة وأرباب الهيئة الجديدة بالنظر الينا على حد سواء منهم المتدينون بدين الاسلام الملتزمون حقية ما جاء به القرآن والاحاديث ومنهم دون ذلك خصوصا اذا وجدنا أن بعض السلف كابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والحسن وغيرهم حملوا كثيرا من الآيات القرآنية على ما يوافق ما جاء فى الهيئة الجديدة كقول ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (كل فى فلك يسبحون) أن النجوم تسبح فى أفلاكها كما يسبح السمك فى الماء فان هذا صريح فى أن النجوم هى التى تتحرك بنفسها وان حركتها سباحة فى أفلاكها ومداراتها كسباحة السمك فى الماء مما يقتضى أن الفلك جسم يمكن فيه السباحة كالماء فهو اما جسم غازى أو هوائى أو سائل وعلى كل حال هو شفاف لا يحجب ما فوقه ولا ما تحته وكقول الحسن رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى (والقمر اذا تلاها) أن القمر يتبع الشمس لانه يستفيد نوره من ضوئها فان ما قاله ابن عباس يوافق ما قاله أهل الهيئة اليوم من أن الذى يدور هو الكواكب أنفسها فى مداراتها على خلاف ما قاله علماء الهيئة القديمة من ان الدائر هى الافلاك وأن الكواكب فى تداوير تخصها فى ثخن الفلك تدور تبعا لدوران أفلاكها وما قاله الحسن يوافق ما اتفق عليه الفريقان من ان نور القمر مستفاد من نور الشمس * اذا تتبعنا كل ما ذكر فوجدناه كما وصفنا على ما سيأتى تفصيله فهل يجوز لاحد فيه أدنى ذرة من عقل ان يترك ما أطبق عليه البرهان العقلى والنقلى لمجرد أن غيرنا قال به او هل يجوز

ان نعول على ظواهر الآيات والاحاديث ونترك ما قامت عليه الادلة القطعية لا شك أن العقل والنقل يقتضيان ان الواجب تأويل تلك الظواهر بما يوافق ما قامت عليه البراهين القطعية هندسية كانت أو حسابية فى الهيئة الجديدة وحملها على خلاف ما تقتضيه ظواهرها مما تقبله كلمات الآيات والاحاديث وتحتمله عباراتها مع اعتقادنا الجازم بان جميع ما جاء فى كتاب الله العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجميع ما صح من مقال رسوله الكريم الذى لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى حق وصدق لا ريب فيه ولا مرية * على ان القاعدة العامة التى قررها علماء الاسلام قاطبة ان الواجب عقلا وشرعا تأويل الدليل النقلى مهما كانت درجته اذا عارضه الدليل العقلى القطعى ورد النقلى الى ما يوافق القطعى العقلى وذلك لان دلالة الادلة النقلية على مدلولاتها دلالة وضعية بوضع الواضع وجعله ولا علاقة عقلا فيها بين المدلول والدليل فيجوز فيها تخلف المدلول عن الدليل بخلاف دلالة الدليل العقلى على مدلوله فانها دلالة عقلية مبنية على علاقة عقلية وتلازم عقلى لا يتخلف فيها المدلول عن الدليل أصلا * هذا الذى ذكرناه هو ما قرره العلماء قاطبة فى كتبهم أصولا وفروعا وبنوا عليه تفاريعهم فليكن على ذكر منك دائما فيما سيتلى عليك مما سنفصله * وقد حان الشروع فى المقصود فنقول وبالله أزمة التوفيق والتحقيق وفقنا الله للصواب

فان قلت ماذا نقول فيما قاله علماء الهيئة من ان الارض كرة فهل مثل هذا القول يصادم شيئا من الآيات القرآنية

قلت قد حقق أساطين العلماء المحققين ورؤساء الدين المدققين المقتدى بهم علما وعملا المطلعين على نصوص الشريعة مفردات وجملا كالزمخشرى والقاضى البيضاوى والامام الرازى وغيرهم ان القول بكروية الارض لا يصادم شيئا من أصول الشريعة السمحة فمن ذلك ما قاله الامام فخر الدين الرازى فى تفسير قوله تعالى (وهو الذى مد الأرض الآية) ونصه قال قوم كانت الارض مدورة فمدها ودحاها من مكة من تحت البيت فذهبت كذا وكذا وقال أخرون كانت مجتمعة عند البيت المقدس فقال لها اذهبى كذا وكذا وهذا القول انما يتم اذا قلنا الأرض مسطحة لا كرة وأصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) وهذا القول مشكل من وجهين * الاول انه ثبت بالدلائل أن الارض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه فان قالوا وقوله مد الارض ينافى كونها كرة فكيف يمكن مدها قلنا لا نسلم لان الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت فى غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل الا فى علم الله الا ترى انه قال والجبال أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك هاهنا * والثانى أن هذه الآية انما ذكرت ليستدل بها على وجود الصانع والشرط أن يكون ذلك أمرا مشاهدا معلوما حتى يصح الاستدلال به فثبت أن التأويل الحق ما ذكر انتهى ومراده والله أعلم أن المشاهد المعلوم هو أن الارض كرة وان ليس معنى المد البسط بمعنى انها سطح بل معنى قوله مد الارض ومعنى قوله والارض وما طحاها وقوله والارض بعد ذلك دحاها هو البسط الذى بينه فى قوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها بقوله أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم . فان قوله أخرج الى آخره وقع بيانا لقوله دحاها فكان معنى المد والدحو والطحو هو البسط بمعنى اخراج الماء والمرعى وارساء الجبال لاجل متاعنا ومتاع أنعامنا كما أن معنى قوله تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها انه تعالى يخاطب عباده مستفهما استفهاما انكاريا أى اجيبونى عن هذا الاستفهام الذى وضح لديكم جوابه ولا تستطيعون انكاره من أن السماء أشد منكم خلقا لانه خلقها وجعل مقدار ارتفاعها وذهابها سمت العلو وجهته مديدا

رفيعا جدا فسواها أى تممها بما يتم به كمالها والانتفاع بها فى مصالح العباد من خلق الشمس والقمر وسائر الكواكب فيها وبذلك أغطش ليلها اى جعله مظلما وأخرج ضحاها أى نهارها فعطف على قوله فسواها قوله وأغطش ليلها وأخرج ضحاها أى اوجد ليلها ونهارها ووجود الليل والنهار انما يكون بوجود الارض والقمر والشمس وسائر نظامها حتى يكون النهار عبارة عن شروق الشمس على وجه الارض والليل عبارة عن ظلها تحت ذلك الوجه الذى اشرقت عليه الشمس * وبخلق الشمس التى تشرق نهارا وتغيب ليلا فى بقاع الارض على الوجه الذى اراده الله تعالى وخلق القمر وسائر الكواكب يتصاعد بمطارح شعاعاتها الابخرة والادخنة من البرارى والبحار فتنعقد سحابا تسوقه الرياح الى حيث شاء الله تعالى فينزل مطرا وماء عذبا فيسلكه الله ينابيع فى الارض وتتكون منه فى الارض الانهار والعيون وتحيا به الارض بعد موتها وقد دحا الله الارض بعد خلق تلك الكواكب أى اخرج ماءها ومرعاها والجبال ارساها فكان البيت لا يقوم ولا يتم نفعه الا بالاوتاد التى تشده كذلك دحو الارض واخراج مائها ومرعاها لا يتم الا بالجبال التى ارساها وجعلها ثابتة شامخة فوق الارض فكانت الجبال فى الارض كاوتاد البيت التى تشده ويكمل بها نفعه ويتم نظامه سبحان الحكيم واسع الفضل والجود المنعم على خلقه * وسيأتى فيما بعد ما تزداد به علما فى هذا الموضوع * وقال الامام الرازى أيضا فى تفسير قوله تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الآية) ما نصه وقد عرفت ان امتداد الارض فيما بين المشرق والمغرب يسمى طولا وامتدادها بين الشمال والجنوب يسمى عرضا فنقول طول الارض اما ان يكون مستقيما أو مقعرا أو محدبا وأثبت الاخير وأبطل الاولين وكذلك صنع فى عرضها بعبارة فيها طول * ثم قال الحجة الثانية ظل الارض مستدير فوجب كون الارض مستديرة بيان الاول ان انخساف القمر ظل الارض لانه لا معنى لانخسافه الا زوال النور عن جوهره عند توسط الارض بينه وبين الشمس ثم نقول وانخساف القمر مستدير لانا نحس بالمقدار المنخسف منه مستديرا واذا ثبت ذلك وجب ان تكون الارض مستديرة لان امتداد الظل يكون على شكل الفصل المشترك بين القطعة المستضيئة باشراق الشمس عليها وبين القطعة المظلمة منها واذا كان الظل مستديرا وجب ان يكون ذلك الفصل المشترك الذى شكل كل الظل مثل شكله مستديرا فثبت ان الارض مستديرة * ثم ان هذا الكلام غير مختص بجانب واحد من جوانب الارض لان المناظر الموجبة للخسوف تحقق فى جميع أجزاء فلك البروج مع ان شكل الخسوف ابدا على الاستدارة فاذا الارض مستديرة الشكل من كل الجوانب واحتج من قدح فى كروية الارض بامرين * احدهما ان الارض لو كانت كرة لكان مركزها منطبقا على مركز العالم ولو كان ذلك لكان الماء محيطا بها من كل الجوانب لان طبيعة الماء تقتضى طلب المركز فيلزم كون الماء محيطا بكل الارض * والثانى ما يشاهد فى الارض من التلال والجبال العظيمة والاغوار المقعرة جدا * اجابوا عن الاول بأن العناية الالهية اقتضت اخراج جانب من الارض من الماء بمنزلة جزيرة فى البحر لتكون مستقر الحيوانات وايضا لا يبعد سيلان الماء من بعض جوانب الارض الى المواضع الغائرة منها وحينئذ يخرج بعض جوانب الارض * وعن الثانى بان هذه التضاريس لا تخرج الارض عن كونها كرة قالوا لو اتخذنا كرة من خشب قطرها ذراع مثلا ثم اثبتنا فيها اشياء بمنزلة جاروسات او شعيرات وقورت فيها كامثالها فانها لا تخرجها عن الكروية ونسبة الجبال والغيران الى الارض دون نسبة تلك النشآت الى الكرة الصغيرة انتهى وبالجملة فكون الارض كرة اصبح الآن ثابتا ثبوتا واضحا لا يرتاب فيه الا مكابر يكابر حسه وينكر نفسه لان اختلاف الليل والنهار وحركة الشمس والقمر وسائر الكواكب التى نراها باعيننا من المشرق والمغرب وانه ما من لحظة تمر الا وهى شروق لتلك الاجرام عند قوم غروب عند آخرين وغير ذلك من سائر الاوقات التى تختلف باختلاف المشارق والمغارب لا يكون على الوجه الذى نشاهد

الا اذا كانت الارض كرة غاية الامر انها ليست كرة تامة الكروية بل هى منتفخة عند خط الاستواء مفرطحة عند القطبين الشمالى والجنوبى على ما يأتى بيانه على اكمل وجه ان شاء الله تعالى

فان قلت ماذا نقول فيما نراه من القبة الزرقاء هل هى السماء واذا لم تكن هى السماء فما هو معنى لفظ السماء الذى ورد فى القرآن كقوله تعالى (ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات) وقوله تعالى (ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا الآية) وهل معناه فى مثل هاتين الآيتين يوافق ما عليه أهل الهيئة الجديدة

قلت قال الألوسى فى تفسير قوله تعالى (ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات) أى علا اليها وارتفع من غير كيف ولا تمثيل ولا تحديد قاله الربيع أو قصد اليها بارادته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من قولهم استوى اليه كالسهم المرسل اذا قصده قصدا مستويا من غير ان يلوى على شىء قاله الفراء ثم قال والمراد بالسماء الاجرام العلوية أو جهة العلو انتهى لكن قوله تعالى فسواهن سبع سموات يقتضى ان المراد من السماء الاجرام العلوية لان الضمير فى قوله فسواهن سبع سموات يعود الى السماء فى قوله ثم استوى الى السماء لان معنى قوله فسواهن خلقهن سبع سموات وذلك انما يلائم الاجرام العلوية لانها هى التى يمكن ان تخلق كذلك واما جهة العلو فلا تلائم ذلك الا بتأويل لا حاجة اليه وحينئذ يكون السموات فى قوله ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا الآية بمعنى الاجرام ومداراتها واما هذا المرئى الذى نسميه سماء أو فلكا فهو فضاء واسع وزرقته من اكتناف الاشعة الشمسية للاجزاء الارضية واشباه ذلك وليست هى السماء المرادة فى تلك الآيات وامثالها وان ما قاله المفسرون فى ذلك يوافق ما قاله علماء الهيئة الجديدة من تأويل ما ورد فى ذلك من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وحملها على ما يوافق ما ذهبوا اليه فقالوا ان السموات فى نحو قوله تعالى (الم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا) عبارة عن دوائر الشموس بما فيها من الكواكب وذلك انهم سموا كل كوكب ثابت شمسا وقالوا ان لكل واحدة من هذه الشموس دائرة وعدة متعلقات كثيرة تدور حولها من السيارة والملتزمات وذوات الذوائب وكل واحد من هذه المتعلقات عالم مثل كرة ارضنا ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة ولها دائرة مخصوصة بها وعدة متعلقات تدور حولها من السيارات والملتزمات ومن جملة السيارات الدائرة حولها هذه الارض التى نحن عليها والقمر ملتزم لها ويدور عليها ومعها على الشمس وفوق ذلك صفوف دوائر شمسية متكاثرة بعضها فوق بعض الى حيث لا يحيط به النظر ولا تدركه الفكر وما يعلم جنود ربك الا هو فالسموات عندهم عبارة عن هذه الدوائر بما فيها من الكواكب الكثيرة وقالوا فى طباق السموات وكونها سبعا ان الكواكب الثابتة سبع طبقات فما كان منها يرى فى غاية الظهور والاضاءة فهو الطبقة الاولى ويقال لها المرتبة الاولى والقدر الاول وما كان أبعد منها غير كثير وأقل فى الظهور والاضاءة بمقدار يسير فهو الطبقة الثانية وهكذا الى الطبقة السادسة كل طبقة ترى كواكبها أبعد من التى قبلها وأقل منها ظهورا واستنارة والطبقة السابعة هى التى لا ترى كواكبها الا بالمنظرة المعظمة فهذه الطبقات عندهم هى طبقات السموات * وقوله تعالى وزينا السماء الدنيا بمصابيح الآية قالوا السماء الدنيا عبارة عن الدوائر الشمسية التى نحن فيها المزينة بما فيها من السيارة وسيارة السيارة وذوات الاذناب وغيرها من متعلقاتها الى نحو ذلك من التأويلات * وفى كتاب أسرار الملكوت وشرحه المرسوم بافكار الجبروت طرف من تأويلاتهم وآرائهم ودلائلهم والاعتراضات التى وردت على مذهبهم وما أجابوا به عنها والشرح المذكور مطبوع فى القسطنطينية دار السلطنة السنية وهو باللغة التركية ومتنه باللغة العربية فليطلع عليه من أراد كذا قاله العلامة المرحوم عبد الله باشا فكرى فى رسالته المطبوعة ضمن فوائده الفكرية * وأقول لعله تبع فى حمله طباق السموات السبع على دوائر الشموس بما فيها الكواكب الى آخر ما ذكره فى ذلك ما قاله فى أسرار الملكوت وشرحه أفكار الجبروت والواقع ان علماء الهيئة

اليوم وان كانوا سموا كل كوكب ثابت شمسا وان لكل واحدة من هذه الشموس دوائر وعدة متعلقات وكل واحد من هذه المتعلقات عالم مثل كرة أرضنا الى آخر ماقاله لكنهم لم يحملوا طبقات السموات السبع على ذلك بل ان طبقات السموات السبع هى طبقات النظام الشمسى التى هى طبقات الكواكب السيارة المعروفة قديما وحديثا وان هذه الشمس المشهورة هى التى تشرق على عالم أرضنا وعلى سائر الكواكب التى تدور حولها وان الشمس هذه هى مركز هذا العالم وان الارض وباقى الاجرام السيارة تدور حولها فاولا عطارد ثم الزهرة ثم الارض ويتبعها القمر ويدور حولها ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل فالسماء الدنيا هى التى فيها القمر وهى الطبقة الدنيا ثم فوقها السماء الثانية وهى التى فيها الزهرة وهى طبقة ثانية ثم السماء الثالثة وهى التى فيها عطارد وهى طبقة ثالثة ثم السماء الرابعة التى فيها الشمس على ماهو المشهور وهى الطبقة الرابعة ثم السماء الخامسة وهى التى فيها المريخ وهى طبقة خامسة ثم السماء السادسة وهى التى فيها المشترى وهى طبقة سادسة ثم السماء السابعة وهى التى فيها زحل وهى طبقة سابعة * ثم الآن اكتشفوا طبقتين أخريين فالطبقة الثامنة هى التى فيها اورانوس والتاسعة هى التى فيها نبتون وهذا هو الملائم للآيات القرآنية والاحاديث النبوية لان الغرض من الآيات والاحاديث الاستدلال بالسموات وطباقها السبع وهذه الطباق السبع هى التى كانت معلومة ومشاهدة بالآلات الرصدية وبالابصار فى زمان العرب الى الآن ولا يصح الاستدلال الا بما هو معلوم ومحقق عند المخاطبين واستكشاف شموس أخرى هى الثوابت انما كان حديثا بعد حدوث النظارة المعظمة جدا وماكان يرى بالبصر من الثوابت الا بعض يسير منها وهذه الكواكب الثوابت هى التى قسموها الى مراتب باعتبار ظهورها واضاءتها وشمسنا ونظامها ليس منها ولا من طبقاتها أصلا كما ان الذى اكتشف انما هو أن تلك الكواكب الثابتة شموس وان منها ماهو أكبر من شمسنا أضعافا مضاعفة وأن من ضروريات وجودها ان يكون لكل واحدة منها نظام كنظام شمسنا وعالم مثل عالم أرضنا والا كان خلق تلك الشموس عبثا اذا لم يكن نظام كنظام شمسنا وعالم كعالم أرضنا بل وعالم نظامنا ان قلنا ان بعض كواكب نظام شمسنا مسكون بعوالم * ولكن هذا كله لم يتحقق منه الا مجرد استكشاف شموس بكثرة متفاوتة قربا وبعدا وماعدا ذلك من نظام كل شمس منها فلغاية الآن لم يستكشف لشدة بعده عنا وعدم وجود نظارات معظمة الآن يمكن ان تكون واسطة فى الاستكشاف * ولكون نظام كل شمس منها أجراما مظلمة كنظام شمسنا * والحاصل ان علماء الهيئة رصدوا النجوم الثوابت مثل مارصدوا الشمس والقمر وسائر السيارات التابعة لهذه الشمس من قديم الزمان ولكنهم فى الاعصر الغابرة لم يعرفوا منها الا القليل جدا بسبب قصر وسائط الرصد وبعد النجوم * وفى الاعصر الاخيرة قد اكتشف كثير منها وقامت الدلائل الواضحة على كون تلك الثوابت شموسا وان بعضها أكبر من شمسنا أضعافا وان علماء الهيئة اليوم رصدوا تلك النجوم بالآلات الرصدية التى اخترعوها فوجدوها من أول وهلة متفاوتة نورا فبعضها أنور من بعض وبناء على التفاوت فى نورها قد قسموا أقدارها على حسب شدة نورها فالانور جعلوه من القدر الاول والذى يليه فى ذلك من القدر الثانى وهلم جرا الى القدر السادس عشر التى لا ترى الا باقوى النظارات وقالوا ان أضعف النجوم التى تراها العين المجردة فى ليلة صافية هى من القدر السادس وربما ترى العين الحادة القدر السابع وان النجوم الظاهرة للعين المجردة دفعة واحدة وهى التى تكون فوق الافق فى وقت مفروض ليلا القدر الاول والسادس هى ثلاثة آلاف نجم تقريبا وقد استكشفوا أيضا ان المجرة وهى التى يسميها العامة الطريق التبانى كلها مؤلفة من شموس متقاربة بحسب ما يظهر لنا من شدة البعد وقد حسبوا القدر الذى اكتشفوه وظهر لهم بواسطة النظارات القوية فوجدوه قد بلغ مقدار ثمان عشرة ألف شمس فى المجرة وحدها ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ويخلق مالا تعلمون وكان الله على كل شىء مقتدرا كما أنهم قالوا ربما يخطر بالبال ان

ذلك التفاوت يعلل بكون الانور أقرب الينا أو بكون الاول أعظم جرما ولكن الذى صح فى ذلك ان بعض النجوم الضعيفة النور هى أقرب الينا من البعض الانور منه فيؤثر فى منظرها البعد والقدر معا فكيف يمكن ان يحمل طبقات السموات السبع بعد الذى سمعت على ماقاله العلامة الباشا رحمه الله تعالى ومن ذلك تعلم أيضا عدم صحة ماقاله فى قوله تعالى وزينا السماء الدنيا بمصابيح الآية من ان السماء الدنيا عبارة عن الدائرة الشمسية التى نحن فيها الى آخره لانه مبنى على ماقدمه من ان الدوائر الشمسية التى نحن فيها وهى المزينة بما فيها من السيارات الى آخره هى السماء الاولى وأحدى السموات السبع وقد علمت بطلانه عند علماء الهيئة اليوم فالكل جواب عنهم بما لا يرضونه ولا يقولون به وهم فى غنى عن مثل هذه التكلفات كما سيأتى كل ذلك مفصلا فلا تعجل

فان قلت يخطر على بالنا ان مازعمه أهل الهيئة من ان هذا الذى نراه أزرق ونسميه نحن سماء ليس سماء بل هو فضاء واسع مملوء بالاثير أو الهواء قول مخالف لما يعلمه الخاص والعام من ان السماء هى القبة الزرقاء كما ورد ذلك كثيرا فى أشعار العرب واذا لم تكن هذه القبة هى السماء فما هى السماء وهل هى أمور اعتبارية أو هى أجسام موجودة مخلوقة

فالجواب انا قدمنا لك حقيقة القبة الزرقاء التى نراها وانها فضاء ممتلئ بالهواء الأثيرى وهو فضاء واسع محيط بكرة الارض ويسمى سماء فى اللغة لان السماء بحسب اللغة هى كل ماعلاك فالسحاب يسمى سماء لذلك فهذا الفضاء يسمى سماء بهذا الاعتبار وليس كلامنا فى بيان كل مايسمى سماء فى لغة العرب ويذكر فى اشعارهم وقد أطلق لفظ السماء فى القرآن أيضا على السحاب باعتبار أنه سماء لغة ولكن كلامنا فى السماء المخصوصة التى استدل الله بخلقها وبنائها على وجوده وكمال قدرته وجعلها سبعا طباقا وسبعا شدادا وزينها بالمصابيح والكواكب وحفظها من كل شيطان مارد وهذا الفضاء الواسع الازرق الممتلئ بالهواء وان كان مخلوقا وموجودا وليس امرا اعتباريا وان زرقته ليست لونا اصليا له بل هى فيما يراه الناظر لاكتناف الاشعة الشمسية للاجزاء الارضية واشباه ذلك كما ترى الماء الصافى المتراكم ازرق وهو ليس بازرق وترى السراب ازرق وليس هنالك شىء منه وانما الزرقة من تراكم طبقات الهواء ولما ذكرناه فى القبة الزرقاء ولكنه ليس مرادا من الآيات التى قدمناها وامثالها بل المراد كما قلنا لك ان السماء فيها هى الكواكب السيارة ومداراتها وليست الكواكب ومداراتها امورا اعتبارية صادقة او كاذبة بل حقائق موجودة فى الخارج بايجاد الله تعالى مخلوقة بخلقه بالغة فى العظم مبلغا عظيما جدا فان نسبة الارض مع عظمها الى السماء الدنيا كحلقة ملقاة فى فلاة ونسبة السماء الدنيا الى السماء الثانية كحلقة ملقاة فى فلاة وهكذا نسبة كل سماء الى التى فوقها فاهل الهيئة الآن يقولون بوجود السموات ولا ينفونه وانما الذى ينفونه ويقولون ببطلانه هو ماقاله أصحاب الهيئة القديمة من ان السموات اجسام متراكبة متماسة متلاصقة طبقاتها كطبقات البصلة مثلا وانها هى الدائرة والمتحركة وان للكواكب تداويرفى اجرامها تدور فيها وان كل كوكب وتدويره يدوران تبعا للفلك الذى هو فيه والسماء التى هو فيها وان تلك السموات التى هى الافلاك لا تقبل الخرق والالتئام الى غير ذلك مما قاله هولاء الفلاسفة قديما وحديثا فان اهل الهيئة اليوم ينكرون ذلك كله ولا يقولون بشىء منه بل يقولون ان الكواكب هى التى تدور بانفسها فى مداراتها وتسبح فيها كما يسبح السمك فى الماء وكما يدور ويحلق الطير فى الهواء ولا شك ان ماقاله اولئك الفلاسفة الاولون شىء لم يرد به الكتاب ولا السنة ولم يقم عليه دليل عقلى بل فى الاحاديث الصحيحة على ماياتى ماينافى ماقالوه فقد جاءت بما يفيد بعد سماء الدنيا عن الارض بمقدار خمسمائة عام وبعد سماء الدنيا عن التى فوقها كذلك وكذا سائر السموات ومافوقها وثبت بالاخبار الصحيحة أيضا معراج النبى صلى الله عليه وسلم وصعوده السموات سماء بعد سماء الى أن بلغ مستوى سمع فيه صريرالاقلام وزج فى حجب الانوار فهذه الاحاديث تصادم ماقاله الاولون والعقل أيضا يصادمهم لانه يترتب على ماقالوه انكار المعراج

وغير ذلك من المفاسد ولا يترتب شيء من ذلك على ماقاله علماء الهيئة اليوم لانهم يقولون ان الافلاك التي هي مدارات الكواكب تقبل الخرق والالتئام وهي أجسام شفافة يمكن دوران النجوم وسباحتها فيها كالهواء ينفذ فيه سائر الأجسام وانها طبقات بعضها فوق بعض وبين كل طبقة وطبقة بعد شاسع وهذا يوافق تمام الموافقة قوله تعالى (كل فى فلك يسبحون) كما تقدم ويوافق ماجاء فى الاحاديث الصحيحة التي قدمناها وستأتي أيضا

فان قلت مامعنى قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها)

قلنا قال الالوسي فى تفسيره وقاله غيره فى غيره ايضا ان قوله تعالى بناها الى آخره بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله أأنتم أشد خلقا أم السماء وقوله رفع سمكها بيان للبناء اى جعل مقدار ارتفاعها عن الارض وذهابها الى سمت العلو مديدا رفيعا وقد جاء فى الاخبار الصحيحة ان ارتفاع السماء الدنيا عن الارض خمسمائة عام وارتفاع كل سماء عن سماء تحتها وثخن كل كذلك وقوله فسواها اى جعلها سواء فيما تقتضيه الحكمة فيها ومن ذلك تزيينها بالكواكب وقيل تسويتها جعلها ملساء ليس فى سطحها انخفاض وارتفاع وقيل جعلها بسيطة متشابهة الاجزاء والشكل فليس بعضها اسطحا وبعضها زاوية وبعضها خطا وهو قول بكريتها الحقيقية واليه ذهب كثير قالوا وحكاه الامام الثابت انها محدثة مفتقرة الى فاعل مختار فاى ضرر فى الدين ينشأ عن كونها كرية وقيل تسويتها تتميمها بمايتم به كمالها من الكواكب والمتممات والتداوير وغيرها مما بين فى علم الهيئة من قولهم سوى امره اى اصلحه أو من قولهم استوت الفاكهة اذا انضجت وانت تعلم ان هذا مع بنائه على اتحاد السموات والافلاك غير مقبول فى الصدر الاول من المسلمين لعدم وروده عن صاحب المعراج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم ظهور دليل عليه والادلة التي يذكرها اهل الهيئة لتلك الامور لا يخفى حالها ولذا لم يقل بماتقتضيها مخالفوهم من أهل الهيئة اليوم والله أعلم بحقيقة الحال اه وأقول اما ماقاله فى رفع سمك السموات فنقول ان امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه الى أسفله سمي عمقا وإذا أخذ من أسفله الى أعلاه سمي سمكا فالمراد برفع سمكها شدة علوها بأن أخذ امتدادها من جهة الارض وجعل ارتفاعها عن الارض وذهابها الى سمت العلو مديدا فيما فكر فريق أن البعد بيننا وبينها مجهول وظن فريق أن أقرب السموات الينا يكون بعده عنا أقله مائة الف مرة قدر بعد الشمس عنا ولكن علماء الهيئة بينوا مقادير الاجرام السماوية وأبعاد مابين كل واحد منها وبين الارض فقالوا إن عطارد يبعد عن الشمس بمقدار ثلاثة عشر مليونا وواحد وستين الفا من الفراسخ كل فرسخ ثلاثة أميال والزهرة تبعد عن الشمس بمقدار خمسة وعشرين مليونا والارض تبعد عن الشمس بمقدار أربعة وثلاثين مليونا وخمسمائة الف من الفراسخ والمريخ يبعد عن الشمس بمقدار ثلاثة وخمسين مليونا من الفراسخ والمشتري يبعد عن الشمس بمقدار مائة وثمانين مليونا من الفراسخ وزحل يبعد عن الشمس بمقدار ثلاثمائة وتسعة وعشرين مليونا من الفراسخ والبعد الابعد للقمر بالنسبة للارض واحد وتسعون الفا وأربعمائة وخمسون فرسخا وبعده الاقرب ثمانون الفا ومائة وخمسة عشر فرسخا فيكون البعد الاوسط نحو ستة وثمانين الفا من الفراسخ وقالوا إن الشمس أعظم من الارض بألف الف مرة وثلاثمائة وثمانية وعشرين الف مرة كذا قاله فى كشف الاسرار القرآنية وهذا يبطل ماقاله الفلاسفة الاولون من أن الافلاك متلاصقة وان الكواكب فى تداوير فى ثخن الافلاك كما أن هذا يقتضي أن يحمل ماجاء فى الاحاديث من تقدير البعد والثخن فى كل سماء بخمسمائة عام على أن المراد المبالغة فى الارتفاع سمكا وبعدا وان العدد لا مفهوم له كما قالوا نظيره فى جعل السموات سبعا وأما ماقاله فى بيان قوله تعالى فسواها فنقول فيه أن الآية قد اشتملت على جمل متعددة وجعلوا قوله تعالى بناها بيانا لخلقها الذي علم من الجملة قبلها لان مقام الفصل يقتضي

أن الجملة المتأخرة مستقلة عن الاولى فتقع الثانية بيانا وتفسيرا للأولى كانه قيل كيف خلقها فقال بناها ثم قال رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها فلم يعطف قوله رفع سمكها على ماقبلها وعطف عليها قوله فسواها بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب وعطف عليها الجملتين بعدها بالواو التي تفيد مشاركة المعطوف للمعطوف عليه فى حكمه فيقتضي ان كلا من التسوية واغطاش الليل واخراج الضحى مرتب بلا مهلة على رفع السمك وقد قال المفسرون ان معنى أغطش ليلها انه تعالى جعل ليلها مظلما ومعنى قوله واخرج ضحاها انه تعالى ابرز نهارها فان الضحى فى الاصل على مايفهم من كلام الراغب وغيره انبساط الشمس وامتداد النهار ثم سمي به الوقت المعروف وشاع فى ذلك وتجوز به عن النهار بقرينة المقابلة كذا قاله الالوسي فى تفسيره وغيره فى غيره ومن ذلك تعلم ان معنى أغطش الليل جعله مظلما ومعنى أخرج الضحى ابرز النهار فيكون كل من رفع السمك والتسوية واغطاش الليل واخراج النهار بيانا لخلقها فيكون كل ذلك قد تحقق فى وقت واحد مترتبا بلا مهلة ويستوي بعد ذلك أن تفسر تسويتها بأي معنى شئت لان تتميم خلقها بالكواكب ومايتعلق بها يعلم من ذلك فان من المشاهد الثابت بالمعاينة أن الليل عبارة عن غروب الشمس وغيبتها عن وجه الارض الذي كانت مشرقة عليه فى أي بقعة كانت من بقاع الارض وان النهار عبارة عن شروق الشمس على وجه الارض الذي كانت غائبة عنه فى أي بقعة كانت فحينئذ لا يتحقق اغطاش الليل وإخراج النهار الا بالارض والشمس وسائر الكواكب الليلية التي نهتدي بها فى ظلمات البر والبحر فيكون من لوازم إغطاش الليل وإخراج النهار ان يتحقق خلق الشمس والقمر وسائر الكواكب فيها عقب رفع سمكها بلا مهلة وأما الارض فخلقها سابق على خلق السموات وانما الذي تأخر عن خلق السماء ورفع سمكها وتسويتها هو دحوها باخراج مائها ومرعاها وارساء الجبال التي جعل فيها فجاجا سبلا يمر فيها الهواء الذي يسوق السحاب إلى الارض الجرز فيحييها بعد موتها كما قدمنا بعض ذلك وسيأتي تمامه وهذا يوافق تمام الموافقة ماقاله علماء الهيئة قديما وحديثا من أن رأس مخروط ظل الارض يكون الى الدرجة المقابلة لدرجة الشمس فى أي برج كانت وتدور أبدا فى مقابلة الشمس فاذا كانت الشمس فوق الارض فظل الارض تحتها وان كانت تحت الارض فظل الارض فوقها وان كانت الشمس بالمشرق فظل الارض الى ناحية المغرب واذا صارت بالمغرب فظل الارض الى ناحية المشرق وهذا دأب الظل والنور دائما أبدا يكونان حول الارض وهما الليل والنهار وهذا لا يتخلف ولا يتغير ولا يتبدل سواء قلنا ان الارض هي التي تدور حول الشمس وان الشمس هي مركز العالم كما يقول بذلك أهل الهيئة اليوم أو قلنا ان الارض ساكنة لا تدور وانها مركز العالم وان الشمس وسائر الاجرام تدور حولها كما هو رأي أهل الهيئة القديمة وان كان المختار الذي يقرب من الصواب ماقاله علماء الهيئة اليوم * ومما يؤيد ماقلناه فى تفسير هذه الآية ماقاله المفسرون أنفسهم فقد قالوا بعد ان فسروا اغطاش الليل باظلامه واخراج الضحى بابراز النهار انما أضاف الله سبحانه وتعالى الليل والضحى الى السماء لانهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها وهي سماوية أو هما يحصلان بسبب حركتها على القول بحركتها لاتحادها مع الفلك أو هما انما يحصلان بسبب حركة الشمس فى فلكها فيها بناء على القول بان السماء والفلك متغايران أو المتحرك انما هو الكواكب فى الفلك كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى (كل فى فلك يسبحون) وان الفلك ليس الا مجرى الكواكب فى السماء الى آخر ماقالوا من جنس هذه الاقوال * وقد صرحوا بان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقولون ان السماء هي هذه الاجرام العلوية فهي فيما يعرفونه الكواكب ومداراتها فكان أقرب الاقوال الى ماجاء عن السلف ان

الكواكب هى المتحركة انفسها فى السماء وان الافلاك هى مدارات الكواكب فى السماء فدوران الكوكب فى السماء والموضع الذى يدور فيه منها هو مداره وفلكه ومن هذا نعلم ان ما قاله أهل الهيئة اليوم فيما يتعلق بالافلاك وانها مدارات الكواكب وان الدوران فيها والحركة فيها للكواكب وأن السماء ساكنة لاحركة لها أقرب الى ما يعرفه السلف فى ذلك * وعلى كل حال فمذهبهم لا يصادم القرآن فى ذلك وان ماقالوه فى الليل والنهار ثابت بالمشاهدة والمعاينة ومقتضى الآية أيضا حسبما قاله المفسرون أنفسهم على ما هو الحق من ان سببهما هو غروب الشمس وشروقها كما هو مشاهد * واختلاف العلماء فى سبب شروق الشمس وغروبها لايضر نا لانه لايتعلق بشىء من الغرض الذى سيقت له الآية القرآنية والله أعلم بحقيقة الحال

فان قلت ما معنى قوله تعالى (يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل) وهل معنى هذه الآية على ماقاله المفسرون ينطبق على ماقاله علماء الهيئة ولا يصادمه

قلت نعم ينطبق ولا يصادم واليك البيان * قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره واللفظ له الولوج فى الاصل الدخول والايلاج الادخال واستعير لزيادة زمان النهار على الليل وعكسه بحسب اختلاف المطالع والمغارب فى أكثر البلدان وروى ذلك عن ابن عباس والحسن ومجاهد ولا يضر تساوى الليل والنهار دائما عند خط الاستواء لأنه يكفى الزيادة والنقصان فيهما فى الاغلب والظاهر من الليل والنهار ليل التكوير ونهاره وهما المشهوران عند العامة الذين يفهمون ظاهر القول وذلك هو المشهور فى الايام والمحسوس وهما الليل والنهار اللذان قال الله تعالى فيهما (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وأشار بقوله تعالى (يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل) الى حقيقة أخرى هى انه تعالى جعل بين الليل والنهار نكاحا معنويا لما كانت الاشياء تتولد منهما معا وقد أكد هذا المعنى بقوله تعالى فى آية أخرى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) أى يغطى الله سبحانه النهار بالليل ومقتضى ذلك بحسب المعنى الحقيقى ان يوجد الليل مع النهار ولما كان ذلك لايتصور قالوا المعنى انه سبحانه يلبسه مكانه فيصير الجو مظلما بعدما كان مضيئا فيكون التجوز فى الاسناد باسناد ما للمكان الشيء اليه ومكانه هو الجو على معنى انه مكان الضوء الذى هو لازمه لا انه مكان لنفس النهار لان الزمان لامكان له * وجوز أن يكون هناك استعارة بان يجعل غشيان مكان النهار واظلامه بمنزلة غشيانه للنهار نفسه فكانه لف عليه الغشاء أو يشبه تغييبه له بطريانه عليه بستر اللباس للملابسة * وجوز ان يكون المعنى يغطى الله الليل بالنهار ورجح الوجه الاول بان التغطية بمعنى الستر وهى أنسب بالليل من النهار و بأنه يلزم على الثانى ان يكون الليل مفعولا ثانيا والنهار مفعولا أولا وقد ذكر ابوحيان أن المفعولين اذا تعدى اليهما فعل واحد وأحدهما فاعل من حيث المعنى يلزم أن يكون هو الاول منهما عندهم كما لزم ذلك فى ملكت زيدا عمرا ورتبة التقديم هى الموضحة لانه الفاعل معنى كما لزم ذلك فى ضرب موسى عيسى بخلاف أعطيت زيدا درهما فان تعين المفعول الاول لايتوقف على التقديم * ورجح الثانى بان حميد بن قيس قرأ يغشى الليل النهار بفتح ياء المضارع ونصب الليل ورفع النهار ويلزم عليها أن يكون الطالب النهار والليل ملحق به وتوافق القراءتين أولى من تخالفهما وبأن قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) يعلم منه على ما قاله المرزوقى أن الليل قبل النهار لان المسلوخ منه يكون قبل المسلوخ فالنهار بالادراك أولى وبان قوله سبحانه (يطلبه حثيثا) أى محمولا على السرعة ففعيل بمعنى مفعول أوفق بهذا الوجه وحديث ان التغشية أنسب بالليل قيل مسلم لو كان المراد بالتغشية حقيقتها لكن ليس المراد ذلك بل المراد اللحوق والادراك وهذا أنسب بالنهار * والقاعدة المذكورة لا تخلو عن كلام على انه لايبعد على ما تقرر ان يكون الكلام من قبيل أعطيت زيدا درهما هذا ما قاله الالوسى فى تفسيره مع تغيير قليل * وقاله غيره فى غيره بمعناه ثم قالوا أيضا وذكر

الله احد الامرين ولم يذكرهما معا أى فى قوله يغشى الليل النهار كما ذكرهما فى قوله تعالى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) للعلم بالآخر من المذكور لانه يشير اليه أولان اللفظ يحتمله على ما قيل اهـ ومن هذا الذى قالوه ولم يختلفوا فيه يعلم أن الغشيان من الجانبين فكما أن الليل يغشى النهار كذلك النهار يغشى الليل فكل منهما يغشى الآخر ويطلبه حثيثا وكما أن الله تعالى أولج كلا من الليل والنهار فى الآخر كذلك جعل كلا منهما يغشى الآخر ويطلبه حثيثا فكل منهما يصلح أن يكون فاعلا ومفعولا باعتبارين فلا وجه لترجيح أحد الوجهين على الآخر ولذلك كانت هذه الآية مؤكدة لقوله تعالى يولج الليل فى النهار الآية ولذلك قال بعض المحققين أيضا كما نقله الالوسى أن الليل والنهار بمعنى كل ليل وكل نهار وهو بتعاقب الامثال مستمر الاستبدال فيدل على تغيير كل منهما بالآخر باخصر عبارة من غير تكلف ولا مخالفة لما اشتهر من قواعد العربية وانما وصف الطالب منهما بكون طلبه حثيثا لان تعاقب الليل والنهار على ماقاله الامام وغيره انما يحصل بحركة الفلك الاعظم وهى أشد الحركات سرعة فان الانسان إذا كان فى أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك ثلاثة آلاف ميل وهى ألف فرسخ واعترض هذا بان الفلك الاعظم ان كان هو العرش كما قالوا فحركته غير مسلمة عند جمهور المحدثين بل هم لايسلمون حركة شىء من سائر الافلاك أيضا وهى الكرسي والسموات السبع بل ادعوا ان النجوم بأيدى ملائكة تسيرها حيث شاء الله تعالى وكيف شاء وأيضا ان أهل الهيئة الجديدة لايسلمون أن الحركة اليومية التى يتعاقب بها الليل والنهار هى حركة الفلك بل ينسبون ذلك الى حركة الارض على محورها وقال الشيخ الاكبر قدس سره انها أى النجوم تجرى فى ثخن الافلاك جرى السمك فى الماء كل فى فلك يسبحون وفسر فيما نقل عنه قوله تعالى يغشى الليل والنهار بجعله غاشيا غشيان الرجل المرأة قال الله سبحانه الغشيان هنا والايلاج فى آية أخرى وهذا هو التناكح المعنوى وجعله ساريا فى جميع الموجودات وقد قدمنا مايوافق هذا فى معنى الايلاج ولهذا قال الالوسى فى تفسيره بعد نقله وان صح هذا فما أصح قولهم الليلة حبلى وما ألطفه وأمر الحث عليه ظاهر لمن ذاق عسيلة النكاح * والحاصل عن هذا الغشيان عند من يقول به هو ما فى هذا العالم من معدن ونبات وحيوان وهى المواليد الثلاث أو من الحوادث مطلقا وأنت تعلم أن لا مؤثر فى الوجود على الحقيقة الا الله تعالى اهـ مع حذف مالا داعى لذكره ومناقشته للامام إنما هى فى نسبة الحركة للفلك الاعظم لا فى نفس الحركة اليومية فان تعاقب الليل والنهار مشاهد محسوس لاينكره أحد وكونه ناشئا عن حركة الشمس من المشرق إلى المغرب معلوم بالضرورة والحس والخلاف فى كون حركة الشمس على هذا الوجه ظاهرية خيالية تابعة لحركة الارض على محورها أو هى حركة قسرية تابعة لحركة الفلك الاعظم لايضرنا فيما هو المقصود من هذه الآيات من ايلاج كل من الليل والنهار فى الآخر وتكوير كل منهما على الآخر وغشيان كل منهما للآخر الناشئ كل ذلك من اختلاف المطالع والمشارق والمغارب على الوجه الذى اتفق عليه جميع علماء الهيئة قديما وحديثا وعلم ذلك للخاص والعام * والحاصل أن الامام الرازى وغيره ممن وافقه يقول تبعا لاهل الهيئة القديمة ان تعاقب الليل والنهار وطلب كل منهما للآخر طلبا حثيثا إنما يحصلان بحركة الفلك الاعظم الذى قالوا انه بدورانه يدور كل ما فى جوفه من أفلاك ومنها فلك الشمس ويقطع الدورة من المشرق الى المغرب مرة فى كل أربع وعشرين ساعة ويتبعه فى هذه الحركة كل ما فى جوفه من الافلاك وقد خالف الامام فى نسبة ماذكر الى حركة الفلك كغيره ممن وافقه من المفسرين جمهور المحدثين الذين لايسلمون حركة الافلاك بل يقولون ان المتحرك هى النجوم أنفسها لكن قولهم انها بأيدى ملائكة الى آخره مما لايكاد يصح كما ذكره الالوسى نفسه فى غير هذا الموضع وسيأتى فى موضعه وخالف أيضا ماقاله الشيخ الأكبر قدس سره الذى هو ظاهر قوله تعالى كل فى فلك يسبحون من ان النجوم تجرى فى ثخن الفلك جريان السمك فى الماء وهذا الذى قاله الشيخ الاكبر هو

المروى عن ابن عباس ترجمان القرآن كما يأتى أيضا فى موضعه * وعلى كل حال فالحق سبحانه لم يذكر فى كتابه استدلالا على ما استدل عليه الا ما هو محسوس مشاهد معلوم للخاص والعام ومتفق عليه بين العقلاء لا يختلف فيه منهم اثنان مما ذكرناه من تعاقب الليل والنهار ونحوه * وأما علة ذلك الامر فلا يتوقف عليه مقصوده فلا يهم بيانه واذا جاز عقلا أن يكون علة تعاقبهما حركة الفلك الاعظم مع مخالفته لما عليه جمهور المحدثين والشيخ الاكبر وظاهر القرآن وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فبالاولى يجوز أن تكون علة التعاقب حركة الارض على محورها كما هو رأى أهل الهيئة اليوم الذين يقولون بان المتحرك هو النجوم وانه لا حركة للافلاك اصلا مع موافقته لجمهور المحدثين والشيخ الاكبر وظاهر القرآن وما روى عن ابن عباس واما قول جمهور المحدثين انها تسير بايدى ملائكة فقد علمت انه لا يكاد يصح وعلى فرض صحته يجب ان يؤول بما يوافق ما هو ثابت بالمعاينة ويكون المراد ان الكواكب تتحرك بواسطة الملائكة الموكلين بتدبيرها ومعنى بايدى الملائكة أى بقدرتهم واقدار الله تعالى لهم على ذلك لان المعروف شرعا ان لله تعالى ملائكة موكلين بحفظ العالم كله وتدبير الخلائق كلهم باذن الله تعالى واهل الهيئة قديما وحديثا وان لم يكونوا جميعا مسلمين يعتقدون بوجود الملائكة وبوظائفهم لكنهم قائلون بالقوى الجاذبية العامة التى تخضع لها جميع الاجرام السماوية كما سبق والمسلمون منهم يقولون ان هذه القوى ليست اعراضا ولا كيفيات راجعة الى أجسام الكواكب بل هى راجعة الى القوى العامة السارية فى جميع العالم علوية وسفلية وهذه القوى نسميها بلسان الطبيعة بالقوى وبلسان الشريعة بالملائكة كما فصله فى أخوان الصفاء

فان قلت ماذا تقول فى قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون) وهل ما جاء فيها لا يصادمه ما قاله علماء الهيئة

قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ما ملخصه أن هذه الآية سيقت لبيان كمال قدرة الله تعالى الباهرة فى الزمان بعد ان بينها فى المكان بقوله تعالى (وآية لهم الارض الميتة احييناها الآية) فالمعنى أن من آياته تعالى انه يسلخ الليل من النهار أى يكشف ويزيل الضوء من مكان الليل وموضع القاء ظله وظلمته وهو الهواء فالنهار عبارة عن الضوء اما على التجوز أو على حذف مضاف وذلك لان النهار والليل عبارتان عن زمان كون الشمس فوق الافق أو تحته ولا معنى لكشف أحدهما عن الآخر الا أزالة الضوء من مكان الليل وهو ظله وظلمته وهو الهواء وبالعكس وأصل السلخ كشط الجلد عن نحو الشاة فاستعير الكشف الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمته وظله والجامع ما يتعقل من ترتب أمر على آخر فانه يترتب ظهور اللحم على كشط الجلد وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل ومن فى قوله منه ابتدائية وهذا التفسير محكى عن الفراء ونحوه تفسير السلخ بالنزع واستعمال الفاء فى قوله فاذا هم مظلمون أى داخلون فى الظلام كما يفيده همزة الافعال عليه ظاهر ووقع فى عبارة الشيخ عبد القاهر والامام السكاكى أن المستعار له فى الآية ظهور النهار من ظلمة الليل والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلده وذلك على ما قاله الطيبى واليمنى مأخوذ من قول الزجاج معنى نسلخ منه النهار نخرج منه النهار اخراجا لا يبقى معه شىء من ضوئه فالظهور فى عبارتهما بمعنى الخروج وهو يتعدى بمن فلا حاجة الى جعلها بمعنى عن وقد جاء الظهور بمعنى الخروج فى قول عمر بن الخطاب لابى عبيدة اظهر بمن معك من المسلمين اليها أى الى الارض وفى حديث عائشة كان صلى الله عليه وسلم يصلى العصر ولم يظهر الفىء بعد من الحجرة اى لم يخرج الى ظاهرها والذى يقتضيه كلام الطيبى واليمنى ان الشيخ السكاكى اراد اخراج النهار من الليل اخراجا لا يبقى معه شئ من ضوئه كما قال الزجاج ومآله ازالة ضوء النهار عن مكان الليل وموضع ظلمته كما قال الفراء على انه قد جاء الظهور بمعنى

الزوال فى قول ابى ذؤيب

وعيرها الواشون أنى أحبها * وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

فلا مانع من ان يكون الظهور فى كلام الشيخين بمعنى الازالة ويراد من الظهور فى كلامهما الاظهار لظهور أن نسلخ متعد فيتحد كلامهما مع كلام الفراء وفى الآية على ما قاله غير واحد دلالة على ان الاصل الظلمة والنور عارض وطارىء عليها يسترها بضوئه وفى الحديث ما يشعر بذلك * روى الترمذى والامام احمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم القى عليهم من نوره فمن اصابه من نوره اهتدى ومن اخطأه ضل) كذا قال بعض المفسرين ولا يخفى ضعفه لان الآية فى انسلاخ النهار من الليل وبالعكس وهما متعاقبان دائما ابدا يخلف كل واحد منهما الآخر فى مكانه وهو الهواء المالىء للجو كما دلت على ذلك الآيات السابقة وذلك التعاقب يحصل من طلوع الشمس وغروبها فاذا طلعت الشمس فى جهة كان النهار فيها والليل فيما يقابلها حاصل بظل الارض وهكذا دائما فلا سبق لاحدهما على الآخر كما يصرح بذلك قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) أى ولا النهار سابق الليل كما قالوه فى تفسير هذه الآية وأمثالها وكما يفيده قوله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا فان معنى كون الليل والنهار خلفة أن كلا منهما يخلف الآخر فى مكانه فما من بقعة من الارض الا ويخلف فيها الليل النهار ويخلف فيها النهار الليل وان كان أحدهما يزيد على الآخر وينقص فى أغلب بقاع الارض وقد يتساويان كما فى خط الاستواء أو اذا انعدم العرض كما عند القطبين فان عند كل منهما يكون الليل ستة أشهر والنهار مثله لانعدام العرض هنالك واما كون الظلمة هى الاصل والنور طارىء فذلك انما هو فى الظلمة والنور بمعنى الوجود والعدم أو بمعنى العلم والجهل فان اصل كل الموجودات العدم وهو ظلمة والوجود حادث وطارىء على العدم يرفعه والوجود نور وفيض الهى والجهل فى كل ما سوى الله تعالى هو الاصل وسابق على العلم والجهل ظلمة والعلم نور والحديث انما جاء فى الظلمة والنور بمعنى الجهل والعلم أى ان الله تعالى خلق الخلق فى جهل ثم ألقى عليهم من علمه أى من أسبابه من السمع والبصر والعقل والآيات التى اودعها فى الارض وفى الانفس والسموات واجرامها فمن اصابه من نوره أى وفقه الله للنظر والتفكر فيما أودعه من الآيات فى الارض والسماء والانفس وسهل عليه طريق الوصول الى الحق اهتدى ومن خذله والعياذ بالله تعالى واخطأ ذلك النور ضل والعياذ بالله تعالى وشتان بين ما ترمى اليه الآية وما يرمى اليه الحديث * والحاصل ان معنى الآية التى نحن بصددها وآية لهم أى علامة لهم وامارة تدل على كمال قدرة الله تعالى وعظم آثارها ذلك الاثر الظاهر فى الزمان المشاهد للخاص والعام وهو أنه تعالى يسلخ النهار من الليل أى يزيل ويكشف ضوء النهار عن مكان الليل كما يسلخ الليل من النهار أى يزيل ويكشف ظلمة الليل عن مكان ضوء النهار ومكانهما على كل حال واحد يتعاقبان عليه وهو الهواء المالىء للجو الا ترى الى ما قالوه فيما تقدم أن الليل والنهار عبارتان عن زمان كون الشمس فوق الافق وتحته أى أن الشمس اذا كانت فوق الافق كان ضوؤها فوقه فيكون النهار فوقه وكان ظل الارض تحته فيكون الليل تحته وبالعكس وهذا دأبهما دائما أبدا حتى يكور الله الشمس وتنكدر الكواكب غاية الامر أنه اقتصر فى الآية على ذكر سلخ النهار من الليل لظهور العلم بالآخر من المشاهدة * وعلى كل حال فما قاله علماء الهيئة جديدة كانت أو قديمة لا يصادم هذه الآية لان الظاهر من لفظ الليل والنهار هما المشهوران المعروفان عند العامة أى عامة الناس وكافتهم الذين يفهمون ظاهر القول وهما انما يحصلان كما قاله المفسرون من كون الشمس فوق الافق وظل الارض تحته فيما يقابله وهذا موافق لما اتفق عليه علماء الهيئة قديما وحديثا وان اختلفوا فى الحركة التى هى علة ذلك التعاقب وطلوع الشمس على الافق تارة وغروبها تارة أخرى فانت ترى أن الله تعالى انما استدل على كمال قدرته وعظيم منته بما هو مشاهد

محسوس معلوم محقق لدى الخاص والعام ولا يختلف ولا يتخلف سواء قلنا ان العلة هى حركة الفلك أوهى حركة الارض وقال العارفون المتحققون بانوار الحقائق الملكوتية المتخلقون باخلاق الربوبية الجامعون بين الحقيقة والشريعة و باطن الامر وظاهره أن الليل والنهار المشهورين عند العامة هما ليل التكوير ونهاره وأن وراء ذلك أيام السلخ المشار اليهما بهذه الآيه وأيام الايلاج المشار اليها بقوله تعالى (يولج الليل فى النهار الآية) والايام الشأنية وهى المشار اليها بقوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) وهذه الايام انما يعقلها العلماء الحكماء الذين وصفناهم وقليل ماهم وهذه الايام أيضا غير يوم المثل وهو عمر الدنيا وهو الذى ضرب به رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل لعمر الدنيا وأنه بعث ولم يبق منه الا كقدر ما بقى من العصر الى الغروب و يوم الرب ويوم المعارج وهو المشار اليه بقوله تعالى (تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة * ويوم القمر ويوم الشمس ويوم زحل ولكل كوكب من السيارات والبروج يوم وقد ذكر كل ذلك فى الفتوحات المكية وهى مأخوذة من طريق الكشف الربانى فمن كان على مشربه فليرجع اليها ليشرب بالكاس الذى شرب به من الشراب الذى شرب منه فيروى من نهر الفيوضات الالهية ريا لا يظمأ بعده بظمأ الجهالة أبدا وهذه الايام لا علاقة لها بعلم الهيئة بل هى أمور غيبية كشفية قاصرة على أهلها

فان قلت ماتقول فى قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) وهل هذه الآية تصادم ماقاله علماء الهيئة

قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ما محصله أن الجرى هو المر السريع واصله لمر الماء ولما يجرى بجريه والمعنى تسير سريعا والمستقر هو الحد المعين الذى تنتهى اليه من فلكها فى آخر السنة شبه بمستقر المسافر اذا قطع سيره من حيث ان فى كل انتهاء الى محل معين وان كان للمسافر قرار دونها وروى هذا عن الكلبى واختاره ابن قتيبة وهو يقتضى أن الشمس متحركة بحركة ذاتية لها وأن الدورة السنوية تنشأ عن هذه الحركة فبتمام الدورة تتكون السنة وهذا يوافق مذهب أهل الهيئة القديمة القائلين بسكون الارض وحركة الشمس لكن الآية غاية ماتقتضى أن الشمس تجرى وتتحرك وتسير سيرا سريعا لمستقر لها ولكن كون المستقر هو الحد المعين الذى تنتهى اليه من فلكها فى آخر السنة وان هذه الحركة ذاتية للشمس كما يقول هذا الفريق فالآية ليست نصا ولا ظاهرة فيه بل انه يمكن ان تحمل حركة الشمس المذكورة على حركتها الظاهرية التابعة لحركة الارض حول الشمس التى هى العلة فى تكوين السنة أو على حركتها الظاهرية التابعة لحركة الارض على محورها التى هى العلة فى تكوين الدورة اليومية لكانت الآية أيضا موافقة لما يقوله علماء الهيئة اليوم * وقال فريق آخر الحد المعين هو المنتهى لها من المشارق اليومية والمغارب لانها تتقصاها مشرقا مشرقا ومغربا مغربا حتى تبلغ اقصاها ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لانها لا تعدوه وروى ذلك عن الحسن وهذا القول يخالف القول الاول باعتبار أن القول الاول مبنى على أن المستقر مأخوذ من استقرار المسافر تشبيها لانتهاء الدورة بانتهاء المسافر من سفره وأن القول الثانى مبنى على أن الاستقرار بمعناه عدم التجاوز فى البداية والنهاية لان جريها وسيرها قد اعتبر فيه مقنطرات الارتفاع وبلوغها أقصاها ومقنطرات الانخفاض وبلوغها أقصاها فالاستقرار حينئذ يكون بمعنى عدم التجاوز عن الاول فى استقصاء المشارق وعن الثانى فى استقصاء المغارب وقال فريق الحد الذى تنتهى اليه ماتراه عيوننا كل يوم بعد شروقها وهو المغرب * وقال فريق هو كبد السماء ودائرة وسط النهار * وقال فريق المراد استقرارها ومكثها فى كل برج من البروج الاثنى عشر على نهج مخصوص فالمستقر مصدر ميمى بمعنى مكان الاستقرار * وقال قتادة ومقاتل المعنى تجرى الى وقت لها لا تتعداه قال الواحدى وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وهذا اختيار الزجاج كما قاله النووى فى شرح مسلم

ومستقر عليه اسم زمان وفى غير واحد من الصحاح عن ابى ذر قال كنت مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المسجد عند غروب الشمس فقال ياأباذر أتدرى أين تذهب هذه الشمس قلت الله ورسوله أعلم قال تذهب لتسجد فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها وفى رواية اتدرون أين تذهب الشمس قالوا الله ورسوله أعلم قال ان هذه تجرى حتى تنتهى الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة الحديث وفى ذلك عدة روايات واخرج احمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أبى ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) قال مستقرها تحت العرش فالمستقر اسم مكان على هذا وأقول قال الالوسى فى تفسيره أيضا وغيره فى غيره فى تفسير قوله تعالى (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى) ان المعنى والله أعلم ذللهما وجعلهما طائعين لما اريد منهما كل منهما يسير فى المنازل والدرجات لاجل مسمى أى وقت معين فان الشمس تقطع الفلك فى سنة والقمر فى شهر لا يختلف جرى كل منهما كما فى قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها * والقمر قدرناه منازل) وهو المروى عن ابن عباس وقيل اى يجرى كل لغاية مضروبة فينقطع دونها سيره وهى اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت وهذا مراد مجاهد من تفسير الاجل المسمى بالدنيا ثم قال تعالى يدبر الامر يفصل الآيات فما الوافى تفسير ذلك أى يدبر أمر العالم العلوى والسفلى والمراد انه سبحانه يقضى ويقدر ويتصرف فى ذلك على أكمل الوجوه * وتفصيل الآيات انزالها وبيانها مفصلة والمراد بها آيات الكتب المنزلة ويدخل فيها القرآن دخولا أوليا فانت ترى أن كل هذه الوجوه التى قالها المفسرون فى قوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها وقوله تعالى وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى لا يصادمه شئ مما قاله أهل الهيئة الجديدة وذلك لانه ليس فى الآية الاولى الا أن الشمس تجرى لمستقر لها وليس فى الآية الثانية الا أن كلا من الشمس والقمر يجرى لأجل مسمى ولم يجئ فى واحدة منهما أن الشمس أو القمر يجرى حول الارض بل كل من الآيتين تفيد أن كلا من الشمس والقمر له جرى وحركة بدون تعرض فيها الى كيفية الحركة ولا الى ما يدوران عليه ولا الى مقدارها وأهل الهيئة الجديدة يقولون ان القمر يجرى حول الارض تبعا لها والارض وما يتبعها يجريان حول الشمس وأن الشمس تتحرك أكثر من حركة فمن ذلك حركتها الذاتية على محورها وقد ثبتت هذه الحركة بالارصاد الحقيقية وكانت من قبل مجهولة حتى ظن بعض من لا يعتقد حقية القرآن أنها ساكنة وذلك لان الشمس لشدة لمعان ضوئها لم يكن من الممكن تحديد النظر اليها وأن كل من حدق نظره فيها ولو بنظارة ضعيفة متى كانت غير ملونة ربما فقد بصره من شدة لمعان ضوئها وهذا شئ ثابت بالتجربة والحس ويدل ايضا على كونها كذلك قوله تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا) اى خلقنا فوقكم سبعا اى سبع سموات سبع طبقات شدادا غاية فى القوة والمتانة والاتقان وابدعنا سراجا مشرقا مضيئا بذاته متلألئا من وهجت النار اذا اضاءت او بالغا فى الحرارة حد الا يكاد يتصور من الوهج بمعنى اشتداد الحرارة جدا والمراد بالسراج المذكور الشمس وفى البحر عن ابن عمرو بن العاص قال الشمس فى السماء الرابعة الينا ظهرها ولهبها يضطرم علوا فاذا كان ماتراه من شدة اللمعان والحرارة انما هو من ظهرها فما بالك بلهبها ومن ذلك يعلم انه لا يمكن التحديق فيها ولا تحديد النظر اليها ولو بالنظارة المعظمة متى كانت غير ملونة فلما استحدثت المنظرة الرصدية المعظمة المعروفة باسم (تلسكوب) المشتملة على الزجاجات الملونة لاضعاف شعاعها سهل النظر اليها فوجد فى جرمها شامات تغدو من طرفها الشرقى وتغيب فى طرفها الغربى فى مدة أربعة عشر يوما وبعد مدة مثلها تظهر من طرفها الشرقى فعلم انها مع الشامات تتم الدور

المستمر فى سبعة وعشرين يوما وثنتى عشرة ساعة وعشرين دقيقة فاذا نقص من ذلك يوم واحد و٢٢ ساعه و١٢ دقيقة للدور السنوى للارض بقى لدور الشمس على محورها ٢٥ يوما و١٤ ساعه و٨ دقايق ومن حركات الشمس ايضا انها تتحرك بجميع عالمها اى بكافة مايدور حولها من ارض وسيارات وسيارات سيارات وكل مايتعلق بها وتدور حول نجمة من نجوم صورة النسر الطائر وقيل من صورة الجاثى على ركبتيه والحاصل ان سيرها قد تحقق على وجه اليقين بواسطة ارصاد الفلكيين ولكن لغاية الآن لم يعلم على وجه اليقين ذلك المركز الذى تدور عليه والجهة المتجهة اليها على وجه التعيين ولم يظهر ايضا انحناء القوس الذى تدور عليه لفرط عظمه وغاية كبره وقصر المدة التى حصل فيها الرصد بالنسبة لذلك وعدم كفايتها لرؤيه انحنائه فيظن الرائى انها تسير على خط مستقيم لانه يراها كذلك ولكنهم يقولون انها تسير على دائرة لا على خط مستقيم قياسا على سائر الكواكب لانها تقطع فى سيرها دوائر لا خطوطا مستقيمة وهنالك حركة ثالثة للشمس والقمر وهى حركتهما كحركة سائر الكواكب السيارة من المشرق الى المغرب فى اربع وعشرين ساعة مرة حركة غير ذاتية وقد تقدم انه يجوز فى هذه الحركة الثالثة ان تكون حركة خيالية ظاهرية تبعا لحركة الارض على محورها كما يجوز ان تكون حركة قسرية تبعا لحركة الفلك الاعظم وعلى كلا الحالين هى متحركة وحينئذ يجوز أن يحمل جرى الشمس فى الآية على الحركات الثلاث او على احداها سواء قلنا ان حركة الشمس بجميع نظامها حركة مستديرة او مستقيمة لان الجرى فى الآية مطلق غير مقيد بحركة مستقيمة او مستديرة او كليهما فيصدق بها جميعها مطلقا او باحداها مطلقا واما المستقر فقد علمت ما قاله المفسرون فيه وكل ما قالوه فى معناه لا يعارض ولا يصادم ما قاله علماء الهيئة قديما وحديثا حتى لو حملنا المستقر والاجل المسمى فى الآيتين على وقت فناء العالم المشار اليه بقوله تعالى (اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت الآية الى قوله تعالى (واذا السماء كشطت) وقوله تعالى (اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت) فان الجميع لا ينكرون ان هذا العالم هو عالم الكون والفساد الذى يجوز عليه الفناء الا من شذ ممن لا يعول عليه

فان قلت ماذا تصنع فى الاحاديث الصحيحة المتقدمة المروية عن ابى ذر رضى الله عنه من أن الشمس تذهب لتسأذن الى آخر ما سبق خصوصا وقد أشكل التوفيق بين هذه الاحاديث وبين ماقاله علماء الهيئة على بعض اكابر العلماء المحققين على ما يأتى ذكره

قلت ان الصحيح من هذه الاحاديث هو حديث ابى ذر رضى الله عنه وقد جاء فى أحدى رواياته كما جاء فى حديث آخر رواه احمد والترمذى وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم قال تذهب فتسجد فتستاذن فى الرجوع فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها الى آخر الحديث المتقدم * وفى رواية أنه قال ان هذه تجرى حتى تنتهى الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة الحديث وظاهر قوله فى هذه الروايات فيقال لها ارجعى الى آخره انها كلها عندما يريد الله تكويرها وذلك عند قرب قيام الساعة ووجود علاماتها الكبرى التى منها طلوع الشمس من مغربها وان معنى ذهابها وسجودها واستئذانها فى الرجوع أنها تسير خاضعة لارادة الله تعالى السير الذى أراده الله منها كما نراه ونشاهده ويدل عليها كتشافه بالمنظرة المعظمة ورصده بها الى أن يريد الله تعالى فناء هذا العالم ومجىء أوان وجود العلامات الكبرى لقيام الساعة فيكورها وتنكدر الكواكب وتنفطر السماء وتنتثر الكواكب فسجودها واستئذانها كناية عن تسخيرها لارادة الله تعالى فى جريانها وحركتها التى نراها باعيننا أو بالمنظرة المعظمة الى أن تنتهى الى مستقرها ووقت سيرها المحدد له فى علم الله تعالى وذلك بانتهاء الدنيا وعدم الاذن لها

بالرجوع كناية عما يقع لها بأذن الله تعالى من التكوير وللنجوم من الانكدار الا ترى الى قوله فى الحديث فيقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله عز وجل (والشمس تجرى لمستقر لها) ومن المعلوم أن الشمس لا تطلع من مغربها الا عند قرب قيام الساعة ويكون هذا الحديث مؤيدا لما قاله قتادة ومقاتل ويكون الحديث موافقا لقوله تعالى (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) على بعض الوجوه التى قدمناها وموافقا لقوله تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) فان معنى هذه الآية كما قال المفسرون خلقهن حال كونهن مسخرات مذللات تابعات لتصرفه سبحانه فيهن بما شاء غير ممتنعات عليه جل شأنه كأنهن مميزات أمرت فانقادت ويصح حمل الأمر على الارادة أى أن هذه الأجرام العظيمة والمخلوقات البديعة منقادة لارادته عز وجل

ويدل على ان الحديث المذكور يجب حمله على ما ذكرناه قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره أى يجريان بحسبان وهو مصدر كالغفران بمعنى الحساب كما قال قتادة وغيره أى هما يجريان بحساب مقدر فى بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات ليعلم السنون والحساب وقال الضحاك وأبو عبيدة هو جمع حساب كشهاب وشهبان أى هما يجريان بحسابات شتى فى بروجهما ومنازلهما والى الاول ذهب الجمهور وجريان الشمس والقمر مما لا يشك فيماه ولا شك ان كلا مما قاله قتادة وغيره وما قاله الضحاك وأبو عبيدة قريب من الآخر ان لم يكن عينه من حيث المعنى المراد من الآية وانما الخلاف بينهما فى لفظ الحسبان فقط فعلى الاول مصدر وعلى الثانى جمع وعلى كلا القولين فمعنى الآية فى ذاته لم يتغير كما هو واضح وهذا يقتضى باتفاق ان لهما جريا بحسبان معلوم لنا وان ذلك هو ما نعلم به السنين الشمسية والقمرية وحساب الاوقات من الدرجات والايام والشهور ولذلك قال تعالى فى آية أخرى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) والمراد كما قال المفسرون بالسنين ما يشمل السنين الشمسية والقمرية وبالحساب حساب الاوقات على ما قلناه وهذا لا يتم الا اذا كان جريانهما بالنظام الذى نعرفه ونعهده ونشاهده ونحن نرى ان الشمس والقمر يطلعان دائما أبدا من المشرق ويغيبان فى جهة المغرب وكل قوم على بقعة من بقاع الارض فى أى منطقة كانت من مناطقها يشاهدون ذلك بدون أدنى تغير فى ذلك النظام كما يشاهدون ويعلمون اختلاف الاوقات وحسابها بدون ان يعتريهم فى ذلك أدنى شك وبدون ان يحسوا فى هذا النظام بادنى تغير يعلم كل ذلك لكل جيل وقرن من القرون السالفة والحاضرة من يوم خلق الله الارض والسموات فتعين ان يكون المراد بسجود الشمس واستئذانها خضوعها وانقيادها وتسخيرها له تعالى فى كل ما يريده منها من السير والجرى الذى قدره لها وأوجده على ما نشاهده ونعلمه علم اليقين ويكون سجود الشمس كسجود النجم والشجر فى قوله تعالى (والنجم والشجر يسجدان) فقد قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره النجم هو النبات الذى لا ساق له والشجر ماله ساق كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والمراد بسجودهما انقيادهما له تعالى فيما يريده منهما طبعا وقال مجاهد وقتادة والحسن النجم نجم السماء وسجوده بالغروب ونحوه وسجود الشجر بالظل واستدارته عند مجاهد والحسن وفى رواية اخرى عن مجاهد ان سجودهما عبارة عن انقيادهما لما يريده الله سبحانه بهما طبعا والجمهور على الاول واذا جرينا على ان السجود بمعنى الغروب وان النجم نجم السماء كما هو قول مجاهد وقتادة والحسن لم يكن فى الحديث اشكال اصلا ويكون المراد بسجود الشمس غروبها فى الافق الذى تغرب فيه كل ليلة فى اى بقعة من بقاع الارض على الوجه الذى نراه ونشاهده * ويكون سجود الشمس فى حديث أبى ذر كالسجود فى قوله تعالى

(ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) وفى قوله تعالى (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون) فان السجود فيهما بمعنى الخضوع والانقياد على مااختاره المفسرون ويؤيد ذلك انهم لم يسألوه صلى الله عليه وسلم عن معنى ذلك السجود ولو لم يكن معلوما لهم لسألوه عنه والتعبير فى حديث أبى ذر بكون ذلك السجود تحت العرش اما كناية عن كون ذلك السجود على هذا الوجه المستمر انقيادا وخضوعا لما اراده الله تعالى بها وسخرها له واما لان الشمس دائما تحت العرش كسائر الكواكب والسموات السبع

فان قلت ماذا تصنع فيما نقله الالوسى فى تفسيره حيث قال والظاهر أن للشمس قرارا حقيقة قال النووى قال جماعة بظاهر الحديث قال الواحدى وعلى هذا القول اذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش الى ان تطلع ثم قال النووى وسجودها بتمييز وادراك يخلقه الله فيها اه

قلت ان المذكور فى الرواية الاولى من الحديث وفيما رواه الامام احمد والترمذى وغيرهما انها تسجد وتستأذن الى آخر ما قدمناه وليس فى شىء من ذلك ذكر لاستقرارها تحت العرش وقد جاء فى الرواية الثانية ان هذه تجرى حتى تنتهى الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة الحديث ولم يعين فى هذه الرواية مقدار المدة التى تجرى فيها الى ان تنتهى الى مستقرها تحت العرش فيجب حملها على ما جاء فى الرواية الاولى من ان ذلك عند مايريد الله طلوعها من مغربها خصوصا وان كلا من الروايتين عن ابى ذر وأن الحمل على ذلك يوافق ما رواه الامام احمد والترمذى وغيرهما فكون الظاهر ان للشمس قرارا حقيقة مسلم فى ذاته ولكن الظاهر من الرواية الاولى فى حديث أبى ذر وفيما رواه الامام أحمد والترمذى وغيرهما ان ذلك القرار إنما يكون عند مايريد الله تعالى طلوعها من مغربها ويكون الحديث حينئذ كما قلنا مؤيدا لبعض الوجوه فى قوله تعالى تجرى لمستقر لها وهو ما قاله قتادة ويحمل الاطلاق فى الرواية الثانية من حديث أبى ذر على التقييد المذكور فى الرواية الاولى وحينئذ لا يوجد فى حديث أبى ذر برواياته ولا فى غيره من الاحاديث الصحيحة مايقتضى ان الشمس تقف عن سيرها وحركتها قبل مجيئ الوقت الذى لاتتعداه وهو وقت تكويرها فلا اشكال اصلا فى هذا الحديث وأما قول الواحدى إذا غربت كل يوم إلى آخره فذلك منه تفريع على قول الجماعة الذين قال النووى عنهم إنهم أخذوا بظاهر الحديث بناء على زعمهم أن ظاهر الحديث هو ماقالوه كما قال فيما نقلناه عنه قبل ذلك تفريعا على قول قتادة ومقاتل فى معنى المستقر وعلى هذا يكون مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وبالجملة فالحديث ليس ظاهرا فيما قالوه بل هو ظاهر فيما قلنا أما على الرواية الاولى فظاهر وأما على الرواية الثانية فبقرينة ما فى الرواية الاولى مع مراعاة أن المروى عنه واحد فى الروايتين وعلى فرض التسليم جدلا بظهوره فيما قالوا يجب تأويله بما قلناه لان مقتضى ماقالوه كما قال الواحدى أن الشمس اذا غربت كل يوم استقرت تحت العرش الى أن تطلع وهذا خلاف ما هو معلوم بالمشاهدة وبالضرورة أن الشمس اذا غربت عند قوم طلعت عند آخرين وكيف يمكن اذا استقرت عند غروبها وذلك طبعا فى جهة المغرب أن تطلع ثانيا من جهة المشرق مع أنها لاتصل من الافق الذى تطلع منه الى الافق الذى تغرب فيه الا بالسير والحركة وكذلك لاتصل من الافق الذى تغرب فيه الى الافق الذى تطلع منه ثانيا الا بالسير والحركة ولكل من مدة غروبها وطلوعها مقدار معلوم للخاص والعام لا يشتبه فيه احد ولو كان من العوام خصوصا وقد شهدت به الآيات القرآنية و بعض روايات الحديث * وأما ما ذكره ابن حجر فى فتاويه الحديثية ونقله الالوسى فى تفسيره من أنه حكى عن بعضهم أنها تطلع من سماء الى سماء حتى تسجد تحت العرش وتقول يارب ان قوما يعصونك فيقال لها ارجعى من حيث جئت فتنزل من سماء الى سماء حتى تطلع من

المشرق وبنزولها الى سماء الدنيا يطلع الفجر وفيها ايضا أخرج أبو الشيخ عن عكرمة أنها اذا غربت دخلت نهرا تحت العرش فتسبح ربها حتى اذا أصبحت استعفت ربها عن الخروج ف[illegible] سبحانه لم فتقول انى اذا خرجت عبدت من دونك وماجاء عن الامامية متعلقا بسجود الشمس تحت العرش وماقالوه فى ذلك من الاخبار العجيبة ونقله الالوسى أيضا فى تفسيره فقد قال عقب نقله كل ماذكرناه أن الصحيح من الاخبار فى ذلك قليل وليس لى على صحة أخبار الامامية وأكثر مافى الهيئة السنية تعويل نعم ماتقدم عن أبى ذر لا كلام فى صحته وماذا يقال فى أبى ذر وصدق لهجته والامر فى ذلك مشكل اذا كان السجود والاستقرار كل ليلة تحت العرش سواء قيل انها تطلع من سماء الى سماء حتى تصل اليه فتسجد أم قيل انها تستقر وتسجد تحته من غير طلوع فقد صرح أمام الحرمين وغيره بانه لاخلاف فى أنها تغرب عند قوم وتطلع على آخرين والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين وبين الليل والنهار اختلاف ما فى الطول والقصر الا عند خط الاستواء وفى بلاد بلغار قد يطلع الفجر قبل أن يغيب شفق الغروب وفى عرض تسعين لاتزال طالعة مادامت فى البروج الشمالية وغائبة مادامت فى البروج الجنوبية فالسنة نصفها ليل ونصفها نهار على مافصل فى موضعه والادلة قائمة على أنها لاتسكن عند غروبها والا لكانت ساكنة عند طلوعها بناء على ان الغروب فى افق طلوع فى غيره وأيضا هى (أى الادلة) قائمة على انها لاتفارق فلكها فكيف تطلع من سماء الى سماء حتى تصل الى العرش بل كون الامر ليس كذلك اظهر من الشمس لايحتاج الى بيان أصلا وكذا كونها تحت العرش دائما بمعنى احتوائه عليها وكونها فى جوفه كسائر الافلاك التى فوق فلكها والتى تحته وقد سألت كثيرا من أجلة المعاصرين عن التوفيق بين ماسمعت من الاخبار الصحيحة وبين مايقتضى خلافها من العيان والبرهان فلم أوفق لان أفوز منهم بما يروى الغليل ويشفى العليل والذى يخطر بالبال فى حل ذلك الاشكال والله أعلم بحقيقة الحال ان الشمس وسائر الكواكب مدركة عاقلة كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى الآتى (كل فى فلك يسبحون) حيث جيء بالفعل مسندا الى ضمير جمع العقلاء وقوله تعالى (انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) لنحو ماذكر الى آخر ما أطال به الالوسى فى ذلك ثم استخلص من الكلام بعد أن التجأ فى كلامه الى القول بالارباب الافلاطونية وأن لكل نوع ربا يدبره أن روح الشمس هى التى تكون تحت العرش وهى التى تطلع من سماء الى سماء مع بقاء تعلقها بالشمس بمقدار ماتؤدى به وظيفتها من سيرها وحركتها المستمرة على الوجه الذى ثبت بالادلة وبالعيان * ولعله لما استشعر بضعف هذا الجواب لانه أولا مبنى على مايقوله أفلاطون على وجه ماسبق وعلى أن لكل شئ حتى الجمادات روحا وعقلا وإدراكا وأن الكعبة تزور بعض الناس مما لا يدل عليه نقل ولا عقل ولانه خلاف ظاهر الحديث من أن الشمس هى التى تسجد تحت العرش لا روحها قال فى آخر كلامه وهذا ما عندى فليتأمل والله تعالى هو الهادى الى سواء السبيل اه فبين أن ماقاله واطال فيه هو جهد المقل وأمر بالتأمل * واقول قد علمت مما ذكرناه انه لا اشكال اصلا فيما روى عن أبى ذر وأن ظاهره لايخالف ماثبت بالادلة وبالعيان وأما طلوع الشمس من سماء الى سماء حتى تسجد تحت العرش فلعل المراد منه والله أعلم انتقالها الى البروج الشمالية تارة والى البروج الجنوبية تارة اخرى برجا بعد برج أو أن المراد تقصيها المشارق مشرقا بعد مشرق والمغارب مغربا بعد مغرب حتى تبلغ أقصاها وذلك حدها ومستقرها لانها لاتعدوه وذلك دأبها دائما أبدا والشمس على كل حال تحت العرش وفى جوفه سواء كانت الافلاك متلاصقة كما يقول أهل الهيئة القديمة أو غير متلاصقة بل بين كل سماء وسماء بعد شاسع كما يقوله أهل الهيئة اليوم وتقتضيه الاحاديث الصحيحة كما قدمناه وتكون الافلاك عبارة عن مدارات الكواكب فى الفضاء الممتلىء بالهواء الاثيرى أو بشئ نحو ذلك مما يصح أن تسبح فيه الكواكب كما يسبح السمك فى الماء على اننا لو لم نهتد الى بيان محمل صحيح لتلك الاحاديث وجب ان نعتقد ان ظاهرها المخالف للادلة وللعيان غير

مراد ونفوض المراد منها الى الله تعالى عملا بالادلة القاطعة و بالعيان خصوصا وأن تلك الاحاديث آحاد فهي ظنية الثبوت كما انها ظنية الدلالة فلا تعارض الادلة العقلية القطعية ومايقتضيه الحس الصادق وهو العيان والمنصوص عليه فى كتب الاصول انه متى تعارض القطعي والظنى يترك العمل بالظنى و يعمل بالقطعى على ان المنصوص عليه أنه متى تعارض قطعيان احدهما عقلى والآخر نقلى وجب تأويل النقلى ورده الى العقلى لما قدمناه من انه لايوجد بين الدليل النقلى ومدلوله تلازم عقلى فيجوز أن يتخلف المدلول عن الدليل بخلاف الدليل العقلى القطعى ومدلوله فان التلازم بينهما عقلى لايجوز أن يتخلف احدهما عن الآخر ولو تخلف مدلول الدليل العقلى عنه لم يكن الدليل دليلا والمفروض انه دليل عقلى قطعى فاعرف الحق

فان قلت ماتقول فى قوله تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)

قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ان معنى قدرناه منازل صيرنا سيره منازل أوفى منازل وان المنازل جمع منزل والمراد المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة وهى عند أهل الهند سبعة وعشرون منزلا لان القمر يقطع فلك البروج فى سبعة وعشرين يوما وثلث يوم فحذفوا الثلث لانه ناقص عن النصف كما هو مصطلح أهل التنجيم وعند العرب وساكنى البدو ثمانية وعشرون منزلا لا لانهم تمموا الثلث واحدا كما قال بعضهم بل لأنه لما كانت سنوهم باعتبار الأهلة مختلفة الاوائل لوقوعها فى وسط الصيف تارة وفى وسط الشتاء تارة اخرى وكذلك اوقات تجاراتهم وزمان أعيادهم احتاجوا الى ضبط سنة الشمس لمعرفة فصول السنة حتى يشتغلو فى استقبال كل فصل بما يهمهم فى ذلك الفصل من الانتقال الى المراعى وغيرها فاحتالوا فى ضبطها فنظروا أولا الى القمر فوجدوه يعود الى وضع له من الشمس فى قريب من ثلاثين يوما ويختفى آخر الشهر ليلتين أو أقل أو أكثر فاسقطوا يومين من زمان الشهر فبقى ثمانية وعشرون يوما وهى زمان مابين ظهوره بالعشيات مستهلا أول الشهر وآخر رؤيته بالغدوات مستترا آخره وقسموا دور الفلك عليه فكان كل قسم اثنتى عشرة درجة واحدى وخمسين دقيقة تقريبا وهو ستة أسباع درجة فيصيب كل برج منها منزلان وثلث ثم لما انضبط الدور بهذه القسمة احتالوا فى ضبط سنة الشمس بكيفية قطعها لهذه المنازل فوجدوها تستر دائما ثلاثة منازل ماهى فيه بشعاعها وماقبلها بضياء الفجر ومابعدها بضياء الشفق ورصدوا ظهور المستتر بضياء الفجر ثم بشعاعها ثم بضياء الشفق فوجدوا الزمان بين كل ظهورى منزلين ثلاثة عشر يوما فايام جميع المنازل تكون ثلثمائة واربعة وستين يوما لكن الشمس تقطع جميعها فى ثلاثمائة وخمسة وستين يوما فزادوا يوما فى ايام غفر وزادوه هاهنا اصطلاحا منهم اولشرفه على ماتسمعه ان شاء الله تعالى وقد يحتاج الى زيادة يومين ليكون انقضاء الثمانية والعشرين من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب طريقة القمر فى ممره أويحاذيه فيرى القمر كل ليلة نازلا بقرب احداها* وأحوال كواكب المنازل مع المنازل كاحوال كواكب البروج مع البروج عند أهل الهيئة من انها مسامتة للمنازل وهى فى فلك الافلاك واذا أسرع القمر فى سيره فقد يخلى منزلا فى الوسط وان ابطأ فقد يبقى ليلتين فى منزل أول الليلتين فى أوله وآخرهما فى آخره وقد يرى فى بعض الليالى بين منزلين * ومايقال فى المشهور ان الظاهر من المنازل كل ليلة يكون اربعة عشر منزلا وكذا الخفى وانه اذا طلع منزل غاب رقيبه وهو الخامس عشر من الطالع سمى رقيبا تشبيها له برقيب يرصده ليسقط فى المغرب اذا ظهر ذلك فى المشرق ظاهر الفساد لانها ليست على نفس المنطقة والابعاد مابينها متساوية ولهذا قد يكون الظاهر ستة عشر وسبعة عشر وقد يكون الخفى ثلاثة عشر وهذه الكواكب المسماة بالمنازل المسامتة للمنازل الحقيقية على ماروى عن ابن عباس وغيره أولها (الشرطان) بفتح الشين والراء مثنى شرط بفتحتين وهى العلامة وهما كوكبان نيران من القدر الثالث على قرنى الحمل معترضان بين الشمال والجنوب بينهما ثلاثة اشبار و بقرب الجنوبى منهما كوكب

صغير سمت العرب الكل اشراطا لانها بسقوطها علامات المطر والريح والقمر يحاذيها و بقرب الشمالى منهما نير هو الشرطان عند بعض و يقال للشرطين الناطح ايضا ثم (البطين) تصغير البطن وهو ثلاثة كواكب خفية من القدر الخامس على شكل مثلث حاد الزوايا على فخذى الحمل بينه و بين الشرطين قيد رمح والقمر يجتاز بها أحيانا ثم (الثريا) تصغير ثروى من الثراء وهو الكثرة و يسمى بالنجم وهى على المشهور عند المنجمين ستة كواكب مجتمعة كشكل مروحة مقبضها نحو المشرق وفيه انحناء فى جانب الشمال وقيل هى شبيهة بعنقود عنب وعليه قول احيحة بن الجلاح اوقيس بن الاسلت

(وقد لاح فى الصبح الثريا كما ترى * كعنقود ملاحية حين نورا)

والمرصود منها اربعة كلها من القدر الخامس وقال الالوسى فى هامش تفسيره رأيت منها بواسطة بعض الآلات مايزيد على ثلاثين كوكبا وموضعها سنام الثور وفى الكشف هى ألية الحمل وربما يكسفها القمر ثم (الدبران) بفتحتين سمى به لانه دبر الثريا وخلفها وهو كوكب احمر نير من القدر الاول على صورة السبعة من رقوم الهند ويسمى المجدح وموقعه عين الثور والذى على طرفه الآخر من القدر الثالث على عينه الاخرى والثلاثة الباقية وهى من الثالث ايضا على وجهه وزاوية هذا الرقم على خطم الثور و بعضهم يسمى الدبران بقلب الثور وقد يكسفه القمر ثم (الهقعة) بفتح الهاء وسكون القاف وفتح العين المهملة وهى ثلاثة كواكب خفية مجتمعة شبيهة بنقط الثاء كانها لطخة سحابية شبهت بالدائرة التى تكون فى عرض زور الفرس أو بحيث تصيب رجل الفارس او بلمعة بياض تكون فى جنب الفرس الايسر تسمى بذلك وتسمى بالاثافى ايضا وهى على رأس الجبار المسمى بالجوزاء والقمر يحاذيها ولايقاربها ثم (الهنعة) بوزن الهقعة وثانيه نون وهى كوكبان من القدر الرابع والثالث شبهت بسمة فى منخفض عنق الفرس وهما على رجل التوأمين اى الجوزاء مما يلى الشمال وفى الكشف هى منكب الجوزاء الايسر والقمر يمر بهما ثم (الذراع) وهما كوكبان ازهران من القدر الثانى على رأس التوأمين يعنون بها ذراع الاسد المبسوطة اذ المقبوضة هى الشعرى الشامية مع مرزمها والقمر يقارب المبسوطة ثم (النثرة) وهى الفرجة بين الشاربين حيال وترة الانف وهو أنف الاسد وهما كوكبان خفيان من الرابع بينهما قيد ذراع ولطخة سحابية وهى على وسط السرطان و بقربها كوكبان يسميان بالحمارين واللطخة التى بينهما بالمعلف تشبيها لها بالتبن وبمحفظة الاسد اى موضع استتاره ويكسف القمر كلا منهما ثم (الطرف) وهما كوكبان صغيران من الرابع احدهما على رأس الاسد قدام عينيه والآخر قدام يده المقدمة والقمر يحاذى أشملهما ويكسف اجنبهما ويعنون بالطرف عين الاسد ثم (الجبهة) ويعنون بها جبهة الاسد وهى اربعة كواكب على سطر فيه تعريج آخذ من الشمال الى الجنوب اعظمها على طرف السطر مما يلى الجنوب يسمى قلب الاسد لكونه فى موضعه ويسمى الملكى أيضا وهو من القدر الاول والقمر يمر به وبالذى يليه ثم (الزبرة) بضم الزاى وسكون الباء وهما كوكبان نيران على اثر الجبهة بينهما ارجح من ذراع وهما على زبرة الاسد اى كاهله عند العرب وعند المنجمين عند مؤخره وزبرة الاسد شعره الذى يزبر عند الغضب فى قفاه اجنبهما من الثالث واشملهما من الثانى وتسمى ظهر الاسد والقمر يحاذيهما من جهة الجنوب ثم (الصرفه) وهو كوكب واحد على طرف ذنب الاسد و يسمى ذنب الاسد والقمر يحاذيه من جهة الجنوب وسمى بذلك لان البرد ينصرف عند سقوطه ثم (العواء) يمد ويقصر والقصر أجود وهى خمسة كواكب من الثالث على هيئة لام فى الخط العربى ثلاثة منها آخذة من منكب العذراء الايسر الى تحت ثديها الايسر وهى على سطر جنوبى من الصرفة ثم ينعطف اثنان على سطر يحيط مع الاول بزاوية منفرجة زعمت العرب انها كلاب

تعوى خلف الاسد ولذلك سميت العوا وقيل ذلك لانها كانها تعوى خلف البرد ولهذا سميت طاردة البرد وقيل هى من عوى الشيء عطفه فلما فيها من الانعطاف سميت بذلك وفى الكشف العوا سافلة الانسان ويقال انها ورك الاسد والقمر يخرقها ثم (السماك) وهو كوكب نير من الاول على كتف العذراء اليسرى قريب من المنطقة والقمر يمر به ويكسفه ويقابل السماك الاعزل السماك الرامح وليس من المنازل وسمى رامحا لكوكب يتقدمه كانه رمحه ويسمى سماكا لانه سمك أى ارتفع فالرامح صيغة نسب اى ذو رمح وسمى السماك الاول أعزل لانه لا رمح له ثم (الغفر) وهى ثلاثة كواكب من الرابع على ذيل العذراء ورجلها المؤخرة على سطر معوج حدبته الى الشمال وقيل كوكبان والقمر يمر بجنوبيها وقد يحازى الشمال وهو منزل خير بعد عن شرين مقدم الاسد ومؤخر العقرب ويقال انه طالع الانبياء والصالحين وسميت غفرا لسترها ونقصان نورها وذكر بعضهم انها من كواكب الميزان ثم (الزبانا) بالضم وآخره الف وهما كوكبان نيران من الثانى متباعدان فى الشمال والجنوب بينهما قيد رمح على كفتى الميزان وقال غير واحد هما قرنا العقرب والقمر قد يكسف جنوبيهما ثم (الاكليل) وهى ثلاثة كواكب خفية معترضة من الشمال الى الجنوب على سطر مقوس يشبه شكلها شكل الغفر الاوسط منها متقدم والاثنان تاليان وهى من الرابع والقمر يمر بجميعها وقيل هى اربعة كواكب برأس العقرب ولذا سميت به وأصل معناه التاج ثم (القلب) وهو قلب العقرب كوكب أحمر نير أوسط الثلاثة التى على بدن العقرب على استقامة من المغرب الى المشرق وهو من الثانى واللذان قبله وبعده ويسميان نياطين من الثالث والقمر يمر به ويكسفه من المنطقة ثم (الشولة) بفتح الشين المعجمة واللام وتسمى إبرة العقرب عند الحجازيين كوكبان من الثانى ازهران متقاربان على طرف ذنب العقرب فى موضع الحمة والقمر يحاذيهما ثم (النعائم) اربعة كواكب من الثالث على منحرف تابع للشولة وتسمى النعائم الواردة اى الى المجرة والقمر يمر باثنين منها ويحاذى الباقيين ويقرب منها اربعة اخرى من الثالث على منحرف هى النعائم الصادرة اى من المجرة وكلها من صورة الرامى وسميت نعائم تشبيها بالخشبات التى تكون على البئر ثم (البلدة) وهى قطعة من السماء خالية عن الكواكب مستديرة شبهت ببلدة الثعلب وهى ما يكنسه بذنبه وتسمى أيضا بالمغارة والفرجة وقيل سميت بذلك تشبيها بالفرجة التى تكون بين الحاجبين وموضعها خلف الكواكب التى تسمى بالقلادة وهى عصابة الرامى ثم (سعد الذابح) كوكبان على قرنى الجدى بينهما قدر باع جنوبيهما من الثالث والقمر يقاربه ولا يكسفه وبقرب الشمالى كوكب صغير يكاد يلتصق به يقال انها شاته التى يريد أن يذبحها وقيل انه فى مذبحه ولهذا يسمى بالذابح ثم (سعد بلع) قال فى القاموس طلوعه لليلة تبقى من كانون الآخر وسقوطه لليلة من آب اوهما كوكبان على كتف ساكب الماء اليسرى فوق ظهر الجدى بينهما قدر باع غربيهما من الثالث وشرقيهما من الرابع وبقرب مقدمهما كوكب صغير كانه ابتلعه فلهذا سمى به وفى القاموس سعد بلع كزفر منزل للقمر طلع لما قال الله تعالى (يا أرض ابلعى ماءك) وهما نجمان مستويان فى المجرى أحدهما خفى والآخر مضئ يسمى بالعا كانه بلع الآخر وقيل لانه ليس له ما للسعد الذابح وكانه بلع شاته والقمر يقارب اجنبهما ولا يكسفه ثم (سعد السعود) كوكبان وقيل ثلاثة على خط مقوس بين الشمال والجنوب حدبته الى المغرب أجنبهما والقمر يقرب منه من الخامس على طرف ذنب الجدى واشملهما من الثالث وهو مع الآخر فى القول الآخر من كواكب القوس والقمر يقارب أجنبهما وسمى بذلك لانه فى وقت طلوعه ابتداء ما يعيشون وتعيش مواشيهم ثم (سعد الاخبية) أربعة كواكب من الثالث ومن كواكب الرامى على يد ساكب الماء اليمنى ثلاثة منها على شكل مثلث حاد الزوايا والرابع وسطه وهو السعد والثلاث خباؤه ولذا سمى بذلك وقيل لانه يطلع قبل الدفء فيخرج من الهوام ما كان مختبئا والقمر

يقاربهما من جهة الجنوب ثم (الفرع المقدم) ويقال الاعلى كوكبان نيران من الثانى بينهما قيد رمح اجنبهما على متن الفرس الاكبر المجنح أى ذى الجناحين وأشملهما على منكبه والقمر يمر بالبعيد منهما ثم (الفرغ المؤخر) كوكبان نيران من الثانى بينهما قيد رمح أيضا اجنبهما على جناح الفرس واشملهما مشترك بين سرته وراس المسلسلة شبهت العرب الاربع بفرغ الدلو وهو بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وغين معجمة مصب الماء منها لكثرة الامطار فى وقتها ثم (بطن الحوت) ويقال له الرشا بكسر الراء أى رشا الدلو ويقال له قلب الحوت أيضا كوكب نير من الثالث على جنب المسلسلة يحاذيه القمر ولا يقاربه وانما سمى بوقوعه فى بطن سمكة عظيمة تحت نحر الناقة تصورها العرب من سطرين عليهما كواكب خفية بعضها من المسلسلة وبعضها من احدى سمكتى الحوت وهذه المنازل مقسمة على البروج الاثنى عشر المشهورة فيكون لكل برج منزلان وثلث والبرج عندهم ثلاثون درجة حاصلة من قسمة ثلاثمائة وستين التى هى اجزاء دائرة البروج على اثنى عشر والدرجة منقسمة عندهم الى ستين دقيقة وهى منقسمة بستين ثانية وهى منقسمة بستين ثالثة وهكذا الى الروابع والخوامس والسوادس وغيرها ويقطع القمر بحركته الخاصة فى كل يوم بليلته ثلاث عشرة درجة وثلاث دقائق وثلاثا وخمسين ثانية وستا وخمسين ثالثة وتسمية ما ذكرنا منازل مجاز لانها عبارة عن كواكب مخصوصة من الثوابت قريبة من المنطقة والمنزلة الحقيقية للقمر الفراغ الذى يشغله جرم القمر على احد الاقوال فى المكان فمعنى نزول القمر فى هذه المنازل مسامتته اياها وكذا تعتبر المسامتة فى نزوله فى البروج لانها مفروضة اولا فى الفلك الاعظم واما تسمية نحو الحمل والثور والجوزاء بذلك فباعتبار المسامتة أيضا وكان اول المنازل الشرطين ويقال له النطح وهو لأول الحمل ثم تحركت حتى صار اولها على ما حرره المحققون من المتاخرين الفرغ الموخر ولا يثبت على ذلك لان للثوابت حركة على التوالى على الصحيح وان كانت بطيئة وهى حركة فلكها ومثبتو ذلك اختلفوا فى مقدار المدة التى يقطع بها جزءا واحدا من درجات منطقته فقيل هى ست وستون سنة شمسية أو ثمان وستون سنة قمرية وذهب ابن الاعلم الى انها سبعون سنة شمسية وطائفة الرصد الجديد الذى تولاه نصير الدين الطوسى بمراغة وزعم محى الدين احد اصحابه انه تولى رصد عدة من الثوابت كعين الثور وقلب العقرب بذلك الرصد فوجدها تتحرك فى كل ست وستين سنة شمسية درجة واحدة وادعى بطليموس انه وجد الثوابت القريبة الى المنطقة تتحرك فى كل مائة سنة شمسية درجة والله اعلم بحقائق الاحوال *

واعلم ان هذه المنازل الثمانية والعشرين منها أربعة عشر شمالية وأربعة عشر جنوبية لانها مقسمة على البروج الاثنى عشر وهى منها ستة شمالية وستة جنوبية والعرب تسمى الاربعة عشر منزلا الشمالية منها التى أولها الشرطان وآخرها السماك شامية والباقية منها التى أولها الغفر وآخرها بطن الحوت يمانية وتسمى المنزل من ضياء الفجر طلوعه وغروب رقيبه وقت الصبح سقوطه والمنازل التى يكون طلوعها فى مواسم المطر الانواء ورقباؤها اذا طلعت فى غير مواسم المطر البوارح قال القطب وقال الجوهرى النوء سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته فى كل ليلة الى مضى ثلاثة عشر يوما ما خلا الجبهة فان لها أربعة عشر يوما قال ابو عبيدة ولم يسمع فى النوء أنه السقوط الا فى هذه المواضع والعرب تضيف الامطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها وقال الاصمعى الى الطالع منها فى سلطانه فتقول مطرنا بنوء الثريا مثلا والجمع أنواء ونوآن مثل عبدان جمع عبد وذكر الضبى عن المرزوقى أن نوء الشرطين ثلاثة أيام ونوء البطين ثلاث ليال ونوء الثريا خمس ليال ونوء الدبران ثلاث ليال ونوء الهقعة ست ليال ولا يذكرون نوءها الا بنوء

الجوزاء ونوء الهنعة ايضا لا يذكر وانما يكون فى أنواء الجوزاء وهو ثلاث ليال والذراع لا نوء له ونوء النثرة سبع ليال ونوء الطرف ثلاث ليال ونوء الجبهة سبع ليال والزبرة أربع ليال والصرفة ثلاث ليال والعوا ليلة والسماك أربع ليال والغفر ثلاث ليال وقيل ليلة والزبانا ثلاث ليال والاكليل أربع ليال والقلب ثلاث ليال والشولة كذلك والنعايم ليلة والبلدة ثلاث ليال وقيل ليلة وسعد الذابح ليلة وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية والفرغ المقدم ثلاث ليال والمؤخر أربع ليال ولم يذكر فى نسختى للرشا نوء ثم ان قول الانسان مطرنا بنوء كذا ان أراد به أن النوء انزل الماء فهو كفر والقائل بذلك كافر حلال دمه كما نص عليه الشافعى وغيره وفى الروضة من اعتقد ان النوء ممطر حقيقة كفر وصار مرتدا وان أراد به أن النوء سبب ينزل الله تعالى به الماء حسبما علم وقدر فهو ليس بكفر بل مباح لكن قال ابن عبد البر هو وان كان مباحا كفر بنعمة الله تعالى وجهل بلطيف حكمته وفى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اثر سماء هل تدرون ماقال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال قال اصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فهو كافر بى مؤمن بالكواكب وظاهره أن الكفر مقابل الايمان فيحمل على ما اذا أراد القائل ما سمعت أولا والله تعالى الحافظ من كل سوء لارب غيره ولا يرجى الا خيره اه ما قاله الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ملخصا من مواضع ومن ذلك تعلم ان العرب كانوا جاهلية واسلاما يعلمون علوم النجوم حسابيا واستدلاليا فكانوا يعرفون مايتعلق بالسنين شمسية كانت أو قمرية ومايتعلق بحساب المنازل والبروج وغير ذلك مما يتعلق بعلم الهيئة باقسامه الثلاثة ويرصدون النجوم الثوابت مثل ما رصدوا الشمس والقمر وسائر السيارات من قديم الزمان وان الله خاطبهم بما يعلمون من ذلك كله غاية الامر انهم لم يعرفوا عن النجوم الثوابت الا القليل جدا لسبب قصر وسائط الرصد وبعد النجوم فلم تكن نظارات معظمة ملونة ولا غير ملونة ولكن الآن قد وجد من وسائط الرصد ما ظهر به شئ كثير مما كان مجهولا من قبل حتى قام من الدلائل الواضحة على كون تلك النجوم الثوابت شموسا وأن بعضها اكبر من شمسنا ضعافا وسيأتى تمام الكلام على ذلك فى محله ان شاء الله تعالى ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ويخلق مالا تعلمون وما يعلم جنود ربك الا هو

واما قوله تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) فقد قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ان المعنى حتى صار فى اواخر سيره وقربه من الشمس اى فى وقت المحاق فى رأى العين كعود عذق النخلة من بين الشمراخ الى منبته منها وروى ذلك عن الحسن وقتادة او كالشمراخ وهو ما عليه البسر من عيدان العذق والكباسة والمشهور الاول والعرجون القديم هو العتيق الذى مر عليه زمان يبس فيه حتى صار قوسا مصفرا فيه دقة واعوجاج والقمر حين يبدو أول الشهر يكون هلالا مصفرا دقيقا معوجا فوجه الشبه بينه وبين القمر الاصفرار والدقة والاعوجاج وهذه حال القمر يعتريه المحاق فى آخر الشهر حتى يعود فى اوله على وجه ماذكر كلما قرب من محاذاة الشمس فى المدة التى يقطع فيها دائرة فلك البروج وفى كل دورة يقطعها يحاذى الشمس اثنتى عشرة مرة ويتكون منها سنة قمرية وهى السنة العربية وذلك بخلاف الشمس فانها لايعتريها المحاق اصلا بل نورها لايتغير مدة الدورة المذكورة وهذه حال القمر فى دورته بمشارقه ومغاربه وحال الشمس فى دورتها بمشارقها ومغاربها دائما ابدا ولذلك قال الله تعالى اشارة الى ماذكر (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا

عدد السنين والحساب) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره معنى هذه الآيه ان الله انشأ وابدع الشمس ضياء او صير الشمس ضياء اى جعلها اعظم الكواكب كما تدل عليه الآثار ويشهد به الحس واليه ذهب جمهور اهل الهيئة وانشأ وابدع القمر نورا أوصيره نورا وانما كانت الشمس ضياء والقمر نورا لأن نور الشمس اقوى من نور القمر وهذا الوجه هو الذى يشير اليه قوله تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) بخلاف الشمس على مابيناه وقالوا ايضا فى معنى قوله تعالى (لتعلموا عدد السنين والحساب) ان المعنى لتعلموا عدد السنين التى بها يتعلق غرض علمى لاقامة مصالحكم الدينية والدنيوية والحساب أى تعلموا حساب الاوقات والأيام والأشهر وغير ذلك مما نيط به شئ من المصالح المذكورة وقالوا أيضا ان حكمة ذلك صلاح الثمار بوقوع شعاع القمر عليها وقوعا تدريجيا وكونه ادل على وجوده سبحانه وتعالى اذ كثرة أحوال الممكن وزيادة تفاوت اوصافه أدعى الى احتياجه الى الصانع الحكيم واجب الوجود بالذات وغير ذلك مما يعرفه الواقفون على الاسرار وهذا اذا علقت اللام فى قوله تعالى لتعلموا الى آخره بقوله وقدرناه منازل أما لو علقت اللام بقوله جعل الشمس والقمر كما هو الاولى فالامر ظاهر وتحمل السنين على مايعم السنين الشمسية والقمرية وان كان المعول عليه فى التاريخ العربى الاسلامى هو السنة القمرية وعليها تقديرات الشارع فى الكتاب والسنة فى كل ماضرب الله له مدة فى شرعه والغرض من آيتى سورة يونس ويس التنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووجوبه الذاتى ووحدته واحاطة علمه وكمال ارادته وقدرته وعظيم حكمته وحدوث كل ما عداه وان جميع ماسواه من آثاره وصنعته بآثار صنعه فى النيرين الشمس والقمر بعد الاستدلال عما استدل به قبلهما وبيان بعض أفراد التدبير الذى أشير الى تفصيله عما أجمله من ذلك التدبير فى هاتين الآيتين والارشاد الى انه سبحانه حيث دبر أمور هم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بارسال الرسل وانزال الكتب أولى وأحرى وهذا النظام البديع الذى استدل به الله تعالى فى هاتين الآيتين كما يحصل على ما رآه أهل الهيئة الاقدمون يحصل على ما رآه علماء الهيئة اليوم بحيث لايتخلف شيء من هذا النظام ولايتغير سواء جرينا على طريقة هؤلاء أو على طريقة أولئك بل هذا النظام المشاهد المعلوم الذى لاشك فيه لاحد من الخواص والعوام لأن الاجرام السماوية من الشمس والقمر وغيرهما من سائر الكواكب يراها كل ناظر اليها جميعها تشرق من جهة المشرق وتعلو فى السماء شيئا فشيئا حتى تبلغ غاية ارتفاعها فى السماء ثم تنحدر سائرة نحو المغرب حتى تغيب عن النظر فى الجهة المقابلة للجهة التى أشرقت منها ثم بعد عدة ساعات تشرق ثانيا من جهة المشرق وهذا دأبها دائما أبدا مادام الملوان

كذلك يرى الشمس فى وسط شهر حزيران تشرق من جهة الشرق لكن الى شمال الجهة الشرقية مسافة ثم تغيب فى المغرب فى شمال الجهة الغربية مثل مسافة الجهة الشرقية ثم تأخذ فى الانتقال الى جهة الجنوب شرقا ومغربا يوما بعد يوم الى اواسط شهر كانون فتشرق حينئذ فى جنوب النقطة الشرقيه مسافة ثم تغيب فى جنوب النقطة الغربية مسافة مثل مسافة النقطة الشرقية ثم تأخذ فى الانتقال الى نحو الشمال مشرقا ومغربا يوما بعد يوم حتى تبلغ الجهة التى كانت تشرق منها والجهة التى كانت تغيب فيها فى حزيران وهذا دأبها دائما ابدا مادام الملوان

كذلك الناظر للقمر فى أول ليلة من الشهر يراه بعد غياب الشمس قوسا صغيرا مصفرا دقيقا معوجا كالعرجون القديم وفى كل ليلة يرتفع فى السماء نحو المشرق بمقدار معين فى كل ليلة ويزداد نوره

شيئا فشيئا كذلك حتى يكمل نوره ويصير بدرا كاملا وحينئذ يشرق من جهة الشرق عند غروب الشمس ولا يزال يتاخر شروقه من جهة الشرق عن غروب الشمس بمقدار معين فى كل ليلة حتى يقرب من الشمس ويعتريه المحاق ثم يبدو اول الشهر بعد غياب الشمس قوسا صغيرا مصفرا دقيقا معوجا كالعرجون القديم وهذا دأبه دائما ابدا مادام الملوان

هذا هو المشاهد فى حركات الاجرام السماوية على العموم وفى الشمس والقمر على الخصوص فقال أرباب الهيئة اليوم كما قال من قبلهم فيثاغورس وتلامذته ان كل مايرى من حركات الاجرام السماوية والشمس والقمر من المشرق الى المغرب على وجه ماتقدم هى حركات ظاهرية خيالية فقط منشؤها حركة الارض الحقيقية ودورانها على محورها من الغرب الى الشرق وقالوا ان الارض كرة عظيمة سابحة فى الفضاء عائمة فى الهواء المالىء لذلك الفضاء وليست لها حافة ينتهى اليها من يجوب سطحها بل كل من جاب سطحها وأتم دورانه حولها ينتهى الى النقطة التى بدأ منها سيره وان كل هذه الاجرام السماوية من الشمس والقمر وغيرهما من هذا النظام الشمسى يراها الناظر اليها متحركة ودائرة حول الارض مرة فى كل اربع وعشرين ساعة من المشرق نحو المغرب وهذه الحركة هى التى تسمى بالحركة اليومية التى بها يتعاقب الليل والنهار وبها يولج الله الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وبها يغشى الليل النهار وبالعكس وبها يسلخ الله الليل من النهار وبالعكس وبها يتعاقب الظلمة والنور على سطح كرة الارض وهكذا تدور الارض على محورها دائما ابدا اى على خط وهمى مار بالمركز والقطبين فيحصل من ذلك اختلاف الليل والنهار وتتم الدورة الواحدة فى اربع وعشرين ساعة تقريبا فاذا كانت الشمس مثلا على هاجرة وسط النهار تعود الى تلك الهاجرة بعد اربع وعشرين ساعة تقريبا

فدوران الارض على محورها على الوجه المذكور جعل كل موضع على سطحها مظلما تارة لغياب الشمس عنه ومنيرا تارة بشروقها عليه فما من جزء من سطح الارض الا ينتقل من الظلمات الى النور ومن النور الى الظلمات والشمس فى كل هذه الاحوال لا حركة لها الا حركتها الذاتية على نفسها وحركتها مع نظامها على ماقدمناه وهى كذلك فى القبة الزرقاء تضىء على المواضع التى هى فى نصف الكرة المتجهة اليها واما المواضع المتجهة عنها فهى اما فى الغسق الحالك واما فى الظلام الدامس واما فى الشفق واما فى شروق واما فى غروب واما فى زوال وهكذا حالها دائما أبدا مادام الملوان

ولولا هذا الدوران ماتعاقب الليل والنهار بل كانت المواضع فى النصف المتجهة اليه الشمس فى نهار دائم والتى فى النصف الآخر فى ليل دائم فيشتد الحر فى الاولى جدا بحيث لا يمكن ان يعيش الحيوان والنبات فيها ويشتد البرد فى المواضع الاخرى بحيث لا يمكن ان يعيش فيها حيوان ولا نبات ولكن بسبب هذا الدوران يكون شروق الشمس عند ما تصل نقطة على سطح الارض الى حيث ترى بعد الظلام بغيابها ويكون نصف النهار اى وقت الظهر عندما تصل الشمس الى حيث تكون على هاجرة النقطة ويكون الغروب عند ما تصل الشمس الى حيث تختفى وتغرب وهكذا بسبب هذا الدوران تختلف اوقات النهار والليل والله يقلب الليل والنهار

ومما لا شك فيه اننا اذا قلنا بان حركة الشمس والقمر وسائر الاجرام السماوية ودورانها من المشرق الى المغرب التى بها الدورة اليومية هى حركة ظاهرية خيالية تابعة لحركة الارض ودورانها على وجه ماسبق او قلنا ان حركة الشمس والقمر وسائر الاجرام السماوية ودورانها من المشرق الى المغرب التى بها الدورة اليومية حركة قسرية ناشئة من حركة الفلك الاعظم*فالنظام الذى استدل به الحق جل جلاله على ما

استدل عليه مما ذكر واحد لا يتخلف ولا يتغير على كل حال ولكن القول المختار والحقيق بالقبول هو القول الذى ذهب اليه اهل الهيئة اليوم دون القول بان الشمس والقمر وسائر الاجرام السماوية تدور حول الارض وذلك لان دوران جرم واحد على محوره أهون واقرب الى العقل من دوران الوف الوف من الاجرام السماوية الكبار منها والصغار والقريب منها والبعيد حول جرم واحد صغير بالنسبة اليها وهى كلها تتم الدورة اليومية فى أربع وعشرين ساعة أى فى مدة واحدة خصوصا اذا راعينا ان الجرم كلما كان أكبر جرما كانت قوة الجاذبية اقوى ومن المعلوم الذى لا ريبة فيه ان الشمس اكبر الاجرام السماوية فى نظامها الذى منه الارض فتكون قوة الجذب فيها اقوى فالمعقول حينئذ انها هى التى تجذب الارض وغيرها من الاجرام التابعة لها فتجعلها دائرة حولها وتكون هى المحور الذى تدور عليه الارض وسائر الاجرام وتكون هى مركز عالمنا هذا دون الارض وهذا فضلا عن الادلة العقلية والنقلية التى قامت على دوران الارض*أما الادلة العقلية فقد تكفل ببيانها علماء الهيئة الجديدة وبسطوها فى كتبهم فارجع اليها وقد قدمنا بعضها وسيأتى شىء منها*وأما النقلية فستأتى فى موضعها ان شاء الله تعالى

وبالمقارنة بين ماقدمناه من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الصحيحة وماقدمناه فى معانيها وبين ماقاله علماء الهيئة قديما وحديثا خصوصا ماقاله علماء الهيئة اليوم لا تجد أن شيئا مما قاله علماء الهيئة مطلقا يصادم شيئا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية بل أن كلا من تلك الآيات والاحاديث كما يتمشى مع ماقاله علماء الهيئة القديمة يتمشى مع ماقاله علماء الهيئة اليوم والفيثاغورسية من قبل الجميع ومما يدل على ذلك ماصرح به امام الحرمين وغيره كما قدمناه أنه لا خلاف فى أن الشمس تغرب عند قوم وتطلع على آخرين والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين وبين الليل والنهار اختلاف مافى الطول والقصر الا عند خط الاستواء وفى بلاد بلغار قد يطلع الفجر قبل أن يغيب شفق الغروب وفى عرض تسعين لا تزال الشمس طالعة مادامت فى البروج الشمالية وغاربة مادامت فى البروج الجنوبية فالسنة نصفها ليل ونصفها نهار على ما فصل فى موضعه والادلة قائمة على انها لا تسكن عند غروبها والا لكانت ساكنة عند طلوعها بناء على أن غروبها فى افق طلوع فى غيره وأيضا هى قائمة على انها لا تفارق فلكها الى آخر ماقدمناه*ويدل على ذلك أيضا ماقاله الفقهاء من انه لا خلاف لاحد من العلماء فى اختلاف المطالع لانه من الامور الثابتة بالمشاهدة والعيان وقد وافق الشرع العقل فى ذلك كما انهما متفقان على الدوام الا ترى ان الشارع بنى على اختلاف المطالع كثيرا من احكامه فبنى عليه اختلاف أوقات الصلاة بين طلوع فجر عند قوم فيخاطبون فيه بصلاة الصبح وزوال شمس عند آخرين فيخاطبون فيه بصلاة الظهر وبلوغ ظل كل شىء مثله أو مثليه عند آخرين غير الفريقين الاولين فيخاطب هؤلاء الآخرون بصلاة العصر وغروب شمس عند فريق رابع فيخاطبون بصلاة المغرب وغروب شفق أحمر أو أبيض عند فريق خامس فيخاطبون بصلاة العشاء وهكذا واختلاف هذه الاوقات فى لحظة واحدة انما هو باختلاف المطالع فكل طلوع فجر عند قوم فهو غروب شمس أو زوال لها أو غير ذلك عند آخرين وهكذا يقال فى الباقى وبنى عليه وقت الوقوف بعرفة فى الحج فقال الفقهاء ان العبرة فيه بمطلع أهل مكة وبنى عليه معرفة من تقدم أو تأخر موته فى المواريث وذلك كله متفق عليه لا نعلم فيه خلافا بين العلماء وانما وقع اختلافهم فى اعتباره فى رؤية هلال رمضان قال الزيلعى والاشبه أن يعتبر لان كل قوم مخاطبون بما عندهم وانفصال الهلال عن شعاع الشمس يختلف باختلاف الاقطار فاذا زالت الشمس فى المشرق لا يلزم منه أن تزول فى المغرب وكذا طلوع الفجر وغروب الشمس بل كلما تحركت الشمس درجة فتلك طلوع فجر لقوم وطلوع شمس

لآخرين وغروب لبعض ونصف ليل لغيرهم اه وهذا كله لايتمشى الا اذا كانت الارض كرة وأن هناك حركة ينشأ عنها ويتكون بها الدورة اليومية وبها يختلف الليل والنهار ومطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب ومغاربالجميع ويستوى عندنا ان يكون المتحرك بتلك الحركة هى الارض على محورها من المغرب الى المشرق وأن حركات جميع الاجرام السماوية من المشرق الى المغرب حركات ظاهرية خيالية تبعا لحركة الارض المذكورة كما يقول بذلك علماء الهيئة اليوم وأن يكون المتحرك بتلك الحركة هو الفلك الاعظم وأن حركات جميع الاجرام السماوية من المشرق الى المغرب مرة فى كل أربع وعشرين ساعة هى حركات قسرية تبعا لحركة الفلك الاعظم كما يقول علماء الهيئة القدماء * وماجاء به القرآن والاحاديث الصحيحة النبوية لايختلف باختلاف المذهبين غير أن مذهب أهل الهيئة اليوم أقرب الى مادلت عليه الآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية والى الصواب كما مر بعضه وسيأتى باقيه أن شاء الله تعالى

وحيث تبين مما قدمناه ان الأيات القرآنية تدل على أن الله جعل الشمس ضياء وسراجا وهاجا والقمر نورا وقدره منازل لكى نعلم عدد السنين والحساب وعلم مما سبق ايضا أن السنين التى نعلمها بذلك الجعل الالهى تعم السنين القمرية والشمسية وقد بينا ما يتعلق بالدورة اليومية وان الاقرب للعقل انها ناشئة عن حركة الارض على محورها تقطع فيها دورة فلك البروج مرة فى كل أربع وعشرين ساعة تقريبا وأن القرآن والاحاديث لم يذكر فيهما الا ما اتفق عليه الجميع وثابت بالعيان فيما يتعلق بالدورة اليومية* فنحن الآن نبين الدورة السنوية ومنشأها وأن ماجاء به الآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية هو ما اتفق عليه الجميع وثابت بالادلة القطعية* فنقول إن الكل متفقون على أن السنة القمرية واشهرها الاثنى عشر ناشئة عن اجتماع الشمس والقمر ومحاذاته لها اثنتى عشرة مرة فى الدورة السنوية التى هى عبارة عن دورة تقطع دائرة فلك البروج واجتماع القمر مع الشمس ومحاذاته لها اثنتى عشرة مرة فى تلك الدورة محقق ومشاهد بالعيان من حالة القمر ومظاهره واشكاله فى أول كل شهر قمرى وآخره على ما بيناه عند الكلام على منازله وكذلك لا خلاف فى أن السنة الشمسية واشهرها الاثنى عشر ناشئة عن مسامتة الشمس لكل برج من البروج الاثنى عشر التى قسموا عليها دائرة فلك البروج واعتبروا كل برج منها ثلاثين درجة واعتبروا دائرة فلك البروج ثلاثمائة وستين درجة وهذا أيضا معلوم ومحقق وثابت ومشاهد بالعيان فان اختلاف مشارق الشمس ومغاربها وكونها تشرق كل يوم فى نقطة من الافق الشرقى وتغرب فى نقطة تقابلها فى الافق الغربى تغايران نقطتى الغروب والشروق فى اليوم الآخر فاذا بدأت فى شروقها من نقطة من الافق وغربت فى نقطة تقابلها فى الافق الغربى نراها تعود الى النقطة التى بدأت منها بعد مضى هذه المسافة وقطعها هذه الدائرة ورأيناها تارة تشرق وتغرب جهة الشمال مدة ثم تشرق وتغرب جهة الجنوب مدة كما سبق بيانه فتكونت الايام من الدرجات والاشهر من مسامتة البروج التى كل برج منها ثلاثون درجة فاذا بدأت من مسامتة اول درجة من برج الحمل مثلا وجدناها تعود اليه ثانيا بعد هذه المسافة وهذا كله مشاهد لمن أراد أن يشاهده بالرصد او بمشاهدة الآثار التى تنشأ عن ذلك من حر و برد وطول نهار وقصر ليل و بالعكس ونحو ذلك ولا خلاف فيه وانما الخلاف فى منشأ وعلة الحركة التى بها تكون الدورة السنوية واشهرها شمسية كانت أو قمرية *فقال البطليوسية ان علة هذه الحركة ومنشأها هى حركة الشمس حركة ذاتية من المغرب الى المشرق تقطع بها دائرة فلك البروج واعتبار تلك الحركة وحركة

القمر الذاتية التى هى اسرع من حركتها ويقطع بها تلك الدائرة اثنتى عشرة مرة فى كل مرة تقطعها الشمس مرة بحركتها فيحاذى الشمس اثنتى عشرة مرة وتتكون من ذلك السنة القمرية العربية وأشهرها الاثنى عشر وباعتبار محاذات الشمس بحركتها الذاتية المذكورة لكل برج من البروج الاثنى عشر وقطعها لتلك البروج برجا بعد برج حتى تعود الى النقطة التى ابتدأت منها تتكون السنة الشمسية واشهرها الشمسية ومذهب هؤلاء مبنى على أن الارض ساكنة لاتتحرك* وقال الفيثاغورسية وعليه علماء الهيئة اليوم إن الارض كما تدور وتتحرك على محورها وأن هذه الحركة هى علة الدورة اليومية وتعاقب الليل والنهار كذلك هى أيضا تدور وتتحرك حركة ذاتية اخرى حول الشمس بهما تقطع دائرة فلك البروج و باعتبار حركة الارض هذه تتحرك الشمس حركة ظاهرية خيالية تقطع بها دائرة فلك البروج تبعا لحركة الارض وتحاذى فى هذه الاثناء كل برج من البروج الاثنى عشر فتحاذى البروج الشمالية الستة تارة وتحاذى البروج الجنوبية الستة أيضا تارة اخرى ومن ذلك تتكون السنة الشمسية وأشهرها الاثنى عشر وتختلف مشارق الشمس ومغاربها على الوجه الذى قدمناه ويجتمع معها القمر ويحاذيها اثنتى عشرة مرة فتتكون منها السنة القمرية كما قلنا * وعلى كل حال فالنتيجة واختلاف المناظر والاشكال لكافة الاجرام السماوية وتكون الايام والسنين لا يختلف ولا يتغير على كل من الطريقتين ولا خلاف فيه لاحد * الا ترى أننا اذا نظرنا الى النجوم فى ليالى السنة فاننا لانراها فى موضع واحد من السماء كل ليلة بل نشاهد أن النجوم التى كانت مشرقة عند الغروب هذه الليلة تشرق قبل الغروب ليلة غد وان كنا لانراها لحجب الشمس لها و بعد ثلاثة أشهر تكون تلك النجوم فى كبد السماء عند الغروب و بعد ستة اشهر تغيب عند الغروب والنجوم التى نراها فى ساعة نفرضها فى هذه الليلة لا نرى منها واحدا بعد ستة أشهر بل نرى صورا اخرى ونجوما اخرى و بعد ستة أشهر اخرى وتمام السنة نرى فى الساعة التى فرضناها نفس النجوم والصور التى كنا رأيناها قبل سنة فى الساعة التى كنا فرضناها أولا فكيف نعلل هذه الظاهرة وهذه المناظر التى يمكننا أن نحققها بانفسنا اذا شئنا وحررنا النظر الى تلك النجوم ولو بالعين المجردة سنة أو سنتين ولاشك أننا نجزم بعد ذلك بان لهذه الظاهرة وهذه المناظر علة ومنشأ فلزمنا البحث عن ذلك *فقال علماء الهيئة اليوم ان ذلك لا يكون ممكنا لو كانت الارض ثابتة ساكنة فى موضعها لانهم دققوا البحث ورصدوا الشمس بالنظارات الملونة فعلموا بالمشاهدة ان الشمس ليس لها حركة ذاتية الا حركتها التى على محورها والتى تتحركها مع نظامها فليس لها حركة ذاتية تقطع بها دائرة فلك البروج وان الافلاك ليست متلاصقة بل بين كل فلك وفلك بعد شاسع وان حركة الشمس التى بها يتعاقب الليل والنهار والظلمة والنور على سطح الكرة الارضية لا يمكن أن تكون تابعة لما يسمونه فلكا أعظم لان ذلك مبنى على وجوده وعلى أن سائر الافلاك ومنها فلك الشمس فى جوفه وملتصق بعضها ببعض كالتصاق طبقات البصلة وان الفلك الاعظم وسائر الافلاك متحركة وبحركتها تتحرك الكواكب تبعا لها كما يتحرك سائر الافلاك بحركة الفلك الاعظم حركة قسرية غير حركاتها الذاتية وهذا كله مما لم يثبت بل الذى ثبت خلافه فتعين حينئذ أن تكون حركة الشمس التى بها يتعاقب الليل والنهار حركة عرضية ظاهرية تابعة لحركة الارض على محورها كما سبق وأن حركتها التى بها يحاذيها القمر فى اثناء قطعها دائرة فلك البروج وتتكون منها السنة القمرية واشهرها والتى بها تحاذى البروج الاثنى عشر وتقطعها برجا برجا حتى تقطع دائرة فلك البروج وتتكون منها السنة الشمسية واشهرها الاثنى عشر حركة عرضية ظاهرية أيضا تابعة لحركة الارض ودورانها حول الشمس *

وملخص ماقالوه ان اختلاف مناظر السماء واجرامها وحركاتها فى مدار كل سنة ظاهر مشاهد لاخلاف فيه

كما تقدم لك لكن الكلام في علة ذلك الخلاف وهذه المناظر وينحصر ذلك في أمرين تكون حركة احدهما هي العلة في ذلك الاختلاف * فاما أن نقول ان علة اختلاف هذه المناظر هي حركة الشمس ودورانها حول الارض في كل سنة من المغرب الى المشرق حتى تقطع دائرة فلك البروج مرة كما يقول البطليموسية * أو نقول ان علة ماذكر هي حركة الارض ودورانها حول الشمس من المغرب الى المشرق حتى تقطع دائرة فلك البروج مرة كما يقول علماء الهيئة اليوم وقد ذكر كل من الفريقين ادلة على مايدعيه لكن قد علمت ان علماء الهيئة اليوم بالرصد بواسطة النظارة المعظمة الملونة وجدوا أن الشمس ليس لها حركة ذاتية بها تدور حول الارض فبالضرورة تكون علة اختلاف المناظر السابقة هي حركة الارض فتكون الارض هي التي تدور حول الشمس لانه متى بطل كون احد الامرين المذكورين علة ولا ثالث لهما يصلح للعلية باتفاق الفريقين تعين أن يكون الآخر علة

وانما قلنا ان تلك الدورة تكمل في سنة واحدة لاننا لو قلنا فرضا ان الدورة تكمل في ستة أشهر أو أقل لعادت مناظر النجوم التي قدمناها في كل ستة أشهر أو أقل كما كانت والذي نشاهده من حالة النجوم ومناظرها انها لاتعود الى حالها والى النقطة التي بدأت منها الا بعد سنة كاملة وهذا هو اصل انقسام الوقت الى سنين أي كلما كملت دورة واحدة للارض حول الشمس من المغرب نحو المشرق تكون قد قطعت بهذه الدورة دائرة فلك البروج مرة فنقول قد مضت سنة واحدة اي ان الارض تعود في سنة الى الموضع الذي كانت فيه بالنسبة الى الشمس قبل سنة أي انها تعود الى النقطة الاولى التي ابتدأت منها بالنسبة الى الشمس كما كانت فاذا تكررت الدورات وتعددت تتعدد السنون بعددها فاذا تكررت مرتين من ابتداء حادث معين نقول قد مضى لحدوثه سنتان واذا تكررت ثلاث مرات نقول قد مضى من وقت حدوثه ثلاث سنوات وهكذا ولا يتكون من تكرارها وتعددها مهما بلغ في الكثرة شيء آخر يسمى باسم آخر وعلى كل حال فهذه المناظر وهذه الاختلافات في حركات الاجرام السماوية موجودة متكررة في كل سنة بنظام تام لاتختلف ولا تتغير ولا تتخلف في كل أقسام الكرة الارضية ولذلك قال تعالى (لتعلموا عدد السنين والحساب) فأشار تعالى كما قال المفسرون بتخصيص العدد بالسنين الى انه لم يعتبر في السنين المتكررة الا العدد ولا يعتبر فيها عند تكررها معنى آخر مغاير لمراتب العدد وقالوا ان المراد بالحساب حساب الاوقات وذلك مثل معرفة الماضي من الشهر والباقي منه وكذا من الليل والنهار فاعتبر في الاوقات معنى آخر مغاير لمراتب العدد وتحقيقه ان الحساب هو احصاء ماله كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها عدد معين له اسم خاص وحكم مستقل كاسم السنة المتحصلة من تكرير الشهر اثنتي عشرة مرة فاذا كمل العدد اثني عشر شهرا حصل عدد معين له اسم خاص هو السنة وحكم خاص بحسب مايحدث في أيامها وشهورها وفصولها وكاسم الشهر المتحصل من تكرير الايام ثلاثين مرة مثلا فاذا كمل عدد الايام ثلاثين يوما مثلا حصل عدد معين له اسم خاص هو شهر كذا وحكم خاص بحسب مايحدث في ايامه وكاسم اليوم المتحصل من تكرير الساعات فاذا كمل عدد الساعات اربعا وعشرين ساعة حصل منها عدد معين له اسم خاص هو يوم كذا ونهار كذا أو ليلة كذا وهكذا يقال في تكون الساعات التي هي اجزاء الايام من اجزائها التي هي الدقائق وفي تكون الدقائق من الثواني وهكذا

فانت ترى ان السنين المعدودة لما لم يعتبر فيها تحصيل عدد معين له اسم خاص وحكم خاص غير اسامي مراتب الاعداد ولا حكم مستقل لهذا العدد المتكون من تكرارها أضيف اليها العدد فقال تعالى عدد السنين فعلم ان تحصيل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف والوف الالوف وهكذا أمر اعتباري لا يجدي في تحصيل ماتكون من تكرر العدد نفعا بل يكون الاسم الخاص والحكم المستقل لهذا المتكرر نفسه لا لما تكون

من تكراره * ولما اعتبر في الاوقات المحسوبة تحصيل ماذكر من المراتب التي لها اسام خاصة وأحكام مستقلة علق سبحانه الحساب بها المنبيء عن ذلك فالسنة من حيث تحققها في نفسها مما يتعلق به الحساب وانما الذي يتعلق به العدد طائفة منها متكونة من تكرارها وتعلق الحساب في ضمن تلك الطائفة بكل واحدة منها من تلك الحيثية المذكورة أعني حيثية تحصلها من عدة الشهور قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد تحصل كل واحد منها من عدة ساعات وهكذا فان ذلك هو وظيفة اهل الحساب ومن حيث أنها واحد من آحاد تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر معها شيء غير ذلك

فانظر رحمك الله نظر المنصف الموفق لهداه كيف أشارت هذه الآية القرآنية باضافة العدد الى السنين الى انه لا توجد دورة أخرى تتكون من السنين بتكرارها وتسمى باسم خاص ويكون لها حكم مستقل ويتعلق الحساب بالاوقات الى انها بتكررها يتكون منها ماذكرناه فالساعات اذا تكررت وبلغت اربعا وعشرين ساعة تمت الدورة اليومية وتكون منها يوم وليلة ولكل ساعة من هذه الساعات اسم يخصه كاسم الزوال واسم الغروب واسم الشفق واسم الفجر ونحو ذلك وحكم مستقل كذلك بحسب مايحدث في كل ساعة منها من الحوادث الكونية والايام اذا تكررت وبلغت مقدارا معينا كانت شهرا له اسم يخصه وحكم مستقل واذا تكررت الشهور وتمت دورة فلك البروج كانت سنة وكان لها اسم يخصها كاسم السنة وحكم مستقل واذا تكررت الدورة السنوية بعد ذلك فلا يتكون منها دورة اخرى يكون لها اسم خاص وحكم مستقل بل كل دورة متكررة ليس لها الا اسم السنة وحكم السنة فقط كما فصلناه من قبل * فكيف بعد هذا كله يقال أن ما يقوله علماء الهيئة يصادم الآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية ويؤخذ هذا القول باطلاقه وعلى علاته سبحانك هذا بهتان عظيم * وربما كان الذي يقول هذه المقالة على علاتها من أشد الناس تمسكا بالدين الاسلامي ولكن بمقالته هذه قد ينكر ماهو ثابت بالبراهين الهندسية والحساب القطعي فيضر دينه أكثر مما يضره أعداؤه فهو كما قال الغزالي صديق جاهل فالعدو العاقل خير منه

فان قلت مامعنى قوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) وهل في هذه الآية مايصادمه ماقاله علماء الهيئة

قلت لايوجد في هذه الآية مايصادمه ماقاله علماء الهيئة واليك البيان * قال الالوسي في تفسيره وغيره في غيره ان معنى هذه الآية ان الشمس لايصح ولا يتسخر ولا يتسهل لها أن تدرك القمر في سلطانه بان تجتمع معه في الوقت الذي حده الله تعالى له وجعله مظهر السلطانه فان الله عز وجل جعل لتدبير هذا العالم بمقتضى الحكمة لكل من النيرين الشمس والقمر حدا محدودا ووقتا معينا يظهر فيه سلطانه فلا يدخل أحدهما في سلطان الآخر بل يتعاقبان الى أن ياتي أمر الله عز وجل * وهذه الجملة تنفي أن تدرك الشمس القمر فيما جعله الله له وقوله تعالى ولا الليل سابق النهار تنفي أن يدرك القمر الشمس فيما جعله الله لها أي ولا آية الليل سابقة آية النهار ولا ظاهر سلطانها في وقت ظهور سلطانها والى هذا المعنى يشير كلام قتادة والضحاك وعكرمة وأبي صالح واختاره الزمخشري ليناسب قوله تعالى لا الشمس ينبغي لها ولان الكلام في الآيتين دل عليه أولا قوله تعالى والشمس تجري لمستقر لها الآيتان وآخرا قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) وعبر بالادراك أولا وبالسبق ثانيا على ما في الكشاف لمناسبة حال الشمس من بطء السير وحال القمر من سرعته ولم يقل ولا القمر سابق الشمس ليؤذن على ماقال الطيبي بالتعاقب بين الليل والنهار وبنصوصية التدبير على المعاقبة فانه مستفاد من الحركة اليومية التي مدار تصرف كل منهما عليها * وفي الكشف التحقيق بيان معاقبة كل من الشمس والقمر في ترتيب الاضاءة وسلطانه على الاستقلال * وكذلك اختلاف الليل والنهار فقيل ولا الليل سابق النهار كناية عن سبق آيته

آيته فحصلت الدلالة على الاختلاف ايضا إدماجا لانها لا تنافى ارادة الحقيقة وجاء من ضرورة التقابل هذا المعنى فى النهار أيضا من قوله لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولما ذكر مع الشمس الادراك المؤذن بانها طالبة للحاق قيل لا ينبغى رعاية للمناسبة وجيء بالفعل المؤذن بالتجدد ولما نفى السبق فى المقابلة أكد ذلك بان جيء بالجملة الاسمية المحضة من دون الانبغاء لانه مطلوب اللحوق انتهى هذا ماقاله المحققون وهو لا يخرج عن بيان تعاقب الشمس والقمر لانهما لا يجتمعان فى وقت واحد وسلطان واحد و بيان أن تعاقب الليل والنهار تابع لتعاقب ظهور الشمس على سطح الارض وخفائها كما مر غير مرة ومن هذا الذى قاله المفسرون وقلناه تعلم أن هذه الآية ليس فيها شئ يصادم ماقاله علماء الهيئة بل فيها مايوافقه تمام الموافقة ويتفق عليه السابقون والمتأخرون

فان قلت مامعنى قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) وهل فى هذه الآية مايصادم ماقاله علماء الهيئة

قلت ليس فيها شئ يصادم ماقاله علماء الهيئة وان كان فيها مايخالف ظاهرها لما قاله غيرهم من علماء الهيئة المتقدمين واليك البيان

قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره أى كل واحد من الشمس والقمر اذ هما المذكوران صريحا والتنوين عوض عن المضاف اليه وقدره بعضهم ضمير جمع العقلاء ليوافق مابعده أى كلهم وقدره آخر اسم اشارة أى المذكور من الشمس والقمر وقوله فى فلك هو كما قال الراغب مجرى الكواكب سمى بذلك لاستدارته كفلكة المغزل وهى الخشبة المستديرة فى وسطه وفلكة الخيمة وهى الخشبة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة و يسبحون يسيرون فيه بانبساط وكل من بسط فى شئ فهو يسبح فيه ومنه السباحة فى الماء وهذا المجرى فى السماء ولا مانع عندنا أن يجرى الكوكب نفسه فى جوف السماء وهى ساكنة لا تدور أصلا وذلك بأن يكون فيها تجويف مملوء هواء أو جسم لطيف مثله يجرى الكوكب فيه جريان السمك فى الماء أو البندقة فى الانبوبة المستديرة مثلا أو تجويف خال من سائر مايشغله من الاجسام يجرى الكوكب فيه أو بان السماء بأسرها لطيفة أو مايجرى الكواكب منها لطيف فيشق الكوكب مايحاذيه ويجرى كما تجرى السمكة فى البحر أو فى ساقية منه وقد انجمد سائره وان انقطاع كرة الهواء عند كرة النار المماسة لمقعر فلك القمر عند الفلاسفة وانحصار الاجسام اللطيفة فى العناصر الثلاثة وصلابة جرم السماء وتساوى أجزائها واستحالة الخرق والالتئام واستحالة وجود الخلاء لم يتم دليل على وجود شئ منه * وأقوى مايذكر فى ذلك شبهات أوهن من بيت العنكبوت وانه ورب السماء لأوهن البيوت * وقالوا يحتمل أن يكون الفلك عبارة عن جسم مستدير ويكون الكوكب فيه يجرى بجريانه فى ثخن السماء من غير دوران السماء ولا مانع أن يعتبر هذا الفلك لبعض الكواكب الفلك الكلى ويكون فيه نحو مايثبته أهل الهيئة لضبط الحركات المختلفة من الافلاك الجزئية لكن لا يضطر لذلك بناء على القواعد الاسلامية كما لا يخفى الآن فى نسبة السبح الى الكواكب نوع اباء ظاهر عن هذا الاحتمال * وفى كلام الائمة من الصحابة وغيرهم ايماء الى بعض ماذكرنا أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال فى الآية وكل فى فلك فلكة كفلكة المغزل يسبحون يدورون فى أبواب السماء كما تدور الفلكة فى المغزل واخرج الاخيران عن مجاهد أنه قال لا يدور المغزل الا بالفلكة ولا تدور الفلكة الا بالمغزل والنجوم فى فلكة كفلكة المغزل فلا يدرن الا بها ولا تدور الا بهن * وفى الفتوحات المكية للشيخ الاكبر قدس سره جعل الله السموات ساكنة وخلق فيها سبحانه نجوما وجعل لها فى عالم سيرها وسباحتها فى هذه السموات حركات مقدرة لا تزيد ولا تنقص وجعلها عاقلة سامعة مطيعة واوحى فى كل سماء امرها ثم أنه عز وجل لما جعل لسباحة النجوم فى هذه السموات حدثت لسيرها طرق لكل كوكب طريق وهو قوله تعالى والسماء ذات

الحبك فسميت تلك الطرق افلاكا فالافلاك تحدث بحدوث سير الكواكب وهى سريعة السير فى جرم السماء الذى هو مساحتها فتحرك الهواء المماس لها فيحدث لسيرها اصوات ونغمات مطربة لكون سيرها على وزن معلوم فتلك نغمات الافلاك الحادثة من قطع الكواكب المسافات السماوية فهى تجرى فى هذه الطرق بعادة مستمرة قد علم بالرصد مقاديرها ودخول بعضها فى بعض فى السير وجعل سيرها للناظرين بين بطء وسرعة وجعل سبحانه لها تقدما وتأخرا فى أماكن معلومة من السماء تعينها اجرام الكواكب لاضاءة مادونها الى آخر ماقال * وقال الامام انه تعالى قادر على أن يجعل الكوكب بحيث يشق السماء فيجعل فيها دائرة متوهمة كما لو جرت سمكة فى الماء على الاستدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) والظاهر أن حركة الكوكب على هذا الوجه وارباب الهيئة (أى القديمة) انكروا ذلك للزوم الخرق والالتئام ان انشق موضع الجرى والتأم أو الخلاء اذا انشق ولم يلتئم والكل محال عندهم وعندنا لا محالية فى ذلك ومايلزم هنا هو الخرق والالتئام لانه المفهوم من يسبحون ولا دليل لهم على الاستحالة فيما عدا المحدد وهو هنا لشبهة ضعيفة لا دليل وظاهر الآية أن كلا من النيرين فى فلك أى مجرى خاص وهو مما يشهد به الحس وذهب الى نحوه فلاسفة الاسلام كغيرهم من الفلاسفة بيد أنهم يقولون باتحاد الفلك والسماء ولما سمعوا ممن قبلهم ان كلا من السبع السيارة فى فلك وكل الكواكب الثوابت فى فلك وفوق ذلك فلك يحرك الجميع من المشرق الى المغرب ويسمى فلك الافلاك لتحريكه اياها والفلك الاعظم لاحاطته بها والفلك الاطلس لانه كاسمه غير مكوكب وسمعوا عن الشارع ذكر السموات السبع والكرسى والعرش أرادوا أن يوفقوا بين الامرين فقالوا السموات السبع فى كلام الشارع هى الافلاك السبعة فى كلام الفلاسفة فلكل من السيارات سماء من السموات السبع والكرسى هو فلك الثوابت والعرش هو الفلك المحرك للجميع المسمى بفلك الافلاك وقد اخطأوا فى ذلك وخالفوا سلف الامة فالفلك غير السماء وقوله تعالى مع ماهنا (الم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) لا يدل على الاتحاد لما قلنا إن الكوكب فى الفلك والفلك مجراه فى السماء فيكون الكوكب فيها بلا شبهة فلا يحوج الجمع الى القول بالعينية الى آخر ما أطال به الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره من تزييف ماقاله علماء الهيئة مما ذكرنا ومما قالوه أيضا فى تزييف ما قاله هؤلاء انه يجوز ان يكون فيما سموه الفلك الاطلس كواكب لم يروها لبعدها جدا أو ترى وهى سريعة الحركة ولم يرصد كل كوكب فيتحقق بطء حركة الجميع وأنه يجوز أن يكون السيارات اكثر من سبع فيحتاج الى اكثر من سبع سموات * قال الالوسى ويؤيد هذا ظفر أهل الارصاد الجديدة بكوكب سيار غير السبع سموه باسم من ظفر به وأدركه وهو (هرشل) وبالجملة لا قاطع فيما قالوه اه مافيه الكفاية

وأنت اذا رجعت الى ماقرره علماء الاصول وغيرهم من القواعد التى يجب أن تراعى فى فهم الفاظ القرآن والعمل بها لا تشك فى أن قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) ظاهر فى أن السابح والسائر والدائر والمتحرك هو كل من الشمس والقمر وشئ آخر فان القواعد التى قررها العلماء فيما ذكر أن كل لفظ يرد فى القرآن أو الاحاديث ان كان له معنى شرعى عرف استعماله فيه من قبل الشارع حتى صار حقيقة عرفية وجب حمل ذلك اللفظ عليه ولا يجوز صرفه عنه الا بقرينة تمنع من ارادته لانه باصطلاح الشارع عليه صار هو الحقيقة وما عداه مجازا عنده فان لم يوجد من الشارع ماذكر وجب حمل اللفظ على معناه الحقيقى لغة المعروف فى لغة العرب لان القرآن نزل بلغة العرب مالم توجد قرينة تمنع من ارادة المعنى الحقيقى اللغوى فان وجدت القرينة المانعة لما ذكر حمل اللفظ على المعنى المجازى ومن ذلك يتبين انه اذا لم يوجد عن الشارع اصطلاح خاص فى لفظ من ألفاظ القرآن أو الحديث ولم توجد قرينة تمنع من ارادة معناه الحقيقى اللغوى وجب حمله على ذلك المعنى اللغوى وقد وجد فى

الآية المذكورة لفظ يسبحون واسناده الى كل من الشمس والقمر وأن السبح فى فلك فيجب حمل السبح هنا على المعنى الحقيقى الذى هو السير بانبساط كالسباحة فى الماء واسناده الى كل من النيرين على معناه الحقيقى ايضا فيكون كل منهما هو الذى يسبح ويسير نفسه وأن هذا السبح واقع فى فلك ويحمل الفلك على معناه اللغوى وهو مجرى الكوكب ويلزم ان يكون ذلك المجرى فيما يمكن فيه السباحة كالماء ونحوه ولم يقل أحد ان الافلاك من الماء فتعين ان تحمل الآية على ظاهرها وأن الكوكب يسبح فى فلكه أى يشق السماء فيجعل فيها دائرة متوهمة كما لو جرى سمكة فى الماء على الاستدارة على الوجه الذى قال الامام أنه هو المفهوم من هذه الآية وان الظاهر أن حركة الكواكب على هذا الوجه ومما لا شك فيه أن الواجب شرعا حمل لفظ القرآن على ظاهره والعمل بهذا الظاهر حتى يوجد ما يصرف اللفظ عن ظاهره ووجود ذلك الصارف دونه خرط القتاد

فتلخص من هذا الذى قلناه أن يحمل السبح على معناه الحقيقى واسناده لكل من الشمس والقمر وسير آخر على معناه الحقيقى والفلك على معناه الحقيقى الذى قاله الراغب والظرفية على معناها الحقيقى فليس الفلك الا مدار الكوكب والكوكب يدور بنفسه فيه وان ذلك المدار فى السماء كما يؤخذ مما ورد عن ابن عباس وان السماء ساكنة لا تتحرك وان السماء بأسرها جسم لطيف شفاف لا يحجب ما فوقه ولا ما تحته كما يدل على ذلك اننا نرى الكواكب السيارة السبع بدون أن يحجب فلك الاسفل رؤية الاعلى منها مع تحقق البعد بينها وأن حركة الكواكب فيها على الوجه الذى قاله الامام الرازى وان هذه الآية مع قوله تعالى (ألم تركيف خلق الله سبع سموات طباقا الآية) دليل على عدم تلاصق السموات بل تدل على تباعد طباقها خصوصا اذا انضم الى ذلك ما قدمناه من الاحاديث الدالة على ذلك ولا دليل فى هذا الباب على أكثر من ذلك وقدمنا لك ما ينفعك ومن ذلك الذى قررناه تعلم أن ظاهر هذه الآية لا يصادم ما قاله علماء الهيئة اليوم بل ينطبق عليه تمام الانطباق وأن ظاهرها لا يوافقه ما قاله علماء الهيئة القديمة بل يصادمه

هذا وقد علمت مما تقدم أن المفسرين اختلفوا فى الضمير المضاف اليه لفظ كل الذى ناب عنه التنوين فى قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) فمنهم من جعله راجعا للشمس والقمر ومنهم من جعله ضمير جمع العقلاء ليوافق ما بعده من ضمير الجمع الذى هو الواو فى قوله يسبحون ومنهم من قدره اسم إشارة وما حملهم على هذا الذى قالوه وعلى عدم حملهم الآية على ظاهرها الا ما ألفوه وصار لديهم كعقيدة مما اشتهر وارتكز فى أذهانهم من أن الارض ساكنة لا تتحرك كما هو مذهب القدماء من علماء الهيئة وهو المذهب الذى نقله الفارابى فى مؤلفاته العربية وتبعه أبو على ابن سينا وأخذ به فلاسفة الاسلام على خلاف ما كان عليه فيثاغورس ومن تبعه وقدمناه فى المقدمة من ان الارض متحركة على الوجه الذى فصلناه وحققه علماء الهيئة اليوم وأثبتوا ذلك ببراهين عدة بينوها فى كتبهم وحيث كان الأمر كذلك فلا داعى لارتكاب خلاف الظاهر من الآية بل الواجب أن تحمل على ظاهرها حيث لا صارف عنه كما قرره العلماء قاطبة فى فهم الفاظ القرآن والحديث كما قدمناه قريبا * وبناء على ذلك يجب ان يحمل الضمير فى قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) وناب عنه التنوين فى كل على ضمير الجمع حقيقة ليوافق الضمير المسند اليه الفعل بعده ويعود الضميران الى الأجرام الثلاثة المتقدمة عليهما التى هى الارض فى قوله تعالى (وآية لهم الارض الميتة أحييناها الآية) والشمس والقمر فى قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقرلها) وقوله تعالى (والقمر قدرناه منازل) وقوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) ولم يتقدم قبل الضميرين ما يصح أن يرجعا اليه الا هذه الاجرام الثلاثة * واذا سلمنا أنه يسوغ التأويل الذى ذكروه فى الضمير الذى ناب عنه التنوين فكيف يسوغ ذلك التاويل فى ضمير الجمع الذى اسند اليه يسبحون فان هذا الضمير لا خلاف لاحد فى أنه نص فى الجمع أو ظاهر فيه ظهورا بينا ولا دليل من جهة اللفظ أو العقل على صرف هذا الضمير عن مدلوله الحقيقى

وهو الجمع الحقيقى الا ما اعتقدوه ورسخ فى عقولهم من أن الارض ساكنة وظنوا أن ما أقيم على ذلك من الادلة صحيح برهانى وقد تبين فساده أو هو على الاقل احتمال عقلى لا يصح تأويل الآية من أجله * الا ترى انه عز وجل حين اقتصر على ذكر الشمس والقمر كما فى قوله تعالى (وسخر الشمس والقمر) قال سبحانه (كل يجرى لاجل مسمى) ولم يقل كل يجرون فاعاد الضمير الذى ناب عنه التنوين الى أحد النيرين الدائر فكأنه قال كل واحد منهما ولذلك أفرد الضمير الذى اسند اليه الفعل ايضا وقال يجرى ولو راعى مجموع النيرين وقدرنا الضمير الذى ناب عنه التنوين مثنى لقال يجريان كما هو أحد الوجهين فى مثل هذا التركيب ومن ذلك تعلم انه لما راعى مجموع الاجرام الثلاثة فى هذه الآية التى نحن بصددها قال وكل فى فلك يسبحون فاسند يسبحون الى ما هو نص أو ظاهر فى الجمع ليكون الضمير الذى ناب عنه التنوين ضمير جمع موافقة لما بعده ويعلم أن المراد من الجمع هنا هو ما فوق الاثنين ويؤيد القول بأن الارض متحركة لا ساكنة قوله تعالى فى سورة النمل (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ انه خبير بما تفعلون) وليست هذه الآية فى بيان أحوال يوم القيامة بعد النفخة الاولى أو الثانية كما قاله بعض المفسرين لان كونها فى بيان أحوال ذلك اليوم لا يلائمه قوله تعالى آخر الآية صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون لان التعبير بمثل هذه العبارة يدل على أن الغرض هو التفكر فى هذا الصنع المتقن ليدل على وجود الصانع وحكمته وتمام قدرته واحاطة علمه وعلى انه قادر على بعث من فى القبور وأن يأتيه سبحانه كل الخلائق داخرين ولا معنى لان يخاطبنا الحق سبحانه فى ذلك اليوم باننا ننظر ونتفكر فى هذا الصنع المتقن الصادر من الله الذى أتقن كل شىء لان ذلك اليوم هو اليوم الذى تكون الجبال فيه كالعهن المنفوش ذلك اليوم هو اليوم الذى تمور فيه السماء مورا وتسير الجبال سيرا ذلك اليوم هو اليوم الذى ينسف الله فيه الجبال نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ذلك اليوم هو الذى لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا فكيف يمكن لمن أراد أن يفهم القرآن على وجهه الصحيح أن يقول ان الله تعالى يقول لنا فى ذلك اليوم الذى ترجف منه الارض والجبال وتكون الجبال كثيبا مهيلا وترى الجبال تحسبها جامدة أى ثابتة ساكنة فى أماكنها لا تتحرك وهى تمر مر السحاب أى تسير سيرا سريعا كسير السحاب فالمعنى انك ترى الجبال فى ظاهر الامر ورأى العين لا فى الواقع ساكنة ثابتة فى اماكنها والحال انها متحركة حركة سريعة جدا حتى انها تسير سيرا سريعا مثل سير السحاب التى تسوقها الرياح وتسيرها سيرا حثيثا مع اننا فى يوم القيامة بعد النفخة الاولى أو الثانية نرى ونشاهد فى ظاهر الامر وباطنه وفى مرآى العين وفى الواقع الارض والجبال مرتجفة وتكون الجبال كثيبا مهيلا كالعهن المنفوش تسير سيرا آخر تكون فيه على الاحوال المذكورة فى القرآن بخلاف سيرها الآن فانه مع كونه غاية فى السرعة لا يشعر به من عليها ولا يختل به شىء من نظام العالم وذلك لان الله جلت قدرته وعظمت حكمته جعل الاجرام المتكاثرة العدد على وجه الالتصاق كاجزاء الارض مثلا اذا تحركت نحو سمت لا تكاد تبين حركاتها ولا يشعر بتلك الحركة من هو فوق تلك الاجرام * ألا ترى ان الذين فوق السفينة اذا كانت سائرة فوق بحر ماء هادىء غير متحرك لا تكاد حركة سيرها تبين ولا يشعر بها الراكبون عليها فكيف بعد هذا يمكن لاحد أن يفهم أن فى وقت النفخة الاولى أو الثانية تكون الجبال هكذا سبحانك هذا شىء عجاب * وانما الذى يتعين فهمه فى هذه الآية وحملها عليه انها سيقت استدلالا على حقية ما يقع يوم ينفخ فى الصور من فزع من فى السموات والارض الا من شاء الله فهو سبحانه يقول ان الذى خلق الجبال متحركة حركة سريعة جدا تسير سيرا حثيثا كسير السحاب الذى يسوقه الرياح وهى فيما ترونه فى مرآى أعينكم جامدة ثابتة فى أماكنها لا تتحرك وهى مع هذا السير الحثيث والحركة السريعة لا يختل نظامها ولا نظام ما عليها ولا يشعرون بحركتها ولا يضطربون لها قادر على أن يجعل ما ذكر يوم ينفخ فى الصور وتكون

هذه الآية فى الاستدلال على ماتقدم من أحوال الآخرة نظير أختها التى وقعت بعد قوله تعالى (و يوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ام ماذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) وهى قوله تعالى بعد ذلك (ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فان هذه الآية سيقت كما قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره دليلا على التوحيد وتجويز الحشر وبعث الرسل لان تعاقب الليل والنهار على وجه مخصوص غير متعين بحسب العقل بل كما يجوز هذا الوجه المخصوص عقلا يجوز غيره من الاحتمالات العقلية فتخصيص هذا الوجه الذى يتعاقب عليه الليل والنهار دون غيره يدل على أن الصانع واحد فاعل مختار قادر على الحشر وارسال الرسل الى آخر ماقالوه فى هذه الآية * فالذى ينبغى ان يقال أيضا فى قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة الآية) هو ماقلناه فيكون نظير ماقالوه فى قوله تعالى (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا الآية) وكما لم يدل ذكر هذه الآية بعد قوله تعالى (ويوم نحشر الآية) على أنها متعلقة باحوال الآخرة لعدم ملاءمتها لذلك كذلك لا يدل ذكر قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة الآية) بعد قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور الآية) على انها متعلقة باحوال الآخرة لعدم ملاءمتها لها * هذا ما يليق أن يفهم فى هذه الآيات وحينئذ تكون الآية ظاهرة فى أن الارض متحركة بحركة سريعة جدا لان الجبال جزء من الارض فلو كانت متحركة وحدها لاقتضت حركتها انفصالها عن الارض واختل النظام ورؤيت تلك الحركة بالعيان لكل انسان فلما لم يكن كذلك كانت حركة الجبال تبعا لحركة الارض ومتى كانت الآيتان المذكورتان دالتين بظاهرهما على حركة الارض وطبعا تكون حركتها على الاستدارة لانها لو كانت على استقامة لاختل نظام العالم لان الحركة المستقيمة تقتضى اختلاف وضع المتحرك وانتقاله من مكان الى مكان وقطع مسافة مستقيمة فيختل نظام العالم كما لا يخفى كانت الآيتان بظاهرهما دالتين على دوران الارض وتحركها حركة مستديرة فتكونان مؤيدتين لما أقامه علماء الهيئة اليوم من الادلة الاخرى على حركة الارض حركة مستديرة ومتى ثبت ان الارض متحركة كذلك كان لها مدار وفلك تدور فيه وذلك المدار فى الفضاء الممتلىء بالهواء الذى تسبح هى فيه واذا ثبت بالارصاد الصحيح بواسطة النظارة المعظمة الملونة كما قدمناه ان الشمس انما تتحرك حركة ذاتية على نفسها تتم فيها الدورة فى ٢٧ يوما و ١٢ ساعة و ٢٠ دقيقة كما قدمناه تعين حينئذ ان تكون الدورة اليومية والدورة السنوية ناشئتين عن حركتى الارض * الاولى منهما عن حركتها على محورها والثانية عن حركتها حول الشمس على ماقدمناه مفصلا وذكره علماء الهيئة اليوم وقال الالوسى أيضا فى تفسيره وغيره فى غيره فى قوله تعالى (كل فى فلك يسبحون) التى فى سورة الانبياء تنوينه عوض عن المضاف اليه واعتبره صاحب الكشاف مفردا نكرة أى كل واحد من الشمس والقمر واعترض عليه بان ابن هشام فى المغنى صرح بان المقدر اذا كان مفردا نكرة يجب الافراد فى الضمير العائد على كل كما لو صرح به وهنا قد جمع على اعتبار أن يكون جمعا معرفا أى كلهم ومتى اعتبر كذلك وجب عند ابن هشام جمع العائد وان كان لو ذكر لم يجب وابو حيان يجوز الافراد والجمع مطلقا فيجوز هنا اعتبار المضاف اليه مفردا نكرة مع ضمير الجمع بعد بناء على أن المجموع ليس فى فلك واحد وكان الضمير العائد على الشمس والقمر جمعا اعتبار التكثر بتكاثر المطالع فيكون لهما نظرا للمفهوم منهما الوضعى أفراد خارجية بهذا الاعتبار لا حقيقية ولهذا السبب يقال شموس واقمار وان لم يكن فى الخارج الا شمس واحدة وقمر واحد والذى حسن ذلك توافق الفواصل وزعم بعضهم انه غلب القمران لشرفهما على سائر الكواكب فجمع الضمير لذلك وقيل الضمير للنجوم وان لم تذكر لدلالة ماذكر عليها وقيل الضمير للشمس والقمر والليل والنهار وقيل عليه أن الليل والنهار لا يحسن وصفهما بالسباحة وان كانت مجازا عن السير واختار ضمير العقلاء اما لانهما عقلاء حقيقة كما ذهب اليه بعض

المسلمين كالفلاسفة أو لانهما عقلاء ادعاء وتنزيلا حيث نسب لهما السباحة وهى من صنائع العقلاء والفلك فى الاصل كل شىء دائر ومنه فلكة المغزل والمراد به هنا على ماروى عن ابن عباس والسدى رضى الله عنهم السماء وقال اكثر المفسرين هو موج مكفوف تحت السماء يجرى فيه الشمس والقمر وقد أطالوا ايضا فى هذ الموضع فى الرد على ماقاله الفلاسفة فى حصر عدد الافلاك وفى حركاتها وحركات الكواكب وان الفلاسفة اختلفوا فى ذلك اختلافا كثيرا دل على عدم جزمهم بشىء فى ذلك كله الى أن قال الالوسى وجاء فى بعض الآثار ان الكواكب جميعها معلقة بسلاسل من نور تحت سماء الدنيا بايدى ملائكة يجرونها حيث شاء الله تعالى ولا يكاد يصح وان كان الله على كل شىء قديرا اه * وهذا ماقدمناه منسوبا لجمهور المحدثين وقلنا لك إنه لا يكاد يصح ووعدناك بذكره عن الالوسى * ثم قال أيضا والاخبار المرفوعة والموقوفة فى أمر الكواكب والسموات والارض كثيرة وقد ذكر السيوطى منها ماذكر فى رسالة الفها فى الهيئة السنية واذا رصدتها رأيت أكثرها مائلا عن دائرة بروج القبول اه

ونقول ان القول بان الفلك الذى تجرى فيه الشمس أو القمر موج مكفوف تحت السماء كما أن القول بان الكواكب جميعها معلقة بسلاسل من نور تحت السماء فضلا عن كونه مما لا يكاد يصح كل منهما مخالف لصريح الآيات القرآنية كقوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) وقوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) أى فيهن كما أجمع عليه المفسرون وقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) وكثير من الآيات الدالة صراحة على أن الشمس والقمر وسائر النجوم انما هى فى السماء لا تحتها فضلا عن ان القول بانها تحت السماء مخالف لما هو ثابت بالادلة الصحيحة العقلية حسبما دلت عليه الارصاد * ثم قال الالوسى وغيره ثم الظاهر أن يراد بالسباحة الحركة الذاتية ويجوز أن يراد بها الحركة العرضية بل قيل ان هذا اولى لان تلك غير مشاهدة وهذه مشاهدة بل عوام الناس لا يعرفونها * وقيل يجوز أن يراد بها مايعم الحركتين وهذا اولى فيما أرى لانه يكفى فى الحركة الذاتية أن تكون معلومة ومشاهدة بآيات الرصد والحساب الصحيح لمن بلغ مبلغ التواتر من الخواص ويخبرون غيرهم واستنبط بعضهم من نسبة السباحة الى الكواكب أنه ليس هناك حامل له يتحرك بحركته مطلقا بل هو متحرك بنفسه فى الفلك تحرك السمكة فى الماء اذ لا يقال للجالس فى صندوق أو على جذع يجرى فى الماء سابح واختار أنه يجرى فى مجرى قابل للخرق والالتئام كالماء ودون اثبات استحالة ذلك العروج الى السماء السابعة اه ماقاله الالوسى مع زيادة وهذا الذى قاله هو وغيره يوافق ماقدمناه من أن الافلاك ليست الا مجارى الكواكب وتلك المجارى قابلة للسباحة فيها كالماء والهواء ونحوه وانها فى نفس السماء * وأنت اذا تأملت ماقاله ابن هشام وماقاله ابو حيان تجد أن ماقاله ابن هشام له وجه وجيه وهو وجوب المطابقة بين الضمير ومرجعه الا اذا كان لفظه مفردا ومعناه جمعا فحينئذ يجوز أن يكون الضمير مفردا نظرا للفظ وجمعا نظرا للمعنى فان كان مراد ابى حيان انه يجوز الافراد والجمع مطلقا لم يكن له وجه وان كان مراده أنه يجوز عندما يكون المرجع له اعتباران باعتبار يكون مفردا وباعتبار يكون جمعا لم يكن بين ماقاله ابن هشام و بين ماقاله أبو حيان خلاف فى الحقيقة ويرشد الى أن مراد أبى حيان هو الثانى قولهم ان كون الضمير جمعا باعتبار التكثر بتكاثر المطالع أو بغير ذلك مما قالوه اعتذارا عن جمع الضمير العائد على المثنى فى هذه الآية على زعمهم فانه لو جاز الافراد والجمع مطلقا ولم يكن المرجع جمعا معنى لما كان هناك حاجة الى هذا الاعتذار وتكلف ارتكابه * فتبين ان كلا من ابن هشام وأبى حيان يقول بوجوب المطابقة بين الضمير والمرجع أما لفظا ومعنى أو معنى فقط أو لفظا فقط وأما أنه لا يطابقه لا لفظا ولا معنى فلم يقل به أحد وهنا فى هذه الآية اذا قدرنا الضمير مفردا وجب أن يكون جمعا معنى باعتبار أن النكرة المفردة المقدرة بعد كل للعموم وان كان بدليا

ويكون معنى قول ابن هشام أن المقدر اذا كان مفردا نكرة أى كل واحد من الشمس والقمر يجب الافراد فى الضمير العائد على كل كما لو صرح بقوله كل واحد من الشمس والقمر فيقال يسبح أن وجوب ماذكر اذا اريد الحكم على كل واحد واحد على البدل كما هو مقتضى معنى لفظ كل الوضعى فانها بمقتضى وضعها بمنزلة قضايا متعددة بعدد افراد مادخلت عليه والحكم على كل فرد كانه لم يكن معه احد واما اذا نظرنا الى ان لفظ كل كما يفيد المعنى المذكور بوضعه يفيد ايضا العموم الشمولى باعتبار انها من ادوات الاستغراق وان معنى قولهم انها تفيد الحكم على كل فرد من افراد مادخلت عليه كانه لم يكن غيره ان كونه كذلك ليس قيدا فى المعنى الموضوع له حتى تقتضى ان لايكون محكوما عليه اذا كان معه غيره فتفيد حينئذ الحكم على كل فرد من افراد ما دخلت عليه انفرادا واجتماعا كما لا يخفى جاز حينئذ ان نقدره مفردا ويعود الضمير على كل جمعا باعتبار دلالتها على الشمول لانه حينئذ جمع معنى وهذا كله لايمنع من كون الظاهر من الآية أن المراد بالضمير ما فوق الاثنين * الا ترى الى انه سبحانه وتعالى فى الآيات التى اقتصر فيها على ذكر الشمس والقمر فى قوله تعالى (وسخر الشمس والقمر) قال كل يجرى الى اجل مسمى وافرد الضمير ولم يقل يجرون واما الآيات التى ذكرت فيها الارض والشمس والقمر جمع الضمير فقال (كل ف فلك يسبحون) وايضا الجواز الذى ذكره ابو حيان شىء وكون المراد من الآية هو الجمع شىء آخر فان ارادة الجمع منها لم يخالف فيه احد منهم ولكن بناء على ما اعتقدوه من ان الارض ساكنة وانه لم يتقدم على الضمير مايصح رجوعه اليه الا الشمس والقمر اضطروا للتوفيق بين ما اعتقدوه وبين المراد من الآية الى ارتكاب تاولات بعيدة جدا عن الظاهر من الآية تجعل الضمير جمعا مجازا باعتبارات لاداعى اليها ولايليق حمل نظم القرآن عليها وما ألجأهم الى ذلك الا ما اعتقدوه من ان الارض ساكنة لاحركة لها اخذا مما زعموه دليلا على ذلك مع ان القول بان الارض ساكنة هو قول قوم من الفلاسفة والقول بدورانها قول قوم آخرين منهم والآيات القرآنية والاحاديث النبوية لم تتعرض صريحا لا لدورانها ولا لسكونها ويستوى عندنا ان نقول بهذا او بهذا وان كان ظاهر هذه الآيات الثلاث التى قدمناها يدل على حركتها كما سبق بيانه هذا وكما قلنا لك فى آية يس ان الارض تقدم لها ذكر قبل قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) نقول لك ايضا فى آية الانبياء تقدم للارض ذكر قبل قوله تعالى (كل فى فلك يسبحون) حيث قال تعالى قبل ذلك وجعلنا فى الارض رواسى ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذى خلق الليل والنهار الآية فوجب ان يكون ضمير الجمع فى قوله تعالى هنا (كل فى فلك يسبحون) عائدا على هذه الاجرام الثلاثه لانها هى التى تصلح لذلك دون الليل والنهار كما علمت ولاداعى كما علمت للتأويل الذى ارتكبوه فى ضمير الجمع

وحيث ذكرنا لك هذه الآية فلنذكر لك مايتعلق بالجبال ايضا تتميما للفائدة وبيانا للخطأ الذى ارتكبه كثير من المفسرين فى جعلها رواسى ومايتعلق بها * فنقول و بالله التوفيق قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ان معنى رواسى ثوابت جمع راسية من رسى الشىء اذا ثبت ومعنى أن تميد بهم أى كراهية أن تحرك بهم وتضطرب بهم اولئلا تحرك بهم فحذف اللام لعدم الالباس والاول اولى وقد طعن بعض الكفرة المعاصرين فيما دلت عليه الآية الكريمة بان الارض لطلبها المركز طبعا ساكنة لايتصور فيها ميد ولو لم يكن فيها الجبال * واجيب * اولا بعد الاغماض عما فى طلبها المركز طبعا وسكونها من القيل والقال بجواز أن يكون الله تعالى قد خلق الارض يوم خلقها عرية عن الجبال مختلفة الاجزاء ثقلا وخفة اختلافا تاما أو عرض لها

الاختلاف المذكور ومع ذلك لم يجعل الله سبحانه لمجموعها من الثقل مالا يظهر بالنسبة اليه ثقل ما علم جل وعلا انه يتحرك عليها من الاجسام الثقيلة فيكون لها مركزان متغايران مركز حجم ومركز ثقل وهى انما تطلب بطبعها عندهم أن ينطبق مركز ثقلها على مركز العالم وذلك وان اقتضى سكونها الا انه يلزم أن تتحرك بحركة هاتيك الاجسام فخلق جل جلاله الجبال فيها فحصل لها من الثقل مالا يظهر معه ثقل المتحرك فلا تتحرك بحركه اصلا وكون نسبة ارتفاع اعظم جبل فى قطرها كنسبة تسع عرض شعيرة الى ذراع انما ينفع فى أمر الكرية الحسية وأما انه يلزم منه ان لايكون لمجموع الجبال ثقل معتد به بالنسبة الى ثقل الارض فلا ثم خلق الجبال ليس لهذه الحكمة فقط بل لحكم لاتحصى فلا يقال يغنى عن الجبال خلقها بحيث لايظهر للاجسام الثقيلة المتحركة عليها أثر بالنسبة الى ثقلها * وثانيا انها بحسب طبعها تقتضى أنها مغمورة بالماء بحيث تكون الخطوط الخارجة عن مركزها المنطبق على مركز العالم الى محدب الماء متساوية من جميع الجوانب فبروز هذا المقدار المعمور منها قسرى ويجوز أن يكون للجبال مدخل فى القسرى بانحباس الابخرة فيها وصيرورة الارض بسبب ذلك كزق فى الماء نفخ نفخا ظهر به شىء منه على وجه الماء ولولا ذلك لم يكن القسر قويا بحيث لا يعارضه ما يكون فوق الارض من الحيوانات وغيرها وذلك بموجب المبدأ الذى قد يفضى بها الى الانهار فتأمل هكذا قالوا * وانت اذا تأملت تجد أن كلا من الاعتراض والجواب مبنى على أن الارض ساكنة ثابتة فى مكانها لاحركة لها أصلا وان الارض لولا الجبال التى عليها لاضطربت بما فوقها واختل نظام ماعليها من الحيوان

ونقول أولا إنا لانسلم أن الارض ساكنة بل هى متحركة بحركات ثلاث الاولى على محورها والثانية حول الشمس والثالثة مع الشمس وسائر نظامها المستقر يعلمها الله تعالى ذلك تقدير العزيز العليم * وقوله تعالى أن تميد بهم مشتق من الميد إما بمعنى الحركة و إما بمعنى الاعطاء يقال ماد يميد إذا تحرك وماده يميده أعطاه فان قلنا ان معنى قوله تعالى أن تميد بكم أن تتحرك بكم أو أن تعطى بكم كان أن والفعل على كلا المعنيين مؤولا بالمصدر مفعولا لاجله لبيان العلة الغائية والحكمة الآلهية التى من أجلها جعل الله فى الارض رواسى اى هذه الجبال الرواسى الثوابت الشامخة فعلى الاول تكون الحكمة التى لاجلها جعل الله فى الارض هذه الرواسى هى تحركها بنا وبأعمالنا التى الهمنا الله اياها وفطرنا عليها لتأتى بالمائدة متاعا لنا ولانعامنا * وعلى الثانى تكون الحكمة التى لاجلها جعل الله فى الارض هذه الرواسى هى أن تعطينا المائدة باحمالنا فيها على وجه ماذكر ونسبة الاعطاء اليها لانها بما أودعه الله فيها من خصب التربة والاستعداد وقوة الانبات كانت سببا فى الاتيان بالمائدة متاعا لنا ولانعامنا

ومعنى هذه الآية على هذا الوجه الذى قلناه هو الذى يوافق ويطابق ما قالوه فى قوله تعالى فى سورة النازعات (والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم) فان قوله أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها وقع بيانا لقوله تعالى دحاها فكأنه قيل كيف دحاها قال أخرج ماءها الى آخره فالمراد بالدحو اخراج الماء والمرعى وارساء الجبال وقوله متاعا لكم ولانعامكم مفعول لاجله وقع علة غائية للدحو بالمعنى المذكور فكانه قال أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها لاجل متاعكم ومتاع أنعامكم وهذا ينطبق تمام الانطباق على ماقلناه فى تلك الآية * وثانيا من أين تدل هذه الآية على ماقالوه من ان المعنى جعل فيها رواسى كراهة أن تميد أو لئلا تميد بمعنى تتحرك وتضطرب فان الآية إنما تدل على أن الله تعالى منّ على عباده بنعمة عظمى هى جعله فى الارض رواسى لاجل أن تميد بهم وتميد لغة إما بمعنى تتحرك أو تعطى كما قلنا فمن أين أخذوا من الآية قولهم كراهة أو مخافة أن تتحرك وتضطرب وما هو الدليل على تقدير

هذا المحذوف مع أنه لا داعى الى تقديره الا حمله لهم الميد فى الآية على الحركة بمعنى اضطراب الارض بما عليها وهذا مخالف لمعنى اللفظ لغة ومن أين أخذوا أن الجبال إنما جعلت لمنع هذا الاضطراب مع أن رواسى جمع راسية بمعنى ثابتة فهى من الفعل اللازم وقوله تعالى فى آية النازعات والجبال أرساها إنما يدل على أن الله تعالى جعل الجبال راسية ثابتة فرست* ورست الذى منه رواسى مطاوع لارسى فالآيتان تدلان على أن الجبال رواسى بارساء الله تعالى وثابتة بتثبيته لا أنها جعلت لان ترسى غيرها وتثبته

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة النحل (وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم لعلكم تهتدون) فقال الالوسى وغيره ايضا فيها أى كراهة أن تميد بكم أو لئلا تميد والميد اضطراب عظيم اه* ولا يخفى أن الميد لغة كما قلنا إما الحركة او الاعطاء فمن أين فسروا الميد فى هذه الآية بالاضطراب العظيم حتى احتاجوا الى ما تكلفوه من تقدير كراهة او مخافة أو لئلا مما لا دليل على تقديره* ومن ذلك تعلم انه لا وجه لما قاله بعض المفسرين ان الارض كسفينة على وجه الماء والسفينة إذا لم يكن بها أجرام ثقيلة تضطرب وتميل من جانب الى جانب بأدنى شىء واذا وضعت فيها أجرام ثقيلة تستقر فكذا الارض لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت فالجبال بالنسبة اليها كالاجرام الثقيلة الموضوعة فى السفينة بالنسبة اليها اه * وقد تعقبه الامام الرازى أيضا بوجوه الاول على مذهب الحكماء وحاصله أن الارض أثقل من الماء بمقتضى طبيعتها فيلزم أن تغوص فيه لا أن تطفو أو ترسى بالجبال بخلاف السفينة والثانى على مذهب اهل الحق أن الاجسام ليس لها طبايع تقتضى حركة أو سكونا بل كل ما سكن من ساكن أو تحرك من متحرك فبقدرة الله تعالى والثالث حاصله ان ارساء الجبال لئلا تميد وتبقى على وجه الماء انما يعقل اذا كان الماء الذى استقرت على وجهه ساكنا فان كان سكونه فى حيزه المخصوص بمقتضى طبيعته فلم لا يقال إن سكون الارض فى حيزها المخصوص بطبيعتها أيضا وان كان سكونه بمحض قدرة الله تعالى فلم لم يقل إن سكون الارض كذلك فلا يعقل الارساء بالجبال على التقديرين* والرابع حاصله أن الارض يجوز أن تميد بكليتها وتتحرك ولا يشعر بحركتها أهلها ويكون حركتها كحركة السفينة من غير شعور راكبها بها ولا يأبى ذلك الشعور بحركتها عند احتقان البخار فيها لان ذلك يكون فى قطعة صغيرة منها وهو يجرى مجرى الاختلاج فى عضو معين من البدن

ثم قال ما حاصله قد ثبت بالدلائل اليقينية ان الارض كرة وثبت أن هذه الجبال على سطح الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة فلو فرض أن هذه الخشونات لم تكن حاصلة وكانت الارض خالية عنها لصارت بحيث تتحرك على الاستدارة كالافلاك لبساطتها أو تتحرك بادنى سبب للتحريك فلما خلقت هذه الجبال وكانت كالخشونات على وجهها اتفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المحور فصارت كالاوتاد لمنعها إياها عن الحركة المستديرة اه كلامه وتبعه العلامة البيضاوى فى هذا الحل واعترض عليه غيرهما بانه لا وجه لما ذكراه على ما قاله أهل الحق ولا على ما قاله الفلاسفة* أما الاول فلان ذات الشىء لا تقتضى تحركه وانما ذلك بارادة الله تعالى وأما الثانى فلان الفلاسفة لم يقولوا إن حق الارض أن تتحرك بالاستدارة لان فى الارض ميلا مستقيما فلا يكون فيها مبدأ ميل مستدير على ما ذكر فى الطبيعى انتهى* ولا يخفى أن وجهى الاعتراض ممنوعان منعا بينا لان أهل الحق وان كانوا يقولون أن ذات الشىء لا تقتضى تحركه الى آخر ما قاله المعترض لكنهم يقولون بوجود الاسباب التى تقتضى المسببات فهم انما ينفون اقتضاء الذات للحركة لذات الذات أى بدون تأثير الله تعالى وأما كون الذات تقتضى حركة أو سكونا باذن الله تعالى و إرادته و يتوقف عقلا أو عادة تحرك الذات أو سكونها على ذلك ويكون التأثير فى كل من السبب والمسبب له سبحانه فلا ينكره أهل الحق بل يقولون به و يقولون ان توقف الممكنات بعضها على بعض فى الوجود وغيره انما هو لنقص فى الممكن لا لعجز فى الواجب جل وعلا *

الا ترى ان الله تعالى متى خلق السبب بوصف السببية وخلق المسبب بوصف المسببية لهذا السبب كان بين الاثنين اضافة ويستحيل أن يوجد السبب بهذا الوصف ولا يوجد المسبب لان هذا يقتضى الخلف والتناقض بأن يكون ما خلقه الله سببا ليس بسبب فيسلب الشىء عن نفسه وذلك محال * الا ترى ان الله تعالى لما خلق الاجسام كلها محتاجة الى الحيز استحال وجود جسم بلا حيز كما استحال وجود وصف بغير موصوف وعرض بغير معروض وكل هذا وأمثاله انما يرجع لنقص الممكنات لا لعجز الواجب كما قلنا كما ان الحق ان الفلاسفة أيضا يقولون بهذه المقالة

وأما قول الفلاسفة ان الارض فيها ميل مستقيم فلا يوجد فيها مبدأ ميل مستدير بناء على القاعدة المقررة عندهم من أن ما فيه مبدأ ميل مستقيم يستحيل أن يوجد فيه ميل مستدير وبالعكس لتنافيهما فهو قول باطل وقد أبطله الامام الرازى وغيره وقد صرح فى المواقف وشرحها ببطلانه وقال فيها إن اجتماعهما مشاهد فى العجلة والدحرجة فان كلا منهما تتحرك على الاستدارة والاستقامة معا فى آن واحد فان العجلة نشاهدها تدور بالاستدارة على محورها وتقطع المسافة الطويلة بحركتها المستقيمة ولكون الامام الرازى فرغ كغيره من ابطال هذا لم يعول عليه وانما نحن نقول للامام الرازى نحن نقبل منك ان الارض كرة كما ثبت بالادلة اليقينية وأن الجبال على سطحها جارية مجرى الخشونات ولكن لا نسلم ما ادعيته من أن الجبال لما خلقت وكانت كالخشونات على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المحور فصارت كالاوتاد لمنعها اياها عن الحركة المستديرة انتهى* وذلك لان الامام الرازى فى تفسير قوله تعالى وهو الذى مد الارض الآية قال ان الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت فى غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح والتفاوت بينه و بين السطح لا يحصل الا فى علم الله تعالى ألا ترى انه قال والجبال أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها * فاذا كانت الارض كما وصفت والجبال جارية مجرى الخشونات فحينئذ تكون الجبال على سطح الارض كنتآت على سطح كرة عظيمة فكيف تتوجه هذه الجبال وهى بهذه النسبة من الارض بثقلها عن المحور وتصير كالاوتاد وتمنعها عن الحركة المستديرة فضلا عما يأتى بيانه من أن الجبال جزء من الارض وجزء الشىء ما دام فيه لا يظهر له أدنى ثقل وفضلا عن هذا كله فقد وجد ما يقتضى جعلها متحركة على الاستدارة حول الشمس وهو جذب الشمس التى هى أكبر منها وأقوى جاذبية لها وبما أودع الله فيها من قوة جعلها أيضا تتحرك على محورها فلها حركتان ذاتيتان إحداهما على محورها والثانية حول الشمس وكل ذلك باذن الله تعالى وتسخيره وكما خلق الارض متحركة باذنه على وجه ما ذكر خلق الشمس متحركة على محورها بقوة أودعها الله فيها باذنه تعالى وتسخيره وجعلها متحركة مع نظامها المستقر لها لا تتعداه وهو وقت تكوبرها وفناء هذا العالم

وبالجملة فمقتضى كون الجبال كخشونات على سطح الارض أن لا تؤثر فيها ثقلا ولا خفة كما لا تؤثر فى كونها كرة كما أن الحق ان الارض وما عليها من حيوان ونبات ومعدن وجبال وبحار وأنهر وغير ذلك متحركة بكليتها على وجه ما تقدم ولا تظهر حركتها لاهلها ولا يشعر بها أحد منهم بل كل منهم يراها ساكنة ثابتة فى مكانها كما قال تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ) كيف وقد ثبت بالادلة الهندسية التى لا تقبل النقض ولا يدخلها الشك أن أعظم جبل على سطح الارض نسبته الى قطر الارض كنسبة خمس سبع عرض شعيرة الى كرة قطرها ذراع ولا ريب فى أن ذلك القدر من الشعيرة لا يخرج تلك الكرة عن الكروية ولا يظهر له أدنى ثقل على تلك الكرة ولا يعقل أنه يمنعها عن حركة الاستدارة خصوصا اذا كان جزءا منها يدور بدورانها و يتحرك بحركتها فكذا حال الجبال بالنسبة إلى الارض* على أن الجبال باتفاق الكل جزء من الارض وتكونت منها بعد خلقها وإنما خلافهم فى كيفية تكوينها منها* ومما لا شك فيه وثبت بالتجربة العملية

أن جزء الشيء لاثقل له فيه ولا خفة مادام في كتلة كله ولا يمنعه عن الاضطراب إن كان مضطربا * ألاترى أن ألواح السفينة التي كل منها جزء منها لايفيدها ثقلا يمنع اضطرابها بالهواء أو باضطراب الماء * ولذلك قلنا ان الارض بما عليها من جبال وبحار ونهر وحيوان ونبات ومعدن وغير ذلك متحركة بالاستدارة ولا يختل نظام حركتها ولا نظام ما عليها ولا يشعر ما عليها بحركتها فسبحان الصانع القادر الذي أتقن كل شيء وأعطى كل شيء قدره ويسر كل شيء لما خلق له

وعلى كل حال سواء قلنا إن الارض ساكنة أو متحركة فالجبال جزء من أجزائها تكونت منها وهي بجميع اجزائها في مركزها الخاص واقفة في الهواء على القول بسكونها أو سابحة متحركة في مدار خاص منه على القول بأنها متحركة وقد صرح الحكماء بأن كل جسم في مكانه الخاص ليس بثقيل ولا خفيف وان الثقل والخفة إنما يعرضان لبعض الاجسام بسبب خروجها عن أماكنها الخاصة الى مكان غريب * فالارض مادامت في مكانها الذي خصها الله به ليست بثقيلة وكل جزء من أجزائها مادام في كتلتها ليس بثقيل ولا ثقل له أصلا وذلك بالتجربة العملية * مثلا اذا ملأت قربة من ماء ووضعتها في الماء وغاصت فيه اذا حملتها وهي في جوف الماء لاتجد لها ثقلا أصلا فاذا رفعتها فوق وجه الماء وأخرجتها منه وحملتها وجدت لها ثقلا لأن الماء في مكان غريب وهو الهواء فكان ثقيلا ولو ملأت قربة من الهواء ووضعتها في الماء وجدت لها تمانعا شديدا لأن الهواء في جوف الماء فهو في مكان غريب وهو الماء فكان خفيفا فاذا رفعتها وأخرجتها من الماء الى الهواء لاتجد لها شيئا من التمانع بل تجدها تماوجا فيه كسائر أجزاء الهواء وذلك لان الهواء في الهواء وفي مكانه الخاص به فليس بخفيف وهكذا سائر الاجسام * وما قيل ان الله خلق الارض مضطربة لحكمة لا يعلمها الا هو ثم أرساها بالجبال على عادته في جعل الاشياء منوطة بالاسباب فهو احتمال عقلي لكنه غير صحيح * اما اولا فلانه يتوقف القول بذلك على ان يوجد دليل من الكتاب والسنة أو العقل يدل على أن الله خلق الارض مضطربة ثم أرساها بالجبال ودون اثبات الامرين أو أحدهما أن تنفطر السماء أو تنشق الارض أو تخر الجبال هدا فان الآيات القرآنية الواردة في ذلك تدل كلها على أن الله تعالى أرسى الجبال نفسها وجعلها رواسي أي ثوابت على سطح الارض وأما انه ارسى الارض بالجبال فلا دلالة لشيء من تلك الآيات عليه وأما ماقاله بعض المحققين في الجواب من أن المقصود أن الارض من حيث كونها كرة حقيقية بسيطة مع قطع النظر عن كونها عنصرا كان حقها أحد الامرين لانها من تلك الحيثية إما ذات ميل مستدير كالافلاك فحقها حينئذ أن تتحرك مثلها على الاستدارة وإما ذات ميل مستقيم فحقها السكون لكنها تتحرك بادنى قاسر أما السكون فلان الجسم الحاصل في الحيز الطبيعي لايتحرك حركة طبيعية آنية لاستلزامها الخروج عن الحيز الطبيعي ولا يتصور عن الارض الحركة الارادية لكونها عديمة الشعور وأما التحرك بادنى قاسر فيحكم به من له ادنى تخيل صحيح واستوضح ذلك بكرة حقيقية على سطح حقيقي فانها لاتماسه الا بنقطة فبادنى شيء ولو نفخة تتدحرج عن مكانها نعم الواقع في نفس الامر احد الامرين معينا وذكرهما توسيع للدائرة وهو أمر شائع فيما بينهم فيندفع قوله وأما الثاني فلان الفلاسفة لم يقولوا إن حق الارض الى آخره وأما قوله قد ثبت في الهندسة الى آخره فجوابه انهم صرحوا في كتب الهيئة بان في كل أقليم ثلاثين جبلا بل اكثر فنسبة كل واحد منها وإن كانت كالنسبة المذكورة لكن يجوز أن يكون مجموعها مانعا عن حركتها باعتبار الثقل وثقل هذه الجبال يكاد يقاوم ثقل الارض لان الجبال أجسام صلبة حجرية والارض رخوية متخلخلة كالكرة الخشبية التي الزقت عليها حبات من حديد ومايقال أن فيه غير ذلك بناء على القواعد الفلسفية فلا يطعن فيه لان ذلك الابتناء غير مضر ان لم يخالف القواعد الشرعية كما فيما نحن فيه اه ثم اعترض الالوسي على قول هذا المجيب أن المصرح به في كتب الهيئة ان في كل أقليم ثلاثين جبلا أو اكثر بانه خلاف المشهور

وهو ان في الاقليم الاول عشرين وفي الثاني سبعة وعشرين وفي الثالث ثلاثين وفي الرابع خمسة وخمسين وفي الخامس ثلاثين وفي كل من السادس والسابع أحد عشر والمجموع مائة وسبعة وثمانون جبلا على أن كلامه لايخلو عن مناقشة فليتدبر اه ولا يخفى ان كل هذا الكلام لايجدي في الموضوع نفعا * أما أولا فلان قوله ان الارض بمقتضى ماذكر كان حقها أحد الامرين الى آخره نختار فيه ان الارض ذات ميل مستدير فتتحرك على الاستدارة كسائر الاجرام السماوية لانها احدى الكرات الداخلة في النظام الشمسي تدور مثلها حول الشمس ولا نسلم انها ذات ميل مستقيم فلا يلزم ماقاله من أن حقها السكون لكنها تتحرك الى آخره وأما ثانيا فلان ما استوضح به من حديث الكرة الحقيقية على سطح حقيقي الى آخره خارج عن الموضوع لان الارض على مذهب القائلين بحركتها كرة سابحة في الهواء لاحافة لها ويحيط بها من كل الجوانب فكيف تكون على سطح حقيقي لاتماسه الا بنقطة حتى يترتب ماقال من انها بادنى شيء ولو نفخة تتدحرج عن مكانها ولان الارض على رأي هؤلاء ايضا بواسطة جذب الشمس لها تجعلها دائرة حولها بحيث لايمكن ان يعتريها أو يطرأ عليها أدنى اضطراب أو ادنى خلل في حركتها (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) وأما على رأي القائلين بسكونها فهي أيضا كرة مستديرة الشكل واقفة في الهواء باذن الله تعالى بجميع جبالها وبحارها وبراريها وعمرانها وخرابها والهواء يحيط بها من جميع الجوانب شرقها وغربها وجنوبها وشمالها ومن ذا الجانب ومن ذلك الجانب فالارض بجميع ماعليها من الجبال والبحار وغيرها كرة واحدة وليس شيء من ظاهر سطح الارض والبحار من جميع جهاتها اسفل كما يتوهمه كثير من الناس ممن ليس له رياضة بالنظر في علم الهندسة وعلم الهيئة وقالوا ان سبب وقوف الارض في وسط الهواء فيه أربعة أقوال

الاول ان سبب وقوفها جذب الفلك لها من جميع جهاتها على السواء فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوت قوة الجذب من جميع الجهات

الثاني ان السبب هو دفع الفلك لها من كل الجهات مثل ذلك فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوت قوة الدفع من جميع الجهات

الثالث ان سبب ذلك هو جذب المركز لها بجميع اجزائها من جميع الجهات الى الوسط لانه لما كان مركز الارض مركز الفلك ايضا وهو مغناطيس الاثقال يعني مركز العالم واجزاء الارض لما كانت ثقيلة فانجذبت الى المركز وسبق جزء واحد وبقي في المركز وقف باقي الاجزاء حولها يعني حول النقطة لطلب كل جزء منها المركز فصارت الارض بجميع اجزائها كرة واحدة بذلك السبب واقفة في الهواء

الرابع ان سبب ذلك هو خصوصية الموضع اللائق بها وذلك ان الباري جل وعلا جعل لكل جسم من الاجسام الكليات يعني النار والهواء والماء والارض موضعا مخصوصا هو أليق المواضع به وهكذا القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل جعل لكل واحد منها موضعا مخصوصا في فلك هو ثابت فيه والفلك يديره معه قال في اخوان الصفاء وهذا القول اشبه الاقاويل بالحق لان العلة مستمرة في ترتيب الافلاك التسعة والكواكب الثابتة والسيارة والاركان الاربعة أعني النار والهواء والماء والارض وذلك أن الله تبارك وتعالى بواجب حكمته جعل لكل موجود من الموجودات موضعا يختص به دون سائر المواضع أو رتبة معلومة هي أليق به وعليه قوله تعالى (ومامنا الا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون ونحن المسبحون) اه

فانت ترى من هذا الذي قدمناه أن جميع القائلين بحركة الارض والقائلين بسكونها متفقون على أن الارض بجميع ماعليها من الجبال والبحار وغير ذلك كرة واحدة يحيط بها الهواء من كل جانب وان الخلاف بين

الفريقين انما هو فى كونها ساكنة أو متحركة فعلماء الهيئة اليوم ينكرون سكونها وما اقتضاه ذلك من أسبابه كما ينكرون القول بسكون الكواكب وان لكل منها موضعا خاصا فى الفلك هو ثابت فيه والفلك يديره معه بل يقولون ان الارض وسائر الكواكب السيارة متحركة بنفسها فى أفلاكها ومداراتها ولا حركة للافلاك أصلا (كل فى فلك يسبحون) واما القول بوجود قوتى الجذب والدفع فى الاجرام السماوية بل وفى غيرها من سائر الاجسام فهو متفق عليه بين الجميع لا يخالف فيه الا الشواذ ومدار الجميع على محور الارادة والقدرة الالهية فان الكل منه واليه يفعل ما يشاء و يختار و يحكم ما يريد لا معقب لحكمه وهو على كل شىء قدير ومن ذلك الذى فصلنا يعلم أيضا ان ثقل الجبال وكل ما على سطح الارض لا يكاد يقاوم ثقل الارض ولا يكاد يحدث فيها ثقلا و يبطل القول بان الارض لولا الجبال لغمرتها المياه وكل هذا الذى قالوه لا يخالف شيئا من قواعد ديننا وقد اعترف هذا المحقق بانه لا يضر البناء على قول الفلاسفة اذا لم يخالف ماذكروا بالجملة فالقول بان الجبال بثقلها تمنع الارض من الاضطراب الذى يخل بنظامها ونظام ما على سطحها اقول يأباه العقل السليم ولم يقم عليه دليل لا من جهة العقل ولا من جهة النقل خصوصا اذا قلنا ان الارض دائرة حول الشمس بجذب هذه لها فعلى هذا المذهب لا اشكال اصلا كما يعلم مما اوضحناه واما ما قلناه من انه ثبت فى الهندسة ان اعظم جبل فى الارض نسبته الى قطر الارض كنسبة خمس سبع عرض شعيرة الى كرة قطرها ذراع الى آخر ما قدمنا فلا يدفعه ماذكره هذا المحقق لان الجبال مهما بلغ عددها من الكثرة فوق سطح الارض ومهما بلغ مقدارها طولا وعرضا وعمقا لا تفيد الارض ثقلا ولا تمنع عنها اضطرابا لو فرض المحال وكانت مضطربة بل كانت تضطرب هى معها ايضا وما قاله من ان الجبال صلبة والارض متخلخلة مع كونه خلاف الواقع لما اشتملت عليه الارض من المعادن الحديدية وغيرها مما هو أثقل بكثير من الحجارة الصلبة لا يفيد فى الموضوع شيئا ومن ذلك كله يعلم بطلان ماذكره الالوسى اعتراضا من بعض الكفرة وجوابا منه على طوله واطنابه وأما ما نقله ابن عطية عن المتأولين ان معنى ألقى خلق وجعل واختار هو أن ألقى أخص من ذلك وذلك انه يقتضى ان الله سبحانه أوجد الجبال من محض قدرته واختراعه لا من الارض ووضعها عليها وايده باخبار رووها فى هذا المقام وقد تقدم بعضها ولم يعد الفعل بعلى كما فى قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) للاشارة الى كمال الجبال ورسوخها وثباتها فى الارض حتى كانها مسامير فى ساجة اه فنقول فيه انه اذا كانت الجبال راسخة وثابتة فى الارض كانها مسامير فى ساجة وكانت الارض كرة عظيمة ونسبة الجبال اليها كما وصفنا كانت تلك الجبال متحركة تبعا للارض كما تتحرك المسامير الصغيرة جدا تبعا للساجة الكبيرة جدا

وأما قوله ان ذلك يقتضى أن الله سبحانه أوجد الجبال بمحض قدرته لا من الارض الخ فنقول أما أن الله خلق الجبال بقدرته وارادته فلا كلام ولا خلاف فيه بين المليين وإنما اختلفوا فى أن تكون الجبال ونظائره من اسباب تكونها بارادة الله تعالى لذلك ذهب فريق من المليين وغيرهم وذهب فريق الاشاعرة ان الكل مستند الى الله ابتداء فلا يتصور واسطة حقيقية وقد ذكر صاحب المواقف وشارحه السيد الشريف فى سبب تكون الجبال ما معناه ان الحر الشديد يعقد الطين اللزج حجرا وتحققه التجربة ثم بتدفق السيول الحادثة من الامطار وتواتر الرياح والعواصف تتحفر الأجزاء الرخوة فيظهر الحجر قليلا قليلا حتى يصير جبلا شامخا

قال الامام الرازى الاشبه أن هذه المعمورة كانت فى سالف الزمان مغمورة فى البحار فحصل فيها طين لزج كثير فتحجر بعد الانكشاف وحصل الشهوق بحفر السيول والرياح وبذلك كثرت فيها الجبال ومما يؤكد هذا الظن أنا نجد فى كثير من الاحجار إذا كسرناها اجزاء الحيوانات المائية كالاصداف والحيتان اه واعترض عليه بأن اختصاص بعض اجزاء الأرض بالصلابة و بعضها بالرخاوة مع استواء النسبة الى

الفلكيات قطعا للمجاورة والملاصقة يستدعى سببا وعنده يقف العقل و يحيله على سبب خارج قال شارحه هو الفاعل المختار فليت شعرى لم لا نفعل ذلك أولا حذفا للمؤنة نعم لا يبعد ان يكون ذلك اى تكون الجبال ونظائره من أسباب تكونها بارادة الله تعالى عند من يقول من المليين وغيرهم بالوسائط لا عندنا اذ الكل مستند اليه ابتداء فلا يتصور واسطة حقيقة على رأينا اه

فانت ترى من هذا الكلام أنه لا خلاف فى تكون الجبال من الارض وانما الخلاف فى أن هنالك وسائط تكونها منها بارادة الله تعالى أو أنه ليس هنالك وسائط حقيقية فى تكون الجبال من الارض بل ان الجبال كونت بمحض القدرة الالهية وهذا فى الحقيقة انكار لكون تلك الوسائط على رأى الاولين وسائط حقيقية مؤثرة باذن الله تعالى بل الوجود عندها لا بها كما هو معروف فى الخلاف بينهم فى ارتباط المسببات بالاسباب وقد قدمناه وسيأتى فيه ما تزداد به علما ✽ وقال فى كشف الاسرار القرآنية فى تفسير قوله تعالى (وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم) أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بكم لبساطتها والميد الزلزال فخلق الله عليها الجبال فرست واستقرت وذلك أن الارض قبل تكون الجبال كانت مغطاة بالمياه لبساطتها وكانت دائما تميد وترتعش كالمحموم فلما خلق الله الجبال شيئا فشيئا قل الميدورست لان القشرة الصلبة من كرة الارض أخذت فى الثخن عدة قرون من ابتداء خلقها بسبب تجمد المادة السائلة التى تحتها بالتبريد والجزء الجامد من الكرة كان قليل القوام لا يقاوم ضغط الغازات ولا حفظ المادة السائلة التى كانت محيطة بها وضاغطة لها بقشرتها المرنة فأمواج هذا البحر المسجور الباطن المولد للعناصر قهرت هذا المانع مرارا فحصل تمزق فى سطح الارض فى جهات كثيرة فتكونت الجبال ورفعت قاع البحر وكانت مكونة من صخور وفلذات ومركبات معدنية مختلفة ونفذ من باطن الارض أيضا سيول من مياه فى حالة الغليان فلما أتم الله تركيب الجبال واتساع الارض قل الميد ما أمكن ثم قال هذه القاعدة العلمية التى اعتبرت اساسا لهذا العلم تستنتج بالبداهة من قاعدة الحرارة المركزية وهى تثبت لنا أن أغلب الجبال تكونت بواسطة ارتفاع الارض من أسفل الى أعلى

ولنوضح ذلك بما سنذكره على الاثر فنقول من المعلوم أنه يتصاعد من باطن الارض على الدوام أبخرة وغازات ومياه فى حالة الغليان وحينئذ يوجد فى باطن الارض ينبوع عظيم لهذه الابخرة التى تميل للخروج الى ظاهر الارض كلما تكونت فمتى وجدت هذه الابخرة فى الصخور منافذ توصل الى سطح الارض نفذت منها بسهولة فاذا لم تجد هذه المنافذ تراكمت فى التجاويف الباطنية الارضية وتضغط نفسها حتى تثقب القشرة الارضية المانعة من خروجها أو ترفعها أو تمزقها ففى الحالة الاولى يتكون بركان وفى الثانية جبل مختلف الارتفاع وفى الثالثة يحصل تمزق فى باطن الارض تحصل عنه زلزلة ثم قال انه حصل ارتفاع جزء متسع من الارض ببلاد الميكسيك عام سنة ١٧٥٩ تسعمائة وخمسين وسبعمائة والف فوصل الى خمسمائة قدم وقد حصلت هذه الظاهرة عقب زلزلة فى الارض وكانت مصحوبة بتمزق عظيم فى سطحها فظهر بركان جديد سمى (حورلو) وشوهد فى جزائر الروم ارتفاع جزيرة تدريجا عام ١٧٠٧ سبعة وسبعمائة والف وقد حصلت زلزلة مهولة فى بلاد الشيلى من امريكا فى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة والف فخسفت جملة مدن ووصل جزء عظيم من الارض الى ارتفاع عظيم وقد ارتفعت جزيرة تسمى ميلدا عام واحد وثلاثين وثمانمائة والف من باطن الامواج بين جزيرة صقلية والافريقية و بما قلنا يعلم امكان حصول الارتفاع ولا مرية فى أن أغلب الجبال تكون بهذه الكيفية اه ومن هذا تعلم أن الجبال لم ترس الارض بمعنى أنها تجعلها ساكنة لا تتحرك على الاستدارة حول الشمس وعلى محورها بل انها تقلل الزلازل بواسطة ان الغازات والابخرة والمياه التى فى حالة الغليان اما أن تكون قد ثقبت قشرة الارض فيتكون بركان وهو لا يكون الا فى جبل واما

أن تكون قد رفعت القشرة حين تراكمها في التجاويف الباطنية الارضية وتكونت الجبال لان الابخرة والغازات وتلك المياه حينئذ لا تمزق باطن الارض فلا تحصل زلزلة فعلى فرض ان معنى الآية أن الله تعالى ألقى في الارض رواسي كراهة او مخافة أن تميد بأهلها أي تتحرك وتضطرب يكون معنى الحركة والاضطراب هو الزلزال الذي يحصل في بعض اماكن من الارض كما هو مشاهد وهذا شيء وارساء الجبال للارض بمعنى منعها بثقلها الارض من حركتيها الذاتيتين حول الارض وعلى محورها شيء آخر اذ لا ثقل للجبال على الارض لانها جزؤها وفي مكانها الطبيعي الذي خصها الله به بارادته وقدرته وشتان بين الاضطراب بمعنى زلزال تقلله الجبال برفع الابخرة والغازات وتلك المياه التي في حالة الغليان في مبدأ خلق الارض وحينما كانت مغطاة بالمياه وكانت دائما تميد وترتعش كالمحموم وبين منع حركتها وجعلها ساكنة بواسطة ثقلها ومقاومتها الثقل الارض فان الاول لا ينافي تحركها بالحركتين المذكورتين على محورها بواسطة قوة أوجدها الله فيها وحول الشمس بواسطة جذب الشمس لها بقوة جاذبة أودعها في الشمس والعلة في اضطراب الارض وجعلها تميد وتتحرك كحركة المرتعش في مبدأ خلقها ماقاله علماء هذا الفن كما ذكره في كشف الاسرار القرآنية ايضا

ونصه أن الارض كانت في ابتداء أمرها ملتهبة في الفراغ فبرد سطحها فتغطت بطبقة صلبة اولية كما يغطى الرصاص الذائب على النار بقشرة معدنية رقيقة أولا ثم يأخذ في الثخن شيئا فشيئا مع أن باطنه ذائب فكذلك طبقة الكرة الارضية ازداد ثخنها من الباطن بالتبريد *وكل من السباكين والحدادين وصناع الكامل وصناع الزجاج يعترف أن الكتل الكبيرة يستدعي بردها زمنا طويلا ويتصور الزمن الذي مضى قبل أن تتجمد القشرة الاولى من الكرة الارضية ولا تتعجبوا من ان تبريد الارض لم يتم الى الآن وأنه مستمر بلا انقطاع وان الجزء الباطني من الارض ملتهب وانه لم يتجمد منها الا طبقة قليلة الثخن بالنسبة لما هو ملتهب منها الآن وبما قررناه يعلم علة كون باطن الارض حارا وكون الحرارة تزداد كلما ازداد القرب من مركز الارض الذي مازال ملتهبا الى الآن وأما كون الحرارة واحدة في الاعماق عينها ولا تنقص نقصا نا محسوسا فسببه ان التبريد الذي يحصل في عشر سنوات أو في مائة يتوزع على كتلة الارض العظيمة فلا يكون محسوسا في كل مكان وبما قررنا يعلم السبب في الارتفاعات الارضية أي تكون الجبال انتهى

وحيث قد علمت العلة مما ذكر أنها باقية مستمرة تعلم صحة ما قدمناه من أن في الامكان حصول الارتفاع وأن عدد الجبال لا ينحصر فيما قالوه بل يجوز ان تحدث جبال أخرى في كل اقليم من اقاليم الارض فاختلاف العلماء في عددها ناشيء عن ذلك وهو لا يهمنا ولا يضرنا والذي يهمنا هو أن نقول ان الجبال ليس لها مادامت على سطح الارض ثقل على الارض لكونها جزءا منها ومنجذبة اليها دائما فدعوى ان الجبال تقاوم ثقل الارض وانها ليست متكونة من الارض دعوى باطلة ولا ينافي ذلك كون خلقها وخلق الارض التي منها تكونت بقدرة الله تعالى وارادته الا ترى ان آدم خلق من طين وذريته خلقوا من ماء مهين وكل ذلك من خلق الله تعالى بقدرته وارادته

وبالجملة فالجبال أصولها في الارض راسية ورؤسها في الجو شامخة شاهقة ارتفاعا ممتدة على وجه الارض باطوال متفاوتة ومنها ما هو من المشرق الى المغرب ومنها ما هو من الشمال الى الجنوب ومنها ما هو نكباوات بين هذه الجهات ومنها ما هو صخور صلبة وصفوان املس لا ينبت ومنها ما هو صخور رخوة وطين لين وتراب ورمل وحصاة مختلفة متلبدة ساف بعضها فوق بعض متماسك الاجزاء وقد قال الحكماء ان سطح الارض نصفه مغطى بماء البحر الاعظم والنصف الآخر مكشوف ناتيء من الماء مرتفع مثل بيضة غائصة نصفها في الماء والنصف الآخر مكشوف ناتيء من الماء ومن هذا النصف الثاني المكشوف نصف منه خراب مما يلي الجنوب من

خط الاستواء والنصف الآخر هو المعمور وهو الربع المسكون مما يلي الشمال من خط الاستواء وان الاقاليم في الربع المعمور سبعة وليست قسمتها كذلك طبيعية بل هي بناء على خطوط وهمية صنعها الملوك الاولون الذين طافوا الربع المسكون ليعلم بها حدود البلدان والممالك والمسالك مثل الاسكندر الرومي وتبع الحميري وافريدون النبطي وازدشير بن بابكان الفارسي وسليمان بن داود وغيرهم من الملوك

واما الارباع الثلاثة الباقية فمنعهم من سلوكها جبالها الشامخة ومسالكها الصعبة وبحارها الزاخرة والاهوية المتغيرة المفرطة التغير من الحر والبرد والظلمة في مثل ناحية الشمال تحت مدار الجدى فان البرد هنالك مفرط جدا لان الشتاء هنالك ستة اشهر تكون ليلا كلها فيظلم الهواء ظلمة شديدة وتجمد المياه لشدة البرد ويتلف النبات والحيوان وفي مقابلة هذا الموضع من ناحية الجنوب تحت مدار سهيل يكون فيه النهار ستة اشهر كاملة صيفا فيسخن الهواء ويصير نارا سموما فيحرق الحيوان والنبات من شدة الحر فلا يمكن السلوك فيها ومن ذلك يعلم ان الناس انما يعرفون بعض الارض مما أمكنهم الوصول اليه وليس لهم علم بباقيها مما لم يكن لهم وسيلة الى الوصول اليه الى الآن وتعلم ايضا ان انحصار الاقاليم في سبعة انما هو اصطلاح لواضعيه فقط وانت تعلم ان خريطة المعمور من الكرة الارضية وحدود ممالكها تغيرت مرارا عديدة ولا تزال تتغير (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير)

ولنذكر لك بعضا من الحكم التي رتبها الله على خلق الجبال فنقول قال الله تعالى في آية الانبياء (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون الآية) عقب قوله وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم قال الالوسي في تفسيره وغيره في غيره الفجاج جمع فج قال الراغب هو شقة يكتنفها جبلان وقال الزجاج كل مخترق بين جبلين وقال بعضهم هو مطلق الواسع سواء كان طريقا بين جبلين أم لا والضمير في قوله فيها اما راجع الى الارض أو الى الرواسي على ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ويؤيده انها المحتاجة لان يجعل الله فيها فجاجا أي شققا يكتنف كل شقة منها جبلان على ماقاله الراغب أو مخترقات كل مخترق منها بين جبلين كما قاله الزجاج أو أماكن واسعة في الجبال وهي متى كانت فيها لا تكون الا طرقا وأما اذا لم تكن طرقا فلا معنى لان تجعل في الجبال الا اذا كانت الظرفية لأدنى ملابسة وهو ما لا داعي اليه فالاقوال ترجع الى أن الله جعل في الجبال الرواسي طرقا يكتنف كل طريق جبلان وقوله سبلا بدل منه وقوله لعلهم يهتدون أي الى طرق الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة وقيل الى مصالحهم ومهماتهم وجوز أن يكون المراد منها ما هو أعم من الاهتداء إلى طرق الاستدلال والاهتداء إلى المصالح وهذا أولى لما فيه من كثرة الفائدة وقال تعالى في آية النحل بعد قوله وألقى في الارض رواسي وأنهارا وسبلا قال الالوسي في تفسيره وغيره في غيره وأنهارا عطف على رواسي وكانه لما كان أغلب منابع الانهار من الجبال ذكر الانهار بعد ما ذكر الجبال وقوله وسبلا عطف على أنهارا أي وجعل طرقا للمقاصد لعلكم تهتدون لها فالتعليل بالنظر الى قوله تعالى وسبلا كما هو الظاهر ويجوز أن يكون تعليلا لكل ما تقدم لان تلك الآثار العظام تدل على بطلان الشرك وقيل تدل على وجود فاعل حكيم ففي قوله تعالى تهتدون تورية حينئذ اه

وأقول ما المانع من ان يقال في هذه الآية مثل ما قيل في آية الانبياء في قوله تعالى لعلهم يهتدون أي الى طرق الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة أو الى مصالحهم ومهماتهم أو ما هو أعم من الامرين والظاهر الذي يقتضيه النظم أن يقال هنا ما قيل هنالك حذو القذة بالقذة اذا تقرر هذا فنقول أن من الحكم المرتبة على الجبال وبها يكون الاهتداء الى طرق التوحيد وطرق المصالح والمهمات أن تصاريف الرياح كثيرة في

الجهات الست وجملتها أربعة عشر نوعا المعروف منها عند جمهور الناس أربعة الصبا والدبور والجنوب والشمال وذلك أن الهواء أذا تموج من المشرق إلى المغرب يسمى عند التموج ريح الصبا واذا تموج من الجنوب الى الشمال يسمى التيمن وإذا تموج من المغرب الى المشرق يسمى دبورا وإذا تموج من الشمال الى الجنوب يسمى الجربيا فاما اذا كان تدافعه وتوجه الى مابين هذه الجهات فهى النكباء وهذه ثمانية أنواع وأما التى تهب من أسفل إلى فوق فنها تكون الزوابع وهى ريحان تلتقيان وتصعدان كما يلتقى الماء فى الكرادات أوعند نزوله فى البلاليع والثقوب وأما التى تهب من فوق الى أسفل فنها كانت ريح الصرصر التى أهلكت عادا وذلك أنها نفخت عليهم غربى ديارهم من خلال الغيم من كرة الزمهرير التى فوق كرة النسيم ثمانية أيام ولياليها كما ذكره الله تعالى

ومما رتب الله على ذلك من الحكم التى لاتحصى ان تلك الرياح تسوق السحاب الى البلدان البعيدة والبرارى المقصودة بها كما ان مما رتب الله تعالى على جعل الجبال رواسى فى الارض وجعل فى تلك الجبال الفجاج والسبل وجعلها طوالا شامخة موضوعة على وجه الارض شرقا وغربا جنوبا وشمالا ومنكبة الى مابين هذه الجهات أن تمنع تلك الجبال تلك الرياح من سوقها السحاب الى غير البلدان والبرارى المقصودة بها وذلك أن هذه الجبال الراسيات تقوم بمنع الرياح من ان تنصرف الى كل الجهات وتجعلها لاتنصرف الا الى الجهات المقصودة بها فهى قائمة بالنسبة للرياح وما تسوقه من السحاب مقام المسنيات والبريدات والجسور بالنسبة للانهار الجارية وغيرها من المساقى لمنعها عن ان تفيض مياهها الا الى المزارع والمواضع المقصودة بها وذلك أن كثيرا من البلدان والبرارى بعيدة عن سواحل البحر ولو لم تكن هذه الجبال الطوال وما فيها من السبل الفجاج المكتنف كل واحد منها بجبلين المانعة للرياح التى تسوق السحاب والغيوم لما وصلت السحب والامطار الى تلك البلدان والبرارى كما أن الانهار ومجارى المياه اذا لم يكن لها مسنات وبريدات وجسور فاضت مياهها الى الآجام والغدران والبطائح وحيث يقل الانتفاع بها فلا تبلغ الى البلدان البعيدة

ومن الحكم التى ترتبت أيضا على جعل الجبال الرواسى فى الارض على وجه ما سبق أنه سبحانه جعل فى جوفها مغارات واودية واسعة فاذا حصل زمن الشتاء فى رؤسها الامطار والثلوج وذابت فاضت المياه فى تلك المغارات والاودية وصارت فيها كالمخزونة وفى أسفل تلك الجبال منافذ ضيقة يخرج منها المياه المخزونة فى تلك المغارات والاودية وهى العيون وتجرى منها جداول ويجتمع بعضها الى بعض ويسيل منها أودية وانهار تجرى بين المدن والقرى والسوادات فتسقى وهى راجعة الى البحار والآجام والغدران فى ممرها الزروع والاشجار ومواضع العشب والكلأ وما يفضل منها ينصب الى البحار والآجام والغدران فتلطفها الشمس وتصعدها بخارا وتتكون منها الغيوم والسحب وتسوقها الرياح الى المواضع المقصودة بها كما كان عام اول وذلك دأبها دائما أبدا الى أن تنفطر السماء وتتكور الشمس وتنكدر النجوم ويفنى هذا العالم البديع ليصوغه الله صيغة أخرى هى أبدع وأعلى وأعظم من الصيغة الاولى لان هذه الصيغة الثانية هى الصيغة الباقية الخالدة التى ينادى بها الحق جل جلاله والملك يومئذ لله خلود بلا موت إما فى جنة عالية قطوفها دانية وإما فى هاوية وما ادراك ماهية نار حامية وأما الصيغة الاولى فهى الصيغة التى تفنى صيغة الكون والفساد صيغة خلقت لدار العمل والثانية صيغة خلقت لدار الجزاء (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (ذلك تقدير العزيز العليم) ولذلك قال فى سورة النحل وأنهارا وسبلا فالسبل هنا غير السبل فى آية الانبياء أى جعل فى الجبال الرواسى أنهارا وطرقا أى مجارى لتلك الانهار وطرقا لجريانها ومرورها حتى تصل الى البلدان المحتاجة اليها ولذلك لم يعطف السبل على الفجاج فى آية الانبياء لان المراد بهما شئ واحد وعطف السبل على الانهار فى آية النحل لانهما متغايران كما

علت وما ذكرناه من الحكم قليل من كثير ذكر أرباب الحكم الالهية أنه يترتب على وجود الرياح وتصريفها والسحاب المسخر بين السماء والارض والجبال التى جعلها الله فى الارض رواسى وما ذكروه على كثرته قليل من كثير من الحكم التى تترتب على ما ذكروه يعلمه الله وحده مما لايحصى ولا يمكن أن يستقصى ومما يدل على صحة مانقلناه عن أولئك الحكماء الاسلاميين قوله تعالى فى سورة السجدة (أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره أى أعمى هؤلاء فلم يشاهدوا انا نسوق الماء بسوق السحاب أونسوق الماء بالسيول أو باجرائه فى الانهار والعيون اوبكل هذه الطرق الى الارض الجرز التى جرز نباتها أى قطع إما لعدم الماء وإما لانه رعى وأزيل كما فى الكشاف أواليابسة التى ليس فيها نبات لانقطاع الامطار عنها وقال الراغب الجرز منقطع النبات من أصله وأرض مجروزة اكل ما عليها اه وعلى كل حال فالمراد من الارض الجرز المحتاجة للماء بدليل قوله فنخرج به زرعا وان الظاهر أن المراد من الارض الارض المتصفة بهذه الصفة اى أرض كانت والزرع فى الأصل مصدر وعبر به عن المزروع والمراد به مايخرج بالمطر مطلقا فيشمل الشجر وغيره ولذلك قال سبحانه (تأكل منه) أى من ذلك الزرع (أنعامهم) كالتبن والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها (وأنفسهم) كالبقول والحبوب التى يقتاتها الانسان (أفلا يبصرون) أى ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرة الله تعالى وفضله عزوجل انتهى

وقوله تعالى فى سورة الفرقان (وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) وفى قراءة نشرا قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره أى أن الله تعالى ارسل الرياح مبشرات أوناشرات للسحاب من النشر بمعنى البعث أى باعثات للسحاب أو بمعنى التفريق أى سائقات للسحاب وبين يدى رحمته أى قدام المطر وقد استعيرت الرحمة له (وانزلنا من السماء) وعبر بنون العظمة لابراز كمال العناية بالانزال لانه نتيجة ماذكر من ارسال الرياح التى تسوق السحاب أى انزلنا بعظمتنا المارتبنا من ارسال الرياح والمراد بالسماء جهة العلو لان السماء عند العرب كل ما علا او المراد السحاب (ماء طهورا) بالغا الغاية فى الطهارة اويتطهر به فيكون اسم آلة كغسول ووضوء وفطور وسحور (لنحيي به) اى بالماء الذى أنزلناه بلدة ميتا ليس فيها نبات وذلك بانبات النبات بها والمراد بالبلدة الارض أو معناها المعروف (ونسقيه) اى نسقى ذلك الماء الطهور عند جريانه فى الاودية أو اجتماعه فى الحياض والمنابع والآبار (مما خلقنا أنعاما واناسى كثيرا) اى أهل البوادى الذين يعيشون بالحياء ولذلك نكر الانعام والاناسى فالتنكير للتنويع وانما خص أهل البوادى بالذكر لان غيرهم من اهل القرى والامصار يقيمون بقرب الانهار والمنابع فبهم وبما لهم من الانعام غنية عن سقى السماء وسائر الحيوانات تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا وسياق الآيات الكريمة كما هو ظاهر للدلالة على عظم القدرة كذلك هو لتعداد النعم ثم قال الله تعالى بعد ذلك (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى اكثر الناس الا كفورا) أى صرفنا الماء النازل من السماء وتصريفه تحويل أحواله وأوقاته وانزاله على انحاء مختلفة أى أقسم بالله لقد صرفناه بينهم أى بين الناس فى البلدان المختلفة والاوقات المتغايرة والصفات المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما ليذكروا وليعتبروا فأبى اكثر الناس أن يعتبروا ولم يفعل أكثرهم الا كفورا لنعمة الله تعالى وكفرانا لها وانكارا لها إما بأضافتها لغيره عز وجل كأن يقول مطرنا بنوء كذا معتقدا ان النجوم فاعلة لذلك مؤثرة فيه بذواتها وهذا الاعتقاد والعياذ بالله تعالى كفر

وفى الكشاف وغيره أن من اعتقد ان الله عز وجل خلق الامطار وقد نصب الانواء دلائل وأمارات

عليها واراد بقوله مطرنا بنوء كذا مطرنا فى وقت سقوط النجم الفلانى فى المغرب مع الفجر لا يكفر وظاهره انه لا يأثم ايضا * وقال الامام من جعل الافلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الاشياء فلا شك فى كفره وأما من قال انه سبحانه خلقها على خواص وصفات تقتضى هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطؤه الى حد الكفر اه والمسئلة مشهورة فى علم الكلام بارتباط الاسباب بالمسببات وقد اشبعنا الكلام فى حواشينا على شرح الخريدة لمؤلفهما الشيخ احمد الدردير رضى الله عنه وفى كتابنا القول المفيد وبينا ما هو الحق فى ذلك فارجع اليها

ورجوع الضمير فى قوله تعالى ولقد صرفناه للماء المنزل هو المروى عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة واخرج جماعة عن الاول وصححه الحاكم أنه قال ما من عام باقل مطرا من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء وأخرج الخرايطى فى مكارم الاخلاق عن الثانى مثله ويفهم من ذلك حمل التصريف على التقسيم وقال بعضهم هو راجع الى القول المفهوم من السياق وهو ما ذكر فيه انشاء السحاب وانزال المطر لما ذكر من الغايات الجليلة وتصريفه تكريره وذكره على وجوه ولغات مختلفة والمعنى ولقد كررنا هذا القول وذكرناه على انحاء مختلفة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية بين الناس من المتقدمين والمتأخرين ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته عز وجل فى ذلك فابى أكثرهم ممن سلف وخلف الا كفران النعمة وقلة الاكتراث بها أو انكارها رأسا باضافتها الى غيره تعالى شأنه واختار هذا القول الزمخشرى وقال أبو السعود هو الاظهر اه

وقوله تعالى فى سورة البقرة (وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره أى تقليب الله للرياح جنوبا وشمالا وقبولا ودبورا حارة وباردة وعاصفة ولينة وعقيما ولواقح وتارة بالرحمة وتارة بالعذاب والسحاب المسخر للرياح حيث تعليه فى الجو بمشيئة الله تعالى وتعقيب تصريف الرياح بالسحاب لانه كالمعلول للرياح كما يشير اليه قوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح فتثير سحابا) ونظير هذه الآيات آيات كثيرة جدا فى القرآن وكلها تدل على أن من حكمة الله تعالى ايجاد الرياح وتصريفها لتسوق السحاب الى الارض التى تحتاج الى الماء فتحييها بعد موتها أى تجعلها ذات نبات بعد أن لم تكن كذلك والى الناس ليستقوا هم ودوابهم

وقال تعالى (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا) ويقال فى تفسيره فيما يتعلق بجعل الرواسى والانهار ما قلنا فى ذلك من قبل * وأما قوله تعالى مد الارض فنقول فيه أنه لا ينافى كون الارض كرة كما قدمناه أول الكتاب عن الامام الرازى

وبالجملة فالآيات التى قدمناها وغيرهما مما ورد فيه ذكر جعل الجبال فى الارض رواسى أى ثوابت من رسى اللازم فمعنى رواسى ثوابت فى أماكنها لا تتحرك بنفسها لا تدل الا على ثبوت الجبال كثبوت سائر الاجسام الساكنة فى مراكزها ولا دلالة لها على كون الجبال بسبب ثقلها فوق ظهر الارض سببا لاستقرار الارض وسكونها وانها لا حركة لها اصلا بل غاية ما تدل إن فسرنا الميد بمعنى الاضطراب وقلنا إن المعنى كراهة أو مخافة أن تميد أو لئلا تميد على أن معنى الاضطراب هو الزلازل على ما وصفنا وهذا لا يمنع كون الارض متحركة حول الشمس وعلى محورها كما يشهد بذلك انتفاخها فى وسطها عند خط الاستواء وتفرطحها عند القطبين فان كونها على وجه ما ذكر يدل دلالة واضحة على أن الارض قبل خلق الجبال فيها حين ما كانت تميد وترتعش وكانت ملتهبة كانت متحركة على الاستدارة لانها كانت منتفشة وأن الانتفاخ فى الوسط عند خط الاستواء وتفرطحها عند القطبين لا ينشآن الا من الحركة على الاستدارة اذا كان المتحرك متخلخلا منتفشا على

ما يأتى قريبا وكون ما قالوه من أن الجبال بثقلها على ظهر الارض جعلتها ساكنة بعد الاضطراب احتمالا عقليا فى ذاته لكنه خلاف الواقع وخلاف ما يقتضيه البرهان العقلى فكان بعد اتضاح أن الجبال جزء من الارض محالا عقلا وفضلا عن ذلك فان الآيات القرآنية لا تدل عليه ولا تفيده بل الواقع الثابت بالادلة العقلية البرهانية ويشهد له ظاهر الآيات القرآنية أن الارض متحركة على الاستدارة وأن الجبال خلقت لاجل حكم لا تحصى وما بيناه منها وبينه غيرنا قليل من كثير ولاجل أن تقف على ما هو الحق نقول

قال فى التفسير المسمى كشف الاسرار القرآنية قال قوم ان الارض متحركة وذلك لانها لو كانت ساكنة لكانت قوة انضمامها تخلخلت وجزئياتها تفتتت وكتلتها انحلت وجوها صار خلاء وعدم التنفس والحياة فيها * وقال قوم آخرون ان الارض ساكنة غير متحركة لا بالاستدارة ولا بالاستقامة ثم اختلفوا فى سبب ذلك السكون على وجوه * أحدها ان الارض لا نهاية لها من الجانب السفلى واذا كانت كذلك لم يكن لها حركة وهذا فاسد لما ثبت بالدليل من تناهى الاجسام * الثانى الذين سلموا تناهى الاجسام قالوا الارض ساكنة بحيث أنها ليست بكرة بل هى كنصف كرة وحدبتها فوق وسطحها اسفل وذلك السطح موضوع على الماء والهواء ومن شأن الثقيل اذا انبسط على الماء أن يندغم على الماء والهواء مثل الرصاصة فانها إذا انبسطت طفت على الماء وإذا اجتمعت رسبت وهذا أيضا باطل من وجهين * الأول إنه ثبت بالمشاهدات الصحيحة ان الارض كروية والدليل على ذلك ما ذكرناه آنفا من أن الله خلق جوهرة ونظر اليها فسالت ماء وكانت منها السموات والارض وقد خلق الله الارض ابتداء سائلة فدارت على نفسها فاكتسبت الشكل الكروى المميز لها ولا غلب الاجسام السماوية * الثانى أن سبب حركة الارض هو جذب الفلك لها أى جذب الشمس لها لان الجسم الاصغر أسرع انجذابا من الاكبر ودفعه لها من كل الجوانب فمن الدفع الجذب كما اذا جعل شئ من التراب فى قنينة ثم اديرت القنينة على قطبها ادارة سريعة فان التراب يقف فى وسط القنينة لتساوى الدفع من كل الجوانب ومن ذلك تطلب الارض وسط الافلاك لان الاجسام متساوية فى الجسمية فاختصاص البعض بالصفة التى لاجلها تطلب تلك الحالة لا بد وان يكون جائزا فيفتقر الى الفاعل المختار سبحانه وتعالى

الثالث قال علماء الهيئة الذين بحثوا فى الارض على ما تبين لهم أن جميع المواد الداخلة فى تركيب الارض كانت ابتداء على حالة غازات أو أبخرة بتأثير الحرارة الشديدة التى سلطها الله تعالى عليها وحينئذ نتخيل أن الارض كانت فى ابتداء أمرها مادة غازية * ومتى علم أن الجواهر الصلبة التى تستحيل الى غازات تشغل حجما قدر حجمها الذى تبقى عليه الفا وثمانمائة مرة نتج من ذلك ان هذه الكتلة الغازية كانت ذات حجم عظيم وتخيلنا الفرق الذى بين حجم أرضنا هذه وكتلتها الغازية الأولية وحيث أن الكتلة الغازية التى كانت تتكون الارض منها ذات حرارة مرتفعة جدا كانت تضىء فى الفراغ كما تضىء الشمس الآن وكما تضىء النجوم الثابتة والسيارة ليلا وهذه الكتلة الغازية المضطرمة لما دارت حول الشمس على مقتضى قوانين الجذب العام الفلكى كانت منقادة الى القوانين المؤثرة فى بقية الجواهر المادية فكانت تبرد وتترك جزءا من حرارتها للطبقات الفراغ الباردة جدا التى بين الافلاك فبسبب هذا التبريد المستمر مع طول الزمن الذى لا يمكن تعيين مدته ولو على وجه التقريب صارت الارض سائلة بعد أن كانت غازية فتناقص حجمها تناقصا عظيما ومن المقرر فى علم الميخانيك أن الجسم السائل المتحرك حركة رحوية يكتسب شكلا كرويا فبهذه الكيفية اكتسبت الارض الشكل الكروى المميز لها ولاغلب الاجسام السماوية وليست الارض منقادة الى حركة رحوية فقط بل لها حركة دوران على

محورها أيضا يتكون منها تعاقب الليل والنهار وقد تقرر فى علم المخانيك وثبت بالتجارب أن الكتلة السائلة المتحركة تنتفخ نحو خط الاستواء وتتفرطح نحو قطبيها بسبب اختلاف القوة المركزية الطاردة وبسبب هذه الظاهرة لما كانت الارض سائلة انتفخت نحو خط الاستواء وتفرطحت نحو القطبين فاستحالت من الشكل الكروى الى شكل كرة مفرطحة نحو قطبيها فانتفاخ الارض نحو خط الاستواء وتفرطحها نحو القطبين دليل على أن الارض كانت سائلة ابتداء فان الكرة الصلبة التى من العاج لا يتغير شكلها اذا دارت على محورها قرونا ومتى كانت سائلة أو عجينية انتفخت نحو وسطها وتفرطحت نحو طرفى محورها فالعاقل اذا علم هذا وتأمل فى هذه اللطائف والعجائب وافتقارها الى هذه التدابير اضطر قطعا لأن يعتقد اثبات وجود الصانع الحكيم القدير العليم الذى جعل الارض دائرة لاختصاصها من المخصص لها بالمنافع التى تصدر منها باذنه وقدرته سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا * ثم بعد أن اطال الكلام فى ذلك وتعرض فى اثناء كلامه الى القول بان كل موجود سوى الله تعالى على ثلاثة أقسام المتحيزات والمفارقات والصفات وان المتحيزات اما بسائط أو مركبات والبسائط هى العناصر البسيطة والمركبات هى المواليد الثلاثة التى يتألف منها الكتل الكبيرة أى الاجرام وقال أنه لم يقم دليل على انه لا جسم الا هذه الاقسام الثلاثة لانه ثبت بالدليل أيضا على أنه حصل خارج العالم خلاء لانهاية له وثبت بالدليل أيضا أن الله تعالى قادر على الممكنات فهو تعالى قادر على ان يخلق الف الف عالم خارج العالم بحيث يكون كل واحد من تلك العوالم أعظم وأجسم من هذا العالم ويحصل فى كل واحد منها مثل ما حصل فى هذا العالم من العرش والكرسى والسموات والارضين والشمس والقمر وان دلائل الفلاسفة على اثبات أن العالم واحد دلائل ضعيفة مبنية على مقدمات واهية قال ما نصه فثبت بما ذكرنا أن لاجرام السماوية متحركة وكل جرم ثابت له حركة على نفسه وله حركة اخرى لا تعلم على أى شئ وله كواكب تدور حوله فجعل الله الكواكب السيارة ومنها الارض تدور حول الشمس اه وقد استدل أيضا فى موضع آخر على دوران الارض بقوله تعالى (كل فى فلك يسبحون) وقال أنه لا يجوز أن يقال مثل هذا الكلام ولا يدخل فى الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى كل أى فتدخل الارض أيضا لانها مع تقدم ذكرها فى الآية جرم من الاجرام السماوية أيضا كما سبق والحمد لله الذى وفقنا لهذا وفصلناه على وجه ما تقدم من قبل أن نطلع على كلام كشف الاسرار القرآنية فله الحمد والشكر والمنة وأضاف الى ذلك خمسة أدلة على دوران الارض أيضا مبناها كلها على قوله تعالى (الذى جعل لكم الارض فراشا) وقوله تعالى (أمّن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا) وقوله تعالى (الذى جعل لكم الارض مهدا) فقال ان كونها أى الارض فراشا لنا مشروط بشروط تلك الشروط تتضمن الدلائل على دوران الارض وهى خمسة * حاصل الاول منها أن الارض متحركة لانها لو كانت ساكنة لم تصلح لان تكون فراشا لانها لو كانت ساكنة لانحلت منها قوة التماسك الى آخر ما ذكره فى هذا الوجه * الدليل الثانى ما قاله علماء الهيئة من أن الارض منتفخة عند خط الاستواء مفرطحة فى طرفى قطبيها كما ثبت ذلك بالمشاهدة وبحركة البندولى الاهتزازية وهذا يدل على دورانها على ما فصله فى هذا الوجه أيضا * الثالث انها مركبة من اجزاء لا تتجزأ الى آخر ما ذكره فى هذا الوجه * الرابع ان لها مسام كما لغيرها من الاجسام وأن المسام متفاوتة فى الاجسام الى آخر ما بينه فى هذا الوجه * الخامس أنها مرنة إلى آخر ما بينه فى هذا الوجه

وكلها ترجع الى ما نقلناه عنه أولا وهى أدلة برهانية خصوصا انتفاخ الوسط وفرطحة طرفى القطبين فان ذلك مشاهد وقد علم بالتجربة المخانيكية أن هذا الشكل لا ينشأ الا عن دوران جسم كروى سائل او عجينى وفضلا عن ذلك قد تأيدت بظواهر الآيات التى قدمناها فخذ ما أتاك الله على يدنا وكن من الشاكرين

وأما قوله تعالى فى سورة النبأ (ألم نجعل الارض مهادا) فهو كقوله تعالى (الذى جعل لكم الارض

فراشا) والمهد كما فى القاموس الموضع الذى يهيء للصبى كالمهاد فالمهد والمهاد بمعنى واحد ويدل على ذلك أنه قرىء مهدا فهو كالفراش الموطأ وبذلك تعلم ان الآية لا تنافى كون الارض كروية دائرة ومثل هذه الآية فى المعنى قوله تعالى فى سورة الذاريات (والارض فرشناها) وقوله تعالى فى سورتى الحجرات وق (والارض مددناها) وفى سورة الرحمن (والارض وضعها للانام) وفى سورة الملك (هو الذى جعل لكم الارض ذلولا) وفى سورة المؤمن (الله الذى جعل لكم الارض قرارا) وفى سورة نوح (والله جعل لكم الارض بساطا) وفى سورة النمل (أم من جعل الارض قرارا) وهكذا سائر الآيات التى من هذا القبيل لا يقصد منها الا بيان ان الارض خلقت هى وما فيها مسخرة ممهدة مذللة للناس ينتفعون بها ومنها فى معاشهم فى الحياة الدنيا وفى معادهم بالنظر فيما جعل الله فيها من الآيات الدالة على وجود الصانع وكمال قدرته واحاطة علمه وسعة رحمته وفضله وانه لم يترك الانسان سدى ولم يخلق الناس عبثا كما قال تعالى فى سورة الزاريات (وفى الارض آيات للموقنين) على أننا اذا رجعنا الى ما قدمناه عن كشف الأسرار القرآنية من الادلة التى اقامها على دوران الارض نجد أن كل هذه الآيات التى من هذا القبيل ادلة على كروية الارض وانها متحركة على الاستدارة

واما قوله تعالى (والجبال اوتادا) فقد حكى الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره اقوالا فيه فقال فريق المعنى كالاوتاد وان المراد أرسينا الارض بالجبال كما يرسى البيت بالاوتاد واستدل على ذلك بخبر رواه وقال فريق آخر ان جعل الجبال اوتادا هو بمعنى جعلها سببا لانتظام أهل الارض بما أودع فيها من المنافع ولولاها لما تهيأت للانتفاع بها ولاختل أمر سكناهم اياها قال الالوسى وهو تاويل مناف للظاهر لا يحتاج اليه ما لم يقم الدليل القطعى على محالية ارادة الظاهر نعم قيل ان هذا اقرب للتقريب فان جعلها أوتادا بهذا المعنى اظهر من جعلها كذلك بذلك المعنى واقرب الى العلم به وربما يقال انه أوفق لترك اعادة العامل ومن لا يراه يجعل النكتة فيه قوة ما بين الارض والجبال من الاشتراك والارتباط فافهم اه قلت مما لا شك فيه أن المراد هنا أن الجبال كالاوتاد لانها ليست اوتادا حقيقة فالمعنى على التشبيه البليغ او التجوز فى تسمية الجبال اوتادا وحينئذ لا يبقى الكلام الا فى وجه الشبه فجعله الفريق الاول بالمعنى الذى قاله وان الاوتاد كما ترسى البيت وتمنعه من الاضطراب كذلك الجبال ترسى الارض وتمنعها من الاضطراب وجعله الفريق الثانى بالمعنى الذى قاله وان الاوتاد كما هى سبب لانتظام البيت واهله بما اودع الله فيه من المنافع ولولاها لما تهيأ البيت للانتفاع به ولاختل امر سكناهم اياه كذلك الجبال سبب لانتظام الارض واهلها والانتفاع بها الى آخر ما قاله هذا الفريق وبهذا يتبين لك ان المعنى الظاهر من لفظ الاوتاد وهو معناه الحقيقى لا يمكن ارادته هنا ويجب حمله على خلاف ظاهره وهو ان الجبال كالاوتاد فكل من قولى الفريقين تأويل خلاف الظاهر من اللفظ قامت القرينة على ارادته وكل منهما محتمل ويترجح الثانى بما ذكره الالوسى على ان ما قاله الفريق الاول ان كان المراد منه ان الله ارسى الارض بالجبال ومنعها من الاضطراب بسبب مقاومة ثقل الجبال لثقل الارض فجعلها ساكنة لا تتحرك اصلا فقد علمت ما فيه وان كان المراد منه ان الله تعالى ارسى الارض بالجبال ومنعها من الاضطراب أى الزلازل بواسطة ان خلق الجبال يوجب عدم احتباس الابخرة والغازات والمياه التى فى حالة الغليان فى جوف الارض لان خلقها اما ان يترتب عليه ثقب تلك الابخرة والغازات قشرة الارض فيتكون بركان أو رفع قشرتها فتكون الجبال الاخرى وفى كلا الحالين تتنفس الارض ويخرج منها الغازات والابخرة بدون ان يحدث خروجهما ادنى زلزال فى الارض بخلاف ما اذا لم تخلق الجبال فان الابخرة والغازات تحتبس فى جوف الارض بدون أن تجد منفذا تخرج منه فتمزق الارض تمزيقا تضطرب منه ويحصل الزلزال وهذا لا يمنع من كونها متحركة كما قدمناه كان حمل الآية عليه جائزا لكن المعنى على القول الثانى اعم واشمل فهو اكثر فائدة فيكون

اولى وعلى كل حال فالمعنى الثانى قريب مما اخترناه فى معنى ارساء الجبال ويكون اخبار الله تعالى بانه جعلها اوتادا بمعنى جعلها سببا لانتظام الارض واهلها وانها لولاها ماتهيأت للانتفاع بها ولاختل امر سكناهم اياها بيانا لحكمة خلق الجبال راسية ثوابت فكانه تعالى قال انما جعلنا الجبال رواسى فى الارض لتكون فيها كالاوتاد فى البيت فلا تتهيأ للانتفاع بها وبما فيها الا بالجبال كما لا يتهيأ البيت للانتفاع به و بما فيه الا بالاوتاد والله أعلم

فان قلت ماتقول فى قوله تعالى (اولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى)

قلت قد نقل الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره عن أبى مسلم الاصفهانى انه اريد بالرتق حالة العدم واريد بالفتق الايجاد لأن العدم ليس فيه ذوات متغايرة فكانت السموات والارض فى حالة العدم امرا واحدا متصلا متشابها * وبالايجاد يحصل التميز وانفصال بعض الحقائق عن البعض فيكون كقوله تعالى (فاطر السموات والارض) بناء على ان الفطر معناه الشق * واما ماقاله الالوسى من ان هذا القول مبنى على نفى تمايز المعدومات وهو خلاف ماحققه الكورانى فى كتابه جلاء الفهوم من ان المعدوم الممكن متميز فى نفس الامر لانه متصور ولا يمكن تصور الشئ الا بتميز ولان بعض المعدومات قد يكون مرادا دون بعض ولولا التميز بينهما ماعقل ذلك اذ القصد الى ايجاد غير المتعين ممتنع لأن ماليس بمتعين فى نفسه لم يتميز القصد اليه من القصد الى غيره اه فيرده ان معنى تمايز الاعدام تمايزها بالاضافة الى الوجودات المضافة هى اليها وهذا لا يقتضى تمايزها فى ذاتها الا انها لو تمايزت فى ذاتها بقطع النظر عما تضاف هى اليه لكان لها نحو من الوجود ولم تكن حينئذ معدومات والفرض أنها معدومات * مثلا عدم زيد انما امتاز باضافته الى زيد الموجود وأما فى ذاته فهو عدم بسيط ونفى محض فالأعدام باعتبار ذواتها غير متمايزة قطعا ولو كانت متمايزة وقد علمت ان التميز نحو من الوجود لكان العدم عين الوجود والمعدوم موجودا فيكون الشئ عين نقيضه * واما قوله لانه متصور الى آخره فنقول ان المتصور ليس هو حقيقة العدم ولا حقيقة المعدوم بل المتصور هو مفهوم لفظ العدم أو لفظ المعدوم الذى استحضره الواضع حين الوضع واستحضار هذا المفهوم لا يقتضى أن يكون منتزعا من امر آخر فى الخارج لان العدم أو المعدوم مأخوذ فى مفهومه حالة الوضع أنه نفى محض فى الخارج فتصوره كتصور قولك نفى محض فى الخارج فلو كان تصور مفهوم مثل هذا اللفظ يقتضى أنه متمايز فى الخارج لكان هذا التركيب مناقضا لنفسه كما هو ظاهر * وأما قوله ولان بعض المعدومات قد يكون مرادا الى آخره فالتحقيق أنه غير صحيح والتحقيق أن معنى ارادة المعدوم هو عدم ارادة نقيضه وهو الموجود وأما العدم والمعدوم فلا يصح ارادته ولا توجه القصد اليه لانه لا يصلح أن يكون أثرا من الآثار حتى تتعلق به الارادة فتتعلق به القدرة وهذا واضح لا سترة فيه لمن رجع الى كتب الكلام وكتب الاصول الفقهية على انه قد يقال يكفى فى كون العدم ليس فيه ذوات متغايرة وان السموات والارض أمر واحد متشابه وأن المعدومات لا تمايز أن يراد العدم فى الخارج ومما لاشك فيه أن المعدومات كالاعدام ليست متمايزة فى الخارج ولا كون لها فى الخارج قطعا وإياك أن تتوهم أن العدم يغاير المعدوم أو أن الوجود يغاير الموجود بل ماتراه من الاشتقاق والتغاير فى المفهوم ليس الا باعتبار الاوضاع اللفظية اللغوية واما عند العقل والرجوع الى مايقتضيه فى الواقع فالعدم عين المعدوم والوجود عين الموجود ولا يمكن عقلا فى المعدوم أن يكون بمعنى ذات قام بها العدم فان المعدوم ليس بذات والعدم ليس بصفة كما أن الوجود والموجود كذلك على ما حقق فى موضعه

وعلى كل حال فمعنى الآية ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والارض كانتا معدومتين فأوجدناهما

ومعنى علمهم بذلك تمكنهم من العلم به و بهذا تعلم ان هذه الآية لاعلاقة لها بما يقوله علماء الهيئة قديما وحديثا وأن البحث فى معناها لاعلاقة له بعلمهم

فان قلت ماتقول فى قوله تعالى (وأنزل من السماء ماء) قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره أن المراد من السماء جهة العلو او السحاب ثم قال الالوسى وارادة الفلك المخصوص بناء على الظواهر غير بعيد نظرا الى قدرة الملك القادر جل جلاله وسمت عن مدارك العقول افعاله الا أن الشائع أن الشمس اذا سامتت بعض البحار والبرارى اثارت من البحار بخارا رطبا ومن البرارى دخانا يابسا فاذا صعد البخار الى طبقة الهواء الثالثة تكاثف فان لم يكن البرد قويا اجتمع وتقاطر لثقله بالتكاثف فالمجتمع سحاب والمتقاطر مطر وان كان قويا كان ثلجا و بردا وقد لا ينعقد ويسمى ضبابا (وفى كل شئ له آية تدل على انه الواحد) وعلى هذا يراد بالنزول من السماء نشؤه من أسباب سماوية وتأثيرات أثيرية فهى مبدأ مجازى له على أن من انجاب عن عين بصيرته سحاب الجهل رأى ان كل ما فى هذا العالم السفلى نازل من عرش الارادة وسماء القدرة حسبما تقتضيه الحكمة بواسطة أو بغير واسطة ويشير اليه قوله تعالى (وما من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) بل من علم أن الله سبحانه فى السماء على المعنى الذى أراده وبالوصف الذى يليق به مع التنزيه عما لا يليق بجلال ذاته تعالى صح له أن يقول ان مافى العالمين من تلك السماء ونسبة نزوله الى غيرها أحيانا لاعتبارات ظاهرة وهى راجعة اليه فى الآخرة وما ذكره ماخوذ من عبارة البيضاوى فى تفسيره وحاشية الخفاجى عليه وهذا بعينه هو ماقاله الحكماء الاسلاميون * وملخصه انهم قالوا ان الريح ليست شيئا سوى تموج الهواء بحركته وتدافع اجزائه الى الجهات الست كما أن أمواج البحر ليست شيئا سوى تموج الماء بحركته وتدافع اجزائه الى الجهات الاربع فالماء والهواء بحران واقفان غير أن أجزاء الماء غليظة ثقيلة الحركة بالنسبة لاجزاء الهواء وأجزاء الهواء لطيفة خفيفة الحركة ومما يترتب على حركة الهواء صعود البخار والدخان من البحار والبرارى وذلك أن الشمس اذا مرت مسامتة لبعض البحار والبرارى والقفار أثارت من البحار بخارا رطبا ومن البرارى والقفار دخانا يابسا وأصعدتهما بحرارتها فى الهواء فيدافع الهواء بعضها بعضا الى الجهات فيتسع المكان للبخارين الصاعدين فان كان الدخان اليابس أكثر كان منها الرياح لان تلك الاجزاء اذا صعدت الى أعلى كرة النسيم وبردت ومنعها برد الزمهرير من الصعود الى فوق عطفت عند ذلك راجعة الى أسفل ودافعت الهواء الى الجهات الاربع فكانت منها الرياح المختلفة واذا ارتفعت البخارات فى الهواء وتدافع الهواء الى الجهات ويكون تدافعها الى جهة أكثر ويكون من قدامه جبال شامخة ومن فوقه برد الزمهرير مانع ومن أسفل مادة البخارين متصلة فلا يزال البخاران يكثران ويغلظان فى الهواء ويتداخل اجزاء البخارين بعضها فى بعض حتى يثخنا ويتكون منهما سحاب مؤلف متراكم والسحاب كلما ارتفع بردت أجزاء البخارين وانضمت اجزاء البخار الرطب بعضها الى بعض وصار ما كان دخانا يابسا ريحا وما كان بخارا رطبا ماء وأنداء ثم تلتئم تلك الاجزاء المائية بعضها الى بعض وتصير قطرا فاذا بردت ثقلت وأخذت تهوى راجعة من العلو الى أسفل سمى حينئذ مطرا فاذا كان صعود ذلك البخار بالليل والهواء شديد البرد منع ان يصعد البخارات فى الهواء بل اجمدها اولا فأولا قريبا منهما من وجه الأرض فيصير من تلك اجزاء ندا وصقيع وطل وان ارتفعت تلك البخارات فى الهواء قليلا وعرض لها البرد صارت سحابا رقيقا وان كان البرد مفرطا اجمد القطر الصغار فى خلل الغيم فكان من ذلك الجليد والثلوج وذلك ان البرد يجمد الأجزاء المائية وتختلط

بالأجزاء الهوائية فينزل بالرفق فمن اجل ذلك لا يكون لها على وجه الارض وقع شديد كما يكون للبرد والمطر فان كان الهواء دفيئا ارتفع الهواء فى العلو وتراكم من السحاب طبقات بعضها فوق بعض كما يرى ويشاهد أيام الربيع والخريف كانها جبال من قطن مندوف متراكمة بعضها فوق بعض فاذا عرض لها برد الزمهرير من فوق غلظ البخار وصار ماء وانضمت الاجزاء بعضها الى بعض وصارت مطرا أوعرض لها الثقل فاخذت تهوى من أعلى سمك السحاب ثم تراكمت والتأمت تلك القطرات الصغار بعضها الى بعض حتى اذا خرجت من اسفلها صارت قطرا كبيرة فان عرض لها برد مفرط فى طريقها جمدت وصارت بردا قبل ان تبلغ الارض فما كان منها من أعلى السحاب فهو الذى يصير بردا وما كان من أسفل السحاب كان مطرا مختلطا مع البرد * وأما البروق والرعود فانهما يحدثان فى وقت واحد ولكن البرق يسبق الى الابصار قبل صوت الرعد الى الاسماع لان أحدهما روحانى الصورة وهو الضوء والآخر جسمانى وهو الصوت كما بين ذلك فى رسالة الحاس والمحسوس من كتاب اخوان الصفا واما علة حدوثهما فهى البخاران الصاعدان اذا اختلطا فى الهواء والتف البخار الرطب على البخار اليابس الذى هو الدخان واحتوى برد الزمهرير على البخار الرطب وضغطهما فانحصر البخار اليابس فى جوف البخار الرطب وتفرقع من حرارة الدخان اليابس كما تتفرقع الاشياء الرطبة اذا احتوت عليها النار دفعة واحدة وحدث من ذلك قرع فى الهواء واندفع إلى جميع الجهات كما بينه أيضا بالرسالة المذكورة من إخوان الصفا وانقدح من خروج ذلك البخار اليابس الدخانى ضوء يسمى البرق كما تحدث من دخان السراج المطفأ إذا دنا من سراج مشتعل ثم ينطفئ وربما يذوب ذلك البخار ويصير ريحا ويدور فى جوف السحاب ويطلب الخروج فيسمع له دوى وتقرقر كما يسمع من الجوف المنتفخ ريحا وربما ينشق السحاب دفعة واحدة بشدة فيحدث من ذلك صوت هائل يسمى الصاعقة كما يحدث من الزق المنفوخ إذا وقع عليه حجر ثقيل فيشقه ومن العناية الالهية والرحمة الصمدانية بالعالم السفلى أن جعل الله سمك كرة النسيم عاليا ومركز السحاب مرتفعا بعيدا عن وجه الارض بمقدار الحاجة اليه وجعل من شأن السحاب إذا انخرق أن يطلب ذلك البخار الصعود إلى فوق وجعل من شأن قرع الهواء إذا حدث أن تكون حركته إلى فوق ولولا ذلك لكانت أصوات الرعد تضر باسماع الحيوانات الضعيفة وتقتلها كما يكون ذلك فى بعض أحايين وذلك أن السحاب إذا تراكمت وتكابست حتى يضغط بعضها بعضا إلى أسفل وقرب من الارض ويحدث الرعود ويخرق السحاب من أسفل ويقرع الهواء وينفع إلى وجه الارض يكون من ذلك صوت هائل وهى الصاعقة كما قلنا فانه يقتل كثيرا من الحيوانات القريبة من هنالك والناس أيضا كما فعل بقوم شعيب وصالح على نبينا وعليهما الصلاة والسلام وكذلك شأن البروق أيضا وذلك أن من شأن النار أن تتحرك إلى فوق فاذا منعها السحاب المتراكم رجعت منحطة إلى الارض فأحرقت ما أتت عليه من الحيوان والنبات ولكن قل ما تحرق الاجسام الرخوة لانها نار لطيفة تنفذ فى مسامها وأما الاجسام الصلبة فلتكابس أجزائها وتمانعها فتغلب عليها وتذيبها اهـ

فان قلت كيف توفق بين ماقاله هؤلاء الحكماء على وجه ماذكرته وبين ماذكره كثير من المفسرين كالرازى والالوسى وغيرهما وجاءت به أخبار أن الرعد صوت الملك الموكل بالسحاب والبرق لمعان مخاريقه التى هى من نار

قلت قال الالوسى فى تفسيره بعد ان نقل بعض ماقلناه عنهم ملخصا توفيقا بين ماجاءت به الاخبار على وجه ماذكرو بين ما اشتهر عند الحكماء على الوجه الذى قاله ومنه يؤخذ التوفيق بينه وبين ماقلناه

قد صح عند أساطين الحكمة والنبوة بما شاهدوه فى ارصادهم الروحانية فى خلواتهم ورياضاتهم وكذا عند سائر

المتألهين الربانيين من حكماء الاسلام والفرس وغيرهم ان لكل نوع جسمانى من الافلاك والكواكب والبسائط العنصرية ومركباتها ربا هو نور مجرد عن المادة قائم بنفسه مدبر له حافظ اياه وهو المنمى والغاذى والمولد فى النبات والحيوان والانسان لامتناع صدور هذه الافعال المختلفة فى النبات والحيوان من قوة بسيطة لا شعور لها وفينا عن أنفسنا والا لكان لنا شعور بها فجميع هذه الافعال من الارباب * والى تلك الارباب أشار صاحب الرسالة العظمى صلى الله عليه وسلم بقوله ان لكل شئ ملكا حتى قال ان كل قطرة من القطرات ينزل معها ملك وقال أتانى ملك الجبال وملك البحار * وحكى أفلاطون عن نفسه أنه خلع الظلمات النفسانية والتعلقات البدنية وشاهدها * وذكر مولانا صدر الدين القونوى قدس سره فى تفسير الفاتحة أن ماثم صورة الا ولها روح وأطال أهل الله الكلام فى ذلك * اذا علمت هذا فلا بعد أن يقال أراد صلى الله عليه وسلم بالملك الموكل بالسحاب فى بيان الرعد هو هذا الرب المدبر الحافظ وبزجره تدبيره له حسب استعداده وقابليته وأراد بصوت ذلك الزجر ما يحدث عند الشق بالابخرة الذى يقتضيه ذلك التدبير وأراد بالمخاريق فى بيان البرق وهى جمع مخراق وهو فى الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا الآلة التى يحصل بواسطتها الشق ولا شك انها كما قررنا من نار أشعلتها شدة الحركة والمحاكة فظهرت كما ترى * وحيث فتحنا لك الباب قدرت على تأويل كثير مما ورد من هذا القبيل حتى قولهم ان الرعد نطق الملك والبرق ضحكه وان كان بحسب الظاهر مما يضحك منه ولم أر احدا وفق فوفق وتحقق فحقق اهـ كلامه وأقول ان فى كلامه هذا تطويلا بلا طائل فانه لا داعى الى الالتجاء الى القول بان لكل نوع جسمانى من الافلاك والكواكب والبسائط العنصرية ومركباتها ربا هو نور مجرد عن المادة قائم بنفسه الى آخره ولا الى دعوى أن صاحب الرسالة العظمى أشار الى ذلك بقوله ان لكل شئ ملكا الى آخره ولا الى القول بما قاله القونوى من أن ماثم صورة الا ولها روح وما أطال به أهل الله فى ذلك وأنه لا بعد فى أن يقال أراد صلى الله عليه وسلم بالملك الموكل بالسحاب فى بيان الرعد هو الرب المدبر الحافظ فان كل هذه دعاوى لم يقم عليها دليل وان القائلين بها لم يستطيعوا اثباتها بدليل ولو بطريق الاقناع وانما قالوا ان هذه المقالات وامثالها مرجع القول بها هو الكشف المحض الذى قال به أربابه ولم يأتوا عليه بدليل من جهة العقل ولا من جهة النقل ولم يدع قائلوها أنها ثابتة بالادلة العقلية أو النقلية كما لا دليل أصلا من العقل أو النقل على أن صاحب الرسالة العظمى أراد ذلك أو أشار اليه ولو كان الامر كما يقوله العلامة الالوسى رحمه الله لم يخالف فيه أهل السنة قاطبة فانهم لا يقولون بالمجردات ولا بالارباب (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) فلا حاجة الى الالتجاء الى ذلك كله بل يكفى فى التوفيق أن نلجأ الى ماهو ثابت بالطرق الصحيحة عن المعصوم الذى ماينطق عن الهوى وهو أن للريح ملكا وللسحاب ملكا وللمطر ملكا ولكل شئ ملكا والقول فى ذلك بما قاله أهل السنة من أن الملائكة أجسام نورانية وان كان القول بذلك يمكن التوفيق بينه وبين ماقاله غيرهم من أن الملائكة جواهر مجردة عن المادة والماديات وأن الخلاف فى التسمية لكن لا ضرورة الى مخالفة القوم ويكفى فى التوفيق ان نقول ان لكل من الملك الموكل بكل من الريح والسحاب والمطر مدخلا فى حدوث الرعد والبرق وغير ذلك من الحوادث التى تحدث بواسطة ما يطرأ على السحاب وما فيه من البخار والدخان فلا مانع حينئذ من أن ينسب البرق والرعد الى الملك الموكل بذلك فيجعل الرعد صوت زجره والبرق لمعان مخاريقه وجعل الرعد صوت الزجر ظاهر لانه صوت يسمع وأما جعل البرق لمعان مخاريقه فعلى التجوز لان من لوازم البرق اللمعان ولا مانع من تسمية ما ينشأ عنه البرق بالمخاريق على التشبيه * هذا كله قلناه مجاراة لما قالوه ولكن اذا رجعنا الى الآيات القرآنية وفهمناها على وجه الانصاف نجدها تنص صريحا على أن الظلمات والرعد والبرق انما هى فى الصيب الذى هو فى المشهور المطر أخذا من صاب يصوب إذا نزل وهو المروى فى تفسير قوله تعالى أو كصيب من السماء عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة وعطاء

وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ويطلق على السحاب ايضا كما فى قول الشاعر

حتى عفاها صيب ودقه * واتى النواحى مسبل هاطل

والسماء ما علاك من سقف وغيره اوهى المعروفة عند خواص أهل الارض والمرئية عند عوامهم وقال المفسرون المراد بها فى الآية المذكورة الافق والتعريف للاستغراق فيفيد أن الغمام أخذ بالافاق كلها فيشعر بقوة المصيبة مع ما فيه من تمهيد الظلمة أى سواء أردنا بالصيب المطر أو السحاب فالظلمات والرعد والبرق معه مصاحبة له أو مظروفة فيه على مطلق الملابسة الشاملة للسببية والمجاورة وغيرها ففيه بذلك المعنى ظلمات ثلاث ظلمة تكاثفه بتتابعه وظلمة غمامه مع ظلمة الليل التى يشعر بها الذوق من قوله كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا فان هذا التعبير يشعر أنه لا ضوء لهم الا من البرق فاذا أضاء لهم وجد النور فمشوا وإذا أظلم عليهم واختفى ضوؤه ولا ضوء لهم غيره قاموا ووقفوا لشدة الظلمة وذلك لا يكون الا بالليل * وكأن فيه ظلمات ثلاثا فيه أيضا رعد وبرق قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بعد أن قال كغيره مثل ما قدمناه لانها فى منشئه ومحل ينصب منه ولا شك ان منشأ المطر والمحل الذى ينصب منه هو السحاب وقال الالوسى وغيره أيضا وان كان المراد بالصيب السحاب فامر الظرفية أى ظرفية الرعد والبرق فيه أظهر لانه لا يحتاج الى تأويل والظلمات الثلاث حينئذ ظلمة سحمة السحاب وتطبيقه مع ظلمة الليل التى استشعر بها الذوق كما مر بيانه ومتى كان كل من الظلمات والرعد والبرق مع المطر أو مظروفة فيه على التوسع المار ذكره او مع السحاب او مظروفة فيه على ذلك التوسع فالمراد من الظلمات يقينا اما ظلمة تتابع المطر وظلمة الغمام وظلمة الليل أو ظلمة سحمة السحاب وظلمة تطبيقه وظلمة الليل والمراد من الرعد ما نسمعه من الصوت الذى يكاد يصم الآذان الذى يسمع فى السحاب أو فى المطر أو مع واحد منهما والمراد من البرق ما نراه من الضوء الذى له لمعان يكاد يخطف الابصار كانت الآية نصا صريحا فى أن كلا من الرعد والبرق انما ينشأ من أمر حدث فى المطر أو فى السحاب أو مع واحد منهما وليس ذلك الامر الحادث الذى ينشأ منه الرعد والبرق الا ما ثبت بالمشاهدة والتجربة بتكرر حدوثه بذلك السبب بدون تخلف يتعين أن يكون المراد من نسبة الرعد الى الملك وجعله صوت زجره ونسبة البرق اليه وجعله لمعان مخاريقه هو ما ذكرنا من الاسباب التى حدثت فى المطر أو السحاب باذن الله تعالى وقدرته على يد ذلك الملك وترتب عليها الرعد والبرق باذنه تعالى وقدرته ايضا والمراد بمخاريقه أسواطه التى يسوق بها السحاب التى هى الارياح لما أن للارياح بسوقها السحاب مدخلا فى البرق كما أن لها مدخلا فى الرعد كما صرحت بذلك الآيات القرآنية التى قدمناها والكل منسوب الى الله تعالى وحده فانه الفاعل المؤثر واجب الوجود الذى لا يمكن أن يصدر اثر من الآثار الا منه وبتأثيره وتلك الوسائط انما كانت الحاجة اليها فيما ذكر لنقص فيها وعدم قبولها الاثر الا بها لا لحاجة اليها بالنسبة للفاعل المختار فى تأثيره ومن ذلك تعلم ان هذا التأويل فى الاحاديث هو الموافق للآيات القرآنية التى قدمناها بدون حاجة الى الالتجاء الى ما سواها من حديث الارباب وغيره مما قاله الالوسى فى تفسيره * وأما الصواعق فقد قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره انها جمع صاعقة وهى اسم لكل هائل مسموع أو مشاهد والمشهور أنه الرعد الشديد معه قطعة من نار لا تمر على شئ الا أتت عليه أى أهلكته وقد يكون معه جرم حجرى أو حديدى وسد الآذان انما ينفع على المعنى الاول وقد يراد المعنى الثانى و يكون فى الكلام اشارة الى مبالغة اخرى فى فرط دهشتهم حيث يظنون ما لا ينفع نافعا اه ولا يخفى ان الرعد الشديد هو صوت مسموع هائل فاذا اصحبه قطعة من نار أو حجر أو حديد لا يخرجه ذلك عن كونه صوتا هائلا مسموعا فهو مخيف بهذا الاعتبار كما هو مخيف باعتبار ما يصحبه وجرت العادة ان الانسان اذا أدهشه سماع صوت هائل أن يضع أصابعه فى اذنيه وإن لم ينفع بناء على اعتقاده وقت الدهشة انه نافع و بهذا تعلم ان الايات القرآنية فيما يتعلق بالصواعق

موافقة تمام الموافقة لما اشتهر عن الحكماء وعلماء الهيئة فلا تحتاج الى التأويل كما أن الآيات القرآنية موافقة لما اشتهر عنهم فى معنى الرعد والبرق وشهدت به المشاهدة والحس الصادق فيجب رد الاحاديث التى وردت على ذلك اليه خصوصا وان ما اشتهر عن الحكماء فى ذلك ووافقته الآيات القرآنية هو المشاهد لقوم بلغوا مبلغ التواتر فان الذين صعدوا فوق الجبال الشامخة التى يكون السحاب اسفل منها وشاهدوا صعود الابخرة والادخنة من البحار والبرارى وانعقادها سحابا ثم صيرورتها مطرا او بردا او ثلجا وشاهدوا حدوث الرعد والبرق والصواعق على الوجه الذى اشتهر عن الحكماء يبلغون عدد التواتر بلا شبهة ومما لا شك فيه ان الآيات القرآنية والاحاديث النبوية لا يجئ شئ منها على خلاف الواقع الثابت بطريق العيان واذا ورد شئ منها ظاهره يخالف شيئا مما ذكر وجب تأويله او تفويض معناه الى علام الغيوب ان كان ثابتا بطريق التواتر وأما ما قاله الحكماء فى الريح وقدمنا ان منها ما يهب من اسفل الى فوق ومنها تتكون الزوابع وهى ريحان تلتقيان ومنها ما يهب من فوق الى اسفل ومنها كانت الريح الصرصر التى اهلكت عادا الى آخر ما قالوه فى ذلك فالآيات القرآنية توافقه أيضا قال تعالى فى سورة البقرة (أيعب احدكم ان تكون له جنة من نخيل الى ان قال فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره الاعصار ريح مستديرة على نفسها وتكون مثل المنارة وتسمى الزوبعة وهى قد تكون هابطة وقد تكون صاعدة وسبب الاولى أنه اذا انفصل ريح من سحابة وقصدت النزول فعارضها فى طريق نزولها قطعة من السحاب وصدتها من تحتها ودفعها من فوقها سائر الارياح بقيت ما بين دافعين دافع من العلو ودافع من السفل فيعرض من الدفعين المتمانعين ان تستدير وربما زادها تعرج المنافذ تلويا كما يعرض للشعر ان لا يتجعد بسبب التواء مسامه وسبب الثانية ان المادة الريحية اذا وصلت الى الارض وقرعتها قرعا عنيفا ثم ثبتت فغلبتها ريح اخرى من جهتها التوت واستدارت وقد تحدث ايضا من تلاقى ريحين شديدتين وربما بلغت قوتها الى حيث تقلع الاشجار وتخطف المراكب الضخمة وتقذف بها من البحر الى البر او الى جانب سحيق منه وعلامة الريح النازلة ان تكون لفايف تصعد وتنزل معا وعلامة الريح الصاعدة ان لا يرى للفائفها الا الصعود وقد يكون كل منهما بمحض قدرة الله تعالى من غير توسط سبب ظاهر وربما اشتمل دور الزوبعة على بخار مشتعل قوى فيكون نارا تدور أيضا ولتعيين ارادة النوع فى هذه الآية وصف الله الاعصار فيها بقوله فيه نار وروى عن ابن عباس ان المراد بالاعصار الريح الشديد مطلقا وان المراد من النار السموم اه فانت ترى ان ما قاله المفسرون فى معنى هذه الآية موافق تمام الموافقة لما قاله الحكماء ولم ينكروا احتياج الاعصار والنار فى تكوينهما الى الاسباب الجوية التى رتبهما الله عليها بمقتضى سنته فى عالم الكون والفساد وهو الفاعل المختار المؤثر على كل حال فى كل من الاسباب والمسببات فكن منصفا تابعا للحق كيف ما كان قائله ولا تغتر بما يقوله الذين يزعمون انهم متمسكون بالدين والكتاب والسنة وهم بانكارهم ما هو ثابت بالعيان ودعواهم ان ذلك مخالف للدين والكتاب والسنه انما يضرون ما تمسكوا به من ذلك وهم لا يشعرون أو يشعرون ولكن يريدون ان يظهروا بذلك امام الناس بمظهر الصلاح والتقوى والله يعلم انهم لكاذبون* واما الطل فما قاله الحكماء كما بيناه موافق ايضا لما جاء فى كتاب الله تعالى على حسب ما قاله المفسرون قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره فى تفسير قوله تعالى (فان لم يصبها وابل فطل ان الطل هو الرذاذ من المطر

فان قلت ما تقول فى قوله تعالى (الم تر ان الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد

قلت ان معنى هذه الآية على ماقاله المفسرون موافق ايضا لما قاله الحكماء واليك البيان

قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره الم تر ان الله يزجى سحابا اى يسوقه سحابة الى سحابة اى بواسطة الرياح كادلت عليه الآيات الشريفة التى قدمناها ثم يؤلف بينه بان يوصل سحابة بسحابة و يؤلف بين اجزائه وقطعه ثم يجعله ركامامترا كمابعضه فوق بعض فترى الودق اى المطر شديدا كان اوضعيفا إثر تراكمه وتكاثفه وعن ابى حاتم عن ابى بجيلة عن ابيه أن الودق البرق ولم نره لغيره والذى رأيناه فى معظم كتب التفاسير وكتب اللغة انه المطر (يخرج من خلاله) أى من فتوقه ومخارجه التى حدثت بالتراكم والانعصار (و ينزل من السماء) أى من السحاب فان كل ماعلاك سماء وكأن العدول عن التعبير بالسحاب الى التعبير عنه بالسماء للايماء الى أن للسمو مدخلا فيما ينزل بناء على المشهور فى سبب تكون البرد (من جبال أى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم على التشبيه البليغ والمراد بها قطع السحاب (فيها) أى فى السماء والجار والمجرور فى موضع الصفة للجبال أى من جبال كائنة فى السماء وقوله تعالى (من برد) وهو معروف وقد تقدم سبب حدوثه فى كلام الحكماء وسمى بردا لانه يبرد وجه الارض أى يقشره من بردت الشئ بالمبرد مفعول ينزل على أن من تبعيضية وقيل زائدة على رأى الاخفش ومن الاولى والثانية لابتداء الغاية والجار والمجرور الثانى بدل من الاول بدل اشتمال أو بعض والمعنى و ينزل من السماء من جبال كائنة فيها أى فى السماء بعض برد ان كانت من الثالثة تبعيضية أو بردا ان كانت زائدة على اختلاف القولين فى من الثالثة وقيل ان من الاولى ابتدائية والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول وقيل زائدة على رأى الاخفش ايضا والثالثة للبيان والمعنى و ينزل من السماء بعض جبال على أن من الثانية للتبعيض أوجبالا كائنة فيها بناء على انها زائدة على اختلاف القولين فى من الثانية هى برد فالمنزل برد واراد من الجبال هنا لافادة كثرة القطع مجازا والى هذا ذهب كثير من المفسرين كما يقال عندى جبل من ذهب أوجبل من علم وعن مجاهد والكلبى واكثر المفسرين أن المراد بالسماء و بالجبال حقيقتهما قالوا ان الله خلق فى السماء جبالا من برد كما خلق فى الارض جبالا من حجر وليس فى العقل ماينفيه من قاطع فيجوز بقاء الآية على ظاهرها كما قيل والمشهور بين أهل الحكمة ان انبعاث قوى السماويات واشعتها قد توجب تصعيد اجسام لطيفة مرتفعة عن الماء ممتزجة مع الهواء وهى التى تسمى بخارا ولثقله بالنسبة للدخان لرطوبته ويبس الدخان يقف فى حيز الهواء بحيث لايكون واصلا اليه الحرارة الكائنة من الشعاع المنعكس من جرم الارض ويكون متباعدا عن التسخن بحرارة النار فيبقى فى الطبقة الباردة من الهواء فيبرد و يتكاثف بالتصاعد شيئا فشيئا فيتراكم منه سحاب فيقطر مطرا إما كله أو بعضه و يتفرق بعضه لبقائه على صورته الهوائية واستحالة ماقطر الى صورته المائية فان طالت مسافتها اتصلت فكانت قطراتها اكبر وان اشتد البرد عليها صارت بردا أونزلت ثلجا وامتنع تصاعد البخار عند ذلك فيبرد وجه الارض مع برد الجو فيكون من ذلك البرد القوى فان صادف ريحا اشتد البرد لازالتها البخار الارضى وان لم يصادف ريحا اذاب البخار الثلج وسخن وجه الارض وذكروا انه كلما طالت المسافة حتى اتصلت وكبرت القطرات وصادف البرد كان البرد اكبر مقدارا وقد ينعقد المطر بردا داخل السحاب ثم ينزل وذلك فى الربيع عندما يصيبه سخونة من خارجه فتبطن البرودة فى داخله عند انحلاله قطرات فيجمد وقد يكون البخار أكثر تكاثفا فلا يقوى على الارتفاع ويبرد بسرعة بما يوافيه من برد الليل لعدم الشعاع وليس بحيث يصير سحابا فيكون منه الطل وقد يجمد فى الأعالى قبل تراكمه فيكون منه الصقيع وقد يتكاثف الهواء لافراط البرد فينعقد سحابا و يمطر بحاله والحق ان كل ذلك مستند الى ارادة الله عز وجل ومشيئته سبحانه المبنية على الحكم والمصالح والاسباب التى ذكرت عادية ولا ارى بأسا بالقول بذلك و باعتبار ان أول الاسباب القوى السماوية واشعتها صح أن يقال ان الانزال مبتدأ من السماء على ما أشار

ليه العلامة البيضاوى فى الكلام على سورة البقرة وحمل الآية على مايوافق المشهور لايخل بجزالتها بل هى عليه أجزل وعن شكوك العوام أبعد لاسيما أهل الجبال الذين قد يمطرون و ينزل على أرضهم البرد وهم فوق الجبال فى الشمس اه ماقاله الالوسى مع ايضاح * وقال الالوسى فى تفسير قوله تعالى من سورة ابراهيم (وانزل من السماء ماء) أى السحاب ماء أى نوعا منه وهو المطر وسمى السحاب سماء لعلوه وكل ماعلاك سماء وقيل المراد بالسماء الفلك المعلوم فان المطر منه يبتدىء الى السحاب ومن السحاب الى الارض وعليه الكثير من المحدثين لظواهر الاخبار واستبعد ذلك الامام لان الانسان ربما كان واقفا على قلة جبل عال و يرى السحاب اسفل منه فاذا نزل رآه مطرا ثم قال واذا كان هذا أمرا مشاهدا بالبصر كان النزاع فيه باطلا وأول بعضهم الظواهر لذلك بان معنى نزول المطر من السماء نزوله باسباب ناشئة منها اه هذا ماقالوه وقد علمت ان الآيات متفقة فى معناها مع ما قاله الحكماء وكان من الضرورى تأويل ظواهر الاخبار الدالة على خلافه بما يوافقه وأما ما يشعر به كلام الالوسى من أن بين ما قال مجاهد والكلبى واكثر المفسرين من أن السماء والجبال على حقيقتهما الى آخره و بين ماقاله الكثيرون من أن ايراد من الجبال هنا لافادة كثرة القطع مجازا تفاوتا فاقول فيه انى لم افهم بينهما كبير تفاوت لانه متى كان المراد من الجبال كما يقول الكثيرون من المفسرين قطع السحاب العظام وهى لاتكون كذلك الا إذا تراكمت وتكاثفت لشدة البرد لان السحاب كما قالوا مكون من البخار والدخان كما تقدم وكان ماروى عن مجاهد والكلبى وعليه اكثر المفسرين هو أن المراد بالسماء حقيقتها وبالجبال حقيقتها كما يقول وهى ما خلقه الله من برد كما خلق الله فى الارض الجبال من حجر فلا يظهر فرق بينهما لانه لا يمكن أن يراد من حقيقة السماء الا جهة العلو ومتى كانت الجبال مخلوقة فى جهة العلو من برد والبرد لا يتكون الا من السحاب المتراكم المتكاثف المنعقد بواسطة شدة البرودة من البخار والدخان كما ثبت ذلك بالمشاهدة لكل من يريد الوقوف على ذلك بالعيان كان القولان متحدين بلا شبهة الا من جهة ان الكثيرين من المفسرين يسمون تلك القطع الكبيرة المتراكمة من البرد جبالا مجازا ومجاهد والكلبى واكثر المفسرين يسمونها جبالا حقيقة وهذا فرق راجع الى التسمية لا الى الحقيقة * هذا وقد قال فى رسالة الآثار العلوية من اخوان الصفا ما نصه من أجل ان كثيرا من الناس العقلاء يظنون ان المطر ينزل من السماء من بحر هنالك وأن البرد يقع من جبال ثم يستشهدون على صحة ظنونهم بقوله عز وجل (وانزلنا من السماء ماء طهورا) وقوله تعالى (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) ولا يعرفون معانى قوله سبحانه ولا تفسير آيات كتابه جل شأنه احتجنا ان نذكر فيها حرفا ليزول الشكوك والشبه * فاعلم ان معنى السماء فى لغة العرب هى كل ما علا على الرأس وان المطر انما ينزل من السحاب والسحاب يسمى سماء لارتفاعه فى الجو و يسمى السحاب جبالا ايضا لتراكمه بعضه فوق بعض كما يرى ذلك ايام الربيع والخريف كانها جبال من قطن مندوف متراكم بعضه فوق بعض اه مع تغيير يسير ومن ذلك كله تعلم حقيقة الحال فلا تقلد واعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال والله الموفق

فان قلت ما تقول فيما قاله علماء الهيئة اليوم بناء على قولهم ان الارض هى المتحركة ان حركة الارض على محورها فى سطح وحركتها حول الشمس فى سطح آخر * قلت هم استدلوا على ذلك بانا نرى الشمس فى اواسط شهر حزيران تشرق فى شمال الجهة الشرقية مسافة وتغيب الى شمال الجهة الغربية مسافة ثم تأخذ بالانتقال نحو الجنوب يوما بعد يوم الى أواسط شهر كانون فتشرق حينئذ فى جنوب النقطة الشرقية مسافة ثم تغيب فى جنوب النقطة الغربية ثم تأخذ فى الانتقال نحو الشمال يوما بعد يوم حتى تبلغ الجهة التى كانت

تشرق منها والتى كانت تغرب فيها فى أواسط شهر حزيران وهلم جرا فى كل سنة فنراها فى الصيف عالية فى وسط النهار قريبة الى سمت الرأس وفى الشتاء واطئة نحو الجنوب كما اننا نرى الشمس تشرق كل يوم من جهة الشرق وتغرب فى جهة الغرب وذلك بمقتضى حركة الارض على محورها ومحورها هو الخط المار بمركزها الذى تدور عليه مرة كل ٢٤ ساعة وان طرفيه هما القطبان وان خط الاستواء هو دائرة حول الكرة على بعد واحد من القطبين وانها تقسمها شطرين شطرا شماليا وشطرا جنوبيا فهذا الاختلاف فى رؤية الشمس ومناظرها برهان كاف على أن حركة الارض اليومية على محورها والحركة السنوية حول الشمس ليستا فى فى سطح واحد واستدلوا ايضا بانهما لو كانتا على سطح واحد لكانت الشمس تجاه خط الاستواء على الدوام وكان الليل والنهار متساويين على مدار السنة لان الدائرة الفاصلة بين نصف الكرة المنور بشروق الشمس والنصف المظلم بغروبها عنه كانت تمر بالقطبين فيكون كل شطر نصف الوقت فى النور ونصف الوقت فى الظلام والحال أن النهار فى الصيف طويل والليل قصير والامر بالعكس فى الشتاء وكلما انتقلت شمالا أو جنوبا زاد الفرق بين النهار والليل والصيف فى المواضع الى شمال خط الاستواء شتاء فى المواضع فى جنوبه والعكس بالعكس ولو كانت حركتا الارض فى سطح واحد لم يكن الامر كذلك بل تكون السنة فصلا واحدا فى جميع الدنيا دائما أبدا وبذلك يثبت أنه لا علة لهذا الاختلاف الذى نراه الا وجود حركتين فى سطحين يكون باحداهما الدورة اليومية واختلاف الظلمة والنور اللذين هما الليل والنهار من حيث شروق الشمس وغروبها ويكون بالثانية الدورة السنوية واختلاف الليل والنهار طولا وقصرا واختلاف الفصول فى كل سنة وحيث قد ثبت بما قدمناه ان كلا من الحركتين اليومية والسنوية هما حركتا الارض فتبين أن يكون هاتان الحركتان اليومية والسنوية ليستا فى سطح واحد بل هما فى سطحين أحدهما مائل على الآخر

وآيات القرآن ناطقة صريحا فى عدة مواضع باختلاف الليل والنهار باعتبار شروق الشمس وغروبها وباعتبار الطول والقصر وباختلاف فصول السنة صيفا وخريفا وشتاء وربيعا فدل ذلك على أن الحركة التى بها يكون الشروق والغروب فى كل ٢٤ ساعة تغاير الحركة التى بها يكون اختلاف الليل والنهار زيادة ونقصا واختلاف السنة فصولا * ويستوى بالنظر الى الغرض الذى يرمى اليه القرآن أن نقول ان علة الدورة اليومية هى الحركة الناشئة عن حركة الشمس حركة قسرية من المشرق الى المغرب تبعا للفلك الاعظم وحركته كما يقول فريق البطليموسية وان علة الدورة السنوية هى الحركة الناشئة عن حركة الشمس حركة ذاتية من المغرب الى المشرق وأن نقول إن علة الدورة اليومية هى حركة الشمس من المشرق الى المغرب حركة ظاهرية خيالية الناشئة عن حركة الارض على محورها من المغرب الى المشرق وأن علة الدورة السنوية هى حركة الشمس حركة ظاهرية خيالية ناشئة عن حركة الارض حول الشمس لان تلك المناظر والاختلافات التى نراها على الدوام لا تختلف ولا تتغير سواء نسبناها الى العلة التى قال بها هذا الفريق أو الى العلة التى قال بها ذلك الفريق فالذى دلت عليه آيات القرآن أمر واقعى لا يختلف فيه الفريقان وقد قدمنا فى قوله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) ان الايلاج معناه الحقيقى الادخال وقد استعير هنا لزيادة زمان النهار على الليل وعكسه بحسب المطالع والمغارب فى أكثر البلدان وروى ذلك عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقال تعالى (إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) قال الالوسى فى تفسيره

وغيره فى غيره بمعناه أى فى تعاقبهما ومجئ كل واحد خلف الآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها وكون ذلك تابعا لحركة السموات وسكون الارض كما قاله مولانا شيخ الاسلام مخالف لما ذهب اليه جمهور أهل السنة من المحدثين وغيرهم من سكون السموات وتحرك النجوم أنفسها بتقدير الله العزيز العليم وما ذهب اليه هو مذهب الحكماء المشهور بين الناس وقد ذكر مولانا الشيخ الاكبر قدس سره ما يخالفه أيضا حيث قال إن الله سبحانه خلق هذه السموات ساكنة وخلق فيها نجوما وأسبح بها وجعل لها فى سباحتها حركات مقدرة لا تزيد ولا تنقص وجعلها تسير فى جرم السماء الذى هو ساحتها فتخترق الهواء المماس لها فيحدث بسيرها أصوات ونغمات مطربة لكون سيرها على وزن معلوم فتلك نغمات الافلاك الحادثة من قطع الكواكب المسافات السماوية اه وجعل أصحاب الهيئة (أى البطليموسية) للافلاك ترتيبا وهو معروف مشهور عند الناس وذلك الترتيب وضعى يجوز فى الامكان غيره وهم مصيبون فى الاوزان مخطئون فى أن الامر كما رتبوه قال الالوسى ويؤيد دعوى أنه يجوز فى الامكان غيره ما ذهب اليه أهل الزيج الجديد من أن الشمس ساكنة لا تتحرك أصلا وانها مركز العالم وان الارض وسائر السيارات والثوابت تتحرك عليها وأقاموا على ذلك الادلة والبراهين بزعمهم وبنوا عليه الكسوف والخسوف ونحوهما ولم يتخلف شئ من ذلك فهذا يشعر بانه لا قطع فيما ذهب اليه أصحاب الهيئة ويحتمل أن يراد باختلاف الليل والنهار تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة أو اختلافهما وتفاوتهما بحسب الامكنة أما فى الطول والقصر فان البلاد القريبة من قطب الشمال أيامها الصيفية اطول ولياليها الصيفية اقصر من ايام البلاد البعيدة عنه ولياليها وأما فى أنفسها فان كروية الارض تقتضى ان يكون بعض الاوقات فى بعض الاماكن ليلا وفى مقابله نهارا وفى بعضها صباحا وفى بعضها ظهرا أو عصرا او غير ذلك وهذا مما لا شبهة فيه عند كثير من الناس وذكره شيخ الاسلام أيضا وليس ببعيد واختلاف الاوقات فى الاماكن مشاهد محسوس لا يختلف فيه اثنان اه ثم قال والذى قطع به بعض المحققين انه لم يجئ فى الاحاديث الصحيحة المرفوعة ما يفصل أمر السموات والارض أتم تفصيل إذ ليست المسئلة من المهمات فى نظر الشارع صلى الله عليه وسلم والمهم فى نظره واضح لا مرية فيه وسبحان من لا يتعاصى على قدرته شئ اه لكن قول الالوسى أن أهل الزيج الجديد يقولون إن الشمس ساكنة لا تتحرك أصلا لعله قيل به قبل الاكتشاف الجديد بواسطة النظارت المعظمة ذات الالوان واتضاح أن الشمس متحركة على ما قدمناه كما أن قوله إذ ليست المسئلة من المهمات الى آخره المراد منه أنها ليست كذلك فيما يرمى اليه ويقصده بهذه الآيات أولا وبالذات عن الاستدلال بها على وجود الله تعالى وسائر العقائد الدينية فان ما فصلته تلك الآيات القرآنية كاف فى ذلك وهذا لا ينافى أن الوقوف على ذلك العلم كمال فى الانسان لعقله ودينه وان الآيات حثت على الوقوف عليه اجمالا على حسب الطاقة البشرية حيث مدح المتفكرين فى خلق السموات والارض وجعل فى خلقهما آيات لأولى الالباب وجعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لنعلم عدد السنين والحساب وبالجملة حيث ان آيات القرآن اشتملت على كثير مما يتعلق بالسموات والارض والكواكب والافلاك والآثار العلوية كانت ذلك حثا للعقلاء على أن ينظروا بحسب طاقتهم البشرية فى أسباب ذلك ويرجعوا الى الفنون المدونة فيه الا ترى أن القرآن حيث كان بلغة العرب وقد اشتمل على ما يتعلق بعلم النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع كان ذلك حثا للعقلاء على أن يرجعوا الى هذه العلوم ولما اشتمل على الاستدلال بالصنعة واتقانها واختلافها وبالجملة بالعالم كله علويه وسفليه على وجود صانعه واحاطة علمه وكمال ارادته وقدرته كان ذلك حثا للعقلاء على النظر والتفكر فى العالم كله اجمالا وتفصيلا والرجوع الى علم المنطق والعلوم الطبيعية وعلوم الافلاك والاجرام السماوية ثم ينتقلون الى علوم

ماوراء الطبيعة وهو العلم الالهى كل ذلك ليزدادوا علما ويستعملوا ما أوتوا من العقل والفهم وآلات الادراك الحسى والباطنى فيما خلق لاجله

دواؤك فيك ولا تبصر وداؤك منك ولا تشعر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

واذا كان كذلك فاشتمال الآيات القرآنية على كثير من احوال السموات والارض والكواكب وغير ذلك مما يتعلق بحوادث الجو دليل على أن الله تعالى بكل معرفة اسباب ذلك وعلله لكونها من الامور الكونية الى عقولهم واختلافهم فيها على حسب تفاوت عقولهم لايضر فيما اشتملت عليه آيات القرآن لانها اقتصرت فيما اشتملت عليه على ما يتفق عليه العقلاء وسيأتى لذلك بقية

وقال تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه الظاهر أن المراد البروج الاثناعشر المعروفة وأخرج ذلك الخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس وهى عندهم عبارة عن كواكب من الثوابت فى الفلك الثامن وقع كل قسم من أقسام الفلك بمحاذات صورة منها وقت قسمته الى اثنى عشر قسما وتلك الكواكب متحركة بحركة بطيئة كسائر الثوابت وقد قارب فى هذه الازمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولا وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعى وهى نقطة معينة من معدل النهار لاتتحرك بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطة اخرى من منطقة البروج تتحرك بحركته واذا لم يتحرك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرك ماعداها وقد جعل الله ثلاثة منها ربيعية وهى الحمل والثور والجوزاء وثلاثة صيفية وهى السرطان والاسد والسنبلة وهى الستة الشمالية اى اذا حاذتها الشمس تكون سائرة جهة الشمال شروقا وغروبا وثلاثة خريفية وهى الميزان والعقرب والقوس وثلاثة شتوية وهى الجدى والدلو والحوت وهذه الستة جنوبية اى اذا حاذتها الشمس تكون سائرة جهة الجنوب شروقا وغروبا وبمحاذات الشمس كل برج منها يختلف الزمان حرارة وبرودة والليل والنهار طولا وقصرا وبذلك يظهر بحكم جرى عادة الله تعالى فى عالم الكون والفساد آثار جليلة من نضج الثمار وادراك الزروع ونحو ذلك ولعل ذلك هو وجه البركة فى جعلها الذى اشار اليه الحق سبحانه وتعالى بقوله تبارك الذى جعل الآية اه وأهل الهيئة قديما وحديثا لايختلفون فى هذه الاوضاع والاختلافات والمناظر وانما فريق علماء الهيئة اليوم يقولون ان علة ذلك كله حركة الارض حول الشمس وحركتها على محورها على التفصيل الذى قدمناه وحيث قدمنا عن جمهور اهل السنة من المحدثين وغيرهم انهم قائلون ان السموات ساكنة وأن النجوم متحركة انفسها أى بحركاتها الذاتية وحركاتها التبعية كما هو ظاهر قوله تعالى (كل فى فلك يسبحون وقوله تعالى كل يجرى لاجل مسمى) كان ظاهر هذه الآيات ان الذى يسبح ويجرى هى الكواكب انفسها وانها تسبح وتجرى فى مداراتها وأفلاكها كما يسبح ويجرى السمك فى الماء كما سبق وقدمنا ان الدورة اليومية والدورة السنوية لابد أن يصدر كل واحد منهما عن علة غير التى يصدر عنها الأخرى وانها تنحصر فى أحد امرين اما أن تكون علة الدورة اليومية هى حركة الشمس القسرية التابعة لحركة الفلك الاعظم وعلة الدورة السنوية هى حركة الشمس الذاتية من المغرب الى المشرق كما يقول بذلك فريق علماء الهيئة البطليموسية واما أن تكون علة الدورة اليومية هى حركة الارض على محورها التى يتبعها حركة الشمس ظاهرا فقط من المشرق الى المغرب وعلة الحركة السنوية هى حركة الارض أيضا حول الشمس التى تتبعها حركة الشمس شمالا وجنوبا محاذية للبروج الشمالية تارة والجنوبية تارة اخرى كما يقول به فريق أهل الهيئة اليوم ويتبع ذلك اختلاف فصول السنة ربيعا وصيفا وخريفا وشتاء واختلاف الليل والنهار طولا وقصرا وغير ذلك وحيث ظهر أن جمهور أهل

السنة ويوافقهم ظاهر الآيات القرآنية يقولون ان السموات التى هى الافلاك أو فيها الافلاك ساكنة ولاداعى للعدول عن ظاهر الآيات القرآنية وتبين بواسطة الآلات المعظمة ذات الالوان ان الشمس ليس لها حركة ذاتية من المغرب الى المشرق تقطع فيها دائرة فلك البروج وانما تتحرك بالحركات السابق بيانها تعين حينئذ أن نختار مذهب أهل الهيئة اليوم لانه متى بطل علية أحد الامرين ولا ثالث لهما تعين أن يكون العلة هو الآخر وعلى كل حال الآيات القرآنية لاتصادم ماقال علماء الهيئة اليوم من أن الارض متحركة بحركتين حركة على محورها وحركة حول الشمس وأن حركة الارض على محورها فى سطح وحركتها حول الشمس فى سطح آخر

فان قلت كيف توفق بين ما جاء فى آيات القرآن من أن الله جعل القمر نورا ومنيرا كما فى قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) وكما فى قوله فى الآية المتقدمة وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وبين ماقاله علماء الهيئة قديما وحديثا من أن القمر جسم مظلم وأن نوره مستمد من نور الشمس ولولا نور الشمس المنعكس الينا منه لما رأيناه

قلت نعم قالوا ذلك واستدلوا عليه بانه يختفى عن النظر وهو فى المحاق أى عند اقترانه بالشمس أى قربه منها بحيث يكون نصفه المتجه نحو الارض فى الظلام فلا ينعكس عليه نور الشمس وبنوا على ذلك حدوث خسوف القمر وكسوف الشمس فقالوا حيث كان القمر جسما مظلما وكل جسم مظلم لابد أن يكون له ظل يمتد الى عكس جهة النير الذى ينير هذا الجسم ولاجل أن نحقق صحة هذا الذى قلناه انظر الى ظلك وظلال الاشجار والحيطان ترى انها ممتدة الى الجهة المقابلة لنور الشمس أى ان ظل هذه الاجسام المظلمة وكل جسم مظلم مثلها واقع الى الجهة التى هى على عكس جهة الجسم النير وحيث كانت الارض ايضا جسما مظلما ولها أيضا ظل واقع الى الجهة المقابلة لجهة الشمس كنا والحالة هذه نتوقع وقوع ظل القمر على الارض فتنكسف الشمس فى كل شهر قمرى ونتوقع وقوع ظل الارض على القمر فيخسف القمر كل بدر لكنا وجدنا فى الواقع ان الكسوف والخسوف لايحدثان كل شهر كما كنا نتوقعه فلايضاح هذه النظرية قالوا ان جرم الارض وجرم القمر كل منهما أصغر من جرم الشمس وبذلك صار شكل ظليهما مخروطا والشكل المخروط هو الذى قاعدته غليظة مستديرة وآخره دقيق كذلك حتى ينقطع من دقته يشبه قمع السكر ووجدنا ظل الارض يبتدىء من سطحها ويمتد فى الهواء مخروطا حتى يصل الى فلك القمر ويمتد فى سمكه حتى يبلغ الى فلك عطارد ويمتد فى سمكه ايضا الى أن ينقطع هنالك فطوله من سطح الارض الى حيث ينقطع فى فلك عطارد مثل قطر الارض مائة وثلاثون مرة منه فى سمك الهواء ستة عشر جزءا ونصف وفى سمك فلك القمر مثل ذلك ومنه فى سمك فلك عطارد سبعة وتسعون جزءا الى حيث ينقطع ويكون قطر هذا الظل حيث يمر القمر فى وقت مقابلة الشمس مثل قطر جرم القمر مرتين وثلاثة اخماس وبواسطة الارصاد وحسابه وجدوا انه اذا اتفق ان تكون الشمس عند أحدى العقدتين اللتين تسميان الرأس والذنب يكون مرور القمر فى سمك الظل كله ممنوعا عنه نور الشمس فينخسف نوره فاذا خرج من الجانب الآخر انجلى نوره أى بمقدار ماانعكس اليه نور الشمس ووجدوا ظل القمر يبتدىء من سطحه ويمتد مخروطا فى سمك بعضه والباقى فى سمك الهواء ويقطعه حتى يصل الى وجه الارض فيكون قطر استدارته على وجه الارض هنالك مقدار مائة وخمسين فرسخا يزيد وينقص بقدر بعد القمر عن الارض وقربه منها * هذا فى وقت اجتماعه مع الشمس ووجدوا بالارصاد والحساب انه اذا اتفق اجتماعهما عند أحدى العقدتين يرى القمر محاذيا لابصارنا ولجرم الشمس فيمنع عنا نورها فنراها منكسفة أما اذا كان القمر فى غير هذين الموضعين أعنى موضع الاجتماع والاستقبال ولكن يكون الى أحد الموضعين أقرب فان كان قربه الى الاجتماع اكثر كان مخروط ظله فى سمك فلكه أو فى سمك فلك عطارد وأما رأس مخروط ظل الارض فالى الدرجة المقابلة

لدرجة الشمس فى أى برج كانت وتدور أبدا فى مقابلة الشمس فاذا كانت من فوق فظل الارض تحتها وان كانت من تحت الارض فظل الارض فوقها وان كانت بالمشرق فظل الارض الى ناحية المغرب واذا صارت بالمغرب صار الظل الى ناحية المشرق وهكذا دأبهما دائما أبدا يكونان حول الارض وهما الليل والنهار ومن ذلك علمنا ان الواقع ان الكسوف والخسوف لايحدثان كل شهر كما كنا نتوقع وانما يحدثان فى الاحوال المتقدمة فقط * وكيفية الكسوف والخسوف مما لايختلف فيها علماء الهيئة قديما وحديثا من حيث أن علة الكسوف للشمس حجب ظل القمر لنور الشمس عنا وعلة خسوف القمر حجب ظل الارض نوره عنا وأن نور القمر مستفاد من نور الشمس وأن الليل والنهار عبارتان عن ظل الارض المقابل لدرجة الشمس فى أى موضع كان من وجه الارض وعن ظهور الشمس فى مقابلة ظل الارض فى أى موضع كان من وجه الارض وانما اخلافهم فى علة الدوران على التفصيل الذى أسلفناه * وماقدمناه فى بيان كيفية الكسوف والخسوف هى عبارة المتقدمين ولكى تحقق اتفاق الفريقين فى ذلك وتتميما للفائدة نذكر عبارة علماء الهيئة اليوم فى ذلك أيضا بالاختصار ملخصة فنقول قالوا ان معنا كرتين هما الارض والقمر وكل منهما جسم مظلم وكرة ثالثة مضيئة بذاتها هى الشمس وهذه الكرة الثالثة ينعكس ضوؤها على احدى الكرتين المظلمتين فتضئ هذه الكرة المظلمة وهى القمر فاذا وقع القمر وهو كرة مظلمة بذاتها بين الارض والشمس تماما فكل موضع من الارض يقع عليه ظل القمر يحجب عنه نور الشمس فذلك كسوف الشمس كلها لان القمر حجبها عن نظر سكان ذلك الموضع ولكن المواضع التى لايقع عليها الظل تماما يكون كسوفها جزئيا الا ان القمر هنالك لم يحجب كل قرص الشمس وكلما بعدت عن المواضع التى هى داخل الظل تماما يصغر القسم المحتجب من الشمس لان حول الظل العميق ظل خفيف غير عميق يسمى الظليل وكل المواضع الواقعة داخل الظليل يكون الكسوف فيها جزئيا واذا بعد القمر قليلا عن الارض يرى أن ظل القمر لايصل الى الارض وعند ذلك لايحدث كسوف كامل لان قرص القمر على هذا البعد لايحجب كل قرص الشمس بل تبقى منه حلقة نيرة ظاهرة على دائرها وهذه الظاهرة تسمى كسوفا حلقيا ثم اذا نظرت الى الشمس ونقلت عينك الى أسفل قليلا ترى قسما هلاليا من الشمس وهو الكسوف الجزئى وكلما زدت فى نقل عينك الى أسفل ظهر من الشمس أكثر فاذا نظرت بعينك الى المحل الاول بحيث ترى الكسوف تاما ثم نظرت الى الوراء ترى القمر كانه يصغر بالتدريج وأخيرا لايكفى قرصه لحجب كل قرص الشمس بل ترى حلقة نيرة حوله كما فى الكسوف الحلقى وهذه الظواهر لايمكن حدوثها الا عند الاقتران أى فى أول الشهر القمرى ولا تحدث كل شهر * أما خسوف القمر فهو من قبل مرور القمر فى ظل الارض ولا يمكن حدوث ذلك الا عند الاستقبال أى عندما يكون القمر بدرا فعندما يدخل القمر فى ظل الارض يحجب عنه نور الشمس فيخسف ولو فرضت نفسك على جانب القمر المتجه نحو الارض فى كسوف تام للشمس لرأيت نقطة سوداء تمر على قرص الارض وحول تلك النقطة حلقة الظليل التى فيها يكون الكسوف جزئيا لسكان الارض الواقع مكانهم داخلها * أما الخسوف فظل قد يبلغ القمر كله أى يغطيه و يحجب نور الشمس عن كل قرصه ولا يمكن أن يبعد القمر عن الارض حتى يمر فى رأس الظل * بحيث يكون مثل نقطة مارة على قرص القمر

وأما السبب فى أن حدوث الكسوف والخسوف لايكون فى كل شهر الكسوف فى أول الشهر كما كنا نتوقع والخسوف فى نصف الشهر حيث يكون القمر بدرا كما كنا نتوقع أيضا فنقول ان السبب فى ذلك انما هو وقوع ظل القمر على الارض عند الاقتران أى فى أول الشهر القمرى والخسوف هو مرور القمر فى ظل الارض عند الاستقبال وهذا هو الذى جعلك تقول ما المانع من حدوث كسوف الشمس فى أول كل شهر قمرى وخسوف القمر فى كل نصف شهر قمرى فنقول لك لو كان سطح فلك القمر حول الارض موافقا بالتمام لسطح فلك الارض

حول الشمس لرأيت القمر وهو يدور كل شهر مرة مارا على نفس النجوم التى تمر عليها الارض مرة فى كل سنة وكان يحدث كسوف فى رأس كل شهر قمرى وخسوف فى بدر كل شهر قمرى ولكن الامر ليس كذلك بل فلك القمر مائل قليلا على فلك الارض فيمر عند الاقتران أحيانا من فوق الشمس بالظاهر وأحيانا تحتها أو فوق ظل الارض أو تحته وعند ذلك لايحدث كسوف ولا خسوف ولكن اذا كانت الاجرام الثلاثة الشمس والارض والقمر على خط واحد مستقيم مار بالاجرام الثلاثة وذلك لايحدث الا عندما يكون القمر عند الاقتران أو عند الاستقبال بقرب احدى العقدتين وذلك لان هنالك نقطتين تسميان الرأس والذنب وهما العقدتان والخط الموصل بينهما يسمى خط العقدتين فاذا كانت الشمس عند احدى هاتين العقدتين يكون مرور القمر فى سمك الظل كله ممنوعا عنه نور الشمس فيخسف واذا اجتمع الشمس والقمر عند احدى هاتين العقدتين يكون القمر محاذيا لابصارنا ولجرم الشمس فيحجب نورها عنا وتنكسف الشمس واما اذ لم يكن القمر عند الاقتران أو عند الاستقبال بقرب احدى العقدتين بل كان فى قسم آخر من فلكه عند الاقتران فلا يحدث كسوف ولا خسوف لأن الخط الموصل بين الارض والقمر اذا خرج على استقامة يمر تحت الشمس أو فوقها أو تحت ظل الارض أو فوقه وحيث تحققنا أنه لايحدث كسوف ولا خسوف فى كل شهر بل يحدث فى الاحوال المارة تحققنا أن ذلك لايكون الا اذا كان فلك القمر مائلا على فلك الارض فيكون ذلك اه

فأنت ترى ان كلا من عبارة المتقدمين وعبارة أهل الهيئة اليوم توافق الآخرى فى كل شئ مما يتعلق بالكسوف والخسوف الا فى نسبة الحركة والدوران للشمس أو نسبة الحركة والدوران للارض وتعلم أيضا أن كل ماقالوه من الاسباب التى انبنى عليها الكسوف والخسوف غير ماذكر ثابت بعضه بالعيان بمجرد النظر بالعين وبعضه بواسطة النظارات وآلات الرصد و بعضه بالحساب الذى لاريب فى صحته ولا اشتباه لأحد من العلماء فيما اتفق عليه الفريقان الا فيما يتعلق بان نور القمر مستفاد من نور الشمس فهذا فقط وان اتفق عليه علماء الهيئة قديما وحديثا لكن بعض العلماء من غيرهم انكره فنقول لبيان الحق فى ذلك

قال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه أى ذا نور ا ومنيرا أو نفس النور والنور وقيل أعم من الضوء بناء على أنه ماقوى من النور والنور شامل للقوى والضعيف وقيل هما متباينان فما كان بالذات فهو ضياء وما كان بالعرض فهو نور ولكون الشمس نيرة بذاتها نسب اليها الضياء ولكون نور القمر مستفادا منها نسب اليه النور وتعقبه العلامة الثانى بان ذلك قول الحكماء وليس من اللغة فى شئ فانه شاع نور الشمس ونور النار بقى أن حديث الاستفادة المذكورة سواء كانت على سبيل الانعكاس من غير أن يصير جوهر القمر مستنيرا كما فى المرآة أو بان يستنير جوهره على ما هو الاشبه عند الامام قد ذكرها كثير من الناس حتى القاضى فى تفسيره وهو مما لم يجئ من حديث من عرج الى السماء صلى الله عليه وسلم وانما جاء من الفلاسفة وأطال الالوسى فى ذلك الى أن قال وذكروا فى استفادة نور القمر من ضوء الشمس انه من الحدسيات لاختلاف أشكاله بحسب قربه و بعده منها وذلك كما قال ابن الهيثم لايفيد الجزم بالاستفادة لاحتمال أن يكون القمر كرة نصفها مضئ ونصفها مظلم و يتحرك على نفسه فيرى هلالا ثم بدرا ثم ينمحق وهكذا دائما ومقصوده انه لابد من ضم شئ آخر الى اختلاف الاشكال حسب القرب والبعد ليدل على المدعى وهو حصول الخسوف عند توسط الارض بينه و بين الشمس و بعض المحققين كصاحب حكمة العين وصاحب المواقف نقلوا عن ابن الهيثم ولم يقفوا على مقصوده منه فقالوا انه ضعيف والا لما انخسف القمر فى شئ من الاستقبالات أصلا وذلك كما قال العاملى عجيب منهم وانت تعلم انه لاجزم أيضا وان ضم ماضم لجواز ان يكون سبب آخر لاختلاف تلك الاشكال النورية لكنا لانعلمه كأن يكون كوكب كمد تحت فلك القمر ينخسف به فى

بعض استقبالاته وان طعن فى ذلك بانه لو كان لرؤى قلنا لم لايجوز أن يكون ذلك الاختلاف والخسوف من ارادة الفاعل المختار من دون توسط القرب والبعد من الشمس وحيلولة الارض بينها وبينه بل ليس هنالك الا توسط الكاف والنون وهو كاف عند من سلمت عينه من الغين

وللمتشرعين من المحدثين وكذا لسائر ساداتنا الصوفية قدس الله أسرارهم كلمات شهيرة فى هذا الشأن لعلك قد وقفت عليها والافستقف بعد ان شاء الله تعالى وقد استندوا فيما يقولون الى أخبار نبوية وارصاد قلبية وغالب الاخبار فى ذلك لم تبلغ درجة الصحيح وما بلغ منها آحاد ومع هذا قابل للتأويل بما لاينافى مذهب الفلاسفة والحق أن لاجزم بما يقولونه فى ترتيب الاجرام العلوية ومايلتحق بذلك وان القول به مما لايضر فى الدين الااذا صادم ماعلم مجيئه عن النبى صلى الله عليه وسلم اه وقد كرر ذلك القول فى عدة مواضع من تفسيره

وأقول أما قوله لجواز أن يكون سبب آخر لانعلمه الى آخره إن اراد الجواز العقلى فهو مجرد احتمال عقلى لاينافى ماثبت بالمعاينة بواسطة الآلات الرصدية والنظارات المعظمة والحساب الصحيح مما لايدع للشك فى ذلك مجالا فاقاله تشكيك فى القطعيات الاترى الى ماقدمناه عن الغزالى أول الكتاب بعد أن قدم مايتعلق بالكسوف والخسوف على الوجه الذى قاله الفلاسفة من أن من ظن أن المناظرة فى أبطال هذا الفن من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لاتبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما الى الانجلاء اذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه وانما يستريب فى الشرع اه *واما قوله لم لايجوز ان يكون ذلك الاختلاف والخسوف من ارادة الفاعل المختار من دون توسط القرب الى آخر ماقاله من أنه ليس هنالك الا توسط الكاف والنون الى آخره من زخرف القول *فنقول إن توسط القرب والبعد من الشمس وحيلولة الارض بينها وبينه فيما يتعلق بخسوفه وحجب ظل القمر نور الشمس عنا عند اجتماعهما عند احدى العقدتين على ماوصفوا لايمنع من أن ذلك كله من ارادة الفاعل المختار وان كل ذلك بتوسط الكاف والنون لان كلا من الاسباب والمسببات والعلل والمعلولات وغير ذلك مما يتوقف عليه غيره أو يتوقف على غيره من الممكنات صادر من الواجب وهو الله وحده الفاعل المختار ومخلوق بارادته وقدرته وفعل من أفعاله وأثر من آثاره ويستحيل عقلا على ماهو الحق أن يصدر أثر من الآثار أو أى نحو من أنحاء الوجود الامن الواجب وحده جل شأنه وانما توقف الممكنات بعضها على بعض لنقص فيها لالعجز فى الواجب تعالى عن ذلك وفضلا عن ذلك فقد قال الله تعالى (والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها) فقال الالوسى نفسه فى تفسيره بعد أن نقل عدة أقوال فى معنى تلو القمر للشمس مانصه *وقال الحسن والفراء كما فى البحر أى تبعها فى كل وقت لانه يستضئ منها فهو يتلوها لذلك *وأنكر بعض الناس ذهاب احد من السلف الى أن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس وزعم أنه رأى المنجمين لاغير وماذكر حجة عليه والحجة على اصل المسئلة أظهر من الشمس وهى اختلاف تشكلاته النورية قربا وبعدا منها مع ذهاب نوره عند حيلولة الارض بينه وبينها وكون الاختلاف لاحتمال أن يكون أحد نصفيه مضيئا والنصف الآخر غير مضئ وانه يتحرك على محوره حركة وضعية حتى نرى كل نصف منها تدريجا وكون ذهاب النور عند الحيلولة لاحتمال حيلولة جسم كثيف بيننا وبينه لانراه أضعف من حبال القمر كما لايخفى وقال الزجاج وغيره تلاها معناه امتلأ واستدار فكان تابعا لها فى الاستدارة وكمال النور اه كلامه *فانت ترى أن كل ماقاله فى عدة مواضع من تفسيره اعتراضا على كون نور القمر مستفادا من نور الشمس وماقاله غيره ممن حذا حذوه فى ذلك جميعه لايخرج عن كونه احتمالات عقلية لايمتنع عقلا أن يكون الواقع غيرها مما يمكن وقوعه أيضا ولاشك أن ماقاله علماء الهيئة فى ذلك ممكن الوقوع عقلا وقد دل الدليل القاطع على وقوعه بقدرة الله تعالى وارادته واذا تتبعت جميع الممكنات

فى العالم كله تجد أن كل ماوقع منها ووجد كان ماعداها ويقابله منها ممكنا ايضا ولكن اختيار الفاعل المختار سبحانه هو الذى رجح ماوقع ووجد منها على ما كان مساويا له فى جواز الوقوع او أرجح على القول إن العدم أرجح من الوجود لكونه الاصل لايحتاج الى علة بخلاف الوجود وتعلم أيضا أن ماقاله الالوسى من أن حديث استفادة نور القمر من ضوء الشمس مما لم يجئ من حديث من عرج الى السماء لايفيده شيئا لانه على فرض انه لم يرد به حديث صحيح لكن قد جاء به ماهو أقوى من الحديث وأصل الحديث وهو القرآن الذى هو كلام الله المنزل على من عرج الى السماء المبلغ الينا بلسانه صلى الله عليه وسلم على ماقاله الحسن البصرى والفراء والزجاج وغيرهم وكفى باولئك حجة على ان غير واحد من المفسرين قالوا ان نور القمر وغيره من الكواكب مستفاد من ضوء الشمس قال تعالى (وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) قال الالوسى فى تفسيره السراج هو الشمس كما فى قوله تعالى (وجعل الشمس سراجا) وعلى الفرق المشهور بين الضوء والنور يكون فى وصف القمر بمنيرا دون مضيأ اشارة الى أن مايشاهد فيه مستفاد من غيره وهو الشمس بل قال غير واحد ان نور جميع الكواكب مستفاد من ضوء الشمس وان لم يظهر اختلاف تشكلاته بالقرب والبعد منها كما فى نور القمر اه وسيأتى ماتقف به على الحقيقة عند الكلام على الكواكب وأقمارها إن شاء الله تعالى

فان قلت ان علماء الهيئة قالوا ان جرم القمر مقدار نصف جرم الارض وان العين الحادة البصر ترى على وجه قرص القمر بقعا قاتمة اللون أو مغبرة وزعموا سابقا أن تلك البقع بحار ولكن الآن زعموا أنه قد تحقق أن ليس فى القمر مجتمع ماء ظاهر لأقوى النظارات غير أن تلك البقع لم تزل تسمى بحارا فترى على خارطة القمر بحر الهدى وبحر الرحيق الى آخره ولو نظرت الى القمر بنظارة ولو صغيرة تراه جبالا وأودية وسهولا قاحلة يابسة لااشارة فيها للحياة ولا ترى عليه غيوم ولا ضباب ولا أقل اشارة تدل على وجود الماء فيه وعلى مايعلم هو خال من [illegible] عديم الانهر والبحيرات والاشجار والنبات ولايقوم فوقه سحاب يظله من الشمس ولا دليل على وجود كرة هوائية تحيط به وكل سطحه الظاهر للارض كرؤس البراكين المنطفئة الواسعة المساحة المختلفة كل الاختلاف عما يرى على الارض واذا كان القمر خاليا عن الماء والبخار المائى ومن النبات ومن كل ماذكر فلا يصلح للحياة النباتية ولا الحيوانية وفضلا عن ذلك خلوه من الهواء يستلزم سرعة الانتقال من شدة النور الى شدة الظلام حالما تختفى الشمس عن موضع على سطحه ونهاره نصف شهر وليله نصف شهر لانه يدور على محوره مرة كل شهر فيشتد الحر فى النصف المتجه نحو الشمس كل الاشتداد لطول نهاره ويشتد البرد فى النصف المتجه عن الشمس لطول ليله وهو نفسه مظلم مضىء بنور الشمس المنعكس عن سطحه فنور القمر انما هو نور الشمس الواقع على القمر المنعكس الينا منه ومتى كان القمر يدور على محوره مرة كل شهر أى فى نفس مدة دورانه حول الارض ينتج من ذلك أنه يوجه ذات النصف الواحد منه نحو الارض على الدوام وأما النصف الثانى فلا نراه ولو كان على القمر سكان فالذين على النصف المتجه نحو الارض يرونها على الدوام والذين على النصف الآخر لايرونها أبدا وان القمر يستمد نوره من ضوء الشمس كما قلنا وينتهى اليه أيضا بعض نور الشمس منعكسا عن الارض أى أن نور الشمس الواقع على الارض ينعكس منها بعضه الى القمر ويقع على القسم المظلم منه وينعكس راجعا الى الارض حتى ترى القسم المظلم المتجه نحوها وذلك يظهر غالبا فى أول القمر يرى الهلال كالعادة لامعا ويرى مافى قرص القمر ضعيفا وسميت هذه الرؤية عند بعض الشعوب بالقمر الجديد فى حضن العتيق

وقد قالوا أيضا أن الارض جرم من الاجرام السماوية تابعة للشمس وان القمر تابع للارض وهما معا

يدور حول الشمس وان بين الارض والشمس جرمين اقربهما الى الشمس سيار يسمى عطارد وأقربهما الى الارض سيار اسمه الزهرة وحيث كان فى الحقيقة هذان الجرمان أقرب من الارض الى الشمس فبمقتضى ذلك يظهر فيهما بعض المناظر والظواهر الخصوصية التى فى جرم أبعد من الارض عن الشمس

وبالبحث وجد أن جرما بين الارض والشمس يشرق معها ويغيب معها ولا يرى بسبب شدة نور الشمس ولكون وجهه المظلم متجها نحو الارض فيرى عن يمين الشمس صباحا فى الشرق ويشرق قبل الفجر ويغيب قبل الشمس فلا يرى الا صباحا ويغير موقعه كل يوم سائرا بين النجوم ولذلك سمى سيارا ولا يرى نهارا لانه مختف فى شدة نور الشمس ثم يشرق ويغيب مع الشمس ولكنه يختفى فى نورها لانها على استقامة واحدة مع الارض ثم يرى عن يسار الشمس ويشرق بعد الشمس ولا يرى إلا مساء فى المغرب بعد غروب الشمس ثم نرى جرما آخر نظير هذا الجرم السابق يرى مثل ما يرى القمر تماما من هلال وربع وبدر ومحاق ولكنه لا يرى نصف الليل مثل القمر وفضلا عن ذلك فان الارض فى دورانها حول الشمس تبقى على بعد واحد منها تقريبا فترى الشمس على قدر واحد والقمر فى دورانه على الارض يبقى على بعد واحد تقريبا فيرى على جرم واحد أعنى ان العين المجردة لا تميز اختلافا فى جرم الشمس أو جرم القمر فى أقسام مختلفة من فلكيهما وان اختلف بعدهما على الحقيقة لا على هيئة واحدة أما الجرم الذى نحن بصدده فتارة يكون بيننا وبين الشمس أى أقرب من الشمس الينا واخرى فى الجهة المقابلة أى الشمس بيننا وبينه فيختلف بعده كثيرا فيختلف أيضا قدره الظاهر لنا فى هذه الحال اذا رأينا الجرم المشار اليه بنظارة معظمة نراه فى جهة الشمس ولا نراه فى القسم من السما المقابل للجهة التى بها الشمس فلا يكون له استقبال مثل القمر فلا يكون له اقترانات ومتى كان بيننا وبين الشمس جرمان آخران كما قلنا اقربهما الى الشمس سيار يسمى عطارد واقربهما الى الارض سيار اسمه الزهرة وهما السياران الاسفلان فعطارد بسبب قربه الى الشمس وضيق فلكه لا يبعد عن الشمس شرقا أو غربا الا القليل فيغيب سريعا بعد الشمس أو يشرق قبلها بمدة وجيزة حتى تعسر رؤيته بسبب نور الشمس الغالب والزهرة لكون فلكها أوسع من فلك عطارد تبعد عن الشمس اكثر منه شرقا وغربا وتغيب بعدها بمدة وهى حينئذ نجم الغروب أو تشرق قبلها بمدة وهى حينئذ نجم الصباح

وقالوا أيضا ان عطارد الذى هو أقرب السيارات الى الشمس يدور حولها وقطر فلكه نحو ثلثى قطر فلك الارض ويدور حول الشمس مرة كل اربعة وثمانين يوما فسنته نحو ربع سنتنا وفلكه مائل قليلا على سطح دائرة البروج واذا أردناه ننظر الى جهة غروب الشمس أو الى جهة شروقها واذا اتفق وجوده بقرب احدى العقدتين مع وقوعه فى الاقتران الاسفل يكون بيننا وبين الشمس تماما فيمر على قرص الشمس على هيئة نقطة سوداء ولولا بعده عن الارض حينئذ لحصل كسوف مثل ما يحصل من توسط القمر بين الارض والشمس وقد رصدوا عطارد ابالنظارات فرأوا أن له أوجها مثل أوجه قمرنا فاذا كان فى الاقتران الاسفل يتجه نحو الارض نصفه المظلم الذى لا يصل اليه نور الشمس حينئذ ومتى تجاوز هذا الاقتران قليلا يرى هلالا ومتى كان على أعظم بعده من الشمس نحو الغرب أو الشرق يرى نصف قرصه المنور مثل القمر فى التربيع ومتى كان فى الاقتران الاعلى يرى بدرا لان كل وجهه المنور يتجه نحو الارض حينئذ

وقالوا أيضا أن عطاردا بسبب قربه من الشمس واختفائه فى نورها يعسر رصده فلا يعلم عنه الا القليل ولا يعلم ان كان فيه بر وبحر ماء وأرض يابسة مثل أرضنا أو هو خال من الماء ومن الهواء مثل القمر أو هو محاط بضباب كثيف ليقى سكانه من شدة حر الشمس ان كان فيه سكان ولكن من فعله بغيره يعلم ان كثافته اكثر من كثافة ارضنا وبعض الرصود تدل على أنه يدور على محوره فى مدة قريبة من مدة دوران الارض على محورها أى

ان يومه مثل يومنا تقريبا غير أن ذلك لم يتحقق بالتمام وقد حسب أن معدل الحرارة فيه متى كان فى القسم من فلكه الاقرب منه الى الشمس عشرة أضعاف معدل الحرارة فى أرضنا

وقالوا أيضا أن فلك الزهرة بين فلك الارض وفلك عطارد وقطرها أقصر من قطر الارض قليلا واذا كانت عن يسار الشمس ترى مساء وبعد الغروب وتسمى نجم الغروب واذا كانت عن يمينها ترى صباحا قبل الفجر وتسمى نجم الصباح ولكون فلكها أوسع من فلك عطارد تبعد عن الشمس شرقا وغربا اكثر منه فيستطاع رصدها وتمتاز عن بقية السيارات بشدة لمعانها لانها انور الجميع وتدور حول الشمس فى مدة مائتين وأربعة وعشرين يوما وتدور على محورها فى مدة ثلاث وعشرين ساعة وإحدى وعشرين دقيقة على ما قاله بعضهم لكن ذلك لم يتحقق كل التحقيق

وقالوا قد تقرر أن ميل سطح دائرة البروج على سطح خط الاستواء هو نحو ثلاث وعشرين درجة وان ذلك علة الفصول وان الشمس لا تميل عن خط الاستواء شمالا أو جنوبا أكثر من ثلاث وعشرين درجة * أما الزهرة فميل فلكها على سطح خطها الاستوائى نحو خمسين درجة أى فالشمس تميل فى الزهرة عن خطها الاستوائى خمسين درجة شمالا وجنوبا فيكون اختلاف الفصول فيها أعظم جدا مما هو على أرضنا

وقالوا أيضا قد شوهد على الزهرة بعض البقع أو الكلف ولم يتحقق ان كانت على سطح السيار نفسه أو هى سحب عائمة فى هوائه الكروى ولها نفس الاختلافات التى لعطارد فتكون هلالا وتربيعا وبدرا ومحاقا ويختلف قدر الزهرة الظاهر كل الاختلاف وذلك لانها فى الاقتران الاسفل تكون بيننا وبين الشمس وهو اذ ذاك اقرب ما تكون الينا فنراها هلالا دقيقا وبينها وبين الارض حينئذ خمسة وعشرون مليونا من الاميال ثم عندما تكون فى الاقتران الاعلى تكون فى الجهة المقابلة للارض بالنسبة الى الشمس وبينها وبين الارض مائة وسبعة وخمسون مليونا من الاميال واذا اتفق وقوع الزهرة فى الاقتران الاسفل مع كونها بقرب احدى عقدتيها تمر مثل نقطة سوداء على قرص الشمس كما ذكر فى عطارد وحدث ذلك فى سنة الف وثمانمائة واربع وسبعين وفى سنة ثمانمائة واثنين وثمانين ولا يحدث ثانيا الا بعد مرور مائة سنة وخمس سنين ونصف سنة ثم بعد مضى ثمان سنين

وقالوا ان المريخ أقرب السيارات العليا الى الارض ويدور على محوره فى أربع وعشرين ساعة ونصف تقريبا أى ان يومه أطول من يومنا نحو نصف ساعة وقطره نحو نصف قطر الارض ومدة دورانه السنوى أى حول الشمس ستمائة يوم وستة وثمانون يوما أى ان سنته نحو سنتين من سنينا ولكون فلكه خارج فلك الارض يستحيل وقوعه بيننا وبين الشمس فلا تظهر له اختلافات فى الرؤية مثل عطارد والزهرة والقمر غير انه قبل الاقتران قليلا وبعده قليلا يتوجه نحو الارض قسم صغير من سطحه المظلم فيرى مثل القمر نحو ثلاثة ايام قبل البدر وبعده أى ناقصا قليلا من الجانب الواحد ومعدل بعده عن الشمس مائة وتسعة وثلاثون ميلا

وقالوا اذا كان المريخ فى القسم من فلكه بحيث تكون الارض بينه وبين الشمس قيل انه فى الاستقبال وهو اذ ذاك أقرب ما يكون الينا وبعده ١٣٩ مليونا – ٩١ مليونا = ٤٨ مليونا أى مائة وتسعة وثلاثون ميلا ينقص منها واحد وتسعون ميلا فيكون مساويا ثمانية وأربعين ميلا ويرى كل سطحه المتجه نحونا وحيث انه يدور على محوره يتوجه كل سطحه نحو الارض بالتتابع كل يوم من أيامه واما فلكه فمتطاول جدا هليلجيته كثيرة فتارة يقرب الينا كثيرا واخرى يبعد عنا كثيرا واذا اتفق استقباله مع وقوعه فى القسم من فلكه الاقرب الى فلك الارض فهو حينئذ فى موقع حسن للرصد وميل فلكه على خطه الاستوائى نحو ٢٩ درجة فيكون فصوله مثل فصول الارض تقريبا

وقالوا ان المريخ يمتاز عن بقية السيارات بلونه الاحمر غيرأنه اذا نظر اليه بنظارة يزول هذا الاحمرار الظاهر للعين المجردة ويظهر على سطحه بقع لامعة وبقع قاتمة وزعم بعضهم ان تلك بحار وهذه يابسة فيترا آى لنا كما تترا آى الارض له وحول كل قطب من قطبيه قطعة بيضاء تضيق مساحتها فى صيفه وتتسع فى شتائه فاذا ضاقت القطعة حول القطب الواحد تتسع التى حول القطب الآخر مثل الثلوج حول قطبي الارض ويترا آى ان نسبة اليابسة الى المياه فى المريخ نحو أربعة أمثال المياه عكس ماهى على الارض اعنى على الارض المياه اربعة أمثال اليابسة وفى المريخ اليابسة أربعة أمثال المياه

وقالوا ان للمريخ قمرين اكتشفهما الدكتور آصاف هال فى واشنطون سنة ١٨٧٧ الاقرب منهما الى المريخ سماه فوبوس وهو أنورهما وربما كان اكبرهما والابعد عنه سماه ديموس ولا يختلف قطر كل واحد منهما كثيرا عن عشرة أميال ومدة دوران الاقرب سبع ساعات وتسع وثلاثون دقيقة ومدة دوران الابعد ثلاثون ساعة وثمان عشرة دقيقة وبعد فوبوس عن مركز السيار نحو ستة آلاف ميل فقط ويكون بعده الاقرب عن سطح السيار نحو أربعة آلاف ميل وبعد ديموس عن السيار خمسة عشر الف ميل

وقالوا أن بين فلك المريخ وفلك المشترى مساحة واسعة فيها تدور عدة أجرام صغيرة سموها السيارات الصغار والنجيمات لصغر أجرامها بالنسبة الى بقية أجرام النظام الشمسى وفى أوائل هذا القرن عرف منها أربعة وهى (وسته) (يونون) (يلاس) (سيرس) ومن ذلك الوقت الى الان كشف الرصاد منها نحو ستة حتى بلغ المعروف منها الآن أى فى شباط سنة ١٨٨٧ ٢٧٢ سيارا صغيرا وقطر أعظمها لا يزيد عن نحو مائتى ميل ولا تراها العين المجردة وربما رأت العين الحادة البصر اكبرها مثل نجم صغير جدا واكثرها دون القدر العاشر نورا

وقالوا ان فلك المشترى خارج فلك النجيمات المسماة ايضا بالسيارات الصغار وهو اكبر اجرام النظام الشمسى وأنور الاجرام السماوية ماعدا الزهرة ويدور فى فلكه مرة كل أربعة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين يوما على بعد أربعمائة وستة وسبعين مليونا ميل من الشمس أى ان مدة دورانه حول الشمس احدى عشرة سنة من سنينا وستة وثمانون يوما من أيامنا فسنته تعادل هذا المقدار من سنينا وزيادة ستة وثمانين يوما وهو يعدل جرما الف وثلاثمائة كرة مثل كرة أرضنا وأما مادته فنحو مادة ارضنا ثلاثمائة مرة لان المواد التى تالف منها هى اخف من مواد الارض فاذا فرضنا كثافة الارض واحدا فتكون كثافة المشترى واحدا على أربعة وقطره نحو ثمانية آلاف وستمائة ميل ونسبة مادته الى مادة الشمس كنسبة واحد الى ٤٩ تقريبا واذا نظر أحد الى المشترى بنظارة عظيمة كبيرة يرى انه مسطح ظاهرا عند قطبيه أى قطره القطبى أصغر من قطره الاستوائى ويرى على سطحه مناطق وبقع قاتمة اللون وخطوط ومن حركة تلك المعالم تحقق أن مدة دورانه على محوره نحو عشر ساعات أى تسع ساعات وخمس وخمسين دقيقة أى ان يومه اقصر من نصف يومنا وحيث ان قطره نحو قطر ارضنا عشر مرات يكون تجمع المادة على خطه الاستوائى كثيرا بسبب سرعة دورانه على محوره وتلك السرعة نحو سرعة نقطة على خط الاستواء الارضى عشرين مرة اعنى عشرين الف ميل كل ساعة وتلك المناطق والمعالم على سطح المشترى تدل على انه محاط بالسحب وتلك المناطق هى شقوق وثلمات فى سحبه يرى فيها جرم السيار نفسه أوسحب أقرب الى سطحه وتلك المناطق والمعالم غير ثابتة على حال بل سريعة التجمع والتمدد والتقلص والانفصال بعضها عن بعض والاتصال بعضها ببعض وذلك برهان على أن مانراه ليس هو جرم السيار بل سحبا عائمة فوقه محيطة به ومحوره عمودى على سطح فلكه تقريبا فتتغير فيه الفصول قليلا جدا أى فلكه مائل على خطه الاستوائى قليلا جدا

وللمشترى أربعة أقمار تسمى الاول والثانى والثالث والرابع مبتدئا بالاقرب الى السيار

اما الاول فبعده عن السيار مائتا الف ميل وسبعة وستون الف ميل ومدة دورانه يوم و ١٨ ساعة وتسع وعشرون ثانية وقطره الف ميل واربعمائة ميل وأما الثانى فبعده عن السيار اربعمائة الف ميل وخمسة وعشرون الف ميل ومدة دورانه ثلاثة ايام و١٣ ساعة و ١٨ دقيقة وقطره الفا ميل ومائة ميل واما الثالث فبعده عن السيار ستمائة وثمانية وسبعون الف ميل ومدة دورانه سبعة أيام وأربع ساعات وقطره الفان واربعمائة ميل واما الرابع فبعده عن السيار مائة الف وتسعة عشر الف وثلاثمائة ميل ومدة دورانه ستة وسبعون يوما و ١٨ ساعة وخمس دقائق وقطره الفان وتسعمائة ميل

القمر الاول أبعد عن المشترى من بعد قمرنا عن الارض والقمر الثانى يعدل قمرنا تقريبا والبقية أعظم منه والثالث أعظم الجميع واحيانا يختفى منها ثلاثة معا ونادرا يختفى الاربعة معا وراء السيار فى ظله وقد يتفق اقتران ثلاثة منها حتى ترى بالنظر المجرد واحدا وقد يتفق ذلك فى الاربعة وافلاك هذه الاقمار قلما تختلف عن دوائر تامة وسطوحها فى الاستواء للسيار الا قليلا والنتيجة انها تميل قليلا على سطح فلكه لان محوره مائل على سطح فلكه قليلا فلا تختلف فصوله بما يعتبر كما تقدم

وهذه الاقمار ترى من المشترى مثل مايرى قمرنا من ارضنا فتارة ترى اهلة وتارة ترى مربعة وتارة ترى بدورا ولكون أفلاكها مائلة قليلا جدا على سطح فلك السيار تنخسف كل دورة وتكسف الشمس فى أقسام من المشترى فى كل دورة الا الرابع منها فان فلكه مائل اكثر من أفلاك سائر الاقمار على فلك السيار فقد يمر من فوقه أو من تحته حتى لا يحدث كسوفا فى كل دورة

اذا رصدت أقمار المشترى بنظارة تراها احيانا على جانب منه واحيانا على الجانب الآخر تخطر من جانب الى جانب مثل خطرات السيارين الاسفلين على جانبى الشمس واذا مر احدهما على قرص السيار يرى عليه مثل نقطة سوداء من وقوع ظله على الوجه النير وهذه الحالة سميت عبورا والاقمار اذا مرت فى ظل السيار المرتمى الى الجهة المقابلة للشمس تنخسف وقد يقع السيار بينها وبين الارض فتمر خلف السيار بدون دخولها فى ظله وهذه الحالة تسمى احتجابا

وقالوا ان زحل اغرب السيارات منظرا اذا نظرنا اليه بنظارة معظمة وله ثمانية أقمار وحلقة نيرة حول السيار نفسه ويدور حول الشمس مرة فى كل تسع وعشرين سنة وخمسة وأربعين يوما أى نحو ثلاثين سنة تقريبا فسنته الواحدة تعادل هذا القدر من سنينا وقطره نحو قطر أرضنا تسع مرات وقد رصدت الخطوط والمعالم التى على سطحه فتبين من ذلك أن مدة دورانه على محوره عشر ساعات وربع ساعة وفى اصول علم الهيئة ان مدة دورانه على محوره عشر ساعات وتسع وعشرون دقيقة وسبع عشرة ثانية والله أعلم وفلكه مائل على خط الاستواء نحو ٢٨ درجة فتكون فيه فصول مثل فصول أرضنا والمريخ * والذى يظهر من المناطق والمعالم التى على سطحه انه شبيه بالمشترى فى كونه محاطا بالسحب والبخار وكثافته نحو نصف كثافة المشترى وتسطيحه عند قطبيه نحو $\frac{1}{2}$ واحد على عشرة وذلك أعظم من تسطيح السيارات الاخرى

اما حلقات زحل فهى بحسب الظاهر ثلاث حلقات متراكزة احداها خارجية والثانية وسطى والثالثة داخلية أما الخارجية والوسطى فهما أنور من الداخلية وأما الداخلية فمثل منسوج خاو ولا ترى الا بواسطة أقوى النظارات المعظمة ويرى جرم السيار من ورائها وكلها عريضة ولكن نحو ١٣٨ ميلا فقط واذا كانت حافتها نحو الارض كما يحدث فى بعض مواقع السيار ترى بغاية الصعوبة بواسطة أقوى النظارات وقد زعموا أن هذه الحلقات الغريبة المنظر مؤلفة من أجرام صغار تدور حول السيار * ورؤية الحلقة الخاوية حاصلة من تفرق

تلك الاجسام الصغيرة و بعد بعضها عن بعض حالة كونها منظومة في الحلقتين الاخريين * أما أقمار زحل الثمانية فلا ترى الا بنظارة معظمة ولبعدها لا نستطيع أن نرصد خسوفها واحتجابها وعبورها كما في اقمار المشتري ولكون افلاكها مائلة كثيرا على فلك السيار يكون خسوفها نادر الوقوع وقالوا زيادة على ما تقدم من السيارات قد اكتشف سيار آخر سموه أورانوس لم يكن معروفا عند القدماء اكتشفه سر وليم هرشل في ١٣ اذار سنة ١٧٨١ و بعده عن الشمس الف وسبعمائة وثلاثة وخمسون مليونا وثمانمائة وواحد وخمسون ألف ميل واثنان وخمسون ميلا و يدور حول الشمس مرة واحدة في مدة ٨٤ سنة ونيف من سنينا فسنته هذا المقدار وقطره نحو اربعة امثال قطر أرضنا وهو مسطح من ناحية قطبيه ومن رصدهم بعض الخطوط والمعالم التي على سطحه تعينت مدة دورانه على محوره بالتقريب فكانت نحو عشر ساعات وكثافته ثلاثة وعشرون جزءا من كثافة الارض أي أنها أقل قليلا من كثافة المشتري ولهذا السيار أربعة أقمار معروفة ولا ترى الا باقوى النظارات * وبسبب بعدها ودقتها لا سبيل الى معرفة مقاديرها ومددها بالتحقيق واما ابعادها عن السيار ومدد دورانها حوله فقد علمت وهي كالآتي

أولها اسمه أرتيل مدة دورانه يومان واثنتا عشرة ساعة و٢٩ دقيقة و بعده عن السيار مائة وعشرون الف ميل

والثاني امبريتيل مدة دورانه اربعة ايام وثلاث ساعات وسبع وعشرون دقيقة و بعده عن السيار مائة وسبعون الف ميل

الثالث تيتانيا مدة دورانه ثمانية أيام وست عشرة ساعة وسبع وخمسون دقيقة و بعده عن السيار مايتان وثمانون الف ميل

الرابع أبرون مدة دورانه ١٣ يوما واحدى عشرة ساعة وسبع دقائق و بعده عن السيار مايتان وسبعون الف ميل وقال البعض ان لاورانوس ثمانية أقمار ولكن الذي تأكد وجوده هذه الاربعة فقط

بناء على هذا الاستكشاف قال الالوسي في تفسير قوله تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل) اعتراضا على حصر فريق الافلاك في تسعة والكواكب السيارة في سبعة ما نصه ومن علم ان ارباب الارصاد من زمان يسير وجدوا كوكبا سيارا أبطأ سيرا من زحل وسموه هرشلا باسم مكتشفه وقد رصده « لالنت » فوجده يقطع البرج في ست سنين شمسيه واحد عشر شهرا وسبعة وعشرين يوما وهو يوم تحريرنا هذا المبحث وهو اليوم الرابع والعشرون من جمادي الآخرة سنة الف ومائتين وست وخمسين حيث الشمس في السنبلة قد قطع من الحوت درجة واحدة وثلاث عشرة دقيقة راجعا لا يبقى له اعتماد على ما قاله المتقدمون ويجوز امثال ما ظفر به هؤلاء المتاخرون اه

واقول قال في اصول علم الهيئة بعد ان ذكر كيفية اكتشافه قال ثم وقعت المداولة من جهة تسميته فقال سر وليم هرشل يسمى نجم جاورجيوس اكراما للملك جاورجيوس الثالث ملك انكلترا وقال لابلاس بل يسمى هرشل اكراما لمكتشفه وقال بعضهم كذا وآخرون كذا الى ان قال «بود» بل يسمى اورانوس فغلب عليه هذا الاسم اه

وقالوا ايضا قد اكتشف سيار آخر بعد اكتشاف اورانوس باثنتين وستين سنة وسموه نبتون وكان اكتشافه في ٢٤ ايلول سنة ١٨٤٩ وان هذا السيار هو أبعد السيارات عن الشمس و يدور حولها على بعد اثنين بليون وسبعمائة وستة وأربعين مليون ميل في مدة نحو ١٦٤ سنة كل مرة فسنته عادل هذا المقدار من سنينا وقطره أكثر من قطر أرضنا اربع مرات وكثافته مثل كثافة اورانوس

تقريبا أو أقل منها قليلا ولا يعرف له تستطيح قطبي وحركته في الساعه ١٢٠٠٠ ميل ومدة دورانه على محوره مجهولة الى الآن

من اكتشاف هذا السيار ايضا يتأكد البرهان الدال على ان في الامكان اكتشاف سيارات اخرى خصوصا وانهم لاحظوا في طريق اكتشافه في اورانوس ان حركته من قسم في فلكه متسارعة وفي قسم آخر متباطئة فدل ذلك على أن هنالك جرما آخر جذبه فاسرع أو ابطأ حسب نسبة أحدهما الى الآخر في فلكه ومن ذلك حسب « لا فريير » في باريس وأدمس في كمبرج موقع هذا الجرم المجهول ففي كانون الثاني سنة ١٨٤٣ شرع الاستاذ ادمس يحسب مواقع سيار خارجي مزعوم وجوده بناء على اضطرابات اورانوس و بعد أن اشتغل بذلك سنتين ارسل نتائج حسابه الى مدير مرصد كريتويبج ولكنه لم يشهر شيئا في وقته وفي صيف سنة ١٨٤٥ اخذ لا فريير يراجع حركات اورانوس وفي اخر تلك السنة اشهر مؤلفا به برهن على عدم امكان صدور اضطراب اورانوس من زحل ولا المشتري وفي حزيران سنة ١٨٤٦ اشهر مؤلفا ثانيا برهن به على ان ذلك من قبل سيار خارج فلك اورانوس وحسب له فلكا كما كان الاستاذ أدمس قد فعل من قبل ووصلت منه نسخة الى مدير المرصد المتقدم في ٢٣ الشهر المذكور فلما رأى ذلك المدير أن حساب لافريير موافق لحساب أدمس الذي بيده ارسل الى الاستاذ شالس من كمبردج في ٩ تموز يطلب اليه ان يفتش على السيار بنظارته فشرع بذلك في ١١ تموز وفي ٢٩ ايلول وجد السيار وكان الدكتور (غال) من برلين ايضا يفتش على السيار فوجده بازعمه اياه في ٢٣ ايلول وفي ٢٤ منه تأكد انه هو وهذا السيار هو نبتون فرأوا من سنة ١٧٨١ الى ١٨٢٢ جاذبية نبتون اسرع حركة من أورانوس فظهر مقدما عن الموضع المحسوب له وفي سنة ١٨٢٢ كان في الاقتران وفعل نبتون انما هو جذب اورانوس الى ابعد عن الشمس بدون آن يؤثر في طوله ومن سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٣٠ اخر نبتون اورانوس في حركته حتى لاشي زيادة الطول المكتسب منه سنة ١٧٨١ و بعد سنة ١٨٣٠ تغيرت علامات الخطأ من واحد على واحد الى صفة لم تبق شبهة في صحة الاستكشاف

ولنبتون قمر واحد كشفه لاسل و بوند في سنة ١٨٢٦ وزعم بعضهم وجود قمر ثان ولم يثبت بعد * ومن هذا الذي ذكرنا يقوى ما قاله الالوسي من عدم القطع بحصر الافلاك ولا الكواكب السيارة في عدد معين و يجوز أن يكشف سيارات اخرى في المستقبل ما دام البحث مستمرا ويخلق ما لا تعلمون

وقالوا ايضا انه يوجد في النظام الشمسي أي ضمن الاجرام السماوية التي تتحرك حول الشمس غير الارض والسيارات الكبار والصغار السابق ذكرها اجرام اخرى تابعة لشمسنا ايضا منها المذنبات أو ذوات الاذناب وهذه غريبة المنظر يختلف بعضها عن بعض اختلافا كثيرا في القدر والهيئة تارة تشبه نجما أو سيارا ولها في وسطها نقطة لامعة سميت النواة ولها ذنب نير طويل يمتد خلفها على طول ملايين من الاميال واحيانا تشبه سحابة نيرة صغيرة ذا نواة حولها مادة نيرة سحابية وهي على قول الفيلسوف كيلر المذنبات في الفضاء اكثر من السمك في البحر عددا غير أن اكثرها صغار عن ان ترى بالعين المجردة تستلزم نظارة معظمة لاظهارها

وقالوا ان الجانب الاعظم من ذوات الاذناب تدخل الى داخل النظام الشمسي من خارجه ثم تجذبها شمسنا فتدور حولها ثم تبتعد وتغوص في الفضاء الغير المتناهي في مثل ضيوف تزور نظام شمسنا وتذهب في حال سبيلها خارج ذلك النظام و بعض المذنبات لا يدخل داخل النظام الشمسي من خارجه ولكنه من جملة هذا النظام غير أنها لا تدور في افلاك اشكالها قريبة الى شكل الدائرة مثل السيارات بل في افلاك اهليلجيتها زائدة أي افلاك متطاولة فتقرب من الشمس وتمر داخل فلك عطارد ثم تبعد بعدا مهولا الى ابعد من اورانوس

وأبعد من نبتون وقد فصلوا ما يتعلق بذوات الاذناب تفصيلا لكن يطول شرحه ولا يليق ذكره بهذه العجالة فراجعه فى محله ان اردت الفائدة

وقالوا أيضا انه يوجد فى النظام الشمسى حجارة ونيازك وانها اجسام دائرة حول الشمس ايضا وعند ما تقرب الى الارض بحيث تغلب جاذبيتها جاذبية الشمس تنحرف عن افلاكها وتنجذب نحو مركز الارض ومن سرعة حركتها تولد فى مرورها فى الهواء الكروى حرارة كافية لاحراق الصغار منها تماما وتحمى الكبار الى درجة اللمعان ويحترق بعضها وينتهى الى الارض قبل ما يحترق كلها

وقالوا كثيرا ما نشاهد ما يشبه شعلة نار مارة بسرعة فى الجو وبعض الليالى تكثر وتلك المناظر تسمى نجوما ساقطة وشهبا ونيازك وتارة تكون كبيرة جدا مضيئة تتفرقع بصوت مسموع الى بعيد بعد اشتعالها وتارة تسقط الى الارض قطع كبار منها فقد انقسمت تلك الظواهر باعتبار هذه الامور الى ثلاثة أقسام وهى

(١) حجارة جوية (٢) كرات نارية (٣) شهب ولولا شدة نور الشمس الغالب لظهرت نهارا كما تظهر ليلا وقد ذكروا مشاهدة بعضها نهارا

الاول الحجارة الجوية قد سقط منها فى أوقات مختلفة الى الارض من سنة ٦٥٠ قبل الميلاد الى الوقت الحاضر حتى بلغ عدد الحجارة المعروفة ظروف سقوطها ٢٦٢ فقد جاء فى تاريخ صينى انه فى ١٤ كانون سنة ٦١٦ قبل الميلاد سقط حجر كسر عدة مركبات برية وقتل عشرة رجال وفى بعض تواريخ الاعصار المتوسطة ذكر انه سنة ٩٤٤ بعد الميلاد مرت كرات نار فى الجو وحرقت عدة بيوت وفى ٢٢ اذار سنة ١٨٤٦ نحو الساعة الثالثة بعد الظهر مرت على ضيعة فى مقاطعة كارون الاعلى من فرانسا حجرة مشتعلة بصوت عظيم وسقطت على مخزن فحرقته واحترق ايضا عدة مخازن بقربه بما فيها وفى صباح ٢١ آب سنة ١٨٧٣ مرت شعلة كبيرة فى قسم من بلاد اطاليا وتفرقع بقرب برزاليا الى الشمال الشرقى من رومية وفى سنة ١٤٩٢ سقط حجر وزنه ٢٦٠ ليبرا بقرب انسهيم فى اعلى نهر الرين بين الساعة ١١ والظهر سمع الناس مثل قصيف رعد ودويا مستطيلا فرأى ولد شيئا سقط فى حقل مزروع قمحا فوجدوا الثقب فى الارض الذى حدث من سقوطه واخرجوه ووضعوه فى الكنيسة وبقى هنالك ثلاثمائة سنة الى أن نقل الى باريز ثم ارجع الى محله الاول

وفى ٢٦ نسان سنة ١٨٠٣ مرت على بلاد نورماندى شعلة نحو ساعة بعد الظهر ثم سمع تفرقع دام صوته نحو ٦ دقايق وسقط بعد ذلك قطع حجارة كثيرة وجمع منها نحو ٣٠٠ قطعة وزن أكبرها ثمان ليبرات ونصف وصار المعروف منها الغاية الآن ٢١٤ مختلفة الوزن بين بعض الاواقى الى عدة قناطير ولا شك ان الحجارة الساقطة أكثر من ذلك بكثير لان بعضها يسقط فى البحر وبعضها فى المفازات المنقطعة

الثانى والثالث الكرات النارية والشهب قالوا قلما توجد بالفلاة فى ليلة صافية مدة بعض الساعات بدون أن نرى عدة نيازك أو شهب مثل نقطة نيرة لامعة تنقض فى الفضاء بسرعة تاركة اذنابا نيرة وراءها وأكثرها تحترق فى الهواء ولكن بعض الاحيان تسقط الى الارض وتغرز فيها من سرعة سقوطها وبعض الشهب تضاهى المشترى والقمر نورا بعض الثوانى واذا سقطت الى الارض يستطيع الكيماوى ان يفحصها ويستعلم مادتها ومن فحص عدة من هذه الشهب وجد ان بعضها حجارة وبعضها معادن وقد وجد منها قطع بلغ وزنها عدة قناطير اما الصغار منها فتحترق كلها فى الهواء وتحول بخارا ولا ينتهى شئ منها الى الارض

ومادة هذه الظواهر على ما قالوا هى مادة عالمية قطعها صغيرة الجرم دائرة حول الشمس

مختلفة الميل على دائرة البروج

وقيل ان السدام مؤلفة من مادة عالمية لم تتكاثف نحو المركز بعد حتى يتكون جرم سماوى حقيقى بل جواهرها لطيفة مفرقة وزعم هذا القائل ان لتلك السدام حركة فى الكون كما لشمسنا الى آخر ما أطالوا بما لا يمكن الجزم بشئ منه والله أعلم بحقيقة خلقه وقد اختصرنا على هذا القدر فى بيان هذه الاقسام الثلاثة لان غرضنا لا يتعلق الا ببيان نفس هذه الظواهر المشاهدة بدون حاجة الى البحث عن عللها التى يقع فيها الخلاف بين الباحثين بعد اتفاقهم على هذه الظواهر

ووجود الحجارة فى السماء لا شبهة فيه فقد قال تعالى فى سورة الاعراف (وأمطرنا عليهم مطرا) قال الالوسى اى نوعا من المطر عجيبا قد بينه قوله سبحانه (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) وفى الخازن ان تلك الحجارة كانت معجونة بالكبريت والنار اه وقال الالوسى فى تفسير قوله تعالى من سورة الانفال (فامطر علينا حجارة من السماء) والحجارة المسومة للعذاب يروى انها حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم اه وقال فى تفسير قوله تعالى من سورة هود (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك) ما ملخصه السجيل الطين المتحجر لقوله تعالى فى الآية الاخرى حجارة من طين والقرآن يفسر بعضه بعضا ويتعين ارجاع بعضه لبعض فى قصة واحدة ومعنى منضود أنه نضد اى وضع بعضه على بعض معد العذابهم مسومة اى عليها سيما يعلم بها انها ليست من حجارة الارض وقيل معلمة ببياض وحمرة وروى ذلك عن ابن عباس والحسن وفى رواية اخرى عن ابن عباس ان بعضها كان اسود فيه نقطة بيضاء وبعضها ابيض فيه نقطة سوداء

ومعنى عند ربك انها فى خزائنه التى لا يملكها غيره سبحانه ولا يتصرف فيها سواه عز وجل انتهى وانت تعلم ان كونها من طين لا ينافى كونها كانت معجونة بالكبريت والنار كما تقدم عن الخازن وكونها معلمة ببياض وحمرة أو بعضها ابيض فيه نقطة سوداء او اسود فيه نقطة بيضاء لا ينافى كونها عليها سيما يعلم بها انها ليست من حجارة الارض كما ان احدى الروايتين عن ابن عباس لا تنافى الاخرى وقال فى تفسير قوله تعالى من سورة الحجر (فاخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل) يعنى صيحة هالكة واخرج ابن المنذر عن ابن جريج انه قال فى الآية الصيحة مثل الصاعقة فكل شئ اهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة ومعنى مشرقين داخلون فى وقت الشروق والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والانتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عند الشروق واخذ الصيحة قهرها اياهم وتمكنها منهم ومعنى حجارة من سجيل حجارة من طين انتهى وقد علمت ان كون الحجارة من طين لا ينافى انها معجونة بالكبريت والنار كما علمت مما قدمناه ان النيازك والشهب تارة تكون كبيرة جدا مضيئة تتفرقع بصوت مسموع الى بعيد بعد اشتعالها وتارة تسقط الى الارض قطع كبار منها وان هذه الظواهر انقسمت باعتبار هذه الامور الى حجارة جوية وكرات نارية وشهب وانهم قد وجدوا كثيرا منها وان مالم يعثروا عليه اكثر مما عثروا عليه

وقد قال علماء الهيئة ايضا ان هذه الحجارة التى وجدوها بعد تحليلها ظهر ان فيها فلزات بعضها مركب من الحديد والومنيوم وكلسيوم وكروميوم وبعضها من نحاس وكوبلت وليتيوم ومنغنيس وبعضها من مغنيسيوم ونيكل وموتاسيوم وصوديوم وبعضها من ستر ونتيوم وقصدير وتيتانيوم ورصاص وظهر ايضا ان فيها الشبيهات بالفلزات فبعضها مركب من اكسجين وكربون وفصفور وساسيوم وبعضها من كبريت وزرنيخ وكلور وهيدروجين وهذا كله يقتضى انها ليست من جنس حجارة الارض وان ما قالوه ينطبق تمام الانطباق

على ما جاء به الآيات القرآنية و يوافقه تمام الموافقة ولو كانت آلات التحليل الميكانيكي موجودة في زمن نزول القرآن لاتضحت الحقيقة تمام الوضوح ولكن ذلك لا يمنع ان آيات القرآن جاءت دالة على وجود هذه الحجارة وانها وكانت معرفة اجزائها الى القوى النظرية والقوى العملية التي أودعها الله تعالى في نوع الانسان والهمه استعمالها واستخراج الحقائق منها حسب الطاقة البشرية

ومن هذا الذي قلناه تعلم ان ما قاله المفسرون في قوله تعالى (وارسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) من حمل الحجارة على معناها الحقيقي صحيح لا مانع منه عقلا وهو الموافق للواقع

وحاصل ما قالوه في ذلك ان الطير كانت مثل الخطاطيف على ما عليه المعول وان الحجارة كانت مثل الحمص والعدس وقد اخرج ابو نعيم عن نوفل بن ابي معاوية الديلمي انه قال رأيت الحصى التي رمى بها اصحاب الفيل حصى مثل الحمص واكبر من العدس واخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس انه قال حجارة مثل البندق وفي رواية ابن مردويه عنه مثل بعر الغنم واخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن ابي حاتم عن عبيد بن عمير أنه قال في الآية هي طير خرجت من قبلة البحر كانها رجال السند معها حجارة امثال الابل البوارك وأصغرها مثل رؤس الرجال لا تريد أحدا منهم الا اصابته ولا اصابته الا قتلته والمعول عليه ان الطير كالخطاطيف وان الحجارة منها ما هو كالحمص ودونها وفويقها هو وقد علمت ان الحجارة التي تنزل متفاوتة في الحجم منها الصغير جدا ومنها ما هو فوقه ومنها ما هو كبير جدا يبلغ القناطير الكثيرة فيحتمل أن كل واحد من أولئك المختلفين في حجمها قال بحسب ما شاهده من روى عنه منها وعلى كل حال لا حاجة الى تاويل الآية بما يخالف ظاهرها والطير يحتمل أن يكون المراد منه الحقيقة أو الملائكة الموكلة بذلك مجازا

تلخص مما ذكرناه سابقا ان الارض جسم مظلم بارد وأن سائر السيارات المتقدمة اجرام مظلمة باردة مثل الارض وانها جميعها تدور حول الشمس وتستمد نورها منها على مسافات مختلفة في مدد مختلفة و بينها تفاوت عظيم جرما وكثافة سميت سيارات لانتقالها من موضع الى موضع في القبة السماوية فتتغير مواقعها بين النجوم منها بسرعة ومنها ببطء واما النجوم الثوابت فهي بخلاف ذلك فانها لا تتغير مواقعها بنسبة بعضها البعض الا بعد قرون كثيرة وان السيارات انقسمت الى قسمين وهما السيارات السفلى والسيارات العليا أما السفلى فهي التي افلاكها داخل فلك الارض وهي ثلاثة فلكا الارض والقمر لاعتبارهما واحدا حيث كان تابعا لها وفلك الزهرة وفلك عطارد واما العليا فهي التي افلاكها خارج فلك الارض وهي خمسة المريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون فجملة السيارات الكبار مع الارض تسعة و بين فلك المريخ وفلك المشتري اجرام كثيرة صغيرة تدور حول الشمس ايضا كل واحد منها في فلكه سميت الشبيهة بالسيارات وسميت أيضا النجيمات وقد انكشف منها ١٣٥ جرما وهي تحت الزيادة لان عددها الحقيقي غير معروف وأن لبعض السيارات أقمارا تدور حولها وتدور معها حول الشمس فللارض قمر واحد وللمشتري اربعة أقمار ولزحل ثمانية أقمار ولاورانوس أربعة أقمار على الراجح ولنبتون قمر واحد على الراجح فجملة الاقمار ثمانية عشر قمرا فكل هذه الاجرام التي هي تسعة وعشرون جرما معروفا مع النجيمات المعروفة الى الآن البالغ قدرها ١٣٥ جرما تبلغ ١٦٢ جرما مع الشمس يتألف منها ما يسمى في عرف علماء الهيئة بالنظام الشمسي

وكل هذه الاجرام تتحرك من الغرب الى الشرق في دورانها حول الشمس الا أقمار أورانوس ونبتون اما النجيمات المعروفة الآن فهي تتحرك من الغرب الى الشرق ايضا غير أن سطوح افلاكها مائلة على سطح دائرة البروج أكثر من سطوح افلاك السيارات الكبار فلكون الحركة من الغرب الى الشرق بين البروج هي الغالبة سميت حركة مستقيمة والحركة من الشرق الى الغرب سميت متقهقرة

اما الناظر الى هذه الاجرام من الشمس فيراها جميعا تدور من الغرب الى الشرق بين البروج ابدا بخلاف الناظر اليها من الارض فانه يراها تارة تتقدم بين البروج من الغرب الى الشرق واخرى تتقهقر من الشرق الى الغرب

وقد تبين ان السنة على ارضنا والسنين في سائر الاجرام الدائرة حول الشمس هي المدد التي يقطعها كل جرم منها لكي يدور حول الشمس دورة كاملة وطول اليوم على الارض وسائر الاجرام متوقف على دورانها على محورها حتى يمر كل قسم منها بالتتابع في نور الجرم النير المركزي وهو الشمس وتبين ايضا ان الفصول في سنة الارض وسني سائر الاجرام تتوقف على ميل فلك الارض على خطها الاستوائي وميل فلك كل جرم منها على خطه الاستوائي ايضا لان ذلك الميل هو علة توجيه اقسام مختلفة من الجرم بالتتابع نحو الشمس أو عن الشمس وهذا بالنسبة للسيارات ذات الفصول كما قدمناه مفصلا

من ذلك تعلم ان الشمس في هذا النظام واحدة وان الاقمار متعددة وقد قلنا فيما سبق ان المراد بالسموات السبع التي استدل بها في الآيات القرآنية وكانت معروفة للعرب وغيرهم وقت نزول القرآن هي طبقات السيارات السبع وهي الطبقة التي فيها القمر والطبقة التي فيها الزهرة والطبقة التي فيها عطارد والطبقة التي فيها الشمس والطبقة التي فيها المريخ والطبقة التي فيها المشتري والطبقة التي فيها زحل وما عداها من الطبقات كطبقة اورانوس وطبقة نبتون لم تكن معلومة للعرب وغيرهم حتى يصح الاستدلال بها وكذلك الشموس التي اكتشفت الآن لم تكن معروفة من قبل فلهذا قال تعالى (الم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) وقد قدمنا ان غير واحد من المفسرين قالوا ان نور القمر وغيره من سائر الاجرام السماوية في هذا النظام الشمسي مستفاد من نور الشمس ومتى علم ذلك كان قول العلماء ان الشمس نوع انحصر في فرد وان القمر كذلك انما هو بحسب ما وصل اليه علمهم في ذلك الوقت واما الآن فكل من الشمس والقمر نوع تحته افراد كثيرة وان كانت الشمس في عالمنا هذا واحدة فقط

فالقمر في قوله تعالى وجعل القمر فيهن نورا يحمل على جنس القمر الشامل لقمر ارضنا وللاقمار المارة التي للسيارات الاخرى وسيأتي ذلك مفصلا عند الكلام على هذه الآية وان صاحب كشف الاسرار القرآنية صرح فيه بحمل القمر على الجنس

فانت ترى والحالة هذه ان للشمس في عالمنا هذا الاثر الاكبر في كل امر طبيعي حادث في كل الاجرام التي تدور حولها فيكون من المهم جدا حينئذ أن نبحث عن الشمس نفسها لان الله تعالى جعلها باذنه وارادته اصلا وعلة للحياة الحيوانية والنباتية ولولا نورها وحرارتها وجاذبيتها لما ثبت هذا النظام البديع فسبحان من وسع الخلائق بفضله ورحمته

الشمس كرة نارية وليس لدينا قياس نقيس عليه حرارتها ولا نجد عبارات نعبر بها عن درجة حرارتها واشد الحرارة التي يمكن ان نحدثها بالوسائط المعروفة ليست بشئ باعتبار حرارة الشمس كيف وقد قالوا ان الشمس ترسل اشعة نورها وحرارتها الى أبعد من السيار نبتون أي أكثر من الفين وسبعمائة الف الف وقد حسب ان الارض تنال الفين وثلاثمائة و واحد وثمانين مليونا من حرارة الشمس وكل تأثيرها في الارض هو من هذا القسم الجزئي من حرارتها ونورها وحينئذ يكون كل واحد منها بتمامه مما لا تحيط به العقول البشرية وعلى حساب بعضهم ان حصة الارض السنوية تكفي لاذابة طبقة جليد تكون كاسية جميع سطح الارض وعمقها خمسون ذراعا وعلى حساب بعضهم يضاهي نورها نور خمسة آلاف وخمسمائة وثلاثة وستين شمعة من السنبارين على بعد قدم واحد وقد حسب نور القمر فوجد أنه يضاهي نور شمعة واحدة على بعد اثني

عشر قدما

ولكون الارض وسائر الاجرام التابعة للشمس باردة تكون المواد التى عليها اما جامدة واما سائلة وقد قالوا ان المواد لا تخلو اما ان تكون غازية أو بخارية او مائعة او جامدة وكلها متوقفة على درجة الحرارة ولا شئ جامد ولا مائع فى الشمس بل كلها مواد فى حالة البخار أو الغاز الحامى الى درجة البياض وبسبب هذه الحرارة العالية جدا تضىء الشمس من نفسها أى نورها ذاتى غير مستمد من جرم آخر بخلاف السيارات الاصلية وأقمارها فانها كلها كما قلنا تضىء بنور وقع عليها من نور الشمس وينعكس منها الينا ومقدار الشمس خمسمائة ضعف كل السيارات

وقالوا لا يمكن رصد الشمس الا بواسطة نظارة ذات بلورة عينية خصوصية تكسر حدة نورها وحرارتها واياك ان تنظر اليها بنظارة اعتيادية كبيرة كانت أو صغيرة فانك اذا فعلت ذلك تفقد بصر عينيك لا محالة واذا نظرت اليها من وراء زجاجة مدخنة تراها قرصا نيرا مستديرا وما تراه منها انما هو قشرة نيرة تحيط بها على استدارتها وهذه الطبقة الخارجية سميت الفوتوسنير أى الكرة النيرة ويمكن تأمل سطح الشمس بسهولة اذا ألقيت صورتها على قرطاس بواسطة نظارة بعد وضع حاجب بين طرفيها ليقع ظله على القرطاس فعند النظر الى سطح الشمس بهذه الواسطة او راسا بواسطة قطعة عينية مناسبة تلحظ أربعة أشياء احدها الكلف ثانيها المشاعيل ثالثها التبقيع رابعها الكرة الغازية المحيطة

اما الكرة الغازية المحيطة فهى الكرة النيرة التى تقدمت قريبا وأما البقع فى بعض الاحيان وهى بقع قاتمة مغبرة أو سوداء وهى ترى على سطح الشمس فى أكثر الاوقات بواسطة النظارة ولا ترى بالعين المجردة الا اذا كانت كبيرة وبقرب تلك البقع ترى قطع لامعة بيضاء وهى المسماة بالمشاعيل وهى كوم ابخرة محماة الى درجة البياض طولها الوف من الاميال واذا راقبت البقع والمشاعيل مدة تراها تتغير كل التغير من ساعة الى اخرى هيئة وقدرا وأما الكلف فقد نشاهد كلفة على حافة الشمس الشرقية ثم بعد أيام نرى تلك الكلفة فى وسط قرص الشمس وبعد ايام ترى على حافتها الغربية وهنالك تختفى عن النظر واستنتجوا من ذلك ان الشمس دائرة على محورها والكلفة التى اختفت على حافتها الغربية ترى ايضا على حافتها الشرقية بعد نحو ١٢ يوما وتعود الى المحل الذى رصدت فيه اولا فى نحو ستة وعشرين يوما وثبوت الكلفة على هيئتها كل هذه المدة نادر ولكنه قد يحدث واذا اعتبرنا حركة الارض فى مدة دوران الشمس على محورها تعود الكلفة الى موضعها بالنسبة الى الارض فى نحو ٢٧ يوما وان لم نلتفت الى حركة الارض بل الى دوران الشمس على حدته تكون مدة دورانها على محورها ٢٥ يوما وسبع ساعات غير ان الكلفة التى هى على خط الشمس الاستوائى تكون حركتها أسرع من حركة تلك التى هى بعيدة عنه نحو احد قطبيها وأكثر الكلف التى هى بقرب خطها الاستوائى لا تبعد عنه أكثر من ٣٠° نحو أحد القطبين والتى هى بعيدة عنه تكمل دورانها فى نحو ٢٦ يوما ونصف يوم

قد تبين مما ذكرناه ان الشمس انما هى كوكب من الكواكب ونجم من النجوم وانها أكبر الكواكب وأنورها وان النظام الشمسى انما هو عدة اجرام باردة دائرة حول جرم حار جدا هو الشمس وان ارضنا انما هى مثال للسيارات الباقية وان الشمس مثال للنجوم الدرارى المالئة للكون الواسع على ابعاد لا تدركها عقول البشر وهى النجوم الثوابت وكل نجم منها شمس تدور حولها سياراتها كما تدور سيارات شمسنا حولها اما تلك السيارات فلا تظهر لنا لكونها أجراما مظلمة وتظهر شموسها لكونها اجراما نيرة مثل شمسنا

ان قرص الشمس الظاهر هو القسم الاكثف منها فقط اما القسم الالطف فهو ابخرة لطيفة نيرة تمتد حولها الى مسافة مئات الالوف من الاميال ولكنها محتجبة عنا بشدة نور قرص الشمس مثل احتجاب

النجوم بنور الشمس وقت النهار ولكن عند حدوث كسوف الشمس واحتجاب نور قرصها بواسطة جرم القمر المظلم نرى النجوم ونرى الاشعة اللامعة ممتدة الى ابعاد مهولة عن الشمس الى كل جهة على ألوان مختلفة غير أن الاحمر غالب فيها وكلما قربت الى الشمس تنورت اكثر حتى تكونت كرة حولها سميت الكروموسفير اى الكرة الملونة وهذا المنظر سمى اكليل الشمس

وقالوا أيضا انهم رصدوا النجوم الثوابت مثل ما رصدوا الشمس والقمر وسائر السيارات من قديم الزمان ولكنهم فى الاعصر الماضية لم يعرفوا عنها الا القليل جدا بسبب قصر وسائط الرصد وبعد النجوم وقد قامت الدلائل الواضحة على كون تلك الثوابت شموسا وان بعضها اكبر من شمسنا

وقالوا انه بعد جواز أبعد السيارات المتقدمة تبقى مسافة لا تدرك قبل الوصول الى اقرب نجم من تلك النجوم الثوابت وان كل نجم نراه فى قبة السماء فى ليل صاف هو شمس نورها ذاتى يضىء على عوالم ونظامات كما تضىء شمسنا على العوالم التى فى نظامها وتلك النجوم الدرارى تمتاز بالنظر المجرد عن السيارات المتقدمة بشكل نورها لان نور السيارات ثابت وأما نور تلك الدرارى الثوابت فيرى كما تقدح شرارات وتلك النجوم لها حركات فى ساحة الكون غير انها على بعدها الشاسع لا تظهر الا بعد مضى قرون فتبقى على نسبة بعضها الى بعض وضعا ولذلك سميت ثوابت تمييزا بينها وبين تلك السيارات التى هى شمسنا ونظامها

ولما رصد علماء الهيئة اليوم هذه النجوم الثوابت بآلات الرصد الحديثة فى الليالى الصافية وجدوها من أول وهلة متفاوتة نورا فبعضها انور من بعض وربما يخطر على البال ان ذلك التفاوت يعلل بكون الانور اقرب الينا أو بكون الأنور اعظم جرما ولكن الذى صح فى ذلك ان بعض النجوم الضعيفة النور هى أقرب الينا من البعض الانور منه فيؤثر فى منظرها البعد والقدر معا وبناء على التفاوت فى نورها قد قسموها أقدارا على حسب شدة نورها فالانور هو من القدر الاول والذى يليه فى ذلك هو من القدر الثانى وهلم جرا الى القدر السادس عشر التى لا ترى الا باقوى النظارات وأضعف النجوم التى تراها العين المجردة فى ليلة صافية هى من القدر السادس وربما ترى العين الحادة البصر القدر السابع واياك أن تظن ان لفظة القدر هنا معناها العظم حقيقة لانه قد يكون النجم الكبير بعيدا حتى يظهر لنا انه من القدر العاشر أو السادس عشر بل معنى تلك اللفظة النور النسبى فالانور ان كان قريبا أو بعيدا كبيرا أو صغيرا هو من القدر الاول

وقالوا ان النجوم الظاهرة للعين المجردة دفعة واحدة وهى التى تكون فوق الافق فى وقت مفروض هى من القدر الاول لغاية السادس وهى ثلاثة آلاف نجم تقريبا اما النجوم التى ظهرت بالنظارات القوية لغاية الآن فتزيد عن مائتى مليون عددا

وقالوا أيضا اننا نشاهد كثيرا فى ليلة غير مقمرة قطعة نيرة ممتدة فى السماء من افق الى افق تسميها العامة الطريق التبانى وعند علماء الهيئة تسمى بالمجرة وهى من النجوم الثوابت وكلها مؤلفة من شموس متقاربة بحسب ما ظهر لنا عند رؤيتها وكلها نيرة وقد حسبوا الذى ظهر منها لغاية الآن بواسطة النظارات القوية فكان مقداره ثمانية عشر الفا منها فى المجرة ۞ ومن هذه الامور الغريبة البديعة نعتقد عظم الكون فى مقاديره ونظامه واتقانه وانتظام حركاته واختلافها مع تماثلها فى الجسمية وانه يجوز عقلا على كل واحد منها ما يجوز على الاخر وان ذلك من أوضح البراهين وأقواها دلالة على كمال قدرة صانعه وتمام ارادته واحاطة علمه وانه الفاعل المختار ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

هذه النجوم وان ظهرت متقاربة بعضها من بعض بحسب ما نراه منها لكنها فى الواقع بينها ابعاد شاسعة وقد ظهرت متقاربة من بعضها البعدها الشاسع عنا والامر فى ذلك واضح فانه اذا كانت عدة اجرام واقعة على استقامة

واحدة يراها كل ناظر اليها من بعد قريبا بعضها من بعض مع انها قد تكون فى الواقع متباعدة بينها مسافات بعيدة جدا و ربما يكون البعد بين نجمين فى المجرة مثل البعد بين شمسنا و بين أقرب الثوابت اليها فانه يلزم للنور لكى يقطع تلك المسافة أكثر من ثلاث سنين ونصف سنة وقد قالوا ان النور يتحرك على سرعة ١٨٤٠٠٠ مائة وأربع وثمانين ألفا فى كل ثانية

الا ترى انك لو كنت فى حرش من اشجار كل واحدة منها غرست على بعد مفروض من التى تليها بحيث يكون بين كل شجرة و بين الاخرى مسافة واحدة ووقفت على جانب ذلك الحرش ونظرت الى اشجاره لرأيت الاشجار التى على الجانب الابعد بعضها اقرب الى بعض من الاشجار التى تليك فكذلك الحال فى نجوم المجرة

وقالوا ان الوان هذه النجوم مختلفة فمنها الابيض والبرتقالى واحمر وأخضر وأصفر وأزرق * مثال النجوم البيض الشعرى اليمانية ومثال الصفر السماك الرامح ومثال الحمر أبط الجوزاء غير أن هذه الانوار ترى بالنظارة أوضح مما ترى بالعين المجردة والعيون فى نظرها الى تلك النجوم تختلف من جهة اللون الذى تشعر به فى نجم مفروض فما يكون أحمر فى عين قد يكون برتقاليا فى عين اخرى ور بما تغيرت الوانها بعض التغير فى مدد مختلفة طالت أو قصرت * هذا بعض ما قاله علماء الهيئة فيما يتعلق بالاجرام السماوية ذكرناه لك نموذجا يدل على باقى ما قالوه فى علمهم بناء على الارصاد الصحيحة فاجابة لما سالت عنه و بيانا لان ذلك كله لا يصادم شيئا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية زيادة على ما قلناه سابقا نقول

قد قلنا فى المقدمة ان الامام الغزالى قال فى كتابه تهافت الفلاسفة وهذا الفن أيضا لسنا نخوض فى أبطاله اذ لا يتعلق به غرض ومن ظن أن المناظرة فى ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة الى آخر ما قدمناه عنه رحمه الله ومن اطلاعك بانصاف على كل ما قدمناه عن علماء الهيئة اليوم تعلم انه مبنى على المشاهدات والعيان بالآلات الرصدية وبراهين هندسية وحسابية كما قال الغزالى وما لم يصلوا فيه الى ذلك لا يجزمون فيه بشىء فلا معنى بعد ذلك لانكار ما قالوه ودعوى انه يخالف الاحاديث النبوية أو الآيات القرآنية ولزيادة الاقناع نذكر لك من الآيات القرآنية التى لا تخالف ما قالوه بل تحتمله أو توافقه واليك البيان

قال تعالى فى سورة الاعراف (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) أى خلقهن مذللات تابعات لتصرفه غير ممتنعات عما أراده بكونها سائرة دائما متحركة بالحركة المستمرة على الوجه المخصوص حيث شاء الله تعالى وأفرد الشمس والقمر بالذكر مع دخولهما فى النجوم لان المراد منها الكواكب وهما كوكبان منها لما لهما من مزيد الاشراق والنور و بسيرهما فى المنازل تعرف الاوقات * وقدم الشمس على القمر لانها أسنى نورا من القمر واسمى مكانة منه ولان نورها ذاتى ونور القمر مستفاد من نورها لاختلاف تشكلاته على انحاء متفاوتة بحسب وضعه من الشمس فى القرب والبعد عنها مع ما يلحقه من الخسوف ودعوى ان ذلك غير معروف عن السلف قد قدمنا بطلانها

وقال تعالى فى سورة ابراهيم (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى دائمين فى الحركة لا يفتران الى انقضاء عمر الدنيا * اخرج ابن ابى حاتم وابو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال الشمس بمنزلة الساقية تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها فاذا غربت جرت بالليل فى فلكها تحت الارض حتى تطلع من مشرقها وكذلك القمر والقول بجريانهما تحت الارض اذا غربا مروى ايضا عن الحسن البصرى قال الالوسى فى تفسير هذه الآية وهو الذى يشهد له العقل السليم وللاخبار بين غير ذلك وظاهر الآية اثبات الحركة لهما انفسهما * والفلاسفة يثبتون لهما حركتين يسمون احداهما الحركة الاولى وهى الحركة اليومية من المشرق الى

المغرب الحاصلة لهما بقسر الفلك المحدد لفلكيهما والاخرى الحركة الثانية وهى الحركة على توالى البروج من المغرب الى المشرق الحاصلة لهما بحركة فلكيهما حركة ذاتية ولا يثبتون لهما حركة فى ثخن الفلك على نحو حركة السمكة فى الماء لصلابة الفلك وعدم قبوله الخرق اصلا وأثبت الشيخ محيي الدين فى فتوحاته حركتهما على ذلك النحو والفلك عنده مثل الماء والهواء وذكر بعض الاخبار يبين انهما وسائر الكواكب معلقة بسلاسل من نور بايدى ملائكة يسيرونها كيف شاء الله تعالى وحيث شاء الله سبحانه والافلاك ساكنة عند هذا البعض وكذا عند الشيخ قدس سره على ما يقتضيه ظاهر كلامه * والاخبار فى هذا الباب ليست بحيث يسد ثغر الخصم وذكر النسفى انه ليس فيهما ما يعول عليه وكلام الفلاسفة ما لم يكن فيه مصادمة لما تحقق عن المخبر الصادق مما لا بأس به وتسخير هذين الكوكبين العظيمين جعلهما منيرين مصلحين ما نيط بهما صلاحه من المكونات ولعمرى ان الله سبحانه اجدى من تفاريق العصا * وفى كتاب المشارع والمطارحات للشيخ شهاب الدين السهروردى قتيل حلب ان تأثير الشمس والقمر اظهر الآثار السماوية وتأثير الشمس اظهر من تأثير القمر واظهر الآثار بعد الشعاع التسخين الحاصل منه ولولا ذلك ما كان كون ولا فساد ولا استحالة ولا ليل ولا نهار ولا فصول ولا امزاج ولا حيوانات ولا غيرها وأطال الكلام فى بيان ذلك وما يتعلق به * ولا ضرر عندى فى اعتقاد أنهما مؤثران باذن الله تعالى كسائر الاسباب عند السلف الصالح اه ولا شك ان ما فصلناه عن علماء الهيئة على وجه ما تقدم فى كل من الشمس والارض والقمر والزهرة وعطارد وسائر الاجرام السماوية من السيارات والثوابت لا يوجد فى شىء منه ادنى مصادمة لما تحقق عن المخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بل ان الظاهر أن المراد بالتسخير الذى اخبرنا الله به امتنانا علينا ذلك التسخير الذى نعرفه مما يشترك فى معرفته العوام والخواص او يختص بمعرفته الخواص الذين يعلمونه غيرهم من العوام وجوبا عليهم وفى الحديث الصحيح (و يل للعالم من الجاهل) اى اذا لم يعلمه على ما قاله شراح الحديث خصوصا وقد قدمنا لك ان أكثر ما قالوه يوافق الآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية تمام الموافقة

وقال تعالى فى سورة النحل (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ما ملخصه ان تسخير الليل والنهار تعاقبهما وكون كل منهما يخلف الآخر لمنامنا واستراحتنا بالليل وسعينا فى مصالحنا من تعهد الزروع وغير ذلك بالنهار ومعنى تسخير الشمس والقمر أنهما يدأبان فى سيرهما وأنارتهما اصالة وخلافة وادائهما ما نيط بهما من تربية الاشجار والزروع وانضاج الثمرات وتلوينها وغير ذلك من التأثيرات المترتبة باذن الله تعالى حسبما يقوله السلف فى الاسباب والمسببات وقال فريق ان أصل التسخير السوق قهرا ولا يصح ارادة ذلك لان القهر والغلبة مما لا يعقل فيما لا شعور له من الجمادات كالشمس والقمر وعدم تعقله فى الليل والنهار اظهر من ذلك فهو هنا مجاز عن الاعداد والتهيئة لما يراد من الانتفاع وفى ذلك ايماء الى ما فى المسخر من صعوبة المأخذ بالنسبة الى المخاطبين * وذكر الامام الرازى فى المراد من التسخير نحو ما ذكر اولا ثم ذكر فيهما معنى آخر قال فيه انه لا يستقيم الا على مذهب اهل الهيئة وهو انهم يقولون الحركة الطبيعية للشمس والقمر هى الحركة من المغرب الى المشرق فالله تعالى سخر هذه الكواكب بواسطة حركة الفلك الاعظم من المشرق الى المغرب فكانت هذه الحركة قسرية فلذا ورد فيها لفظ التسخير وذكر أيضا أن حدوث الليل والنهار ليس الا بسبب حركة الفلك الاعظم دون حركة الشمس واما حركتها فهى سبب لحدوث السنة ولذا لم يكن ذكر الليل والنهار مغنيا عن ذكر الشمس والقمر اه قال الالوسى ولا يعترض عليه بان ما ذكره من حدوث الليل والنهار الى آخره لا يتأتى فى عرض تسعين لان الليل والنهار لا يحصلان الا بغروب الشمس وطلوعها وهى هناك لا تغرب ولا تطلع بحركة الفلك بل بحركتها الخاصة ولذلك كانت السنة يوما وليلة لما ان ذلك العرض غير

سكون وكذا مايقرب منه فلا يدخل فى حيز الامتنان نعم فى كلامه عند المتمسكين باذيال الشريعة غير ذلك فلينظر اه وأقول أن ماقاله فى عرض تسعين فيه نظر وذلك لان فى عرض تسعين نهارا هو ستة اشهر وليلا هو مثلها وذلك لعدم اختلاف العرض الذى يبنى عليه اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا ولا نسلم ان فى ذلك العرض لاتطلع الشمس ولاتغرب بحركة الفلك بل بحركتها الخاصة ونقول ان فى ذلك العرض يطول مكث الشمس فوق وجه الارض ستة أشهر ومدة اختفائها تطول ستة اشهر وهى الليل ولذلك كانت السنة كما قال يوما وليلة على هذا المعنى وهذا تابع لحركة الفلك الاعظم على هذا المذهب وكيف يعقل ان يكون الغروب والطلوع فى هذا العرض أو فى غيره بحركتها الخاصة وهى انما تكون من المغرب الى المشرق وهى فى كل شروقها وغروبها فى هذا العرض وفى غيره انما تغرب فى جهة الغرب وتشرق فى جهة الشرق بحركتها من المشرق الى المغرب وهذه الحركة لاتكون الاقسرية بواسطة حركة الفلك الاعظم على رأى هؤلاء غاية لامر أن الليل والنهار يختلفان طولا وقصرا بحسب اختلاف عروض الجهات ففى عرض تسعين يكون الليل ستة أشهر والنهار مثله لان العرض هناك لايختلف أو ينعدم وأما الجهات الاخرى التى تختلف عروضها فقد يطول النهار فيها عن الليل وبالعكس أما الدورة اليومية فى ذاتها فلا تختلف أصلا فى جميع جهات الارض بل الذى يختلف هو ظهور لشمس على وجه الارض واختفاؤها تحتها سواء قلنا ان هذه الدورة ناشئة عن حركة الارض على محورها أو ناشئة عن حركة الفلك الاعظم

والحاصل ان عند انعدام العرض عند خط الاستواء يستوى الليل والنهار طول السنة وعند اختلاف العروض فى الجهات التى تختلف عروضها يختلف الليل والنهار طولا وقصرا وعند نهاية العرض وهو عرض تسعين شمالا وجنوبا تكون السنة منها ستة اشهر نهار ومنها ستة أشهر ليل ولكن الدورة اليومية وكذا الدورة السنوية لايختلف منها شىء أصلا

وقالوا فى تسخير النجوم كما فى الالوسى وغيره انها بجميع أنواعها وحركاتها وأوضاعها المتبدلة وغير المتبدلة وسائر أحوالها مسخرات لما خلقت له بخلقه تعالى وتدبيره الجارى على وفق مشيئته وقوله تعالى بامره يقتضى انها خلقت كذلك وانها لاتأثير لها استقلالا وانما افادتها للمنافع ومدخليتها فيها هى بامره وقدرته فانها ممكنة بالذات والصفات واقعة على بعض الوجوه المحتملة الممكنة الوقوع فلا بد من موجد فاعل بالاختيار ضرورة احتياج الممكن فى وجوده الى مخصص لئلا يلزم من الوقوع على بعض الوجوه دون غيره مع احتمال غيره المساوى الترجيح بلا مرجح مختار لان الايجاب بغير الاختيار ينافى الترجيح ولا بد أن يكون ذلك المرجح المختار خارجا عن دائرة الامكان وهو موجود حتى يمكن ان يفيد غيره الوجود وليس ذلك المرجح الموجود الخارج عن دائرة الامكان الا واجب الوجود * واما ما اعترض به بعضهم من ان الغرض من الاية هو الاستدلال بها على التوحيد لا على وجود الصانع فهو مدفوع لانه لامانع من جعلها دليلا على وجود الصانع والتوحيد معا ولا ضرر فى ذلك وعلى فرض انها مسوقة للدلالة على التوحيد فذلك لا يمنع ايضا دلالتها أيضا على وجود الصانع وعلى كل حال فهذه الآية كالآيتين قبلها تدل على أن الشمس والقمر والنجوم متحركة بحركات مخصوصة لتكون حركاتها ودورانها واختلاف أوضاعها وأحوالها أسبابا يترتب عليها باذن الله تعالى منافعنا ومصالحنا ومن ذلك كله تعلم ان الآيات القرآنية هذه وأمثالها لم تتعرض الا لبيان أن جميع هذه الكواكب مسخرة بامر الله لمنافعنا ومصالحنا ولم يتبين منها ماهو المراد من التسخير على وجه التعيين ولكن المروى عن ابن عباس والحسن وغيرهما عين المراد من ذلك التسخير وهو حركتها المستمرة فوق الارض نهارا وتحتها ليلا واختلافها فى حركاتها وأوضاعها المتبدلة وغير المتبدلة وسائر

أحوالها وهذا أيضا هو المشاهد لنا على الدوام فان كل انسان له بصر يمكنه أن يرى حركات الشمس والقمر وسائر الكواكب واختلافها فى حركاتها وأوضاعها واختلاف مطالعها باختلاف الاماكن وغير ذلك مما نقلناه عن علماء الهيئة اليوم اما بعينه المجردة أو بواسطة الرصد بالنظارات أو بالحساب أو بالبراهين الهندسية مما لا يدع للريبة مجالا وكل هذه الامور ممكنة احدثها الله تعالى باذنه تعالى وارادته وقدرته وركب عليها من الحوادث الكونية كل مايجرى من مجرى الطبيعة منها فى عالم المواليد والكون والفساد وكان من الممكن عقلا ان يكون غير ماكان لكن الله الفاعل المختار هو الذى اختار ورجح بارادته منها ما تقتضيه حكمته فجعله سببا لما ذكر والدليل على ذلك وقوعه الثابت بالبراهين التى لا تقبل التشكيك وقد قدمنا غير مرة ان علم التفسير هو مركب من عدة علوم يرجع فى كل علم منها الى اهله وماقالوه فيه فيلزم بناء على هذه القاعدة فى جميع الآيات القرآنية المتعلقة بالاجرام السماوية وبالارض وسائر مايتعلق بعالم الكون والفساد الرجوع الى ماقاله العلماء الذين نصبوا انفسهم للبحث فى ذلك ونأخذ عنهم فى تفسير تلك الآيات ماقام عليه البرهان العقلى القطعى فان وافق ماقالوه ظاهر تلك الآيات فالامر ظاهر وان خالف ظاهرها أولناها بما يوافق البرهان القطعى ان أمكن والا فوضنا معناه الى الله تعالى وذلك لان القرآن الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لا يمكن عقلا ولا شرعا ان تجىء اياته بما يخالف البرهان القطعى فتجىء على خلاف الواقع وأما مالم يقم عليه برهان قطعى فان وافق ظاهر الآيات ايضا فالامر ظاهر ونحمل الآيات عليه مالم يثبت بالدليل النقلى قطعى الدلالة قطعى لثبوت أن المراد من الآيات خلاف ذلك * وان خالف ظاهر الآيات عملنا بظاهرها الا اذا كان حملها عليه جائزا بمقتضى قواعد اللغة العربية وكان تأويلا مقبولا عند علماء الشرع لاقولا بالرأى خصوصا اذا كان حمل الآية عليه أجزل معنى وأكثر فائدة وابلغ فى افادة المقصود من الآية * ومن ذلك كله تعلم انه لايوجد مانع عقلى ولا نقلى من حمل تسخير الشمس والقمر وسائر النجوم على ماقاله علماء الهيئة اليوم مما فصلناه سابقا فانه ان لم يكن هو المتعين مرادا فى تلك الآيات فهو احتمال قريب لموافقته لظواهر الآثار المروية عن ابن عباس وغيره ولان معنى الآيات عليه يكون اجزل واكثر فائدة وأبلغ فى الدلالة على ماسيقت له الآيات لان الحادث كلما كان اكثر تغيرا وأكبر نفعا وأتقن صنعا كان أوضح دلالة وأقوى برهانا على حدوثه وكمال قدرة محدثه وارادته واحاطة علمه

وأما كون الشمس واحدة فى عالمنا هذا وان جميع السيارات وأقمارها تستمد منها انوارها فتشرق عليها الشمس فى أنهرها ويشرق عليها أقمارها فى الليالى بانوارها المستفادة من الشمس كما تستمد أرضنا التى نحن عليها وقمرها النور من الشمس فتشرق عليها الشمس نهارا والقمر عليها ليلا بنوره المستفاد من الشمس وان فى كل السيارات دورة يومية ودورة سنوية لها فصول مختلفة على ماتقدم بيانه فظاهر القرآن يقتضيه قال تعالى فى سورة نوح عليه السلام (الم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ماملخصه أى جعل الشمس فيهن سراجا أيضا ومعنى كونها طباقا انها طبقات بعضها فوق بعض وان تفسير كونها طباقا بالتوافق فى الحسن والاشتمال على الحكم وجودة الصنع وانه كقوله تعالى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) عدول عن الظاهر الذى تطابقت عليه الاخبار من غير داع فان تلك الاخبار الصحيحة صريحة فى ان السموات متعددة وان بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام وأن سمكها كذلك كما سبق وأن معنى جعل القمر فيهن نورا انه جعله منورا لوجه الارض فى ظلمة الليل وأن معنى فيهن مع انه فى واحدة منهن وهى السماء الدنيا هو كأن يقال زيد فى بغداد وهو فى بقعة منها وان المرجح له الايجاز والملابسة بالكلية والجزئية وكونها طباقا شفافة ومعنى جعل الشمس سراجا انه جعلها تزيل

ظلمة الليل ويبصر أهل الدنيا وجه الارض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون الى ابصاره وفي الكلام تشبيه بليغ ولكون السراج اعرف وأقرب جعل مشبها به ولاعتبار التعدي في مفهومه بخلاف النور وكانه أبلغ منه ولعل في تشبيهها بالسراج القائم ضياؤه به لا بطريق الانعكاس رمزا الى أن ضياءها ذاتي ليس مستفادا من كوكب آخر كما ان نور القمر ينعكس عليه من نور الشمس لاختلاف تشكلاته بالقرب والبعد عنها مع خسوفه بحيلولة الارض بينه وبينها والشمس في السماء الرابعة وهو المشهور عند متقدمي أهل الهيئة واستدلوا عليه بما هو مذكور في كتبهم وذهب متاخرو أهل الهيئة الى ان الشمس مركز للسيارات وعدوا الارض منها ولم يعدوا القمر لانه دائر على الارض وهو بينها وبين الشمس عندهم اه ملخصا من الألوسي وغيره

وأقول مما لاشبهة فيه إن قوله تعالى (الم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا) أي متطابقة بمعنى طبقات بعضها فوق بعض صريح في انها متعددة كما هو صريح لفظ العدد وهو سبع والظاهر من لفظ طباقا خصوصا وقد قدمنا قريبا ان الاحاديث الصحيحة جاءت صريحة في ان كل سماء تبعد عنها التي فوقها بمقدار خمسمائة عام والعدد لامفهوم له على ما هو المختار فيجوز أن يكون عدد السموات اكثر من سبع وان البعد بين كل سماء وسماء اكثر مما هو في الحديث وبضميمة هذه الاحاديث للآية يتضح أن السموات السبع التي اقتصر عليها القرآن وقال فيها الم تر الى آخره بيانا لانها معلومة للمخاطب طبقات متباعد بعضها عن بعض وقوله تعالى وجعل القمر فيهن نورا أي منيرا نص صريح في ان القمر فيهن جميعا ومع تعددها وتباعد طبقاتها بعضها عن بعض بعدا شاسعا يتعين حمل الآية على ظاهرها وأن المراد جعل القمر في كل واحدة منهن نورا وان المراد من القمر في الآية جنس القمر لا خصوص قمر ارضنا التي نحن عليها ومتى كان كذلك كان القمر في الآية صادقا بالواحد والمتعدد ومع تعدد المكان يلزم ان يكون القمر متعددا أيضا لانه يستحيل أن يكون جرم واحد في أكثر من مكان واحد وقد اعترفوا بانه في سماء الدنيا التي هي سماء أرضنا وأما ما قالوه في تأويل الآية من انه جعله فيهن مع انه في سماء الدنيا كما يقال زيد في بغداد الى آخره فهو تأويل لاداعي اليه الا عدم وقوفهم على أن هنالك أقمارا أخرى كقمر أرضنا وفضلا عن ذلك فانه تأويل يمجه الذوق السليم من وجوه اولا ان هنالك فرقا واضحا بين الآية وبين قولنا زيد في بغداد وهو في بقعة منها لان ذلك القول انما صح باعتبار ان بغداد معتبرة مكانا واحدا يسمى باسم واحد فهو نظير جلست في بيت فلان اذا كنت جالسا في أي بقعة منه وما نحن فيه ليس كذلك لان طبقات السموات متعددة متفاوتة في البعد كل واحد منها مستقلة عن الاخرى لها اسم مستقل فان كان يصح ان يقال زيد في بغداد وهو بمكة يصح ان يقال ان ما في السماء الدنيا في غيرها من السموات وهذا مما لا يقوله أحد وثانيا ان دعوى الترجيح بالايجاز بما نافت الاعجاز لانه ما الداعي لذكر اللفظ الدال على الجماعة وارتكاب تأويله مع امكان ان يعبر من لا يعجزه شئ بعبارة اخرى تفيد المقصود بدون حاجة الى التأويل ثالثا القول بالملابسة بالكلية والجزئية في مثل زيد في بغداد معقول وأما في السموات السبع فليس بين واحدة منها والاخرى هذه الملابسة اصلا فانها كما علمت طبقات متباعدة متباينة فمن اين يعقل بينها ملابسة الكلية والجزئية على ان الكلام في لفظ القمر وجعله فيهن وكما لاملابسة بالكلية والجزئية بين السماء التي فيها القمر وبين سماء اخرى لاملابسة بما ذكر بين القمر وبين السماء التي ليس هو فيها بل الملابسة بما ذكر بينه وبين السماء التي هو فيها قد لاتسلم ايضا لاننا ان قلنا باتحاد سمائه مع فلكه فهي مداره ومحله فالملابسة الحالية والمحلية وهذه الملابسة خاصة بالقمر وسمائه وليس الكلام في اطلاق القمر على سمائه او اطلاق سمائه عليه وان قلنا ان مداره ومحله في جزء من السماء فلابسة الكلية والجزئية بين محله والسماء

لابينه وبين سمائه الا بتكلف لاداعي اليه فان قيل تعتبر السموات كلها مجموعا واحدا قلنا هذا خلاف الظاهر فضلا عن ان الكلام انما هو في استعمال ضمير الجمع في قوله تعالى فيهن في واحد من الجمع على طريق المجاز واستعمال صيغة الجمع الذي لا يمكن حمله على الجنس في الواحد غير معروف بعلاقة الكلية والجزئية والجمع هنا لا يمكن حمله على الجنس لانه ضمير يرجع الى سبع سموات المصرح فيه بالعدد

واما كون طباقها شفافة فغاية ما يقتضيه ان القمر في واحدة منها وهي السماء الدنيا وان نوره فقط يصل الى باقيها وحمل الآية عليه يخالف ظاهرها لان ظاهر الآية ان الله جعل نفس القمر فيهن نورا لانه لو كان مراده انه جعل نور القمر واصلا لهن لقال وجعل نور القمر فيهن ولكنه قال عز وجل وجعل القمر فيهن نورا اي منيرا فكان الجعل واقعا على ذات القمر وكيف يمكن ان القمر الذي في السماء الدنيا يكون نوره واصلا الى السماء التي فوق سمائه وهم اعترفوا الف مرة ومرة ان نور هذا القمر مستفاد من نور الشمس وبانعكاس نوره المستفاد منها علينا تضيء ارضنا وقد جاء في الحديث الصحيح ان نسبة الارض الى سماء الدنيا كحلقة ملقاة في فلاة ونسبة سماء الدنيا الى التي فوقها كحلقة ملقاة في فلاة وهكذا نسبة كل سماء بالنسبة للتي فوقها خصوصا وقد ثبت من طريق الرصد بالنظارات المعظمة خلاف ذلك فيتعين ان يقال ان الشمس في عالمنا هذا واحدة كما قلنا وهي لكبرها جدا وقوة نورها كما مر بيانه تضيء بنفسها كل سماء من السموات السبع وتشرق عليها نهارا ويضيئها قمرها ليلا بواسطة نوره الذي يستمده من الشمس فكل قمر يشرق في سمائه ليلا ويضيئها بذلك النور ويشير الى ذلك قوله تعالى وجعل الشمس سراجا فان السراج واحد في مكان واحد ويتعدى نوره الى أماكن متعددة وبذلك كانت الشمس فيهن جميعا سراجا ونسبتها اليهن جميعا نسبة واحدة وذلك لان الاجرام السيارة ومنها الارض تدور حول الشمس ويتبع كل كوكب قمره أو أقماره في الدوران حول الشمس كما يتبع قمرنا ارضنا في الدوران حول الشمس وهذا هو الاقرب في معنى الآية وهو الظاهر منها ولا داعي الى تلك التكلفات التي ما دعاهم اليها الا عدم اطلاعهم على ان لكل كوكب من السيارات قمرا أو اقمارا ولا ليل ولا نهار ولا ايام ولا أشهر ولا سنون ولا فصول الا في الارض التي نحن عليها فانظر فيما قلناه بعين الانصاف واياك ان تتعصب لباطل وان تترك الحق لان من يخالفنا في الدين قاله مع ان الحكمة ضالة المؤمن يأخذها اين وجدها خصوصا وان من وافقنا في الدين من كبار علمائنا قال به ايضا وعلم الهيئة من العلوم المتعلقة بالاجرام السماوية فهو من العلوم الكونية ومرجعها الأدلة المحسوسة والعقل ولا تختص باهل دين دون أهل دين آخر ومبنى علم الهيئة خصوصا على الاكتشاف بالنظارات المعظمة والارصاد بها وعلى الادلة الهندسية والحساب الدقيق وهي مما لا يكاد يقع فيه الخطأ وقدمنا لك ان صاحب التفسير المسمى كشف الاسرار القرآنية قال بعد ما قدمنا عن غيره من المفسرين ما هو صريح في تعدد القمر على وجه ما فصلناه

واما ما قاله علماء الهيئة من ان النجوم الثوابت في المجرة وفي غيرها هي شموس اخرى مثل شمسنا وان لكل شمس منها نظاما كنظام شمسنا وان كنا لم نقف عليه لغاية الآن لان اجرامه فضلا عن كونها مظلمة بعيدة عنا جدا والمضيء هي الشمس فقط فهذا مما لا يمنعه العقل ولا يصادمه النقل وما يعلم جنود ربك الا هو وقد اطلع اهل الكشف كالشيخ الاكبر محي الدين على ما يزيد على عشرة آلاف ملك اصغرها ملك السموات والارض المعروف لنا وقدمنا لك ان حصر السموات في سبع أو تسع مما لا يقم عليه دليل نقلي ولا عقلي بل قام الدليل على خلافه فان المتقدمين حصروا السموات في سبع وقد علمت ان المتأخرين اكتشفوا كوكبين زيادة على السبعة السيارة التي كان يعرفها جميع علماء الهيئة قديما وحديثا ولم ينكر عليهم احد لجوازه عقلا وعدم مخالفته الادلة النقلية والذي تقتضيه الحكمة الالهية ان هذه الشموس لم تخلق عبثا فيكون لكل واحدة منها نظام كنظام شمسنا

هذه من ارض وسيارات وسيارات سيارات وهكذا مما قدمناه فى النظام الشمسى وهذه كلها تدور حول الشمس وتكون كل شمس منها مركز العالم مثل عالم شمسنا أو أكبر منه لان بعض هذه الشموس التى اكتشفت أكبر من شمسنا كما تقدم

وقال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره اى خلق من الارض مثلهن على ان مثلهن مفعول لفعل محذوف والجملة معطوفة على التى قبلها والمثلية تصدق بالاشتراك فى بعض الاوصاف فقال الجمهور هى هاهنا فى كونها سبعا وكونها طباقا بعضها فوق بعض بين كل ارض وارض مسافة كما بين السماء والارض وفى كل ارض سكان من خلق الله عز وجل لا يعلم حقيقتهم الا الله تعالى وعن ابن عباس انهم اما ملائكة او جن وأخرج ابن جرير وابن ابى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الايمان وفى الاسماء والصفات من طريق ابى الضحى عنه انه قال فى الآية سبع ارضين فى كل ارض نبى كنبيكم وآدم كآدمكم ونوح كنوح وابراهيم كابراهيم وعيسى كعيسى قال الذهبى اسناده صحيح ولكنه شاذ بمرة لا أعلم لابى الضحى عليه متابعا وذكر ابو حيان فى البحر نحوه عن الحبر * وقال هذا لاشك فى وضعه وهو من رواية الواقدى الكذاب وأقول لامانع عقلا من صحته والمراد أن فى كل ارض خلقا يرجعون الى أصل واحد رجوع بنى آدم فى أرضنا الى آدم عليه السلام وفيهم افراد ممتازون على سائرهم كنوح وابراهيم وغيرهما فينا وأخرج ابن ابى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عمر مرفوعا ان بين كل ارض والتى تليها خمسمائة عام والعليا منها على ظهر حوت قد التقا طرفاه فى السماء والحوت على صخرة والصخرة بيد الملك والثانية مسجن الريح والثالثة فيها حجارة جهنم والرابعة فيها كبريتها والخامسة فيها حياتها والسادسة فيها عقاربها والسابعة فيها سقر وفيها ابليس مصفد بالحديد يد أمامه ويد خلفه يطلقه الله لمن يشاء وهو حديث منكر قال الذهبى لا يعول عليه أصلا فلا تغتر بتصحيح الحاكم ومثله فى ذلك اخبار كثيرة فى هذا الباب لولا خوف الملل لذكرناها لكن كون مابين كل ارضين خمسمائة سنة كما بين كل سمائين جاء فى اخبار معتبرة كما روى الامام احمد والترمذى عن أبى هريرة قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه قال هل تدرون ما فوقكم قالوا الله ورسوله اعلم قال فانها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف قال هل تدرون ما بينكم وبينها قالوا الله ورسوله أعلم قال بينكم وبينها خمسمائة عام ثم قال هل تدرون مافوق ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال سماءوان بعد ما بينهما خمسمائة سنة ثم قال كذلك حتى عد سبع سموات ما بين كل سمائين ما بين السماء والارض ثم قال هل تدرون ما تحتكم قالوا الله ورسوله أعلم قال انها الارض ثم قال هل تدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ان تحتها ارضا اخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عد صلى الله عليه وسلم سبع ارضين ما بين كل ارضين منها خمسمائة سنة والاخبار فى تقدير المسافة بين كل سمائين أكثر من الاخبار فى تقديرها بين كل ارضين واصح ومنها ما هو مذكور فى صحيح البخارى وغيره من الصحاح وفيها أيضا أن ثخن كل سماء خمسمائة عام فقول الرازى فى ذلك انه غير معتبر عند أهل التحقيق كلام لا يخفى بشاعته على من سلك من السنة أقوم طريق نعم ما حكاه من أن السماء الاولى موج مكفوف والثانية صخر والثالثة حديد والرابعة نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوت ليس بمعتبر أصلا ولم يرد بما تضمنه من التفصيل خبر صحيح لكن فى قوله انه مما يأباه العقل ان اراد به نفى الامكان عقلا ففيه منع ظاهر ثم حكى بعد ذلك اقوالا اخرى فى بيان المثلية بين السموات والارضين ثم قال واصح الاقوال كما قال القرطبى قول الجمهور السابق وعليه اختلف فى مشاهدة اهل ما عدا هذه الارض السماء واستمدادهم الضوء منها فقيل انهم يشاهدون السماء من كل جانب من ارضهم ويستمدون الضياء منها وقيل انهم لا يشاهدون السماء وان الله عزوجل خلق لهم ضياء يشاهدونه وروى الامامية عن بعض الائمة نحوا مما ذكره الجمهور أخرج العياش باسناده عن

الحسين بن خالد عن ابى الحسن الرضا رضى الله عنه قال بسط كفه اليسرى ثم وضع يده اليمنى عليها ثم قال هذه الارض الدنيا والسماء الدنيا عليها قبة والارض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة والارض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة حتى ذكر الرابعة والخامسة والسادسة فقال والارض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش الرحمن فوق السماء السابعة وهو قوله تعالى سبع سموات طباقا ومن الارض مثلهن الى آخره

وانا اقول بنحو ما قاله الجمهور راجيا العصمة ممن على محور ارادته تدور افلاك الامور من وجود سبع ارضين بين كل ارض وارض منها مسافة عظيمة وفى كل ارض خلق لا يعلم حقيقتهم الا الله عز وجل ولهم ضياء يستضيئون به ويجوز ان يكون عندهم ليل ولا يتعين ان يكون ضياؤهم من هذه الشمس ولا من هذا القمر وقد يمكن على ظن اهل الحكمة الجديدة ان القمر عالم كعالم ارضنا هذه وفيه جبال وبحار ويزعمون انهم يحسون بها بواسطة ارصادهم وهم مهتمون بالسعى فى تحقيق الامر فيه فليكن ما نقول به من الارضين على هذا النحو وقد قالوا ايضا ان هذه الشمس فى عالم هى مركز دائرته وبلقيس مملكته يعنى ان جميع ما فيه من كواكبه السيارة تدور عليها فيه على وجه مخصوص مضبوط وقد تقرب اليها فيه وتبعد عنها الى غاية لا يعلمها الا الله تعالى كواكب ذوات الاذناب وهى عندهم كثيرة جدا تتحرك على شكل بيضى وان الشمس بعالمها من توابع كوكب آخر تدور عليه دوران توابعها من السيارات عليها هو فيما نسمع احد كواكب النجم ولهم ظن فى ان ذلك من توابع كوكب آخر وهكذا وملك الله العظيم عظيم لا تكاد تحيط به منطقة الفكر ويضيق عنه نطاق الحصر وسماء كل عالم كالقمر عندهم ما انتهى اليه هواؤه حتى صار ذلك الجرم فى نحو خلاء فيه لا يعارضه ولا يضعف حركته شئ والجسم متى تحرك فى خلاء لا يسكن لعدم المعارض فليكن كل ارض من هذه الارضين محمولة بيد القدرة بين كل سمائين على نحو ما سمعت عن الرضا على آبائه وعليه السلام وهناك ما يستضئ به اهلها سابحا فى فلك بحر قدرة الله عز وجل ونسبة كل ارض الى سمائها كنسبة الحلقة الى الفلاة وكذا نسبة السماء الى السماء التى فوقها ويمكن ان تكون الارضون وكذا السموات اكثر من سبع والاقتصار على العدد المذكور الذى هو عدد تام لا يستدعى نفى الزائد فقد صرحوا بان العدد لا مفهوم له والسماء الدنيا منتهى دائرة يتحرك فيها اعلى كوكب من السيارات وبينها وبين هذه الارض بعد بعيد وقوله صلى الله عليه وسلم خمسمائة عام من باب التقريب للافهام ويقرب الامر اذا اعتبر ذلك بالنسبة الى الراكب المجد كما وقع فى كثير من اخبار فيها تقادير المسافة وقوله عليه الصلاة والسلام فى السماء الدنيا موج مكفوف يمكن ان يكون من التشبيه البليغ فى اللطافة ونحوها او هو على حقيقته والتنوين فيه للنوعية حتى يقوم الدليل العقلى الصحيح على امتناعها وتزيين هذه السماء بالكواكب لظهورها فيها على ما يشاهد فلا يضر فى ذلك كونها كلا او بعضا فوقها او تحتها ولم يقم دليل على ان شيئا من الكواكب مغروز فى شئ من السموات كالفص فى الخاتم والمسمار فى اللوح بل فى بعض الاخبار ما يدل على خلافه * نعم اكثر الاخبار فى امر السموات والارض والكواكب لا يعول عليها كما اشار اليه النسفى فى بحر الكلام وكذا ما قاله قدماء اهل الهيئة ومحدثوهم وفى كل مما ذهب الفريقان اليه ما يوافق اصولنا وما يخالفها وما شريعتنا ساكتة عنه لم تتعرض له بنفى ولا اثبات وحيث كان من اصولنا انه متى عارض الدليل العقلى الدليل السمعى وجب تأويل الدليل السمعى للدليل العقلى لانه اصله ولو ابطل به لزم بطلانه نفسه فالامر سهل لان باب التأويل اوسع من فلك الثوابت ولا ارى باسا فى ارتكاب تأويل بعض الظواهر المستبعدة بما لا يستبعد وان لم يصل الاستبعاد الى حد الامتناع اذا تضمن ذلك مصلحة دينية ولم يستلزم مصادمة معلوم من الدين بالضرورة وقد

يلتزم الابقاء على الظاهر وتفويض الامر الى قدرة الله تعالى التى لا يتعاصاها شئ رعاية لاذهان العوام المقيدين بالظواهر الذين يعدون الخروج عنها لا سيما الى ما يوافق الحكمة الجديدة ضلالا محضا وكفرا صرفا ورحم الله امرأ اجب الغيبة عن نفسه * وقد اخرج عبد بن حميد وابن الضريس وابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس فى هذه الآية قال لو حدثتكم بتفسيرها لكذبتم بها وبالجملة من صدق بسعة ملك الله تعالى وعظيم قدرته عز وجل لا ينبغى ان يتوقف فى وجود سبع ارضين على الوجه الذى قدمناه او يحمل السبع على الاقاليم او على الطبقات المعدنية والطينية ونحوهما مما تقدم وليس فى ذلك ما يصادم ضروريا من الدين او يخالف قطعيا من ادلة المسلمين ولعل القول بذلك لا يبعد وهو المتبادر من الآية وتقتضيه الاخبار ومع هذا هو ليس من ضروريات الدين فلا يكفر منكره ولا المتردد فيه لكن لا ارى ذلك الا عن جهل بما هو الاليق بالقدرة والاحرى بالعظمة والله تعالى الموفق للصواب اه من الالوسى فى تفسيره

وبعد هذا كله فانت اذا أنصفت من نفسك ونزهتها من التمسك باذيال التعصب لم يبق عندك ريب فى ان ما قاله علماء الهيئة اليوم واكتشفوه بالنظارات المعظمة ورصدوه بالارصاد الصحيحة واقاموا عليه الادلة الهندسية والحسابية على الوجه الذى قدمناه مفصلا مما يتعلق بالارض والسيارات الاخرى من شمس وقمر وغيرها وما يتعلق بالثوابت وانها شموس مما تحتمله آيات القرآن ولا تصادمه وان تعدد السموات والارضين تعددا حقيقيا على رأى الجمهور من أهل السنة وعلى قول الامامية هو الظاهر المتبادر من هذه الآية وتصرح به الاحاديث الصحيحة المتقدمة وانه يوافق ما قال علماء الهيئة اليوم فى الارض والكواكب السبعة السيارة وان السيارات من الكواكب لا تنحصر فى هذه السبع وانهم استكشفوا لغاية الآن كوكبين سيارين وان ذلك يدل على جواز استكشاف غيرهما كما قدمناه وعلى كل حال ما قالوه على وجه ما تقدم ثابت بالعيان اما بالعين المجردة واما بواسطة النظارة المعظمة واما بالادلة الهندسية واما بالادلة الحسابية وكلها ادلة عقلية قطعية بحسب حمل الآيات والاحاديث عليها خصوصا وان الآيات والاحاديث ان لم تكن ظاهرة فيما قالوه فهى محتملة ومتى كان احتمالا فيها تعين ارادته منها لانه الواقع الذى ثبت بتلك الادلة القاطعة واما ما لم يثبت بالدليل القطعى فالامر فيه على ما حققه الالوسى

واقول الاكتشاف المتعلق بالثوابت وان لم يصل لغاية الآن الا لاكتشاف الشموس دون ما عداها من الارضين التى تشرق عليها تلك الشموس ولا على السيارات الاخرى وسيارات السيارات التى تدور حول كل شمس منها لكن يعلم ذلك كما قدمناه من انه من مقتضى الحكمة الالهية وان تلك الشموس لم تخلق عبثا

وقد علمت مما قدمناه ان كل الكواكب السيارة التى اكتشفت لغاية الآن ماعدا الشمس فى كل واحد منها دورة يومية ودورة سنوية وليل ونهار كما فى ارضنا وان هذه الكواكب لها مدارات تدور فيها تسمى افلاكا لها وهذه الافلاك هواء اثيرى وان بين كل كوكب وكوكب بعدا شاسعا

وعلم من الاحاديث ان لكل سماء سمكا وثخنا فيعلم ان مدارات الكواكب هى جزء من السموات وعلى ذلك لا مانع من ان يكون كل كوكب باعتبار ذاته ارضا لما فوقه وهو مع ما فيه مداره سماء لما تحته وهكذا كما يكاد يصرح به ما قدمناه عن الرضا ويدل لذلك ما صرح به فى الرسالة الموسومة بالسماء والعالم من اخوان الصفا حيث قال واعلم يا اخى ان كل واحد من هذه السبعة المقدم ذكرها سماء لما تحته وارض لما فوقه ففلك القمر سماء الارض التى نحن عليها وارض لفلك عطارد وكذلك فلك عطارد سماء لفلك القمر وارض لفلك الزهرة وعلى هذا القياس حكم سائر الافلاك وكل واحد منها سماء لما تحته وارض لما

فوقه الى فلك زحل الذى هو السماء السابعة انتهى * غاية الامر ان ما فى اخوان الصفا من فرض الكلام فى الافلاك دون الكواكب انفسها مبنى على مذهب الحكماء القائلين باتصال الافلاك بعضها ببعض وان الكواكب مغروزة فى دوائر صغيرة فى تلك الافلاك وهذا قد تبين بطلانه ولذلك قلنا ان الاراضى هى الاجرام نفسها وان السموات هى الاجرام او مداراتها وما منه مداراتها من باقى السموات فجرم ارضنا ارض بالنسبة للقمر والقمر ومداره وما منه مداره من باقى السماء الدنيا هى السماء الدنيا بالنسبة لارضنا وجرم القمر ارض بالنسبة للسماء التى فيها مدار عطارد وهو وهذه السماء هى سماء للقمر وكذلك جرم عطارد ارض للسماء التى فيها مدار الزهرة والزهرة والسماء التى هى فيها سماء لعطارد وهكذا كل وحد من هذه الاجرام السبعة ارض لما فوقه من جرم وسماء هذا الجرم الى آخر الاجرام السيارة الدائرة حول الشمس وأما الثوابت فكل واحد منها لكونه شمسا كما قلناه فيقال فى نظامها ما قلناه فى نظام شمسنا هذه ومما يؤيد ما قلناه ما قدمناه من ان جميع الاجرام السيارة التى تدور حول شمسنا اجرام مظلمة كارضنا تستفيد نورها من نور الشمس

وأما ما قاله الالوسى من ان القمر عالم كعالم ارضنا الى آخره فقد علمت مما قدمناه ان الذى ظهر وتحقق من الاكتشاف الجديد ان القمر ليس فيه بحار كما كان يظن أولا وأن سنته ثلاثون يوما تشرق الشمس خمسة عشر يوما على وجه وتغيب خمسة عشر يوما وهكذا وانه لا اثر فيه للهواء ولا للماء ولا للسحب ولا للضباب وان الذى ظهر من ذلك كله انه لا يصلح لحياة الحيوانات ولا للنبات كما ان الشمس كما تقدم لكونها ملتهبة لا تصلح لحياة الحيوانات والنبات واما سائر الكواكب فقد يكون فيها سكان وسيأتى ان المختار ان فيها سكانا فانتظر

ومما يؤيد ما قاله الجهور والامامية الموافق لما قاله علماء الهيئة اليوم ما قاله المفسرون فى قوله تعالى من هذه الآية (يتنزل الامر بينهن) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ما ملخصه ان المعنى يجرى امر الله تعالى وقضاؤه وقدره عز وجل بينهن وينفذ ملكه فيهن واخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة قال فى كل سماء وفى كل ارض خلق من خلقه تعالى وامر من امره وقضاء من قضائه عز وجل وقيل غير ذلك ايضا ويكفى هذا الذى رواه ابن المنذر وغيره عن قتادة عضدا للجمهور والامامية واذا كان الذى عليه المحققون ان السموات فيها مخلوقات ملائكة وحيوانات كما فى ارضنا فان فيها ملائكة وحيوانات كما يدل على ذلك قوله تعالى ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة فكيف لا يكون فى كل ارض مخلوقات من ملائكة وحيوانات كارضنا وهذه الآية صريحة فى ان الله بث فى كل منهما ما بث من الدواب وخلق ما خلق فى كل منها من ذلك وقد علمت ما قلناه فى السموات والارضين قريبا

وقال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره أى ومن آياته خلق ما بث فيهما من دابة أى حيوان له دبيب وحركة وظاهر الآية وجود ذلك فى السموات وفى الارض وبه قال مجاهد وفسر الدابة بالناس والملائكة ويجوز أن يكون للملائكة مشى مع الطيران واعترض ذلك ابن المنير بان اطلاق الدابة على الاناسى بعيد فى عرف اللغة فكيف بالملائكة وادعى ان الاصح كون الدواب فى الارض لا غير وما فى أحد الشيئين يصدق انه فيهما فالآية على أسلوب يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وذلك لقوله تعالى فى البقرة وبث فيها من دابة فانه يدل على اختصاص الدواب بالارض لان مقام الاطناب يقتضى ذكره لو كان للعمل بمفهوم اللقب الذى لا يقول به الجمهور اه * وأجاب عنه الالوسى بان التى فى البقرة لما كانت كلاما مع الغبى والفهم والمسترشد والمعاند جئ فيه بما هو معروف عند الكل وهو بث الدواب فى الارض واما ههنا فجئ به مدمجا مختصر المتكرر فى القران ولا سيما فى هذه السورة من كمال قدرته على كل ممكن فقيل ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وكذا على لفظ الخلق ليدل على التكثير الدال على كمال القدرة وبين بقوله تعالى من دابة تتميما وتغليبا لغير

ذوى العلم فى السماوى والارضى تحقيقا لمخلوقيته فقدثبت فى صحاح الاحاديث مايدل على وجود الدواب من مواكب أهل الجنة وغيرها وكذلك مايدل على وجود ملائكة كالاوعال بل لايبعد أن يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لايعلمها الا الله تعالى ولم يذكر فى الاخبار شئ منها فقد قال تعالى ويخلق مالاتعلمون اه

وأقول ان جواب الالوسى لايدفع ماقاله ابن المنير من ان اطلاق الدابة على الاناسى بعيد فى عرف اللغة الى آخره والذى يدفعه من أصله ان عرف اللغة وان كان يخص الدابة بذوات الاربع ولكن أصل اللغة أنها تطلق على كل مادب على وجه الارض ولها اطلاقات اخرى تختلف باختلاف المقام فقد قال تعالى فى سورة النور (والله خلق كل دابة من ماء) أى كل حيوان على وجه الارض وأدخل المفسرون فى ذلك الطير والسمك وقال الالوسى فى هذه الآية أن ظاهر كلام بعض ائمة التفسير دخول الملائكة الى آخر ماقال هنالك وقال تعالى فى سورة هود (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) اى الا هو مالك لها قادر على أن يتصرف فيها كيف يشاء متى شاء غير مستعصية عليه بل الكل فى قبضته والدابة فى هذه تشمل الملائكة والاناسى وغيرهم مما دب وتحرك وقال تعالى (ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها) قال الالوسى فى الدابة اسم لكل حيوان ذى روح ذكرا كان اوانثى عاقلا أوغيره مأخوذ من الدبيب وهو فى الاصل المشى الخفيف واختصت فى العرف بذوات الاربع وقد تخص بالفرس والمراد بها هنا المعنى اللغوى باتفاق المفسرين أى مامن حيوان يدب على الارض الا على الله غذاؤه ومعاشه اهـ فاقاله ابن المنير من الاستبعاد بناء على عرف اللغة غير مسلم بل الحق ان الدابة بحسب أصل اللغة تطلق و يراد منها كل ماتحرك مطلقا سواء كان من الملائكة أومن الاناسى أومن الجن وقد تطلق و يراد منها كل مادب وتحرك على وجه الارض سواء كان من ذوات الاربع أومن غيرها وتخصيصها بذلك انما جاء من قوله تعالى فى الارض وأما لفظ الدابة فى ذاته فهو عام شامل لكل متحرك سواء كان على وجه الارض أولم يكن وتارة يكون التخصيص من شئ آخر كما فى آية النور * على أنى أقول لامانع ان لاتكون فى هاتين الآيتين خاصة بكل حيوان على وجه الارض بل تكون عامة لملائكة الارض وللجن لان الحق ان الجن على وجه الارض وهم متحركون وقد تطلق و يراد منها ذوات الاربع من الحيوانات وهو عرف اللغة اى الاستعمال الطارىء على أصل اللغة فلاينافى أن الدابة لغة تطلق على وجه ماذكرنا والذى يعين المراد منها فى كل مقام هو القرائن فلا داعى لما ادعاه ابن المنير فى الآية التى نحن بصددها وحملها على أسلوب يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان لان لفظ يخرج ان اريد به يستخرج كان مع مراعاة الواقع من أنه لايوجدان الا فى البحر الملح قرينة على ان المراد احدهما وأما ان اريد بلفظ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان انهما ينشئان منهما و يتولدان منهما فلايكون هنالك دليل ولاقرينة على ارادة أحدهما بل يجب أن تبقى الآية على ظاهرها خصوصا وان لفظ المثنى نص فى الاثنين وذلك ان مادة اللؤلؤ انما هى ماء ورطوبة هوائية عذبة ودهنية جامدة منعقدة بين صدفتين كانهما خزفتان منطبقتان ظاهرهما اخشن وسخ و باطنهما املس نقى ابيض فى جوفهما حيوان كانه قطعة لحم خلقتها كخلقة الرحم مسكنها فى قعر البحر الملح وهذا الحيوان قد ضم الصدفتين على نفسه من جانبيه كما يضم الطائر جناحيه عند السكون عن الطيران مخافة ان يدخل فيه ماء البحر الملح حتى اذا احس بسكون البحر عن الاضطراب فى امواجه ارتقى من قعر البحر الى اعلى سطحه بالليل فى وقت من الزمان معلوم مخصوص عنده وفتح تينك الصدفتين كما يفتح فراخ الطير افواهها عند زق الطائر لها وكما يفتح فم الرحم عند الجماع فيرشح فى جوفه من ندى الهواء ورطوبة الجو ويجتمع فيه قطرات من الماء العذب من ذلك ومن الصقيع الذى يقع بالليل على النبات والحشيش فاذا اكتفى ضم تينك الصدفتين على نفسه ضما شديدا مخافة ان يرشح فيه ماء

البحر الملح فتفسد تلك الرطوبة العذبة عما يخالطها من ملوحته و ينزل برفق الى قرار البحر فيسكن هنالك زمنا فاذا طال الزمان على تلك الرطوبة العذبة غلظت وثقلت وصارت فى قوام الزئبق وتدحرجت فى جوفه بحركته فيصير حبا مستديرا كما يصير الزئبق اذا تبدد وتدحرج ثم على ممر الزمان يجمد وينعقد و يصير درا صغارا وكبارا ذلك تقدير العزيز العليم قاله بالرسالة الخامسة فى بيان تكوين المعادن من اخوان الصفا * واما المرجان فهو من نوع النبات الذى ينبت فى البحر الملح وللماء العذب فيه ايضا مدخل ومنه الابيض والاحمر ومن ذلك تعلم ان الاوفق بالآية ان تبقى على ظاهرها و يراد من خروجهما منهما انهما يتكونان منهما على الوجه الذى قضاه الله تعالى واراده فلكل منهما مدخل * فمادة اللؤلؤ من الماء العذب ومأواه وتربيته فى الماء الملح وكذلك المرجان مادته من طين الارض و يتغذى و ينمو بالماء العذب فسبحان الخلاق العظيم ثم اعاد الالوسى هنا ماقاله ونقلناه عنه سابقا من ان اهل الارصاد اليوم يتراآى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات فى جرم القمر لكنهم لم يحققوا امرها لنقص مافى الآلات على مايدعون ويحتمل ان يكون فيما عدا القمر ونفى ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به اه ثم حكى اقوالا اخرى اضطر قائلها الى تأويل فى مسمى الدابة والتجوز فى لفظها ثم قال لردها ان الاحتياج الى ذلك عدول عن الظاهر ولا يعدل عنه الا اذا دل دليل على خلافه وأين ذلك الدليل بل الدليل قائم على وجود الدواب فى السماء كما هى موجودة فى الارض انتهى كلامه ومن هنا تعلم ان الاجرام السماوية معدودة من السماء شرعا كما هى كذلك لغة ومما لاشبهة فيه ان المراد بالارض الأرض التى نحن عليها كما ان المراد بالسموات هى مانشاهدها من الكواكب ومداراتها وما منه مداراتها واذا علم ذلك فى عالمنا علم مثله فى سائر العوالم الاخرى من سمواتها واراضيها فيكون فيها دوابها على الوجه الذى يعلمه سبحانه وتعالى وقال فى كشف الاسرار الربانية بعد ان ذكر الخلاف فيما هو المراد بالدابة ما نصه الرابع هل الكواكب مسكونة اولا قد صنف فى هذه المسئلة مصنفات كثيرة ويقرب للعقل انه لا يمكن حله بدليل قطعى حسى على وجه الايجاب والاثبات اذا اريد بكونها مسكونة بدواب مشابهة لنا أولما هو محيط بنا ولو فرض وجود سكان فى الكوكب المشرق الذى هو الزهرة مثلا اوفى المشترى المتلىء باشرطته المتحركة واقماره الاربعة اوفى زحل المحاط بحلقه اوفى غير ذلك يلزم ان نعترف بان هؤلاء الناس ممتعون بمنظر جميل رفيع القدر اى سماء متنوعة المنتزهات واشرق من سمائنا وقد كثرت فى هذا البحث الاقوال والآراء والحدس والتخمين وقالوا يشاهد سطح القمر بالآلات الفلكية المعظمة بقع ونكت كثيرة لاتتغير ولاتختلف كميتها ولا مقاديرها ومن ذلك ينتج ماذكرناه باننا لا نشاهد دائما الا نصفه المحاذى لنا فقط و بعض تلك البقع كما تقتضيه سوادها حاصل من ظل المرتفعات العظيمة الموجودة فيه اعنى الجبال التى منها ما يبلغ ارتفاعه ثمانية آلاف متر وبعضها ناشىء من تجاويف وحفر لم يعلم غورها ومن جبال القمر ماهو براكين اى جبال نيران تقذف نارا فوقها تساوى او تزيد عن قوة براكين الارض والظاهر انها مثلها فى اختلاف زمن الثوران والشدة واذا كان القمر مسكونا باشخاص شبيهة بنا فاى منظر بهى تبديه الارض لهم جميع اسطحتها فى مدة اربع وعشرين ساعة مع كون قطرها أكبر من قطر القمر بثلاث مرات وضوؤها أقوى من ضوئه بثلاث عشرة مرة وجميع ماينسب لكرتنا من الكائنات الجوية المضيئة والبحار والانهر والاراضى الناشفة والغابات والاقطار القطبية والجبال المفروشة بالثلج والجليد المستدام يتغير و ينوع لهم منظر هذه الكرة العظيمة النيرة التى يلزم على ذلك أن القمر يستمد نوره منها اه وماقاله فيما يتعلق بالقمر من وجود سكان فيه قد علمت مما قدمناه انه خلاف ماتحقق الآن

من انه لا يصلح لحياة الحيوانات والنباتات اللهم الا اذا خلق الله فيه خلقا يعيشون بحياة تناسب حرارته وبرودته كما يعيش أهل جهنم والزمهرير فيها بحياة تناسب ذلك والله على كل شيء قدير فيتعين حمل ماقاله فى كشف الاسرار على الفرض والتقدير لا على الواقع

فان قلت ماذا تقول فى قوله تعالى (هو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره المراد بخلق السموات والارض الى آخره خلقهما وما فيهما أو تجعل السموات مجازا عن العلويات فتشملها ومافيها وتجعل الارض مجازا عن السفليات فتشملها وما فيها من غير تقدير واحتيج لذلك لاقتضا المقام إياه والا فخلقها فى كل المدة لاينافى خلق غيرها فيها

أقول يدل على هذا آيات كثيرة جاء فيها انه خلق السموات والارض ومابينهما فى ستة أيام منها قوله تعالى فى آية أخرى (الذى خلق السموات والارض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيرا) والمراد باليوم الوقت مطلقا لا المتعارف اذلا يتصور ذلك حيث لاشمس ولا ارض وقيل أراد به مدة زمان دوران المحدد المسمى بالعرش دورة تامة واليه ذهب الشيخ الاكبر قدس سره وهو ليس بذاك وقال فى كشف الاسرار القرنية المراد أنه تعالى خلق السموات والارض فى مقدار ستة أيام أى ستة مقادير متساوية من الزمن وهو كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا والمراد على مقدار البكرة والعشى فى الدنيا لانه لا ليل ثم ولا نهار اه ومعنى قوله وكان عرشه على الماء ان عرشه كان على الماء قبل خلقهما وهو الذى يقتضيه كلام مجاهد وبه صرح القاضى البيضاوى ثم قال لم يكن حائل بينهما اى العرش والماء لا انه كان موضوعا على متن الماء واستدل به على امكان الخلاء وان الماء أول حادث بعد العرش من اجرام هذا العالم اه وكذا صرح به العلامة أبو السعود مفتى الروم لكنه قال ليس تحته يعنى العرش شيء غير الماء سواء كان بينهما فرجة أو موضوعا على متنه كما ورد فى الاثر فلا دلالة فيه على امكان الخلا كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على امكانه فقط ولا على كون الماء أول حادث فى العالم بعد العرش وانما يدل على ان خلقهما أقدم من خلق السموات والارض من غير تعرض للنسبة بينهما اه قال الالوسى ولا يخفى مابين القاضى والمفتى من المخالفة اه ثم نقل كلاما طويلا انتصر فيه بعضهم للقاضى وانتصر فريق آخر المفتى وكلام الجميع فى مناقشاتهم التى دارت بينهم مبنى فى هذا الموضوع على ان المراد بالعرش فى هذه الآية هو فلك الافلاك الذى هو المحدد للعالم وان الماء المحيط بالارض هو الماء العنصرى وأن المراد من الماء فى هذه الآية هو هذا الماء وكل هذا فى محل المنع كما أن كلامهم فى تفسير العرش مضطربة فتارة يحملونه على فلك الافلاك المذكور وتارة على غيره فللوقوف على الحقيقة فى ذلك نقول

قال تعالى فى سورة الاعراف (ثم استوى على العرش) فقال فريق منهم المراد بالعرش هو الجسم المحيط بسائر الاجسام وهو فلك الافلاك سمى به اما لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فانه يقال له عرش ومنه قوله تعالى (ورفع ابويه على العرش) لان الامور والتدبيرات تنزل منه ويكنى به عن العز والسلطان والملك فيقال فلان ثل عرشه أى ذهب عزه وملكه وقال الراغب ان العرش مما لا يعلمه البشر الا بالاسم وليس هو كما تذهب اليه أوهام العامة فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى عن ذلك وليس كما قال قوم انه الفلك الاعلى والكرسى فلك الكواكب قال الالوسى وفيه نظر ولم يبين وجه النظر ولعل وجهه ان الآية مسوقة للاستدلال على وجود الصانع وتوحيده فلابد أن يكون مسمى العرش معلوما عند المخاطبين بهذه الآية ولا يخفى ضعفه لانه يكفى فى الاستدلال أن يكون المعنى التركيبي أى معنى القضية بقطع النظر عن مسمى كل جزء منها معلوما وهو المعنى الذى قصد بطريق الكناية من قوله تعالى (ثم استوى على العرش) من انه تعالى ذو العز والسلطان والملك وهذا المعنى معلوم من هذه القضية للمخاطبين وان كان مسمى العرش مجهولا عندهم بل للبشر اجمعين ويكفى فى علمهم

بذلك المعنى الكنائى ان يكون مسمى العرش معروفا عندهم فى لغتهم وهو سرير الملك وان كان مسمى عرش الله غير معلوم للبشر الا ترى ان كنه كل صفات البارى مجهول للبشر وأن كان المفهوم اللغوى معلوما لنا

وقال القفال ان المراد بالعرش نفاذ القدرة وجريان المشيئة واستقامة الملك لكنه تعالى اخرج ذلك على الوجه الذى الفه الناس من ملوكهم واستقر فى قلوبهم قيل ويدل على صحة ذلك قوله تعالى فى سورة يونس (ثم استوى على العرش يدبر الامر) فان تدبير الامر جرى مجرى التفسير لقوله استوى على العرش وتارة فسر القفال العرش بالملك وقال ماقاله من ان المراد استقامة الملك فاعترض عليه بان الله تعالى لم يزل ولا يزال مستقيم الملك مستويا عليه قبل خلق السموات والارض وهذا الكلام يقتضى انه لم يكن كذلك تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا واجيب بانه تعالى كان قبل خلق السموات والارض مالكا لكنه لا يقال شبع زيد الا بعدما كل الطعام فاذا فسر العرش بالملك صح ان يقال انه سبحانه انما استوى ملكه بعد خلق السموات والارض ومابينهما اى فالتراخى المستفاد من كلمة ثم انما هو باعتبار خلقهما ومابينهما ومنهم من جعل الاسناد فى استوى الى الله مجازيا وقدر فاعلا فى الكلام اى استوى امره على العرش ولا يضر حذف الفاعل اذا اقام مقامه ما اضيف اليه وعلى هذا لا يكون الاستواء صفة لله تعالى قال الالوسى وليس بشيء

وقال فى كشف الاسرار القرآنية اتفق قوم على ان فوق السموات جسما عظيما وهو العرش اذا ثبت هذا فنقول العرش المذكور فى هذه الآية هل المراد منه ذلك العرش أو غيره فيه قولان بل ثلاثة * القول الاول وهو الذى اختاره ابو مسلم الاصفهانى انه ليس المراد منه ذلك بل المراد من قوله ثم استوى على العرش انه لما خلق السموات والارض سطحها ورفع سمكها فان كل بناء يسمى عرشا وبانيه يسمى عارشا * وحاصل ماقاله ابو مسلم ان المراد بالعرش البناء ومعنى الآية وكان بناؤه للسموات والأرض وخلقه لهما على الماء وقال انما ذكر ذلك لانه اعجب فى القدرة لان البانى يبنى البنا بعيدا عن الماء على الارض الصلبة لئلا ينهدم والله تعالى بنى السموات والارض على الماء ليعرف العقلاء قدرته وكمال جلالته وفسر الاستوى بالاستعلا بطريق القهر ويكون نظيره فى قوله تعالى (وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) القول الثانى ان المراد منه الجسم العظيم الذى هو فوق السموات وهؤلاء جعلوا الاستوى على العرش كناية عن جلالة الملك والسلطان وأن قوله تعالى يدبر الامر لبيان حكمة ذلك الاستواء القول الثالث ان المراد بالعرش الملك والماء ما تكونت منه الذوات وحاصل المعنى عند هؤلاء ان العرش هو الملك وملكه عبارة عن وجود مخلوقاته ووجود مخلوقاته انما حصل بعد خلق السموات والارض متراخيا ولذلك قال ثم استوى على العرش وهذا كناية عن تمام الملك بخلق السموات ومافيها من الكواكب وبخلق الارض ومافيها واستدارت الكواكب فى افلاكها ووجدت الفصول الاربعة والاحوال المختلفة من المعادن والنبات والحيوان ففى هذا الوقت وجدت هذه المخلوقات وتم ما أراده الله منها فكنى عن ذلك التمام بقوله ثم استوى على العرش وأما الاستواء ففسره فريق بالاستقرار وروى ذلك عن الكلبى ومقاتل ورواه البيهقى فى كتاب الاسماء والصفات بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها وروى عن الامام مالك انه سئل عن هذه الآية فقال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم قال للسائل ما أظنك الا ضالا ثم أمر به فأخرج ولعل مراده من قوله ان الاستواء ثابت معلوم غير مجهول الثبوت لان معناه وهو الاستقرار غير مجهول ومن قوله والكيف غير معقول أن كل ماهو من صفة الله تعالى لا يدرك العقل له كيفية لتعاليه عن ذلك فكف الكيف عنه مشاولة ويدل لهذا ما جاء فى رواية أخرى عن عبد الله ابن وهب ان مالكا سئل عن الاستواء فاطرق وأخذته الرحضاء ثم قال الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه

ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع الى آخر ما قال كذا قال الالوسي ولا يخفى أن ما قاله في بيان مراد الامام مالك خلاف الظاهر من كلامه وما استدل به على ذلك لا يدل له على ما قال لان الرواية الثانية لا تزيد عن الاولى شيئا سوى انها بينت أننا نصفه بالاستواء كما وصف به نفسه والظاهر انه أراد بالاستواء الاستقرار له وجعله استقرارا لائقا بجلاله تعالى مع التنزيه عن مماثلة الخلق فنفوض علم كنه ذلك الاستقرار له تعالى كما هو الشأن في سائر الصفات ولذلك قال الالوسي بعد ذلك ان القول بان العرش بمعنى الفلك والاستواء بمعنى الاستقرار ان كان مع نفي اللوازم فالامر هين وان كان مع القول بها والعياذ بالله تعالى فهو ضلال وأي ضلال وجهل وأي جهل بالكبير المتعال * ثم قال الالوسي وما أعرف ما قاله بعض العارفين الذين من تيار المعارف غارفين على لسان حال العرش موجها الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج حين أشرقت شمسه عليه الصلاة والسلام في الملأ الاعلى فتضاءل معها كل نور وسراج كما نقله الامام القسطلاني معرضا بضلال أهل هذا المذهب الثاني * ولفظه مع حذف ولما انتهى صلى الله عليه وسلم الى العرش تمسك باذياله وناداه بلسان حاله يا محمد أنت في صفاء وقتك آمن من مقتك الى أن قال يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبه أهل الزور الي وتقوله أهل الغرور علي زعموا أني أسع من لا مثل له واحيط بمن لا كيفية له يا محمد من لا حد لذاته ولا حد لصفاته كيف يكون مفتقرا الي ومحمولا علي اذا كان الرحمن اسمه والاستواء صفته وصفته متصلة بذاته فكيف يتصل بي أو ينفصل عني يا محمد وعزته لست بالقريب منه وصلا ولا بالبعيد عنه فصلا ولا بالمطيق له حملا أوجدني رحمة منه وفضلا ولو محقني لكان حقا منه وعدلا يا محمد أنا محمول قدرته ومعمول حكمته * وذهب المعتزلة وبعض المتكلمين الى أن العرش على معناه اللغوي واستوى بمعنى استولى ولا يخفى ضعفه لان استولى أيضا يحتاج الى تأويل بأن المراد به استيلاء لا كاستيلائنا فمن أول الامر يقال استوى استواء لا كاستوائنا اهـ كلام الالوسي وما قاله في الاستواء هو ما يريده الامام مالك كما قدمناه هذا محصل ما قالوه في آية الاعراف

وقال الالوسي في تفسيره وغيره في غيره في قوله تعالى في يونس (ثم استوى على العرش) على المعنى الذي اراده سبحانه وكف الكيف عنه مشاولة وقيل الاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع عن الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك ويراد منه ملك وان لم يقعد على السرير أصلا وقيل أن الاستواء معناه الاستيلاء وأرجعوه الى صفة القدرة وأنت تعلم أن هذا وأمثاله من المتشابه وللناس فيه مذاهب وما أشرنا اليه أولا هو الذي عليه أكثر سلف الامة رضي الله تعالى عنهم وقد صرح بعض ان الاستواء صفة غير الثمانية لا يعلم ما هي الا من هي له

والعجز عن درك الادراك أدراك * والبحث عن سر كنه الذات اشراك

واختار كثير من الخلف ان المراد بذلك الملك والسلطان وذكره لبيان جلالة ملكه وسلطانه بعد بيان عظمة شأنه وقدرته بما مر من خلق هاتيك الاجرام وقوله تعالى (يدبر الامر) استئناف لبيان حكمة استوائه جل وعلا على العرش وتقرير عظمته فالتدبير هنا معناه التقدير الجاري على وفق الحكمة والوجه الاتم الاكمل ومعناه قضاء الامر والمراد بالامر أمر الكائنات علويها وسفليها حتى العرش فأل فيه للعهد أي يقدر أمر ذلك كله على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه المصلحة وتستدعيه الحكمة وزعم بعضهم ان المعنى يدبر ذلك على ما اقتضته حكمته ويبن اسبابه بسبب تحريك العرش وهو فلك الافلاك عندهم وبحركته يحرك غيره من الافلاك الممثلة وغيرها القوة نفسه وقيل لان الكل في جوفه فيلزم من حركته حركتها لزوم حركة المظروف لحركة الظرف وهو مبني على أن الظرف مكان طبيعي للمظروف والا ففيه نظر وأنت تعلم ان مثل هذا الزعم على ما فيه لا يقبله المحدثون وسلف الامة أذ لا يشهد له الكتاب ولا السنة فحينئذ لا يفي به وان حكم القاضي انتهى كلام الالوسي ومثله بالمعنى

في غيره أي أنه لا يجوز حمل العرش على فلك الافلاك ولا حمل التدبير على المعنى التابع لحركته وان قال به القاضي البيضاوي فانت ترى كيف هنا خالفوا حكم القاضي وأبوا الفتوى بحكمه فكيف وافقوه على ذلك وحملوا العرش على الفلك الاعظم في قوله تعالى وكان عرشه على الماء * وسيتضح لك ما تعجب منه

وقال تعالى في سورة التوبة (وهو رب العرش العظيم) فقال الالوسي في تفسيره وغيره في غيره أي الجسم المحيط بسائر الاجسام ويسمى بفلك الافلاك وهو محدد الجهات العظيم الذي لا يعلم مقدار عظمته الا الله تعالى وفي الخبر أن الارض بالنسبة الى السماء كحلقة ملقاة في فلاة وكذا السماء الدنيا بالنسبة الى السماء التي فوقها وهكذا الى السماء السابعة وهي بالنسبة الى الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة وهو بالنسبة الى العرش كذلك وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه لا يقدر قدره أحد * وذكر أهل الارصاد أن بعد مقعر الفلك عن مركز العالم ثلاثة وثلاثون الف الف وخمسمائة وأربعة وخمسون الفا وستمائة وتسعة فراسخ وان بعد محدبه منه بلغ مرتبة لا يعلمها الا الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء وهو بكل شيء عليم وقد يفسر العرش هنا بالملك وهو أحد معانيه كما في القاموس اهـ فانظر كيف عولوا هنا أيضا على أن مسمى العرش فلك الافلاك وحملوا العرش في هذه الآية عليه وكذا حملوا لفظ العرش في الخبر المذكور عليه وجعلوه عين ما بين أهل الارصاد بعد مقعره عن مركز العالم مع ما علمته فيما قدمناه من أن ذلك لا يقبله المحدثون ولا سلف الامة فمن أين ساغ حمل العرش في هذه الآية وغيرها من الآيات والاحاديث على الفلك الاعظم الذي قال به الفلاسفة الاقدمون وخصوصا وقد بين خطأهم في ذلك علماء الهيئة اليوم وانه لا يوجد في عالم الوجود شيء يسمى بالفلك الاعظم يتحرك بحركته شيء آخر غيره لا في جوفه ولا خارج جوفه وأيضا هو غير معروف من لفظ العرش شرعا ولا لغة بل اطلاق العرش على هذا الفلك اطلاق حادث تستر به الفلاسفة الاسلاميون الذين ذهبوا الى مذهب البطليموسية من حصر الافلاك في تسعة وأن الفلك المحيط هو اعلاها وهو المحدد للعالم ليس فوقه خلاء ولا ملا وان جميع الافلاك في جوفه متلاصقة طبقات كطبقات قشر البصل وانها كلها تتحرك بحركته من المشرق الى المغرب بطريق القسر وفضلا عن ان كل هذا لم يشهد له كتاب ولا سنة فقد تبين خطؤه كما قلنا وأن بين هذه الارض والسماء الدنيا بعدا شاسعا وبين كل سماء وسماء فوقها كذلك والخبر الذي رووا وعولوا عليه في ذلك وأفاد أن الارض بالنسبة الى سماء الدنيا كحلقة ملقاة في فلاة الى آخره مما يبطل القول بهذا الفلك الذي قاله اولئك الفلاسفة وادعوا انه محيط بجميع الافلاك الى آخر ما قالوه مما قدمناه وايضا أن الالوسي نفسه قال في تفسير قوله تعالى من سورة يونس (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) الآية وقد زعموا ان الافلاك الكلية تسعة أعلاها فلك الافلاك ثم فلك الثوابت الى آخر ما قالوه في ترتيبها ثم قال وقد استدل كثير منهم على هذا الترتيب بما يبقى معه الاشتباه بين الشمس والزهرة والكاتب أي عطارد الى آخر ما ذكره من ان التمسك بما استدلوا به كالتمسك بحبال القمر ثم قال ومثل ذلك تمسكهم في عدم الزيادة على هذه الافلاك الى أن قال والحق انه لا جزم بما يقولونه في ترتيب الاجرام العلوية وما يلتحق بذلك وأن القول به لا يضر الا اذا صادم ما علم مجيئه عن النبي صلى الله عليه وسلم اهـ

ونحن وان كنا نقول بوجود الفلك الاعظم ووجود الاجرام السماوية على الوجه الذي قال به اهل الهيئة القديمة وأهل الهيئة الحديثة وانه لا يصادم شيئا مما علم مجيئه عنه صلى الله عليه وسلم من كتاب أو سنة لكننا ننكر على الاقدمين حصر الافلاك في تسعة وكونها طبقات متلاصقة وانها اجسام صلبة لا تقبل الخرق والالتئام وغير ذلك مما نطقت الآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية بخلافه كما فصلناه سابقا وسيأتي له بقية

ولكن هذا كله شيء خارج عن الموضوع الذي هو بيان مسمى العرش الوارد في القرآن والاحاديث فان دعوى ان المراد من لفظ العرش فيهما ذلك الفلك الذي قال به اولئك الفلاسفة تحتاج الى دليل نقلي من قبل

الشارع أو اللغة ودونه أن تنفطر السماء فان لفظ الفلك فى اللغة هو المدار وكذلك فى لسان الشارع هو المدار الذى يسبح فيه الدائر ويجرى كما يسبح ويجرى السمك فى الماء فالفلك الاعظم حينئذ معناه المدار الاعظم وهذا الفلك بهذا المعنى لغاية الآن لم يثبت انه خال من الكواكب كما ان الذى ثبت انه لا يدور بدورانه شىء آخر بل انه ساكن لا حركة له بل هو كغيره تدور الكواكب فيها بحركاتها الذاتية أو التبعية ان كان فيه كواكب على ما وصفنا ومقتضى تسميته فلكا بهذا المعنى أن يكون كذلك فتعين ان يكون العرش الوارد فى القرآن والسنة اما بالمعنى الشرعى وهو الجسم العظيم ذو القوائم الذى تحمله الملائكة وهو ما يسمى لغة بالنظر للبشر سرير الملك وإما معناه اللغوى أيضا وهو الملك الذى يكنى عنه فى العرف بالسرير ايضا فيقال جلس على سرير الملك أى ملك والقرينة هى التى تعين المراد وعند عدم وجود قرينة يراد المعنى الشرعى كما لا يخفى

الا ترى ان المفسرين جميعا حملوا لفظ العرش على السرير فى قوله تعالى من سورة يوسف (ورفع ابويه على العرش) فقالوا أى السرير كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ولم يحكوا فى هذا الموضع غير هذا وما ذاك الا لأن القرينة عينت ذلك فى هذه الآية وفى قوله تعالى من سورة الاسراء (اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) فسروا العرش بالملك فقالوا أى من له الملك والربوبية على الاطلاق سبيلا بالمغالبة والممانعة ولم يحكوا غير هذا أيضا وفعلوا مثل ذلك فى قوله تعالى من سورة الانبياء (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) فقالوا ان الوصف برب العرش لتأكيد التنزيه مع ما فى ذلك من تربية المهابة وكذا فى قوله تعالى من سورة المؤمنين (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم) لم يحملوا لفظ العرش على ذلك الجسم بل اقتصروا على معنى الآية الذى سيقت له بدون بيان معنى لفظ العرش بخصوصه وكذلك فسروا العرش بالسرير فى قوله تعالى من سورة النمل (ولها عرش عظيم) وفسره أبو مسلم بالملك ولم يزيدوا على هذين المعنيين *قلت قوله تعالى حكاية للمقاولة بين سليمان عليه السلام وملائه حيث قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها الى آخر هذه المقاولة صريح فى أن المراد بالعرش السرير ولكنهم قالوا فى قوله تعالى من هذه السورة (رب العرش الكريم) وهو جرم عظيم وراء عالم الاجسام والاجرام ووصفه بالكريم لشرفه وكل ما شرف فى بابه يوصف بالكرم فى بيان سبب وصفه بالكرم واقتصر الالوسى فى بيان معنى لفظ العرش فى هذه الآية على ما ذكر وفسروا العرش بما تحمله الملائكة وتحف به جميع الخلق فى قوله تعالى من سورة الزمر (وترى الملائكة حافين من حول العرش) فقال الالوسى وفى بعض الآثار ما هو ناطق بذلك وفيها ما يدل على ان العرش يوم فصل القضاء يكون فى الارض حيث يشاء الله تعالى والارض يومئذ غير هذه الارض وأحوال يوم القيامة من وراء العقول وفى حديث طويل جدا اخرجه عبد بن حميد وعلى بن سعيد فى كتاب الطاعة والعصيان وأبو يعلى وأبو الحسن القطان فى المطولات وأبو الشيخ فى العظمة والبيهقى فى البعث والنشور عن أبى هريرة وساق الحديث بطوله وهو يدل على أن العرش تحمله يوم القيامة ثمانية وتحمله اليوم أربعة الى آخر ما يدل عليه وفسروا العرش فى قوله تعالى من سورة المؤمن (رفيع الدرجات ذو العرش) فقالوا ان ذو العرش كناية عن ملكه جل جلاله ولا نظر الى أن له سبحانه عرشا أولا فالكناية وان كانت لا تنافى إرادة المعنى الحقيقى لكنها لا تقتضى وجوب ارادته فقد وقد ولم يزيدوا هنا على ذلك وقال الالوسى وغيره فى تفسير قوله تعالى من سورة المؤمن (الذين يحملون العرش ومن حوله) العرش هو جسم عظيم وله قوائم والكرسى وما تحته بالنسبة اليه كحلقة فى فلاة وفى بعض الآثار خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وذكر بعضهم فى سعته أنه لو مسح مقعره بجميع مياه الدنيا مسحا خفيفا لقصرت عن استيعابه وزعم أهل الهيئة ومن وافقهم أنه كرى وأنه المحدد وفلك الافلاك وانه كسائر الافلاك لا يوصف بثقل ولا خفة وليس لهم فى ذلك خبر يعول عليه

بل الاخبار ظاهرة فى خلافه والظاهر أن الحمل على حقيقته وحملته ملائكة عظام أخرج أبو يعلى وابن مردويه بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لى أن أحدثكم عن ملك قد مرقت رجلاه الارض السابعة السفلى والعرش على منكبيه وهو يقول سبحانك أين كنت وأين تكون وأخرج ابوداود وجماعة بسند صحيح عن جابر بلفظ أذن لى أن احدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة اذنه الى عاتقه سبعمائة عام وهم على ما فى بعض الاثار ثمانية اخرج ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقى فى شعب الايمان عن هارون بن رباب قال حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رخيم يقول أربعة منهم سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك وأربعة منهم سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك وأخرج أبو الشيخ وابن أبى حاتم من طريق أبى قبيل انه سمع ابن عمر رضى الله عنهما يقول حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهم الى مؤخر عينيه مسيرة خمسمائة عام وفى بعض الآثار أنهم اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية أخرج أبو الشيخ عن وهب قال حملة العرش أربعة فاذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة آخرين ملك منهم فى صورة انسان يشفع لبنى آدم فى أرزاقهم وملك منهم فى صورة نسر يشفع للطير فى أرزاقهم وملك منهم فى صورة ثور يشفع للبهائم فى ارزاقهم وملك منهم فى صورة أسد يشفع للسباع فى ارزاقهم فلما حملوا العرش وقعوا على ركبهم من عظمة الله تعالى فلقنوا لا حول ولا قوة الا بالله فاستووا قياما على أرجلهم وجاء فى رواية عن وهب ايضا أنهم يحملون العرش على أكتافهم وهو الذى يشعر به ظاهر خبر أبى هريرة السابق وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن حبان ابن عطية قال حملة العرش ثمانية اقدامهم مثبتة فى الارض السابعة ورؤسهم قد جاوزت السماء السابعة وقرونهم مثل طولهم عليها العرش وفى بعض الآثار أنهم خشوع لا يرفعون طرفهم وفى بعضها لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور وهم على ما اخرج ابن أبى شيبة عن أبى امامة يتكلمون بالفارسية أى إذا تكلموا بغير التسبيح والا فالظاهر أنهم يسبحون بالعربية على أن الخبر الله أعلم بصحته وفى بعض الاثار عن وهب انهم ليس لهم كلام إلا أن يقولوا قدوس الله القوى ملأت عظمته السموات والارض

وما سيأتى إن شاء الله تعالى بعد هذا فى تفسير الآية يأبى ظاهره الحصر وقوله تعالى ومن حوله أى والذين من حول العرش وهم ملائكة فى غاية الكثرة لا يعلم عدتهم الا الله تعالى وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الايمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر وذكر فى كثرتهم أن مخلوقات البر عشر مخلوقات البحر والمجموع عشر مخلوقات الجو والمجموع عشر ملائكة سماء الدنيا والمجموع عشر ملائكة السماء الثانية وهكذا الى السماء السابعة والمجموع عشر ملائكة الكرسى والمجموع عشر الملائكة الحافين بالعرش ولا نسبة بين مجموع المذكور وما يعلمه الله من جنوده سبحانه (وما يعلم جنود ربك الا هو) ويقال لحملة العرش والحافين به الكروبيون جمع كروبى بفتح الكاف وضم الراء المخففة وتشديدها خطأ ثم واو بعدها باء موحدة ثم ياء مشددة من كرب بمعنى قرب وقد توقف بعضهم فى سماعه من العرب وأثبته أبو على الفارسى واستشهد له بقوله (كروبية منهم ركوع وسجد) وفيه دلالة على المبالغة فى القرب لصيغة فعول والياء التى تزاد للمبالغة وقيل من الكرب بمعنى الشدة والحزن وكأن وصفهم بذلك لانهم أشد الملائكة خوفا وزعم بعضهم أن الكروبيين حملة العرش وانهم أول الملائكة وجودا ومثله لا يعرف الا بالسماع وعن البيهقى أنهم ملائكة العذاب وكأن ذلك اطلاق آخر من الكرب بمعنى الشدة والحزن وقال ابن سينا فى رسالة الملائكة الكروبيون هم العامرون لعرصات التيه الاعلى الواقفون فى الموقف الاكرم زمرا الناظرون

الى المنظر الابهى نظرا وهم الملائكة المقربون والارواح المبرون وأما الملائكة العاملون منهم حملة العرش والكرسى وعمار السموات اه وذهب بعضهم الى أن حمل العرش مجاز عن تدبيره وحفظه من أن يعرض له مايخل به أو بشئ من أحواله التى لا يعلمها الا الله تعالى وجعل القرينة عقلية لان العرش كروى فى حيزه الطبيعى فلا يحتاج الى حمل ونسب ذلك الى الحكماء وأكثر المتكلمين وكذا ذهبوا الى أن الحفيف والطواف بالعرش مجازان عن القرب من ذى العرش سبحانه ومكانتهم عند الله سبحانه وتعالى وتوسطهم فى نفاذ أمره عز وجل * والحق أن المراد من كل ذلك هو الحقيقة فى الموضعين وما ذكر من القرينة العقلية فى حيز المنع اه ماقاله الالوسى وأكثره مأخوذ من غيره"

فانت ترى أن العرش بهذا المعنى لاينطبق على مازعموه وسموه فلك الافلاك والفلك الاعظم والمحدد تبعا للفلاسفة الاقدمين وكذلك ماقالوه فى العرش هاهنا وفى الآية التى قبلها يؤيد ماقاله الراغب من أن العرش مما لايعلمه البشر الا بالاسم وليس هو كما تذهب اليه أوهام العامة الى آخره أى أن حقيقة مسماه مجهولة للبشر فالعقول لايمكنها الوقوف على كنه العرش

وقال الالوسى وغيره فى تفسير قوله تعالى من سورة طه (الرحمن على العرش استوى) العرش فى اللغة سرير الملك وفى الشرع سرير ذو قوائم له حملة من الملائكة عليهم السلام فوق السموات مثل القبة ويدل على أن له قوائم ما أخرجاه فى الصحيحين عن أبى سعيد قال جاء رجل من اليهود الى النبى صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه فقال يا محمد رجل من أصحابك قد لطم وجهى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ادعوه فقال لم لطمت وجهه فقال يارسول الله إنى مررت بالسوق وهو يقول والذى اصطفى موسى على البشر فقلت يا خبيث وعلى محمد صلى الله عليه وسلم فاخذتنى غضبة فلطمته فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاتخيروا بين الانبياء فان الناس يصعقون وأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلاأدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور * وعلى أن له حملة من الملائكة عليهم السلام قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به) ومارواه أبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن مابين اذنيه وعاتقه مسيرة سبعمائة سنة) * وعلى أنه فوق السموات مثل القبة مارواه ابوداود ايضا عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن ابيه عن جده قال (اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرابى فقال يارسول الله جهدت الأنفس ونهكت أوهلكت فاستق لنا فانا نستشفع بك الى الله تعالى ونستشفع الله تعالى عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك أتدرى ماتقول فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه اصحابه ثم قال ويحك انه لايستشفع بالله على احد من خلقه شأن الله اعظم من ذلك ويحك اتدرى ما الله ان الله تعالى فوق عرشه وعرشه فوق سمواته هكذا وقال باصابعه مثل القبه وانه ليئط به اطيط الرحل الجديد بالراكب) ومن شعر ابى اميه بن الصلت

مجدوا الله فهو للمجد أهل * ربنا فى السماء امسى كبيرا
بالبناء العالى الذى بنى للنا * س وسوى فوق السماء سريرا
سرجعا لا يناله طرف العـ * ـين ترى حوله الملائك صورا

السرجع العالى والصور جمع أصور أى مائل العنق نظره الى العلو وذهب طائفة من أهل الكلام الى أنه مستدير من جميع الجوانب محيط بالعالم من كل جهة وهو محدد الجهات وربما سموه الفلك الاطلس والفلك التاسع وتعقبه بعض شراح عقيدة الطحاوى بانه ليس بصحيح لما ثبت فى الشرح من ان له قوائم تحمله

الملائكة عليهم السلام وأيضا اخرجا فى الصحيحين عن جابر انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ والفلك التاسع عندهم يتحرك دائما بحركة متشابهة ومن تأول ذلك على ان المراد باهتزازه استبشار حملة العرش وفرحهم فلابد له من دليل على ان سياق الحديث ولفظه كما نقل عن ابى الحسن الطبرى وغيره بعيد عن ذلك الاحتمال وأيضا جاء فى صحيح مسلم من حديث جويرية بنت الحارث ما يدل على أن له زنة هى أثقل الاوزان والفلك عندهم لاثقيل ولا خفيف وأيضا العرب لاتفهم منه الفلك والقرآن انما نزل بما يفهمون * وقصارى مايدل عليه خبر أبى داود عن جبير بن مطعم التقبب وهو لايستلزم الاستدارة من جميع الجوانب كما فى الفلك ولابد لها من دليل منفصل * ثم ان القوم الى الآن بل الى ان ينفخ فى الصور لا دليل لهم على حصر الافلاك فى تسعة ولا على ان التاسع اطلس لا كوكب فيه وهو غير الكرسى على الصحيح فقد قال ابن جرير قال ابوذر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما الكرسى فى العرش الا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهر فلاة من الارض) وروى ابن ابى شيبة فى كتاب صفة العرش والحاكم فى مستدركه وقال انه على شرط الشيخين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكرسى موضع القدمين والعرش لايقدر قدره الا الله تعالى وقد روى مرفوعا والصواب وقفه على الحبر ولا يخفى ان مثل هذا لايعرف الا بالسماع فالموقوف فيه كالمرفوع وقيل العرش كناية عن الملك والسلطان وتعقب ذلك البعض بانه تحريف لكلام الله تعالى وكيف يصنع قائل ذلك بقوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) أيقول ويحمل ملكه تعالى يومئذ ثمانية وقوله عليه الصلاة والسلام (فاذا انا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش) أيقول آخذ بقائمة من قوائم الملك وكلا القولين لا يقولهما من له أدنى ذوق اى كل من القول ان العرش هو الفلك الاطلس والقول بانه الملك لايقوله من له ادنى ذوق وكذا يقال فى اهتز عرش الرحمن الحديث اهتز ملك الرحمن وفيما رواه البخارى وغيره عن ابى هريرة مرفوعا لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش رحمتى سبقت غضبى فهو عنده سبحانه فوق الملك والسلطان وهذا كذينك القولين والاستواء على الشئ جاء بمعنى الارتفاع والعلو عليه وبمعنى الاستقرار كما فى قوله تعالى (واستوت على الجودى) (ولتستووا على ظهوره) وحيث كان ظاهر ذلك مستحيلا عليه تعالى قيل الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء وتعقب بأن الاستيلاء ايضا معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك محال فى حقه تعالى وأيضا انما يقال استولى فلان على كذا اذا كان له منازع ينازعه وهو فى حقه تعالى محال وأيضا انما يقال ذلك اذا كان المستولى عليه موجودا قبل والعرش انما حدث بتخليقه تعالى وتكوينه سبحانه وأيضا الاستيلاء واحد بالنسبة لجميع المخلوقات فلايبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة واجاب الامام الرازى بانه اذا فسر الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية ولايخفى حال هذا الجواب على المنصف وقال الزمخشرى لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لايحصل الامع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على العرش يريدون ملك وان لم يقعد على العرش ألبتة وانما عبروا عن حصول الملك بذلك لانه اشرح وابسط وأدل على صورة الامر ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة بمعنى انه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين الا فيما قلت حتى ان من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد راسا قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم جواد * ومنه قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله) الآية عنوا الوصف بالبخل ورد الله عليهم بانه جل جلاله جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط اه وتعقبه الرازى بما ملخصه ان ذلك فتح لباب التأويل فى القرآن ولو فتح لانفتحت تأويلات الباطنية فى قوله تعالى (اخلع نعليك) وقوله تعالى (يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) ثم قال بل القانون انه يجب حمل كل لفظ ورد فى القرآن على حقيقته الا اذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه وليت من لم يعرف شيئا لم يخض فيه اه قال الالوسى ولايخفى عليك

انه لا يلزم من فتح الباب فى هذه الآية انفتاح تأويلات الباطنية فيما ذكر من الآيات اذ لا داعى لها هنالك والداعى للتأويل بما ذكره الزمخشرى قوى عنده ولعله الفرار من لزوم المحال مع رعاية جزالة المعنى فان ما اختاره اجزل من معنى الاستيلاء سواء كان معنى حقيقيا للاستواء كما هو ظاهر كلام الصحاح والقاموس وغيرهما أو مجازيا كما هو ظاهر جعلهم الحمل عليه تأويلا انتهى وقد اطال الالوسى فيما يتعلق بهذه الآية بكلام ينبغى لكل طالب علم أن يطلع عليه ليعلم غثه من سمينه وماله وعليه ولولا الطول وخروجه عن غرضنا لوفيناه حقه

فانظر هنا كيف قالوا ان العرش فى اللغة سرير الملك وفى الشرع سرير له قوائم وقد علمت ان صاحب القاموس وغيره صرح بان معناه الملك وقد جعلوا القول بان العرش هو الفلك الاعظم الاطلس خارجا عن الذوق كما جعلوا القول بان العرش هو الملك كذلك وقول ذلك القائل فيما يتعلق بالاول صحيح اذ لا مساغ فى اللغة أو الشرع الى جعل العرش فى القرآن والسنة بمعنى الفلك المذكور وأما القول بانه بمعنى الملك فقد قيل انه معناه لغة وكل ما اعترض به عليه مبنى على ارادة الحقيقة من الاخذ بالقوائم ومن الاهتزاز ومن كون الكتاب عنده فوق العرش ولو أولت هذه الالفاظ بما يناسب الملك الذى هو بمعنى الخلق لاندفعت تلك الاعتراضات وباب التأويل أوسع من دائرة العرش

وقال الالوسى وغيره فى تفسير قوله تعالى من سورة الحاقة (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) أى ويحمل عرش ربك فوق الملائكة الذين على ارجاء السماء أى جوانب السماء حين تشققها وانفطارها اوفوق العوالم كلهم كما قيل بذلك أو الضمير يعود على الملائكة الثمانية الحاملين له أى يحمل عرش ربك فوق ظهورهم أو فوق رؤسهم يومئذ ثمانية واعتبار الظهور بما اخرج الترمذى وأبو داود وابن ماجه عن العباس بن عبد المطلب فى حديث وفوق ذلك ثمانية أوعال بين اظلافهن واوراكهن ما بين سماء الى سماء ثم فوق ظهورهن العرش بين أسفله واعلاه مثل ما بين السماء الى السماء والمراد بالاوعال فيه ملائكة على صورة الاوعال كما قال ابن الاثير وغيره وهى جمع وعل تيس الجبل واستدل به على ان المراد ثمانية أشخاص والاخبار الدالة على ذلك كثيرة الا ان فيها تدافعا من حيث دلالة بعضها على ان بعضهم على صورة انسان وبعضهم على صورة الاسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر ودلالة بعض آخر على ان لكل واحد منهم اربعة أوجه وجه ثور ووجه نسر ووجه أسد ووجه انسان وفيه لكل واحد اربعة أجنحة اما جناحان فعلى وجهه مخافة من ان ينظر الى العرش فيصعق واما جناحان فيطير بهما وابو حيان لم يقل بصحة ثبوت ذلك حيث قال ذكروا فى صفات هؤلاء الثمانية اشكالا متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحا * واخرج عبد بن حميد عن ابن زيد عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يحمله اليوم اربعة ويوم القيامة ثمانية واخرج عنه ابن ابى حاتم انه لم يسم من حملة العرش الا اسرافيل عليه السلام قال وميكائيل عليه السلام ليس من حملة العرش وعليه فمن زعم انه وجبريل وعزرائيل عليهم السلام من جملة حملته يلزمه اثبات ذلك بخبر يعول عليه وعن شهر بن حوشب اربعة منهم يقولون سبحانك الله وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ثم ساق بعض الاحاديث التى قدمناها فيما يقول هؤلاء الثمانية ثم بعد أن أطالوا قالوا ومنهم الالوسى ان اكثر الاخبار فى هذا الباب لا يعول عليه واختلف النقل فى انهم ثمانية صفوف أو ثمانية اشخاص

قال الالوسى والظاهر المؤيد ببعض الاخبار المصححة انهم ثمانية أشخاص وأيا كان فالظاهر أن هناك حملا على الحقيقة واليه ذهب محى الدين قدس سره قال ان الله تعالى ملائكة يحملون العرش الذى هو السرير على كواهلهم وهم اليوم أربعة وغدا يكونون ثمانية لاجل الحمل الى ارض المحشر وله قدس سره فى الباب الثالث عشر من فتوحاته كلام واسع فى حملة العرش لاسيما على تفسيره بالملك فليرجع اليه من اتسع كرسى ذهنه لفهم

كلامه وجوز أن يكون ذلك تمثيلا لعظمته عز وجل بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام فالمراد تجليه عز وجل بصفة العظمة اهـ

وقال الالوسى وغيره فى تفسير قوله تعالى من سورة البروج (ذو العرش المجيد) أى صاحبه والمراد مالكه أو خالقه وهو أعظم المخلوقات وعن على كرم الله وجهه لو جمعت مياه الدنيا ومسح بها سطح العرش الذى يلينا ما استوعب منه الا قليلا وجاء فى الاخبار من عظمته ما يبهر العقول وقال القفال ذو العرش ذو الملك والسلطان كانه جعل العرش بمعنى الملك بطريق الكناية والتجوز وجوز أن يبقى العرش على حقيقته ويراد بذى العرش الملك لان ذا العرش لا يكون الا ملكا اهـ

هذا ما أمكن جمعه من مقال هؤلاء المفسرين فى معنى العرش والذى يؤخذ منه صريحا كما قدمناه ان له معنى لغويا ومعنى شرعيا فمعناه اللغوى سرير الملك أو الملك نفسه ومعناه الشرعى سرير له قوائم تحمله أربعة ملائكة اليوم وثمانية يوم المحشر وبعد أن جزموا بهذه اضطربت كلمتهم فى المراد من لفظ العرش الواقع فى القرآن والحديث فتارة يحملونه على السرير وتارة يحملونه على الملك وتارة يحملونه على الفلك الاعظم المحيط بالعالم المحدد له على رأى الفلاسفة وقال أبو مسلم المراد منه البناء واستدل على ذلك بالآيتين اللتين قدمناهما عنه وهذا المعنى أيضا لغوى فتلخص أن العرش اما البناء وأما الملك وأما السرير ذو القوائم المحمول على الملائكة وان هذا الاخير هو معناه الشرعى وانه لم يقل أحد من أهل اللغة ولا من أهل الشرع ان معنى العرش هو الفلك الاطلس اما اللغة فواضح واما إطلاقه شرعا على هذا الفلك فهو موقوف على نقل صحيح يدل على أن الشارع استعمل لفظ العرش فيه ودون ذلك أن تسكن الكواكب فى أفلاكها أو أن تنفطر السماء وقد قدمنا لك القانون فى ذلك عن الرازى وهو قانون متفق عليه وذلك أنه لا يجوز أن يحمل لفظ ورد فى القرآن على غير حقيقته الا بدليل وحقيقته اما شرعية وهى التى يجب حمل اللفظ عليها إن لم يوجد دليل يقتضى الانصراف عنها لانه المعنى المراد فى اصطلاح التخاطب عنده وإما لغوية ويجب حمل اللفظ عليها ان لم يمكن الحمل على الحقيقة الشرعية وما قيل فى القرآن يقال فى الحديث وعلى ذلك يجب فى كل موضع فى القرآن أو الحديث حمل لفظ العرش فيه على ما يناسبه ففى المواضع التى جاء فيها ذكر القوائم وكبر الجسم وما أشبه ذلك يحمل على السرير وبعد ذلك إما أن يترك الكلام على ظاهره مع التنزيه ويفوض المعنى المراد الى الله تعالى وإما أن يؤول بما يليق به تعالى وأما فى مثل قوله استوى على العرش أو على العرش استوى فيحمل على الملك واما فى نحو ذو العرش فيحمل على السرير ذى القوائم ويجوز حمله على الملك أيضا وعلى كل حال لا يجوز حمله على ما حمله عليه كثير من المفسرين ومنهم القاضى البيضاوى والمفتى أبو السعود وانه فلك الافلاك المحدد خصوصا فى قوله تعالى وكان عرشه على الماء فان فى هذه الاية اما أن يحمل على الملك أو على البناء

وانى لأعجب غاية العجب من كل من القاضى البيضاوى والامام الرازى والمفتى أبى السعود ومن حذا حذوهم كالالوسى كيف يخالفون ما قرروه غير مرة فى معنى العرش لغة وشرعا ويحملونه فى كلام الله تعالى على ما قاله الفلاسفة بعد أن سمعت من الالوسى وغيره من أن كون العرش هو ذلك الفلك لم يدل عليه كتاب ولا سنة وانه مخالف لما عليه المحدثون وسلف الامة ومع ذلك فالقول بوجود هذا الفلك على الوجه الذى قالوه هو مذهب حكماء اليونان وعلماء الهيئة المتقدمين وتبعهم من تبعهم من فلاسفة الاسلام وقد بين علماء الهيئة اليوم بطلان القول بهذا الفلك بل بطلان القول بان الافلاك ومنها هذا الفلك متحركة وأثبتوا أن المتحرك إنما هى الكواكب فى أفلاكها التى هى مداراتها وأن تلك المدارات ساكنة لا حركة لها أصلا وهذا ما يشهد له ظواهر الآيات القرآنية والآثار الصحيحة ودل عليه الاكتشاف الحديث بواسطة النظارات المعظمة وقد قدمنا عن الالوسى وغيره أنه قال

إن دعوى ان هنالك فلكا أطلس ليس فيه كوكب لم تثبت لغاية الآن ولا تثبت الى يوم القيامة ثم كون العرش هو السرير ذو القوائم لا يمنع من أنه كروى مستدير محيط بالسموات فان كون الارض كرة ثابت بالادلة القاطعة وكون السموات محيطة بها ثابت بالمشاهدة من شروق الشمس والقمر من المشرق وغروبهما من الغرب وعودهما الى الشروق من المشرق وهكذا فى كل أربع وعشرين ساعة وهكذا سائر الكواكب فى السموات ومتى كان كذلك والعرش فوقها بنص الاحاديث الصحيحة فيكون محيطا بها أيضا فيكون كرة وظاهر الحديث الذى جاء أن الارض بالنسبة الى السماء الدنيا كحلقة ملقاة فى فلاة الى آخره يقتضى ذلك أيضا ووجود القوايم فيه لا يخل بذلك كوجود الجبال بالارض وفى القمر وغيرهما من الكواكب التى اشتملت على جبال وأنهر وبحار

ولنرجع الى تتمة الكلام على قوله تعالى وكان عرشه على الماء فنقول إن كلام مجاهد الذى قدمناه انما يقتضى فقط أن عرشه سبحانه كان على الماء قبل خلق السموات والارض فما قاله أبو السعود من أن الآية تفيد أنه لم يكن تحت العرش الا الماء بدون تعرض لما عدا ذلك من أن بينهما فرجة أوكان موضوعا على متنه حق لا ريب فيه وان كنا لا نوافقه على ان المراد بالعرش فلك الافلاك الذى يقول به حكماء اليونان وعلماء الهيئة منهم المسماة بالهيئة القديمة وما أخرجه الطيالسى وأحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الاسماء والصفات وغيرهم عن أبى رزين العقيلى (قال قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والارض قال كان فى عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء) فهو لا يفيد أكثر مما أفادته الآية الكريمة من أن الله تعالى خلق عرشه على الماء أى خلقه فوق الماء بدون تعرض لما عدا ذلك من أن بينهما فرجة أوكان موضوعا على متنه كما أن الآية وهذا الخبر لا يتعرضان لكون الماء مخلوقا قبل العرش أو معه بل يجوز أن يكون خلقهما معا وما ورد أيضا فى بعض الآثار من أن العرش كان قبل خلق السموات والارض على الماء ثم إنه تعالى أحدث فى الماء اضطرابا فأزبد فارتفع منه دخان وبقى الزبد على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فصار أرضا وخلق من ذلك الدخان السموات والى ذلك يشير قوله سبحانه (ثم استوى الى السماء وهى دخان) قلنا ان ما ورد فى هذا الاثر وأشارت اليه الآية من كون الدخان المرتفع من الماء مادة للسموات فهو مصروف عن ظاهره كما صرح به الالوسى وغيره لان الدخان أجزاء نارية خالطتها اجزاء صغار أرضية تلطفت بالحرارة ولا تمايز بينهما بالحس لغاية الصغر فقبل خلق السموات والارض وما بينهما لم تكن نار ولا أرض فمن أين يتولد الدخان وكذلك أن أريد بالدخان البخار لانه أجزاء هوائية مازجتها أجزاء صغار مائية تلطفت بالحرارة بحيث لا تمايز بينهما بالحس أيضا وحيث لا هواء ولا بخار* ولذلك قال البيضاوى فى تفسيره وهى دخان أى امر ظلمانى ولعله أراد به مادتها أو الاجزاء المتصغرة التى ركبت منها لكن قد يقال كما قاله بعض المحققين انه لا مانع من أن يخلق الله من الماء الاجرام السماوية والارضية بل وكل شىء ويجوز أن يحيل الله تعالى بعض الماء الى أجزاء نارية وبعضها الى أجزاء أرضية ويجعل المجموع دخانا كما يجوز أن يحيل بعض أجزاء الماء هوائية فتمازج أجزاء صغارا مائية متطلفة بحرارة يخلقها الله تعالى حيث شاء فيكون البخار* كيف وقد جاء فى الاثر عن وهب بن منبه انه جل شأنه قبض قبضة من الماء ثم فتح القبضة فارتفع الدخان فقضاهن سبع سموات فى يومين* وادعى بعض العلماء أن الماء ليس هو الماء العنصرى وأن القول بذلك من بعض الظن إذ ذاك إنما يخلق بعد خلق الارض فكيف يتصور أن يكون العرش الذى خلق قبل السموات والارض عليه وانما هو الماء الطبيعى النورى العمائى الذى تكون العرش منه قال الالوسى وفيه صرف اللفظ عن ظاهره اه لكن هذا الذى قاله الالوسى لا يكفى فى ارادة الماء العنصرى فى الآية متى كان الواقع أن الماء العنصرى انما خلق بعد خلق الارض

كما قال هذا البعض وكذا قال الكامل بن الكمال ليس المراد من العرش تاسع الافلاك ولا من الماء أحد العناصر كما شهد بذلك شهادة صحيحة لا مرد لها ما أخرجه مسلم فى صحيحه من قوله صلى الله عليه وسلم (كان الله ولم يكن معه شىء وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء ثم خلق السموات والارض) فلا وجه للاستدلال به على امكان الخلاء وأن الماء أول حادث بل عرشه سبحانه عبارة عن قيوميته بناء على انه فى الاصل سرير الملك وهو مظهر سلطانه والماء أشارة الى صفة الحياة باعتبار أن منه كل شئ حى فمعنى وكان عرشه على الماء وكان حيا قيوما وفى لفظة على تنبيه على ترتب أحدهما على الآخر فتدبر اه

قال الالوسى ولعل وجه شهادة الخبر بذلك النفى أى نفى كون المراد من العرش تاسع الافلاك ونفى أن المراد من الماء الماء العنصرى تضمنه على تقدير الاثبات أى تضمن الخبر على تقدير اثبات أن العرش هو الفلك التاسع وأن الماء هو الماء العنصرى وانه فوق هذا الماء ما ينافى النفى فيه اى من انه سبحانه كان ولا شىء معه اذ يكون حينئذ شيئان فضلا عن شىء أى يكون معه الفلك التاسع والماء تحته والحديث اقتضى أن لا شىء أصلا معه تعالى ولا يخفى أن هذا انما يتم لو كانت الجملة الماضوية فى موضع الحال والظاهر انها كغيرها معطوفة على الجملة المستأنفة وليس فى الكلام ما يقتضى ان المعنى وكان عرشه على الماء مع وجوده تعالى بدون معية شىء له ليضطر الى حمل الماء والعرش على ما علمت من صفتيه تعالى ولا أرى فى الحديث اكثر من افادة ثبوت ما تضمنته المتعاطفات قبل خلق السموات والارض وأما ان كونه تعالى ولم يكن معه شئ وكون عرشه سبحانه على الماء وكتابته فى الذكر ما كتب كلها فى وقت واحد هو وقت وجوده تعالى الواقع بعده خلق السموات والارض بمهلة وتراخ فلا أراه وقد جاء فى بعض الروايات عطف الخلق على ما قبله بالواو كسائر المعطوفات* اخرج احمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن عمران بن حصين قال (قال اهل اليمن يارسول الله اخبرنا عن اول هذا الامر كيف كان قال كان الله قبل كل شئ وكان عرشه على الماء وكتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شئ وخلق السموات والارض الخبر ثم انه لا يتم امر الشهادة بمجرد ما تقدم بل لا بد أيضا من حمل الكتابة فى الذكر على التقدير ونفى أن يكون هنالك كتابة ومكتوب فيه حسبما يتبادر منهما ويلتزم هذا فى الخبر الثانى أيضا ومع ذلك يعكر على القول بكون زمن التقدير متحدا كزمن قيوميته وحياته تبارك وتعالى مع زمن وجوده سبحانه ما اخرجه مسلم والترمذى والبيهقى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء لان اجزاء الزمان الموهوم الفاصل بين زمان وجوده تعالى ووجود صفاته وزمان وجود الخلق غير متناهية فكيف تقدر بخمسين الف سنة وضربها فى نفسها وضرب الحاصل من ذلك بنفسه الف الف مرة اقل قليل بل لا شىء يذكر بالنسبة الى غير المتناهى ويعارض هذه الشهادة أيضا ما تقدم فى حديث أبى رزين العقيلى من قوله صلى الله عليه وسلم وخلق عرشه على الماء فانه نص فى ان العرش مخلوق ولا يجوز أن تكون القيومية مخلوقة وكذا ما روى عن كعب من انه سبحانه خلق ياقوتة خضراء فنظر اليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وجاء حديث كون الماء على متن الريح عن ابن عباس وقد اخرج ذلك عنه ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى وغيرهم واباء ما ذكر عن كون الماء بمعنى صفة الحياة له تعالى ظاهر ومثله ما اخرجه ابن ابى حاتم وابو الشيخ عن الربيع بن انس انه قال كان عرشه سبحانه على الماء فلما خلق السموات والارض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفا تحت العرش وهو البحر المسجور فلا تقطر منه قطرة حتى ينفخ فى الصور فينزل منه مثل الطل فتنبت منه الاجسام وجعل النصف الآخر تحت الارض السفلى ولعل وجه الامر بالتدبر فى كلام هذا الفاضل الأشارة الى ما ذكرنا

وبالجملة لاشك ان المتبادر من الماء ماهو احد العناصر ومن العرش الجسم الذى جاء فى الاخبار من وصفه مايبهر العقول وشهادة الخبر السابق مع كونها شهادة نفى عارضتها شهادة اثبات غير نص فى المطلوب كما علمت ومن كون العرش على الماء ما يعم الشقين كونه موضوعا على متنه مماسا له وكونه فوقه من غير أن يكون بينهما ما يماسهما وتخصيصه بالشق الثانى مما لايتم له دليل ولايصفو عن القال والقيل وان الآية لاتصلح دليلا على كون الماء أول حادث بعد العرش ومن رجع الى الاخبار المعول عليها رأى بعضها كخبر أبى رزين الذى حسنه الترمذى ظاهرا فى أن الماء قبل العرش * وقصارى مايقال فى هذا المقام أن الحق مع شيخ الاسلام وان نصرة القاضى وان كان ناصر الدين نصرة خارجة عن الطريق المستبين نعم قد يقال ان البيضاوى انما ذكر أنه استدل بالآية على كذا وكذا ولم يدع أن فيها دليلا على ذلك فما يتوجه من الاعتراضات انما يتوجه على المستدل دونه وكأن من وجه اليه ذلك ادعى ارتضاءه للاستدلال بدليل ما وطأ له من المقال اهـ كلام الالوسى

قلت قال فى عمدة القارى على صحيح البخارى فى قوله تعالى وكان عرشه على الماء دلالة على أن العرش والماء كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقا قبل السموات والارض ولم يكن تحت العرش إذ ذاك الا الماء فان قلت اذا كان العرش والماء مخلوقين أولا فايهما أسبق فى الخلق قلت الماء لما روى أحمد والترمذى وصححاه من حديث أبى رزين العقيلى مرفوعا ان الماء خلق قبل العرش وروى السدى فى تفسيره باسانيد متعددة ان الله لم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء فان قلت روى احمد والترمذى وصححاه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا أول ماخلق القلم قال اكتب فجرى بما هو كائن الى يوم القيامة واختاره الحسن وعطاء ومجاهد واليه ذهب ابن جرير وابن الجوزى وحكى ابن جرير عن محمد بن اسحاق أنه قال أول ماخلق الله النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا اسود مظلما وجعل النور نهارا أبيض مبصرا وقيل أول ماخلق الله نور محمد صلى الله عليه وسلم قلت التوفيق بين هذه الروايات أن الاولية نسبية وكل شىء قيل فيه أول فهو بالنسبة لما بعده اهـ وبيان ذلك أن المراد بالقلم ونور محمد صلى الله عليه وسلم والعقل كما ورد أن أول ماخلق الله العقل شىء واحد بالذات تعددت اسماؤه بالاعتبار فباعتبار أن العالم كله يسمى كلمات كما قال تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر الآية) وقال (ولو أن مافى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله) وانما سمى بذلك لانه مخلوق بكلمة كن ولانه فى ترتيبه ودلالته يشبه الكلمات المرتبة التى تدل على معانيها افرادا وتركيبا ولما ثبت بطريق البرهان العقلى أنه يلزم عقلا تحاشيا عن المحال أن يكون أول مخلوق يصدر عن الواجب الاقدس امكانه كاف فى صدوره عنه جل وعلا وقبوله التأثير لان من الضروريات العقلية اشتراط القوة الفاعلية فى المؤثر والقوة القابلية فى الأثر فوجب أن يكون امكان أول صادر كافيا فى قبوله التأثير من الفاعل سبحانه ولو لم يكن امكانه كافيا فى قبول التأثر لكان محتاجا فى كونه قابلا الى شىء آخر فلا يكون أولا والمفروض أنه أول فثبت أنه لايحتاج فى صدوره عن الواجب الا امكانه الذى هو وصف ذاتى له وسمى هذا الصادر الاول قلما لانه به كانت تلك الكلمات وسمى عقلا لانه أول من عقل مولاه وموجده وعلمه وسمى نورا لانه بوجوده أفيض الوجود الذى هو نور على الكائنات فخرجت من ظلمات العدم الى نور الوجود وقالوا ان هذا النور هو نور محمد صلى الله عليه وسلم فهو أول صادر ومخلوق على الاطلاق وأما الماء فهو أول العالم المادى الذى يحتاج فى خلقه الى المادة لنقص فيه عن قبول الاثر بالوسائط وانظر لنفسك هل كنت إنسانا قبل ان تكون اطوارك السابقة وموادك التى خلقت منها وصرت دما ولحما وعظاما وعروقا فكل العالم المادى الذى خلق فى جوف فلك القمر مخلوق من الماء وهو العالم الجسمانى الكثيف المظلل المشار اليه بقوله تعالى (أولم يروا الى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله) الآية بناء على القول بان من فى قوله من شىء ابتدائية كما هو بعض الوجوه فى الآية قال كعب الاحبار ان الله خلق جوهرة ونظر اليها نظر

الهيبة فسالت سيلا ناشفا فامتنوعا فنظر الله اليها فسالت سيلا نامائيا اهـ قال الحكماء أى ان هذا السائل مائى نارى وهو الذى تكونت منه كرة الارض وأما النور والظلمة فهما أول الكائنات بعد خلق السموات والارض فان النور الذى هو النهار والظلمة التى هى الليل انما يكونان من ظهور الشمس على سطح الارض فوقها وغروبها عن سطحها المقابل للسطح الذى أشرقت عليه فيقع عليه ظل الارض فيملأ هواءه فيظلم على مابيناه من قبل فهما انما يكونان بعد خلق الارض والشمس وسائر الكواكب هذا ماقالوه فى الماء وكونه مخلوقا قبل العرش وما قلنا بيانا للتوفيق الذى اشار اليه فى عمدة القارى * وأما العرش فانت اذا رجعت الى ماقلناه فى معناه لغة وشرعا نقلا عنهم تعلم ان ماقاله الكامل بن الكمال من أنه ليس المراد من العرش تاسع الافلاك حق لاشبهة فيه وان كل ماقاله الالوسى لايدل على ثبوت خلاف ماينفيه هذا الفاضل الكامل وغاية مايدل عليه ماقاله الالوسى ان العرش مخلوق وانه لايجوز أن يكون المراد منه القيومية التى هى من صفات الله تعالى لكن اذا جرينا على ماقدمناه عن القاموس والصحاح من أن العرش معناه لغة الملك وعلى ماقاله محيى الدين من تفسير العرش بالملك وماقاله القفال من أن ذو العرش معناه ذو الملك والسلطان كان معنى العرش صفة من صفات الله تعالى وهذا الفاضل الكامل انما يقول ان هذا هو المراد فى قوله تعالى وكان عرشه على الماء وان الماء أشارة الى صفة الحياة وان معنى وكان عرشه على الماء وكان حيا قيوما ولا ينكر هذا الفاضل الكامل أن للعرش معنى آخر بحسب الاصل وهو سرير الملك وهو من معانيه لغة أيضا وهو معناه الشرعى بعد تقييده بكونه جسما عظيما ذا قوائم تحمله الملائكة والعرش بهذا المعنى يكون مخلوقا وعليه تحمل الاحاديث التى تدل على ذلك الا ترى الى قول ذلك الفاضل الكامل بل عرشه سبحانه عبارة عن قيوميته بناء على أنه فى الاصل سرير الملك وهو مظهر سلطانه فهذا تصريح من ذلك الفاضل بانه يعترف بان الاصل فى معنى لفظ العرش انه سرير الملك وان المعنى الذى اختاره معنى كنائى أريد هنا بناء على المعنى الاصلى على أن حديث ابى رزين العقيلى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى جواب السؤال كان فى عماء ماتحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء ومعنى أنه كان فى عماء أنه كان فى أزله الضيق الذى لايسع غير الواجب جل شأنه ويستحيل أن يوجد فيه شىء مما عداه ولفظ كان فى هذا الموضع وأمثاله مجردة عن افادة الزمان رأسا كيف وهى مسندة الى الواجب المتعالى عن الزمان والمكان وخالقهما وأن قوله فى حديث مسلم وكان عرشه على الماء وماعطف عليه لم يقصد منه الا مجرد الاخبار بكون هذه الاشياء على الوجه الذى قاله فالمعنى ووجد عرشه على الماء وكتابة كل شىء فى الذكر ثم خلق السموات والارض فليس معنا هنا جمل ماضوية ولاحالية ولم يقل أحد ان كونه تعالى ولم يكن معه شىء وكون عرشه على الماء الى آخره فى وقت واحد هو وقت وجوده تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولايقصده هذا الفاضل الكامل ولاغيره كما ان عطف الخلق على ماقبله بالواو كسائر المعطوفات كما فى الحديث المروى عن عمران بن حصين لايقتضى ان الخلق مع ماقبله فى وقت واحد فان الواو لاتدل الا على مجرد التشريك وحينئذ يجب حمل هذه الرواية على الرواية التى جاء فيها العطف بثم على أن جميع ماقاله مبنى على أن المقصود من هذه الجمل افادة الازمنة وليس كذلك وفى صحيح البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فاتاه ناس من تميم فقال اقبلوا البشرى يابنى تميم فقالوا قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل عليه اناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى ياأهل اليمن اذ لم يقبلها بنو تميم قالوا اقبلنا يارسول الله قالوا جئنا لنسألك عن أول هذا الامر كيف كان قال كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والارض فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن حصين فانطلقت الحديث قال فى عمدة القارى وسيأتى فى التوحيد شىء قبله وفى رواية غير البخارى ولم يكن شىء معه ووقع فى هذا الحديث فى بعض المواضع كان الله ولاشىء معه وهو الآن على ماعليه كان

وهى زيادة ليست فى شىء من كتب الحديث نبه عليه الامام تقى الدين بن تيمية اه أى فهى مدرجة وليست من الحديث فهى بيان للمراد فى الواقع ونفس الامر ثم قال فى العمدة ايضا وكان عرشه على الماء أى ولم يكن تحته الا الماء وهو دليل على ان العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والارض * فان قلت بين هذه الجملة وما قبلها منافاة ظاهرة لان هذه الجملة تدل على وجود العرش والجملة التى قبلها تدل على انه لم يكن شىء قلت هو من باب الاخبار عن حصول الجملتين مطلقا أو الواو بمعنى ثم * فان قلت ما الفرق بين كان فى كان الله وكان فى وكان عرشه قلت كان الاولى بمعنى الكون الازلى وكان الثانية بمعنى الحدث انتهى * ومن هذا يعلم ان معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث مسلم كان الله ولم يكن معه شىء انه كان فى ازله اى انه سبحانه هو الاول بذاته واجب الوجود لذاته لا يشاركه فى ذلك غيره مما عداه فكانه صلى الله عليه وسلم يقول للسائلين هو تعالى واجب الوجود الذى لا يصح ان يقال فى حقه اين وجد ولا متى وجد ولا كيف وجد لانه متعال عن الزمان والمكان وهو خالقهما ولا يشاركه فى ذلك احد من خلقه و يرشد الى ذلك ما ادرجوه فى هذا الحديث من تلك الزيادة اخذا مما قضت به الادلة العقلية القطعية والنقلية من انه واجب الوجود الواحد فى ازليته وأن وجود شىء مما عداه فى الازل الضيق محال وان عدم الممكنات باسرها فى هذا الازل الذى هو امتداد موهوم لا يسع الا الواجب جل شأنه واجب ذاتى لها ووجودها فيه محال ولذلك قال الصوفية ان جميع العالم ما شم رائحة الوجود ولا يشمها ابدا يريدون بهذا الوجود الوجود الازلى لان وجود شىء مما سوى الله فى الازل محال لا تتعلق به القدرة الالهية ولذلك لما سئل افلاطون لم خلق الله العالم قال لا يقال للكريم اذا فعل لم فعل فهو قد فعل ما فعل بمقتضى كرمه الذاتى فقيل له الم يكن كريما فى الازل قال ان الازل هو عدم الاولية والفعل يقتضى ان يكون له أول وما له أول لا يجتمع مع ما ليس له أول فاشار الى ان الازل بمعنى عدم افتتاح الوجود وعدم الاولية خاص به تعالى فكان فى قوله كان الله ولم يكن معه شىء ليست دالة على زمان اصلا لا ماض ولا غيره بل الملاحظ فيهما معنى الوجود بقطع النظر عن الزمان وكذلك قوله ولم يكن معه شىء ليس المراد المعية الزمانية بل المراد معية الرتبة فى الوجود وان كانت المعية الزمانية منتفية ايضا بالطريق الاولى لكن انتفاؤها لانتفاء نفس الزمان فى هذه الرتبة

والحاصل ان العرش اما ان يراد منه الملك أو نفاذ القدرة وجريان المشيئة كما ذهب اليه القفال فيكون معنى قوله تعالى ثم استوى على العرش وامثاله انه سبحانه انما استوى ملكه أى تم واستقام وخرج من القوة الى الفعل بعد خلق السموات والارض لان بخلقهما يتم نظام الكون ويخرج ما اراد الله وجوده من العالمين العلوى والسفلى من القوة الى الفعل اى انه تعالى لما خلق السموات بعد خلق الارض بان رفع سمكها فسواها واغطش ليلها واخرج ضحاها فخلق الشمس والقمر وسائر الاجرام السماوية ثم دحا الارض بان اخرج ماءها ومرعاها والجبال ارساها وجعل سبحانه بدوران الاجرام السماوية الايام والشهور والسنين وجعل السنين فصولا أربعة مختلفة وخلق المعادن والنبات والحيوان ففى هذا الوقت قد حصل وجود هذه المخلوقات وتم ملكه وخلقه على وفق ما قدره فى علمه ازلا

فالعرش عبارة عن الملك والملك عبارة عن وجود المخلوقات على الوجه الذى يكون به عمارة هذه الدار بالعمل فكان مما لا شك فيه ان تمام الملك على هذا الوجه انما كان بعد خلق السموات والارض فلا جرم فى ان يصح ادخال الحرف اى لفظ ثم الدال على التراخى على الاستواء فيقال ثم استوى على العرش وعلى وفقه يكون معنى قوله وكان عرشه على الماء بعد قوله وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء اى ان عرشه وملكه لم يكن قبل خلق السموات والارض تاما على الوجه الذى قدره فى علمه بل كان قاصرا ومحتويا على الماء فقط على معنى انه لم يخرج قبل خلق السموات والارض من العالم المادى من القوة الى الفعل الا الماء

واما بعد خلق السموات والارض على الوجه الذى فصلناه اخذا من الآيات الاخرى كما اشرنا اليه سابقا فقد تم الملك واستقام على جميع العالم المادى ونفذت قدرته على وفق علمه وارادته وعلى هذا يكون كل من الآيات التى جاء فيها ثم استوى على العرش والآية التى جاء فيها وكان عرشه على الماء متعلقة بالاخرى فاحداهما وهى الآية التى فيها وكان عرشه على الماء سيقت لبيان ما كان عليه ملكه قبل خلق السموات والارض والآيات التى جاء فيها ثم استوى على العرش انما سيقت لبيان ما صار اليه الملك بعد خلقهما على الوجه الذى قلناه وعلى هذا لا يكون فى الآية ادنى دلالة على خلق الماء قبل العرش بمعنى السرير أو بعده أو معه بل تكون هذه الآية فى واد وموضوع الآيات والاحاديث التى جاءت متعلقة بالعرش بمعنى السرير ذى القوائم العظيم المحمول على الملائكة فى واد آخر فكان موضوع كل منهما مخالفا الموضوع الاخرى وقد علمت مما رواه السدى فى تفسيره بطرق متعددة ان الله لم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء وعلمت ما وفقنا به بين هذا و بين غيره من أن الماء هو أول مخلوق فى العالم المادى وان هذا الماء هو السائل النارى المائى اذا علمت ذلك علمت ان هذا الماء ليس هو الماء العنصرى كما قاله بعض الافاضل وقاله الكامل ابن الكمال ايضا لان الماء العنصرى هو احد الاركان الاربعة التى هى النار والهواء والماء والتراب وكلها من توابع الارض لانها مبادىء مواد عالم الكون والفساد الذى هو عالم المواليد الثلاثة الموجود فى جوف فلك القمر وتقله الارض وتظله السماء وقد قال الالوسى نفسه فى تفسير قوله تعالى (وهى دخان) اى أمر ظلمانى ولعله اريد به مادتها التى منها تركبت * وقيل ان عرشه كان قبل خلق السموات والارض على الماء فاحدث الله تعالى فى الماء سخونة فارتفع زبد ودخان فاما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق الله تعالى فيه اليبوسة واحدث سبحانه منه الارض واما الدخان فارتفع وعلا فخلق تعالى منه السموات وقيل كان هنالك ياقوتة حمراء فنظر سبحانه اليها بعين الجلال فذابت وصارت ماء فازبد وارتفع منه دخان فكان ما كان وأيا ما كان فليس الدخان كائنا من النار التى هى احدى العناصر لانها من توابع الارض ولم تكن موجودة اذ ذاك على قول كما ستعرف وعلى القول بالوجود لم يذهب احد الى تكون ذلك من النار

والحق الذى ينبغى ان لا يلتفت الى ما سواه ان كرة النار التى يزعمها الفلاسفة المتقدمون ووافقهم كثير من الناس عليها ليست موجودة ولا توقف لحدوث الشهب على وجودها كما يظهر لذى ذهن ثاقب اه * ثم قال بعد ذلك روى عن الحسن انه تعالى خلق الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهرة عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهرة فى موضعها و بسط منها الارض وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) الآية وجعله بعضهم دليلا على تأخر دحو الارض عن خلق السماء وفى الارشاد انه ليس نصا فى ذلك فان بسط الارض معطوف على اصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة فى ذلك على الترتيب قطعا وفى الكشف انه يدل على ان كون السماء دخانا سابق على دحو الارض وتسويتها بل ظاهر قوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهى دخان) يدل على ذلك وايجاد الجوهرة النورية والنظر اليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال وذوبها وامتياز لطيفها عن كثيفها وصعود المادة الدخانية اللطيفة و بقاء الكثيف هذا كله سابق على الايام الستة وثبت فى الخبر الصحيح ولا ينافى الآيات اه ومن هذا تعلم ان الصحيح ان الله خلق جوهرة نورانية فنظر اليها فذابت ماء وامتاز لطيفها من كثيفها الى آخر ما قال فهذا الماء الذى كان عليه العرش هو الذى ذاب من هذه الجوهرة النورانية فهو ماء نورانى ايضا ولذلك قالوا فيه انه نارى مائى ابيض * ومن المعلوم ان هذا الماء كان قبل خلق الارض والسموات وما بينهما فى ستة أيام فليس هو الماء العنصرى الذى هو كغيره من العناصر من توابع الارض فلا وجود لشىء منها الا بعد وجود الارض والسماء ومنها تتكون المواليد و يتم خلق ما بين السموات والارض بعد خلقهما و يكمل الملك و يصح ان يقال ثم استوى على العرش أى تم ملكه وكمل على

وفق ماقدره فى علمه وارادته قال فى كشف الاسرار القرآنية فى تفسير قوله تعالى (وانزلنا من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا الآية) قال كعب الاحبار ان الله خلق جوهرة ونظر اليها بعين الهيبة فسالت سيلانا شفافا متموجا فنظر اليها فسالت سيلانا مائيا فازبد ازبادا صافيا وأما قوله ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله فاعلم انه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء الذى تكونت منه الارض ومنها الفلزات أى المعادن اتبعه بضرب المثل الحاصل من النار أى خلق لكم الارض التى كانت دخانا ثم ماء مبيضا بياضا ناريا لخلق لكم فيها كل شىء ومنه الفلزات أى المعادن * فالنار على قسمين سائلة وغير سائلة بيان الاولى التى تركبت منها كرة الارض وهو السائل النارى المائى أى الماء المبيض بالنار بعد الاحمرار المؤثر على الاجرام المذابة فيه بقوة مساوية لقوته الانبساطية ولا يمكن حساب تلك القوة * ثم ذكر القسم الثانى من النار وهو الذى يوقد على المعادن لتذوب ولعدم تعلق غرضنا به تركناه فهذا الماء الذى كان عليه العرش هو الماء النارى الذى خلقت منه الارض أى والسماء ايضا كما يعلم مما سبق وليس هو الماء العنصرى * وبعد أن حملنا الماء على هذا الماء وبينا اختلاف موضوع قوله تعالى (وكان عرشه على الماء) وموضوع الآيات التى جاء فيها قوله تعالى (ثم استوى على العرش) يستوى ان نقول ان المراد بالعرش الملك والسلطان كما قال القفال وغيره أو نقول انه الجسم العظيم الذى هو السرير ذو القوائم فانك قد علمت ان الاقوال فى العرش ثلاثة * فابو مسلم قال هو البناء وجمهور المفسرين قالوا انه الجسم العظيم الذى هو فوق السماء وهؤلاء كما قال فى الاسرار القرآنية قالوا ان قوله ثم استوى على العرش لا يمكن أن يكون معناه انه تعالى خلقه بعد خلق السموات والارض بدليل انه تعالى قال فى آية اخرى وكان عرشه على الماء وذلك يدل على ان تكون العرش سابق على تخليق السموات والارضين بل يجب تفسير هذه الآية بوجه آخر وهو أن يكون المراد ثم يدبر الامر وهو مستو على العرش اه * فهذا يرجع الى القول بان التراخى بعد خلق السموات والارض انما هو تدبير العرش وما خلقه بعده من السموات والارضين وما بينهما ومراد الجمهور بالجسم العظيم هو السرير ذو القوائم لا الفلك الاعظم الذى يزعم الفلاسفة وجوده بالصفة التى يزعمونها * واما على ما ذهب اليه أبو مسلم فالمراد بالماء الماء المحيط بالارض فمعنى وكان عرشه على الماء وكان بناؤه على الماء على خلاف عادة البشر فان بناءهم يكون بعيدا عن الماء على أرض صلبة ومعنى ثم استوى على العرش انه تعالى بعد خلق السموات والارض وما بينهما تم بناؤه وكمل خلقه ولا يخفى أن ماقاله القفال وغيره اولى واجدر بالقبول لان معنى الآيتين عليه يكون اجزل وأبلغ وأكثر فائدة وقول الجمهور قريب منه فى الماء وان خالفه فى معنى العرش * واما قول أبى مسلم ففيه أنه تكلف هذا ماقاله المفسرون وقلناه فى مناقشاتهم وبيان الغث والسمين من أقوالهم * ونحن نذكر ما قاله الحكماء المسلمون والفلاسفة المؤمنون الصالحون من المتقدمين ليكمل البيان ويتضح الحق لمن له عينان تبصران

قال فى رسالة الكون والفساد من اخوان الصفا اعلم أيها الاخ أيدك الله وايانا بروح منه أن الاجسام التى تحت فلك القمر سبعة أجناس أربعة منها هى الامهات الكليات وهى النار والهواء والماء والارض وثلاثة هى المولدات الجزئيات وهى الحيوان والنبات والمعدن فنبدأ أولا بوصف الامهات الكليات فنقول أن الامهات كل واحدة منها مركبة من هيولى وصورة فهيولاها كلها هو الجسم وصورها هى التى بها تنفصل كل واحدة منها عن الاخرى وهى الصورة المقومة لذات كل واحدة منها ولما كانت الصورة نوعين مقومة ومتممة احتجنا الى أن نصفهما ليعرف الفرق بينهما * فنقول إن الصورة المقومة لذات الشىء هى التى إذا فارقت هيولاه بطل وجدان ذلك الشىء والصورة المتممة هى التى تبلغ الشىء الى أفضل حالاته التى يمكن البلوغ اليها واذا فارقت هيولاه لم يبطل وجدان الهيولى * مثال ذلك السكون والحركة فانهما اذا فارقا الجسم لا يبطل وجدان الجسم

واما الطول والعرض والعمق اذا فارقت الهيولى بطل وجدان الجسم * واعلم يا أخى أن كل صورة مقومة لذات الشىء تتلوها صورة متممة وكل صورة مقومة فاعلة لاخرى تابعة لها يتلو بعضها بعضا كما يتلو العدد أزواجه أفراده وأفراده أزواجه بالغا ما بلغ مثال ذلك الصورة المشاكلة فى جرم النار المقومة لذاتها هى حركة الغليان والصورة المتممة التابعة لها هى الحرارة التى يتلوها اليبوسة والتى يتلوها تماسك الاجزاء فلولا رطوبة الهواء المحيط بالنيران التى عندنا تمنعها أن تفرط فى اليبوسة فيها لتماسكت أجزاؤها وجفت كما تجف نار الصاعقة ولكن لو أصابها اليبس والجفاف لقل الانتفاع بها الذى هو الغرض الاقصى منها (قلت ولذلك كانت النار ظاهرة تقوم بجرم آخر ويتحللها الهواء دائما)

واعلم يا أخى أن الهواء جوهر شريف فيه فضائل كثيرة وخواص عجيبة من ذلك أنه يمنع النيران برطوبته أن تيبس وتجف كما يمنع الاصوات بسيلانه أن تثبت زمانا طويلا فيقل الانتفاع بها ويكثر الضرر منها وذلك أن الاصوات ليست تمكث فى الهواء الاريثما تأخذ المسامع منها حظها ثم تضمحل ولو ثبتت الاصوات فى الهواء زمانا طويلا لامتلأ الهواء من الاصوات ولعظم الضرر منها حتى لا يمكن أن يسمع ما يحتاج اليه من الكلام والاقاويل وهكذا لو يبست النيران وجفت لما سرت فى الاجسام ولم تنضجها وكانت الاشياء التى يراد نضجها تبقى فجة غليظة فانظر يا أخى وتفكر فى حكمة البارى سبحانه اذ جعل النيران بحسب المستعمل لها فاذا استغنى عنها ردها الى العدم باسهل السعى فلو أنها بقيت بحالها لعظم الضرر منها وقل الانتفاع بها * ومن الصور المتممة لذات النار النور ويتلوها الاشراق وقد اجتمعت فى جرم النار عدة صور كلها متممة لها وهى الحركة والحرارة واليبوسة واللطافة والنور وهى بكل صورة تفعل فعلا غير الذى تفعله بالاخرى وذلك أنها بالحركة تغلى الاجسام وبالحرارة تسخن وباليبوسة تنشف وباللطافة تنفذ فى الاجسام وبالنور تضىء ما حولها وبالحرارة والحركة تحيل الاجسام الى ذاتها

وأما الصورة المقومة لذات الأرض فهو السكون الذى هو عند الغليان والثانية المتممة وهى البرودة والتالية للبرودة اليبوسة والتالية لها تماسك أجزائها ومن الصور المتممة لها أيضا غلظة جوهرها ومن غلظة جوهرها تماسك اجزائها ومن تماسك أجزائها ثبات الكائنات على ظهرها من الحيوان والنبات والمعادن (قلت وكل ذلك يأتى سواء قلنا أن الارض ساكنة لا تتحرك كما يقول هؤلاء القوم أو قلنا انها متحركة ودائرة بحركتين على وجه ما سبق كما يقول أهل الهيئة اليوم)

ثم قال واعلم يا أخى أن الصورة المقومة للماء والهواء كليهما الرطوبة المتولدة من امتزاج الاجزاء المتحركة والساكنة جميعا وذلك أن اليبوسة لما كانت متولدة من شدة حركة اجزاء الهيولى كلها أو من شدة سكونها كلها كما بينا قبل (أى فى النار والارض فان يبوسة النار من حركة أجزاء هيولاها كلها ويبوسة الارض من سكون أجزاء هيولاها كلها وقد علمت أن معنى السكون هنا هو عدم الغليان لا عدم الحركة للاجزاء المتماسكة فلا ينافى هذا القول ما قاله علماء الهيئة اليوم من أن الارض متحركة) وكانت الرطوبة ضدها دلت على أنها متولدة من مزاج الاجزاء المتحركة والساكنة معا

وأما الصورة المتممة للماء فهى كثرة الاجزاء الساكنة الغليظة فيه وقلة الاجزاء المتحركة اللطيفة ولما كانت الصورة المتممة لذات الماء كثرة الاجزاء الغليظة فيه وقلة الاجزاء المتحركة اللطيفة صار مشاكلا للارض فى البرودة وصار مركزه مما يلى مركز الارض

واما الصور المتممة لذات الهواء فهى كثرة الاجزاء اللطيفة المتحركة وقلة الاجزاء الغليظة الساكنة ولما كانت الصورة المتممة لذات الهواء كثرة الاجزاء اللطيفة المتحركة وقلة الاجزاء الغليظة الساكنة صار

مشا كلا للنار في الحرارة وصار مركزه ممايلي مركز النار اه وهذا كله يأتي سواء قلنا بوجود كرة النار كما يقول هؤلاء أو قلنا بعدم وجودها كما هو الحق وعليه علماء الهيئة اليوم والذي يظهر من تتبع كلام هؤلاء القدماء ان مرادهم بكرة النار طبقة الهواء التي اشتدت حرارتها بواسطة قربها من حركة الكواكب واشعتها حتى صارت نارا وانما كان هذا الذي فصلناه في الصور المقومة والمتممة في الامهات الاربعة حاصلا مطلقا لان الغرض منه ان الارض أشد كثافة وغلظا مما عداها ويليها في ذلك الماء ثم الهواء ثم النار وان كان الهواء أقوى الاجسام فعلا ثم قال في تلك الرسالة * واعلم يا أخي ان هذه الاركان الاربعة يستحيل بعضها الى بعض فيصير الماء تارة هواء وتارة ارضا وهكذا ايضا حكم الهواء فانه تارة يصير ماء وتارة نارا وذلك أن النار اذا طفئت وخمدت صارت هواء والهواء اذا غلظ صار ماء والماء اذا جمد صار أرضا كذلك الارض اذا انحلت ولطفت صارت ماء والماء اذا ذاب صار هواء والهواء اذا حمى والتهب صار نارا وليس للنار ان تلطف فتصير شيئا آخر ولا للارض ان تغلظ فتصير شيئا آخر ولكن اذا اختلطت أجزاء هذه الاركان بعضها ببعض كان منها المتولدات الكائنات الفاسدات التي هي المعادن والنبات والحيوان واصل هذه كلها البخارات والعصارات اذا امتزج بعضها ببعض الى آخر ما ذكره مما يطول شرحه

ومن هذا تعلم أن كلا من الارض والماء والهواء والنار أجسام مركبة عند هؤلاء القدماء من هيولى جسمية وصور مقومة ومتممة يتلو بعضها بعضا وليس شئ منها بسيطا بمعنى عدم التركيب أصلا ولا بمعنى اتحاد الاجزاء في الحقيقة وتركيب هذه الاركان على هذا الوجه باعتبار الحقيقة التي يشترك فيها جزئيات كل واحد منها الموجودة في الخارج وهذا لا ينافي أن الاجزاء المادية لكل جزئي من جزئيات الارض أو الماء أو الهواء أو النار الموجودة في الخارج كما قاله علماء الطبيعة اليوم من أن الهواء مركب من جزئين فقط والماء كذلك فان هؤلاء لا يريدون أن الهواء بحسب ما هو موجود في الخارج مركب من هذين الجزئين فقط بل مرادهم أن هذين الجزئين هما الجزآن الاصليان وان كان قد يختلط مع هذين الجزئين أجزاء آخر توجد في الجزئيات الخارجية من الهواء أو الماء وليست من أجزاء الهواء أو الماء الاصلية

ألا ترى أن الفلاسفة قالوا أن الانسان حيوان ناطق باعتبار أن حقيقته الكلية التي تنطبق على جميع جزئياته هي الحيوان الناطق ولكن هذا لا ينافي ان كل انسان جزئي مركب في الخارج من أعضاء اخرى نحو اليدين والرجلين والرأس وغير ذلك وهذه الاعضاء مركبة أيضا من عظام وعروق وشرايين وغير ذلك مما فصله علماء التشريح فكذلك يقال في الارض والماء والهواء والنار فليست هذه الاربعة هي العناصر البسيطة بل العناصر البسيطة هي مبدأ البرودة واليبوسة الذي عبروا عنه بالارض لان مبدأهما أظهر فيها ومبدأ البرودة والرطوبة الذي عبروا عنه بالماء لانه مبدأهما أكثر ظهورا فيه ومبدأ الحرارة والرطوبة الذي عبروا عنه بالهواء لان مبدأهما أكثر ظهورا فيه ومبدأ الحرارة واليبوسة الذي عبروا عنه بالنار لان مبدأهما أكثر ظهورا فيها وهذه المبادي الاربعة هي العناصر الحقيقية وهي البسائط التي لا تركيب فيها أصلا وهذه المبادىء الاربعة لا يخلو جسم عن واحد منها بل هي موجودة في كل جسم من الاجسام ولا يوجد واحد منها في الخارج مستقلا بل هذه المبادي انما توجد آثارها وهي الاخلاط الاربعة الموجودة في كل جسم التي هي السوداء والصفراء والدم والبلغم وبوجود آثارها هذه علم وجودها فهي كالهيولى الحقيقية والصورة الجسمية عند هؤلاء فان كلا من الهيولى التي هي عندهم جوهر قابل للصور الجسمية والصورة الجسمية التي هي عندهم جوهر حال في الهيولى لا توجد احداهما بدون الاخرى بل هما أيضا لا يوجدان في الخارج لا مع الصورة النوعية عندهم ومن هذا الذي فصلناه تحقق وتعلم أن كلا من الماء والهواء والنار سواء

كانت عنصرية أو غير عنصرية من توابع الارض التي لا توجد الا معها على ما فصلناه كيف لا تكون من توابعها وهي ايضا مركبة من العناصر الاربعة البسيطة كما ان كلا من الماء والهواء والنار كذلك مركب من العناصر الاربعة البسيطة وقد علمت ان هذه البسائط لا توجد كلها ولا بعضها مستقلا بل توجد ضمن الاجسام وان الارض يحيط بها الماء وهي والماء يحيط بهما الهواء فالارض باتفاق جميع علماء الهيئة قديما وحديثا مرتكزة على الماء وهي معه كرة واحدة مرتكزة في الهواء والخلاف بينهم في انها مع ما فيها من جبال وبراري وبحار وغير ذلك سابحة في الهواء ومتحركة فيه على الاستدارة حول الشمس بحركة وعلى محورها بحركة اخرى كما يقوله علماء الهيئة اليوم أو أنها واقفة ساكنة ثابتة في الهواء كما يقوله علماء الهيئة البطليموسية ومن وافقهم

وعبارة علماء الهيئة اليوم قالوا الارض كرة عظيمة سابحة في الفضاء كما ترى البالون عائما في الهواء وليس لها حافة تنتهي اليها من كل جوانب سطحها فكل من يجوب سطحها كمثل ذبابة تمشي على سطح بطيخة معلقة في الهواء فكما أن الذبابة لا تنتهي في جوبها على سطح هذه البطيخة الى حافة لها كذلك من يجوب سطح الارض لا ينتهي الى حافة لها

وعبارة حكماء الاسلام الذين وافقوا البطليموسية قالوا ان الارض التي نحن عليها كرة واحدة بجميع ما عليها من الجبال والبراري والبحار والانهار والعمار والخراب واقفة في مركز العالم في وسط الهواء بجميع ما عليها باذن الله تعالى والهواء يحيط بها من جميع جهاتها اه * ومن هذا كله تعلم ان المياه باكملها انما وجدت بعد خلق السموات والارض بخلق الشمس والقمر وسائر الكواكب وبعد دحو الارض كما هو صريح قوله تعالى أأنتم اشد خلقا ام السماء بناها الى آخر هذه الآيات كما قدمناه وقد وافق ذلك ما قاله الفلاسفة قديما وحديثا وتحقق أن الماء الذي كان عليه العرش اى كان الملك قاصرا عليه على ما يقول القفال ومن وافقه أو الماء الذي كان يحيط به الجسم الاعظم ذو القوائم كما يقول الجمهور قبل خلق السموات والارض وما بينهما ليس هو الماء العنصري وليس من الاركان الاربعة التي هي من توابع الارض بل ذلك ماء آخر سائل نارى نوراني وجد بالتجلي الالهي على الفهرة التي خلقها الله ابداعا وهو على كل شيء قدير ومنه خلقت الارض أولا ثم السموات وبعد خلقها ورفع سمكها وتسويتها واغطاش ليلها واخراج ضحاها أي نهارها بخلق الشمس والقمر وسائر الكواكب دحا الارض بان اخرج منها ماءها ومرعاها والجبال ارساها متاعا لنا ولانعامنا وبعد خلقها خلق كل ما بينهما مما هو في جوف فلك القمر وعلى وجه الارض وفي الجو من ماء وهواء ونار وحيوان ونبات ومعدن وغير ذلك مما نعلمه ومما لا يعلمه الا الله * فخذ هذا ولا تسأم من الاطالة فان الطريق لا تطول الا على قاعد أو متقاعد وبالله التوفيق

فان قلت ما تقول في معنى قوله تعالى حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة

قلت قال الالوسي في تفسيره وغيره في غيره بمعناه ان مغرب الشمس هو منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته فالمعنى حتى اذا وصل الى مغرب الشمس ووقف كما هو الظاهر على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له اقيانوس وفيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الاطوال على بعض الاقوال فوجد الشمس تغرب في عين حمئة أي ذات حمئة وهي الطين الاسود أو عين حامية أي ذات طين أسود وماؤها حار أيضا قال الامام الرازي ولا شك ان البحار الغربية قوية السخونة فهي حامية وأيضا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء اه واخرج ابن ابي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابي ذر (قال كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حمار فرأى الشمس حين غربت فقال اتدري حيث تغرب الشمس قلت الله ورسوله اعلم قال فانها تغرب في عين حامية) وما يقال من ان جرم الشمس أكبر من جرم الارض باضعاف مضاعفة فكيف يمكن دخولها في عين ما في الارض مدفوع بان المراد وجدها

في نظر العين كذلك اذ لم ير هنالك الا الماء لا انها كذلك كما أن راكب البحر يراها كانها تطلع من البحر وتغيب فيه اذا لم ير الشط والذي في ارض ملساء واسعة يراها أيضا كانها تطلع من الارض وتغيب فيها ولا يرد على هذا انه عبر بوجدها والوجدان يدل على الوجود لان وجد يكون بمعنى رأى كما قال الراغب فليكن هنا بهذا المعنى والمراد بالعين الحمئة اما عين في البحر أو البحر نفسه ولا مانع من تسميته عينا وبهذا الذي قلناه ايضا يندفع ما يقال إن الحق أن الشمس لم تزل سائرة طالعة عند قوم غاربة عند آخرين بحسب آفاقهم وقال امام الحرمين لا خلاف في ذلك ويدل على ماذكر ما أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره وابو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال (الشمس بمنزلة الساقية تجري في النهار في السماء في فلكها فاذا غربت جرت في الليل في فلكها تحت الارض حتى تطلع من مشرقها وكذلك القمر) ومن الناس من قال إن الآية على ظاهرها ولا يعجز الله شئ ونحن نقر بعظمة قدرة الله عز وجل ولكن لا نلتفت الى هذا القول وكذلك لا نلتفت الى ما نقله الطرطوشي من أنها يبلعها حوت بل هذا الذي نقله الطرطوشي كلام لا يقبله الا الصبيان ونحوهم فان من المحقق الذي لا ريب فيه أن الشمس تبقى طالعة في بعض الاوقات ستة أشهر وغاربة كذلك كما في افق عرض تسعين وقد تغيب مقدار ساعة ويظهر نورها من قبل المشرق في بعض العروض اه

فانظر كيف اولوا ما خالف ما قاله علماء الهيئة وكيف جاءت الاخبار موافقة له بناء على أن ما قالوه في ذلك ثابت وحق لا ريب فيه فيلزمنا أن نؤول لذلك في كل ما هو كذلك ولذلك قال الامام الرازي بعد ما قدمناه عنه بالمعنى قال أهل الاخبار إن الشمس تغرب في عين كثيرة الماء والحمأة وذلك في غاية البعد وذلك لانا اذا رصدنا كسوفا قمريا فاذا اعتبرناه ورأينا أن المغربيين قالوا حصل هذا الكسوف في أول الليل ورأينا المشرقيين قالوا في أول النهار وعلمنا أن أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثاني عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا هو وقت العصر في بلد ووقت الظهر في بلد آخر ووقت الضحوة في بلد ثالث ووقت طلوع الشمس في بلد رابع ونصف الليل في بلد خامس واذا كانت هذه الاحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الاوقات كان الذي يقال أنها تغيب في الماء والحمأة كلاما على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة فلم يبق الا أن يصار الى التأويل الذي ذكرناه اه فكلام الامام الرازي ومثله لغيره صريح في أن اللازم ان يصار الى التأويل في كل ما كان ظاهره من الآيات والاحاديث على خلاف اليقين وان كنت أنا لم أعثر على ذلك في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وانما الذي وقفنا عليه ان بعض العلماء يحملون بعض الآيات والاحاديث على ما يخالف اليقين ظنا منهم ان هذا تمسك بالدين وليس كذلك

فان قلت ان علماء الهيئة قديما وحديثا قالوا ان في السماء بروجا وبينوا ذلك على الوجه الذي سنذكره عنهم فكيف يمكن التوفيق بينه وبين كل آيات القرآن التي جاءت مشتملة على ذكر البروج مثل قوله تعالى (والسماء ذات البروج) وقوله تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا) وغير ذلك من الآيات

قلت لا مخالفة بين ما جاء في تلك الآيات وما قاله علماء الهيئة في ذلك ولتعلم الحقيقة نذكر اولا ما قاله علماء الهيئة متعلقا بالبروج ثم نذكر ما قاله المحققون من المفسرين في آيات القرآن المشتملة على ذلك أيضا فنقول

قال علماء الهيئة منذ زمان قديم انقسمت النجوم الواقعة بقرب فلك الارض الى اثنى عشر برجا كل برج ثلاثون درجة مبتدأ من نقطة الاعتدال الربيعي اعني نقطة تقاطع فلك الارض بخط الاعتدال عند صعود الشمس من الجنوب نحو الشمال وفي عصر تعيين الابراج كانت نقطة الاعتدال الربيعي موافقة لاول صورة الحمل فسمي البرج الاول برج الحمل ثم بعد مرور الشمس الظاهرة على ثلاثين درجة شرقا حلت في أول صورة الثور فسمي برج الثور ثم بعد قطعها ثلاثين درجة حلت في اول صورة الجوزاء فسمي برج الجوزاء ثم بعد قطعها ثلاثين

درجة حلت في اول صورة السرطان وذلك موافق لنقطة الانقلاب الصيفي أي بلوغ الشمس أعظم ميلها شمالا فسمي برج السرطان ولذلك سميت دائرة العرض الماسة نقطة الانقلاب دائرة السرطان ثم اذا قطعت ثلاثين درجة أيضا حلت في اول صورة الاسد فسمي برج الاسد ثم اذا قطعت ثلاثين درجة حلت في أول صورة السنبلة فسمي برج السنبلة ثم اذا قطعت ثلاثين درجة حلت في أول صورة الميزان فسمي برج الميزان والشمس تبلغ أول برج الميزان عند وقوعها في نقطة الاعتدال الخريفي أي نقطة تقاطع دائرة البروج وخط الاعتدال في نزول الشمس من الشمال الى الجنوب ثم اذا قطعت ثلاثين درجة حلت في أول صورة العقرب فسمي برج العقرب ثم اذا قطعت ثلاثين درجة حلت في اول صورة الرامي وهو القوس فسمي برج الرامي أو القوس ثم اذا قطعت ثلاثين درجة حلت في صورة الجدي والشمس تبلغ تلك النقطة عند الانقلاب الشتوي اى عند اعظم ميل الشمس جنوبا ولذلك سميت دائرة العرض الماسة نقطة الانقلاب الشتوي دائرة الجدي ثم اذا قطعت ثلاثين درجة حلت في اول صورة الدلو فسمي برج الدلو ثم اذا قطعت ثلاثين درجة حلت في أول صورة الحوت فسمي برج الحوت وبذلك تمت الدورة

ثم اذا رصدنا الشمس وهي سائرة بحركتها الظاهرية الخيالية ان قلنا ان الارض دائرة حول الشمس وعلى محورها وبحركتها الذاتية مع حركتها القسرية ان قلنا انها تتحرك بهذه الحركة تبعا لحركة الفلك الاعظم عند القائلين به نرى على كل حال ان دائرة البروج تقطع خط الاعتدال لا في صورة الحمل بل في صورة الحوت وذلك لان نقطة الاعتدال تتقهقر كل سنة الى الغرب ومن مبدأ انقسام البروج قديما رجعت بمرور الادوار الى الوراء نحو ثمان وعشرين درجة أي برجا كاملا تقريبا ولذلك لا توافق الابراج الصور المذكورة فالشمس تدخل برج الحمل وهي في صورة الحوت بعد وتدخل برج السرطان وهي في صورة الجوزاء بعد وقس على ذلك باقي الابراج فانتبه

وقالوا ان هذه البروج هي كواكب متقاطعة على هيئة الصور التي سميت بها فبرج الحمل عدة كواكب متقاطعة على صورة الحمل وهكذا سائر البروج وكواكب كل برج متفاوتة في النور فانور كواكب صورة الحمل الشرطان والبطين والناطح وهذه الكواكب الثلاثة تعد أيضا من منازل القمر وكانت معروفة لدى العرب وغيرهم جاهلية واسلاما وانور نجوم صورة الثور عدة نجوم سميت الثريا ثم الى شرق الثريا نجم يقال له عين الثور وهي الدبران والثريا والدبران كلاهما من منازل القمر ومعروفان كذلك عند العرب وغيرهم جاهلية واسلاما وانور كواكب برج الجوزاء والتوامين راس التوأم المقدم ورأس التوأم المؤخر وهما ايضا من منازل القمر وانور كواكب برج السرطان المعلف او النثرة والحماران اى الحمار الشمالي والحمار الجنوبي وكل من المعلف أو النثرة والحمارين من منازل القمر ايضا وانور كواكب برج الاسد قلب الاسد وذنب الاسد وظهر الاسد وكلها من منازل القمر وانور كواكب برج السنبلة السماك الاعزل ومقدم القطاف وانور كواكب صورة الميزان الكفة الجنوبية والكفة الشمالية وانور كواكب صورة العقرب قلب العقرب وجبهة العقرب والشولة في طرف الذنب وانور كواكب صورة الرامي او القوس النعائم الواردة والنعائم الصادرة وعين الرامي وانور كواكب صورة الجدي سعد الذابح وسعد ناشرة وذنب الجدي وانور كواكب صورة الدلو سعد الملك وسعد السعود وسعد بلع وسعد الاخبية وليس في صورة الحوت نجم انور من القدر الرابع الا اذا عددت منها الرشا ويسمى ايضا عقدة الخيطين واذا قارنت بين كواكب صور البروج تجد أن منازل القمر هي من كواكب البروج وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى من سورة يونس (وقدرناه منازل) ان تخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره بالنسبة للشمس ولان منازله معلومة محسوسة ولانه عمدة في تواريخ العرب ولان احكام الشرع منوطة به في الاكثر والا فالمنازل في الحقيقة ليست خاصة به بل هي ايضا للشمس كالقمر لكن الشمس تحاذيها وقت محاذاتها

البروج لانها منقسمة على البروج المشهورة فيكون لكل برج منزلان وثلث واما البرج فهو ثلاثون درجة حاصلة من قسمة ثلاثمائة وستين جزأ من دائرة فلك البروج على اثنى عشر وقدمنا ايضا فى تفسير قوله تعالى من سورة يس (والقمر قدرناه منازل) ان العرب جعلت علامات الاقسام الثمانية والعشرين من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب طريقة القمر فى ممره او يحاذيه فيرى القمر فى كل ليلة نازلا بقرب احدها الى آخر ماقدمناه فارجع اليه لتعلم ان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وخاطبهم به كانوا جاهلية و إسلاما يعلمون منازل القمر الثمانية والعشرين ووضعوا الكل منزل منها اسماء بما يخصه وكانوا يعلمون البروج ايضا وعلموا مقدار المدة التى فيها يحاذى القمر منزلا من تلك المنازل وبرجا من تلك البروج وعرفوا مثل ذلك فى الشمس ايضا ولزيادة الايضاح نذكر ثانيا ماقاله المفسرون تنجيزا لما وعدنا فنقول

قال الله تعالى فى سورة الفرقان (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بالمعنى الظاهر انها البروج الاثنا عشر المعروفة وأخرج ذلك الخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس رضى عنهما وهى فى الاصل القصور العالية أطلقت عليها على طريق التشبيه لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها ثم شاع فصار حقيقة فيها والذى يقتضيه مشرب أهل الحديث أنها فى السماء الدنيا ولا مانع منه عقلا لاسيما اذا قلنا بعظم ثخنها بحيث تسع الكواكب وماتقتضيه على ماذكره علماء الهيئة وهى عندهم قسام الفلك الاعظم المسمى على ماقيل بالعرش ولم يرد فيما أعلم اطلاق السماء عليه وان كان صحيحا فقد سميت باسماء صور من الكواكب الثوابت فى الفلك الثامن وقعت فى محاذاتها وقت اعتبار القسمة وتلك الصور متحركة بالحركة البطيئة كسائر الثوابت وقد قارب فى هذه الازمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولا إلى أخر ماقدمناه عن علماء الهيئة ونزيد عليه أن الالوسى قال هنالك ايضا ولهم فى تقسيمها الى مذكر ومؤنث (أى وخنثى فان بعضهم زعم أن أول الجدى وأول العقرب خنثى) وليلى ونهارى وحار و بارد وسعد ونحس الى غير ذلك كلام طويل ولعلنا نذكر شيئا منه بعد ان شاء الله تعالى ومن أراده مستوفى فليرجع الى كتبهم اه * وأقول ماقاله الالوسى من أن لعلماء الهيئة فى تقسيم البروج الى مذكر ومؤنث الى آخره كلام ماطويلا فالمراد من علماء الهيئة فيه علماؤها البطليموسية ومن وافقهم وأما علماء الهيئة اليوم فهم ينكرون ذلك كل الانكار قال فى مقدمة الكتاب المسمى أصول الهيئة ان القدماء اعتبروا هذا الفن بالاكثر للزعم بان لهم منه دلالة على المستقبل من الامور البشرية وأن للاجرام السماوية تأثيرا فى أجساد البشر وعقولهم ونصيبهم الدنيوى أو انها تدل على تلك الاشياء وكل ذلك باطل اه ومثله فى غيره من كتب علماء الهيئة اليوم ولكن ليس كل القدماء يقولون بماذكر بل الذين يتكلمون عنه و يخوضون فيه فريق يسمون علماء الاحكام وهم الذين قال الالوسى فيهم وأما مايزعمه أهل الاحكام من الآثار اذا كان شئ منها طالعا وقت الولادة أو شروع فى عمل من الاعمال أو وقت حلول الشمس نقطة الحمل الذى هو مبدأ السنة الشمسية فى المشهور فهو محض ظن ورجم بالغيب اه وان كان ماقاله الالوسى وغيره من المتقدمين والمتأخرين من إنكار علم الاحكام و بطلانه ليس بصحيح على اطلاقه كما هو معلوم للعارفين بذلك العلم من أهله غاية الامر أن المحققين من المليين لايجعلون لتلك الاشكال والاوضاع ونحو ذلك مما يحدث فى الاجرام السماوية بواسطة حركاتها تأثيرا لذاتها بل منهم من يجعلها أسبابا مؤثرة باذن الله تعالى فى تلك الحوادث ومنهم من يجعلها امارات فقط على تلك الحوادث و يستدلون بها عليها كما يستدل الاطباء بحركات النبض على حركات القلب ودقاته قوة وضعفا ومثل هذا لايقال فيه محض ظن ورجم بالغيب وسنعود الى تحقيق ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكره ماوعد به ثم قال الالوسى ثم الظاهر أن البروج المجعولة مما لادخل للاعتبار فيها والمذكور فى كلام أهل الهيئة انها حاصلة من فرض ست دوائر معلومة قاطعة

العالم فيكون للاعتبار دخل فيها وان لم تكن فى ذلك كانياب أغوال الوجود مبدأ الانتزاع فيها (أى فهى من الاعتبارات الصادقة التى لها نحو من الوجود) فان كان الامر على هذا الطرز عند أهل الشرع بان يعتبر تقسيم ما هى فيه الى اثنى عشر قطعة وتسمى كل قطعة برجا فالظاهر أن المراد بجعله تعالى إياها جعل مايتم به ذلك الاعتبار ويتحقق به أمر التفاوت والاختلاف بين تلك البروج وفيه من الخير الكثير مافيه * وفيه أن فى الآية ايماء الى أن اعتبار التقسيم كان عن وحى والمشهور أن من اعتبر ذلك أولا هرمس وهو على ماقيل ادريس عليه السلام فتأمل * واخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد انها النجوم وروى ذلك عن قتادة أيضا وعن أبى صالح تقييدها بالكبار وأطلق عليها ذلك لعظمها وظهورها لاسيما التى من أول المراتب الثلاث للقدر الاول من الاقدار الستة وأنت تعلم انه لم يعهد اطلاق البروج على النجوم فالاولى ان المراد بها ماروى عن ابن عباس من انها البروج الاثنا عشر المعروفة ومما لاشبهة فيه أن المراد بها المعروفة لدى العرب وقدمنا أن العرب يعرفون البروج كما يعرفون المنازل وانها كلها نجوم * فلعل المراد مما رواه ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد وماروى عن قتادة تلك النجوم ومثل ذلك يقال فيما روى عن أبى صالح فتتحد الروايات والمطلق منها يحمل على المقيد وهذا هو الظاهر لان البروج معروفة عند العرب وهى عندهم هذه النجوم المخصوصة لا مطلق نجوم وأما قول الالوسى فان كان الامر على هذا الطرز عند أهل الشرع الى آخره فنقول فيه * انا اذا تحققنا أن البروج المعروفة عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم هى على هذا الطرز الذى قدمه عن علماء الهيئة وأن حركة الشمس المشاهدة على الدوام فى كل سنة تميل الى الجنوب ستة أشهر من السنة والى الشمال ستة أشهر منها وأن الشمس تشرق فى كل يوم فى نقطة غير التى تشرق منها فى يوم آخر وتغرب كذلك وأن الليل والنهار يتساويان مقدارا فى الجهات المعتدلة مرتين فى السنة فى نقطتين معينتين و يأخذان فى التفاوت والانقلاب من زيادة الى نقص ومن نقص الى زيادة مرتين فى السنة فى نقطتين معينتين أيضا وان كل ذلك يكون تدريجيا فى أيام السنة وأن هذا دأب الشمس دائما فى كل سنة وأن اختلاف الفصول حرا وبردا واعتدالا وادرار الخيرات ونعم الله تعالى التى لاتحصى على عباده مما هو مشاهد انما هو باختلاف الليل والنهار واختلاف الفصول نقطع بأن الامر فى هذه البروج هو على هذا الطرز الذى قاله علماء الهيئة قديما وحديثا واتفقت كلمتهم عليه بقطع النظر عن اختلافهم فى علله وأسبابه وكل هذا الذى قاله علماء الهيئة مما يشهد به الحس فحمل الآية عليه حمل على ما هو الواقع والآية والآثار ظاهرة فيه كما سمعت خصوصا وأن حمل الآية على هذا الذى يقوله علماء الهيئة أجزل وأكمل وأليق ببلاغة القرآن وأجدر

وقوله تعالى (وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) أى جعل فى السماء أوفى البروج سراجا هى الشمس لقوله تعالى فى آية أخرى (وجعل الشمس سراجا) وقرأ بعض القراء سرجا بضم السين والراء وقرأ آخرون سرجا بضم السين وسكون الراء وكلاهما جمع سراج قيل إن الجمع للتعظيم فان الشمس لعظمها وكمال اضاءتها كأنها سرج كثيرة أو الجمع باعتبار الايام * وقال بعض الاجلة الجمع على ظاهره والمراد به الشمس والكواكب الكبار ومنهم من فسره بالكواكب الكبار واعترض على الاول بانه يلزم تخصيص القمر بالذكر فى قوله وقمرا منيرا بعد دخوله فى السراج والمناسب تخصيص الشمس لكمال مزيتها على ماسواها ورد بانه بعد تسليم دخوله فى السراج خص بالذكر لان سنيهم قمرية ولذا يقدم الليل على النهار وتعتبر الليلة لليوم الذى بعدها فهم أكثر عناية به مع انه على ماذكره يلزمه ترك الشمس وهى أحق بالذكر من غيرها (والاعتذار عنه بانها لشهرتها كأنها مذكورة ولذا لم تنتظم مع غيرها فى قرن) لايجدى والقمر معروف ويطلق عليه بعد الليلة الثالثة الى آخر الشهر * وعلى الفرق المشهور بين النور والضوء يكون وصفه بمنيرا دون مضيئا اشارة الى أن نوره مستفاد من

غيره وهو الشمس بل قال غير واحد إن نور جميع الكواكب مستفاد منها اهـ من الالوسي ملخصا

ولا شك أن القراءة بصيغة الجمع تدل على أن المراد بلفظ المفرد في القراءة الاخرى جنس الشمس الصادق بالواحد والمتعدد والجمع على ظاهره لما ثبت بالبراهين القاطعة الآن أن الشمس التي هي نوع لا تنحصر في فرد كما كان الفلاسفة تظنه قبل الآن بل لها أفراد كثيرة وشموس كثيرة جدا فيجب حمل الآية على ذلك لتكون موافقة للواقع الذي تبين الآن وما دعاهم الى ما قالوا الا عدم وقوفهم على شموس أخرى وليس تفسير السراج في الآية بالشمس التي يعرفونها فقط منقولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه وانما المفسرون لما وجدوا قوله تعالى (وجعل الشمس سراجا) ولم يقفوا الا على شمس واحدة قالوا ما قالوا وأولوا القراءة بصيغة الجمع بما أولوا وبذلك يتبين أن القول بحمل الجمع على ظاهره هو الموافق للواقع ويحمل قول القائل بهذا أن المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار أو أن المراد الكواكب الكبار التي تشمل الشمس على أن المراد بالكواكب الكبار الشموس التي استكشفت الآن غاية الامر لم يعبر بالشموس لانها لم تكن معروفة كذلك حينئذ فيكون هذا القول موافقا لما قاله علماء الهيئة اليوم من ان هناك شموسا أخرى غير هذه الشمس التي نراها تشرق على ارضنا وقد بلغ عدد ما استكشف منها بالنظارات المعظمة لغاية الآن بالمجرة ثمانية عشر الف شمس وكلها مضيئة بذاتها كشمسنا هذه فتكون كلها سرجا وقد قدمنا ذلك فارجع اليه

وقال تعالى ايضا ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) قال الالوسي في تفسيره وغيره في غيره بمعناه ثم انه لما ذكر حال منكري النبوة وكانت مفرعة على التوحيد ذكر الادلة السماوية والارضية فقال عز من قائل (ولقد جعلنا في السماء بروجا الآية) والى هذا ذهب الامام وغيره في وجه الربط وقال ابن عطية انه سبحانه لما ذكر انهم لو رأوا الآية المطلوبة في السماء لعاندوا وبقوا على ما هم به من الضلالة عقب ذلك بهذه الآية كانه جل شأنه قال وان في السماء لعبرا منصوبة غير هذه المذكورة وكفرهم بها واعراضهم عنها اصرار وعتو منهم اهـ والظاهر ان الجعل بمعنى الخلق والابداع فالجار والمجرور متعلق به ويجوز أن يكون بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف على انه مفعول ثان له وبروجا مفعول اول والبروج جمع برج وهو لغة القصر والحصن وبذلك فسره هنا ابن عطية فقد اخرج عنه ابن ابي حاتم انه قال جعلنا قصورا في السماء فيها الحرس واخرج عن ابي صالح ان المراد بالبروج الكواكب العظام وفي البحر عنه الكواكب السيارة وروى غير واحد عن مجاهد وقتادة انها الكواكب من غير قيد وروى عن ابن عباس تفسير ذلك بالبروج الاثني عشر المشهورة وهي ستة شمالية ثلاثة ربيعية وثلاثة صيفية واولها الحمل وستة جنوبية ثلاثة خريفية وثلاثة شتائية واولها الميزان وطول كل برج عندهم ثلاثون درجة وعرضه مائة وثمانون درجة تسعون درجة منها في جهة الشمال ومثلها في جهة الجنوب وكانها انما سميت بذلك لانها كالحصن والقصر للكوكب الحال فيها وهي في الحقيقة اجزاء الفلك الاعظم وهو المحدد المسمى بلسانهم الفلك الاطلس وفلك الافلاك وبلسان الشرع بعكسه ولهذا يسمى الشيخ الاكبر قدس سره الفلك الاطلس بفلك البروج والمشهور تسمية الفلك الثامن وهو فلك الثوابت به لاعتبارهم الانقسام فيه وكأن ذلك لظهور ما يتعين به الاجزاء من الصور فيه وان كان كل منها منتقلا عما عينه الى آخر منها لثبوت الحركة الذاتية للثوابت على خلاف التوالي وان لم يثبتها لها لعدم الاحساس بها قدماء الفلاسفة كما لم يثبت الاكثرون حركتها على نفسها وأثبتها الشيخ ابو علي بن سينا ومن تبعه من المحققين (وقد اثبت الاستكشاف الحديث ما قاله ابو علي) وقد صرحوا بان هذه الصور المسماة بالاسماء المعلومة توهمت على المنطقة وما يقرب منها من الجانبين من

كواكب ثابتة تنظمها خطوط موهومة وقعت وقت القسمة في تلك الاقسام ونقل ذلك في الكفاية عن عامة المنجمين انهم وانما توهموا لكل قسم صورة ليحصل التفهيم والتعليم بان يقال الدبران مثلا عين الاسد وتعقب ذلك بقوله وهذا ليس بسديد عندي لان تلك الصور لو كانت وهمية لم يكن لها اثر في أمثالها من العالم السفلي مع ان الامر ليس كذلك فقد قال بطليموس في الثمرة الصور التي في عالم التركيب مطيعة للصور الفلكية اذ هي في ذواتها على تلك الصور فادركتها الاوهام على ما هي عليه وفيه بحث (وذلك لعدم قيام الدليل على ما يقوله) ثم هذه البروج مختلفة الآثار والخواص بل لكل جزء من كل منها وان كان أقل من عاشرة بل اقل الاقل آثار تخالف آثار الجزء الآخر وكل ذلك آثار حكمة الله تعالى وقدرته عز وجل وقد ذكر الشيخ الاكبر قدس سره في بعض كتبه أن آثار النجوم وأحكامها مفاضة عليها من تلك البروج المعتبرة في المحدد وفي الفصل الثالث من الباب الحادي والسبعين والثلاثمائة من فتوحاته ما منه أن الله تعالى قسم الفلك الاطلس اثني عشر قسما سماها بروجا وأسكن كل برج منها ملكا وهؤلاء الملائكة أئمة العالم وجعل لكل منهم ثلاثين خزانة يحتوي كل منها على علوم شتى يهبون منها للنازل بهم قدر ما تعطيه رتبته وهي الخزائن التي قال الله فيها (وإن من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) وتسمى عند أهل التعليم بدرجات الفلك والنازلون فيها هم الجواري والمنازل وعيوقاتها من الثوابت والعلوم الحاصلة من تلك الخزائن الالهية على ما يظهر في عالم الاركان من التاثيرات على ما يظهر في مقعر فلك الثوابت الى الارض الى آخر ما قاله وقد أطال قدس سره الكلام في هذا الباب وهو بمعزل عن كلام المحدثين نقلة الدين عليهم الرحمة اهـ

ونقول اذا كان مراد الشيخ الاكبر أن كل ما يقع مما ذكره انما هو صادر من الله تعالى على يد الملائكة الموكلين بحفظ العالم وتدبير الخليقة ولا يمكن أن يكون مراده الا ذلك كان كلامه قدس سره موافقا لما يقوله المحدثون وغيرهم من نقلة الدين والشريعة المطهرة ثم قال الالوسي إن في اختلاف خواص البروج حسبما تشهد به التجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء أول دليل على وجود الصانع المختار جل جلاله اهـ فانظر كيف جعل التجربة شاهدة باختلاف خواص البروج واعترف به فاذا ضممت هذا الى ما قدمه من أن هذه البروج مختلفة الآثار والخواص بل لكل جزء من كل منها الى آخر ما نقلناه عنه قريبا تعلم أن ما قاله الشيخ الاكبر انما هو من ضمن الخواص والآثار التي هي من آثار حكمة الله تعالى وقدرته وان كلامه لا يخالف ما قاله المحدثون وغيرهم من نقلة الدين وأيضا هذا اعتراف منه ببعض ما يقوله علماء الاحكام مما سينكره فيما بعد فتذكره لينفعك فيما يأتي

وقوله تعالى (وزيناها للناظرين) أي زينا السماء بما فيها من الكواكب السيارات وغيرها وهي كثيرة لا يعلم عددها الا الله تعالى نعم المرصود منها ألف ونيف وعشرون ورتبوها على ست مراتب وسموها أقدارا متزايدة سدسا حتى كان قدر ما في القدر الاول ستة أمثال ما في القدر السادس وجعلوا كل قدر على ثلاث مراتب وما دون السادس لم يثبتوه في المراتب بل إن كان كقطعة السحاب يسمونه سحابيا والا فظلمانيا وذكر في الكفاية أن ما كان منها في القدر الاول فجرمه مائة وستة وخمسون مرة ونصف عشر الارض وجاء في بعض الآثار أن أصغر النجوم كالجبل العظيم واستظهر أبو حيان عود الضمير في قوله تعالى وزيناها للبروج لانها المحدث عنها والاقرب الى اللفظ والجمهور على ما ذكرنا حذرا من انتشار الضمائر والمراد من الناظرين الناظرون اليها بابصارهم كما قال بعضهم لانه المناسب للتزيين ويجوز أن يراد بالتزيين ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة فيراد بالناظرين المتفكرون المستدلون بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها جل شأنه اهـ ملخصا من الالوسي

وقد علمت ان ما روى عن ابن عباس موافق لما عليه علماء الهيئة غير أن ما قاله الالوسي من حديث فلك الافلاك والفلك الاطلس وما شابه ذلك مما أظهر الاستكشاف الحديث خلافه لا يعول عليه ولا يلتفت اليه

وقد علمت غير مرة انه لا دليل عليه لا من العقل ولا من النقل

وقوله تعالى (وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى حفظنا السماء أى منعناها من كل شيطان متمرد رجيم مطرود عن الخيرات أو يرمى بالرجام وهى الحجارة وقد علمت أن فى السماء حجارة وانها من نوع الشهب والنيازك فالكلام على ظاهره فلا حاجة الى تكلف تأويل وقال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه المراد بالرجيم المرمى بالنجوم وحفظ السماء من الشيطان أى المتمرد اما بمنعه عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها أو بمنعه عن دخولها والاختلاط مع اهلها على نحو الاختلاط مع أهل الارض وعلى التقديرين فقوله الا من استرق السمع فى محل نصب على الاستثناء المتصل على الاول والمنقطع على الثانى والاستراق افتعال من السرقة وهو أخذ الشىء خفية شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الاعلى وهو المذكور فى قوله تعالى (الا من خطف الخطفة) والمراد بالسمع المسموع وقوله تعالى (فأتبعه شهاب مبين) أى تبعه ولحقه شهاب بين ظاهر أمره والشهاب على ما قاله الراغب الشعلة الساطعة من النار الموقدة وأصله من الشهبة وهى بياض مختلطة بسواد وليست البياض الخالص الصافى كما يغلط فيه العامة فيقولون فرس أشهب كالقرطاس والمراد بمبين ظاهر أمره للمبصرين ومعنى أتبعه تبعه عند الاخفش نحو ردفته وأردفته فليست الهمزة فيه للتعدية وقيل اتبعه أخص من تبعه لما قاله الجوهرى تبعت القوم تبعا وتباعة بالفتح اذا مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم وأتبعت القوم على افعلت اذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم ولم يستحسن الفرق بينهما الشهاب ولما كان الاتباع محتملا للاهلاك وغيره اختلف العلماء فى ذلك فحكى القرطبى عن ابن عباس أن الشهاب يجرح ويحرق ولا يقتل وعن الحسن وطائفة أنه يقتل وادعى أن الاول أصح ونقل غير واحد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقوا السمع من الملائكة عليهم السلام فيرمون بالكواكب فلا تخطئ ابدا فنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث شاء الله تعالى ومنهم من تخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البرارى ومما لا يعول عليه ما يروى من أن منهم من يقع فى البحر فيكون تمساحا ومن الناس من طعن كما قال الامام فى أمر هذا الاستراق والرمى من وجوه احدها ان انقضاض الكواكب مذكور فى كتب قدماء الفلاسفة وذكروا فيه ان الارض اذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس فاذا بلغ كرة النار التى دون الفلك احترق بها فتلك الشعلة هى الشهاب وقد يبقى زمانا مشتعلا اذا كان كثيفا وربما حميت الادخنة فى برد الهواء للتعاقب فانضغطت مشتعلة

وجاء أيضا فى شعر الجاهلية

والعير يلحقها الغبار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال اوس بن حجر

وانقض كالدرى يتبعه * نقع يثور تخاله طنبا

الى غير ذلك وثانيا ان هؤلاء الشياطين كيف يجوز فيهم أن يشاهدوا الوفا من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون ثم انهم مع ذلك يعودون لصنيعهم فان من له ادنى عقل اذا رأى هلاك ابناء جنسه من تعاطى شىء مرارا امتنع عنه وثالثا ان يقال ان ثخن السماء خمسمائة عام فهؤلاء الشياطين ان نفذوا فى جرمها وخرقوها فهو باطل لنفى أن يكون لها فطور على ما قاله سبحانه (فارجع البصر هل ترى من فطور) وان كانوا لا ينفذون فكيف يمكنهم سماع أسرار الملائكة عليهم السلام مع هذا البعد العظيم ورابعها ان الملائكة عليهم السلام انما اطلعوا على الاحوال المستقبلة اما انهم طالعوها من اللوح المحفوظ أو لانهم تلقفوها بالوحى وعلى التقديرين لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا تتمكن الشياطين من الوقوف عليها وخامسها ان الشياطين مخلوقون من النار

والنار لا تحرق النار بل تقوى بها فكيف يعقل زجرهم بهذه الشهب * وسادسها انكم قلتم ان هذا القذف لاجل النبوة فلم دام بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم * وسابعها ان هذه الشهب انما تحدث بقرب الارض بدليل اننا نشاهد حركتها ولو كانت قريبة من الفلك ما شاهدناها كما لم نشاهد حركات الافلاك والكواكب واذا ثبت انها تحدث قريبا من الارض فكيف يقال انها تمنع الشياطين من الوصول الى الفلك * وثامنها ان هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة عليهم السلام من المغيبات الى الكهنة فلم لم ينقلوا اسرار المؤمنين الى الكفار حتى يتوصلوا بواسطة وقوفهم على اسرارهم الى الحاق الضرر بهم * وتاسعها لم لم يمنعهم الله تعالى عن الصعود ابتداء حتى لا يحتاج فى دفعهم الى هذه الشهب * وقال بعضهم أيضا ان السماع انما يفيدهم اذا عرفوا لغة الملائكة فلم لم يجعلهم الله جاهلين بلغتهم لئلا يفيد السماع شيأ وأيضا ان انقطع الهواء دون مقعر فلك القمر لم يحدث هناك صوت اذ هو من تموج الهواء والمفروض عدمه وان لم ينقطع كان دون ذلك اصوات هائلة من تموج الهواء بحركة الاجرام العظيمة وهى تمنع من سماع اصوات الملائكة عليهم السلام فى محاوراتهم ولا يكاد يظن ان أصواتهم فى المحاورات تغلب هاتيك الاصوات لتسمع معها * وأيضا ليس فى السماء الدنيا الا القمر ولا نراه يرمى به وسائر السيارات فوقه كل فى فلك يسبحون والثوابت فى الفلك الثامن والرمى بشىء من ذلك يستدعى خرق السماء وتشققها ليصل الشهاب الى الشيطان وهو مما لا يكاد يقال * واجاب الامام عن الاول بان الرمى بالشهب لم يكن موجودا قبل البعثة وهذا قول ابن عباس فقد روى عنه ان الجن كانوا يصعدون الى السماء فيستمعون الوحى فاذا استمعوا الكلمة زادوا فيها شيئا من عند انفسهم فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ولم يكن النجوم يرمى بها قبل ذلك فقال لهم ابليس ما هذا الا الامر قد حدث الخبر * وروى عن ابى بن كعب انه قال لم يرم بنجم منذ رفع عيسى عليه السلام حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى بها فرأت قريش ما لم تر قبل فجعلوا يسيبون أنعامهم ويعتقون رقابهم فيظنون أنه الفناء فبلغ ذلك كبيرهم فقال لم تفعلون فقالوا رمى بالنجوم فقال اعتبروا فان تكن نجوما معروفة فهو وقت فناء الناس والا فهو أمر حدث فنظروا فاذا هى لا تعرف فاخبروه فقال فى الامر مهلة وهذا عند ظهور نبى الخبر ويروى أن أول من رمى بالنجوم هذا الحى من ثقيف وانهم جاءوا الى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بنى علاج وكان أدهى العرب فقال نحو ما ذكر فى هذا الخبر وكتب الاوائل قد توالت عليها التحريفات فلعل المتأخرين قد ألحقوا هذه المسئلة بها طعنا فى هذه المعجزة وكذا الاشعار المنسوبة الى أهل الجاهلية لعلها مختلقة عليهم * وثانيا وهو الحق انها كانت موجودة قبل البعثة لاسباب أخر ولا ينكر ذلك الا انه لا ينافى انها بعد البعثة قد توجد بسبب دفع الشياطين وزجرهم به يروى انه قيل للزهرى أكان يرمى فى الجاهلية قال نعم أفرأيت قوله تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) قال غلظت وشدد أمرها حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم وعلى نحو هذا يخرج ما روى عن ابن عباس وابى رضى الله عنهما ان صح وعن الثانى انه اذا جاء القدر عمى البصر فاذا قضى الله على طائفة منهم الحرق لطغيانهم وضلالهم قيض لها من الدواعى ما تقدم معه على الفعل المفضى الى هلاكها وعن الثالث بان البعد بين الارض والسماء خمسمائة عام فاما ثخن الفلك فانه لا يكون عظيما وعن الرابع بانه روى عن الزهرى عن على بن الحسين بن على كرم الله وجهه قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم جالس فى نفر من اصحابه اذ رمى بنجم فاستنار فقال عليه الصلاة والسلام ما كنتم تقولون فى الجاهلية اذا حدث مثل هذا قالوا كنا نقول يولد عظيم او يموت عظيم قال عليه الصلاة والسلام فانها لا ترمى لموت احد ولا لحياته ولكن ربنا تعالى اذا قضى الامر فى السماء سبحت حملة العرش ثم سبح اهل السماء وسبح اهل كل سماء حتى ينتهى التسبيح الى هذه السماء ويستخبر اهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ولا يزال حتى ينتهى الخبر الى هذه

السماء فيتخطفه الجن فيرمون فما جاؤا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه وعن الخامس بان النار قد تكون اقوى من نار اخرى فالاقوى تبطل مادونها * وعن السادس بانه اعادام لانه عليه الصلاة والسلام اخبر ببطلان الكهانة فلو لم يدم هذا القذف لعادت الكهانة وذلك يقدح في خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطلانها وعن السابع بأن البعد على مذهبنا غير مانع من السماع فلعله سبحانه اجرى عادته بانهم اذا وقفوا في تلك المواضع سمعوا كلام الملائكة عليهم السلام * وعن الثامن بانه لعل الله تعالى اقدرهم على استماع الغيوب من الملائكة واعجزهم عن ايصال اسرار المؤمنين الى الكفار * وعن التاسع بانه عزوجل يفعل مايشاء ويحكم مايريد وبهذا يجاب عن الاول فيما قيل واجيب عن الثانى بانا نختار انقطاع الهواء والسماع عندنا بخلق الله تعالى ولا يتوقف على وجود الهواء وتموجه وقد يختار عدم الانقطاع ويقال انه تعالى شأنه قادر على منع الهواء من التموج بحركة هاتيك الاجرام وكذا هو سبحانه وتعالى قادر على اسماعهم مع هاتيك الاصوات الهائلة السر واخفى وعن الثالث بان كون الثوابت فى الفلك الثامن هو الذى ذهب اليه الفلاسفة واحتجوا عليه بان بعضها فيه فيجب ان يكون كلها كذلك * اما الاول فلان الثوابت التى تكون قريبة من المنطقة تنكسف بالسيارات فوجب ان تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة واما الثانى فلانها باسرها متحركة حركة واحدة بطيئة فى كل مائة سنة اواقل على الخلاف درجة فلا بد ان تكون مركوزة فى كرة واحدة وهو احتجاج ضعيف لانه لايلزم من كون بعض الثوابت فوق السيارات أن يكون كلها هنالك لانه لايبعد وجود كرة تحت كرة القمر وتكون فى البطء مساوية لكرة الثوابت وتكون الكواكب المركوزة فيما يقارب القطبين مركوزة فى هذه الكرة السفلية إذ لايبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين فى الحركة وعلى هذا لايمتنع أن تكون هذه النجوم فى السماء الدنيا * وقد ذكر الجلال السيوطى انه جاء فى بعض الآثار أن الكواكب معلقة بسلاسل من نور بأيدى ملائكة السماء يسيرونها حيث شاء الله تعالى وكيف شاء الله تعالى الا أن فى صحة ذلك مافيها * على أن ماذكر فى السؤال من أن ذلك يستلزم الخرق وهو مما لايكاد يقال إما أن يكون مبنيا على القول بامتناع الخرق والالتئام على الفلك المحدد وغيره فقد تقرر فساد ذلك وحقق إمكان الخرق والالتئام بما لامزيد عليه فى غير كتاب من كتب الكلام و إما أن يكون مبنيا على مجرد الاستبعاد فهو مما لايفيد شيئا لأن أكثر الممكنات مستبعدة وهى واقعة ولا أظنك فى مرية من ذلك بل قد يقال نحن لانلتزم أن الكوكب نفسه يتبع الشيطان فيحرقه والشهاب ليس نصا فى الكوكب لما علمت ماقيل فى معناه وانه قيل إنه بنفسه ينقض ويرمى الشيطان ثم يعود إلى مكانه لظاهر اطلاق الرجوم على النجوم وقولهم رمى بالنجم مثلا وكذا القول بانه ينفصل عن الكواكب شعلة كالقبس الذى يؤخذ من النار فيرمى بها كما قال غير واحد المحتاج ذلك القول فى الجواب عن السؤال لما تقدم إذ يجوز أن يقال إنها تؤثر حيث كان ياذن الله تعالى هذه الشعلة المسماة بالشهاب ويحرق بها من شاء من الشياطين و إطلاق الرجوم على النجوم وقولهم رمى بالنجم يحتمل أن يكون مبنيا على الظاهر للرائى كما فى قوله تعالى (تغرب فى عين حمئة) وقال الامام إن هذه الشهب ليست هى الثوابت المركوزة فى الفلك و إلا لظهر نقصان كثير فى أعدادها مع انه لم يوجد نقصان اصلا وايضا فى جعلها رجوما مايوجب النقصان فى زينة السماء بل هى جنس آخر غيرها يحدثها الله تعالى و يجعلها رجوما للشياطين ولا يأباه قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) حيث افاد أن تلك المصابيح هى الرجوم باعيانها لانا نقول كل نير يحصل فى الجو فهو مصباح لاهل الارض الان المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها مالايكون كذلك والشهب

من هذا القسم وحينئذ يزول الاشكال اه كلام الامام

قال الالوسى والجرح والتعديل بين القولين مفوض الى شهاب ذهنك الثاقب اه (اى القول بان الشهاب من القسم الذى لايكون باقيا على وجه الدهر والقول بانه قسم من النجوم الباقية) ثم قال الالوسى وفى اجوبته السابقة نظر ولا يخفى ضعفها وكذا هى شاهدة عليه بقلة الاطلاع على الاخبار الصحيحة المشهورة الاترى قوله فى الجواب عن ثالث الاسئلة التسعة ان البعد بين السماء والارض خمسمائة عام واما ثخن الفلك فانه لا يكون عظيما فانه مخالف لما نطقت به الشريعة وهدمت به الفلسفة اما مخالفته للاول فلانه قد صح ان سمك كل سماء خمسمائة عام كما صح ان بين السماء والارض كذلك واما مخالفته للثانى فلانه لم يقل احد من الفلاسفة ان بين السماء والارض هذه المسافة التى ذكرها والافلاك عندهم مختلفة فى الثخن وقد بينوا ثخن كل بالفراسخ حسبما ذكر فى كتب الاجرام والابعاد وذكروا فى ثخن المحدد ما لا يشهد بمزيد عظمته الا الله جل جلاله لكن لا مستند لهم قطعيا فى ذلك بل ان قولهم لافضل فى الفلكيات مع كونه اشبه شىء بالخطابيات يعكر عليه وقوله فى الجواب عن السادس انما دام لئلا يقدح انقطاعه فى خبر الرسول عن بطلان الكهانة فانه مستلزم للدور اذ الظاهر انه عليه الصلاة والسلام انما أخبر بذلك لعلمه بدوام القذف المانع من تحقق ماتتوقف عليه الكهانة وقوله فى الجواب عن الخامس ان النار قد تكون أقوى من نار أخرى فتبطلها ظاهر فى أن الشياطين نار صرفة وليس كذلك بل الحق انه يغلب عليهم العنصر النارى وقد حصل لهم بالتركيب ولو مع غلبة هذا العنصر ماليس للنار الصرفة اه

وأقول كما أن آدم مخلوق من طين ولكن بالتركيب صار حيوانا وبتعلق النفس الناطقة به صار ناطقا فكان حيوانا ناطقا والذى يغلب عليه العنصر الطينى فلذا كان كثيفا ثقيلا وذريته كذلك كذلك الشياطين والجان مخلوقون من النار ولكن بالتركيب صاروا أجساما لطيفة قادرة على التشكل باذن الله تعالى بواسطة ما علمهم الله عمله عند ارادة التشكل وان كان الغالب عليهم العنصر النارى بمعنى انهم فى غاية اللطافة والخفة ومن أراد أن يقف على كل ماقيل فى أحكام الجان فعليه بآكام المرجان وبما حققه الحبر العينى فى عمدة القارى على صحيح البخارى فى باب ذكر الجن وثوابهم من الصحيح هذا ثم اعلم انه يجوز أن يكون استراق السمع من الملائكة الذين عند السماء الدنيا لا من الملائكة الذين بين كل سماء وسماء الجى بحديث الثخن واستبعاد السماع معه ويشهد لذلك مارواه البخارى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنهم قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب فتذكر الامر قضى فى السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه وتوحيه الى الكهان فيكذبون مع الكلمة مائة كذبة من عند انفسهم ولا ينافيه مارواه أيضا عن عكرمة انه قال سمعت أبا هريرة يقول إن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر فى السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضعانا لقوله سبحانه كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع الخبر اذ ليس فيه أكثر من سماع المسترق الكلمة بعد قول الملائكة عليهم السلام بعضهم لبعض وعدم منافاة هذا لذلك عند من ألقى السمع وهو شهيد وانه ليس فى الآيات ماهو نص فى أن مانراه من الشهب لايكون الا رمى شيطان يسترق السمع بل غاية مافيها انه اذا استرق شيطان اتبعه شهاب ورمى بالنجم وأين هذا من ذلك * نعم فى خبر الزهرى مايحتاج معه الى تأويل وعلى هذا فيجوز أن يكون حدوث بعض مانراه من الشهب لتصاعد البخار حسبما تقدم عن الفلاسفة وكذا يجوز أن يكون صعود الشياطين للاستراق فى سنة مثلا مرة ولا يخفى قطع هذا فى الجواب عن السؤال الثانى ومن الناس من أجاب عنه بانه لا يبعد أن يكون المسترقون صنفا من الشياطين تقتضى ذواتهم التصاعد نظير تصاعد

الابخرة بل يجوز أن يكون أولئك الشياطين أبخرة تعلقت بها أنفس خبيثة على نحو ماذكره الفلاسفة من انه قد يتعلق بذوات الاذناب نفس فتغيب وتطلع بنفسها وفيه بحث اه (لعل وجه البحث أن هذا الجواب بعيد عن ظاهر الآيات السابقة فان ظاهرها أن المسترق هي الشياطين التي كانت تقعد من السماء مقاعد للسمع وهذه الشياطين بحسب الظاهر لاتكون تابعة لأبخرة ولاهي أبخرة تعلقت بها أنفس خبيثة فضلا عن أن ماقاله الفلاسفة على الوجه المذكور ممالا دليل عليه لامن جهة العقل ولا من جهة النقل) ونقل الامام عن الجبائى انه قال فى الجواب عن ذلك أن الحالة التى تعتريهم ليس لها موضع معين و إلا لم يذهبوا إليه و إنما يمتنعون عن المصير إلى موضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا إلى موضعهم فتصيبهم الشهب وربما صاروا الى غيره ولايصادفون الملائكة فلا يصيبهم شئ فلما هلكوا فى بعض الاوقات وسلموا فى بعضها جاز أن يصيروا الى موضع يغلب على ظنونهم انها لاتصيبهم فيه كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه فى موضع يغلب على ظنه حصول النجاة فيه * وتعقبه بقوله ولقائل أن يقول انهم ان صعدوا فإما أن يصلوا الى مواضع الملائكة أوالى غيرها فان وصلوا الى الاول احترقوا وان وصلوا الى الثانى لم يظفروا بمقصود أصلا فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل فاذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود غير محقق وجب أن يمتنعوا وهذا بخلاف المسافر فى البحر فان الغالب على المسافرين فيه الفوز بالمقصود وقال فالاقرب فى الجواب أن نقول هذه الواقعة انما تتفق فى الندرة فلعلها لاتشتهر بسبب كونها نادرة فيما بين الشياطين انتهى

قال الالوسى بعد نقله ذلك وأنت تعلم أن هذا لايكاد يتم الامع القول بأنه ليس كل ماتراه من الشهب يحرق به الشياطين والامر مع هذا القول سهل كما لايخفى وذكر البيضاوى أن استراق السمع خطفتهم اليسيرة من قطان السموات لما بينهم من المناسبة فى الجوهر أو بالاستدلالات من أوضاع الكواكب وحركاتها وذكر عند قوله تعالى (انهم عن السمع لمعزولون) أن السمع مشروط بمشاركتهم فى صفات الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصورة الملكوتية ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة فالذات لاتقبل ذلك ولايخفى مافيه فانه ظاهر فى أن الاستراق يقتضى مناسبة الجوهر والسمع التام يقتضى المشاركة المذكورة وهو لايتمشى على أصول الشرع وفى أن تلقيهم يكون من أوضاع الكواكب وهو مخالف لصريح النظم والاحاديث مع انه يقتضى أن قطان السماء بمعنى الكواكب وشمول من (فى قوله من استرق السمع) لشياطين الانس من المنجمين وهو كما ترى وذكر هو وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الشياطين كانوا لايحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبى صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها * ومن الناس من ذهب أخذا ببعض الظواهر الى أن المنع عند البعثة والله تعالى أعلم * بقى ههنا إشكال ذكره الامام مع جوابه فقال ولقائل أن يكون اذا جوزتم فى الجملة أن الشيطان يصعد الى السماء ويسمع أخبار الغيوب من الملائكة عليهم السلام ثم يلقيها الى الكهنة وجب أن يخرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزة دالة على الصدق لان كل غيب يخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام يقوم فيه هذا الاحتمال ولايقال ان الله تعالى أخبر انهم عجزوا عن ذلك بعد مولده صلى الله عليه وسلم لانا نقول هذا العجز لايمكن اثباته الا بعد القطع بكونه عليه الصلاة والسلام رسولا و بكون القرآن حقا والقطع بهذا لايمكن الا بواسطة المعجز وكون الاخبار عن الغيوب معجزا لايثبت الابعد ابطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو محال * و يمكن أن يجاب عنه بانا نثبت كونه عليه الصلاة والسلام رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بثبوت ذلك نقطع بان الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيوب معجزة ولايلزم الدور اه فتدبر والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق و بيده أزمة التحقيق انتهى من الالوسى وقد نقلنا كل ماقالوه فى هذا المقام ليقف عليه من اطلع

عليه ويتحقق بنفسه مافى مجموعه من التضارب وأن الداخل فيه على طوله لايخرج منه بنتيجة يثلج لها الصدر و يطمئن بها القلب لكثرة مافيه من التشكيكات والاحتمالات العقلية التى لانعلم انها الموافق للواقع فلذلك نبين ماهو الحق فى ذلك فلا تسأم من طول القول فالقول ان شاء الله تعالى سديد يتلقاه بالقبول كل من ألقى اليه السمع وهو شهيد فنقول *

قال الله تعالى فى سورة الحجر (وحفظناها من كل شيطان رجيم الامن استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) وقد علمت انهم قالوا إن المعنى ومنعنا السماء من كل شيطان رجيم بمعنى مطرود عن الخيرات أو مرمى بالرجام أى الحجارة او المرمى بالنجوم والآية لايتعين فيها شىء من هذه الاحتمالات أن يكون مرادا منها فالله أعلم بمراده وكذلك منع السماء التى جعل فيها بروجا وزينها للناظرين اليها حفظا من كل شيطان رجيم أما أن يكون بمعنى من تعرضه لها على الاطلاق والوقوف على مافيها فى الجملة وعلى ذلك قالوا إن الاستثناء يكون فى قوله تعالى الا من استرق السمع الآية متصلا * وأن المعنى أن الله منعها عن أن يتعرض لها كل شيطان على الاطلاق * وعن الوقوف على مافيها فى الجملة الا من يسترق السمع منهم فانه يمكنه أن يتعرض لها ويقف على مافيها فى الجملة فيتبعه شهاب مبين و إما أن يكون بمعنى منعها من كل شيطان رجيم أى منع كل شيطان من دخولها والاختلاط بأهلها على نحو الاختلاط بأهل الارض فالاستثناء حينئذ فى قوله تعالى الا من استرق السمع الآية منقطع فليس المستثنى حينئذ داخلا فى المستثنى منه فتكون جملة الاستثناء حينئذ جملة مستقلة قصد بها الاستدراك على الجملة قبلها وتكون هذه الجملة المستدرك عليها باقية على عمومها فتفيد أن السماء ممنوعة من دخول كل شيطان رجيم اليها ومن الاختلاط مع أهلها على وجه ماتقدم وجملة الاستثناء أفادت معنى آخر كان يتوهم نفيه من الجملة الاولى فكأنه قيل استدراكا عليها لكن كل من استرق السمع أتبعه شهاب مبين وكل من المعنيين المحتملين فى الآية لا يرد عليه شىء مما أوردوه هنا عليها لان الآية على المعنى الاول لاتدل الا على أن من استرق السمع يتعرض للسماء و يقف على مافيها فى الجملة وحينئذ يتبعه شهاب مبين وهذا لايقتضى الوصول الى السماء ولا الدنو منها فضلا عن دخولها والاختلاط مع الملائكة الذين فيها وكذلك على المعنى الثانى لاتدل الا على كون السماء ممنوعة منعا باتا من دخول الشياطين فيها على الاطلاق ومن المخالطة مع أهلها على وجه ماسبق لكن كل من يسترق السمع يتبعه شهاب مبين وهذا المعنى لايقتضى أيضا وصول أحد من الشياطين الى السماء ولا الدنو منها فضلا عن دخول أحد منهم فيها واختلاطه مع الملائكة الا انه من يسترق السمع يتبعه شهاب مبين واستراق السمع على كلا المعنيين لايقتضى الوصول الى السماء ولا الدنو منها فضلا عن الدخول فيها والاختلاط مع أهلها ولايقتضى أيضا أن الشهاب نجم من النجوم السيارة أو الثوابت أو كوكب من الكواكب التى زينت بها السماء فلا يرد السؤال الاول من أن انقضاض الكواكب مذكور فى كتب الفلاسفة الى آخره على أن ماذكره الفلاسفة على وجه ماذكروه عنهم مبنى على وجود كرة من النار * وقد نقلنا عن تفسير الالوسى فيما تقدم أن الحق أن لا وجود لكرة النار وأن وجود الشهب لايتوقف عليها كما أن الذى ثبت لدى علماء الهيئة اليوم كما قدمناه فى الشهب يخالف ماقاله أولئك الفلاسفة وكما لايرد السؤال الاول لايرد السؤال الثانى من أن هؤلاء الشياطين كيف يشاهدون الوفا من بنى نوعهم الى آخره لان الآية لاتدل الا على أن من استرق السمع وخاطر بنفسه وأراد أن يقف على أخبار السماء يتبعه شهاب مبين فيمتنع من ذلك لاحتراقه أو هلاك بالكلية وهذا لايقتضى وجود ألوف منهم كذلك بل يقتضى انه يوجد من يخاطر بنفسه ويريد الاستراق فان وجد أتبعه شهاب ولا مانع عقلا أن بعضا من هؤلاء الشياطين يكون مشغوفا بحب الاطلاع على أخبار الوقائع والحوادث فيفعل ذلك اعتمادا على مايتوهمه من احتمال النجاة وانه لايصيبه الشهاب كما يقع من كثير من الناس يكون مشغوفا مفتونا بحب الاموال

واخذها بالباطل فيحمله ذلك على قطع الطريق أو السرقة أو الغصب مع علمه بما يترتب على ذلك من العقوبات الشديدة وبوجود الحراس والرقباء عليه ولا يرد الثالث أيضا من أن ثخن السماء خمسمائة عام الى أخره لان ذلك انما يلزم لو كان استراق السمع يقتضى الدخول فيها والسماع من أهلها وقد علمت أن الآية لاتدل على وصول المسترقين السمع الى السماء فضلا عن دخولها والسماع ممن هو فيها على أن الذى يقتضيه العقل والنقل أن المراد باستراق السمع ارادة الوقوف على مايقضى فى السماء متعلقا بعالم الكون والفساد فى الارض وذلك لايقتضى الوصول الى السماء ولا الدنو منها كما قلنا لان مايقضى فى السماء متعلقا بعالم الكون والفساد يبلغ طبعا الى الملائكة الموكلين بحفظ هذا العالم وتدبيره وتدبير كل مايتعلق به فيبلغ الى كل ملك مايخصه مما قضى فى فى السماء متعلقا بهذا العالم فطبعا ينفذ هذا الملك ما أمر بتنفيذه وتدبيره فالملك الموكل بالارياح وتسخيرها مثلا اذا بلغ مايخصه باشر التنفيذ حسبما أمر فاذا قضى ان الريح تكون ريح الصبا أو نحوها بلغ ذلك للموكل بالارياح فينفذ ماقضاه الله وأمر به واذا قضى ان الريح تسوق السحاب الى جهة كذا بلغ ذلك للملك الموكل به فينفذ ماقضاه الله وأمر به وهكذا كل ملك فيما يخصه من الاعمال والحوادث المتعلقة بعالم الكون والفساد بجميع أنواعها كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها * ومما لايشك فيه مؤمن أن الله تعالى وكل حفظ العالم كله وتدبير الخليقة باجمعها الى ملائكة ينفذون ماقضاه الله تعالى وقدره باذنه حسبما اقتضت بذلك حكمته وهو سبحانه فى كل ذلك هو الخالق الفاعل المختار يفعل مايشاء ويحكم مايريد فكل مايظهر فى عالم الكون والفساد من الآثار والافعال والحوادث انما يجرى على ايدى أولئك الملائكة الموكلين بحفظ ذلك العالم وتدبيره حسبما يقضيه الله سبحانه ويقدره فلا حاجة فى استراق السمع والوقوف على ماقضاه الله تعالى فى السماء الى صعود الشياطين الى السماء ولا الى القرب منها فضلا عن دخولها ومخالطة أهلها * ومن ذلك تعلم أن وقوف الشياطين على مايقفون عليه من الملائكة لايتوقف على سماع كلام من الملائكة أو أصوات منهم بل يمكنهم الوقوف على ذلك لو لم يمنعوا بالشهب عن ذلك بمطالعة أفعال الملائكة فى تنفيذ ماقضى وقدر فلا يرد ما أوردوه من قولهم لم لم يسكت الملائكة عن ذكر الاحوال المستقبلة التى طالعوها من اللوح أو تلقفوها بالوحى * أما علمت أن المقرر فى الحكمة العقلية أن جميع الاجسام ومافيها ليست الا آلات للنفوس كآلات النجار مثلا فان افعاله تظهر فى الخشب الذى هو جسم طبيعى بآلات وأدوات جسمانية أيضا كالقدوم والمنشار والمثقب وما شاكل ذلك كذلك اجسام الصناع هى أيضا أجسام طبيعية وهى آلات وأدوات لنفوسهم يظهرون بها صناعاتهم وأفعالهم على مابيناه فى رسالتى تركيب الجسد والصنائع العملية من اخوان الصفا * ولاشك أن كل من رأى النجار وبيده المنشار الذى هو جسم طبيعى يعمل به فى الخشب وهو ايضا جسم طبيعى يعلم بالبداهة ما الذى يريد النجار أن يعمله بهذا المنشار الذى هو آلة لعمل خاص فى الخشب ولا يحتاج فى الوقوف على ذلك الى أن يسمع من النجار كلاما اصلا * كذلك الملائكة الموكلون بحفظ العالم وتدبيره فاعلون فى العالم باذن الله تعالى وجميع الاجسام الطبيعية آلات وأدوات يفعلون بها ماقضى الله تعالى فيها باذنه وارادته وكثيرا ماتظهر تلك الافعال فى تلك الاجسام فنشاهد السحاب سائرا والارياح متحركة مثلا مع أن المحرك والمسير هو الملك الموكل بذلك باذن الله تعالى * وبذلك سقط السؤال الرابع

وقد علمت مما قدمناه أن الشياطين وان كانوا مخلوقين من النار لكن مثلهم فى ذلك كمثل آدم وذريته حيث خلقوا من الطين ولم يبقوا على حقيقة الطين بل تحولوا الى خلق آخر فصار هو وذريته جسماناميا حساسا متحركا بالارادة ناطقا متفكرا بالقوة فبعد أن كان طينا من صلصال كالفخار صار مركبا من جسم حى متحرك بالارادة ومن جوهر آخر ربانى نورانى وذلك الجوهر الربانى النورانى هو الانسان الحقيقى

فهو الذى يدرك ويعلم ويعمل وله الحركة والسكون وذلك الجسم الحيوانى ليس الا آلات لهذا الجوهر يستعمل كل آلة من تلك الالات فيما خلقت له ويسرت له كذلك الشياطين وان كانوا مخلوقين من النار لكنهم تحولوا وصاروا حقيقة أخرى فصاروا أجساما لطيفة تنفذ فى كل شئ كثيف مهما كانت كثافته بدون أن تخرقه أو يظهر فيه أدنى أثر لنفاذها فيه وبذلك تندفع تلك الشكوك والاوهام * وأما السؤال السادس فهو ساقط من نفسه لان استمرار رمى من يسترق السمع ان وجد الآن من يسترق انما هو لمنع الكهانة بعد نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام ونبوته عليه الصلاة والسلام باقية لاتزول وآثارها باقية وانتقال صاحبها عليه الصلاة والسلام من دار الفناء الى دار البقاء لايقتضى زوالها لانه عليه الصلاة والسلام حى فى الدارين موصوف بنبوته ورسالته كاخوانه الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بل هو اكملهم خلقا وخلقا وأكبرهم وأعظمهم روحا والكل نوابه

وبما قررناه سابقا يسقط السؤال السابع ايضا لما علمت من ان الشياطين لايحتاجون فى استراق السمع الى الوصول الى الفلك الاعظم وأن الآية لاتدل على ذلك ايضا وعلى كل حال فالشهب لاشك فى وجودها لانها مشاهدة والآيات القرآنية ناطقة بان الشياطين من عهد بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم معزولون عن استراق السمع ممنوعون عنه الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب أو من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين ولا تدل على أكثر من ذلك وقد قال فى اخوان الصفا وقد يظن كثير من الناس ان هذه الشهب هى كواكب تسقط ويرمى بها من السماء فى الهواء الى الارض ويستدلون على صحة ظنونهم الكاذبة بقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وليس فى هذه الآية دلالة على أن الكواكب هى ترمى نفسها الا انك اذا قلت اتخذت هذه القوس لارمى بها العدو والكفار فليس فى قولك دلالة على انك ترمى بنفس القوس بل الرمى عنها بالنشاب فهكذا قوله تعالى وجعلناها رجوما للشياطين اى يرمون عنها بالشهب لان هذه الشهب لاتحدث فى الهواء الا باشراق هذه الكواكب وشعاعاتها فى الهواء كما بينا من قبل وقد فسرنا هذه الآيات واخواتها فى رسائل لنا اه وتفسيره هذه الآيات واخواتها هو على النحو الذى نقلناه عنه هنا مما يقتضى ان الكواكب لها مدخل فى الرمى لا انها المرمى بها ومن هنا تعلم سقوط سائر الاسئلة التى أوردها الرازى وغيره مما اطالوا به على غير طائل

واما مارواه غير واحد عن ابن عباس رضى الله عنهما من ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى آخره فلا يدل على انهم يصلون الى السماء أو يقربون منها بل ولا يدل على انهم ركبوا اليها وقوله رضى الله عنه فيرمون بالكواكب لايقتضى ان الذى يرمى به نفس الكواكب بل هو على حد قول القائل رميته بالقوس فليس المراد انه رماه بنفس القوس وانما المراد ان القوس آلة الرمى والمرمى به هو النشاب الذى يقذف ويرمى بالقوس فلا يزيد معناه عن معنى الآية ومارواه البخارى عن عروة بن الزبير عن عائشه من ان الملائكة تنزل الى العنان وهو السحاب فتذكر الامر قضى فى السماء الى آخره يشهد لما قلناه ويدل عليه لان الملائكة التى تنزل فى العنان الذى هو السحاب هم الملائكة الذين يبلغون ماقضى فى السماء الى الملائكة الموكلين بتدبير عالم الكون والفساد فانه هو العالم الذى يظله ويمر فوقه السحاب ومن المعلوم ان كلام الملائكة وسماع الكلام كلام وسماع يليقان بهم حيث كانوا مخلوقين من النور وجواهر ربانية نورانية لطيفة روحية فلا مانع من ان يكون الكلام من النازلين عبارة عن وحى الى المرسل اليهم الموكلين وسماع الموكلين عبارة عن تنفيذ ماقضى وامروا بتنفيذه وسبحانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون ويؤيد مافهمناه من هذا الحديث مارواه البخارى أيضا عن عكرمة انه صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الامر فى السماء ضربت الملائكة اجنحتها الى آخر ماقدمناه من الحديث فان هذا الحديث

يقتضى ان الذى يقع من الملائكة عند قضاء الله الامر هو ضرب اجنحتها خضعانا لقوله سبحانه كانه سلسلة على صفوان الى آخره اى انه سمع لضرب الاجنحة صوت كانه صوت سلسلة ضربت على صفوان حجر املس فيصيبهم مايصيب الرسل عند الوحى ثم يسرى عن قلوبهم فان هذا صريح فى ان التبليغ انما هو بطريق الوحى المعتاد للرسل من البشر ويعقبه امتثال الملائكة الذين لايعصون الله ماأمروا ويفعلون مايؤمرون فينفذون ماأمروا به ومن هذا الذى قلناه فى تفسير قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية تعلم انه لاحاجة الى حمل المصابيح فى الآية على مايشمل الشهب التى يعتريها التغير والفساد خصوصا وقد سمعت ماقاله الراغب من ان الشهاب هو الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن ان العارض فى الجو ان كان يطلق عليه الكوكب لبريقه كشعلة النار كما قدمناه

وأما ما استدل به الامام الرازى فى السؤال الثالث من قوله تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور) من ان ذلك يمنع نفوذ الشياطين فى السماء فهو وان كان مدفوعا بما قدمناه من ان الشياطين اجسام لطيفة تنفذ فى كل كثيف لكن نذكر ماقاله هو وغيره من المفسرين ملخصا فى هذه الآية فنقول * قال الله تعالى فى سورة الملك (الذى خلق سبع سموات طباقا) أى ذات طباق أو مطابقة والمراد كما اخرج عبد بن حميد بعضها فوق بعض ولا دليل فى ذلك على تلاصقها كما زعمه متقدمو الفلاسفة ومن وافقهم من الاسلاميين مخالفين لما نطقت به الاحاديث الصحيحة واختلف فى موادها فقيل الاولى من موج مكفوف والثانية من درة بيضاء والثالثة من حديد والرابعة من نحاس والخامسة من فضة والسادسة من ذهب والسابعة من زمردة بيضاء وقيل غير ذلك قال الالوسى فى تفسيره ولا أظنك تجد خبرا يعول عليه فيما قيل ولو طرت الى السماء واظنك لو وجدت لاولت مع اعتقاد أن الله عز وجل على كل شئ قدير أى لان المشاهدات تكذب هذه الاقوال واخبار الشارع المعصوم لاتجىء بما يخالف الواقع وقوله تعالى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) جملة وقعت صفة أخرى على مافى الكشاف لسبع سموات وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير الرابط للتعظيم وللاشعار بعلة الحكم بحيث يمكن ان يتركب قياس من الشكل الاول ينتج نفى رؤية تفاوت فيها وبانه عز وجل خلقها بقدرته القاهرة رحمة وتفضلا وبان فى ابداعها نعما جليلة أى ماترى شيئا من تفاوت أى اختلاف وعدم تناسب كما قال قتادة وغيره من الفوت فان كلا من المتفاوتين يفوت منه بعض مافى الآخر وفسر بعضهم التفاوت بتجاوز الشئ الحد الذى يجب له زيادة أو نقصا وهو المعنى بالاختلاف وقال السدى أى من عيب واليه يرجع قول من قال اى من تفاوت يورث نقصا وقال عطاء بن يسار أى من عدم استواء وقيل اى من اضطراب وقيل اى من اعوجاج وقيل اى من تناقض ومآل الكل يرجع الى ماذكرناه عن قتادة فهى كلها ترجع الى معنى واحد * قال الالوسى ومن الغريب ماقاله شيخ الطائفة الكشفية فى زماننا من ان بين الاشياء جميعا ربطا وهو نوع من التجاذب لايفوت بسببه بعضها عن بعض وحمل الآية على ذلك والى نحو هذا ذهب الفلاسفة اليوم فزعموا ان بين الاجرام علويها وسفليها تجاذبا على مقادير مخصوصة بها حفظت اوضاعها وارتبط بعضها ببعض لكن ذهب بعضهم الى ان مابه التجاذب والارتباط يضعف قليلا قليلا على وجه لايظهر له اثر الا فى مدد طويلة جدا واستشعروا من ذلك الى انه لابد من خروج هذا العالم المشاهد عن هذا النظام المحسوس فيحصل التصادم ونحوه بين الاجرام وقالوا ان كانت قيامة فهى ذاك ولايخفى حال ماقاله وماقالوه وان الآية على ماسمعت بمعزل عن ذلك اه لكن ماقاله شيخ الطائفة الكشفية وماقاله فلاسفة اليوم بقطع النظر عن حمل الآية عليه وان كان لايوجد مانع من حملها عليه خصوصا اذا جعل خلق الرحمن على عمومه ويكفى ذلك فى الربط كما هو واضح من نظائره فى القرآن وغيره هو الموافق لما يقوله المتكلمون من تركيب الاجسام من اجزاء لاتتجزأ التى هى الجواهر الفردة وما اتضح من

الابحاث الطبيعية المبنية على العمليات الصحيحة والمشاهدات الحقة من ان الاجسام مركبة من جواهر بين كل واحد منها وبين الآخر جذب ودفع وعلى حسب قوة الجذب تكون صلابة الاجسام وعلى حسب قوة الدفع يكون تخلخلها فتكون سائلة او بخارية او غازية او صلبة وبين كل جرم وجرم آخر كذلك قوتا جذب ودفع وبهما تحفظ اوضاع الاجرام ويرتبط اجزاء العالم بعضها ببعض ويشهد لذلك قوله تعالى (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا إن امسكهما من احد من بعده) فان هذه الآية سيقت تقريرا للتوحيد وابطالا للشرك قال فى كشف الاسرار القرآنية فى تفسير هذه الآية انه تعالى خلق الاجسام وخلق لها قوة التماسك فى اجزائها الفردة وخلق منها قوة الانجذاب فى جميع الاجرام ثم قال فى هذا الموضع ان نعم الله تعالى مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا اولا برحمته وخلق لنا مانقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا مانقوم به فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفى كل حالة له علينا تعالى نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فالاولى خلقه تعالى الاجرام السماوية والارضية وما فيهن والثانية ربط المسببات باسبابها فالقوى التى بها تركب الاجسام ثلاثة الجذب والاتحاد والتماسك فى الجواهر الفردة ومنها جعل الله تعالى قوة الجذب والدفع بين الاجرام فالجذب هو قوة بها تنضم الاجزاء الفردة الى بعضها وتتقارب حتى يتكون عنها جسم بسيط أو مركب وقد يكون بين أجسام متعددة لمناسبة طبيعية بينها وهى التى بها ايضا تقع الاجسام المنقذفة فى الجو ساقطة على الارض ثم انها تزيد فيما بين الاجسام على حسب كبر الكتل وتنقص على حسب بعد المسافة فكلما كبرت الكتل زادت وكلما بعدت بينها المسافة نقصت وتختلف بالنظر لما تركبت منه الاجسام ولطبيعتها بل ولاجزاء الجسم الواحد اذ كثير من الاجسام ماتنضم اجزاؤه وتتحد بمجرد المماسة ومنها مايحتاج لتوسط درجات من الحرارة او غيرها وهى بين اجزاء بعض الاجسام أكثر منها بين أجزاء البعض الآخر والقوة الدافعة كذلك فى كل ماسبق وكل من قوتى الجذب والدفع معلوم انهما خاصيتان موجودتان فى جميع الاجسام وبهما الكون والفساد وهما موجودتان فى الانسان أيضا ويسميان بالائتلاف والتنافر ويجدهما الانسان فى نفسه اذا نظر الى اشخاص ولو لم يكن يعرفهم فانه يجد فى نفسه انه يألف منهم بعضا ويأنف بعضا واما قوة التماسك فهى قوة الجذب الحاصلة بين الاجزاء المتماثلة وهى فى الجامدات اقوى منها فى المائعات ولذا لاتنفصل اجزاء الصلب من بعضها الا بعنف واما الغازات فلا تماسك فيها بين اجزائها واما الاتحاد فهو قوة الجذب الحاصلة بين الاجزاء الغير المتماثلة أى غير المكونة للاجسام البسيطة ويكون بين جزأين وثلاثة واربعة وكونه بين خمسة نادر * وحالات الاجسام من الصلابة والميوعة والسيولة لاتمنع من اتحادها فيقع الاتحاد بين الاجسام الجامدة والمائعة وبينهما وبين الهوائية اذا علمت هذا فاعلم انه تعالى جعل التماسك فى الجواهر الفردة التى لاتقبل الانقسام فكلما عظمت الاجسام كانت قابلية الجذب بها اكثر من غيرها الا انها تجذب الشئ بقدر عظم الشئ الجاذب ويضعف جذبها بقدر مربع بعد الشئ المجذوب يعنى ان الجاذبية قوية مرتين فى جسم عظيم مرتين وضعيفة أربع مرات فى جسم ضعيف مرتين وضعيفة ست عشرة مرة فى جسم بعيد أربع مرات وهكذا فلذلك كانت الكواكب الاصغر كتلة تكون مجذوبة ومرفوعة من كوكب أكبر منها كتلة فلهذا قال سبحانه (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) وهو سبحانه حكيم خبير خلق هذه الاشياء بالحكمة والحكمة صفة ثابتة لله تعالى لايمكن زوالها فيمكن ايجاد امثال هذه مرة اخرى باحوال غير هذه الاحوال اه مع بعض تغيير قليل ومن هذا تعلم أن السموات والارض ممسكوتان بقدرة الله تعالى بواسطة ماأودعه فيهما من قوة الجذب والدفع ويبقى الحال كذلك الى أن تكور الشمس وتنكدر النجوم وتشقق السماء وتكون الجبال كالعهن المنفوش يوم ترجف الارض والجبال وكانت

الجبال كثيبا مهيلا فان كل هذا لا يكون الا باسبابه وأسبابه انما تكون بضعف القوى الجاذبة والدافعة والماسكة ويختل النظام المشاهد وهذا كله لاشئ فيه يضر بالعقيدة الحقة ويصادم الدين بل هو من ارتباط المسببات باسبابها الذى عليه مدار نعمة الابقاء فى الدارين وكل من الاسباب والمسببات خلقه وفعله فلا خالق سواه وهو على كل شئ قدير ويشهد لما قلناه قوله تعالى (اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت) فقد قيل المراد من تكور الشمس زوال ضوئها واطلاق الشمس على الضوء شائع عرفا وهو المروى عن الحسن وقتادة ومجاهد وظاهر ما رواه جماعة عن ابن عباس من تفسيره كورت باظلمت * وقال فريق ان تكور الشمس ازالتها نفسها * واختلف هذا الفريق فقيل انها تلقى مع عبدتها فى جهنم واستدل ببعض الاخبار المرفوعة وقيل يلقى بها فى البحر واستدل له بما رواه ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عن ابن عتيك * ويخالف هذا الاخير ما جاء فى الاخبار الصحيحة أن الشمس تدنو يوم القيامة من الرؤس فى المحشر ولا بحر هنالك * ويؤيد القول بانها تلقى فى جهنم قوله تعالى خطابا لعباد الكواكب والاصنام (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)

وأما انكدار النجوم فهو انقضاضها وسقوطها كما أخرجه ابن حميد عن مجاهد وقتادة وهو احدى روايتين عن ابن عباس وروى عنه أنه قال لا يبقى يومئذ نجم الا سقط فى الارض وروى عنه أيضا أن النجوم قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من نور بايدى ملائكة من نور فاذا مات من فى السموات والارض تساقطت من أيديهم قال الالوسى ويقرب منه من وجه قول الفلاسفة المحدثين فانهم يقولون بكونها فى فضاء أيضا لكن بقوى متجاذبة لا معلقة فى سلاسل بايدى ملائكة وليس وراء ما نشاهده منها الاسماء بمعنى جهة علو لا سماء بالمعنى المعروف وان صح خبر الحبر وهو فى حكم المرفوع لم نعدل عن ظاهره الا أن ظهر استحالته وهيهات وحينئذ فالامر سهل لكن هذا الخبر لا يكاد يصح كما مر وكما يأتى وقد ذكر بعض المتألهين أن الملائكة قد تطلق على الارباب النورية كما فى خبر إن لكل شئ ملكا وإن كل قطرة من قطرات المطر ينزل معها ملك * وخبر أتانى ملك الجبال وملك البحار * وتسمى المثل الافلاطونية وهى أنوار مجردة قائمة بنفسها مدبرة باذن الله تعالى للمربوبات حافظة إياها وهى المنمية والغاذية والمولدة فى النباتات والحيوانات ويقال فى السلاسل انه اريد بها القوى التى بها حفظ الاوضاع أو نحو ذلك اه * وقد علمت ان الملائكة بلسان الشرع هى القوى الطبيعية بلسان الفلاسفة فالملائكة الموكلون بحفظ الخليقة وتدبير العالم والمنمية والغاذية والمولدة للحيوان والنبات هى نفسها المسماة بالقوى الطبيعية وأما السلاسل فهى عبارة عن قوة الجذب والتماسك والاتحاد التى أودعها الله فى كل الاجسام علوية أو سفلية * وقد علمت مما قدمناه أن الاجسام وما فيها من القوى المادية آلات للقوى الطبيعية التى تسمى بلسان الشرع ملائكة ولا حاجة للالتجاء الى القول بالارباب والمثل بل ما جاء فى الاخبار الصحيحة مما ذكره من أن لكل شئ ملكا كاف فى الغرض

ويشهد لما قلناه أيضا قوله تعالى (اذا السماء انفطرت) أى انشقت لنزول الملائكة (واذا الكواكب انتثرت) أى تساقطت وهذا وما تقدم عن ابن عباس من انه لا يبقى نجم الا سقط فى الارض يشهد للقول بان تكور الشمس ازالتها نفسها لان لفظ النجم ولفظ الكواكب يشملان الشمس أيضا لانها نجم وكوكب * ومن هذا كله تعلم أن القرآن يكاد يكون صريحا فيما قاله فلاسفة اليوم وقوله تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور) متعلق بما قبله على معنى التسبب عن الاخبار بذلك فانه سبب للامر بالرجوع دفعا لما يتوهم من الشبهة فهو فى المعنى جواب شرط مقدر أى ان كنت فى ريب من ذلك فارجع البصر حتى يتضح لك الحال ولا يبقى لك ريب ولا شبهة فى تحقق ما تضمنه ذلك المقال من تناسب خلق الرحمن واستجماعه ما ينبغى له * والفطور قال مجاهد الشقوق جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر والظاهر أن المراد الشق مطلقا لا الشق طولا على ما هو أصله

كما قال الراغب * وفى معناه قول أبى عبيدة الصدوع * وقول السدى الخروق واريد بكل ذلك على ما يفهم من كلام بعض الاجلة الخلل وبه فسره قتادة * وفسره ابن عباس بالوهن * اه كلام الالوسى وغيره من المفسرين ملخصا *

فانظر هل ترى فى هذه الآية ما يدل على شئ مما استند اليه الامام الرازى فى السؤال الثالث وشتان بين كون السموات لا خلل بها ولا وهن كما هو معنى الآية وبين كونها لا تقبل الخرق والالتئام الذى استدل بها عليه وقوله تعالى (ثم ارجع البصر كرتين) أى رجعتين اخريين فى ارتياد الخلل * والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما قالوا فى لبيك وسعديك أى رجعة بعد رجعة أى رجعات كثيرة بعضها فى أثر بعض * وقيل هو على ظاهره وأمر برجع البصر الى السماء مرتين اذ يمكن الغلط فى الاولى فيستدرك بالثانية أو الاولى ليرى حسنها والثانية ليرى كواكبها فى سيرها وانتهائها وليس بشئ * ويؤيد الاول قوله تعالى (ينقلب اليك البصر خاسئا) فانه جواب الامر والجواب يقتضى الملازمة وما تضمنه الامر لا يلزم منه المرتين غالبا والمعنى يعد اليك البصر محروما من اصابة ما التمسه من اصابة العيب والخلل كانه طرد عنه طردا بالصغار بناء على ما قيل انه مأخوذ من خسأ الكلب المتعدى أى طرده على انه استعارة لكن فى الصحاح يقال خسأ بصره خسأ وخسوأ أى سدر والسدر تحير النظر فكان تفسير خاسئا بمتحيرا اخذا له من ذلك اقرب وكانهم اختاروا ما تقدم لان فيه مبالغة وبلاغة ظاهرة مع كونه ابعد عن التكرار مع قوله تعالى وهو حسير أى كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة يقال حسر بعيره يحسر حسورا أى كل وانقطع فهو حسير ومحسور وقال الراغب الحسر كشف الملبس عما عليه يقال حسرت عن الذراع أى كشفت والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر وناقة حسير انحسر عنها اللحم والقوة ونوق حسرى والحاسر ايضا المعيى لانكشاف قواه ويقال أيضا محسور أما الحاسر فتصور انه قد حسر بنفسه قواه وأما المحسور فتصور ان التعب قد حسره

وأما قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) فهو كلام مستأنف مسوق للحث على النظر قدرة وامتنانا وبيانا لكون السموات خلقت فى غاية الحسن والبهاء إثر بيان خلوها عن شائبة العيب والقصور وللحث على النظر فى ذلك للاستدلال على تمام القدرة الباهرة واحاطة العلم ولابراز كمال العناية بمضمون الجملة اكدها بالقسم أى وتالله لقد زينا السماء الدنيا أى الاقرب منكم والمصابيح جمع مصباح وهو السراج لغة استعير للكوكب ثم جمع والظاهر ان المراد بها الكواكب المضيئة بالليل اضاءة السراج من السيارات والثوابت بناء على انها كلها فى افلاك ومجار متفاوتة قربا وبعدا فى ثخن السماء الدنيا وكون السماء هى الفلك خلاف المعروف عن السلف وانما هو قول قاله من اراد الجمع بين كلام الفلاسفة الاول وكلام الشريعة فشاع فيما بين أهل الاسلام واعتقده من اعتقده من علمائهم وغيرهم * وعن عطاء ان الكواكب فى قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من نور بايدى ملائكة وعليه فزينا السماء بمصابيح كقول القائل زينت السقف بالقناديل وهو ظاهر لكن الخبر لا يكاد يصح كما قال الالوسى ومن اعتقد أن السماء الدنيا هى فلك القمر والست الباقية افلاك السيارات الباقية على الترتيب المشهور وان للثوابت فلكا خاصا يسمى بلسان الشرع الكرسى وجوز أن تكون هذه فى فلك زحل وهو السماء السابعة أو يكون بعضها فى فلك وبعضها الآخر فى آخر فوقه أو كل منها فى فلك وسماء غير السبع والاقتصار على العدد القليل لا ينفى الكثير قال ان تخصيص السماء الدنيا بالتزيين بها لانها إنما ترى عليها ولا يرى جرم ما فوقها أو رعاية لمقتضى أفهام العامة لتعذر التمييز بين سماء وسماء عليهم فهم يرون الكواكب كجواهر متلألئة على بساط الفلك الازرق الاقرب * ووصفها بالزرقة نظرا لما يرى فى نظر العين والا فقد قدمنا أن الزرقة ليست لون السماء ومن اعتبر ما عليه أهل

الهيئة اليوم من أن الكواكب فلك عجائب القدرة مواخر في بحر جو الفضاء على وجه مخصوص تقتضيه الحكمة ومجاريها فيه هي أفلاكها وقد تحركت إذ تحركت في خلاء أو مايشبهه مع قوى بها تجاذبت وارتبطت ولها حركات على أنفسها وحركات غير ذلك وليست مركوزة كما اشتهر في أجرام صلبة شفافة لاثقيلة ولاخفيفة تسمى أفلاكا أوسماء وهي متفاوتة قربا وبعدا تفاوتا كليا وإن رؤيت كلها قريبة لسبب خفي إلى الآن عليهم حتى ان منها مالا يصل شعاعه إلينا إلا في عدة سنين مع أن شعاع الشمس وبيننا وبينها أربعة وثلاثون مليونا من الفراسخ يصل الينا في ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية إلى آخر مازعموا فيها قال يجوز أن يراد بالسماء الدنيا طبقة مخصوصة في هذا الفضاء وبالمصابيح كواكب فيها انفسها قد زينت تلك الطبقة بها تزيين فضاء دار بطيور يطرن حائمات فيه مثلا أو جميع مايرى من الكواكب وإن كان فوقها فتزيينها بذلك باظهاره فيها كما مر

قال الالوسى بعد ماتقدم وأنت تعلم أن من تصدى لتطبيق الآيات والاخبار على ماقاله الفلاسفة مطلقا فقد تصدى لامر لايكاد يتم له والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أحق بالاتباع نعم تأويل النقلي إنما ينبغي اذا قام الدليل العقلي على خلاف مادل عليه وأكثر ادلة الفلاسفة قاعدة على العجز عن اثباتها اثباتا صحيحا مايخالف أدلة الشرع كما لايخفى على من استضاء بمصابيحه اهـ

ونحن نسلم ماقاله من أن أدلة الفلاسفة قاعدة على العجز الى آخره فيما خالفت فيه الفلسفة الشريعة وتكون أدلة الفلاسفة فيه ليست مبنية على المشاهدات ولا دلة البرهانية القطعية ومتى كانت الادلة كذلك فمن المحال أن يجيء في الشريعة مايجوز أن يكون مخالفا لذلك بل إما أن يكون موافقا لها وإما أن يكون مخالفا بظاهره فقط ويكون له محمل صحيح يوافق البرهان العقلي القطعي * وانت تعلم ان علم الهيئة انقسم الى وصفي وطبيعي وعملي وان الوصفي لاخلاف فيه لاحد لان مبناه على المشاهدات كسير الشمس والقمر وسائر الكواكب واختلاف الليل والنهار وفصول السنين وجميع مايتعلق بالاجرام من شروق وغروب واجتماع واستقبال وغير ذلك مما هو معلوم بلاريب وهذا هو الذي تعرضت له الآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية * وما اختلف فيه علماء الهيئة اليوم مع من تقدمهم لم تتعرض له الآيات والاحاديث لابنفي ولا اثبات وان كان أكثر أدلة أهل الهيئة الجديدة فيما خالفوا فيه أهل الهيئة القديمة مبنيا على المشاهدات بالنظارات المعظمة القوية والارصاد الصحيح والادلة الهندسية والحسابية بواسطة الآلات الكاملة وعدم توفرها لدى المتقدمين * وأما ما اتفق عليه علماء الهيئتين وأقاموا عليه الادلة القطعية على وجه ماذكر فهو مما لاشك لاحد فيه * وقد علمت أن أكثر الاخبار والآيات متفقة تمام الاتفاق مع ماجاءت به الهيئة الجديدة متعلقا بالاجرام السماوية وأن الكواكب تسبح وتجري في أفلاكها كما يسبح ويجري السمك في الماء وأن السماء ساكنة وان لاحركة الا للكواكب في مجاريها وان تلك المجاري التي هي الافلاك مدارات في السماء وليست هي كل السماء بل السماء عبارة عن الاجرام ومداراتها وما منه مداراتها * وقد اعترف الالوسى نفسه في عدة مواضع أن الحمل على ماقالوه أولى متى كان غيره مما جاء به الشرع مخالفا للدليل العقلي أو بعيدا جدا عما يقتضيه وقد حمل هو وغيره كالامام الرازي والبيضاوي كثيرا من الآيات القرآنية على ما يقوله الفلاسفة لجزالة المعنى اذا حملت الآية على ماقالوه *

ونحن لانذهب بك بعيدا ونقول ان ماقاله علماء الهيئة اليوم من ان الكواكب فلك أوسفن عجائب القدرة مواخر في بحر جو الفضاء الى آخر ماتقدم منطبق تمام الانطباق على ماقدمناه عن الالوسى في تفسيره من انه جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى كل في فلك يسبحون وقوله تعالى كل يجري لاجل مسمى من ان الكواكب تسبح في أفلاكها وتجري فيها كما يسبح السمك ويجري في الماء وما قضت به الاحاديث

الصحيحة من بعد السماء الدنيا عن الارض وبعد كل سماء عن التي تحتها وأن نسبة الارض الى السماء الدنيا كحلقة القيت في فلاة ونسبة السماء الدنيا الى السماء الثانية كحلقة القيت في فلاة وهكذا نسبة كل سماء للتي فوقها وأما قوله وان رؤيت قريبة لسبب خفي الى الآن عليهم فلعله باعتبار زمنه والافسببه الآن ظاهر وهو ان الاجرام المضيئة ترى عادة قريبة وان بعدت وذلك واضح اذا جربته في النار الملتهبة فانها ترى قريبة وان كانت في الواقع بعيدة كما ان الكواكب ترى متقاربة لشدة بعدها عنا وان كانت هي في الواقع متباعدة بعضها عن بعض بعدا شاسعا كما تقدم فتدبر

وأما ماقاله الفلاسفة وعلماء الهيئة الاقدمون فقد قال الالوسى في تفسير قوله تعالى افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج أي اغفلوا وعموا فلم ينظروا حين كفروا بالبعث الى السماء فوقهم بحيث يشاهدونها كل وقت * قيل وهذا ظاهر على ماهو المعروف بين الناس من ان المشاهد هو السماء التي هي الجرم المخصوص الذي يطوى يوم القيامه وقد وصف في الآيات والاحاديث بما وصف * واما على مذهب الفلاسفة من ان المشاهد انما هو كرة البخار وهواء ظهر بهذا اللون ولالون له حقيقة ودون ذلك الجرم ففيه خفاء

وقال بعض الافاضل في هذا المقام ان ظواهر الآيات والاخبار ناطقة بان السماء مرئية وماذكره الفلاسفة المتقدمون من ان الافلاك اجرام صلبة شفافة لاترى غير مسلم أصلا وكذا كون السموات السبع هي الافلاك السبعة غير مسلم عند المحققين وكذا وجود كرة البخار وان مابين السماء والارض هواء مختلف الاجزاء في اللطافة فكلما علا كان الطف حتى انه ربما لايصلح للتنفس ولا يمنع خروج الدم من المسام الدقيقة جدا لمن وصل اليه وان رؤية الجو بهذا اللون لاينافي رؤية السماء حقيقة وان لم تكن نفسها ملونة به ويكون ذلك كرؤية قعر البحر أخضر من وراء مائه ونحو ذلك مما يرى بواسطة شيء على لون وهو في نفسه على غير ذلك اللون بل قيل ان رؤية السماء مع وجود كرة البخار على نحو رؤية الاجرام المضيئة كالقمر وغيره * وانت تعلم ان الاصحاب مع الظواهر حتى يظهر دليل على امتناع مايدل عليه وحينئذ يؤولونها وان التزام التطبيق بين ما نطقت به الشريعة وماقاله الفلاسفة مع اكذاب بعضه بعضا اصعب من المشي على الماء او العروج الى السماء انتهى

قال الالوسى وانا أقول لابأس بتأويل ظاهر الدليل النقلي تأويلا قريبا لشيء من الفلسفة اذا تضمن مصلحة شرعية ولم يستلزم مفسدة دينية وارى الانصاف من الدين ورد القول احتقار القائلة غير لائق بالعلماء المحققين * هذا وحمل بعض السماء على جنس الاجرام العلوية وهو كما ترى والظاهر انها الجرم المخصوص وانها السماء الدنيا اي أفلم ينظروا الى السماء الدنيا كيف بنيناها احكمناها. ورفعناها بغير عمد وزيناها للناظرين بالكواكب المرئية على أبدع نظام ومالها من فروج أي من فتوق وشقوق والمراد سلامتها من كل عيب وخلل فلا ينافي القول بان لها ابوابا وعن بعضهم ان المراد انها متلاصقة الطباق وهو ينافي ماورد في الحديث من ان بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام واحتج بقوله سبحانه ومالها من فروج الفلاسفة على امتناع الخرق

وانت تعلم ان نفي الشيء لايدل على امتناعه على انك قد سمعت المراد بذلك ولايضر كونه ليس معنى حقيقيا لشيوعه انتهى

فانظر الى ماقاله بعض الافاضل من أنه لايسلم كون الافلاك صلبة ولا كون السموات السبع هي الافلاك السبعة ولا وجود كرة البخار ولا أن مابين السماء والارض هواء مختلف الى آخره ويقول أن رؤية الجو بهذا اللون لاتمنع رؤية السماء حقيقة وان لم تكن في نفسها ملونة به وشبهها برؤية قعر البحر أخضر من وراء مائه الى آخره فان الماء جوهر شفاف يتلون بلون غيره ولالون له والهواء كذلك * وكل هذا الذي انكره هذا الفاضل مما

قال به الفلاسفة الاقدمون و ينكره علماء الهيئة اليوم وهو أيضا يصادم ماجاء فى قصة المعراج من الاحاديث الصحيحة من أنه صلى الله عليه وسلم عرج الى السموات حتى رآى من عجائبها مارای رآى من آيات ربه الكبرى كما أنه علم أن قوله تعالى مالها من فروج هو فى معنى هل ترى من فطور * فالفروج والفطور بمعنى واحد وهى أن السماء سالمة من كل عيب وخلل فاعرف الحق وكن شاكرا

ولنرجع لما كنا فيه متعلقا برجم الشياطين تتميما للفائدة فنقول واما قوله تعالى وجعلناها رجوما للشياطين فقد قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه الضمير يرجع للمصابيح على ماهو الظاهر لا للسماء على معنى جعلنا منها أى من جهتها كماقيل والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمى به مايرجم به أى يرمى فصار له حكم الاسماء الجامدة ولذا جمع وان كان الاصل فى المصادر أنها لا تجمع * وقيل انه هنا مصدر بمعنى الرجم أيضا والمراد بالشياطين مسترقو السمع ورجمهم على مااشتهر بانقضاض الشهب المسبب عن الكواكب واليه ذهب غير واحد من المفسرين وهو مبنى على ماقرره الفلاسفة المتقدمون من أن الكواكب نفسها غير منقضة وانما المنقض شعل نارية تحدث من أجزاء متصاعدة لكرة النار لكنها بواسطة تسخين الكواكب للارض فالتجوز فى اسناد الجعل اليها أوفى لفظها وهو مجاز بوسائط * وقال الشهاب لامانع من أن يكون المنقض نفسه من جنس الكواكب وان خالف اعتقاد الفلاسفة وأهل الهيئة ولكن فى النصوص الالهية مافيه رجوم الشياطين انتهى * قال الالوسى وأقول لايخفى أن ذلك المبنى لايتم الا بثبوت كرة النار الذى لانراهم يستدلون عليه الا بحدوث هذه الشهب وسلف الامة لايقولون بذلك وكذا اهل الفلسفة الجديدة وهؤلاء لم يحققوا الى الآن أمر هذه الشهب لكن يميلون الا أنها أجسام انفصلت عن الكواكب التى يزعمونها عوالم مشتملة على جبال ونحوها اشتمال الارض على ذلك وخرجت لبعض الحوادث من حد القوى الجاذبة لها الى ماانفصلت عنه ولم تصل الى حد جذب قوى الأرض لها فبقيت تدور عند منتهى كرة الارض ومايحيط بها من الهواء فاذا عرض لها الدخول فى هواء الارض اثناء حركتها احترقت كلا أو بعضا كما تحترق بعض الاجسام المحفوظة عن الهواء اذا صادمها الهواء وربما تصل فى بعض حركاتها الى حد جذب الارض فتقع عليها * و بعضهم يزعم فى الحجارة الساقطة من الجو التى تسمى عندهم بالايرلوليت يعنون حجارة الهواء وانها من تلك الاجسام وكل ذلك حديث خرافة ورجم بظنون فاسدة وقصارى مايقال فى هذه الشهب انها يحتمل أن تكون ناشئة من أجرام من جنس الكواكب فيها قوة الاحراق سواء كان كل مضىء محرقا أم لا متكونة فى جو هذا الفضاء المشاهد الا أنها لغاية صغرها لاتشاهد ولو بالنظارات حتى اذا قربت بانقضاضها شوهدت وقد تصادف فى انقضاضها أجساما متصاعدة من الارض فتحرقها وربما تصل الحريق الى مايقرب من الارض جدا وربما تكونت الحجارة من ذلك ثم ان العقل يجوز أن يكون لها دوران على شكل من الاشكال فترجع بعد مايشاهد لها من الانقضاض وان تتلاشى بعد انقضاضها و يخلق الله غيرها من مادة لايعلمها الا هو عز وجل اه ماقاله الالوسى

وأقول أى فرق بين ماقاله وعول عليه بقوله وقصارى مايقال الى آخره و بين ماقاله علماء أهل الهيئة اليوم من أن الكواكب ذوات الاذناب هى منشأ الشهب على الوجه الذى فصلوه وقدمناه فان ذوات الاذناب من جنس الكواكب فيها قوة الاحراق فهو عين ماقاله من أنها يحتمل أن تكون ناشئة من أجرام من جنس الكواكب فيها قوة الاحراق الى آخره غاية الامر أن علماء الهيئة عينوا هذه الاجرام بأنها ذوات الاذناب والالوسى لم يعين ذلك ولذلك قال فى كشف الاسرار القرآنية

فان قيل جعل الكواكب زينة يقتضى بقاءها واستمرارها وجعلها رجوما للشياطين و رميهم بها يقتضى زوالها والجمع بينهما متناقض

قلنا ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بنفس أجرام الكواكب بل يجوز أن ينفصل من الجو شعل ترمى الشياطين بها كما قدمنا الاشارة الى ذلك وتلك الشعل هى الشهب وماذاك الا كقبس يؤخذ من النار والنار باقية انتهى واقتصر على ذلك وهذا كما ينطبق على مذهب المتقدمين من الفلاسفة ان انفصال الشعل من الجو بواسطة أشعة الكواكب الاصلية ينطبق على مذهب المتأخرين منهم ان قلنا انها بواسطة ذوات الاذناب وهذه كواكب والاصلية كواكب أيضا فتكون الشهب على كل حال ناشئة من أجرام من جنس الكواكب كما هو الاحتمال الذى عول عليه الالوسى

والذى أشار اليه صاحب الاسرار القرآنية وأحال عليه فى كلامه السابق هو قوله فان قيل ان جعلها زينة وحفظا يقتضى بقاءها فهلا يتناقض مع قوله تعالى فى سورة تبارك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين قلنا ليس معنى الرجم هو أنهم يرمون باجرام الكواكب بل يجوز أن ينفصل عن الكواكب شعل ترمى الشياطين بها وتلك الشعل هى الشهب وماذاك الا كقبس يؤخذ من النار والنار باقية اه * ومن هذا تبين ان قول صاحب الاسرار بل يجوز أن تنفصل من الجو الى آخره معناه تنفصل من الكواكب أولا ومن الجو فيما يراه الناظر فلا تنافى بين ماقاله وبين ما أحال عليه على أن الكواكب الاصلية موجودة مشاهدة وذوات الاذناب موجودة مشاهدة عند ظهورها والشهب كذلك فكل هذه الاجرام لاشك ولاريب فى وجودها والآيات القرآنية انما جاءت بأن من يسترق السمع من الشياطين أتبعه شهاب مبين أو ثاقب وأن الله جعل المصابيح رجوما فيتعين للتوفيق بين الآيات ان يكون الرمى والرجم بنفس الشهب فهى كالنبل وان المصابيح والنجوم والكواكب كالقوس لاترمى نفسها بل بواسطتها عملا بما يشاهد من أن المنقض هو الشهب دون الكواكب و بعد ذلك لايهمنا فيما ترمى إليه الآيات القرآنية وسيقت له أن نعرف منشأ هذه الشهب و إنما نترك البحث فى ذلك للعلماء الاخصائيين المختصين بذلك والعقيدة الاسلامية لاتتوقف على تصديقهم فيما يقولون ولا على تكذيبهم فيه وماجاءت به الآيات حق لا شبهة فيه لا يختلف ولا يتخلف باختلاف الاسباب فعليك بالانصاف

وقال الالوسى والضمير المنصوب فى جعلناها ان عاد على المصابيح لكن لم يعد عليها الا باعتبار الجنس دون خصوصية كونها مزينة بها السماء الدنيا نظير مايعمر من معمر ولاينقص من عمره وعندى درهم ونصفه لما ان التزيين باعتبار الظهور ولاظهور لهذه الاجرام قبل انقضاضها وان اعتبر فى كونها مصابيح اوكواكب اونحوها ظهورها فى نفسها ولمن يقرب منها دون خصوصية ظهورها الناوفى كونها زينة للسماء الدنيا كونها زينة لها فى الجملة فالامر ظاهر جدا او يحتمل ان تكون ناشئة من المصابيح المشاهدة المزين بها بان ينفصل عنها وهى فى محلها شعل وهى الشهب وماذاك الا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة واليه ذهب الجبائى وكثير وهو محتمل لان يكون لكل منها قابلية ان ينفصل عنها ذلك وأن يكون القابلية لبعضها دون بعض وهذا لعدم الاطلاع على حقائق الاجرام العلوية واحوالها فى انفسها والكلام نحو قولك سكن الامير قبيلة كذا فى ثغر كذا وجعلها ترمى بالبنادق من يقرب منه فانه لايلزم ان يكون لكل واحد منها قابلية الرمى ثم لايلزم ان يكون كل مايشاهد من الشهب قبسا من المصابيح بل يجوز ان يكون بعضه وهو الذى ترمى به الشياطين منها و بعضه من امور تحدث فى الجو من اصطكاك اونحوه وتفاوت الشهب قلة وكثرة يحتمل ان يكون لتفاوت حوادث الجو وان يكون لتفاوت الاستراق وليس فى الآيات والاخبار ماهو نص فى ان الشهب لاتكون الا لرمى الشياطين فيحتمل ان يكون اكثر الشهب من الحوادث الجوية وذوات الاذناب منها فى رأى المتقدمين وهى فى انفسها دون اذنابها نجوم كثيرة جدا تدور كما يدور غيرها من النجوم فتقرب تارة وتبعد اخرى فتخرج عن مدار السيارات بحيث لاتشاهد اصلا عند فلاسفة العصر

ولهم فيها كلام اطول من اذنابها

وقد اورد الامام الرازى فى هذا الفصل أسئلة وشبها اجاب عنها بما اجاب ونحن فعلنا نحو ذلك فيما تقدم على وجه أتم فليتذكر

وقد اطنبنا هنالك الكلام فيما يتعلق بهذا المقام الآن بعضا مما هنا ذكرناه هنالك فخذ من الموضوعين ماصفا ودع ماكدر بعد ان تتأمل حق التأمل وتتدبر انتهى كلام الالوسى * وقد قدمنا فى هذا المقام ما فيه الكفاية * ولا ندرى ما الذى حمل الالوسى على ان يقول فيما قاله علماء الهيئة الجديدة فى ذلك كل ذلك حديث خرافة ورجم بظنون فاسدة * انتهى مع انك قد علمت ان ماقالوه احتمال عقلى كالاحتمالات التى ساقها هو وانه لافرق بين ماقالوه و بين ماقاله بقوله وقصارى مايقال الى آخر ماقدمناه كما انه لافرق بين مايقوله هولاء من ان الشهب اجسام أيضا انفصلت عن الكواكب التى يزعمونها الى آخره على مافيه مما قدمناه وبين ماقاله هو فى الاحتمال الثانى من انها ناشئة من المصابيح المشاهدة المزينة بها بان ينفصل عنها وهى فى محلها شعل هى الشهب الى آخره وقال ان الجبائى ذهب اليه وكثير ايضا * غاية مافيه أن علماء الهيئة اليوم قالوا انها اجسام انفصلت وقال هو انها شعل انفصلت والشعل ايضا اجسام * على انهم قالوا انها اشبه شعلة نار مارة بسرعة وهذا الذى قالوه هو المشاهد بالعيان فى كثير من ليالى السنة وهذا الاحتمال ايضا ينطبق على ماقدمناه من ان معنى كون المصابيح رجوما انها آلة الرجم التى بها تقذف الشهب كالقوس التى هى آلة يقذف بها النبال ولايكون ايضا فرق بين ماقاله هو وبين ماقاله الفلاسفة الاقدمون من اعتبار المصابيح آلة لرمى الشهب كالبنادق التى يقذف بها الرصاص اهل القبيلة التى سكنها الامير ثغر كذا على الاعداء الابان الفلاسفة الاقدمون قالوا ان ذلك باعتبار ان الشهب تتكون من الدخان اليابس المحترق بواسطة أشعة المصابيح المنبسطة على الجبال والبرارى على ماقدمناه ولافرق بين ماقاله أيضا وبين ماقاله فلاسفة اليوم الابان فلاسفة اليوم قالوا ان الشهب اجسام انفصلت عن النجوم ذوات الاذناب بالكيفية التى قدمناها واذا كان الاستاذ الالوسى قال ان الآيات والاخبار ليس فيها ماهو نص فى ان الشهب لاتكون الا لرمى الشياطين الى آخره فكما انها لانص فيها على ذلك لا نص فيها على ماتتكون منه الشهب ولذلك فرع على ماقاله قوله فيحتمل ان يكون اكثر الشهب من الحوادث الجوية وذوات الاذناب منها فى رأى المتقدمين وهى فى انفسها دون اذنابها نجوم كثيرة الى آخر ماحكاه عن فلاسفة العصر فجعل ما قاله المتقدمون احتمالا وما جمله فلاسفة اليوم احتمالا آخر لعدم وجود نص على الحقيقة فى الآيات القرآنية والاخبار النبوية على شىء يتعلق بتكوينها وغاية ما جاء فى الآيات والاخبار الصحيحة كما قلنا ان مر يسترق السمع من الشياطين يرمى بالشهب و يرجم بها وانه جعل المصابيح رجوما ولم يجىء فيها مايدل على كيفية تكوين الشهب فى الجو وإن كنا نشاهدها جوالة فيه ولا على تكوين غيرها من ذوات الاذناب وقوس قزح والصواعق والبرق وغير ذلك من حوادث الجولان غرض الشارع دائما أنه يقتصر فيما سيقت له الآيات والاخبار الصحيحة على مايعرفه كل انسان من ذلك و يكون مشاهدا بالعيان من حوادث الجو تاركا بيان الاسباب والعلل الكونية التى تنشأ عنها تلك الحوادث لارباب العقول من البشر الذين خلقوا لينظروا فى ملكوت السموات والارض ومابينهما ويبحثوا عن ذلك بعقولهم وافكارهم و بالوسائط التى يرشدهم الله اليها و يلهمهم اياها بمقتضى غرائزهم الانسانية فيجب ان اردنا الخوض فى ذلك ان نرجع اليهم وناخذ عنهم العلل الصحيحة التى تثبت بمقتضى البراهين العقلية الصحيحة بدون تحيز الى فريق دون فريق الا ترى أن القرآن جاء بلغة العرب وترك بيان معانى الفاظه العربية للعرب وناقلى لغتهم وجاء بالادلة المنطقية وترك بيان مايتعلق بها من قضاياها ومن تركيب اشكالها وغير ذلك الى أهل المنطق ونحن نرجع اليهم فى ذلك كله وهكذا سائر العلوم التى

يتوقف عليها بيان مقاصد القرآن والحديث يرجع فى كل علم منها الى مادونه أهله ونأخذ منه ما هو الصحيح ونحمل عليه آيات الله فى كتابه وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا معنى بعد هذا لأن نجعل ما قاله فريق وهو احتمال عقلى يصح حمل الآيات و لأحاديث عليه حديث خرافة ورجما بالظنون الفاسدة وأن نجعل ماقاله فريق آخر وهو احتمال عقلى أيضا جائز القبول وحمل الآيات والأخبار عليه ولا نجعله حديث خرافة ورجما بالظنون الفاسدة مع أن ماقاله فلاسفة اليوم من اشتمال الكواكب على جبال وغير ذلك مما قدمناه إنما قالوه فى بعض الكواكب السيارة لافى ذوات الأذناب بناء على إستكشاف ذلك بالنظارات المكبرة التى لم تكن موجودة فى زمن الفلاسفة المتقدمين ولو وجدت تلك الآلات فى عصر المتقدمين فالغالب على الظن أن يقول أولئك بما قاله المتأخرون ولله فى خلقه شؤون و يخلق ما لاتعلمون كما أن المتقدمين بنوا ماقالوه فى الشهب على المشاهدات والادلة القريبة عقلا من الصواب فقالوا إن مادة الشهب دخان يابس وأن الذى يدل على ذلك كثرة مايرى منها فى سنى الجدب على مافصله بكتاب إخوان الصفا فارجع اليه تزدد علما وقالوا فى كيفية شعل هذه الادخنة على ماهو مذكور فيه أيضا أن هذه الادخنة إذا صعدت واشتعلت فيها النار وجدت تارة كأنها أعمدة مخروطة قائمة قاعدتها مما يلى جهة فوق ومخروطها مما يلى وجه الارض ودليل ذلك أنها إذا اشتعلت فيها النار نرى عظيمة الاشتعال ثم لاتزال تصغر وتتخرط وتقل حتى تنطفى فيتخيل للناظرين أنها نار هوادى تنزل من السماء فى حركتها وتارة ترى حركتها عند إنقضاضها كأنها كرة صغيرة هوادى متدحرجة على سطح كرة كبيرة وذلك أنا نراها أحيانا عند إنقضاضها واشتعالها تبتدىء حركاتها من المشرق فتمر على سمت رءوسنا إلى الشمال وتارة من الشمال إلى الجنوب وتارة تتنكب الى هذه الجهات فيتخيل للناظرين أنها كرة من قطن اشتعلت فيها النار ثم رميت فى الهواء وكلما أكلته النار تتناثر شررها وصغرت حتى تفنى وتنطفىء ومثالها الكرة التى يلعب بها أصحاب الخيالات بالليل وذلك انهم يتخذون كرة معجونة من سندروس وأجزاء عقاقير ويشعلون فيها النار و يأخذونها فى أفواههم فاذا رقصوا أو تنفسوا رأيت النار تخرج من أفواههم ومناخرهم ولايزال ذلك دأبهم حتى تفنى تلك المادة وتنطفىء تلك النار انتهى ملخصا *

وقد نقلنا عنه سابقا فساد مايظنه كثير من الناس أن هذه الشهب هى كواكب تسقط و يرمى بها من السماء فى الهواء الى الارض وفساد استدلالهم على ماظنوه بهذه الآية وفسرها على وفق ماقاله الجبائى وكثير وذكره الالوسى احتمالا فى لآية كما سبق قريبا

وقد قال فى اخوان الصفا أيضا إن أهل صناعة النجوم متفقون على أن هذه الكواكب الثابتة فى الفلك الثامن من وراء فلك زحل الذى هو الكرسى الواسع كما قاله فى رسالة السماء والعالم و إنما قال الله تعالى إنها زينة لسماء الدنيا لان أهل الارض لا يرونها الا دون فلك القمر الذى هو السماء الدنيا ومما يدل على أن هذه الشهب تحدث قريبة من الارض بعيدة من فلك القمر سرعة حركتها فانها فى لحظة تمر من المشرق الى المغرب او من المغرب الى المشرق ولو كانت قريبة من فلك القمر لما دارت حركتها بهذه السرعة وهذه الشهب اذا حدثت فمرت مقبلة على الناظرين وجازت على سمت رءوسهم الى الجانب الآخر ذاهبة الى الافق بسيرها على الروية فيتخيل للناظرين انها وقعت الى الارض وليس الامر كذلك لانها مادة خفيفة تطلب العلو ولا يزيدها اشتعالها الا خفة فاما التى تقع منها على الارض فهى التى تحدث فى كرة النسيم فيضغطها السحاب ويردها الى أسفل كنار البرق الذى يضغطه السحاب من فوق الى أسفل انتهى ملخصا *

هذا ماقاله الفلاسفة المتقدمون فأنت تراه كله مبنيا على مايشاهدونه من حركات الشهب واشتعالها وأشكالها فى الجو بأبصارهم وقد بينا ماقاله علماء الهيئة اليوم فى ذوات الاذناب والشهب والنيازك والاحجار

وقالوا قلما نوجد فى فلاة فى ليلة صافية بعض ساعات بدون ان نرى عدة شهب ونيازك مثل نقطة نيرة لامعة تنقض فى الفضاء بسرعة تاركة اذنابها نيرة وراءها واكثرها يحترق فى الهواء ولكن بعض الاحيان تسقط الى الارض وتغرز فيها من سرعة سقوطها وبعض الشهب تضاهى المشترى والقمر نورا بعض الثوانى واذا سقطت الى الارض يستطيع الكيماوى أن يفحصها ويستعلم مادتها ومن فحص عدة منها وجد أن بعضها حجارة و بعضها معادن وقد وجد منها قطع بلغ وزنها عدة قناطير أما الصغار منها فتحترق كلها فى الهواء وتتحول بخارا ولا ينتهى شىء منها الى الارض وان من رصد النيازك وجد أنها فى ليال مختلفة تأتى من أقسام مختلفة من القبة الزرقاء وفى بعض الليالى تكون قليلة وفى بعضها لا تعد ولا تحصى من كثرتها وقد تحقق انها تكثر بقرب اليوم العاشر من شهر (آب) و بقرب أواسط (تشرين) الثانى وشهب (آب) تحضر من جهة الصورة المسماة (برساوس) فسميت الفرساوية والتى تحضر من جهة برج الاسد تسمى الاسدية والتى من جهة صورة (الشلياق) سميت الشلياقية والتى من جهة صورة (الجبار) سميت الجبارية وهلم جرا

وقد علمت ايضا ماقدمناه من انهم قالوا ان الحجارة الجوية والنيازك والشهب أجسام دائرة حول الشمس وعند ماتقرب الى الارض بحيث تغلب جاذبيتها جاذبية الشمس تنحرف عن افلاكها وتجذب نحو مركز الارض ومن سرعة حركتها تولد بمرورها فى الهواء الكروى حرارة كافية لاحراق الصغار منها تماما وتحمى الكبار منها الى درجة اللمعان و يحترق بعضها وتنتهى الى الارض قبل مايحترق كلها وقال بعضهم ان افلاك بعض النيازك ومداراتها توافق افلاك ومدارات بعض ذوات الاذناب فان فلك النيازك فى تشرين الثانى يوافق فلك مذنب صغير اكتشفه بعض علمائهم فى مرسيليا فى ثانى عشر كانون الثانى سنة ١٨٦٥ الف وثمانمائة وخمس وستين قد مر فى نقطة الراس فى حادى عشر كانون الاول سنة ١٨٦٦ الف وثمانمائة وست وستين ومدته ثلاث وثلاثون سنة وتسعة اشهر وفلك نيازك (آب) يوافق فلك المذنب الثالث لسنة ١٨٦٢ الف وثمانمائة واثنتين وستين فدته نحو مائة وأربع وعشرين سنة ومن رصد المذنب الكبير الذى ظهر سنة ١٨٧٤ الف وثمانمائة وأربع وسبعين علم أن جانبا من نور المذنبات وحرارتها حاصل من مصادمة الاجسام الصغار التى تألفت منها التى تتكون منها النيازك اذا سقطت الى هواء كرتنا الارضية كما تقدم وقد تعينت ازمنة سقوط النيازك من عدة صور سماوية اعنى ان افلاكها عن جهة الارض الى الجهة التى سميت باسمها كما تقدم انتهى وتلك الصور التى تقدمت هى عبارة عن صور الكواكب التى تقدم انها منازل القمر والبروج

وقد بيناها سابقا واذا تأملت مانقلناه عن قدماء الفلاسفة وفلاسفة هذا العصر لاترى فرقا بين المذهبين فى مناظر ذوات الاذناب والشهب والنيازك واشكالها وحركاتها وانه ان كان هنالك خلاف فهو فى الاسباب والعلل ومنشئ حدوث ماذكروا أما مايتعلق بحركاتها وأشكالها واختلاف مناظرها وقربها من الارض وغير ذلك من احوالها فالمذهبان متفقان تقريبا فى المعنى ولا خلاف بينهما الا فى العبارات وتعلم انه لا مانع من حمل الآيات القرآنية والاخبار النبوية على أى المذهبين فيما يتعلق بالعلل والاسباب وان كانت الآيات والاخبار لاتحتاج فى بيان ماهو مقصود منها ومسوقة هى اليه الى الوقوف على العلل لان العلل والمعلولات والاسباب والمسببات مصدرها ليس الا الفاعل المختار جل جلاله

وقد قدمنا عن الالوسى انه قال المراد من الشياطين فى الآية مسترقو السمع ورجمهم على ما اشتهر بانقضاض الشهب عن الكواكب واليه ذهب غير واحد من المفسرين وهو مبنى على ماقرره الفلاسفة المتقدمون من ان الكواكب غير منقضة وأن المنقض هو شعل نارية ولاشك ان فلاسفة اليوم أيضا يوافقون على ان الكواكب نفسها غير منقضة وأن المنقض هو الشهب المسببة عنها وكون تلك الشهب تسمى شعلا نارية أولا

تسمى هذا شىء آخر يرجع الى الاصطلاح * نعم مذهب الفلاسفة اليوم فيما يتعلق بالعلل والاسباب أقرب إلى الصواب لكونه مبنيا على مشاهدات ونظريات عملية

هذا وقال الالوسى أيضا فى معنى الآية وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الانس وهم المنجمون المعتقدون تأثير النجوم فى السعادة والشقاوة ونحوهما وقد رددنا عليهم أى رد فيما تقدم فارجع اليه ان أردت فانه نفيس جدا انتهى

ولا يليق حمل الآية على هذا المعنى لانه بعيد عن مقاصد القرآن ومخالف لما اطبق عليه الكل من أن الآيات مسوقة لبيان رجم مسترقى السمع من شياطين الجن على أنه لا يليق بالحكمة الالهية أن يخلق الله الكواكب لتكون ظنونا و رجوما بالغيب لهؤلاء الشياطين والذى يظهر أن بعض من ينكر علم الاحكام ويشنع عليه وعلى أهله تأول الآية على المعنى الذى يساعده على غرضه من التشنيع على هؤلاء الذين منهم الخبيث والطيب* وتتميما للفائدة نسوق ماقاله الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه فى باقى الآيات الآتية فنقول

قال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه أى أقرب السموات من أهل الارض فالدنيا هنا مؤنث أدنى بمعنى أقرب افعل تفضيل بزينة عجيبة بديعة الكواكب بالجر بدل كل على أن المراد بها الاسم أى مايزان به لا المصدر فان الكواكب بأنفسها واوضاع بعضها من بعض زينة وأى زينة قال الشاعر

وكأن أجرام النجوم لوامعا * درر نشرن على بساط أزرق

وظاهر الآية أن الكواكب فى السماء الدنيا ولا مانع من ذلك وان اختلفت حركاتها وتفاوتت سرعة و بطأ لجواز أن تكون فى أفلاكها وأفلاكها فى السماء الدنيا وهى ساكنة ولها من الثخن مايمكن معه تعدد تلك الافلاك المتحركة بالحركات المتفاوتة وارتفاع بعضها فوق بعض وحكى النيسابورى فى تفسير سورة التكوير عن الكلبى ان الكواكب فى قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من نور وتلك السلاسل بايدى الملائكة عليهم السلام وهو مما يكذبه الظاهر ولا اراه الاحديث خرافة * واما ماذهب اليه جل الفلاسفة من أن القمر وحده فى السماء الدنيا وعطارد فى السماء الثانية والزهرة فى السماء الثالثة والشمس فى الرابعة والمريخ فى الخامسة والمشترى فى السادسة و زحل فى السابعة والثوابت فى فلك فوق السابعة هو الكرسى بلسان الشارع فما لا يقوم عليه برهان يفيد اليقين وعلى فرض صحته لا يقدح فى الآية لانه يكفى لصحة كون السماء الدنيا مزينة بزينة الكواكب كونها كذلك فى رأى العين انتهى من الالوسى

وأقول قال فى الاسرار القرآنية فى تفسير هذه الآية لقائل أن يقول ثبت فى علم الهيئة ان هذه الثوابت فى الكرة السادسة والسابعة والثامنة هنالك أكثر من السيارات فى الكرات المحيطة بالسماء الدنيا فكيف يصح قوله انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الارض اذا نظروا الى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب وأيضا الساكنون فى كل كوكب يرون سماء كسمائنا فيصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب اه واقتصر على ذلك ولم يحك غيره لان الخطاب قاصر علينا معاشر سكان هذه الارض الذين يرون هذه السماء التى تظلهم وهى مزينة بالكواكب فيما تراه عيونهم وان كانت الكواكب فوقها فى الواقع وانما قال وايضا الساكنون فى كل كوكب الى آخره بناء على ماهو التحقيق من ان الكواكب مسكونة وقد قدمنا ان كل سماء مما منها الكواكب سماء لما تحتها ارض لما فوقها * ومعنى ذلك ان كل كوكب ارض لما يقلهم من العالم الذى فيه وسماء لما يظلهم من العالم الذى تحته والله اعلم بحقيقة الحال

واذا رجعت الى ماقدمناه من ان ظاهر قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون وقوله كل يجرى لأجل مسمى وماجاء

عن ابن عباس وغيره من ان الكواكب تسبح في افلا كها كما يسبح السمك في الماء ان النجوم انفسها متحركة في افلا كها ومما يتعلق بحركات باقي الاجرام السيارة وابعادها وارتفاعها ومايتعلق بالكسوف والخسوف وان كل كذلك مبني على براهين يقينية ظهرت لعلماء الهيئة اليوم بالارصاد الصحيح بواسطة الآلات الحديثة تعلم ما في هذا الذي قاله الالوسي ومن وافقه * نعم إن انحصار السموات في السبع والكرسي والعرش مخالف للواقع الذي أثبته الاستكشاف الحديث كما قدمه الالوسي نفسه غير مرة * ثم قال تعالى (وحفظا من كل شيطان مارد) أي وحفظنا السماء حفظا من كل شيطان متعرى من الخير * فالمارد والمريد من قولهم شجر أمرد اذا تعرى من الورق ومنه قيل رملة مرداء اذا لم تنبت شيئا ومنه الامرد لتجرده من الشعر وفسر المارد هنا بالخارج عن الطاعة وهو في المعنى المتعرى عنها

وقال تعالى (لايسمعون الى الملاء الاعلى) أي لايتسمعون الى الملاء فأدغمت التاء في السين وضمير الجمع لكل شيطان لانه بمعنى الشياطين * وقرأ الجمهور لايسمعون بالتخفيف * والملأ في الأصل جماعة يجتمعون على رأى فيملئون العيون رواء والنفوس جلالة وبهاء ويطلق على مطلق الجماعة وعلى الاشراف مطلقا والمراد بالملأ الاعلى الملائكة عليهم السلام كما روى عن السدى لانهم في جهة العلو ويقابله الملأ الاسفل وهم الانس والجن لانهم في جهة السفل * وقال ابن عباس هم اشراف الملائكة عليهم السلام وفي رواية اخرى عنه انهم كتابهم وفسر العلو على الروايتين بالعلو المعنوى وتعدية الفعل على قراءة الجمهور بالى لتضمنه معنى الاصغاء أي لايسمعون مصغين الى الملأ الاعلى والمراد نفى سماعهم مع كونهم مصغين وفيه دلالة على وجود مانع عظيم ودهشة تذهلهم عن الادراك وكذا على القراءة الاخرى وهى قراءة ابن عباس بخلاف عنه وابن وثاب وعبد الله بن مسلم وطلحة والاعمش وحمزة والكسائى وحفص بناء على ماهو الظاهر من أن التفعل لايخالف ثلاثيه في التعدية والتفعل مؤذن بالطلب وتسمع بمعنى طلب السمع وقيل ويشعر ذلك بالاصغاء لان طلب السماع يكون بالاصغاء فتتوافق القراءتان وان لم يقل بالتضمين في قراءة التشديد ولعل الاولى القول بالتضمين أى على القراءتين ونفى تطلبهم السماع مع وقوعه منهم حتى قيل انه يركب بعضهم بعضا لذلك أما ادعائى للمبالغة في نفى سماعهم أو هو على ما قيل بعد وصولهم الى محل الخطر لخوفهم من الرجم حتى يدهشوا عن طلب السماع وقال أبو حيان ان نفى السماع لانتفاء ثمرته وهو السمع والمراد حفظ السموات ممن لايتسمع أولا يسمع بهذا الحفظ وهو نظير ثم أرسلنا رسلنا وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ومن هنا لم يجعل بعض الاجلة قوله عليه الصلاة والسلام من قتل قتيلا فله سلبه من مجاز الاول أى إنما انتفى التسمع أو السماع بهذا الحفظ لايحفظ آخر كما أن الرسل إنما كانوا رسلا بهذا الارسال وكذلك يقال فيما بعده * وما تعقب الالوسى به هذا القول لاوجه له *

وقال تعالى (ويقذفون من كل جانب دحورا) اى يرمون ويرجمون من كل جانب من جوانب السماء اذا قصدوا لصعود اليها وليس المراد أن كل واحد يرمى من كل جانب بل هو على التوزيع اى كل من صعد من جانب رمى منه وقرأ محبوب عن ابى عمرو يقذفون بالبناء للفاعل ولعل الفاعل الملائكة فضمير الجمع يرجع الى الملا الاعلى وجوز ان يكون الكواكب لانها آلة القذف فالاسناد اليها كاسناد الذبح الى السكين وضمير العقلاء على هذا سهل

وقوله تعالى دحورا مفعول لأجله فهو علة للقذف اى للدحور وهو الطرد والابعاد

وقوله (ولهم عذاب واصب) معناه لهم في الاخرى عذاب آخر غير ما في الدنيا واصب اى دائم وقوله تعالى (الا من خطف الخطفة) استثناء متصل من قوله تعالى لايسمعون والخطف الاختلاس والاخذ بخفة وسرعة على غفلة المأخوذ منه والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة بلام العهد لان المراد بها امر

معين معهود وقوله تعالى (فأتبعه شهاب ثاقب) قال الالوسى في تفسيره وغيره في غيره بمعناه الشهاب في الاصل الشعلة الساطعة من النار الموقدة والمراد به العارض المعروف في الجو الذي يرى كانه كوكب منقض من السماء وثاقب مضئ كما قال الحسن وقتادة كانه ثقب الجو بضوئه * واخرج ابن ابى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابى حاتم عن يزيد الرقاشى انه قال يثقب الشيطان حتى يخرج من الجانب الآخر فذكر ذلك لأبى مجلز فقال ليس ذاك ولكن ثقوبه ضوؤه * وأخرج ابن ابى حاتم عن ابن زيد الثاقب المتوقد وهو قريب مما تقدم وليست الشهب نفس الكواكب التى زينت بها السماء فانها لاتنقض والا لانتقصت زينة السماء بل لم تبق على ان المنقض ان كان نفس الكوكب بمعنى انه ينقطع عن مركزه ويرمى به الخاطف فيرى لسرعة الحركة كرمح من نار لزم ان يقع على الارض وهو ان لم يكن أعظم منها فلا أقل من أن ما انقض من الكواكب من حين حدث الرمى الى اليوم أعظم منها بكثير فيلزم ان تكون الارض اليوم مغشية باجرام الكواكب والمشاهدة تكذب ذلك بل لم نسمع بوقوع جرم كوكب اصلا وأصغر الكواكب عند الاسلاميين كالجبل العظيم وعند الفلاسفة اعظم وأعظم بل صغار الثوابت عندهم اعظم من الارض وان التزم انه يرمى به حتى اذا تم الغرض رجع الى مكانه قيل عليه انه يلزم أن يسمع لهوىه صوت هائل فان الشهب تصل الى محل قريب من الارض وأيضا عدم مشاهدة جرم كوكب هابطا أو صاعدا يأبى احتمال انقلاع الكوكب والرمى به نفسه وان كان المنقض نوره فالنور لاأذى فيه فالارض مملوءة من نور الشمس وحشوها الشياطين * على انه ان كان المنقض جميع نوره يلزم انقضاض الزينة أو ذهابها بالكلية وان كان بعض نوره يلزم ان تتغير أضواء الكواكب ولم يشاهد في شيء منها ذلك وأمر انقضاضه نفسه او انفصال ضوئه على تقدير كون الكواكب الثوابت في الفلك الثامن المسمى بالكرسى عند بعض الاسلاميين وانه لاشيء في السماء الدنيا سوى القمر أبعد وأبعد والفلاسفة يزعمون استحالة ذلك لزعمهم عدم قبول الفلك الخرق والالتئام الى أمور أخر ويزعمون في الشهب انها أجزاء بخارية دخانية لطيفة وصلت الى كرة النار واشتعلت وانقلبت نارا ملتهبة فقد ترى ممتدة الى طرف الدخان ثم ترى كانها طفئت وقد تمكث زمانا كذوات الاذناب وربما تتعلق بها انفس على ما فصلوه وهم مع هذا لايقولون بكونها ترمى بها الشياطين بل هم ينكرون حديث الرمى مطلقا وفي النصوص الالهية رجوم لهم اه من الالوسى

وأقول ان الذين ينكرون حديث الرمى مطلقا اعاهم غير الاسلاميين منهم وأما الاسلاميون منهم المعتقدون ان كل ما جاء في القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهم يقولون بحديث رمى الشياطين الذين يسترقون السمع ويؤمنون به على الوجه الذي نطق به الآيات القرآنية ويفسرون تلك الآيات بان الكواكب يرمى عنها بالشهب لا انها يرمى بها انفسها كالقوس يرمى عنها النبل ولا يرمى بها نفسها على الوجه الذى تقدم نقله عن اخوان الصفا وهو عين ما عليه على الجبائى وغير واحد من المفسرين كما سبق * وبعد ان اعترف الالوسى فيما قدمناه عنه هنا بان المراد بالشهاب العارض المعروف في الجو الذى يرى كانه كوكب منقض من السماء وأن الشهب ليست نفس الكواكب التى زينت بها السماء لانها لاتنقض وأطال في بيان ذلك وانه بعيد وانه على القول بان الثوابت في الفلك الثامن أبعد وأبعد وانه مستحيل على رأى الفلاسفة عاد فقال ولعل أقرب الاحتمالات في أمر الشهب ان الكوكب يقذف بشعاع من نوره فيصل اثره الى هواء متكيف بكيفية مخصوصة يقبل بها الاشتعال بما يقع عليه من شعاع الكوكب بالخاصية فيشتعل فيحصل ما يشاهد من الشهب وان شئت قلت ان ذلك الهواء المتكيف بالكيفية المخصوصة اذا وصل الى محل مخصوص من الجو اثرت فيه اشعة الكواكب بما أودعه الله فيها من الخاصية فيشتعل فيحصل ما يحصل وتحصيل الاشعة الحرق في القابل له مما لاينكر فأنت ترى شعاع الشمس اذا قوبل ببعض المناظر على كيفية مخصوصة احرق قابل الاحراق ولو توسط بين المنظرة

وبين القابل اناء بلور مملوء ماء ويقال ان الله تعالى يصرف ذلك الحاصل الى الشيطان المسترق للسمع وقد يحدث ذلك وليس هنالك مسترق

ويمكن أن يقال انه سبحانه يخلق الكيفية التى بها يقبل الهواء الاحراق فى الهواء الذى فى جهة الشيطان ولعل قرب الشيطان من بعض أجزاء مخصوصة من الهواء معد بخاصية أحدثها الله تعالى فيه بخلقه عز وجل تلك الكيفية فى ذلك الهواء القريب منه مع أنه عز وجل يخلق تلك الكيفية فى بعض أجزاء الهواء حيث لا شيطان هنالك وان شئت قلت انه يخرج شؤبوب من شعاع الكوكب فيتأذى به المارد أو يحترق والله تعالى قادر على أن يحرق بالماء ويروى بالنار والمسببات عند الاسباب لا بها وكل الاشياء منه واليه تعالى ابتداء عند الاشاعرة ولا يلزم على شئ مما ذكر انتقاص ضوء الكوكب ولو سلم أنه يلزم انتقاص على بعض الاحتمالات قلنا انه عز وجل يخلق بلا فصل فى الكوكب بدل ما نقص منه وأمره سبحانه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * ولا ينافى ماذكرنا قوله تعالى * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين لان جعلها رجوما يجوز أن يكون لانه بواسطة وقوع أشعتها على ماذكر من الهواء تحدث الشهب فهى رجوم بذلك الاعتبار * ولا يتوقف جعلها رجوما على أن تكون نفسها كذلك بأن تنقلع من مراكزها ويرجم بها وهذا كما تقول جعل الله الشمس يحرق بها بعض الاجسام فانه صادق فيما إذا أحرق بها بتوسط بعض المناظر وانعكاس شعاعها على قابل الاحراق * وزعم بعض الناس أن الشهب شعل نارية تحدث من أجزاء متصاعدة الى كرة النار وهى الرجوم ولكنها بواسطة تسخين الكواكب للارض قال سبحانه وجعلناها رجوما على التجوز فى اسناد الجعل اليها أو فى لفظها * ولا يخفى أن كرة النار مما لم يثبت فى كلام السلف ولا ورد فيها عن الصادق عليه الصلاة والسلام خبر * وقيل يجوز أن تكون المصابيح هى الشهب وهى غير الكواكب وزينة السماء بالمصابيح لا يقتضى كونها فيها حقيقة بل يكفى كونها فى رأى العين كذلك * وقيل يجوز أن يراد بالسماء جهة العلو وهى مزينة بالمصابيح والشهب كما هى مزينة بالكواكب * وتعقب هذا بأن وصف السماء بالدنيا يبعد ارادة الجهة منها * وتعقب ما قبله بأن المتبادر أن المصابيح هى الكواكب ولا يكاد يفهم من قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وقوله سبحانه ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح الا شئ واحد وان كون الشهب المعروفة زينة السماء مع سرعة تقضيها وزوالها وربما دهش من بعضها مما لا يسلم * والقول بانه تجوز بالكوكب عن الشهاب للمشابهة فيجوز أن يراد بالكواكب ما يشمل الشهب وزينة السماء على ما مر آنفا * فيه على ما تقدم مالا يخفى * نعم يجوز أن يقال ان الكوكب ينفصل منه نور واذا وصل الى محل مخصوص من الجو انقلب نارا ورؤى منقضا ولا يعجز الله عز وجل شئ * وقد يقال إن فى السماء كواكب صغارا جدا غير مرئية ولو بالارصاد لغاية الصغر وهى التى يرمى بها انفسها * وقوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين من باب عندى درهم ونصفه وأنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا الآية ان كان على معنى وحفظا بها فهو من ذلك الباب أيضا والا فالامر أهون فتدبر انتهى من الالوسى * ثم ساق كلاما طويلا فى بيان اختلاف العلماء فى ان الشيطان المرجوم يهلك بالرجم أو لا يهلك وفى كيفية استراق السمع واعتراضات على ذلك من جنس الاعتراضات التى قدمناها عن الامام الرازى وفى أجوبة عنها من جنس تلك الاجوبة

ومتى اطلعت على ماقلناه ترى أن ماقاله هو وغيره ههنا وهنالك تطويل بلا طائل وأن جميع الاحتمالات التى ذكرها هنا كلها احتمالات عقلية لا تخالف ماقاله علماء الهيئة قديما وحديثا الا من جهة أن علماء الهيئة بينوا حقيقة الشهب وماهى عليه والاحتمالات التى ساقها لم يتبين فيها ذلك وقد علمت معنى الشهاب لغة كما علمت المراد منه فى الآية وأن الشهاب مشاهد بالمعاينة وأنه غير الكواكب وأننا ما شاهدنا ولا شاهد أحد ممن تقدموا

من عهد أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا أن كوكبا صغيرا أو كبيرا انقض من السماء على أن بعض الاحتمالات غير معقول وان كان جائزا عقلا كاحتمال خروج شؤبوب من شعاع الكوكب وكون الله تعالى قادرا على أن يروى بالنار ويحرق بالماء شئ وكونه تعالى ربط المسببات بالاسباب وجعل ذلك سنته فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا شئ آخر وماقاله الاشاعرة من أن المسببات عند الاسباب لا بها لا يقصدون منه إلا نفى تأثير الاسباب فى المسببات ولا ينفون ارتباط المسببات بأسبابها كيف وبين السبب بوصف كونه سببا وبين المسبب بوصف كونه مسببا عن ذلك السبب تضايف يمنع من وجود مسبب بلا سبب كما لا يخفى *

وبناء على ذلك نقول ان مما لا شك فيه أن الشهب من الحوادث الكونية الجوية وحدوثها كحدوث غيرها من سائر الحوادث العينية الكونية فيتوقف حدوثها على حدوث أسبابها بحيث لا يمكن عقلا بناء على ماهو الحق من أن ارتباط الاسباب بالمسببات عقلى وأن الخلاف لفظى أن لا يحدث شئ منها الا مرتبا على حدوث سببه وإن كانت تلك الاسباب لا تأثير لها بذاتها فى المسببات باتفاق العقلاء بل كل من المسبب والسبب حادث بتأثير الله تعالى وإيجاده لكن جرت سنة الله فى هذا العالم الذى هو عالم الكون والفساد وعالم المادة والماديات أن لا يوجد شئ الا بسبب يفضى اليه وعلة يتوقف حدوثه عليها ومادة يتكون منها هكذا قضت سنة الله وحكمته كما هو مشاهد فى كل موجود يوجد فى هذا العالم وذلك كله انما هو لنقص فى تلك الممكنات وحاجتها فى وجودها وقبولها التأثيرات الالهية الى تلك الاسباب والعلل والمواد وكما قضت حكمته تعالى بذلك فى هذا العالم قضت أيضا أن يرتبط العالم كله علويه وسفليه بعضه ببعض ويحتاج اللاحق منه للسابق لا لعجز فى واجب الوجود ولا لبخل منه وانما ذلك لنقص فى الممكنات ولاظهار حاجتها فقضت حكمته سبحانه أن يجعل لكل ممكن يوجد سببا خاصا ولكل كائن مادى سببا خاصا ومادة خاصة * ألا ترى أن الله تعالى خلق آدم وحواء من طين فجعله حمأ مسنونا ثم صلصالا كالفخار ثم سواه ونفخ فيه من روحه فجعله حيوانا ناطقا وكان قادرا على أن يخلقه من أول الامر حيوانا ناطقا وكذلك جعل سبب وجود نوع الانسان بعد ذلك بطريق التوالد بين ذكر وأنثى فخلقه من نطفة تخرج من بين الصلب والترائب بعد أن تتكون من مادة خاصة بكيفية خاصة ثم بعد أن تستقر النطفة فى الرحم تصير علقة ثم مضغة ثم عظاما يكسوه لحما ثم ينشئه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ولو شاء لجعله من أول الامر حيوانا ناطقا وهكذا جرت عادته وسنته فى سائر الحيوانات برية كانت أو بحرية غير انه سبحانه وتعالى جعل توالد بعضها بايلاج الذكر فى فرج الانثى وبعضها بطريق السفاد والبيض وغير ذلك ولو شاء لخلق الله كل الحيوانات بغير أسباب ووسائط ومواد أو بأسباب ومواد غير ما ذكر وكذلك جعل لوجود الاشجار والزرع أسبابا ومواد فبعضها بالقاء الحب والبذر فى الارض المنبتة وسقيه بالماء العذب على وجه مخصوص وتدبير خاص أرشد الله تعالى اليه عباده وفطرهم عليه وألهمهم اياه حتى اهتدوا اليه بعقولهم تارة وبطريق التعليم تارة أخرى ولا يمكن عقلا بمقتضى ماجرت به عادة الله تعالى أن ينبت شجر أو زرع الا اذا غرس أو زرع فى الارض المنبتة على هذا الوجه الخاص وجعل بعض الاشجار والزروع تخرج بوضع أغصان منه فى الارض المنبتة على وجه مخصوص فى وقت مخصوص بكيفية مخصوصة وتدبير مخصوص وألهم الله كل ذلك علماء النبات والزراع فاتبعوه وألفوه واعتادوه وعلموا بالتجربة انه لا طريق سواه وانه هو السبب الوحيد الذى فطرهم الله عليه لانتظام معاشهم وان كان بحسب العقل يحتمل غير مايعلمه هؤلاء لكنه احتمال غير واقع بحكم عادة الله فى خلقه فكان الواجب أن نرجع اليهم فيما علموه عن تجربة وممارسة ومزاولة لانهم أعلم بذلك وماعلموه هو أحد الاحتمالات الممكنة عقلا التى لا يمكن

وقوعها كلها بل انما يقع أحدها بأرادة الله تعالى ومشيئته فيكون الذى علموه هو الاحتمال الذى وقع بأرادة الله تعالى وتبين وقوعه بالادلة القاطعة التى دلت على ذلك فيتعين المصير اليه وان احتمل عند العقل وقوع غيره وحينئذ يدل وقوعه فقط مع احتمال وقوع غيره دلالة واضحة على أن الصانع جل شأنه فاعل مختار لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء وهو على كل شىء قدير كذلك يقال فى الشهب انها من الحوادث الكونية الجوية فلا بد أن يكون حدوثها منوطا بعلل مادية وأسباب تفضى اليها وتتوقف هى عليها فى وجودها والعقل يجوز فيها جميع الاحتمالات الممكنة لكن الواقع فى نفس الامر هو أحدها وهو الذى أراد الله تعالى وقوعه منها دون غيره وجعل بمشيئته علة مادية أو سببا مفضيا للشهب ونعلم وقوعه بالادلة وكونه علة مادية أو سببا مفضيا بالمشاهدة والتجربة فوجب أن نرجع فى ذلك الى العلماء الاخصائيين المختصين بالبحث فى ذلك الممارسين لذلك المزاولين له الواقفين عليه بالادلة القاطعة ويلزمنا أن نأخذ فى تلك المباحث بما دونوه فى كتبهم غير أنا اذا وجدنا فى الآيات القرآنية أو الاحاديث الصحيحة النبوية ما يخالف ما قالوه ودونوه فان كان ما جاء فى الآيات أو الاحاديث قطعى الدلالة والثبوت وكان ما دونوه ثابتا أيضا بالادلة العقلية القطعية أولنا تلك الآيات وتلك الاحاديث بما يوافق الادلة العقلية القطعية لان الاولى أدلة نقلية والثانية أدلة عقلية وكلاهما قطعى ولكن قد تقرر فى القواعد الاصولية أن العقلى أصل والنقلى فرع وأن الشرع لا يجىء على خلاف ما قضى به قاطع العقل فوجب التأويل على وجه ماذكرنا وان لم تكن الآيات أو الاحاديث قطعية الدلالة ولا قطعية الثبوت أو قطعية فى أحدهما دون الآخر فأمر التأويل سهل وقد علمت أن باب التأويل واسع وانهم كثيرا ما أولوا النصوص لمجرد الاستبعاد العقلى على اننا فى مسئلة الشهب لم نجد فى الآيات القرآنية ولا فى الاحاديث النبوية ما يخالف ما قالوه بل غاية ما وجدنا أن الآيات القرآنية تارة نصت على أن الشياطين ترمى بالشهب ولاشك أن الشهب معلومة معروفة وانها غير الكواكب وتارة نصت على أن الله جعل المصابيح رجوما للشياطين والكواكب حفظا من كل شيطان مارد فعلمنا أن لكل من الكواكب والشهب مدخلا فى رجم الشياطين فرجعنا الى الواقع فوجدنا أن الكواكب التى هى المصابيح وزينة السماء لا يمكن بحسب ما نشاهده من دوامها واستمرارها وما قضت به الآيات القرآنية من تسخيرها أن تنقلع من أماكنها بل انها مسخرات بأمر الله تعالى متحركة دائما سائرة فى مداراتها على النظام الذى أراد الله تعالى أن تكون عليه فعلمنا أن مدخلية الكواكب فى الرمى بأن تكون على الوجه الذى يتفق مع ما وجدناه وعلمناه فى الكواكب والنجوم فقلنا أن مدخلية الكواكب التى تتفق مع ماذكر هى ان تكون آلة الرمى وأن تكون الشهب هى المرمى بها فتكون نسبة الكواكب للشهب كنسبة القوس للنبال خصوصا وأن الآيات القرآنية تكاد تكون صريحة فى أن الشهب هى التى يرمى بها أنفسها الشياطين الذين يريدون أن يسترقوا السمع ولم تتعرض الآيات القرآنية ولا الاحاديث النبوية الى بيان العلل المادية للشهب ولا عينت كيفية خاصة لآلية الكواكب غير اننا لما رجعنا الى ما قاله العلماء الاخصائيون فى ذلك وهم علماء الهيئة قديما وحديثا وجدنا أن المتقدمين منهم اسلاميين وغيرهم قالوا قولا وتعرضوا لبيان المادة التى تتكون منها الشهب وكيفية تكوينها فى الجو وما يتعلق بها من الحركات والاشكال

وأما علماء الهيئة اليوم فقد تعرضوا لما عدا المادة التى تتكون منها ذوات الأذناب والنيازك والشهب والحجارة من حركات وأشكال ومدد ظهور وبقاء وغير ذلك مما اشتملت عليه الحجارة من المعادن وأما المادة التى يتكون منها ذلك فقالوا انها مادة عالمية ورجح فى كتاب اصول الهيئة رأى البعض من أن تلك المادة العالمية لم تتكاثف نحو المركز بعد حتى يتكون جرم سماوى حقيقى بل جواهرها اللطيفة متفرقة

ولم يتعرضوا لبيان ما تتكون منه تلك المادة العالمية ولا لكيفية تكوينها وعلى كل حال قد اتفق المتقدمون والمتأخرون على أن الشهب من الحوادث الكونية الجوية وعلى ما يتعلق بها من الحركات والاشكال والمناظر فضلا عن كون ذلك كله مشاهدا محسوسا بالبصر لا ينكر حدوثه أحد *

فقال المتقدمون أن هيولى الشهب والنيازك ومادتها واحدة وهو الدخان اليابس اللطيف الصاعد من الجبال والبرارى بواسطة أشعة الكواكب من شمس وقمر وغيرهما فاذا وصلت تلك المادة الدخانية فى صعودها الى الفصل المشترك بين كرة الزمهرير وبين الاثير فاستدارت هنالك وتشكلت اشتعلت فيها نار الاثير الى آخر ما قدمناه ٥

وأما الكواكب ذوات الاذناب التى قالوا إنها تظهر فى بعض الاحايين قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها فقد قالوا إنها لا تحدث الا فى كرة الاثير قريبا من فلك القمر واستدلوا على ذلك بدورانها مع فلك القمر تارة بالتقدم على توالى البروج كسير الكواكب السيارة وتارة بالتأخر كرجوعها وأما مادتها التى تتكون منها فهى دخان وبخار لطيف جدا يصعد الى هنالك فيتقد بقوة زحل وعطارد ويتكون أجراما شفافة كأجرام البلور اذا أشرقت عليها الشمس شفت من الجانب الآخر فلا تزال تدور مع الفلك وتطلع وتغيب الى أن تضمحل وتتلاشى

وأما المتأخرون وهم علماء الهيئة اليوم فبعد أن قسموا السيارات الى سيارات كبار وسيارات صغار سموها أيضا بالنجيمات قالوا ان ذوات الاذناب أجرام غير السيارات الكبار والصغار وهى غريبة المنظر وتختلف كثيرا بعضها عن بعض فى القدر والهيئة تارة تشبه نجما سيارا ولها فى وسطها نقطة لامعة الى آخر ما قدمناه فى وصفها وقسموها الى قسمين وجعلوا الجانب الاعظم منها يدخل الى داخل النظام الشمسى من خارجه ثم تجذبه الشمس فيدور حولها ثم تبتعد وتغوص فى الفضاء الغير المتناهى فهى مثل ضيوف تزور النظام الشمسى وتذهب فى حال سبيلها وبعض ذوات الاذناب من جملة أجرام النظام الشمسى فلا تفارقه غير أنها لا تدور فى أفلاك أشكالها قريبة لى شكل الدائرة مثل السيارات بل تدور فى أفلاك هليلجية زائدة أى أفلاك متطاولة فتقرب الى الشمس وتمر داخل فلك عطارد ثم تبعد بعدا مهولا الى أبعد من أورانوس وأبعد عن نبتون ومن ذوات الاذناب هذه التابعة للشمس الدائرة حولها فى مدة معلومة مذنب اكتشفه الاستاذ ألكى ونسبه اليه فهو يدور حول الشمس مرة فى كل خمس سنين ومتى كان فى نقطة الرأس أى أقرب نقطة من فلكه الى الشمس يقرب الى فلك عطارد وفى نقطة الذنب أى ابعد نقطة من فلكه من الشمس لا يبعد أكثر من بعض النجيمات بين المريخ والمشترى وقد مر فى نقطة الرأس أخيرا سنة ١٨٨٥ و ينتظر عوده فى صيف سنة ١٨٨٨ وقد عاد طبعا ومنها مذنب تطل مدة دورانه حول الشمس ١٤ سنة ونقطة الذنب من فلكه أبعد قليلا من فلك زحل ومنها مذنب هالى مدة دورانه حول الشمس ٧٠ سبعون سنة وقد مر فى نقطة الرأس فى اثنى عشر خلت من ادار سنة ١٧٢١ ثم فى ستة عشر تشرين الثانى سنة ١٨٣٥ و يعود سنة ١٩١٠ وقد عاد طبعا ومنها مذنب اولبرس مر فى نقطة الرأس سنة ١٨١٥ ومدة دورانه حول الشمس واحد وسبعون سنة فعاد سنة ١٨٨٧ ومنها مذنب بيالا مدة دورانه حول الشمس نحو ست سنوات وتسعة أشهر ظهر سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٤٦ ثم فى سنة ١٨٥٢ وفى هذا الظهور الاخير تحقق أنه قد انفصل منه قطعتان الواحدة أنور من الاخرى وصارت القطعة الواحدة تسبق الاخرى ومن ثم لم يظهر على هيئة مذنب بل على هيئة نيازك كثيرة سقطت الى الارض لما اقتربت الى فلك المذنب المشار اليه

واحترقت فى هوائها من سرعة مرورها وقالوا أيضا أن أفلاك ذوات الاذناب كثيرة الاختلاف بعضها عن بعض منها كثيرة الميل على دائرة البروج خلاف السيارات التى تقع أفلاكها بقرب سطح دائرة البروج وأكثرها تدور عكس دوران السيارات فقيل ان حركاتها متقهقرة أما كثافتها فقليلة جدا وأما أجرامها فكبيرة ممتدة فقد ذكر عن مذنب دوناتى ان طول ذنبه ملايين من الاميال ولكن من لطافة مادته ظهر من النجوم الصغار من خلفه التى لو مرت عليها ألطف سحابة لحجبتها عن النظر وهذا المذنب ظهر فى سنة ١٨٨٥ وقد حسب أن مدة دورانه حول الشمس نحو مائتى سنة ومذنب كوجيا نسبة الى كوجيا من مرسيليا الذى اكتشفه أولا سنة ١٨٧٤ حسب مدة دورانه حول الشمس بنحو عشرة آلاف سنة ومذنب سنة ١٨٨٢ الذى اكتشفه وكس من بوستون حسبت مدته نحو ٤٠٠٠٠ أو بمائة الف سنة

واما النيازك التى هى الشهب ايضا فقد قدمنا ما قالوه فيها ومن ذلك يتبين ان علماء الهيئة اليوم يقولون ان ذوات الاذناب اجرام سماوية ذوات افلاك ومدارات تدور فيها على الوجه الذى قالوه وانها تارة ينفصل منها نيازك أى شهب كما ان النيازك التى هى الشهب ايضا اجسام سماوية دائرة حول الشمس وعند ما تقرب الى الارض بحيث تغلب جاذبيتها جاذبية الشمس تنحرف عن افلاكها وتنجذب نحو مركز الارض ومن سرعة حركتها تولد بمرورها فى الهواء الكروى حرارة كافية لاحراق الصغار منها وتحمى الكبار منها الى درجة اللمعان ويحترق بعضها وينتهى الى الارض قبل ان تحترق كلها وقد ذكر بعضهم ان افلاك بعض النيازك توافق فلك بعض المذنبات الى آخر ما قدمناه

ومنه يعلم ان اسباب الاتقاد والاحتراق فى الشهب والنيازك عند علماء الهيئة اليوم هو سرعة الحركة بمرورها فى الهواء الكروى على خلاف ما يقوله المتقدمون ولذلك انكر بعض المحققين كما نقلناه فيما سبق على المتقدمين القول بوجود كرة الزمهرير وكرة النار ونحو ذلك وان دعوى المتقدمين ان حدوث الشهب والنيازك يتوقف على وجود ما ذكر دعوى باطلة وان حدوثها لا يتوقف على وجود شئ مما ذكروه وبناء على هذا يلزمنا ان ننظر فى قولى الفريقين فان وجدنا برهانا قاطعا على حقية أحدهما قلنا به وان لم نجد برهانا قاطعا على حقية احدهما جوزنا عقلا ان يكون المادة والسبب كما يقول هؤلاء او كما يقول اولئك او غيرهما مما يجوزه العقل ولا نجزم بسبب معين ولا مادة معينة لان الجزم واليقين انما هما نتيجة البرهان القطعى وهذا لا يضرنا فيما يتعلق بحقية القرآن والاحاديث لان الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الصحيحة انما تذكر أن هنالك شهبا تحدث فى الجو جهة السماء وهذا مشاهد لا ينكره احد وان كل من اراد من الشياطين ان يسترق السمع وخطف الخطفة اتبعه شهاب ثاقب وقذف به دحورا له وطردا وهذا انما يؤخذ من طريق النقل والسماع وطريق الجزم به وعلمه على وجه اليقين انما هو الخبر الصادق الذى يحيل العقل عدم مطابقته للواقع ولا مدخل للعقل فيه ولا يهم الفلاسفة سواء فى ذلك المتقدمون والمتأخرون المسلمون منهم وغير المسلمين من حيث البحث الخاص بعلم الفلسفة الذى علم الهيئة قسم من اقسامه ان يبحثوا فيه لان الفلاسفة انما يبحثون على قانون العقل بقدر الطاقة البشرية ولا علاقة لها بالبحث على قانون الشرع والنقل وانما الذين يهمهم البحث عن ذلك وتطبيقه على الواقع هم الاسلاميون منهم عند ما يبحثون على مقتضى قانون الشرع فقط كما فى السمعيات وعلى مقتضى قانون العقل والشرع معا كما فى العقائد العقلية التى أوجب عليهم الشرع أن يعتقدوها على مقتضى البرهان العقلى القطعى ولا يكتفى فيها بالبرهان السمعى لان كونه برهانا يتفرع عليها فلا تثبت هى به كما هو مقرر فى محله وجميع الاسلاميين يعتقدون حقية القرآن ويؤمنون بذلك وانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

واذا رجعت الى الاحتمالات التى ساقها الالوسى وجدت منها ما يوافق قول المتقدمين وهو الذى ذكره بقوله أولا ولعل أقرب الاحتمالات فى أمر هذه الشهب ان الكواكب الى آخره كما ان قوله بعد ذلك وان شئت قلت ان ذلك الهواء المتكيف بالكيفية المخصوصة اذا وصل الى محل مخصوص الى آخره يطابق مذهب المتقدمين غاية الامر ان المتقدمين عينوا تلك الكيفية التى يكيف بها ذلك الهواء فقالوا انه اختلط بالدخان اليابس المتصاعد على ان الالوسى نفسه صرح فيما سبق فى بيان كون المصابيح رجوما للشياطين ان رجمهم على ما اشتهر بانقضاض الشهب المسبب عن الكواكب واليه ذهب غير واحد من المفسرين كما انه صرح فى بيان عدم منافاة قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح الآية لما ذكر انه جعل المصابيح رجوما تجوز أنها بواسطة وقوع اشعتها على الهواء تحدث الشهب فهى رجوم بذلك الاعتبار الى آخر ما قاله فان هذا بعينه هو ما قاله الفلاسفة المتقدمون ولا ادرى لماذا قبله احتمالا صادرا منه ولا يقبله مذهبا لغيره كأن القول يختلف باختلاف القائل والله اعلم بحقيقة عباده

ثم ان ما قاله اولئك المتقدمون من وجود كرة النار وغيرها مما زعموه مخالف لما عليه سلف الامة الاسلامية وقد علمت ان فلاسفة اليوم ينكرون القول به ايضا وحدوث الشهب لا يتوقف على وجود شئ مما ذكروه كما قدمناه فتفطن لتعرف الرجال بالحق وتعرض عما طال به اولئك المفسرون من كثرة الاحتمالات فى معانى الآيات القرآنية مما تمجه الاسماع وتأباه العقول السليمة وتنفر منه الطباع والقلوب المستقيمة والله الموفق

وقال تعالى فى سورة فصلت وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا

قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمناه اى بالكواكب وهى فيها وان تفاوتت فى الارتفاع والانخفاض على ما يقتضيه الظاهر او بعضها فيها وبعضها فيما فوقها لكنها لكونها كلها ترى متلالئة عليها اصح كون تزيينها بها واما قوله وحفظا فهو مفعول مطلق لفعل مقدر معطوف على قوله وزينا اى وحفظناها حفظا والضمير للسماء وحفظها اما من الآفات او من الشياطين المسترقة للسمع وتقدم الكلام فى ذلك وقيل الضمير للمصابيح وهو خلاف الظاهر وجوز أن يكون مفعولا لاجله على المعنى اى معطوفا على مفعول له يتضمنه الكلام السابق اى زينة وحفظا ولا يخفى انه تكلف بعيد لا ينبغى القول به والأظهر ان المراد وحفظا من الشياطين حتى توافق هذه الآية آية الصافات التى جاء فيها وحفظا من كل شيطان مارد لان الحادثة واحدة فى الآيتين ومثلها وحفظناها من كل شيطان رجيم اه

وقال تعالى فى سورة الجن وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا اى انا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام اهلها وطلبنا خبرها فاصادفناها واصبناها ملئت حرسا قويا أى حراسا اقوياء لان الحرس نحو اسم جمع والمراد بهم الملائكة عليهم السلام الذين يمنعونهم من قرب السماء وشهبا بالمعنى السابق بيانه

ثم قال تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا)* أى أنا معاشر الجن كنا نقعد قبل هذا الذى صادفناه فى السماء من الحرس والشهب مقاعد كائنة للسمع خالية عن الحرس والشهب صالحة للترصد والاستماع *وكيفية قعودهم للسمع ينبغى أن تكون على وجه ما قدمناه فمن يقع منه استماع فى الزمان الآتى فالمراد من الآن مطلق الزمان الآتى مجازا لا خصوص الزمان الحالى يجد شهابا راصدا له ولاجله يصده عن الاستماع بالرجم قالوا وفى الآية رد على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وهو أحد آياته صلى الله عليه وسلم حيث قيل فيها ملئت وهو كما قال الجاحظ ظاهر فى أن الحادث هو الملء والكثرة وكذلك قوله سبحانه نقعد منها مقاعد على ما فى الكشاف فكأنه قيل كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية عن الحرس والشهب والآن أى بعد البعثة ملئت المقاعد كلها حرسا وشهبا فمن يستمع الآن أى بعد المبعث

وقد قدمنا مايتعلق بذلك فتذكره * وهذه الآية والتى قبلها لاتدلان على أكثر مما دل عليه الآيات التى ذكرناها من قبل فيما يتعلق باستراق السمع هذا ماقاله الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه فارجع أيضا لماقلناه فى ذلك فلعلك تقتنع به وتعلم ماهو الحق فى ذلك *

فان قلت فما تقول فى قوله تعالى رب السموات والارض ومابينهما ورب المشارق وماهو المراد بالمشارق وهل ماقيل فيها يخالف ماقاله علماء الهيئة

قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه إن هذه الآية سيقت استدلالا على وحدة الخالق جل شأنه فان وجودها على هذا النمط البديع أوضح دليل على وحدانيته عز وجل بل فى كل ذرة من ذرات العالم دليل على ذلك والمعنى هو خالق السموات والارض ومابينهما وخالق المشارق ويدخل فى عموم الموصول أفعال العباد فتدل الآية على انها مخلوقة لله تعالى ولاينافى ذلك كون قدرة العبد مؤثرة باذنه تعالى كما ذهب اليه معظم السلف وأبو الحسن الاشعرى نفسه أيضا فى آخر الامر على ماصرح به بعض الاجلة وفسر بعضهم الرب بالمالك وبالمربى ولعل الاول أظهر على أن الآية على هذا قد ينازع فى دلالتها على كون أفعال العباد مخلوقة بخلاف مالو فسرنا الرب بالخالق فان دلالة الآية على ذلك واضحة اه ملخصا *

ثم قال الالوسى والمراد بالمشارق عند جمع مشارق الشمس لانها المعروفة الشائعة فيما بينهم وهى بعدد أيام السنة فانها فى كل يوم تشرق من مشرق وتغرب فى مغرب فالمغارب متعددة بتعدد المشارق وكأن الاكتفاء بها لاستلزامها ذلك مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ فى النعمة ولهذا استدل به ابراهيم عليه الصلاة والسلام عند محاجة النمروذ *

وعن ابن عطية إن مشارق الشمس مائة وثمانون ووفق بعضهم بين هذا وما يقتضيه ماتقدم من مضاعفة العدد بان مشارقها من رأس السرطان وهو أول بروج الصيف الى رأس الجدى وهو أول بروج الشتاء متحدة منها من رأس الجدى الى رأس السرطان فان اعتبر ما كانت عليه وما عادت اليه واحدا كانت مائة وثمانين وان نظر الى تغايرهما كانت ثلثمائة وستين وفى هذا اسقاط الكسر فان السنة الشمسية تزيد على ذلك العدد بنحو ستة أيام وهى ماتسمى أيام النسئ على مابين فى موضعه وفسر المشارق أيضا بمشارق الكواكب ورجح بانه المناسب لقوله تعالى بعد ذلك انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وهى للسيارات منها متفاوتة فى العدد * وأكثرها مشارق على ماهو معروف عند المتقدمين زحل ومشارقه الى أن يتم دورته أكثر من مشارق الشمس الى أن تتم دورتها الوف ومشارق الثوابت الى أن تتم الدورة أكثر وأكثر فلا تغفل وتبصر

وتثنية المشرق والمغرب فى قوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين على ارادة مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيهما انتهى *

وهذا ينطبق تمام الانطباق على ماقدمناه عن علماء الهيئة من أن البروج اثناعشر برجا كل برج منها ثلاثون درجة كل درجة منها تعتبر يوما تشرق الشمس فى كل منها من المشرق وتغرب فيه بالمغرب فتبتدىء من نقطة الاعتدال الربيعى عند صعود الشمس من الجنوب الى الشمال وكلما قطعت برجا انتقلت الى غيره وهكذا وان ستة منها جنوبية وستة شمالية وهى تنتقل كل يوم تدريجا فى البروج الجنوبية حتى تقطعها فتعود الى الشمالية حتى تقطعها وهكذا دأبها دائما أبدا الى أن تكوّر الشمس وتنكدر النجوم ولها فى كل يوم من هذه الايام شروق وغروب من مشرق ومغرب غير مشرقها ومغربها فى غيره * هذه مشارق الشمس ومغاربها التى بلغت ثلاثمائة وستين مشرقا ومغربا وبزيادة ستة أيام التى هى أيام

النسئ تزيد المشارق والمغارب فى كل سنة بعددها

وأما اذا اردنا من الآية مشارق الكواكب ومغاربها على ماقاله البعض فهى ايضا موافقة لما قاله علماء الهيئة فى وصف القمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل ومازاده علماء الهيئة اليوم فى وصف اورانوس ونبتون فانهم بينوا ما لهذه السيارات من الايام والليالى والسنون وأن لها مشارق ومغارب متعددة بعدد ايامها ولياليها شروقا وغروبا فى كل سنة من سنيها وان سنى بعضها أطول بكثير من سنينا كما قدمناه مفصلا

فان قلت ما تقول فى قوله تعالى فى سورة هود عليه السلام فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد فهل أمطار الحجارة من السماء مما يقول به اهل الهيئة

قلت ان علماء الهيئة اليوم قائلون بوجود الحجارة الجوية وانها تابعة للنظام الشمسى واننا فى بعض الليالى الصافية كثيرا مانرى نيازك وشهبا كثيرة مثل نقطة نيرة لامعة تنقض فى الفضاء بسرعة تاركة اذنابا نيرة وراءها واكثرها تحترق فى الهواء ولكن فى بعض الاحيان تسقط الى الارض وتغرز فيها من سرعة سقوطها وبعض الشهب تضاهى المشترى والقمر نورا بعض الثوانى واذا سقطت الى الارض يستطيع الكيماوى ان يفحصها ويعرف مادتها ومن فحص عدة من هذه الاجرام وجد أن بعضها حجارة وبعضها معادن وقد وجد منها قطع بلغ وزنها عدة قناطير اما الصغار منها فتحترق كلها فى الهواء وتتحول بخارا ولاينتهى شئ منها الى الارض اه والحجارة التى امطرها الله تعالى على مدائن قوم لوط هى من هذه الحجارة

قال صاحب كشف الاسرار القرآنية فى تفسير الآية المتعلقة بذلك بعد أن قدم مقدمة لاحاجة لنا بذكرها مانصه *

الخامس فى الاكر النارية الشهبية والحجارة الساقطة من الجو * الاكر النارية هى أعظم ما تستغرب به العقول وتندهش منه الافكار وتفزع منه الافئدة وضوؤها الذى ينتشر منها نير لامع كالذى ينتشر من الشمس وتختلف أشكاله وشدته ولمعانه لا الى نهاية وعظمها الظاهرى تقترب به جميع الابعاد فيكون أصغر مايتصور فى الحجم الى مايكون قطره قطر بيضة الدجاجة اوالنعامة وتأتى من محال مختلفة من السماء متجهة جهة الارض فتارة تخط بسيرها خطوطا تقرب لان تكون موازية لسطح الارض وتارة تسقط رأسية بحيث تقرب للخط القائم على الارض وتارة تخط أقواسا منحنية . زعموا أنهم شاهدوا منها مايثبت فى الجو فيكون شبيها بكرة مرنة مقذوفة بانحراف على جسم صلب فيحصل منها وثبات وقفزات ومع ذلك تتبع فى سيرها الخط الزاوى أى قطر الشكل للربع المتوازى الاضلاع وحركة هذه الاكر سريعة جدا وشوهدت سرعتها احيانا تفوق عن ستين ميلا فى الثانية فتقطع فى زمن وجودها وان كان قصيرا مسافة كبيرة من السماء ويظهر كأنها ألهبتها وأوقدت فيها نار فاذا وصلت الى نهاية سيرها تمزق بصوت كالبمب أو اصوار بخ وتنقسم الى قطع صغيرة تتساقط فجأة وتترك فى الهواء بخارا خفيفا معتما يتبدد شيئا فشيئا حتى يزول فى زمن قصير ويسمع عند تمزقها فرقعة وأصوات مرعبة تشبه قوتها صوت طلق جملة مدافع فى آن واحد فتزعزع الهواء وتزعج الارض والآثار القديمة المتينة وترعب جميع الكائنات وبعد غيبوبتها ببعض ثوان بل وقت زوالها يسمع فى الجو صفير قوى سريع وتسقط على الارض حجارة تهدم سقوف الابنية بل الغالب انها تحرقها وتكسر فروع الاشجار وتجرح وتميت الاشخاص والحيوانات التى تقع عليها كما فى قوله تعالى فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها

حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد انتهى

فهذا الذى قاله صاحب كشف الاسرار القرآنية فى هذه الآية يوافق تمام الموافقة ماقدمناه فى هذا الموضوع وفيما قبله عن أهل الهيئة اليوم ثم شرع فى تفسير هذه الآية الكريمة على وفق المقدمة التى قدمها فقال ماملخصه انه تعالى قال قبل هذه الآية انا ارسلنا الى قوم لوط فدل هذا على ان الملائكه كانوا مرسلين ومأمورين من عند الله تعالى الى قوم لوط بأيصال هذا العذاب اليهم وان يخربوا تلك المدائن فى وقت معين فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل فكان قوله تعالى فلما جاء امرنا الآية اشارة الى ذلك التكليف فان قيل لوكان الامر أمر تكليف للملائكة لوجب ان ينسب الفعل اليهم فيقال فلما جاء امرنا جعلوا عاليها سافلها لان الفعل صدر من الملائكة المأمورين قلنا هذا لايلزم لان فعل العبد عملا هو فعل الله خلقا فكما يجوز ان ينسب للمأمور باعتبار العمل والكسب يجوز أن ينسب الى الله تعالى باعتبار الخلق والايجاد والكل منه واليه فالذى وقع منهم انما وقع بأمره وارادته وقدرته فلم يبعد اسناد الفعل الى الله عز وجل على ان العادة جرت ان تنسب أفعال العبيد المأمورين بفعل من المالك الى المالك وافعال الجنود المأمورين من الملك بالفعل الى الملك وافعال الرسل الى المرسل

ثم قال قد وصف الله العذاب فى هذه الآية بنوعين من الوصف الاول قوله جعلنا عاليها سافلها وهذا روى فيه ان جبريل ادخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكب لهم اناء ثم قلبها دفعة واحدة وضرب بها الارض وهذا العمل كان معجزة من وجهين أحدهما ان قلع الارض واصعادها الى قرب السماء فعل خارق للعادة * الثانى ان ضربها من ذلك البعد البعيد على الارض بحيث لم تحرك سائر القرى المحيطة بها البتة ولم تصل الآفة الى قوم لوط عليه الصلاة والسلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة ظاهرة أيضا

النوع الثانى قوله تعالى وأمطرنا عليها حجارة من سجيل فجعل الله جو هذه المدائن متكونا بالشهب أى الاكر النارية المعقبة بالاحجار واختلفوا فى قوله تعالى من سجيل فقيل انه فارسى معرب وكأنه شىء مركب فى غاية الصلابة قال الازهرى لما عربته العرب صار عربيا اه وقيل ان المعنى انه مثل السجل اى الدلو العظيم وقيل معناه شديد الحجارة وقيل معناه انها مرسلة فهى من أسجلته اذا ارسلته وقيل من اسجلته اذا أعطيته وقيل من السجل بمعنى الكتاب فتقديره من مكتوب فى الازل وقيل سجيل بمعنى جهنم واصله سجين أبدلت النون لاما وقيل سجيل اسم للسماء الدنيا انتهى وكل هذه الاقوال ضعيفة لاينبغى التعويل عليها ولا الالتفات اليها

والصحيح ان السجيل هو الطين لقوله تعالى فى الآية الاخرى حجارة من طين والقرآن يفسر بعضه بعضا ويتعين ارجاع بعضه الى بعض خصوصا فى قصة واحدة كما هنا وقد قدمناه فتذكره وعلى كل حال فالله تعالى وصف هذه الحجارة بانها من سجيل أى طين ووصف السجيل بانه منضود ثم وصف الحجارة بانها مسومة عند ربك فاما وصفها بكونها من سجيل فقد علمت الصحيح فيه وأما وصف السجيل الذى منه الحجارة بانه منضود فقال الواحدى هو مفعول من النضد وهو وضع الشىء بعضه على بعض و بناء على ذلك قيل ان الحجارة كان بعضها فوق بعض فى النزول فاتى به على سبيل المبالغة وقيل ان أجزاء كل حجر منها منضود بعضها فوق بعض وملتصق بعضها ببعض وقيل انه تعالى عنده تكوينها نضد بعضها فوق بعض وأعدها لاهلاك الظلمة ولا يخفى ان جميع هذه الاوصاف لاتتنافى بينها فلا مانع من ارادتها جميعها من وصف السجيل بانه منضود بان تكون الحجارة بعضها فوق بعض فى النزول كما يعطيه قوله تعالى وامطرنا الا ان المطر ينزل متتاليا بعضه فوق بعض وأن يكون

اجزاء كل حجر منها أيضا منضودة بعضها فوق بعض و يلتصق بعضها ببعض وان الله تعالى عند تكوينها نضد بعضها فوق بعض وأعدها للظالمين

وأما وصف الاحجار بكونها مسومة فمعناه انها معلمة من السمة بمعنى العلامة واختلفوا فى كيفية هذه العلامة فقال الحسن والسدى كان عليها أمثال الخواتم وقال ابن صالح رأيت منها عند ام هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال ابن جريج فيها سيما لاتشارك حجارة الارض تدل على ان الله تعالى انما خلقها للعذاب

وأقول ان كل واحد من المختلفين أخبر عن العلامة التى علمها اما بالمشاهدة أو بالخبر ولا مانع من ان يكون ماعلمه الحسن والسدى من العلامة أمثال الخواتم وكانت هذه العلامة على بعضها وكذا يقال فيما قاله ابن صالح والآية لاتدل على ان العلامة فى كل واحد منها متحدة بل غاية ماتدل عليه انها حجارة مسومة وهذا صادق باتحاد العلامة فى الجميع واختلافها بان يكون فى بعضها غير ما فى الآخر من العلامة واما ماقاله ابن جريج فهو علامة عامة كما علمت مما ظهر من تحليلها وانها مركبة من معادن شتى ولا توجد فى حجارة الارض فالعلامة من هذه الوجهة متحدة وان كان بعضها يخالف البعض الآخر فى بعض المعادن كما يعلم ذلك مما قدمناه فى مبحث الشهب والنيازك

ثم قال صاحب الاسرار ان علماء الهيئة قالوا لم يعلم الى الآن بالضبط الارتفاع الذى تبدأ فيه مشاهدة هذه الآثار فان بعضهم شاهدها فى علو يفوق عن ثلثمائة ميل وآخرون رأوها قريبة من سطح الارض وهى كما تحصل على الارض تظهر فى البحر وتتمزق فيه بل يقال انها اسقطت حجارة جوية على سفن بينها و بين الجزائر والبرور مسافة كبيرة جدا وأهلكتهم وقد أمعنت الفلاسفة فى الازمنة السالفة افكارهم وتأملاتهم فى هذه الاكر النارية وأمطارها الحجرية وذكرها بعدهم علماء كل عصر ولم يختلفوا فى أوصافها العمومية وانما حصل الاختلاف فى بعض أشياء خصوصية وقد اطلع بعضهم على الكتب القديمة فوجد حصول هذا الاثر اكثر من مائتى مرة واستمر القدماء زمنا طويلا يعتبرونها أثر غضب آلهتهم وانتقامهم وحفظت تلك الحجارة مقدسة عندهم فى معابدهم وهيا كل كثيرة ومعدودة آية دالة على عظم جبروته سبحانه وتعالى وقوة سلطانه وهذه الحجارة متشابهة الطبيعة ولا تختلف عن بعضها الا فى مقدار اجرامها وصلابتها وفى مدة حياتها وعدد الجواهر الداخلة فى تركيبها ومقاديرها ولها أسماء كثيرة مثل حجارة الصاعقة وحجارة القمر والحجارة الجوية والحجارة السماوية والحجارة العلوية وغير ذلك ولم يعثر المعدنيون المشتغلون بمعادن الارض الى الآن على معادن وحجارة شبيهة بتلك الحجارة وتحصل الاكر النارية فى جميع البلاد وتتمزق فى جميعها على حد سواء وحلل حجارتها كثير من الكيماويين وذكروا نتيجة أعمالهم فلم يتبين لهم ان هذه الحجارة فيها مشابهة لحجارة الارض واستظهر كثير من الطبيعيين فى أصل هذه الاحجار آراء مختلفة فقال بعضهم إنه يمكن أن تكون آتية من براكين القمر أى جبال نيرانه ولذلك سموها بحجارة القمر وقال بعضهم انها بقايا كواكب و بقايا من الهيولى الاصلية بعد تأليفها وانتظام العالم منها و بعضهم اعتبرها أجزاء صغيرة كوكبية فى أقمار مختلفة من تكونها تجذبها الارض فى كرة جذبها وقال بعضهم انها مجتمع جوضوئى كذوات الاذناب وهنالك آراء غير ذلك فلا حاجة الى ايرادها هنا اه ملخصا مع تغيير يسير للايضاح ومن هذا كله تعلم أن الآيات القرآنية جاء فيها مايدل صريحا على أن فى الجو حجارة يمطرها الله على الظالمين فيهلكهم والظاهر أنها والنيازك والشهب وذوات الاذناب من مادة واحدة كما يقول علماء الهيئة اليوم وقدمناه من قبل وأما رأى من يقول إن منشأ النيازك والشهب من الدخان اليابس وأصل الكرات النارية من النيازك والشهب فالظاهر أنه يقول ان أصل الحجارة ومادتها من مادة النيازك والشهب وهو الدخان اليابس كما ان ماقدمناه عن علماء الهيئة اليوم يفيد أنها متفاوتة فى الكبر والصغر وأن ماقاله صاحب كشف الاسرار القرآنية يفيد ذلك أيضا

فان قلت ما تقول فى قوله تعالى فى سورة الرحمن الشمس والقمر بحسبان

قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه قال قتادة وغيره الحسبان مصدر كالغفران بمعنى الحساب أى هما يجريان بحسابات مقدر فى بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك امور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والاوقات ويعلم السنون والحساب وقال الضحاك وأبو عبيدة هو جمع حساب كشهاب وشهبان أى هما يجريان بحسبان شتى فى بروجهما ومنازلهما وقال مجاهد الحسبان الفلك المستدير من حسبان الرحى وهو ما أحاط بها من أطرافها المستديرة وعليه فالباء للظرفية والجار والمجرور فى موضع الخبر والمراد أن كلا من الشمس والقمر فى فلك والجمهور على الاول وجريان الشمس والقمر بما لا ينبغى أن يشك فيه وفلاسفة العصر كانوا يزعمون أن الشمس لا تجرى أصلا وأن القمر يجرى على الارض والارض تجرى على الشمس وقد سمعنا أنهم عدلوا منذ أعوام عن ذلك فزعموا أن للشمس حركة على كوكب آخر وهذا يدل على انهم لم يكن عندهم برهان على دعواهم الاولى كما كان يقوله من كان ينتصر لهم

والظاهر أن حالهم اليوم بل وغدا مثل حالهم بالامس ونحن مع الظواهر حتى يقوم الدليل القطعى على خلافها اه ملخصا

وقد علمت مما قدمناه ما قاله علماء الهيئة اليوم مفصلا فى حركات الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب السيارة وان قولهم بدوران الارض حول الشمس ودورانها على محورها هو أقوم الاقوال غير أنهم كانوا غير جازمين فيما يتعلق بالشمس بحركة ذاتية أو سكون وأما إنها تجرى بالحركة الظاهرية من المشرق الى المغرب دائما فهؤلاء قائلون بها قديما وحديثا ولا خلاف لاحد فيها انما الخلاف فى علتها وانها حركة ظاهرية خيالية تابعة لحركة الارض أو حركة قسرية تابعة لحركة الفلك الاعظم كما فسرناه ❊ وعلماء الهيئة اليوم بعد وجود النظارات المكبرة الملونة قالوا بحركة الشمس ودورانها على محورها وأما مازعموه من أن للشمس حركة على كوكب آخر فذلك انما قالوه فى النظام الشمسى أى فى الشمس وما يتبعها من الكواكب السيارة أرض وغيرها فلا حاجة للاعادة وعلى كل حال فالاقوال جميعها متفقة على أن الشمس والقمر يجريان بحسبان مقدر فى بروجهما ومنازلهما وذلك الجرى والسير والدوران هو طبعا على ما هو معروف جاهلية واسلاما عند علماء الهيئة المختصين بالبحث عنه ولاجل ذلك قال صاحب كشف الاسرار القرآنية فى تفسير هذه الآية معناه أنه قدر حركة الشمس والقمر بحسبان معين من السنين والشهور ولو قدرنا كونهما أسرع أو أبطأ مما وقع لاختلفت المصالح فهذا هو المراد من قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان انتهى

وهو بمعنى ما قدمناه عن قتادة وغيره وعن الضحاك وأبى عبيدة أيضا لانه لا خلاف بين هذين القولين الا من جهة ان لفظ حسبان مصدر على الاول أو جمع حساب على الثانى وعلى كلا القولين المعنى المراد من الحسبان واحد كما هو ظاهر

فان قلت ما تقول فى قوله تعالى فى سورة الانعام فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم

قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره الاصباح مصدر سمى به الصبح والفالق هو الخالق على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والضحاك وقال غير واحد الشاق واستشكل على هذا بان الظاهر أن الظلمة هى التى تفلق عن الصبح وأجيب بان الصبح صبحان صادق وهو المنتشر ضوؤه معترضا فى الافق وكاذب وهو ما يبدو مستطيلا كذنب السرحان ثم تعقبه ظلمة خالصة وعلى الاول يراد فلقه عن بياض النهار او يقال ان فى الكلام مضافا مقدرا اى فالق ظلمة الاصباح بالاصباح وذلك لان الافق من الجانب الغربى والجنوبى مملوء من

الظلمة ❊ والنور انما ظهر فى الجانب الشرقى فكأنه كان بحرا مملوءا من الظلمة فشق سبحانه البحر المظلم بان اجرى جدولا من النور فيه وعلى الثانى فيراد انه سبحانه فالقه من ظلمة آخر الليل وشاقه منها وما ذكر من انقسام الفجر الى صادق وكاذب مما يشهد به العيان ولا يمترى فيه اثنان الان فى سبب ذلك كلام لاهل الهيئة حاصله ان الصبح وكذا الشفق استنارة فى كرة البخار لتقارب الشمس من افق المشرق وتباعدها عن افق المغرب وقد تحقق ان كرة البخار عبارة عن هواء متكاثف بما فيه من الاجزاء الارضية والمائية المتصاعدة من كرتيهما بتسخين الشمس وغيرها اياهما وان شكل ذلك الهواء شكل كرة محيطة بالارض على مركزها وسطحه موازٍ لسطحها المساوى غاية ارتفاعها عن مركز الارض فى جميع النواحى المستلزم لكرويتها وانها مختلفة القوام لان ما كان منها أقرب الى الارض فهو أكثف مما بعد لان الالطف يتصاعد ويتباعد أكثر من الاكثف ولكن لا يبلغ فى التكاثف الى حيث يحجب ما وراءه وان هذه الكرة تنتهى الى حد لا تتجاوزه وهو من سطح الارض احد وخمسون ميلا تقريبا وان للارض ظلا على هيئة مخروط قاعدته دائرة عليها تكاد تكون عظيمة وهى مواجهة للشمس وراسه فى مقابلها وتنقسم الارض بهذه القاعدة الى قسمين احدهما اكبر مستضئ مواجه للشمس والآخر مظلم مقابل لها ويتحرك الضياء والظل على سطح الأرض فى يوم وليلة دورة واحدة كاملين متقابلين احدهما ابيض والآخر أسود وأن شعاع الشمس محيط بمخروط الظل من جميع جوانبه ومنبث فى جميع الافلاك سوى مقدار يسير من فلك القمر وفلك عطارد وقع فى مخروط ظل الارض لكن الافلاك لكونها مشفة فى الغاية ينفذ فيها الشعاع ولا تنعكس عنها فلذلك لا نراها مضيئة وكذلك الهواء الصافى المحيط بكرة البخار لا يقبل ضوأ واما كرة البخار فهى مختلفة القوام لان ما قرب منها الى الارض اكثف مما بعد والاكثف أقبل للاستضاءة فالكثيف الخشن باختلاط الهيئات الكثيرة من سطح مخروط الظل قابل للضوء وان النهار مدة كون ذلك المخروط تحت الافق والليل مدة كونه فوقه

وحيث تحقق كل ذلك يقال ازداد قرب الشمس من شرقى الافق ازداد ميل المخروط الى غربيه ولا يزال كذلك حتى يرى الشعاع المحيط به وأول ما يرى هو الاقرب الى موضع الناظر وهو خط يخرج من بصره فى سطح دائرة سمتية تمر بمركز الشمس عمودا على الخط المماس للشمس والارض وهو الذى فى سطح الفصل المشترك بين الشعاع والظل فيرى الضوء أولا مرتفعا عن الافق عند موقع العمود مستطيلا كخط مستقيم وما بينه وبين الافق يرى مظلما لبعده وان كان مستنيرا فى الواقع ولكثافة الهواء عند الافق مدخل فى ذلك أيضا وهو الصبح الكاذب ثم اذا قربت الشمس من الافق الشرقى رؤى الضوء معترضا منبسطا يزداد لحظة فلحظة وينمحى الاول بهذا الضياء القوى كما ينمحى ضياء المشاعل والكواكب فى ضوء الشمس فيتخيل ان الاول قد عدم وهو الصبح الصادق

وتوضيح ذلك على ما فى التذكرة وشرح سيد المحققين انه يتوهم لبيان ذلك سطح يمر بمركز الشمس والارض وبسهم المخروط ومركز قاعدته فيحدث مثلث حاد الزوايا قاعدته على الافق وضلعاه على سطح المخروط أما حدوث المثلث فلما تقرر انه اذا مر سطح مستو بسهم المخروط وبمركز قاعدته أحدث فيه مثلثا وأما هذه الزوايا فلان راس المخروط فى نصف الليل يكون على دائرة نصف النهار فوق الارض وحينئذ إما ان يكون المخروط قائما على سطح الافق وذلك اذا كانت الشمس على سمت القدم أو مائلا الى الشمال أو الجنوب مع تساوى بعده من جهتى المشرق والمغرب وذلك اذا لم تكن الشمس على سمت القدم وأيا ما كان فذلك السطح المفروض ممتد فيما بين الخافقين أما على التقدير الاول فظاهر وأما على التقدير الثانى فلتساوى بعد رأس المخروط عن جانبى المشرق والمغرب فتكون زاويتا قاعدة المخروط حادتين لوجوب تساويهما وامتناع

وقوع قائمتين أو منفرجتين في مثلث واذا مال رأس المخروط عن نصف النهار نحو المغرب فوق الارض بسبب انتقال الشمس عنه الى جانب المشرق تحت الارض تضايقت الزاوية الشرقية من ذلك المثلث فتصير أحدهما كانت واتسعت الزاوية الغربية حتى تصير منفرجة لكن المقصود لا يختلف ولا شك ان الاقرب من الضلع الذي يلي الشمس الى الناظر يكون موقع العمود الخارج من النظر الواقع على ذلك الضلع لا موضع اتصال الضلع بالافق وذلك انه اذا خرج من البصر الى الضلع الشرقي عمود فلا يمكن ان يقع على موضع اتصال هذا الضلع بالافق والا انطبقت القائمة على بعض الحادة ولا ان يقع تحت الافق بان يقطع العمود قاعدة المثلث و يصل الى الضلع المذكور بعد اخراجه تحته والا لزم في المثلث الحادث تحت الافق من القدر المخرج من بعض القاعدة و بعض العمود قائمة ومنفرجة والا ان يقع في جهة راس المثلث على موضع اتصال أحد ضلعيه بالآخر ولا خارجا عنه في تلك الجهة لما ذكرناه بعينه فوجب أن يقطع داخل المثلث فيما بين طرفي الضلع الشرقي وقد تبين ان موضعه أقرب الى الناظر من موضع اتصاله بالافق ولا شك في ان ما وقع من هذا الضلع فيما كثف من كرة البخار يكون مستنيرا بتمامه حال قرب الشمس من افق الشرق الآن ما كان أقرب منه الى الناظر يكون أصدق رؤية وهو موقع العمود ومن هنا يتحقق الصادق والكاذب انتهى كلامهم

والامام الرازي انكر كون الصبح الكاذب من اثر قرص الشمس وانما هو بتخليق الله تعالى ابتداء قال لان مركز الشمس اذا وصل الى دائرة نصف الليل فالموضع الذي يكون فيه فلك الدائرة افقالهم قد طلعت الشمس من مشرقهم وفي ذلك الموضع أضاء نصف كرة الارض وذلك يقتضي انه يحصل الضوء في الربع الشرقي من بلدنا وذلك الضوء يكون منتشرا مستطيرا في جميع اجزاء الجو * و يجب أن يزداد لحظة فلحظة وحينئذ يمتنع ان يكون الصبح الاول خطا مستطيلا فحيث كان كذلك علم انه ليس من تأثير قرص الشمس ولا من جنس نوره ويفهم من كلامه أيضا ان الصبح الثاني كالصبح الاول ليس الا بتخليق الله الفاعل المختار و يمتنع ان يكون من تأثير قرص الشمس و بين ذلك بان من المقدمات المتفق عليها ان المضيء شمسا كان أو غيره لا يقع ضوؤه الا على الجرم المقابل له دون غير المقابل * والشمس عند طلوع الصبح غير مرتفعة عن الافق فلا يكون جرم الشمس مقابلا لجزء من أجزاء وجه الارض فيمتنع وقوع ضوء الشمس على وجه الارض واذا امتنع ذلك امتنع ان يكون ضوء الصبح من تأثير القرص

ثم قال فان قالوا لم لا يجوز ان يقال الشمس حين كونها تحت الارض توجب اضاءة ذلك الهواء المقابل لها وذلك الهواء مقابل للهواء الواقف فوق الارض فيصير ضوء الهواء الواقف تحت الارض سببا لضوء الهواء الواقف فوق الارض ثم لا يزال يسري ذلك الضوء من هواء الى هواء آخر ملاصق له حتى يصل الى الهواء المحيط بنا وعلى هذا عول ابو علي بن الهيثم في المناظر

فالجواب ان هذا باطل من وجهين الاول أن الهواء شفاف عديم اللون فلا يقبل النور واللون في ذاته وما كان كذلك يمتنع أن ينعكس منه النور الى غيره فيمتنع أن يصير ضوؤه سببا لضوء هواء آخر مقابل له

فان قالوا فلم لا يجوز أن يقال حصل في الافق أجزاء كثيفة من الابخرة والادخنة وهي لكثافتها تقبل النور عن قرص الشمس ثم يفيض على الهواء المقابل له فنقول لو كان كذلك لكان كلما كانت الابخرة والادخنة في الافق اكثر وجب أن يكون ضوء الصباح أقوى وليس الامر كذلك بل بالعكس

الثاني أن الدائرة التي هي دائرة الافق لنا هي بعينها دائرة نصف النهار لقوم آخرين واذا كان كذلك فالدائرة التي هي نصف النهار في بلدنا وجب كونها دائرة الافق لاولئك الاقوام واذا ثبت هذا فنقول اذا وصل مركز الشمس الى دائرة نصف الليل وتجاوزعنها فالشمس قد طلعت على اولئك الاقوام واستنار نصف العالم

هناك والربع من الفلك الذي هو ربع شرقي لاهل بلدنا فهو بعينه ربع غربي بالنسبة الى تلك البلدة واذا كان كذلك فالشمس اذا تجاوزت مركزها عن دائرة نصف الليل قد صار جرمها محاذيا لهواء الربع الذي هو الربع الشرقي لاهل بلدنا فلو كان الهواء يقبل كيفية النور من الشمس لوجب أن يحصل النور في هذا الربع الشرقي من بلدنا بعد نصف الليل وأن يصير هواء هذا الربع في غاية الانارة حينئذ وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الهواء لا يقبل كيفية النور في ذاته واذا بطل هذا بطل العذر الذي ذكره ابن الهيثم انتهى المراد منه

قال الالوسي ولا أراه أتى بشيء ينبلج به صبح هذا المطلب كما لا يخفى على من أحاط خبرا بما قدمناه * وذكر أفضل المتأخرين العلامة أحمد بن حجر الهيثمي أن لاهل الهيئة في تحقيق الصبح الكامل كلاما طويلا مبنيا على الحدس المبني على قاعدة الحكماء الباطلة كمنع الخرق والالتئام على أنه لا يفي ببيان سبب كون أعلاه أضوأ مع أنه أبعد من أسفله عن مستمده وهو الشمس ولا ببيان سبب انعدامه بالكلية حتى تعقبه ظلمة كما صرح به الائمة وقدروها بساعة والظاهر أن مرادهم مطلق الزمن لانها تطول تارة وتقصر أخرى وهذا شأن الساعات الزمنية المسماة بالمعوجة ويقابلونها بالساعات المستوية المقدر كل منها داائما بخمس عشرة درجة و زعم بعض أهل الهيئة عدم انعدامه وانما يتناقص حتى ينغمر في الصادق وقد تقدم لك ذلك فيما نقلناه لك عنهم ولعله بحسب التقدير لا الحس

وفي خبر مسلم لا يغرنكم اذان بلال ولا هذا العارض لعمود الصبح حتى يستطير أي ينتشر ذلك العمود في نواحي الافق ويؤخذ من تسميته عارضا الثاني شيئان أحدهما أنه يعرض للشعاع الناشيء عند الصبح الثاني انحباس قرب ظهوره كما يشعر به التنفس في قوله سبحانه والصبح اذا تنفس فعند ذلك الانحباس يتنفس منه شيء شبه كوة والمشاهد في المحبس اذا خرج بعضه دفعة أن يكون أوله أكثر من آخره وهذا لكون كلام الصادق قد يدل عليه ولانبائه عن سبب طوله واضاءة أعلاه واختلاف زمنه وانعدامه بالكلية الموافق للحس أولى مما ذكره أهل الهيئة القاصر عن كل ذلك * ثانيهما أنه صلى الله عليه وسلم أشار بالعارض الى أن المقصود بالذات هو الصادق وأن الكاذب انما قصد بطريق العرضية لينبه الناس به لقرب ذلك فيتنبهوا ليدركوا فضيلة أول الوقت لاشتغالهم بالنوم الذي لولا هذه العلامة لمنعهم ادراك أول الوقت * فالحاصل أنه نور يبرزه الله تعالى من ذلك الشعاع أو يخلقه حينئذ علامة على قرب الصبح ومخالفا له في الشكل ليحصل التميز وتتضح العلامة العارضة من المعلم عليه المقصود فتأمل ذلك فانه غريب مهم وفي حديث عن احمد ليس الفجر الابيض المستطيل في الافق ولكن الفجر الاحمر المعترض وفيه شاهد لما ذكر آخرا

ومما يؤيد ما اشير اليه من الكوة ما أخرجه غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن للشمس ثلاثمائة كوة تطلع كل يوم من كوة فلا بدع أنها عند قربها من تلك الكوة ينحبس شعاعها ثم يتنفس كما مر وللقرافي المالكي وغيره كالاصبحي من الشافعية فيه كلام يوضحه ويبين صحة ما ذكر من الكوات ويوافق الاستشكال لكونه يظهر ثم يغيب وحاصله وان كان فيه طول لمس الحاجة اليه انه بياض يطلع قبل الفجر ثم يذهب عند اكثر الابصار دون الراصد المجد القوي النظر وذكر ابن بشير المالكي انه من نور الشمس اذا قربت من الافق فاذا ظهرت انست به الابصار فيظهر له انه غاب وليس كذلك ونقل الاصبحي ان بعضهم ذكر انه يذهب بعد طلوعه ويعود مكانه ليلا وهو قول كثير من الشافعية وان ابا جعفر البصري بعد ان عرفه بانه عند بقاء نحو ساعتين يطلع مستطيلا الى نحو ربع السماء كانه عمود وربما لم ير اذا كان الجو نقيا شتاء وابين ما يكون اذا كان الجو كدرا صيفا أعلاه دقيق واسفله واسع ولا ينافي هذا ما تقدم من ان اعلاه اضوأ لان ذلك عند اول الطلوع وهذا عند مزيد قربه من الصادق وتحته سواد ثم بياض ثم يظهر بياض يغشي ذلك كله ثم يعترض رده بانه رصده نحو خمسين سنة فلم يره غاب وانما

يحدر ليلتقى مع المعترض فى السواد ويصيران فجرا واحدا وزعم غيبته ثم عوده وهم أو رآه يختلف باختلاف الفصول فظنه يذهب و بعض الموقتين يقول هو المجرة اذا كان الفجر فى السعود ويلزمه ان لا يوجد الا نحو شهرين فى السنة قال القرافى وقال آخرون انه شعاع يخرج من طباق بجبل قاف ثم ابطله بان جبل قاف لا وجود له وبرهن عليه بما يرده ماجاء عن ابن عباس رضى الله عنهما من طرق خرجها الحفاظ وجماعة منهم ممن التزموا تخريج الصحيح وقول الصحابى ذلك ونحوه ممالا مجال للراى فيه حكمه حكم المرفوع للنبى صلى الله عليه وسلم * ومنها أن وراء ارضنا بحرا محيطا ثم جبلا يقال له قاف ثم ارضا ثم بحرا ثم جبلا وهكذا حتى عد سبعا من كل واخرج بعض اولئك عن عبد الله بن بريدة انه جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء وعن مجاهد مثله وكما اندفع بذلك قوله لا وجود له اندفع قوله اثره ولا يجوز اعتقاد مالا دليل عليه لانه ان اراد بالدليل مطلق الأمارة فهذا عليه أدلة او الامارة العقلية فهذا مما يكفى فيه الظن كما هو جلى * ثم نقل عن القرافى عن اهل الهيئة انه يظهر ثم يخفى دائما ثم استشكله واطال فى جوابه بما لا يتضح الا لمن اتقن علمى الهندسة والمناظر * فاولى منه ان يختلف باختلاف النظر لاختلافه باختلاف الفصول والكيفيات العارضة لمحله فقد يدق فى بعض ذلك حتى لا يرى اصلا وحينئذ فهذا عذر من عبر بانه يغيب ثم تعقبه ظلمة هذا ولا يخفى ان القول بحدوث ضوء الصبح بمجرد خلق الله تعالى لا عن سبب عادى كما يشير اليه كلام الرازى اهون من القول بانه من شعاع يخرج من طباق جبل قاف والقول بخروج الشعاع من هذه الطباق اهون من القول بخروج الشمس التى هى على ما بين فى الاجرام مائة وستة وستون مثلا للارض مع كسر تقدم على ماهو المشهور اوثلاثمائة وستة وعشرون مثلا لها على ماقاله غياث الدين جمشيد الكاشى فى رسالته سلم السماء اومايقرب من ذلك على مافى بعض الروايات من كوة من جبل محيط بالارض والخبر فى ذلك ان صح وقلنا ان له حكم المرفوع مما ينبغى تأويله وباب التأويل اوسع من تلك الكوة فان كثيرا من الناس قد قطعوا دائرة الارض على مدار السرطان مرارا ولم يجدوا اثرا لهذا الجبل المحيط الشامخ واثبات ستة جبال وستة أبحر على الوجه السابق مما لا يخفى مافيه ايضا وكون الله تعالى لا يعجزه شئ مما لا يشك فيه الا ملحد لكن الكلام فى وقوع ماذكر فى الخارج والذى تميل اليه قلوب كثير من الناس فى أمر الصبح ماذكره اهل الهيئة

وقد بين ارسطوخس فى الشكل الثانى من كتابه فى جرم النيرين ان الكرة اذا اقتبست الضوء من كرة اعظم منها كان المضىء بها اعظم من نصفها وقد بين ايضا فى الشكل الاول من ذلك الكتاب ان كل كرتين مختلفتين امكن ان يحيط بهما مخروط مستدير رأسه يلى اصغرهما ويكون المخروط مماسا لكل منهما على محيط دائرة ولا شك انه يحيط بالشمس والارض مخروط مؤلف من خطوط شعاعية راسه يلى الارض فيكون هذا المخروط مماسا للأرض على دائرة فاصلة بين المضىء والمظلم منها وهى دائرة صغيرة لان الجزء المضىء من الارض أصغر وقد حققوا ان المستنير من كرة الهواء كرة البخار سوى ما دخل فى ظل مخروط الارض وهى مستنيرة ابدا لكثافتها واحاطة اشعة الشمس بها لكنها لا ترى فى الليل لبعدها عن البصر وان سهم المخروط ابدا فى مقابلة جرم الشمس كما اشرنا اليه ففى منتصف الليل يكون على دائرة نصف النهار وبعد ذلك يميل الى جانب الغروب لحظة فلحظة الى أن يرى البياض فى جانب المشرق على ماتقدم تفصيله وعلى هذا لا يلزم فى الصورة التى ذكرها الامام من مجاوزة مركز الشمس دائرة نصف الليل وطلوعها على اولئك الاقوام واستنارة نصف العالم عندهم استنارة الربع الشرقى عندنا لاختلاف الوضع كما لا يخفى على المتأمل والتزام القول بالكروية والمخروط ونحو ذلك مما ذكره أهل الهيئة لا بأس به * نعم اعتقاد صحة مايقولون مما علم خلافه من الدين بالضرورة أو علم بدليل قطعي كفر أو ضلال فتدبر انتهى كلام الالوسى ونقلناه عنه مع طوله

لحاجة كل من يريد أن يقف على الحقيقة والحق فى ذلك الى ماذكره ولكى تعلم حق العلم أن الحق هو ماقاله اهل الهيئة فى ذلك ووجه كونه هو الذى تميل اليه قلوب كثير من الناس كما قال الالوسى نقول زيادة على ماقاله الالوسى ليتضح نور الصبح لذى عينين ويتميز صبحه الصادق من الكاذب

ان انقسام الصبح الى صادق وكاذب وان الكاذب يبدو أولا مستطيلا عمودا كذنب السرحان وان الصادق يبدو ثانيا مستطيرا منتشرا معترضا فى الافق مما يشاهد بالعيان ولا يمترى فيه اثنان كما قدمناه كما أنه ليس معنى كون الصبح كاذبا أنه لا حقيقة له فى الخارج وأنه وهم لا وجود له أصلا بل هو حقيقة موجودة ونور يرى ويشاهد على الشكل الذى قدمناه ومعنى كونه كاذبا أنه ليس هو الصبح حقيقة الذى تجب بظهوره صلاة الصبح شرعا وليس هو الصبح الذى به يبتدىء النهار ويذهب الليل عرفا ولذلك تعقبه ظلمة خالصة فيما يراه الناظر فى بعض الاحيان وهذا أيضا مما لا خلاف فيه لاحد * ولكن الكلام كما قال الالوسى فى سبب حدوث الصبح الصادق والكاذب ففى ذلك السبب اختلفت الانظار على الوجه الذى سمعته * وأنت تعلم أن مما لا شك فيه لعاقل أن كلا من الصبحين ضوء حادث فى الجو بعد ان لم يكن حادثا فلا بد أن يكون لحدوثه سبب يستند اليه ومنشأ يبتدىء ويستمد منه عقلا أو عادة على الخلاف المشهور فى ارتباط الاسباب بالمسببات والمسببات بالاسباب ومن المعلوم المقرر الذى لا شك فيه أن النور المنبسط على وجه الارض انما هو من الشمس ومستمد منها فهو ينبسط على وجه الارض اذا كانت الشمس مشرقة على هذا الوجه ومنه يكون النهار وتكون الشمس حينئذ محجوبة عن الوجه المقابل لهذا الوجه الذى أشرقت عليه الشمس فيحدث فى الوجه الذى حجبت عنه الشمس ظل الارض وظلها هو المعبر عنه بالظلمة وهو الليل أيضا فالظلمة والنور متعاقبان على هذا الوجه دائما أبدا يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل

وبيان ذلك كما أسلفناه أن جرم الارض أصغر بكثير من جرم الشمس ولذلك يكون شكل ظل الارض دائما أبدا مخروطا والشكل المخروط هو الذى أول قاعدته غليظ مستدير وآخره ومنتهاه دقيق مستدير أيضا حتى ينقطع من دقته فظل الارض تبتدىء قاعدته من سطحها ويمتد فى الهواء منخرطا الى فلك القمر ويمتد فى سمكه حتى يبلغ الى فلك عطارد ويمتد فى سمكه أيضا الى أن ينقطع هناك فطوله من سطح الارض الى حيث ينقطع فى فلك عطارد مثل قطر الارض مائة مرة وثلاثين مرة فيكون فى سمك الهواء منه ستة عشر جزءا ونصف وفى سمك القمر مثل ذلك وسبعة وسبعون جزءا منه فى سمك فلك عطارد الى حيث ينقطع الى آخر ماقالوه فى ظل الارض وظل القمر فى مبحث الخسوف والكسوف كما قدمناه وقد قدمنا أيضا أنه اذا كان ظل القمر فى غير موضع الاجتماع والاستقبال ولكن يكون الى أحد الموضعين أقرب فان كان قربه الى الاجتماع أكثر كان رأس مخروط ظله فى سمك الهواء وان كان الى الاستقبال أقرب كان رأس مخروط ظله فى سمك فلكه أو فى سمك فلك عطارد وأما رأس مخروط ظل الارض فالى الدرجة المقابلة لدرجة الشمس فى أى برج كانت ويدور أبدا فى مقابلة الشمس فاذا كانت الشمس من فوق الارض فظل الارض تحتها وان كانت تحت الارض فظل الارض فوقها وان كانت بالمشرق فظل الارض الى ناحية المغرب واذا صارت بالمغرب صار الظل الى ناحية المشرق وهذا أبدا دائما أبدا يكونان حول الارض وهما الليل والنهار ومن ذلك تعلم أن النهار مكون من نور الشمس وأن الليل عبارة عن الظلمة التى تنشأ عن ظل الارض وان هذا النور وهذا الظل هما الليل والنهار اللذان يتعاقبان فى دورانهما حول الارض حسب حركة الارض اليومية فى كل أربع وعشرين ساعة وحسب حركة الفلك الاعظم فى تلك المدة على الخلاف فى ذلك بين المتقدمين والمتأخرين فلا نور ولا ضوء ولا نهار على وجه الارض الا من إشراق الشمس على وجهها ولا ظلمة ولا ليل الا من ظل الارض بسبب غيبة الشمس عن

وجه الارض المقابل للوجه الذى أشرقت عليه الشمس فكل من الصبح الصادق والكاذب يتعين أن يكون ناشئا عن قرص الشمس ومن نورها وبواسطة انعكاس أشعتها غاية الامر أن الكاذب يظهر أولا مستطيلا عمودا كذنب السرحان والصادق يظهر بعده مستطيرا منتشرا معترضا فى الافق وقد قرر الامام الرازى أن الهواء شفاف عديم اللون فلا يقبل النور واللون فى ذاته وما كان كذلك يمتنع أن ينعكس منه النور الى غيره فيمتنع أن يصير ضوؤه سبب الضوء هواء آخر مقابل له ولكن وجد أن ضوء الشمس ينعكس منها الى الارض فثبت بذلك أن الارض يحيط بها كرة بخارية ودخانية هى عبارة عن هواء متكاثف بما فيه من الاجزاء الارضية والمائية المتصاعدة من كرتيها بتسخين الشمس وغيرها إياهما وان شكل ذلك الهواء شكل كرة محيطة بالارض على مركزها الى آخر ما تقدم نقله عن الالوسى من حاصل كلام أهل الهيئة وتوضيحه بما نقله عن تذكرة الطوسى وما كتبه عليها سيد المحققين وبواسطة تلك الكرة البخارية المخالطة للهواء المحيط بالارض تحصل فى الهواء قوة لتكسير النور وتعكيسه وذلك من حكمة الله تعالى ورحمته بخلقه فانه لو لم توجد فى الهواء قوة لتكسير النور وتعكيسه ما أمكننا أن نرى شيئا الا ما وقع عليه نور الشمس نفسه ولكانت ظلمة دائمة كلما جلسنا تحت ظل أو احتجبت الشمس عنا بسحابة ومن ذلك يتبين أن قول أبى على بن الهيثم فى المناظر أن الشمس حين كونها تحت الارض توجب اضاءة ذلك الهواء المقابل لها الى آخره المراد منه الهواء المتكاثف بما فيه من الاجزاء الارضية والمائية وقد قدمنا عنهم ان كرة البخار هذه مختلفة القوام الى آخر ما سبق وبطل جواب الامام الرازى بوجهيه خصوصا قوله فى الوجه الاول جوابا عن قوله فان قالوا لم لا يجوز أن يقال الى آخره فنقول لو كان كذلك الى آخره فان ما قاله تشكيك فى البديهيات المشاهدة فلا يقبل * وبعد أن تتحقق ان كلا من الصادق والكاذب انما هو من قرص الشمس تعرض الطوسى فى تذكرته لبيان العلة فى كون الكاذب مستطيلا عموديا والصادق يظهر بعده مستطيرا أفقيا منتشرا أما كون الاول عموديا مستطيلا والثانى معترضا أفقيا فهذا ثابت بالمشاهدة فلا يحتاج الى دليل آخر فلا حاجة الا لبيان المقتضى لكون الكاذب عموديا والصادق افقيا بالطرق الهندسية وليس الا ما بينه الطوسى فى تذكرته وأوضحه السيد الشريف فيما كتبه على التذكرة والا ما قاله علماء الهيئة وبينه ارسطوخس فى الشكل الاول والثانى على ما بينه الالوسى والادلة الهندسية يقينية برهانية لا تقبل المعارضة والعقل وان كان يجوز أن تكون العلة والمقتضى لما ذكر هو غير ما ذكروه لكنه أيضا يجوز ان تكون العلة والمقتضى هو ما ذكروه غير ان المدار الذى عليه المعول انما هو السبب الواقعى وليس ذلك الا الذى ذكره علماء الهيئة من أنه لا منشأ لكل من الصبح الصادق والكاذب الا قرص الشمس كما بيناه ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى دلت عليه الآيات القرآنية الكثيرة التى تقدم الكلام عليها مثل قوله تعالى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وقوله تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات وقوله تعالى يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا * فان هذه الآيات وأمثالها تدل دلالة واضحة انه لا يتعاقب على وجه الارض وما يحيط بها كرة البخار والهواء ونحو ذلك الا الليل والنهار

ومن المعلوم بالضرورة ان الليل والنهار انما ينشئان عن اشراق الشمس على وجه الارض وظل الارض على الوجه الذى يقابله والكل بخلق الله تعالى وايجاده وهو مصدر الاسباب والمسببات ومن هذا تعلم ان ما قاله الامام الرازى تشكيك فى اليقينيات واما ما قاله ابن حجر اولا من أن لاهل الهيئة فى تحقيق الصبح الكاذب كلاما طويلا مبنيا على الحدس المبنى على قاعدة الحكماء الباطلة كمنع الخرق والالتئام فمن الغريب صدوره من مثل هذا الامام الفاضل فانه لا علاقة اصلا بين ما قاله علماء الهيئة فى الصبح الصادق والكاذب وبين الحدس المبنى على قاعدة الخرق والالتئام لما علمته ان مبنى الصبح الكاذب والصادق فى حدوثهما وسببه على المشاهدات والآيات

القرآنية وفى شكلهما مبنى على براهين هندسية وذلك مما يقول بها العقلاء أجمع بلا فرق بين فلسفى وغيره وأما ما قاله ثانيا فهو من قبل بيان الحكم الشرعية المقصودة من الصبح الكاذب والصبح الصادق وتقدم الكاذب فى الوجود على الصادق ولا دخل لها فى الاسباب التى ينشأ منها كل من الصبح الصادق والكاذب

ومن ذلك تعلم ان الذى يتعين المصير اليه هو ما قاله العلامة الطوسى فى تذكرته والسيد الشريف فيما كتبه عليها

ومثل ذلك ما قاله ابو على ابن الهيثم وارسطوخس حسبما تقتضيه قواعد علم الهيئة وهذا مما لا يختلف فيه علماء الهيئة القديمة والهيئة الجديدة الا من حيث الحركة التى ينبنى عليها دوران الليل والنهار وتعاقبهما واختلافهما كما قدمناه مرارا

وقال فى كشف الاسرار القرآنية فى تفسير هذه الآية ان الصبح صبحان الصبح المستطيل كذنب السرحان ثم تعقبه ظلمة خالصة وهو الكاذب ثم يطلع بعده الصبح المستعرض فى جميع الافق وهو الصبح الثانى الذى هو الضوء المنتشر بالصباح فيشتت ظلمات الليل وهو معدوم فى خط الاستواء وانما تبتدىء مشاهدته فى الاجزاء الجنوبية من المناطق المعتدلة ويقوى ظهوره كلما قربت الاقطار القطبية وأهل تلك البلاد يمكثون أربعة أشهر تقريبا بدون رؤية الشمس غايته ان الصبح فى هذا الليل الطويل يضىء عليهم اضاءة تكفى لاجتيازهم السهول والارض وضوء الشروق الذى يشاهد عند طلوع الشمس يعقب الصبح كما ان ضوء الغروب يسبق الشفق وما ذاك الا لان ضوء هذا الكوكب يبقى نافذا فى فضاء الجو حتى يصل الينا وتنسب تلك الانوار المدهشة البارقة التى تسبق الشمس وتصحبها حيثما تقارب حد الافق لكثافة الجو والابخرة السابحة فيه وهذه الالوان اللامعة لشبهها بالصبح والشروق والشفق لا تظهر فى سماء سكان المدارين فالقدرة الربانية والحكمة الالهية لم ترد كمال انتشار تلك الحوادث المشرقة ووصولها الى غاية جمالها واضاءتها الباهرة الا لسكان القطبين فكلما لاحت هنالك تلك الانوار البهية يحصل فى عقولنا اندهاش وفى افكارنا اضطراب ويزيد ايقاننا بوجود صانع حكيم صانع للموجودات وهو بكل شىء عليم * وانما اعقبت الصبح الاول ظلمة خالصة لتحول شكله من خط مستطيل عمودى الى خط افقى معترض فى جميع الافق بواسطة ارتفاع قرص الشمس وقربها الى الافق فيتغير موضعه ويعقبه فيه ظلمة خالصة وليس ذلك لانه انعدم بالكلية بل لانه انتقل وتحول الى موضع آخر وموضعه الاول اظلم بعود ظل الارض اليه ثانيا ثم بانتشار النور يكون الصبح الثانى فى الافق كله فيتقلص ظل الارض بالكلية عن هذا الوجه من الارض الذى تشرق عليه الشمس انتهى

ثم بعد ان بين ان جميع الاجسام متماثلة فى الجسمية ولوازمها وان كل ما صح على شىء صح على مثله وان القول بان ما به حصلت المخالفة ليس محلا للجسم ولا حالا فيه فساده ظاهر قال بناء على هذا واذا استوت الاجسام باسرها فى قبول جميع الصفات على البدل كان اختصاص جسم الشمس بهذه الاضاءة وهذه الانارة لابد وان يكون بتخصيص الفاعل المختار الواحد القهار

واذا ثبت هذا كان فالق الاصباح فى الحقيقة هو الله تعالى وحده وذلك هو المطلوب ثم قال ان الظلمة شبيهة بالعدم بل البرهان القاطع قد دل على انه مفهوم عدمى والنور محض الوجود فاذا أظلم الليل حصل الخوف والفزع فى قلب الكل فاستولى النوم عليهم وصاروا كالاموات وسكنت المتحركات وتعطلت التأثيرات ورفعت التفصيلات فالنوم سكون جميع وظائف المخالطة كما ان السهر محركها والسبب المسبب للنوم تعب الجهاز العصبى وسببه الحقيقى نقصان وفور الدم نحو المخ فكلما تحول الدم عن هذا العضو يسعفه النوم والوسائط المسعفة فى تولد النوم هى عدم المنبهات البدنية والخارجية للجهاز العصبى فالخارجية كالضوء والبدنية

كالحركات العضلية والنفسانية والنوم اذاحصل وقت الليل فانماهو من حيث ان الاعضاء كلت من تعب النهار ولم يبق فيها منبه فاذا وصل نور الصباح الى هذا العالم فكانه نفخ فى الصور مادة الحياة وقوة الادراك فضعف النوم وابتدأت اليقظة بالظهور وكلما كان نور الصباح أقوى وأكمل كان ظهور قوة الحس والحركة فى الحيوانات اكمل ومعلوم ان اعظم نعم الله تعالى على الخلق هو قوة الحياة والحس والحركة ولما كان النور هو السبب الاصلى لحصول هذه الاحوال كان تأثير قدرة الله تعالى فى تخليق النور من أعظم أقسام النعم وأجل أنواع الفضل والكرم اذا عرفت هذا فكونه تعالى فالق الاصباح من أجل البراهين على كمال قدرة الله تعالى ومن أجل أقسام الدلائل فى كونه فضلا ورحمة واحسانا من الله على الخلق انتهى

وقد علمت مما سبق ان الاعتراض بان الفلق انما هو للظلمة لا للاصباح واحتياجه للجواب عن ذلك خاص بتفسير الفلق بالشق واما على ماقاله ابن عباس من ان فالق بمعنى خالق فلا ورود لهذا الاعتراض حتى نحتاج الى الجواب ولذلك قال فى كشف الاسرار قال بعضهم الفالق هو الخالق فكان المعنى خالق الاصباح وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل والله تعالى اعلم بالحقيقة انتهى

ومن هذا الذى نقلناه عن كشف الاسرار تعلم التوفيق بين قول من قال ان الصبح الكاذب ينعدم وتعقبه ظلمة خالصة وقول من قال انه لا ينعدم فان الاول محمول على انه ينعدم من محله الاول وينتقل الى محل آخر فتعقبه ظلمة خالصة فى محله الذى انتقل عنه ومن قال انه لا ينعدم فراده ان ذات النور لا تنعدم بل تتحول الى مكان آخر ويزداد حتى يصير خطا افقيا معترضا ويكون حينئذ هو الصبح الثانى وهذا هو المعقول لانه متى كان الصبحان ناشئين من قرص الشمس وانما اختلف شكلهما بسبب بعد الشمس وقربها من الافق وكون كرة الأرض أصغر من الشمس وكون ظلها مخروطا كما سبق كان الواقع ان لا ينعدم الضوء بالكلية وانما يتحول بقرب الشمس من الافق من مكان ويتغير شكله شيئا فشيئا حتى يصير خطا افقيا معترضا بعد أن كان عموديا مستطيلا فاعرف الرجال بالحق

وأما قوله تعالى وجعل الليل سكنا فقال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه أى يسكن اليه من يتعب بالنهار ويستأنس به لاسترواحه فيه وكل ما يسكن اليه الرجل ويطمئن استئناسا به واسترواحا اليه من زوج أوحبيب يقال له سكن ومنه قيل للنار سكن لانه يستأنس بها ولذا سموها مؤنسة

واخرج ابن ابى حاتم عن قتادة ان المعنى يسكن فيه كل طير ودابة وروى نحوه عن ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم فالمراد حينئذ جعل الليل مسكونا فيه اخذا له من السكون أى الهدوء والاستقرار كما فى قوله تعالى لتسكنوا فيه وصاحب كشف الاسرار بعد أن نقل عن الكشاف بعض ماتقدم قال فتسكن فيه جميع الحواس لتعويض مانقص منها ونوم هذه الاعضاء اعنى أعضاء الحواس يكون على التوالى فأول مايسكن وظيفة الابصار ثم الذوق ثم الشم ويبقى كل من السمع واللمس متيقظا بعض تيقظ ليوصل بعض احساسات ثم تتناقص الادراكات الغير منتظمة شيئا فشيئا حتى تزول بالكلية * فان قيل ان الخلق يبقون فى الجنة فى اهنأ عيش مع انه ليس هنالك ليل فعلمنا ان وجود الليل والنهار ليس من ضروريات اللذة والخير فى الحياة قلنا كلا منافى ان الليل والنهار من ضروريات مصالح هذا العالم فى الدنيا وأما الدار الآخرة فهذه العادات غير باقية فيها فظهر الفرق انتهى * وهذا لان دار الدنيا هذه دار عمل وتعب ونصب فى طلب ماينفع ودفع مايضر فيحتاج أهلها الى وقت يكون فيه النشاط للعمل والحركة ووقت آخر للراحة والسكون والهدوء لتعويض مانقص من أعضاء الحواس فجعل الله سبحانه فضلا منه على خلقه ورحمة بهم آية النهار للعمل والحركة وطلب الرزق وجلب ماينفع ودفع مايضر وجعل الليل للسكون والراحة قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة

لتبتغوا فضلا من ربكم وأما اهل الجنة فى الدار الآخرة فلهم رزقهم فيها بكرة وعشيا لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها لا يمسهم فيها نصب ولا لغوب ولا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا فلا يحتاجون فيها الى نهار يعملون فيه ولا ليل يسكنون فيه واليه لان الدار الآخرة دار جزاء لا دار عمل فسبحان الحكيم الذى اعطى كل شىء خلقه

واما قوله تعالى والشمس والقمر حسبانا فقد تقدم الكلام على مثله فى آيات الرحمن فمعنى جعل الشمس والقمر حسبانا جعلهما على حساب لان حساب الاوقات ليس الا بدورانهما وسيرهما وقد علم بالحساب ان النجوم تتقدم كل يوم فى الوصول الى خط نصف النهار بنحو اربع دقائق عن وصولها فى اليوم السابق ومايقطعه النجم من الزمن فى رجوعه الى خط نصف النهار يسمى يوما نجميا وزمن اليوم النجمى اربع وعشرون ساعة الا اربع دقائق وهذه المدة ايضا هى المدة الحقيقية التى تسيرها الشمس حسب الظاهر والعلة التى اقتضت تعويق القمر عن حلوله فى خط نصف النهار باحدى وخمسين دقيقة هى علة تأخر الشمس كل يوم نحو أربع دقائق عن ظهورها فى النصف ولما كانت الشمس على حسب الظاهر لا تسير كل يوم فى دائرة وسط البروج الا درجة ولا تقطع منه الا درجة واحدة احتاج الامر أن نجعل لها درجة زائدة كل سنة حتى يمكن ان ترجع وتصل الى المحل الذى انتقلت منه يعنى خط نصف النهار والذى ابتدات منه السير وهذا كله هو السبب فى كون السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم والسنة النجمية ثلاثمائة وستة وستين يوما وربع يوم واليوم النجمى مستوى الزمن دائما وليس كذلك اليوم الشمسى لان الارض حين بعدها الاقرب تعوق الشمس بعض شىء عن الظهور فى خط نصف النهار فيكون اليوم حينئذ أزيد من اربع وعشرين ساعة واذا كانت الارض فى البعد الابعد فلا يبلغ اربعا وعشرين ساعة وقد سمى اهل الهيئة الساعات التى تحسب بالشمس الزمن المختلف والزمن الحقيقى وسموا الساعات التى تؤخذ من ساعة صحيحة مضبوطة الزمان الاوسط وهذان الزمانان ليسا دائما متفقين لان ايام الشمس ليست مستوية فقد يكون الاختلاف ربع ساعة ففى الشتاء تكون ساعات الزمان الاوسط أطول من ساعات الزمان المختلف وبعكس ذلك يقع فى الصيف

ثم قال فى موضع آخر والقمر كوكب الليل وسراجه ويشاهد فى هيئات مختلفة كثيرا وهو جرم مظلم كروى كالكواكب السيارة وله حركتان احداهما حول محوره وثانيتهما حول الارض ويقطع مداره حول الارض فى تسعة وعشرين يوما ونصف يوم تقريبا وهى تسعة وعشرون يوما واثنتا عشرة ساعة واربع واربعون دقيقة وثانيتان وثمان ثوالث وهذا هو المسمى بالشهر القمرى ويتم دورته على محوره فى سبعة وعشرين يوما ونصف يوم تقريبا ويتأخر طلوعه على الافق كل يوم خمسين دقيقة ونصفا وهذا هو الحد الاوسط والسنة الارضية اثنا عشر شهرا قمريا وأحد عشر يوما ويبتدىء دور نظام الاشهر القمرية بعد كل تسع عشرة سنة تقريبا او بعد كل مائتين وخمسة وثلاثين شهرا قمريا وهو كما ذكرنا يستفيد نوره من نور الشمس فيقابلها بجميع اوجهه جزأ فجزأ ولا نشاهد بمقتضى حركته الا نصف كرته فقط ولا يتغير ذلك النصف اصلا فى كل مرة فتارة يستضىء كله وتارة بعضه ومن هذه التغيرات ينشأ مايسمى باوجه القمر وهى اربعة القمر الجديد المسمى بالمحاق والقمر الممتلىء اى الكامل المسمى بالبدر والربع الاول والربع الاخير فاذا كانت الارض بين الشمس والقمر كان هنالك استقبال واذا كان القمر بين الشمس والارض كان هنالك اجتماع واذا كان القمر فى وسط المسافتين بين محل الاستقبال والاجتماع اعنى بعيدا عن كل منهما بتسعين درجة كان هنالك تربيع والقمر حينئذ يكون اما فى ربعه الاول واما فى ربعه الاخير ثم هو فى دورته حول الارض يخط قطعا ناقصا والنقطة التى يكون فيها أقرب الى الارض تسمى حضيضا والتى يكون فيها ابعد عنها تسمى اوجا ومدار القمر الذى يخطه حول الارض ويكون على شكل قطع ناقص مائل عن

دائرة وسط فلك البروج المسماة بالدائرة الكسوفية بخمس درج فالقمر غالبا يكون فوق هذه الدائرة أو تحتها ولا يمكن مشاهدة الخسوف الا اذا كان القمر على تلك الدائرة مباشرة وكل من الخسوف والكسوف قد يكون كليا وقد يكون جزئيا على حسب ستر الكواكب عنا كلا أو بعضا ولا نشاهد الكسوف الشمسي الا في بعض أقطار الارض ويكون أيضا كليا وجزئيا وحلقيا بخلاف الخسوف القمري فانه يشاهده من كان القمر اذ ذاك فوق افقهم ولا يكون حلقيا أصلا ويشاهد في سطح القمر نكت كثيرة لا تتغير ولا تختلف كميتها ولا مقاديرها ومن ذلك يستنتج ماذكرنا من اننا لا نشاهد دائما الا نصفه المحاذي لنا فقط ولجسم القمر تأثير قوي على الارض فتسلطن المد والجزر وحصول كثير من الحوادث ربما كانت حاصلة من تاثير القمر انتهى ملخصا

ومن ذلك يتبين ان المدار في حساب الاوقات بجميع انواعها على ظهور الشمس نهارا واشراقها بضوئها وظهور القمر ليلا واشراقه بنوره وذلك بواسطة الحركة اليومية التي بها يتعاقب الليل والنهار والحركة السنوية التي بها يختلف الفصول السنوية وكلاهما تابعان لحركة الارض ودورانها على محورها وحول الشمس على ماهو المختار أو بواسطة حركة الفلك الاعظم من المشرق الى المغرب وحركة الشمس من المغرب الى المشرق على خلاف المختار كما بيناه من قبل فكان انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر انتفاعا عظيما ونعمة كبرى من الله المنعم على خلقه فلذلك قال تعالى وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب كما قدمنا الكلام على ذلك ونزيدك هنا بيانا فنقول

قد علمت مما قدمناه أن دائرة الاستواء الارضية تتجه في زمانين مختلفين الى الشمس من السنة وهما الانقلابان وفي زمانين آخرين في السنة وهما الاعتدالان وبهذه الحركة وهذين الاتجاهين انقسمت السنة الى الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم فينتقلون من صيف الى خريف ومن خريف الى شتاء ومن شتاء الى ربيع ومن ربيع الى صيف وهكذا وفي كل فصل منها يشاهدون من الآثار والنعم والمنافع مالا يشاهدونه في الآخر كما أنه بسبب الحركة اليومية يحصل الليل والنهار ويتعاقبان ففي النهار يكون التكسب وطلب الرزق وعمل كل مايحتاج اليه الخلق من أمورهم الدنيوية والدينية وفي الليل تكون راحة أبدانهم وحواسهم من متاعب الاعمال في النهار وبالنوم فيه تعود قوة الحواس ثم بالنهار تعود اليقظة والنشاط للعمل على وجه ماذكر وهكذا دأبهم دائما أبدا في دار الدنيا وكل ذلك رحمة من الله تعالى وفضل ونعمة على خلقه وعظيم عناية بهم منه سبحانه وكل هذا دليل على البعث والاحياء بعد الموت لتجزى كل نفس بما كسبت فان العاقل اذا تفكر في ذلك وأمعن النظر ولو قليلا وجد أنه يموت بالنوم في كل ليلة ويبعث ويحيا باليقظة في النهار دائما ولذلك قال تعالى * الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * فالمعنى الله يقبض الانفس من الابدان ويقطع تعلقها بها تعلق التصرف عنها وقت موتها * ويقبض أيضا التي لم تمت وقت منامها ويقطع تعلقها بها تعلق التصرف فيها فيمسك النفس التي قضى عليها الموت ولا يردها الى أبدانها بل يبقيها على ماكانت عليه وقت الموت ويرسل الانفس الاخرى وهي النائمة التي لم يقض عليها الموت الى أبدانها فتعود اليها وتكون كما كانت حال اليقظة متعلقة بها تعلق التصرف فيها كل ذلك الى أجل مسمى أي الى أجل مضروب ومقدر عند الله تعالى فللموت حقيقة أجل مضروب وهو وقت البعث والنشور وللنوم وهو الموت الحكمي أجل مضروب وهو وقت اليقظة وكرر الموت الحكمي في كل أربع وعشرين ساعة فاماته حكما في الليل وأحياه كذلك في النهار ليكون ذلك تذكيرا للخلق على الدوام بدليل البعث والتفكر فيه وأما الموت الحقيقي الذي به ينتهي التكليف فلا يتكرر كما قال تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى * ولذلك قال تعالى ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون أي

أن في كل ماذكرنا من توفي الانفس وقت الموت وتوفي الانفس التي لم تمت وقت النوم وامساك التي قضى عليها الموت وعدم ردها الى أبدانها الى أجل مسمى وارسال الاخرى وهي النائمة التي لم يقض عليها الموت لآيات لقوم يتفكرون وينظرون بعقولهم السليمة في ذلك نظرا دقيقا وفكرا صحيحا خاليا عن مرض التعصب وعوائق الاوهام والتقيد بقيود الماديات والحواس والمحسوسات وقد قلنا فيما سبق إن جميع الاجسام متساوية في الجسمية ولوازمها ومتى كانت كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين وحيزه المعين وصفته المعينة ليس الا بتخصيص فاعل مختار وتدبير مدبر حكيم قادر قهار فعال لما يريد ويختار وقد أراد واختار سبحانه أن يكون جميع المنافع الحاصلة في هذه العوالم بواسطة حركات الاجرام السماوية في أفلاكها ومداراتها فاناط جلت قدرته بارادته واختياره تلك المنافع بسير الشمس والقمر وسائر الكواكب المتعلقة بالحركة المستوية فجعل سبحانه دائرة فلك البروج دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف وهذه الدائرة تمتد الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف من دائرة الاستواء وهاتان الدائرتان تسميان بالمدارين وهما يدلان على موضع الشمس الذي تنتهي اليه في الصعود ثم تهبط الى مثل محلها الذي صعدت منه وهكذا وأما الدائرتان القطبيتان فهما على البعد من القطب بثلاث وعشرين درجة ونصف درجة وهما مايكون عليهما النهار الدائم والليل الدائم مدة كون الشمس في نقطتي الانقلابين ثم إن المدارين ودائرتي القطب يقسمان الارض الى خمس مناطق منطقة شديدة الحرارة ومنطقتان معتدلتان ومنطقتان شديدتا البرودة فالاولى وهي مابين المدارين أشد الاماكن حرا بسبب وجود الشمس دائما على سمت بعض نقطها ويسمى أهلها أرباب الظلين لان الشمس في وجودها في نصف النهار تبعث أشعتها في تلك المواضع ستة أشهر جهة الشمال وفي الستة الاشهر الاخرى يمتد الشعاع جهة الجنوب والثانية والثالثة كل منهما بين أحد المدارين ودائرة قطبية ولا تكون الشمس في سمت رأس أهلهما أبدا ويسمى أهلهما أرباب اختلاف الظل لان أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس في الجنوب وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية يرونها في الشمال وأما الرابعة والخامسة فاحداهما من مبتدأ الدائرة القطبية الشمالية الى القطب الشمالي والاخرى من مبتدأ الدائرة القطبية الجنوبية الى القطب الجنوبي وفيهما غاية اشتداد البرودة ويسمى أهلهما أرباب الظل الدائر لان الظل في زمن صيفهم يدور حولهم ويوجد في الكرة السماوية دوائر تسمى دوائر انصاف النهار * ودوائر تسمى المتوازية ودوائر معدل النهار ودوائر وسط فلك البروج وهذه الدوائر الاخيرة هي دائرة وسط فلك البروج الذي هو وسط منطقة منتهية بدائرتين متوازيتين لدائرة فلك البروج وعرض هذه المنطقة نحو سبع عشرة درجة وفيها سائر الدوائر التي تمر بها الكواكب وقد علمت مما قدمناه أن دائرة منطقة البروج قسموها الى اثني عشر قسما وقسموا الاقسام بروجا وكل برج ثلاثون درجة وسموا كل برج منها باسم الصورة التي كان يحاذيها وقت القسمة وباعتبار قطع الشمس ثلاثة منها يكون منفصلا فكانت فصول السنة أربعة وليست هذه الفصول متساوية في المدة فان فصل الربيع يمكث نحو اثنين وتسعين يوما واحدى وعشرين ساعة وست عشرة دقيقة ويمكث فصل الصيف نحو ثلاث وتسعين يوما وثلاث عشرة ساعة وثلاث وخمسين دقيقة ويمكث فصل الخريف نحو سبعة وثمانين يوما وسبع عشرة ساعة وثمان دقائق ويمكث فصل الشتاء تسعة وثمانين يوما وساعة واحدة وثلاثين دقيقة واختلاف الآثار باختلاف الفصول واختلاف مدها فيه منافع لاتحصى معالم المواليد الثلاث فانظروا الى آثار رحمة الله والى صنع الله الذي أتقن كل شئ وجعل لكم الارض بهذه الوسائط ذلولا ومهادا وفراشا وبساطا وإياك أن تظن أن العرب الذين خوطبوا بالقرآن عند نزوله ما كانوا يعرفون كل ماذكرناه وان ذلك اصطلاح حادث للفلاسفة المتأخرين

فترد الحق الذى جاء به القرآن اقامة للحجة وايضاحاً للمحجة بناء على أن من لم يؤمن بالقرآن وافق القرآن وقال بما جاء به ✻ ولتعلم أن كل ما جاء به القرآن حق طابقه الواقع ويجب قبوله مطلقا سواء وافقنا غيرنا عليه أو خالفنا فيه لان الحق أحق أن يتبع قال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أى يستمعون كل قول و يمعنون النظر فيه فيميزون الحق من الباطل فيتبعون الحق دون الباطل

فان قلت ما تقول فى قوله تعالى أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين و الشمائل سجدا لله وهم داخرون

قلت قال الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره أى أولم ينظروا أو يتفكروا فكرا واصلا الى ما خلق الله من شئ له ظل من فلك وجبل وشجر و بناء وجسم قائم كما قال أهل المعانى ولفظ الآية يشعر بهذا القيد لان قوله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل يدل على أن ذلك الشئ كثيف يقع له ظل على الارض وقوله يتفيأ ظلاله اخبار عن قوله شئ وليس بوصف له فعلى هذا من ليست بيانية لما خلق بل هى زائدة ✻ وقيل من بيانية لما خلق فجملة يتفيأ صفة شئ و باعتبارها كان البيان مفيدا لان ما نكرة عامة وشئ وحدها نكرة عامة فلا يصلح بيانا الا باعتبار وصفها بالجملة بعدها و يتفيأ يتفعل من الفئ يقال فاء الظل يفئ اذا رجع وعاد فتفيأ مطاوع فيأ مضاعف العين المتعدى من قولك فيأ الله الظل فتفيأ قال الازهرى تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشى بعد ما انصرف الشمس عنه والظل ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس كما قال الشاعر

فلا الظل من برد الضحى فنطيقه ✻ ولا الفيء من بعد العشى نذوقه

وقال ثعلب أخبرت عن أبى عبيدة أن رؤبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فئ وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل ومنهم من أنكر ذلك فان أباز يد أنشد للنابغة الجعدى

فسلام الاله يغدو عليهم ✻ وفيوء الفردوس ذات الظلال

فهذا يشعر بانه اوقع فيه لفظ الفئ على ما لم تنسخه الشمس لان ما فى الجنة من الظل ما حصل بعد ما كان زائلا بسبب نور الشمس وتقول العرب فى جمع فئ أفياء وهو للعدد القليل ✻ وفيوء للكثير كالنفوس والعيون هكذا قالوا ✻ وأقول لا أدرى ما معنى هذا الخلاف فى معنى الفئ و الظل مع أن الآية صريحة فى أن الذى يتفيأ و يعود هو الظلال فالتفئ صفة الظلال فكيف يكون الفئ غير الظل ✻ ثم إن الظل لا يوصف بانه تفيأ الا اذا عاد و رجع الى جهة اخرى كما هو صريح الآية وذلك لا يكون الا بالعشى كما قال الازهرى ✻ فالآية تؤيد ما قاله وما قاله رؤبة قريب مما قاله الازهرى ان لم يكن عينه لان الظل اذا تحول وقت العشى فقد صار الى محل كانت عليه الشمس و زالت عنه بخلاف الظل قبل العشى لان ما هو عليه لم تكن عليه الشمس فى ذلك اليوم الذى طلعت فيه ✻ وأضاف الظلال وهو جمع الى مفرد لانه يعود الى ما خلق وهو وان كان واحدا فى اللفظ لكنه كثير فى المعنى ونظيره قوله تعالى لتستوا على ظهوره ✻ فاضاف الظهور وهى جمع الى ضمير مفرد لانه يعود الى واحد أريد به الكثير وهو قوله تعالى ما تركبون ✻ هذا كله كلام الواحدى وهو بحث حسن لكن عود الضمير الى ما خلق انما هو على جعل الجملة صفة لشئ ومن بيانية اما اذا جعلت من ابتدائية وكان المعنى أو لم يروا الى الذى خلق الله من مادة يتفيأ ظلاله بخلاف ما لا مادة له فانه لا ظلال له أو جعلت من زائدة وجملة يتفيأ خبر فان الضمير حينئذ يعود الى شئ لكن يقال فيه ايضا ما قيل اذا عاد الى ما خلق واما قوله تعالى عن اليمين والشمائل فقيل المراد بهما يمين الفلك وهو المشرق وشماله وهو المغرب والعلة فى تخصيص اليمين بالمشرق والشمال بالمغرب أن أقوى جانبى الانسان يمينه ومنه تظهر القوة فلما كانت الحركة الفلكية

اليومية آخذة من المشرق الى المغرب لا جرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله

اذا عرفت هذا فنقول إن الشمس والقمر وسائر الكواكب تخرج كل يوم فوق الارض من جهة المغرب بعد أن يرسم كل منها قوسا فى مره ولا تصدر هذه الحادثة العجيبة الا عن أحد شيئين إما عن دوران سائر الفلك فى أربع وعشرين ساعة أو عن دوران الارض فى هذه المدة ✻ وقد قلنا إن ما جاز على أحد المثلين يجوز على المثل الآخر فمن كان واقفا وامامه الى الشمال يرى أولا الشمس عن يمينه قريبة من الافق فاذا دارت ربع دورانها رأى الشمس فوق رأسه فان تحولت فى الدوران بنصفها بتمامه رأى الشمس عن يساره قريبة فى جهة الافق فاذا تحولت بالنصف الآخر اختفت عنه الشمس بكليتها ما دام هذا النصف فى التحول ونظير الشمس فى ذلك كله غيرها من الكواكب فالشمس عند طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الاظلال الى الجانب الغربى فاذا انحدرت الشمس عن وسط الفلك الى الجانب الغربى تقع الاظلال فى الجانب الشرقى ✻ فهذا هو المراد من تفيؤ الاظلال عن اليمين الى الشمال والعكس ✻ وعلى هذا التقدير فالاظلال فى اول النهار تبتدىء من يمين الفلك على الربع الغربى من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدىء الاظلال من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقى من الارض ✻ وقيل إن اليمين نحو القطب الجنوبى والشمال نحو القطب الشمالى وذلك انه اذا واقف شخص وجعل امامه الى افق المشرق كان يمينه نحو الجنوب وشماله نحو القطب الشمالى وذلك ان وسط فلك البروج هى دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف وهذه الدائرة تمتد الى دائرتين ✻ متوازيين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف عن دائرة الاستواء وهاتان الدائرتان تسميان المدارين وهما يدلان على موضع الشمس الذى تنتهى اليه فى الصعود ثم تهبط الى مثل محلها الذى صعدت منه وأما الدائرتان القطبيتان فهما على البعد من القطب بثلاث وعشرين درجة ونصف وهما يكون عليهما النهار الدائم والليل الدائم تم مدة كون الشمس فى نقطتى الانقلابين فهذا هو المراد من انتقال الاظلال عن الايمان الى الشمائل و بالعكس فاذا فسرنا اليمين بالمشرق والمغرب كانت النقطة التى هى مشرق الشمس واحدة بعينها فكانت اليمين واحدة وأما الشمائل فهى عبارة عن الانحرافات الواقعة فى الاظلال بعد وقوعها على الارض وهى كثيرة فلذلك عبر الله تعالى فيها بصيغة الجمع اذا علمت هذا فنقول اذا رسم خط الزوال وخط الاستواء على مستو حصل من ذلك تقاطع صلبى اطرافه الاربعة تسمى النقط الاربع الاصلية للعالم فالنقطة الموضوعة جهة القطب الشمالى تسمى الشمال والتى جهة القطب الجنوبى تسمى الجنوب والتى جهة طلوع الكواكب تسمى المشرق والتى جهة غروبها تسمى المغرب فحينئذ انقسمت الارض ارباعا فجميع دوائر هذه الكرة تستعمل لقياس الارض منها دوائر موازية لدائرة الاستواء وتمر بالقطبين وتقسم الكرة الى ثلاث مائة وستين جزأ متساوية ومن تقاطع هذه الدوائر تتكون اسطحة صغيرة مربعة فتسمى درجات أو مربعات فيوجد منها بين خط الاستواء وكل من القطبين تسعون درجة و بين نصف دائرة الزوال ونصفها الآخر مائة وثمانون درجة ور بما يسمى أحدنصفى دائرة الزوال بالزوال النهارى والثانى بالزوال الليلى وقد جعل الله تعالى من خط الاستواء الى القطب الشمالى زيادة فى العمائر فحينئذ قد تبين من انقسام الارض على وجه ما تقدم ان اظلال الشمائل كثيرة فلذلك ذكرها فى الآية بصيغة الجمع كما ذكرناه فمن هذا تعلم كيف جاءت هذه الآية على وفق ما قرره علماء الهيئة فى ذلك تصريحا وتلويحا وبالعبارة والاشارة فسبحانه من حكيم أبدع الكائنات كلها على وفق الحكمة العالية

الا ترى ان الله تعالى برحمته وفضله و بديع تدبيره وحكمته قد جعل جميع النيرات الفلكية والاشخاص الكوكبية ودبرها بحيث تقع اضواؤها على هذا العالم على وجوه مخصوصة منها ان الكرة الارضية محاطة من

جميع جهاتها بجسم شفاف خليط من جواهر مختلفة تختلط ببعضها وتتحلل فتنتشر بها الكائنات التى صعدتها اولا لكن بهيئة اخرى وشكل جديد وهذه الكرة الهوائية البخارية الدخانية ليست قوية الكثافة حتى تمنع انكسار الاضواء ولهذا وصل ضوء الشمس الى وجه الارض الذى تشرق عليه بلا فرق بين ما كان عليه الاظلال و بين مالم تكن عليه بل كانت الشمس مشرقة عليه بلا حائل كما قدمناه قريبا وهذه الكرة الجوية لها اظلال متداخلة فى الاضواء فلهذا لم يوجد فى الكون خلو مطلق فما وراء ذلك فلا بد وان يكون الهواء متخلخلا وهذا التخلخل يأخذ فى الزيادة حتى يصل الى المحل الذى ينتهى اليه قوة الجذب فاذا ليس هنالك خلاء تام فيما بين الافلاك فلذلك كان هنالك اظلال متداخلة تتمايل حسب تحرك الافلاك ومنها انا نشاهد أن تلك الاضواء ظلالها لا تقع فى هذا العالم الاوفق تدبيره تعالى فنشاهد أن الشمس اذا طلعت وقعت للاجسام الكثيفة اظلال ممتدة فى الجانب الغربى من الارض ثم كلما ازدادت الشمس طلوعا وارتفاعا ازدادت تلك الاظلال تقلصا وانتفاخا الى الجانب الشرقى الى أن تصل الشمس الى وسط الفلك فاذا انحدرت الى الجانب الغربى ابتدأت الاظلال بالوقوع فى الجانب الشرقى وكلما ازدادت الشمس انحدارا ازدادت الاظلال تمددا وتزايدا فى الجانب الشرقى وكما نشاهد هذه الحالة فى اليوم الواحد فكذلك نشاهد أحوال الاظلال مختلفة فى التيامن والتياسر فى طول السنة بسبب اختلاف أحوال ضوء الشمس فى الحركة من الجنوب الى الشمال و بالعكس فلما شاهدنا أحوال هذه الاظلال مختلفة بسبب الاختلافات اليومية الواقعة فى شرق الارض وغربها و بحسب الاختلافات لواقعة فى طول السنة فى يمين الفلك ويساره ورأينا أنها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين مع أن العقل يجوز وجها آخر غير هذا الوجه المخصوص وترتيبا غير هذا الترتيب علمنا بلا ريب أنها خاضعة لارادة الله وقدرته وانه الفاعل المختار وانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء قد أحاط الله بكل شئ علما

فان قيل لم لا يجوز أن يقال اختلاف حال الاظلال معلل باختلاف سير النير الاعظم لا لاجل ارادة الله تعالى وقدرته

قلنا قد قام البرهان القاطع على أن الجسم لا يكون متحركا لذاته اذ لو كانت ذاته علة لهذا الجزء المخصوص من الحركة لبقى هذا الجزء من الحركة لبقاء ذاته ولو بقى ذلك الجزء من الحركة لامتنع حصول الجزء الآخر من الحركة ولو كان الامر كذلك لكان هذا سكونا لا حركة فالقول بان الجسم متحرك لذاته يوجب القول بكونه ساكنا لذاته وهو محال وما أدى ثبوته الى نفيه كان باطلا فعلمنا أن الجسم يمتنع كونه متحركا لذاته ولذلك قلنا ان الاجسام تنتقل و يجذب بعضها بعضا على طريق النسبة المطردة للكتل والنسب المتعاكسة لمربع المسافات اذ لو فرضنا زوال التثاقل العمومى من الجو فانه يتشتت فى الفضاء و يتصاعد مياه الارض ولا يحصل بين أجزاء الاجرام الصلبة التصاق ولا تماسك وجميع الاشياء ينخرم انتظامها وتختلط ببعضها فيرجع العالم الى اختلاله الاصلى حتى تتعلق القدرة الالهية بخلق عالم جديد فتصنع مراكز تثاقل جديدة فتجذب المواد اليها وتحفظ جوا لها على مقتضى نواميس الميل الغير القابلة للتغير لكن الحكمة الالهية اقتضت الآن حفظ الاشياء وضبطها فى مواضعها الشاغلة هى لها بموجب قوة مجهولة ذاتها لا نعلمها بكنهها ولكنا نعلم آثارها وآثارها المعلومة لنا تدل على وجودها وهذه القوة تسمى بالجذب وهذه القوة أودعها الله تعالى بارادته وقدرته فى كل أجرام العالم لحفظ نظامه وضبطه فى مواضعه فكانت هذه الآية على هذا الوجه من أوضح الدلائل وأقواها على وجود الصانع وأنه الفاعل المختار ولا فاعل سواه ولذلك قال عز من قائل أولم يروا أى أولم ينظروا و يتفكروا وقال الى ما خلق الآية فوصل الفعل بالى لان المراد به الاعتبار والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية البصرية الا اذا كان معها نظر الى شئ وتأمل لاحواله وتفكر فيها فكان حمل الآية على ما ذكرناه كما قاله المفسرون الموافق لما قاله علماء الهيئة أجزل معنى وأليق

ببلاغة القرآن وقد قال تعالى أيضا ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا

سيقت هذه الآية لبيان بعض أدلة التوحيد بعد أن بين الله تعالى جهالة المعرضين عن تلك الدلائل وضلالهم والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والهمزة للاستفهام التقريرى والرؤية بصرية لانها هى التى تتعدى بالى والكلام على تقدير مضاف أى ألم تنظر الى صنع ربك لان ذات الرب سبحانه لا ترى بالابصار ويجوز أن تكون الرؤية علمية وليس هنالك مضاف مقدر وتعدية الفعل بالى لتضمينه معنى الانتهاء اى ألم ينته علمك الى ان ربك كيف مد الظل والمراد بالظل على ما رواه جماعة عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن وايوب بن موسى وابراهيم والضحاك وابى مالك الغفارى وابى العالية وسعيد بن جبير ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وذلك أطيب الاوقات فان الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وتسد النظر وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ومن هنا كان ظل الجنة ممدودا كما قال تعالى وظل ممدود وقيل المراد به ما يكون من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس عند ابتداء طلوعها ومد الظل من باب ضيق فم القربة فالمعنى ألم تنظر الى صنع ربك كيف انشأ ظلا أى ظل كان عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا الى ما شاء الله عز وجل واختاره شيخ الاسلام وتعقب ما تقدم بقوله غير سديد اذ لا ريب فى ان المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل و بالغ حكمته سبحانه فيما يشاهدونه فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر وان كان فى الحقيقة ظلا للافق الشرقى لكنهم لا يعدونه ظلا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة انتهى قال الالوسى وفيه منع ظاهر وهو ناظر على ما ذكره ابو حيان فى الاعتراض على ذلك من انه لا يسمى ظلا فقد قال الراغب وكفى به حجة فى اللغة الظل ضد الضح وهو عم من الفئ فانه يقال ظل الليل وظل الجنة و يقال لكل موضع لم تصل اليه الشمس ظل ولا يقال الفئ الا لما زال عنه الشمس اه وظاهر قوله تعالى وظل ممدود فى وصف الجنة انهم يعدون مثل ما ذكر ظلا وقيل هو ما كان من غروب الشمس الى طلوعها وحكى ذلك عن الجبائى والبلخى قال الالوسى وربما يختلج فى بعض الاذهان جواز أن يراد به أى بالظل ما يشمل جميع ما يصدق عليه انه ظل فيشمل ظل الليل وما بين الفجر وطلوع الشمس وظل الاشياء الكثيفة المقابلة للشمس كالجبال وغيرها انتهى

قلت وهذا اولى لانه لا دليل على تخصيص الظل فى الآية ببعض ما يصدق عليه فيحمل على العموم فالظل فى الآية شامل للامر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وللطبقات الحاصلة داخل الاسقف وافنية الجدران والاشجار وغير ذلك من كل جرم مظل ولا شك ان الظل بجميع انواعه كيفية وحالة متوسطة بين الظلمة الخالصة التى يكرهها الطبع وينفر منها الحس وبين الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية فكان الظل اطيب الاحوال ولذلك وصف الجنة به فقال تعالى وظل ممدود ولذلك أيضا بين الله تعالى أن من النعم العظيمة والمنافع الجليلة مد الظل أى تحركه عن اليمين والشمائل وتزايده شيئا فشيئا على سبيل التدريج تارة وتقلصه شيئا فشيئا على سبيل التدريج أيضا كما يؤخذ مما بيناه فى الآية السابقة ولو شاء لجعله ساكنا أى ثابتا على حاله ظلا أبدا وحاله من الطول والامتداد فلا يجعل للشمس سبيلا على نسخه وازالته بان لا يطلعها ولا على تغيره باختلاف أوضاعها بعد طلوعها ولما كان مد الظل حركة وملازما للحركة عبر فى مقابله بالسكون والغرض من الآية التنبيه من أول الامر على أنه لا مدخل للاسباب لعادية من قرب الشمس الى الافق الشرقى ولا فى قيام الشاخص الكثيف وانما المؤثر فيه حقيقة هو الله

بقدرته ومشيئته ثم ان الناظر الى الجسم الملون وقت الظل يرى كأنه لايشاهد شيئا سوى الجسم وسوى اللون فيقول الظل ليس أمرا ثالثا مغايرا للجسم واللون الا أنه اذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم حصل ذلك الظل وعلم أن الظل شئ ثالث غير الجسم واللون فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الاجرام لما عرف أن للظل وجودا وماهية لان الاشياء انما تعرف باضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور ولذلك قال تعالى ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أى أن الله سبحانه لما أطلع الشمس على الارض وأشرق نورها وأزال الظل وغير أحواله على حسب أوضاعها فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون فمعنى جعل الشمس دليلا على الظل انه تعالى لما خلق الظل بما فيه من المنافع واللذات هدى العقول الى معرفة وجوده بان أطلع الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ولما كان وجود الظل انما يكون نعمة اذا كان زواله وتغيره شيئا فشيئا لان قبض الاظلال لو حصل دفعة واحدة لاختلت مصالح الخلق ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه أنواع مصالح العالم قال تعالى ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا اى ازلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فان الشمس كلما ازداد ارتفاعها ازداد نقصان الظل الى جانب المغرب ولما كان من المقرر ان الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا كان زوال الاظلال كذلك لا يكون دفعة واحدة بل يسيرا يسيرا *

وقال فريق من العلماء انه سبحانه لما خلق الأرض والسماء وقع الظل على الارض لانه سبحانه لما بدأ بخلق الارض كانت الكتلة المصورة للارض ثلاث طبقات * الاولى كانت سائلا ثقيلا كثيفا معتما والثانية دخانا اسود والثالثة أى العليا كانت بخارا كبخار الماء فلما تكون الجزء الجامد خفت الظلمة فوقع الظل على الارض ثم خلق الشمس دليلا عليه وذلك لانه بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار مايزداد احدهما ينقص الآخر وكما ان المهتدى يهتدى بالهادى والدليل ويلازمه كذلك فكذا الاظلال كانت مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها * والمراد بقبض الاظلال اما اتهاؤها يسيرا يسيرا الى غاية نقصانها تسمى ازالة الاظلال قبضا لها والمراد من قبضها يسيرا يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض اسبابها وهى الاجرام التى تلقى الاظلال فحينئذ يكون قوله يسيرا كقوله ذلك حشر علينا يسير * ومما قررناه تعلم ان قبض الظل بمعنى ازالته بعد انشائه شامل لما اذا كان الظل بمعنى ظل الشاخص من شجر وجبل ونحو ذلك أو بمعنى مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس او بمعنى ظل الارض على وجهها الذى تشرق عليه الشمس فان كل ظل لايزول الا يسيرا يسيرا أى على مهل قليلا قليلا كما هو مشاهد لا فرق فى ذلك بين مايزول عند ايقاع الشمس موقعه وبين غيره من الاظلال ولما كان الليل هو ظل الارض كما قلنا فهو ظل من الاظلال غير ان فيه من بدائع آثار قدرة الله تعالى وروائع احكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق قال سبحانه وهو الذى جعل لكم الليل لباسا وكان فى ذلك من لطف الملك مالا مزيد عليه اى وهو الذى جعل لنفعكم الليل أى ظل الارض كاللباس يستركم بظلامه كما يستر اللباس البدن وجعل النوم الذى يقع فيه غالبا بسبب استيلاء الابخرة على القوى عادة سباتا أى راحة للابدان بقطع الافاعيل التى تكون حال اليقظة وجعل النهار الذى ينشأ عن ضوء الشمس المزيل لظل الارض الذى هو الليل نشورا أى بعثا وحياة جديدة باليقظة بعد النوم الذى هو موت أصغر ينتشر فيه الناس لطلب المعاش وجلب المنافع ودفع المضار فهو كقوله تعالى وجعلنا النهار معاشا * فالجملة الاولى مسوقة لبيان منافع الظلمة الخالصة وهو الليل وكأنه قيل اذا كانت الظلمة الخالصة كما ذكرت فلاى شئ جعلها الله تعالى لمنافع جمة وهى انها كاللباس ويكون فيها النوم غالبا للراحة من مشاق العمل بالنهار ولولاها ماوجد الظل * والجملة الثانية مسوقة لمنافع الضوء الخالص فكأنه

قيل اذا كان الامر كما ذكرت فى الضوء الخالص فلم جعله فقال بيانا لمنافعه وجعل النهار نشورا فكانت كل جملة منهما مسوقة لغرض خاص ولذلك كرر الفعل فقال وجعل الليل الى آخره وجعل النهار الخ ولكون النوم من منافع الليل عطفه عليه بدون تكرار الفعل * وبالجملة قد علمت أن الظل هو الضوء المخلوط من النور الخالص والظلمة الخالصة وانه كيفية متوسطة بينهما فلولا وجودهما ما وجد الظل وفضلا عن ذلك فوجود كل منهما له منافع خاصة لا توجد فى الظل فانظر الى حكمة الخبير وعلو مقام هذا التعبير مما يخرج عن قدرة البشر

ومن هذا الذى ذكرنا فى هذه الآية تعلم أيضا انها من أوضح الادلة على وجود الصانع المحسن وأن وجود الظل بجميع ماصدقاته نافع للاحياء عموما وللعقلاء منهم خصوصا فانهم اذا تفكروا علموا أن الضوء الخالص اذا دام والظلمة الخالصة اذا دامت لم يكن واحد منهما من المنافع وأن وجود الظل أما أن يكون من الواجبات التى يستحيل عدمها أو من الجائزات التى يجوز عليها الوجود والعدم والاول باطل بالبداهة العقلية والا لما يتطرق اليه التغير لان الواجب لا يتغير وتغيره مشاهد معلوم بالحس فوجب أن يكون من الجائزات فلابد له فى وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من فاعل قادر مدبر مريد عالم يوجده بالوجه النافع وماذاك الا من يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وماهو الا الله سبحانه وتعالى

فان قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما من شأنه أن يكون مضيئا فكيف استدل بالامر العدمى على ما ذكر وكيف عده من النعم

قلنا الظل ليس عدما محضا بل هو أضواء مخلوطة بظلمات تشاهد تحت الاسقف وفى الافنية مثلا فهو عند التحقيق عبارة عن الضوء الثانى المخلوط بالظلمة وهو أمر وجودى وفى تحقيقه وبسطه كلام دقيق فى عالم الخيال وهو ممتاز عن الضوء الاول الخالص وعن الظلمة الخالصة على كل حال فلا معنى لعده عدما بعد كونه مشاهدا بالابصار *

ومما قررناه تعلم أن هذه الآية والتى قبلها ينطبقان كل الانطباق على ماقاله علماء الهيئة فى الظل وتفيئه عن اليمين والشمائل وماقالوه فى اليمين والشمائل وفى مد الظل وكون الشمس دليلا عليه وعلة لوجوده وزواله تدريجا قليلا قليلا وشيئا فشيئا وفى منافع الليل من كونه ساترا ومن كون النوم فيه غالبا لراحة الحواس وسائر الاعضاء من متاعب العمل بالنهار وفى منافع النهار ومع كل فهذه الامور مما لا ينكره أحد فتبصر

فان قلت ماتقول فى قوله تعالى فى سورة ص * ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه اواب إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق * وماجاء فى ذلك من رد الشمس لسليمان على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وماورد من انها ردت لنبينا صلى الله عليه وسلم * وحبست لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه وليوشع عليه الصلاة والسلام * وكيف التوفيق بين ماذكر وبين ماقاله علماء الهيئة فى حركات الشمس ونظامها وانها لاتسكن أصلا فى طلوعها وغروبها الى أن تصل لمستقرها وتكور وتنكدر النجوم *

قلت قبل الخوض فى صحة ماقيل فى رد الشمس لسليمان او لنبينا عليهما الصلاة والسلام وماورد فى حبسها ليوشع عليه السلام ولعلى رضى الله عنه

نقول ان علماء الهيئة قد قالوا ان اليوم النجمى مستوى الزمن دائما وليس كذلك اليوم الشمسى لان الارض فى بعدها الاقرب تعوق الشمس بعض شىء عن الظهور فى خط نصف النهار فيكون اليوم حينئذ

أز يدمن أربع وعشرين ساعة واذا كانت الارض فى البعد الابعد فلا يبلغ أربعا وعشرين ساعة كما قدمناه * وهذا يدل على أن الله تعالى لم يجعل اليوم الشمسى مستوى الزمن بل جعله تارة أزيد من أربع وعشرين ساعة وتارة أقل من ذلك *والمراد باليوم هنا مجموع الدورة اليومية الشاملة لليل والنهار * وأناط زيادة اليوم عن أربع وعشرين ساعة بعلة وقفنا عليها وعلمناها من طريق الحساب وهى كون الارض فى بعدها لاقرب فتعوق الشمس حينئذ على وجه ماذكر *واذا جاز عوق الشمس لهذه العلة جاز عوقها لعلة أخرى يعلمها العليم الخبير كما يجوز أن يعوقها سبحانه بلا علة أصلا * وعلماء الهيئة انما قالوا ماقالوه بناء على النواميس الطبيعية المعتادة وأما المعجزات التى جاءت خارقة لعادة الله تعالى ولتلك النواميس بل هى مبنية على نواميس خفية لايطلع عليها البشر فلا معنى لان يعترض عليها بمخالفتها لماقضت به النواميس الطبيعية المعتادة مع انهاذا انها أبدا باعتبار كونها خارقة لعادة الله تعالى فى خلقه لاتكون الا مخالفة لتلك النواميس الطبيعية العادية *وحينئذ لا اشكال أصلا فى كل ماورد مماذكر و بحمل الرد أو الحبس على وجود عائق عاق الشمس عن ظهورها فى خط نصف النهار حتى طال النهار وكان أزيد من أربع وعشرين ساعة * فليس معنى رد الشمس انها تقهقرت واختل سيرها ولا أن معنى حبسها انها وقفت عن سيرها وحركتها حتى ينافى ماقاله علماء الهيئة ويخالف ماثبت بالبراهين القطعية وماهو ثابت بالمعاينة وحينئذ يحمل الرد أو الحبس على ماذكرناه و يزول الاشكال *ومع ذلك نحن نذكر ملخص ماقاله جمع من المفسرين فى هذه الآية وماله وماعليه فنقول

قالوا ان سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام عرض عليه الصافنات الجياد من الخيل والصافن هو الذى يجمع يديه ويسويهما وأما الذى يقف على طرف فهو المتخيم كما قال ابو عبيدة أو انه الذى يرفع احدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها وعن التهذيب ومتن اللغة هو المخيم وقال القنبى الصافن الواقف فى الخيل وغيرها والجياد جمع جواد للذكر والانثى فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس قيل وغفل عن صلاة العصر وحكى هذا الطبرسى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقتادة والسدى * ثم قال وفى روايات أصحابنا فاته أول الوقت * وقال الجبائى لم يفته الفرض وانما فاته نفل كان يفعله آخر النهار فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى وانه عليه السلام قال ذلك اعترافا منه بالاشتغال وندما عليه وتمهيدا لما يعقبه من الامر بردها وعقرها على المشهور والخير كثر استعماله فى المال ومنه قوله تعالى (إن ترك خيرا وقوله سبحانه وماتنفقوا من خير يعلمه الله وقوله عزوجل وانه لحب الخير لشديد *وقال أبو حيان يراد بالخير الخيل والعرب تسمى الخيل الخير وحكى ذلك عن قتادة والسدى ولعل ذلك لتعلق الخير بها *فى الخبر الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة * وأحببت مضمن معنى آثرت وهو ملحق بالحقيقة لشهرته فى ذلك وظاهر كلام بعضهم انه حقيقة فيه فهو مما يتعدى بعلى ولكن عدى هنا بعن لتضمنه معنى الانابة *وجوز حمل أحببت على ظاهرها من غير اعتبار تضمينه مايتعدى بعن وجعل عن متعلقة بمقدر كمعرضا و بعيدا وهو حال من ضمير أحببت وجوز فى عن أن تكون تعليلية وسيأتى ان شاء الله تعالى والذكر قيل المراد به المعنى المصدرى واضافته لفاعله وقيل المراد به الصلاة وقوله حتى توارت بالحجاب متعلق بقوله أحببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أى أنبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى غربت الشمس تشبيها لغروبها فى مغربها بتوارى المخبأة فى حجابها قالوا وعود الضمير للشمس فى توارت من غير سابقة ذكرها لدلالة العشى عليها والضمير المنصوب فى قوله تعالى ردوها على للصافنات على ماقاله غير واحد وظاهر كلامهم انه للصافنات المذكورة فى الآية ولعلك تختار انه يعود للخيل الدال عليها الحال المشاهدة أو الى الخير فى قوله أحببت حب الخير لانها بمعنى الخيل وانما قلنا ذلك لان ردوها من تتمة كلام سليمان عليه السلام

الذى يبتدىء من قوله عليه السلام انى أحببت حب الخير وليست الصافنات مذكورة فيه حتى يعود اليها الضمير فى كلامه بل الصافنات مذكورة فى كلام الله تعالى وكلام الله تعالى حكاية عن واقعة عرضها عليه عليه السلام والكلام على اضمار القول كما قال الزمخشرى أى قال ردوها على فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا كانه قال فاذا قال سليمان فقيل قال ردوها على * وقال أبو حيان لاحاجة لاضمار القول لان الجملة مندرجة تحت حكاية القول فى قوله تعالى فقال انى أحببت الى آخره وهو وجيه انتهى *وأقول انا نسلم أن قوله تعالى ردوها من تتمة كلام سليمان عليه السلام وداخلة فى مقوله المحكى بقوله تعالى فقال انى أحببت حب الخير الى آخره ولكن لانسلم أن ذلك كله يقتضى عدم عود الضمير فى قوله ردوها الى الصافنات فى كلام الله تعالى وذلك لانه بعد حكاية الله تعالى لماقاله سليمان عليه السلام أصبح المحكى والحكاية من كلام الله تعالى فالكل كلام واحد من القرآن وتجوز الصلاة به حتى لو قرأ المصلى قوله تعالى فقال انى أحببت حب الخير الى آخره كان قارئا للقرآن ولا تفسد صلاته و يكفى فى سنة القراءة أو واجبها أو فرضها على الخلاف المعروف فى الفقه من تعيين الفاتحة وسنية ضم سورة أو آية لها أو وجوب ذلك أو أن الفرض هو ثلاث آيات قصار أو آية طويلة وقراءة الفاتحة بعينها وضم سورة اليها واجب فقط لاتفسد الصلاة بتركه اذا أتى بالقدر المفروض ولا يلزم فى المحكى أن يكون محكيا بلفظه بل يجوز أن يحكى بمعناه فيجوز أن يكون سليمان قال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى ردوا الخيل على لكن لما حكى الله عنه ذلك وتقدم ذكر الصافنات فى الحكاية فراعاة للايجاز عبر بالضمير اكتفاء بذكر مرجعه فى الحكاية لماذكرنا من انهما كلام واحد صادر من الله تعالى موحى به الى رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا مما لايشتبه على أحد والفاء فى قوله تعالى فطفق مسحا بالسوق والاعناق فاء الفصيحة مفصحة عن جملة حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بغاية سرعة الامتثال أى ردوها عليه فطفق مسحا الى آخره أى شرع يمسح مسحا بالسوق والاعناق أى بسوقها واعناقها والباء متعلقة بالمسح على معنى شرع يمسح السيف بسوقها وأعناقها وقال جمع الباء زائدة أى شرع يمسح سوقها واعناقها بالسيف ومسحه بالسيف قال الراغب كناية عن الضرب وفى الكشاف يمسح السيف بسوقها وأعناقها يقطعها يقال مسح علاوته اذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب اذا قطع أطرافه بسيفه وعن الحسن كسف عراقيبها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف فى القاب الزحاف والعروض ومن قال بالشين المعجمة فصحف وكون المراد القطع قد دل عليه بعض الاخبار أخرج الطبرانى فى الاوسط والاسماعيلى فى معجمه وابن مردويه بسند حسن عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى قوله تعالى فطفق مسحا بالسوق والاعناق قطع سوقها وأعناقها بالسيف وقد جعلها عليه السلام بذلك قربانا لله تعالى وكان تقريب الخيل مشروعا فى دينه ولعل كسف العراقيب ليتأتى ذبحها بسهولة وقيل حبسها فى سبيل الله تعالى وكان ذلك المسح الصادر منه وسما لها للتعرف انها خيل محبوسة فى سبيل الله تعالى وهو نظير ما يفعل اليوم من الوسم بالنار ولا بأس به فى شرعنا مالم يكن فى الوجه ولعله عليه السلام رأى الوسم بالسيف أهون من الوسم بالنار فاختاره أو كان هو المعروف فى تلك الاعصار بينهم على أن كون المسح بالسيف ليس مذكورا فى الآية فعلى فرض ثبوت أن المسح كان بالسيف وحملناه على الوسم يقال ماذكر ويروى انه عليه الصلاة والسلام لما فعل ذلك سخر له الريح كرامة له وقيل انه عليه السلام أراد اتلافها حيث شغلته عن عبادة ربه عزوجل وهذا قول باطل وحاشا رسول الله أن يتلف مالا محترما بمجرد أنه شغل به عن عبادة ربه وله سبيل آخر بان يخرجه عن ملكه مع نفع هو أجل القرب اليه عزوجل على أن تلك الخيل لم يكن عليه الصلاة والسلام اقتناها واستعرضها بطرا وافتخارا معاذ الله تعالى عن ذلك وانما اقتناها للانتفاع بها فى طاعة الله تعالى واستعرضها ليطلع على أحوالها ليصلح

من شأنها ما يحتاج الى الاصلاح وكل ذلك عبادة فغاية مايلزم انه عليه السلام نسي عبادة لشغله بعبادة أخرى وهذا الذى ذكرناه فى محمل هذه الآية هو المشهور بين الجمهور ومنه تعلم أن الجمهور لم يتعرضوا فى معنى الآية الى أن الشمس ردت لسليمان عليه الصلاة والسلام أصلا بل جعلوا الضمير فى ردوها الى الصافنات على أن بعض العلماء أيضا قال إن الضمير فى قوله حتى توارت بالحجاب يعود الى الصافنات أيضا لا الى الشمس قال الجمهور كما سيأتى وقيل الضمير فى ردوها يعود الى الشمس وان الخطاب للملائكة عليهم السلام الموكلين بها قالوا طلب ردها لما فاتته صلاة العصر لشغله بالخيل فردت له حتى صلى العصر وروى هذا القول عن على كرم الله وجهه كما قاله الخفاجى والطبرسى

وحاصله كما فى عمدة القارى على صحيح البخارى أن ابن عباس روى عنه أنه قال سألت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عن هذه الآية فقال ما بلغك فى هذا يا ابن عباس فقلت له سمعت كعب الاحبار يقول ان سليمان عليه السلام اشتغل ذات يوم بعرض الافراس والنظر اليها حتى توارت الشمس بالحجاب فقال ردوها على يعنى الافراس وكانت أربعة عشر فردوها فامر بضرب سوقها وأعناقها بالسيف فقتلها وان الله تعالى سلب ملكه أربعة عشر يوما لانه ظلم الخيل بقتلها فقال على رضى الله عنه كذب كعب لكن سليمان اشتغل بعرض الافراس ذات يوم لانه أراد جهاد عدو حتى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله تعالى للملائكة الموكلين بالشمس ردوها على يعنى الشمس فردوها عليه حتى صلى العصر فى وقتها وأن أنبياء الله لا يظلمون ولا يرضون بالظلم لانهم معصومون مطهرون انتهى ولعله لذلك قال فريق وجعلها قربانا الى آخره وقال فريق آخر كان مسح السوق والاعناق باليد اكراما لها واعترض الامام الرازى على القول بعود الضمير على الشمس لوجوه الاول أن القادر على تحريك الافلاك والكواكب هو الله تعالى فكان الواجب اللائق بالادب أن يقول عليه السلام ردها فان كنت تقول إن الجمع للتعظيم كما فى قوله تعالى رب ارجعون قلنا لفظ ردوها هنا مشعر باعظم أنواع الاهانة فكيف يليق هذا اللفظ برواية التعظيم الثانى أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان مشاهدا لكل أهل الدنيا ولو كان كذلك لتوفرت الدواعى على نقله وحيث لم ينقله أحد علم فساده والذى يقول برد الشمس لسليمان يقول هو كردها ليوشع عليه السلام أو ردها لنبينا صلى الله عليه وسلم فى حديث العير و يوم الخندق حين شغل عن صلاة العصر وردها لعلى كرم الله وجهه و رضى الله عنه بدعائه صلى الله عليه وسلم فقد روى عن اسماء بنت عميس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يوحى اليه ورأسه فى حجر على كرم الله وجهه فلم يصل العصر حتى غربت الشمس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صليت يا على قال لا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس قالت اسماء فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت ووقعت على الارض وذلك بالصهباء فى خيبر وهذا الخبر فى صحته خلاف فقد ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات وقال انه موضوع بلا شك وفى سنده احمد بن داود وهو متروك الحديث كذاب كما قاله الدارقطنى وقال ابن حيان كان يضع الحديث وقال ابن الجوزى قد روى هذا الحديث ابن شاهين فذكره ثم قال وهذا حديث باطل ومن تغفل واضعه انه نظر الى صورة فضيلة ولم يلمح عدم الفائدة فيها وان صلاة العصر تصير قضاء ورجوع الشمس لا يعيدها اداء انتهى وقد أفرد ابن تيمية مصنفا فى الرد على الروافض ذكر فيه الحديث بطرقه ورجاله وانه موضوع وقال الامام احمد لا اصل له وصححه الطحاوى والقاضى عياض ورواه الطبرانى فى معجمه الكبير باسناد حسن كما حكاه شيخ الاسلام ابن العراقى فى شرح التقريب عن أسماء أيضا لكن بلفظ آخر ورواه ابن مردويه عن أبى هريرة وكان أحمد بن صالح يقول لا ينبغى لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لانه من علامات النبوة وبعد أن نقل فى عمدة القارى

ما نقل عن احمد بن صالح قال وهو حديث متصل ورواته ثقات واعلال ابن الجوزى لهذا الحديث لا يلتفت اليه انتهى ولكن ماذا يصنع صاحب عمدة القارى فيما قاله الدار قطنى وابن حبان والامام احمد وهؤلاء من أكابر رجال التعديل والتجريح وممن يعتمد فى تصحيح الاحاديث وقبولها وردها وكذلك اختلف فى حديث الرد يوم الخندق فقيل ضعيف وقيل موضوع وادعى العلامة ابن حجر الهيتمى صحته وما فى حديث العير وأظن انهم اختلفوا فى صحته أيضا ليس صريحا فى الرد فان لفظ الخبر انه لما اسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العير قالوا متى تجئ قال يوم الاربعاء فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولى النهار ولم يجئ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزيد له فى النهار ساعة وحبست عليه الشمس والحبس غير الرد ولو كان هناك رد لادركه قريش ولقالوا فيه ما قالوا فى انشقاق القمر ولم ينقل وقيل كأن ذلك كان بركة فى الزمان نحو ما يذكره الصوفية مما يعبرون عنه بنشر الزمان وان لم يتعقله الكثير وكذا ما كان ليوشع *

فقد جاء فى الحديث الصحيح لم تحبس الشمس على احد الا ليوشع بن نون والقصة مشهورة وهذا الحديث الصحيح عند الكل يعارض جميع ما تقدم وتأويله بأن المراد لم تحبس على احد من الانبياء غيرى الا ليوشع او بالتزام ان المتكلم غير داخل فى عموم كلامه بعد تسليم قبوله لا ينفى معارضة خبر الرد لسليمان عليه السلام فانه بظاهره يستدعى نفى الرد الذى هو أعظم من الحبس له عليه السلام

وبالجملة القول برد الشمس لسليمان عليه السلام غير مسلم وعدم قولى بذلك ليس لامتناع الرد فى نفسه كما زعمه الفلاسفة بل لعدم ثبوته عندى والذوق السليم يأبى حمل الآية على ذلك لنحو ما قاله الرازى وغيره من تعقيب طلب الرد بقوله تعالى فطفق الى آخره ثم ما قدمنا نقله من وقوع الصلاة بعد الرد قضاء هو ما ذهب اليه البعض وفى تحفة العلامة بن حجر الهيثمى لو عادت الشمس بعد الغروب عاد الوقت كما ذكره ابن العماد وقضية كلام الزركشى خلافه وانه لو تأخر غروبها عن وقته المعتاد قدر غروبها عنده وخرج الوقت وان كانت موجودة انتهى وما ذكره آخرا بعيد وكذا اولا فالاوجه كلام ابن العماد * ولا يضر كون عودها معجزة له صلى الله عليه وسلم لان المعجزة نفس العود واما بقاء الوقت بعودها فحكم الشرع ومن ثم لما عادت صلى على كرم الله وجهه العصر اداء بل عودها لم يكن الا لذلك انتهى *

قال الألوسى بعد ذكره ما سبق ولا يحضرنى الآن ما لأصحابنا الحنفية فى ذلك بيد أنى رأيت فى حواشى تفسير البيضاوى لشهاب الدين الخفاجى من أجلة الاصحاب انه ادعى ان الظاهر ان الصلاة بعد الرد أداء * ثم قال وقد بحث الفقهاء فيه بحثا طويلا ليس هذا محله انتهى * وأقول فى صحيح البخارى عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا نبى من الانبياء فقال لقومه لا يتبعنى رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن بها ولا أحد بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها ولا احد اشترى غنما او خلفات وهو ينتظر ولادها فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس انك مأمورة وانا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليه انتهى المقصود من الحديث * قال فى عمدة القارى والحديث أخرجه البخارى أيضا فى النكاح * وأخرجه مسلم فى المغازى قال ابن اسحاق هذا النبى هو يوشع بن نون ولم تحبس الشمس الا له ولنبينا صلى الله عليه وسلم صبيحة الاسراء حين انتظر العير التى أخبر صلى الله عليه وسلم بقدومها عند شروق الشمس فى ذلك اليوم ثم ساق القصة ثم قال وعن السدى ان الشمس كادت تغرب قبل ان يقدم ذلك العير فدعا الله عز وجل فحبسها حتى قدموا كما وصف لهم قال فلم تحبس الشمس على أحد الا عليه ذلك اليوم وعلى يوشع بن نون رواه

البيهقي قلت حبست أيضا في الخندق حين شغل عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فصلاها ذكره عياض في اكماله وقال الطحاوي رواته ثقاة ووقع لموسى عليه الصلاة والسلام تأخير طلوع الفجر روى ابن اسحاق في المبتدا من حديث يحيي بن عروة عن أبيه ان الله عز وجل أمر موسى عليه الصلاة والسلام بالمسير ببني اسرائيل وأمره بحمل تابوت يوسف ولم يدل عليه حتى كاد الفجر يطلع وكان قد وعد بني اسرائيل ان يسير بهم اذا طلع الفجر فدعا ربه ان يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف ففعل الله عز وجل ذلك وبنحوه ذكر الضحاك في تفسيره الكبير ثم ساق ما روته اسماء بنت عميس وما روى عن ابن عباس عن علي بن ابي طالب فيما وقع لسليمان صلى الله عليه وسلم على وجه ماسبق هذا حاصل ماقال العلماء في هذا الموضع لكن مقتضى ماقاله ابن اسحاق أن حبس الشمس لنبينا كان صبيحة الاسراء حين انتظروا العير التي أخبر صلى الله عليه وسلم بقدومها عند شروق الشمس في ذلك اليوم ومقتضى قول السدي أن الشمس كادت تغرب قبل أن يقدم ذلك العير فدعا الله فحبسها أن ذلك كان قبيل غروب الشمس والقصة واحدة وأيضا قدمنا في تفسير قوله تعالى والشمس تجري لمستقر لها من سورة يس ماجاء في غير واحد من الصحاح عن أبي ذر قال كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس فقال يا أبا ذر أين تذهب هذه الشمس الى آخر ماتقدم وأن الالوسي في ذلك الموضع قال إن الامر في ذلك مشكل اذا كان السجود والاستقرار كل ليلة تحت العرش سواء قيل انها تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل اليه أو قيل انها تستقر وتسجد تحته من غير طلوع فقد صرح امام الحرمين وغيره بانه لاخلاف في انها تغرب عند قوم وتطلع على آخرين والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين الى أن قال والادلة قائمة على انها لاتسكن عند غروبها والا لكانت ساكنة عند طلوعها بناء على ان غروبها في افق طلوع في غيره الى آخر ماقدمناه مما نقله الالوسي عن امام الحرمين وغيره وهو صريح في ان الادلة قائمة على انها لا تسكن عند الغروب ولا عند الطلوع وانها على الدوام في طلوع من افق وغروب في غيره فلا تسكن في وقت من الاوقات وان هذه الادلة برهانية قطعية محققة بالعيان وعلى مقتضى ذلك لا يمكن ان ترد الشمس بعد غروبها عند قوم فتعود وتطلع عليهم ثانية بمعنى انها بعد أن تصل الى نقطة أفق الغروب تتقهقر وتعود الى نقطة قبل تلك النقطة وتطلع بعد أن غربت ولو كان الامر كذلك لطلعت الشمس من غير موضع شروقها أو غربت في غير موضع غروبها وكذلك بمقتضى ما ذكر لا يمكن أن تحبس بمعنى انها تسكن عن الحركة وحركتها هي الحركة التي عليها مدار الطلوع والغروب في جميع الآفاق وقد ثبت بالأدلة المفيدة لليقين ان غروبها في افق طلوع في غيره ونحو ذلك من زوال ونحوه كما قاله امام الحرمين فيما تقدم وصرح به الزيلعي في شرحه على الكنز عند الكلام على اختلاف المطالع هل اذا عادت بعد غروبها يرتفع ويزول الغروب عن الافق الذي غربت فيه بعد تحققه ويرتفع ويزول الطلوع ايضا عن الافق الذي طلعت فيه وقت ان غربت لو قلنا بذلك لخالفنا مقتضى البراهين القاطعة وانكرنا ماهو ثابت بالمعاينة وقلنا بوقوع ماهو محال عند العقل بالبراهين فان حركة الشمس من المشرق الى المغرب كل يوم على وجه الدوام والاستمرار سواء قلنا انها حركة قسرية تابعة لحركة الفلك الاعظم او ظاهرية تابعة لحركة الارض مشاهدة كما ان مقتضى الآيات الناطقة بان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامر الله تعالى يخالف ظاهر هذه الاحاديث ومن هنا الذي قلناه تبين ان هذه الاخبار الواردة برد الشمس او حبسها لكونها مخالفة لما يقتضي خلافها من العيان ومن الآيات القرآنية يجب تأويلها اوردها الى ماهو ثابت باليقين على انك قد علمت انها كلها ماعدا حديث حبس الشمس ليوشع عليه السلام مطعون فيها ومختلف في صحتها بل وفي وضعها وعدمه

واما حديث يوشع فلا طعن فيه بل هو صحيح عند الكل فهو في الصحة كحديث ابي ذر في السجود وقد علمت انهم اولوه لمخالفته لما يقتضي خلافه مما هو معاين ومشاهد فوجب تأويل حبس الشمس ليوشع عليه السلام اما بما قدمناه قريبا او بما قالوه من ان المراد بالحبس حصول البركة في الزمان بمعنى ان الله يوفق العبد فيعمل العمل الكثير في الزمن القليل ونحو ذلك*

ومع هذا كله فالاخبار التي وردت كلها اخبار آحاد لا فرق بين الصحيح منها وغير الصحيح وقد قال الامام الرازي عملا بقاعدة اصولية وهي ان الحوادث التي تتوفر الدواعي على نقلها لا يقبل فيها الا الخبر المتواتر واما الآحاد فلا تقبل وان كان الخبر صحيحا وذلك لان الحديث المروي آحادا في تلك الحوادث التي تتوفر الدواعي على نقلها يكون منقطعا في المعنى ان الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان مشاهدا لكل اهل الدنيا ولو كان كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وحيث لم ينقله احد علم فساده انتهى قال ذلك في رواية رد الشمس لسليمان ومثل ذلك يقال فيما نقل آحادا كبقية الاحاديث حتى حديث حبس الشمس ليوشع عليه السلام فيجب رده او تأويله على وجه ما ذكر والاولى تأويله لما فيه من العمل بالدليلين العقلي والنقلي ولاشك ان باب التأويل في مثل ذلك أوسع من مدار الشمس *

وأما ما قاله العلامة ابن حجر الهيثمي من انه اذا عادت الشمس عاد الوقت كما ذكره ابن العماد وان قضية كلام الزركشي خلافه فغير ظاهر لان موضوع كلام ابن العماد فيما لو عادت الشمس بعد غروبها حقيقة كما هو موضوع مسئلة رد الشمس بعد الغروب ومما لاشك فيه ان الشمس اذا غربت حقيقة فقد دخل وقت المغرب حقيقة وخرج وقت العصر ثم عاد وقت العصر بعود الشمس بدليل انه لو صلى المغرب بعد عود الشمس لكانت الصلاة قبل وقتها فلا تصح على مايقوله ابن العماد وموضوع كلام الزركشي فيما لو تأخر غروب الشمس عن وقته المعتاد بان كان المكلف في البلاد التي يطول فيها النهار بحيث يكون وقت المغرب في أقرب البلاد المعتدلة الى البلد الذي فيه المكلف يوافق وقت طلوعها في ذلك البلد الذي هو فيه فيتأخر فيه الغروب عن وقته في أقرب البلاد المعتدلة اليه ومتى قدر له في ذلك البلد حسب المعتاد في أقرب البلاد المعتدلة اليه فلاشك في خروج وقت العصر ودخول وقت المغرب عند دخول الوقت الذي قدره للمغرب وشتان بين ما نحن فيه من فرض عود الشمس بعد غروبها حقيقة في وقتها المعتاد فيه غروبها في البلاد المعتدلة وبين طول مكث الشمس فوق سطح الارض الذي يطول به النهار ويقصر به الليل عن المعتاد فيهما في البلاد المعتدلة فيتأخر الغروب بل والزوال وبلوغ ظل كل شيء مثله أو مثليه عن المعتاد في البلاد المعتدلة فان المكلف في هذه البلاد يقدر الاوقات لكل هذه الصلوات بما يوافق الاوقات في أقرب البلاد المعتدلة كما هو معلوم ومقرر في كتب الفقه هذا

وقال قوم ان الضمير في قوله تعالى حتى توارت بالحجاب يعود الى الخيل كضمير ردوها واختاره جمع وعليه قيل الحجاب هو اصطبلاتها أي حتى دخلت اصطبلاتها وقيل حتى توارت في المسابقة بما يحجبها عن النظر وبعض من قال بارجاع الضمير للخيل جعل عن للتعليل ولم يجعل المسح بالسوق والاعناق بالمعنى السابق فقالت طائفة عرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة فاشار اليهم اني في الصلاة فأزالوها عنه حتى ادخلت في الاصطبلات فقال لما خرج من صلاته اني أحببت حب الخير أي الذي عنده في الآخرة بسبب ذكر ربي كانه يقول شغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى دخلت اصطبلاتها ردوها علي فطفق يمسح اعرافها وسوقها محبة لها وتكريما ويروى ان المسح كان لذلك عن ابن عباس والزهري وابن كيسان

ورجحه الطبري ثم ساق الالوسي هنا كلاما طويلا يتعلق بهذا الموضوع وغيره مما لا حاجة لنا به فيما نحن بصدده والذي يميل اليه ذو العقل السليم والطبع المستقيم أن الضمير في قوله تعالى توارت وفي قوله جل شأنه ردوها الى الخيل منعا للتشتيت الضمير ولانه متى ذكر في الكلام ما يصح أن يرجع اليه الضمير المذكور فيه كان الاولى ارجاعه اليه ولا حاجة الى تكلف شيء آخر خصوصا وان هذا اليق بجزالة القرآن وأخذ كلماته بحجزاتها وعلى كل حال فقد علمنا أن هذه الآية لا تعرض فيها على قول الجمهور الذي هو أرجح الاقوال لرد الشمس وان ضمير ردوها انما هو للخيل فنأخذ به في ذلك لكننا نخالفهم في ضمير توارت بالحجاب فنجعله عائدا للخيل أيضا كما قال به قوم واختاره جمع لما ذكرناه وأما الاخبار التي وردت في رد الشمس أو حبسها فقد علمت حالها بما لها وعليها وما قيل وقلناه فيها فخذ هذا التحقيق الذي لا تراه في غير هذه العجالة والله الموفق

فان قلت ما تقول في قوله تعالى الله الذي رفع السماء بغير عمد ترونها وهل فيها ما يخالف ما قاله علماء الهيئة

قلت إن هذه الآية على ما قاله المفسرون مسوقة للاستدلال باحوال السموات على وجود الصانع وانه فاعل مختار وبيان ذلك أن هذه الاجسام العظيمة بقيت في احيازها وهو الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاؤها كذلك لذواتها وذلك أولا لان الاجسام متساوية في تمام الماهية ولو وجب حصول جسم لذاته في حيز معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز المعين وذلك لانها متساوية في ماهية الذات فكل ما اقتضته ذات أحدها اقتضاه ذوات باقيها بحكم ذلك التساوي * وثانيا أن الخلاء لا نهاية له والاحياز المعترضة في ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهي بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لذات الحيز لوجب حصوله في جميع الاحياز ضرورة أن الاحياز كلها متساوية في الذات فثبت أن حصول السموات في أحيازها وجهاتها ليس أمرا واجبا لا لذات السموات ولا لذات الاحياز بل لا بد من مخصص مرجح وليس ذلك الا ارادة الفاعل المختار وربما يقال انها بقيت كذلك بسلسلة فوقها أو لعمد تحتها قلنا نعيد ذلك الدليل بعينه في تلك السلاسل أو العمد فنقول اما أن يكون حصول السموات في أحيازها لذات السموات أو لذات السلاسل أو العمد وكل باطل بعين ما سبق فثبت أن السموات في أحيازها العالية لاجل أن مدبر العالم الحكيم تعالى وتقدس جعلها بارادته واختياره في تلك الاحياز فجعل لكل مجموع نجمي سيرا ساريا فيه يسمى بقوة الجذب والدفع فهذا برهان قاطع باهر قاهر على وجود الاله القاهر القادر *

هذا الدليل أيضا يدل على أن الاله ليس بجسم ولا مختص بحيز لانه لو كان في حيز معين لامتنع أن يكون حصوله في ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا أن الاحياز كلها متساوية ومتى كانت متساوية امتنع أن يكون حصوله في حيز معين لذات الحيز فلا بد أن يكون بتخصيص مخصص وترجيح مرجح وكل ما كان كذلك كان محدثا فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذات ذي الحيز لا تنفك عن الاختصاص بالحيز وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث فثبت أنه لو كان حاصلا في الحيز المعين لكان حادثا وذلك محال فثبت انه تعالى متعال عن الحيز والجهة

وأيضا كل ما علاك وسماك فهو سماء فلو كان تعالى موجودا في جهة فوق لكان من جملة السموات فيدخل تحت قوله تعالى الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها فكل ما كان مختصا بجهة فوق فهو محتاج الى حفظ الاله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الاله منزها عن جهة فوق وعن الاحياز ومتى ثبت ذلك ثبت أنه ليس بجسم لان كل جسم محتاج الى حيز

اما قوله تعالى ترونها فقيل انه كلام مستأنف كانه قيل كيف رفعها بغير عمد فقال أنتم ترونها مرفوعة بلا عمد فالضمير في ترونها راجع الى السموات وقيل أنه صفة لعمد فالضمير يرجع الى عمد ويؤيده قراءة أبي " ترونه " لان الظاهر أن الضمير عليها حينئذ للعمد وتذكيره حينئذ ظاهر الوجه لانه اسم جمع فلوحظ أصله في الافراد وعلى

تقدير الوصفية لعمد يحتمل أن النفي الى الصفة والموصوف معا ويحتمل أنه للصفة فقط فيفيد أن لها عمدا لكنها غير مرئية وروي ذلك عن مجاهد وغيره

وعلى كل حال فقد علمت مما قدمناه أن اختصاص السموات باحيازها العالية مع مساواتها لغيرها من الاجسام في الماهية الجسمية انما هو بقدرة الله تعالى الذي أودع فيها قوة سارية من بعضها الى بعض أوجبت اختصاصها بتلك الاحياز واختصاص كل منها في حيز ايجابا بالاختيار والايجاب بالاختيار لا يمنع الاختيار بل يحققه وحينئذ يكون عمدها هو القوة المذكورة الموجودة فيها بقدرة الله تعالى فنتج من ذلك أنه تعالى رفع السماء بغير عمد ترونها على معنى أنها ليس لها عمد في الحقيقة ترتكز عليها فيرجع النفي الى الصفة والموصوف أو على معنى أنها ليس لها عمد مرئية بل لها عمد غير مرئية هو القوة التي اودعها الله فيها وتلك القوة هي بقدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره في ابقائه اياها في الحيز العالي وانهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك

وعلى أن الضمير المنصوب في ترونها يرجع إلى السموات يقتضي ظاهر الآية أن المرئي هو السماء وقد صرح الفلاسفة ان المرئي هو كرة البخار وثخنها كما قال صاحب التحفة احد وخمسون ميلا وتسع وخمسون دقيقة والمجموع سبعة عشر فرسخا وثلث فرسخ تقريبا وذكروا أن سبب رؤيتها زرقاء انها مستضيئة دائما بأشعة الكواكب وما وراءها لعدم قبوله الضوء كالمظلم بالنسبة إليها فاذا نفذ نور البصر من الاجزاء المستنيرة بالاشعة الى الاجزاء التي هي كالمظلم رأى الناظر ما فوقه من المظلم بما يمازجه من الضياء الارضي والضياء الكوكبي لونا متوسطا بين الظلام والضياء وهو اللون اللازوردي وذلك كما اذا نظرنا من جسم أحمر مشف الى جسم أخضر يظهر لنا لون مركب من الحمرة والخضرة واجمعوا على أن السموات التي هي الافلاك لا ترى لانها شفافة لا لون لها لانها لا تحجب الابصار عن رؤية ما وراءها من الكواكب وكل ملون فانه يحجب عن ذلك وتعقب ذلك الامام الرازي بانا لا نسلم أن كل ملون حاجب فان الماء والزجاج ملونان لانهما مرئيان ومع ذلك لا يحجبان *

فان قيل فيهما حجب عن الابصار الكامل

قلنا وكيف عرفتم انكم أدركتم هذه الكواكب ادراكا تاما انتهى * وما يقال إن الزرقة أمر يحس في الشفاف اذا بعد عمقه كما في ماء البحر فانه يرى أزرق متفاوت الزرقة بتفاوت قعره قربا وبعدا فالزرقة المذكورة لون يتخيل في الجو الذي بين السماء والارض لانه شفاف بعيد عمقه لا يجدي نفعا لان الزرقة كما تكون لونا متخيلا قد تكون أيضا لونا حقيقيا قائما بالاجساد وما الدليل على انها لا تحدث الا بذلك الطريق التخيلي فجاز أن تكون تلك الزرقة المرئية لونا حقيقيا لاحد الفلكين كذا قال بعض المحققين قال الالوسي بعد نقله ما ذكر وأنت تعلم انه لا مانع عند المسلمين من كون المرئي هو السماء الدنيا المسماة بفلك القمر عند الفلاسفة بل هو الذي تقتضيه الظواهر ولا نسلم أن ما يذكرونه من طبقات الهواء مانع وهذه الزرقة يحتمل أن تكون لونا حقيقيا لتلك السماء صبغها الله تعالى به حسبما اقتضته حكمته وعليه الاثريون كما قال القسطلاني ويؤيد ظاهر ما صح من قوله صلى الله عليه وسلم ما أظلت الخضراء وأقلت الغبراء وفي رواية الارض كما جاء عن أبي ذر ويحتمل أن يكون لونا تخيليا في طبقة من طبقات الهواء الشفاف الذي ملأ الله به ما بين السماء والارض ويكون لها في نفسها لون حقيقي الله تعالى أعلم بكيفيته ولا بعد في أن يكون أبيض وهو الذي يقتضيه بعض الاخبار لكننا نحن نراها من وراء ذلك الهواء بهذه الكيفية كما ترى الشيء الابيض من وراء جام أخضر أخضر ومن وراء جام أزرق أزرق وهكذا اهـ وقد نقل بعد ذلك بعض آثار أعرضنا عنها لانه لم يعول عليها *

وأقول قد قدمنا أن الارض يحيط بها كرة هوائية دخانية بخارية وانه لولا هذه الكرة ما انعكست أشعة

الشمس الى الارض والموصل اليها ضوؤها وأن ذلك مما وافق عليه الطوسى فى تذكرته والسيد الشريف وغيرهما واذا كان كذلك فما المانع من أن الطبقة من الهواء التى قلنا ان اللون الازرق يكون تخيليا فيها هى الكرة الهوائية البخارية الدخانية المحيطة بالارض وهى المسماة عندهم بكرة البخار بلا شك فتكون رؤية السماء ملونة باللون الازرق لالانها كذلك فى الواقع بل لانها من وراء ذلك الهواء لان ذلك الهواء لكونه مختلطا بالبخار والدخان يتخيل انه أزرق فنرى السماء زرقاء كما نرى كل جسم شفاف من وراء الازرق أزرق ومن وراء الاخضر أخضر

وعلى كل حال فما قاله علماء الهيئة من أن لون الزرقة ليس لونا للسماء حقيقة بل هو لون متخيل احتمال ان لم يكن هو الواقع فهو جائز عقلا والآيات لاتفيد الا أن السماء مرئية على احتمال أن الضمير فى ترونها يرجع اليها ولم تتعرض الآيات لبيان اللون ولا كلام فى انها مرئية سواء كان اللون الازرق لونها أولا على أن السموات كما قدمنا على الصحيح عبارة عن الكواكب ومداراتها وكلاهما مرئية بلا شبهة فلا مخالفة بين هذه الآية و بين مايقوله علماء الهيئة وظاهر الآية على ذلك الاحتمال انها كلها مرئية وعلى ماقلناه من انها عبارة عن الكواكب ومداراتها الامر ظاهر وأما قول الالوسى ولا أظنك ترى ذلك وظاهر بعض الآيات يساعدك فيحتاج الى القول بان الباقى وان لم يكن مرئيا حقيقة لكنه فى حكم المرئى ضرورة انه اذا لم يكن لهذا عماد لا يتصور أن يكون لما وراءه عماد عليه بوجه من الوجوه و يؤول هذا الى كون المراد ترونها حقيقة أو حكما بلا عمد انتهى فمع كونه لايظهر على احتمال أن الجملة استئنافية لانه حينئذ يكون الكلام فى رؤيتها كلها لا فى كون ما روئى منها لاعمد له فيكون غيره مثله فيكون قوله ضرورة انه الى آخره لايلائم ماقبله فهو انما يجىء على أن المراد بالسماء مدارات الكواكب فقط دون الكواكب وهو خلاف ماقدمه وقدمناه عنه على اننا اذا سلمنا أن السموات هى الافلاك فلا يكون المراد بها الافلاك بالمعنى الذى يقول به الفلاسفة الاقدمون مما قدمه هو وقدمناه غير مرة بل يكون المراد بها الافلاك عند العرب أو عند سلف الامة الاسلامية وهو عند الفريقين يغاير ما عند الفلاسفة الاقدمين

قال فى كشف الاسرار القرآنية الفلك فى كلام العرب كل شىء دائر وجمعه أفلاك * واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك وقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه وقال الكلبى ماء مجموع تجرى فيه الكواكب واحتج بان السباحة لاتكون الا فى الماء * قلنا لانسلم فانه يقال فى الفرس الذى يمد يديه فى الجرى سابح وقال الاكثرون انه خلاء تسبح فيه النجوم بل الحق ان هذه الاقسام ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات اه * ويتعين ان يكون المدعلى ماقاله الضحاك بالافلاك الدوائر الموهومة التى ترسمها الكواكب بدورانها فى السموات فالافلاك على هذا القول غير السموات بل هى الدوائر الموهومة التى ترسمها الكواكب فيها * ومع الخلاف بين العلماء فى الافلاك على هذا الوجه يتعين ان تكون مغايرة للسموات لانه لاخلاف لاحد من المسلمين فى ان السموات اجسام ومقتضى ان الكواكب تسبح فى افلاكها وان افلاكها فى السموات ان تكون السموات اجساما يمكن فيها السباحة كسباحة الاسماك فى المياه ومقتضى انها لاتحجب مافوقها انها شفافة * وهذا كله يفيد انها أجسام شفافة إما سائلة كالماء أو غازية كالهواء * وعلى كل حال فالمراد بالسموات السموات السبع لانها هى المعروفة حين ذاك عند العرب ولانها هى التى تكرر ذكرها فى القرآن ولو قلنا إن الرؤية رؤية علمية وأن ترونها معناه تعلمونها يزول كل اشكال ورد على أن الرؤية بصرية والله الموفق *

فان قلت ماتقول فى قوله تعالى هو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا

الآيات لقوم يعلمون

قلت هذه الآية قد سيقت للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وتمام ارادته واحاطة علمه بكل شئ وعموم احسانه ورحمته وعظيم اتقانه و بديع حكمته حيث دلت على انه تعالى خلق هذه النجوم على اكمل نظام لمنافع الناس وذلك من وجوه

الاول انه تعالى خلقها ليهتدى بها الخلق الى المسالك والطرق التى يريدون المرور بها فى ظلمات البر والبحر

الثانى ان من جملة النجوم الشمس والناس يستدلون باختلاف حركاتها واوضاعها من طلوع الفجر الذى هو اثر من آثار ضوئها ومن شروقها وهو اول ظهورها فى الافق الشرقى ومن زوالها وهو مبدأ انحدارها من وسط السماء الى جهة الغرب ومن بلوغ ظل كل شئ مثله أو مثليه ومن غروبها وهو اختفاؤها فى الافق الغربى ومن ظهور الشفق الاحمر والابيض وكلاهما اثران من آثار ضوئها على معرفة اوقات الصلوات وعلى معرفة ما مضى ومابقى من الليل والنهار وغير ذلك من المنافع ويستدلون ايضا بحركة الشمس فى النهار على معرفة الجهات الاربع من المشرق والمغرب والجنوب والشمال فيستدل بذلك على القبلة و يستدل بالكواكب ليلا على معرفة تلك الجهات فتعرف القبلة أيضا

الثالث ان الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء فقال انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ومثل هذه الآية غير آية جاءت فى ذلك وجعل السماء بروجا كما جاء ذلك فى عدة آيات ايضا كقوله تعالى الذى جعل فى السماء بروجا وقد علمت ان هذه البروج كواكب على صور مخصوصة وكل الكواكب السيارة ومنها الشمس والقمر تحاذى فى سيرها تلك البروج على اوضاع مختلفة واوقات متفاوتة واحوال متغايرة وبذلك اختلفت فصول السنين بحسب انتقالات الشمس وحركاتها من الجنوب الى الشمال ومن الشمال الى الجنوب وتغيرت مناظر السماء فما تراه فيها من الكواكب فى زمن لاتراه فى زمن آخر على مافصلناه من قبل وبذلك تهتدى الناس الى مصالحهم فيعرفون اوقات مزارعهم ومتاجرهم وصنائعهم وغير ذلك

الرابع ان الناس اختلفوا ففريق ذهب الى التعطيل ونفى الصفات عن الذات الاقدس ونفى انه جل وعلا فاعل مختار وفريق ذهب الى التشبيه فأثبت له تعالى ما اثبته لخلقه فجعله تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا جسما مختصا بمكان * فالله تعالى خلق هذه النجوم ليهتدى بها الناظرون فى احوالها وحركاتها واوضاعها وما يترتب على ذلك من المنافع فى ظلمات بر التعطيل وبحر التشبيه اما الاهتداء بها فى ظلمات بر التعطيل فذلك لانا نشاهد أن هذه الكواكب مختلفة فى صفات كثيرة فبعضها كواكب سيارة اى كواكب ليلية تظهر ليلا عند قوم زمنا ثم تختفى زمنا عن هؤلاء وتظهر عند آخرين وهكذا على ممر السنين تشرق من مشرقها وتغرب فى مغربها ومن هذه الكواكب الليلية القمر وكثير من الكواكب وبعضها ثوابت أى بطيئة الحركة جدا وهذه الثوابت بعضها فى المنطقة وبعضها فى القطبين وايضا الكواكب الثوابت لامعة منيرة بذاتها والكواكب الليلية السيارة مظلمة بذاتها وتستفيد نورها من نور الشمس كما قدمناه وايضا بعضها كبير درى عظيم الضوء وبعضها صغير خفى الضوء قليله ومن اجل هذا قدر اهل الهيئة اضواءها وجعلوه مراتب حسبما قدمناه وقد قلنا غير مرة ان الادلة قد قامت وهى قاطعة على ان الاجسام كلها علوية كانت او سفلية متماثلة من حيث الجسمية وبينا انه متى كان الامر كذلك كان اختصاص كل كوكب منها بسماء خاصة وصفة معينة وكيفية كذلك وغير ذلك مما اختص به كل كوكب دون غيره دليلا قاطعا على ان ذلك ليس الا بارادة فاعل مختار وقدرته وان ذلك الفاعل تام الارادة كامل القدرة قد احاط بكل شئ علما * فهذا وجه الاستدلال بالكواكب فى ظلمات بر التعطيل ويثبت بذلك ان خالقها فاعل مختار متصف بالارادة والقدرة وبكل كمال يليق به تعالى

واما وجه الاهتداء بها فى ظلمات بحر التشبيه فنقول لاشك ان هذه الكواكب اجسام كسائر الاجسام مؤلفة من اجزاء وابعاض وهى ايضا متناهية ومحدودة ومتغيرة من وضع الى وضع ومتحركة ومنتقلة من حال الى حال فهذه الامور والاوصاف ان لم تمنع من كون موصوفها آلها بل جاز ان يكون موصوفها آلها امتنع الطعن فى الوهية الكواكب لهذا السبب لكن العقل قضى بامتناع كون الكواكب اوشئ منها آلها لاتصافها بما ذكرا وبشئ منه فيجب تنزيه الله تعالى عن هذه الاوصاف جميعها المنافاتها للالوهية وقد ثبت انه الاله دون سواه فثبت بذلك ان اله العالم واله السماء والارض سبحانه منزه عن الجسمية والاجزاء والابعاض والحد والنهاية وعن المكان والزمان والجهة وعن كل مايكون من صفات الحوادث سبحانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير

فهذا بيان وجه الاهتداء بها فى ظلمات بحر التشبيه وبهذا تم ان الله تعالى جعل هذه النجوم ليهتدى بها الناس فى ظلمات بر التعطيل وبحر التشبيه وهذا الوجه وان كان عدولا عن ظاهر الآية وعن حقيقة اللفظ الى مجازه الا انه قريب مناسب لعظمة قدرة الله تعالى * على اننا لانقصد حمل الآية على خصوص هذا الوجه بل نريد من الهداية فى ظلمات البر والبحر ماهو اعم من الحسى والمعنوى فيكون المعنى الحقيقى مندرجا فى المعنى المجازى فيكون معنى الآية أجزل واكمل والقرينة على ذلك كون المقام مقام الاستدلال بذلك على عظمة القدرة وتمام الارادة واحاطة العلم واتصافه تعالى بكل كمال يليق به وتنزيهه عن اتصافه بشئ مما لايليق به * ومن ذلك مماثلة الحوادث ويكون تخصيص الكواكب على هذا بهذا الجعل مع أن ذلك عام فى جميع الأجسام لان الكواكب قد عبدت من دون الله تعالى ولان لها زيادة تأثير فى العالم السفلى كما هو مشاهد فى الشمس والقمر * وبهذه المناسبة نذكر هنا شيئا من آثارها فى العالم السفلى وهى من جملة ما اشار اليه تعالى بقوله ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا * فنبه سبحانه بطريق الاجمال فى هذه الآية وامثالها على أن فى وجود كل كوكب منها حكمة عالية غالية ومنفعة عظيمة شريفة كافية وافية وانه ليس فى الامكان ان تحيط عقول البشر بما فيها من ذلك على وجه التفصيل فكل من اراد أن يقدر حكمة الله تعالى فى ملكه وملكوته بمكيال خياله ومقياس قياسه وميزان عقله فقد ضل ضلالا مبينا الاترى انه تعالى ذكر الاستدلال باحوال هذه النجوم قال عز من قائل قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون أى لقوم يتصفون بالعلم الصحيح الموافق للواقع عن دليل برهانى حسب الطاقة البشرية وحيث إن علماء الهيئة قسموا النجوم الثوابت باعتبار نورها الى اقدار فأنورها ما كان من القدر الاول ومادونها قليلا من القدر الثانى ومادون ذلك فمن القدر الثالث وهلم جرا الى ان تتلاشى من ضعف نورها ولايرى بالنظر المجرد مادون القدر السادس وبواسطة النظارات القوية يرى ما على القدر العشرين ولو تقوت الآلات لمعونة البصر لظهر مادون ذلك وان الظاهر بالنظر المجرد نحو ستة آلاف نجم اما الظاهر بالنظر المستعين بآلات البصر فلاتعد ولاتحصى وفى بعض اقسام المجرة يرى بواسطة نظارة متوسطة القوة ربوات من النجوم فى بقعة على قدر البدر وعلى رأى بعضهم يرى من القدر السابع نحو ثلاثة عشر الف نجم ومن القدر الثامن نحو أربعين الفا ومن القدر التاسع نحو مائة واثنين وأربعين ألفا والتى ترى بواسطة نظارة هرشل الكبيرة عشرون مليونا وقالوا ان المجرة التى هى فى صورة عصابة مستطيلة عارية من الانتظام ذات البياض تمر فى السماء من الشمال الى الجنوب تسميها العامة بدرب التبان وعند علماء الهيئة تسمى المجرة ليست الاجملة نجوم متألفة لامعة وكلها نجوم متقاربة فى الظاهر بحيث يظهر كلها نيرا وقد حسب أن من العشرين مليون نجم الظاهر بالنظارة المعظمة جدا مليونا وثمانمائة ألف نجم منها فى المجرة ومن هذه الاحوال يظهر عظم هذا الكون وانه عالم بديع فان هذه النجوم وان ظهرت لناقريبا بعضها من بعض هى فى الواقع وبالحقيقة بينها ابعاد شاسعة وانما ظهرت قريبا بعضها

من بعض لبعدها عنا بعدا مهولا والامر فى ذلك واضح فاننا اذا رأينا عدة اجرام على استقامة واحدة بعيدة عنا فيرى بعضها قريبا الى البعض مع انها قد يكون بينها مسافات طويلة جدا وربما يكون البعد بين نجمين فى المجرة مثل البعد بين شمسنا وأقرب الثوابت اليها أى انه يلزم لقطع النور فى تلك المسافة أكثر من ثلاث سنين ونصف سنة وقد بينا اختلاف الوان هذه النجوم فيما سبق أيضا فاذا توهمت فى السماء دوائر متوازية وخطوط أنصاف النهار مقابلا كل منها للدوائر المتوازية التى على الارض وخطوط انصاف النهار التى بها كل لنظيره ظهر لك أن أهل دائرة الاستواء الارضية ترى كواكب دائرة معدل النهار السماوية تمر على سمت رءوسهم وكان كل من قطبى السماء فى أفقهم وسائر النجوم تخط نصف دائرة عمودا على الافق فلذلك كان أهل هذا السمت يسمون أرباب الفلك المستقيم فيمكنهم رؤية سائر أجزاء السماء على الولاء واذا نظرت الى سكان القطبين ظهر لك أن النجوم ترسم حول القطب دائرة موازية للافق الذى يختلط مع دائرة الاستواء فيقال حينئذ لسكان القطبين أرباب الفلك المتوازى فتظهر حينئذ نجمة القطب فى سمت رءوسهم ونجوم معدل النهار تكون فى أفقهم ولاتخفى عن أعينهم أبدا نجوم نصف الكرة التى هم ساكنون فى قطبها ولايرون شيئا من نجوم النصف الآخر الذى قطبه معارض لقطبهم الذى هم عليه واذا نظرت الى مابين دائرة الاستواء وكلا القطبين ظهر لك أن النجوم ترسم دوائر يعظم ميلها على الافق على حسب عظم القرب من القطب فيسمى سكان هذه النواحى أرباب الفلك المائل ونجمة القطب تكون دائما فوق رءوسهم وكذلك سائر النجوم المجاورة وارتفاع نجمة القطب عندهم به يكون عدد درجه قدر عدد درج المكان الذى يقع فيه الرصد فيمكن أن يؤخذ بارتفاع نجمة القطب درجة العرض ولا يمكن أن ترى فى مكان النجوم المجاورة للقطب المقابل أصلا على مسافة مساوية لمسافة ماتبصره من نجوم القطب الاول ولما كانت تسمية أفراد النجوم باسماء مخصوصة على هيئة حيوان أوصنم على مامثله القدماء فسموه بالنسبة لى الموجود فى شمال منطقة البروج وفى جنوبها إلى قسمين قسم منها شمالى وسموا كل واحد منها باسم على حسب اسم الصورة التى هو على هيئتها وقسم جنوبى كذلك وسموا كل واحد منها باسم الصورة التى هو على هيئتها كذلك وهذه الكواكب الشمالية والجنوبية غير الكواكب التى فى منطقة البروج مثل الدبران والقلائص والثريا وغير ذلك مما قدمناه فى منازل القمر والبروج فان هيئة كل واحد من هذه الكواكب واسمه يخالف فى الهيئة والاسم هيئة الكواكب التى اعتبرت فى منازل القمر وأسماءها ويخالف كذلك هيئة الكواكب التى اعتبرت بروجا وأسماءها فتبين أن هذه النجوم بقسميها تغاير كواكب المنازل والبروج

اذا تأملت كل ما ذكرناه وتفكرت فى صنع الله الذى أتقن كل شئ لايسعك بعد هذا الا أن تذعن اذعانا تاما وتؤمن إيمانا كاملا وتستسلم استسلاما عاما بأن خالق هذه الكواكب على النمط الذى وصفناه مدبر حكيم فاعل مختار فعال لما يريد فتقول بلسانك وقلبك وجنانك وجميع جوارحك ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك وتحقق أن الله تعالى قال فى كتابه العزيز الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) إشارة الى أن كل شئ من الاشياء المذكورة إنما خلقه على وفق الحكمة العالية والمنافع الغير المتناهية فعين سبحانه أوضاع الكواكب فى الكرة السماوية ومنها تتعين أيضا أوضاع الاماكن فى الكرة الارضية فالخطوط والدوائر والمدارات كما هى منقسمة فى الكرة السموية كذلك هى أيضا منقسمة فى الكرة الارضية فالخط الذى يدل على دائرة وسط فلك البروج هى دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف من دائرة خط الاستواء الى أخر ما قدمناه فى هذه الدوائر وانقسام الارض الى مناطقها الخمسة وما لكل واحد منها من

الخواص والمزايا وكل هذا الاختلاف والتفاوت فضلا عن كونه يدل دلالة واضحة على أن الصانع جل شأنه فاعل مختار قد تضمن من الحكم والمنافع العائدة بالفائدة على جميع الخلق مالا يعد ولا يحصى

ومن آثار الشمس والقمر المشاهدة فى العالم السفلى الدالة على قدرة الصانع المد والجزر والمد هو ارتفاع ماء البحر والجزر هو هبوطه وذلك يحدث فى أوقات معينة متساوية و يحدثان فى وقت واحد فى الجهات المتقابلة فى الارض أى متى كان معظم المد فى مكان يكون كذلك فى الجهة المقابلة له من الارض و يكون معظم الجزر على نصف البعد بينهما و بين مد ومد اثنتا عشرة ساعة وخمس وعشرون دقيقة أى ان حسبنا مدا واحدا دار حول الكرة يرجع الى حيث انتقل منه بعد الساعة التى كان فيها هنا الى قبل * وهذه الحركة تساوى حركة القمر اليومية تقريبا لان اليوم القمرى أى دوران القمر من الهاجرة الى الهاجرة اربع وعشرون ساعة وخمس وعشرون دقيقة والعلة الظاهرة لنا التى جعل الله المد والجزر يدوران عليها وجودا وعدما حسب عادته سبحانه فى ربط الاسباب بالمسببات هى عدم تساوى جاذبية القمر والشمس فى أجزاء مختلفة من الارض فالنصف المتجه نحو القمر يحصل فيه الجذب أكثر من النصف المقابل والماء على الجانب الاقرب يطيع تلك الجاذبية و يرتفع الى ذلك الجانب والماء على الجانب الابعد يكون انجذابه أقل من الاجزاء الجامدة تحته فكأن تلك الاجزاء تسبق الماء ساقطة الى نحو القمر فيرتفع الماء فى ذلك الجانب

والجزء الاعلى من الماء سمى موج المد ولولا بعض الموانع لكان هذا الموج تحت القمر أبدا تابعا له حول الكرة اما الماء فلكونه لا يطيع الجاذبية حالا وحركة الماء على قعر البحر وعلى الشطوط تعين ايضا على تأخير تأثير الجاذبية فيه ولذلك لا يحدث المد فى مكان حتى بعد مرور القمر على هاجرته بعض الساعات و يختلف الوقت باختلاف الاماكن واسبابها الموضعية

ولما كانت مادة الشمس أكثر من مادة القمر على نسبة خاصة كبيرة جدا كان يظن أن جاذبية الشمس تفوق جاذبية القمر ولكن الامر ليس كذلك لان معدل بعد الشمس عن الارض هو إحدى عشر الف وخمسمائة وسبع ثلاثين مرة من قطر الارض والفرق بين بعدها عن جانب واحد من الارض وعن الجانب المقابل هو واحد على احدى عشر الف وخمسمائة وسبع وثلاثين مرة من البعد كله وقد قلنا ان علة المد هى عدم تساوى الجاذبية على جانبى الارض وكلما زاد التفاوت بينهما زاد المد الناتج و بالعكس أما القمر فبعده ثلاثون مرة من قطر الارض والفرق بين بعده عن جانب و بعده عن الجانب المقابل واحد على ثلاثين من البعد كله فالفرق الذى يتوقف عليه إرتفاع موج المد أعظم باعتبار القمر مما هو باعتبار الشمس فالمد حينئذ نوعان شمسى وقمرى

ومتى كان الشمس والقمر مقترنين أو متقابلين تفعل جاذبيتهما على خط واحد وعند التربيعين يكون خط جاذبية القمر عمودا على خط جاذبية الشمس ولذا يكون أعظم المد عند الاقتران والاستقبال أى كل شهر مرتين ولا يحدث ذلك فى نفس وقت الاقتران والاستقبال بل بعدهما بست وثلاثين ساعة للاسباب المذكورة سابقا

وتغيير بعد الشمس قلما يؤثر فى فعلها فى المد لقلته بالنسبة الى بعدها ولكن تغيير بعد القمر له تأثير كلى فى فعله بالمد فترى المد الحادث اذا كان القمر فى الاوج أعظم مما يحدث وهو فى الحضيض فان اتفق وقوعه فى الاوج عند الاقتران أو الاستقبال يحدث مد عال جدا و إن حدث ذلك عند الاعتدال يحدث أعلى امداد السنة

ثم أن ميل القمر والشمس يؤثر كثيرا فى المد فمتى كان القمر على خط الاستواء يكون أعلى المد هنالك وفى الجهة المقابلة و يكون أقصر جزر عند القطبين مادام القمر على خط الاستواء

فى يوم توليد القمر يقطع القمر والشمس الهاجرة معا أى الظهر و بعد مرورهما بالهاجرة مدة تختلف باختلاف الاماكن وثابتة فى مكان مفروض أبدا يبلغ المد معظمه و بعد ما يبلغ معظمه يأخذ بالجزر الى معظم الجزر بعد ست ساعات وثنتى عشرة دقيقة ثم يرتفع أيضا ست ساعات وثنتى عشرة دقيقة فيبلغ معظمه ثانية ثم يهبط ست ساعات وثنتى عشرة دقيقه ثم تمد ست ساعات وثنتى عشرة دقيقة فيبلغ معظم الارتفاع مرتين فى أربع وعشرين ساعة وثمان وأربعين دقيقة وكذلك معظم هبوطه فى مثل هذه المدة فلذلك سمى يوما مديا

وفى يوم البدر يقطع القمر الهاجرة بعد الشمس باثنتى عشرة ساعة أى فى نصف الليل فيصير المد والجزر كما تقدم

والوقت يتبع حركة الشمس اليومية الظاهرة والمد الشمسى يحدث فى مكان مفروض فى ساعة واحدة ابدا أما المد القمرى وهو الاعظم ولذلك يؤثر فى كل رؤية المد والجزر فيتأخر كل يوم ثمانيا وأربعين دقيقة وأربعا وأربعين ثانية فينفصل عن المد الشمسى شرقا متاخرا وعند التربيع الاول والثالث يحدث المد القمرى عند الجزر الشمسى فارتفاع المد وانخفاض الجزر هو فضيلة المد الشمشى والقمرى فيحصل ما سمى المد القاصر ومد التربيع الحادث فى ست وثلاثين ساعة بعد الاقتران أو الاستقبال أعظم من غيره وأقصر المد هو الحادث فى ست وثلاثين ساعة بعد وقوع القمر فى التربيع

والمدة بين الظهر ومعظم المد هى فى يوم التوليد و يوم البدر وسرعة موج المد مختلفة فلو غطى الماء كل سطح الارض على حد سواء لكانت السرعة نحو ألف ميل ونيف كل ساعة ولا يبلغ هذه السرعة فى مكان على الشاطىء غير انه قد يبلغها فى الاقيانس الجنوبى فى عرض ستين درجة جنوبى فيبلغ سرعته ستمائة وسبعين ميلا وفى الاوقيانس الاتلانتيكى سبعمائة ميل و بين الجزائر الغربية وايرلاندا خمسمائة ميل

فمن هذه النبذ الوجيزة التى نقلناها لك تعلم آثار الشمس والقمر فى العالم السفلى بما أودعه الله فيهما من قوة الجذب وتعلم اختلاف هذه الآثار مع كون كل منهما جسما كسائر الاجسام المتماثلة فى الجسمية فكانت هذه الآثار واختلافها من أعظم الادلة على وجود الصانع وأنه الفاعل المختار

ومن الآثار والمنافع الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر وذلك أن الله تعالى من علينا وله المنة فجعل واظهر لنا علامات مخصوصة فى البر والبحر حتى يتمكن البالغ العاقل من الاستدلال بها فيصل بواسطتها الى مقصوده فقال تعالى (وعلامات) والمراد بهذه العلامات والله اعلم معالم الطرق وهى الاشياء التى بها يهتدى الناس وهى قسمان كلية وجزئية فالكلية هى مارسم اقليما تاما أو قسما من الارض أو الارض بتمامها فاذا كانت الارض بتمامها مرسومه سميت كرة والجزئية هى ما يرسم بلدة أو قسما و يسمى كتاب الطريق الذى به يسلك الملاحون فى البحر و يهتدون به إلى معرفة المراسى وغيرها فيرسم عليها سواحل البحر او البحر نفسه والبلاد التى على السواحل مثلا وقال الاخفش رأيت جماعة يشمون التراب و بواسطة ذلك الشم يتعرفون الطريق *

وقوله تعالى (وبالنجم هم يهتدون) المراد فيه من النجم الجنس فيشمل الواحد والمتعدد كقولك كثير الدرهم فى أيدى الناس وعن السدى هو الثريا والفرقدان و بنات نعش وسهيل ومكوك شيث وغير ذلك وقرأ الحسن والنجم بضم النون والجيم و بضم النون وسكون الجيم وكل منهما جمع نجم كرهن ورهن والسكون تخفيف واختلف المفسرون فى موضع الهداية فمنهم من قال و بالنجم هم يهتدون خاص بالبحر فقط لانه تعالى لما ذكر صفة البحر ومافيه من المنافع بين تعالى أن من يسيرون فيه يهتدون بالنجم ولا يخفى أن هذا لا يقتضى الاختصاص بالبحر لان اهتداء قوم بالنجم لا يقتضى اختصاصهم بذلك كما هو واضح ومنهم من قال

هو مطلق يدخل فيه السير فى البر والبحر فالفلك تنقسم الكرة السماوية وتنقسم الكرة الارضية بما انقسمت به الكرة السماوية وهذا القول أولى بل الاولى والاعم أن يراد أيضا بالبر والبحر معنى مجازى يكون المعنى الحقيقى فردا منه بان يكون من عموم المجاز حتى يشمل البر ما كان حقيقيا وما كان مجازيا كبر التعطيل ويشمل البحر ما كان حقيقيا وما كان مجازيا كبحر التشبيه كما قدمناه فى معنى قوله تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم الآية وانما جعلنا التعطيل برا مجازيا وأدخلناه فى معنى البر والتشبيه بحرا مجازيا وأدخلناه فى معنى البحر ولم نعكس لان التعطيل غاية مافيه جعل الواجب فاعلا بمقتضى ذاته بدون اختيار بالمعنى الاخص بل بالاختيار بالمعنى الاعم كما هو مذهب الحكماء والتشبيه جعله تعالى مماثلا للحوادث فى الجسمية ولوازمها وهذا كفر والاول ليس بكفر فكان التعطيل أقرب الى السلامة من التشبيه كما أن البر الحقيقى أقرب الى السلامة من البحر لان البحر قد يكون بحرا لجيا يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض والتشبيه على الوجه الذى قال به هؤلاء هو كهذا البحر اللجى الموصوف بما ذكر وانما كان جعله من عموم المجاز أولى لان المعنى عليه يكون أعم فى جعل النجوم نعمة فتعم الهداية ما كان منها راجعا الى الطريق المسلوك لمعرفة طريق البر والبحر الحقيقيين وما كان راجعا الى الطريق المسلوك للوصول الى الحق والايمان الصحيح بالنظر فى الادلة التى نصبها الله تعالى فى الآفاق ومنها النجوم التى تدل بحركاتها وأوضاعها على أن صانعها فاعل مختار لا موجب فلا تعطيل منزه عن مماثلة الحوادث فى شىء فلا تشبيه وذلك لان الاهتداء بالنجوم فى البر والبحر على ماقلنا انما يحصل بانقسام كرتى الارض والسماء معا وباختلاف الحركات والاوضاع على الوجه الذى فصلناه

وقال الالوسى فى قوله وعلامات أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب فقد حكى أن من الناس من يشم التراب فيعرف بشمه الطريق وانها مسلوكة أو غير مسلوكة ولذلك سميت المسافة مسافة أخذا لها من السوف وهو الشم وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس انها معالم الطرق فى النهار وعن الكلبى انها الجبال وعن قتادة انها النجوم وقال ابن عيسى المراد منها التى يعلم بها مايراد من خط أو لفظ أو اشاره أو هيئة اه وهذا القول يوافق من بعض الوجوه ماقدمناه من أن العلامات قسمان كلية وجزئية الى أخره فان رسم إقليم تام أو رسم قسم من الارض أو رسم الارض بتمامها أو رسم بلدة وغير ذلك مما يسمى كتاب الطريق يدخل فى الخط أو الهيئة أو الاشارة وقال فى قوله تعالى (وبالنجم هم يهتدون) أى بالليل فى البر والبحر والمراد بالنجم الجنس فيشمل الخنس وغيرها مما يهتدى به وعن السدى تخصيص ذلك بالثريا والفرقدين وبنات نعش والجدى وعن الفراء تخصيصه بالجدى والفرقدين وعن بعضهم انه الثريا فانه علم بالغلبة لها ففى الحديث اذا طلع النجم ارتفعت العاهة وعن ابن عباس انه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال هو الجدى ولو صح هذا لايعدل عنه والجدى وهو جدى الفرقد وهو على مافى المغرب بفتح الجيم وسكون الدال والمنجمون يصغرونه فرقا بينه وبين البرج وقيل انه كذلك لغة واستدل على أن المراد مايعم ذلك بما روى عن الحسن انه قرأ وبالنجم بضمتين وعن ابن وثاب انه قرأ بضم فسكون فانه فى القراءتين جمع كسقف وسقف ورهن ورهن والتسكين قيل للتخفيف وقيل لغة والقول بانه جمع على فعل أولى مما قيل أن أصله النجوم فحذفت الواو والضمير فى قوله تعالى يهتدون يحتمل أن يكون عاما لكل سالك فى البر والبحر من المخاطبين فيما تقدم وتغيير التعبير للالتفات ويحتمل أن يكون الضمير لقريش لانهم كانوا كثيرى الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجم واخراج الكلام على سنن الخطاب وتقدم الجار والضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء يهتدون فالاعتبار بذلك

والشكر عليه بالتوحيد الزم لهم واوجب عليهم وجعل بعضهم الآية أصلا لمراعاة النجوم لمعرفة الاوقات والقبلة والطرق فلا بأس بتعلم مايفيد تلك المعرفة لكن معرفة عين القبلة على التحقيق بالنجوم متعسر بل متعذر كما أفاده العلامة الربانى أبو العباس احمد بن البناء لانه أن اعتبر ذلك بما يسامت رءوس أهل مكة من النجوم فليس مسقط العمود منه على بسيط مكة هو العمود الواقع منه على بسيط غيرها من المدن وان اعتبر بالجدى فلا يلزم من أن يكون فى مكة على الكتف أو على المنكب أن يكون فى غيرها كذلك الا لمن يكون فى دائرة السمت المار برءوس اهل مكة والبلد الآخر وذلك مجهول لا يتوصل اليه الا بمعرفة مابين الطولين والعرضين وهو شئ اختلف فى مقداره ولم يتعين الصحيح فيه وقول من قال ان ذلك يعرف بجعل المصلى مثلا الشمس بين عينيه اذا استوت فى كبد السماء أطول يوم فى السنة فمن فعل ذلك فقد استقبل البيت ان أراد بكبد السماء فيه كبد سماء بلده فليس بصحيح لان الشمس لاتستوى فى كبد السماء فى وقت واحد فى بلدين متنائيين كثيرا وإن أراد به كبد سماء مكة فلا يعلم ذلك فى بلد آخر الا بمعرفة مابين البلدين فى الطول والعرض وقد سمعت مافى ذلك من الاختلاف ويقال نحو هذا فيما يشبه ماذكر بل قال قدس سره ان معرفة ذلك على التحقيق بما يذكرونه من الدائرة الهندية ونحوها متعذر أيضا لان مبنى جميع ذلك على معرفة الاطوال والعروض ودون ذلك خرط القتاد فلا يكون الواجب على المصلى الا تحرى الجهة ومعرفة الجهة تحصل بالنجوم وكذا بغيرها مما هو مذكور فى محله اه ولذلك قال بعض الفقها ان المسافر اذا عميت عليه القبلة وجب عليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات التى فى الارض وهى الجبال والرياح وذلك صحيح لانه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات فى معرفة الطرق والمسالك فكذلك يمكن الاستدلال بها فى طلب معرفة القبلة وعلى كل حال عند اشتباه القبلة اذا لم يجد من يسأله من العارفين بها يجب أن ينظر الى العلامات نجوما أو غيرها ويجتهد ويتحرى ويتوجه الى حيث غلب على الظن أنه القبلة والهداية بما نصبه الله تعالى من العلامات عامة كما أن العلامات عامة فتشمل كل ماوضعه الله تعالى للاهتداء به نجوما أو غيرها ولذلك قال الله تعالى (أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر) قال فى كشف الاسرار القرآنية وأسهل العلامات أن ترسم هيئة الكرة لكن لما كانت مستديرة كروية لا يمكن رسمها واحضار صورتها على وجه محرر الا بكرة ولكن بعدة طرق توصل الى احضار سطحها على الورق مع حفظ التناسب بين المسافات على وجه تقريبى * وبيان ذلك أن تكون الصورة مسطوحة على شكل الكرة الارضية او بعض أجزائها لتدل على وضع البلاد والاقاليم والجبال والبحور والأنهر والمدائن وغيرها ولا بد أن تكون مقادير الارض عليها متناسبة كوجودها على الارض وتكون معلمة بدوائر الخطوط السماوية بحساب درجة العرض ودرجة الطول اه وكون هذه العلامة أسهل أى من حيث أنها أقرب الى معرفة جهة القبلة لا الى معرفة عينها لكن ذلك ليس بواجب على المكلف بل يكفيه أن ينظر فى العلامات التى وضعها الخالق ويتحرى على مقتضاها ان كان يعرفها والاتحرى حسب استطاعته فاغلب على ظنه انها جهة القبلة صلى اليها وتصح صلاته ولو كان مخطئا فى الواقع ونفس الامر لان الله تعالى لايكلف نفسا الا وسعها وأين ماتولوا فثم وجه الله أى جهته التى يتوجه اليها فى الصلاة والعبادة عند جهل القبلة وهذه هى آثار النجوم ومنافعها من حيث الاهتداء بها ونحوه مما قدمناه من المد والجزر لانها يهتدى بها الى معرفة أوقات المد والجزر فى الابحر المحيطة فيسير فيها على حسب حالة كل منها

ولها منافع وآثار أخرى غير ماذكر يرشد الى بعضها قوله تعالى فى سورة الصافات (وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم) ولنذكر ماقاله الالوسى فى هذه الآية ومانقوله فيه سواء كان له أو عليه لتعلم منه حقيقة

الحال ويزول عنك شبه أهل الضلال فنقول ۞قال رحمه الله أى ممن شائع نوحا وتابعه فى أصول الدين لأبراهيم وان اختلفت فروع شريعتهما اذا جاءر به بقلب سليم أى انه أقبل على ربه فى حركاته وسكناته وعبادته وتوجه اليه بقلب سليم من الآفات جميعها كفساد العقائد والنيات السيئة والصفات القبيحة كالحسد والغل وغير ذلك مع الاخلاص فى كل ذلك اذ قال لابيه أى عمه آزر وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون أى أتريدون آلهة من دون الله تعالى افكا أى للافك فقدم ماذا الذى هو المفعول به على الفعل العامل فيه وهو تعبدون للعناية لان الاستفهام انكارى قصد منه التقرير به وذلك هو المقصود وفيه أيضا رعاية الفاصلة ثم ذكر المفعول لاجله مدخلا عليه أداة الاستفهام الانكارى أيضا لان الاهم مكافحتهم بأنهم على افك وباطل فى شركهم وعبادتهم الاصنام فما ظنكم برب العالمين أى أى شىء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رب العالمين اى خالق العالمين ومدرجهم فى مدارج الكمالات اشككتم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية لان اشراككم الاصنام معه فى العبادة يجعل عبادتكم له فى حيز العدم لانه غنى عن عبادتكم فيتركها لمن اتخذتموهم شركاء بالباطل أو يقال أعلمتم أى شئ هو حتى جعلتم الاصنام شركاءه سبحانه وتعالى فى العبادة وكان قوم ابراهيم عليه السلام يعظمون الكواكب المعروفة ويعتقدون السعود والنحوس والخير والشر فى العالم منها ويتخذون لكل كوكب منها هيكلا ويجعلون فيها اصناما تناسب ذلك الكوكب واستنزال روحانياتها وكانوا يستدلون بأوضاعها على الحوادث الكونية عامة أو خاصة فاتفق أنه دنا يوم عيدلهم يخرجون فيه فارسل ملكهم الى ابراهيم عليه السلام ان غدا عيدنا فاحضر معنا فاستشعر حصول الفرصة لحصول ماعسى أن يكون سببا لتوحيدهم فاراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لاينكرونه عليه فنظر نظرة فى النجوم أى فتأمل نوعا من التأمل فى أحوال النجوم وهو فى نفس الامر على طرز تأمل الكاملين فى خلق السموات والارض وتفكرهم فى ذلك وهو اللائق به عليه السلام لكنه أوهمهم أنه تفكر فى أحوالها من الاتصال والتقابل ونحوهما من الاوضاع التى تدل بزعمهم على الحوادث ليترتب عليه مايتوصل به الى غرضه لذى يكون وسيلة الى انقاذهم مماهم فيه والظاهر بعد اعتبار الايهام انه ايهام التفكر فى أحكام طالع ولادته عليه السلام وما يدل عليه بزعمهم ماتجدد له من الاوضاع فى ذلك الوقت وهذا من معاريض الافعال نظير ماوقع فى قصة يوسف عليه السلام من تفتيش أوعية اخوته بنى علاته قبل وعاء شقيقه فان المفتش بدأ باوعيتهم مع علمه أن الصاع ليس فيها وأخر تفتيش وعاء أخيه مع علمه بانه فيها تعريضا بأنه لايعرف فى أى وعاء هى ونفيا للتهمة لو بدأ بوعاء اخيه فقال أى لهم انى سقيم اراد انه سيسقم ولقد صدق عليه السلام فان كل انسان لابد أن يسقم وكفى باعتلال المزاج اول سريان الموت فى البدن سقاما وهذا القول من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله فى زوجته سارة هى اختى من معاريض الاقوال كقول نبينا عليه الصلاة والسلام لمن قال له فى طريق الهجرة ممن الرجل من ماء حيث أراد صلى الله عليه وسلم ذكر مبدأ خلقه ففهم السائل انه بيان قبيلته وقول صاحبه وقد سئل عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك أيضا هو هاد يهدينى حيث أراد شيئا وفهم السائل شيئا آخر ولايعد ذلك كذبا فى الحقيقة وتسميته به فى بعض الاحاديث الصحيحة بالنظر لما فهم الغير منه لا بالنسبة لمقصد المتكلم وجعله ذنبا فى حديث الشفاعة قيل لانه ينكشف لابراهيم عليه الصلاة والسلام انه كان منه خلاف الاولى لان كل تعريض هو كذلك فانه قد يجب والامام الرازى لضيق محرابه ومجاله ينكر الحديث الوارد فى ذلك وهو فى الصحيحين ويقول اسناد الكذب الى راويه أهون من اسناده الى الخليل عليه السلام ومما لاشك فيه ان هذه المعاريض من مقاصد البلغاء كالمجاز والكناية فعدها كذبا يقتضى عد المجاز والكناية كذبا ولا قائل بذلك وقيل ان معنى فنظر نظرة فى النجوم انه نظر فى أحوالها أو فى

علمها أو فى كتبها واحكامها ليستدل على مايحدث له والنظر فيها للاستدلال على بعض الامور ليس بممنوع شرعا اذا كان باعتقاد ان الله تعالى جعلها علامة عليه والممنوع الاستدلال باعتبار انها مؤثرة بنفسها والجزم بحكاية أحكامها وقد ذكر الكرمانى فى مناسكه على ماقاله الخفاجى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل أراد السفر فى آخر الشهر (أتريد ان تخسر صفقتك ويخيب سعيك اصبر حتى يهل الهلال) وهذا البحث من أهم المباحث فانه لم يزل معترك العلماء والفلاسفة الحكماء وقد وعدنا بتحقيق الحقيقة وبيان كدره وصافيه فنقول وبالله التوفيق الى سلوك أقوم طريق اعلم ان بعض الناس أنكروا ان يكون للكواكب تأثير فى هذا العالم غير وجود الضياء فى المواضع التى تطلع عليها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه وماجرى هذا المجرى وهذا خروج عن الانصاف وسلوك فى مسالك الجور والاعتساف وبعضهم قالوا ان لها تأثيرا مايجرى على الامر الطبيعى مثل ان يكون البلد القليل العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال الى الحر واليبس وكذا مزاج أهله وتكون أجسامهم ضعيفة وألوانهم سوداء وصفراء كالنوبة والحبشة وان يكون البلد الكثير العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال الى البرد والرطوبة وكذا مزاج أهله وتكون أجسامهم عبلة وألوانهم بيضاء وشعورهم شقراء مثل الترك والصقالبة ومثل نمو النبات واشتداده ونضج ثمره بالشمس والقمر ونحو ذلك مما يدرك بالحس ولا بأس فى نسبته للكوكب على معنى ان الله تعالى أودع فيه قوة مؤثرة فاثرت باذن الله تعالى كما ينسب الاحراق الى النار والرى الى شرب الماء على معنى ذلك وهو مذهب السلف على ماقاله الشيخ ابراهيم الكورانى فى جميع الاسباب والمسببات وصرح به بعض الماتريدية أو على معنى ان الله تعالى خلق ذلك عنده وليس فيه قوة مؤثرة مطلقا على ما يقوله الاشاعرة فى كل سبب ومسبب فلا فرق بين الماء والنار عندهم فى انه ليس فى كل قوة يترتب عليها مايترتب وانما الفرق فى انه جرت عادة الله تعالى بان يخلق الاحراق دون الرى عند النار دون الماء ويخلق الرى دون الاحراق عند الماء دون النار وليس للماء ولا للنار مدخل فى الاثرين الاحراق والرى سوى ان كلا مقارن لخلق الله تعالى الاثر بلا واسطة وظواهر الادلة مع الاولين ولاينافى مذهبهم توحيد الافعال وانه عز وجل خالق كل شئ كما حقق فى موضعه وبعضهم زعم ان لها تأثيرا يعرفه المنجم غير ذلك كالسعادة والنحوسة وطول العمر وقصره وسعة العيش وضيقه الى غير ذلك مما لايخفى على من راجع كتب أحكام طوالع المواليد وطوالع السنين والكسوف والخسوف والاعمال ونحوها وهو مما لاينبغى ان يعول عليه أو يلتفت اليه فليس له دليل عقلى اونقلى بل الادلة قائمة على بطلانه متكفلة بهدم أركانه والقائلون به بعد اتفاقهم على ان الخير والشر والاعطاء والمنع ومايشبه ذلك يكون فى العالم بالكواكب على حسب السعود والنحوس وكونها فى البروج المنافرة لها أو الموافقة وحسب نظر بعضها الى بعض بالتسديس والتربيع والتثليث والمقابلة وحسب كونها فى شرفها وهبوطها ووبالها ورجعتها واستقامتها واقامتها اختلفوا فى كثير من الاصول وتكلموا بكلام يضحك منه ارباب العقول وذلك انهم اختلفوا فى انه على أى وجه يكون ذلك فزعم قوم منهم ان فعلها بطبائعها وزعم آخرون ان ذلك ليس فعلا لها لكنها تدل عليه بطبائعها وزعم آخرون انها تفعل فى البعض بالعرض وفى البعض بالذات وزعم آخرون انها تفعل بالاختيار لابالطبع الا ان السعد منها لايختار الا الخير والنحس لايختار الا الشر وهذا مع قولهم انها قد تتفق على الخير وقد تتفق على الشر مما يتعجب منه وزعم آخرون انها لاتفعل بالاختيار بل تدل عليه وهو كلام لايعقل معناه واختلفوا أيضا فقالت فرقة من الكواكب ماهو سعد ومنها ماهو نحس وهى تسعد غيرها وتنحسه وقالت أخرى هى فى أنفسها طبيعة واحدة وانما تختلف لاانها على السعود والنحوس وهذا

قول من يقول منهم ان للملك طبيعة مخالفة لطبيعة الاستقصات الكامنة الفاسدة وانها لا حارة ولا باردة ولا يابسة ولا رطبة ولا سعد ولا نحس فيها وانما يدل بعض اجرامها على الخير والبعض على الشر وارتباط الخير والشر والسعد والنحس بها ارتباط المدلولات بادلتها لا ارتباط المعلولات بعللها وهؤلاء أعقل من أصحاب القول بالاقتضاء الطبيعى والعلية وان كان قولهم أيضا عند بعض الاجلة ليس بشئ لان الدلالة الحسية لا تختلف ولا تتناقض واختلفوا أيضا فقالت فرقة تفعل فى الابدان والانفس جميعا وهو قول بطليموس واتباعه وقال الاكثرون تفعل فى الانفس دون الابدان ولعل الخلاف لفظى واختلف رؤساؤهم بطليموس ودورموس وانطيقوس وريمس وغيرهم من علماء الروم والهند و بابل فى الحدود وغيرها وتضادوا فى المواضع التى يأخذون منها دليلهم ومن ذلك اختلافهم فى أمر سهم السعادة فزعم بطليموس انه يعلم بأن يؤخذ أبدا العدد الذى يحصل من موضع الشمس إلى موضع القمر و يبتدىء من الطالع فيرصد منه مثل ذلك العدد على لتوالى فمنتهى العدد موضع السهم وزعم بعضهم انه يبتدىء من الطالع فيعد مثل ذلك على خلاف التوالى وزعم بعض الفرس ان سهم السعادة يؤخذ بالليل من القمر الى الشمس وبالنهار من الشمس الى القمر وزعم أهل مصر فى الحدود انها تؤخذ من أرباب البيوت وزعم الكلدانيون انها تؤخذ من مدبرى المثلثات واختلفوا أيضا فرتب طائفة البروج المذكرة والمؤنثة من الطالع فعدوا واحدا مذكرا وآخر مؤنثا وصيروا الابتداء بالمذكر وقسمت طائفة أخرى البروج أربعة أجزاء وجعلوا المذكرة هى التى من الطالع الى وسط السماء والتى تقابلها من الغارب الى وتد الارض وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين ومما يضحك العقلاء انهم جعلوا البروج قسمين حار المزاج و بارده وجعلوا الحار منها ذكرا والبارد انثى وابتدأوا بالحمل فقالوا هو ذكر حار والذى بعده مؤنث بارد وهكذا الى آخرها فصارت ستة ذكورا وستة أناثا وقال بعضهم الاول ذكر والثلاثة بعده أناث والخامس ذكر والثلاثة بعده أناث والتاسع ذكر وما بعده أناث فالذكور ثلاثة و بعد كل ذكر أناث ثلاث مخالفة له فى الطبيعة ثم ان هذه القسمة للمذكر والمؤنث ذاتية للبروج ولها قسمة ثانية بالعرض وهى انهم يبدأون من الطالع الى الثانى عشر فيأخذون واحدا ذكرا وآخر انثى و بعضهم يقول هى أربعة أقسام فمن وتد المشرق الى وتد العاشر ذكر شرقى مجفف سريع ومن وتد العاشر الى وتد الغارب مؤنث جنوبى محرق وسط ومن وتد الغارب الى وتد الرابع ذكر معتدل رطب غربى بطىء ومن وتد الرابع الى الطالع مؤنث ذليل مبرد شمالى وسط و بعض الاوائل منهم لم يقتصروا على ذلك بل ابتدأوا بالدرجة الاولى من الحمل فقالوا هى ذكر والدرجة الثانية هى انثى وهكذا الى آخر الحوت ولبطليموس هذيان آخر فانه ابتدأ باول درجة كل برج ذكر فنسب منها الى تمام اثنتى عشرة درجة ونصف الى الذكورية ومنه الى تمام خمس وعشرين درجة الى الانوثية ثم قسم باقى البروج الى قسمين فنسب النصف الاول الى الذكر والآخر الى الانثى وفعل مثل ذلك فى كل برج انثى *ولدورموس هذيان آخر أيضا فانه يقسم البروج كل برج ثمانى وخمسين دقيقة ومائة وخمسين دقيقة ثم ينظر الى الطالع فان كان برجا ذكرا أعطى القسمة الاولى للذكر ثم الثانية للانثى الى أن يأتى على البروج كلها وان كان انثى أعطى القسمة الاولى للانثى ثم الثانية للذكر الى أن يأتى على آخرها وما لهم فى شىء من ذلك دليل مع ان قولهم ببساطة الافلاك يأبى اختلاف أجزائه بالحرارة والبرودة والذكورة والانوثة ومثل هذيانهم فى قسمة الاجزاء الفلكية الى ماذكر قسمتهم الكواكب الى ذلك فزعموا أن القمر والزهرة مؤنثان وأن الشمس وزحل والمشترى والمريخ مذكرة وان عطارد ذكر وانثى وأن سائر الكواكب تذكر وتؤنث بسبب الاشكال التى تكون لها بالقياس الى الشمس و ذلك انها اذا كانت مشرقة متقدمة على الشمس فهى مذكرة واذا كانت مغربة تابعة كانت مؤنثة وأن ذلك يكون لها بالقياس الى أشكالها من الافق وذلك انها اذا

كانت فى الاشكال من المشرق الى وسط السماء تحت الارض فهى مذكرة وان كانت فى الربعين الباقيين فهى مؤنثة و يلزم عليه انقلاب المذكر مؤنثا والمؤنث مذكرا وأجاب بعضهم عن هذا الهذيان بانه لا مانع من اتصاف شئ بامر بالقياس الى شئ و بضده بالقياس الى آخر وهو فى نفسه غير متصف بشىء منهما كالادكن فانه يقال فيه أبيض بالقياس الى الاسود واسود بالقياس الى الابيض وهو فى نفسه لا اسود ولا أبيض فكذلك الكواكب يقال لها ذكران وأناث بالقياس الى الاشكال أعنى الجهات والجهات الى الارياح كالصبا والدبور والرياح الى الكيفيات لا انها ذكران وأناث فى أنفسها وهو تلبيس فان الادكن فيه شائبة بياض وسواد فمقتضى التشبيه أن يكون فى الكواكب شائبة ذكورة وأنوثة وأيضا الظاهر أن الانقسام المذكور بحسب الطبيعة والتأثير والتاثر ولا يكاد يعرف انقلاب الحقيقة والطبيعة بحسب الموضع والقرب والبعد ومنه يعلم فساد ما قالوا ان القمر من أول ما يهل الى وقت انتصافه الاول فى الضوء يكون فاعلا للرطوبة خاصة ومن ذلك الى وقت الامتلاء يكون فاعلا للحرارة ومنه الى وقت الانتصاف الثانى فى الضوء يكون فاعلا لليبس ومن ذلك الى وقت خفائه يكون فاعلا للبرودة وقاسوا ذلك على تأثيرات الشمس فى الفصول والفرق مثل الشمس ظاهر و يلزم عليه كون الشهر الواحد ذا فصول والحس يدفعه وأيضا كلامهم هذا يخالف ما قالوا من أن قوة القمر الترطيب لقرب فلكه من الارض وقبوله للبخارات الرطبة التى ترتفع منها اليه ثم إن هذا القول باطل فى نفسه لانه يلزم عليه ازدياد رطوبة القمر فى كل يوم ولو سلم تصاعد البخارات الرطبة الى القمر وتاثره منها وكذا القول بان قوة زحل أن يبرد و يجفف تجفيفا يسيرا لبعده عن حرارة الشمس والبخارات الرطبة وأن قوة المريخ مجففة محرقة لشاكلة لونه لون النار ولقربه من الشمس وكوكب الدب الاكبر كالمريخ وأن عطارد معتدل فى التجفيف والترطيب لانه لا يبعد عن الشمس بعدا كثيرا ولان وضعه فوق كرة القمر ومن العجايب استدلال فضلائهم على اختلاف طبائع الكواكب باختلاف الوانها حيث قالوا لما كان لون زحل الغبرة والكمودة حكمنا بانه على طبع السوداء وهو البرد واليبس فان لها من الالوان الغبرة ولما كان لون المريخ كلون النار قلنا طبعه حار يابس والحرارة واليبس فى الشمس ظاهرتان ولما كان لون الزهرة كالمركب من البياض والصفرة والبياض أظهر فيها قلنا طبعها البرودة والرطوبة كالبلغم ولما كان صفرة المشترى أكثر مما فى الزهرة كانت سخونته أكثر من سخونة الزهرة وكان فى غاية الاعتدال وأما القمر فهو أبيض وفيه كمودة فيدل بياضه على البرودة وأما عطارد فتختلف الوانه فربما رأيناه أخضر وربما رأيناه أغبر وربما رأيناه على خلاف هذين اللونين وذلك فى أوقات مختلفة مع كونه من الافق على ارتفاع واحد فلا جرم يكون له طبايع مختلفة الا انا لما وجدناه فى الغالب أغبر كالارض قلنا هو مثلها فى الطبع و يرد عليه أن المشاركة فى بعض الصفات لا تقتضى المشاركة فى الطبيعة ولا فى صفة اخرى وان دلالة مجرد اللون على الطبيعة ضعيفة جدا لاشتراك الكثير فى لون واحد مع اختلاف الطبائع وأيضا الزرقة أظهر فى الزهرة واختلاف ألوان عطارد فلانا نراه قريب الافق فيكون بيننا و بينه بخارات مختلفة وقال أبو معشر ان القمر لا ينسب لونه الى البياض الا من عدم قوة الحس البصرى وفيه بعد ما فيه ولو سلم جميع ما قالوه من اختلاف طبايع البروج والكواكب بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فقصارى ما يترتب على ذلك ما نجده من اختلاف الاقاليم حرارة و برودة مثلا واختلاف أشجارها وأثمارها واختلاف أجسام أهلها وألوانهم واختلاف حيواناتها الى غير ذلك من الاختلافات ومع هذا نقول ان الكواكب جزء السبب فى ذلك لكن من أين لهم القول أن جميع الحوادث فى العالم من خيرها وشرها وصلاحها وفسادها وجميع اشخاصه وأنواعه وصوره وقواه ومدد بقاء أشخاصه وجميع أحوالها العارضة لها وتكون الجنين ومدة لبثه فى بطن امه وخروجه الى الدنيا وعمره ورزقه وشقاوته وسعادته وحسنه وقبحه

وأخلاقه وحذقه و بلادته وجهله وعلمه الى مالا يحصر من أحواله وانقسام الحيوان الى طير وأصنافه والى الحيوان البحرى وأنواعه والبرى وأقسامه واختلاف صور الحيوانات وأفعالها وأخلاقها وثبوت العداوة بين افراد نوع وافراد نوع آخر منها كالذئاب والغنم وثبوت الصداقة كذلك وكذا ثبوت العداوة والصداقة بين افراد النوع الواحد الى غير ذلك مما يكون فى العالم لا يكون الا بتأثير الكواكب وهو مما لا يكاد يصح لان طريق صحته أما الخبر الصادق وأما الحس الذى يشترك فيه الناس أو ضرورة العقل أو نظره وشئ من هذا كله غير موجود ولا يمكن الاحكاميين أن يدعوا واحدا من الثلاثة الاول وغايتهم أن يدعوا أن التجربة قادتهم الى ذلك ولا شك أن أقل مالا بد منه فيها أن يحصل ذلك الشئ على حالة واحدة مرتين والوضع المعين مجموع الكواكب لا يتكرر أصلا أو يتكرر بعد ألوف من السنين وعمر الانسان الواحد بل عمر البشر لا يفى به و زعم بعضهم لذلك أن مجموع الاتصالات ونسب الكواكب بعضها الى بعض غير شرط فى التأثير لتتوقف التجربة على تكراره بل يكفى بعض الاتصالات وقد يكفى واحد منها وذلك يتكرر فى أزمنة قليلة فتتأتى التجربة مثلا رداءة السفر وقد نزل القمر برج العقرب يستند الى هذا النزول بالتجربة فانا وجدنا تكرر ذلك وترتب الرداءة عليه كل مرة وهذا هو التجربة وكذا يقال فى نظائره وأنت تعلم أن التجارب التى دلت على كذب ما يقولون بوقوع خلافه أضعاف التجارب التى دلت على صدقه فقد أجمع حذاقهم سنة سبع وثلاثين عام خروج على كرم الله وجهه الى صفين على انه يقتل و يقهر جيشه فانتصر على أهل الشام ولم يقدروا على التخلص الا بالحيلة وان لم يسلم هذا الاجماع فاجماعهم على مثله فى خروجه كرم الله وجهه لحرب الخوارج حيث كان القمر فى العقرب وقول على رضى الله عنه نخرج ثقة بالله وتوكلا عليه سبحانه وتكذيبا لقول المنجم ونصرته الخارجة عن القياس مما شاع وذاع ولو قيل بتواتره لم يبعد وأجمعوا سنة ست وستين على غلبة عبد الله بن زياد وقد سار بنحو من ثمانين الف مقاتل على المختار بن أبى عبيد فلقيه ابراهيم بن الاشتر صاحب المختار بأرض نصيبين فيما دون سبعة آلاف مقاتل فقتل من عسكره نحوا من ثلاثة وسبعين ألفا وظفر به وهو لا يعرفه فقتله ولم يقتل من أصحابه أكثر من مائة وأجمعوا يوم أسست بغداد سنة ست وأربعين ومائة على أن طالعها يقضى بأنه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى قال بعض شعراء المنصور مهنئا له

يهنيك منها بلدة تقضى لنا	أن الممات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها	أن لا يرى فيها يموت امام

فاول ما ظهر كذب ذلك بقتل الامين بشارع باب الانبار فقال بعض الشعراء

كذب المنجم فى مقالته التى	كان ادعاها فى بنا بغدان
قتل الامين بها لعمرى يقتضى	تكذيبهم فى سائر الحسبان

ثم مات فيها جماعة من الخلفاء كالواثق والمتوكل والمعتضد والناصر وغيرهم الى أمور أخر لا تحصى اجمعوا فيها على حكم وتبين كذبهم فيه على انه قد يقال لهم المؤثر فى السعود والنحوس ونحوها هل هو الكوكب وحده أو البرج وحده أو الكوكب بشرط حصوله فى البرج فان قالوا باحد الامرين الاولين لزمهم دوام الاثر لدوام المؤثر وأن قالوا بالثالث لزمهم القول باختلاف البروج فى الطبيعة والا لا تحدث آثار الكواكب فيها وكلهم مجمعون على أن الفلك بسيط لا تركيب فيه والتزام التركيب من طبائع مختلفة ينافى قولهم بامتناع الانحلال وزعم بعضهم انها تفعل ما تفعل بالاختيار يستدعى الغاء أمر الاتصال والانفصال والمقارنة والهبوط وغير ذلك وكون ما ذكر شرطا للاختيار لا يخفى حاله والقول بانها تستدعى من حيث طبيعة أشعتها التسخين والتبريد وهما يوجبان اختلاف أمزجة الابدان واختلافها يوجب اختلاف أفعال النفس يرد عليه إنا نرى التسخين

مثلا يقتضى حرارة واحدة فى المزاج يفعل بها شخص غاية الخير والافعال الجيدة والآخر غاية الشر والافعال الخبيثة فلا بد لهذا الاختلاف من موجب غير التسخين وأيضا هم يقولون جميع الحوادث الكونية تستند الى الكواكب وحديث التسخين والتبريد واستلزامهما اختلاف أفعال النفس لا يتم به هذا الغرض انتهى كلام الالوسى * وأقول أولا أن الالوسى رحمه الله تعالى حكى قولا فى تفسير قوله تعالى (فنظر نظرة فى النجوم) وهو انه نظر فى أحوالها أو فى علمها أو فى كتبها وأحكامها ليستدل على ما يحدث له والنظر فيها للاستدلال على بعض الامور ليس بممنوع شرعا الى آخر ما نقله عن الكرمانى والخفاجى من الحديث الوارد فى مناسك الكرمانى وهذا اعتراف منه بانه لا مانع من النظر فى علوم النجوم وكتبها وأحكامها للاستدلال بها على بعض الامور وان الممنوع انما هو الاستدلال بها على أنها مؤثرة بنفسها والجزم لكلية أحكامها ولم يقل أحد من علماء هذا الفن الاسلاميين بل المليين مطلقا ممن يقول بوجود الصانع وانه المؤثر وحده بان شيأ من الكوكب أو غيرها من الممكنات مؤثر بذاته * وثانيا أن الألوسى قال إعلم أن بعض الناس أنكروا تأثير الكواكب فى هذا العالم الا بالاضاءة وعدمها وما جرى هذا المجرى وعد ذلك خروجا عن الانصاف وسلوك مسلك الجور والاعتساف وحكى عن بعض الافاضل أن لها تأثيرا يجرى مجرى الطبيعى و بين ذلك مما هو واقع ومشاهد فى مناطق الارض الخمس التى قدمناها وأن مما لا شك فيه أن اختلاف المناطق انما هو من اختلاف أوضاع الشمس والقمر وسائر الكواكب وانما الخلاف بعد ذلك فى كيفية تأثيرها ففريق من الاسلاميين قال انها مؤثرة باذن الله تعالى وفريق قال إن التاثير عندها على مقتضى جريان عادة الله تعالى لا بها والكل متفقون على ان الخالق للكواكب وآثارها هو الله تعالى وقد سلم ذلك الالوسى وجعله مما يدرك بالحس وانه لا بأس فى نسبته للكواكب ونقل أن القول بانها مؤثرة باذن الله تعالى على معنى أن الله تعالى اودع فيها قوة مؤثرة فاثرت باذن الله تعالى هو مذهب السلف وأن ظواهر الادلة مع هؤلاء وأن هذا الخلاف عام فى جميع الاسباب والمسببات * فنقول له لماذا لا يكون الامر كذلك فيما يقوله علماء الاحكام الاسلاميون فى تاثير الكواكب فى غير ما يجرى على الامر الطبيعى ويكون مثله مثل ما يجرى على الامر الطبيعى و يقال ان الله أودع فى الكواكب قوة مؤثرة فاثرت باذن الله تعالى على قول السلف أو كان التأثير عندها على مقتضى جريان عادة الله تعالى لا بها كما يقول الاشاعرة وان كان الخلاف لفظيا على ما بيناه فى حواشينا على خريدة الامام الدردير فى التوحيد وفى كتابنا القول المفيد وأن القول بغير ما يقوله السلف ضرب من الهذيان لا يقول به الا الصبيان ولا يليق أن ينسب للاشاعرة العقلاء كيف وقد قدمنا أن نعم الله وان كانت لا تحصى الا انها تنحصر فى نعمتين الايجاد والابقاء فيها وان لنا حالتين حالة لايجاد أولا فى دار الدنيا والابقاء فيها وحالة الاعادة ثانيا فى الدار الآخرة والابقاء فيها وأن حالة الابقاء فى الدارين انما هى بربط الاسباب بمسبباتها ومع ذلك فاكثر علماء الاحكام الاسلاميين لن يقولوا بان الكواكب مؤثرة بل جعلوها من نوع العلامات على الحوادث لا من نوع الاسباب المؤثرة فيها كجس الطبيب نبض المريض ليعلم دقات قلبه فلم يدعوا الكلية كما هو مقتضى كونها علامة و بناء على ذلك لا مانع من أن يقال أن ولادة المولود وقت طلوع كوكب كذا فى ساعة كذا والشمس فى برج كذا فى درجة كذا والقمر فى منزل كذا تدل على سعادة المولود أو على نحوسته أو على طول عمره أو على قصره أو على سعة عيشه أو على ضيقه الى غير ذلك مما لا يخفى على من راجع كتب أحكام طوالع المواليد وطوالع السنين والكسوف والخسوف والاعمال ونحوها فقول الالوسى انه مما لا يعول عليه ولا يلتفت اليه لا يعول عليه ولا يلتفت اليه ودعوى انه ليس له دليل عقلى اونقلى وان الادلة قائمة على بطلانه ليس على ما ينبغى كما سنذكره * ثالثا قال الالوسى أن القائلين به اى بعلم الاحكام اتفقوا على أن الخير والشر والاعطاء والمنع وما يشبه ذلك يكون فى العالم بالكواكب الى آخره

وانهم بعد ذلك الاتفاق على ماذكر اختلفوا فى كثير من الاصول فزعم بعضهم أن فعلها بطبائعها الى آخر ما حكاه من الاقوال * ونقول أما الذين قالوا انها تفعل بطبائعها فهؤلاء طردوا قولهم هذا فى كل الاسباب مع المسببات وقالوا انها تفعل وتؤثر بطبعها فالنار مؤثرة فى الاحراق بطبعها عند هؤلاء والماء مؤثر بطبعه عندهم فى الرى وهكذا ولم يختص هذا القول بفعل الكواكب فما ذكر فهو قول باطل فى فعلها وفعل غيرها و بطلانه لا يدل على بطلان علم الاحكام فى ذاته كما لا يدل على بطلان العلوم الطبيعية على الوجه الذى اعتقده الاسلاميون وغيرهم من المليين ومثل هذا القول فى البطلان قول الآخرين انها تدل بطبائعها والقول بانها تفعل فى البعض بالعرض والبعض بالذات وأما قول الآخرين انها تفعل بالاختيار الى آخره فهو مبنى على أن قائليه يقولون بحياة الكواكب والافلاك وانها ذات ادراك وشعور وأن اختيارها اختيار بالمعنى الاعم بمعنى أن السعد منها وان جاز عقلا أنه يفعل الخير والشر لذاته لكن لكونه موصوفا بالسعادة لا يفعل الا الخير ففعل الخير واجب له بالغير لا بالذات ومثل ذلك يقال فى النحس وهؤلاء قالوا ان اختيار واجب الوجوب جل وعلا انما هو اختيار بالمعنى الاعم أيضا على معنى أننا اذا نظرنا الى ذاته تعالى والى ذات الممكنات نقول بجواز أن يصدر عنه كل من المتقابلين لكنه شاء صدور أحدهما وتعلقت به عنايته الازلية وتعلق علمه الازلى بوجوده فوجب صدوره ووجوده لتعلق العناية الازلية والعلم الازلى بذلك فهو واجب الصدور عنه تعالى بالغير وهو المشيئة الازلية والعلم الازلى لا بالذات وقد حققنا فى كتابنا القول المفيد فى علم التوحيد أن الخلاف بين هؤلاء وبين المتكلمين القائلين بانه تعالى مختار بالمعنى الاخص خلاف لفظى فارجع اليه وأما قول القائلين بحياة الكواكب والافلاك ونسبة الشعور والادراك اليها فهو قول لم يقم عليه دليل عقلى أونقلى غاية الامر أن بعض الصوفية قد ادعاه كشفا فيترك لمدعيه سواء كان له أو عليه * رابعا انه قال أيضا واختلفوا أيضا فقالت فرقة من الكواكب ماهو سعد الى آخر ماقاله هذه الفرقة وان أخرى قالت إن الكواكب فى نفسها طبيعة واحدة وانما تختلف دلالتها الى آخر ما قاله من مقالة هذه الفرقه أيضا من أن هذه الفرقة تقول أن للفلك طبيعة مخالفة لطبيعة الاستقصات الكائنة الفاسدة الى آخره وأن بعض الاجلة قال انه ليس بشىء لان الدلالة الحسية لا تختلف ولا تتناقض و اقول قال فى الرسالة الثانية الموسومة بالسماء والعالم من اخوان الصفا إعلم يا أخى أن معنى قول الحكماء ان الفلك طبيعة خامسة انما يعنون به أن الاجسام الفلكية لا تقبل الكون والفساد والتغيير والاستحالة والزيادة والنقصان كما يقبلها الاجسام التى تحت فلك القمر وأن حركاتها كلها دورية اه وقد علمت ان معنى الكون هو قبول الماهية صورة كاملة ومعنى الفساد هو خلعها صورة اخرى ناقصة وهذا مما لا تقبله الكواكب ومداراتها لأنها كلها مسخرات بامر الله تعالى منقادة لما أراده الله لها على الوجه الذى قدمناه كما دل على ذلك الآيات القرآنية التى قدمناها فلا يمكن أن تخلع صورها التى خلقها الله عليها وتتصور بصورة أنقص منها أو أكمل منها ولا ان تتغير عن نظامها التى هى عليه ولا زيادة فيه ولا نقص بل هى مستمرة على نظامها التى هى عليه الى أن تكور الشمس وتنكدر الكواكب ثم قال فى تلك الرسالة ان للاجسام صفات كثيرة فنها مايشترك الاجسام كلها فيها ومنها مايختص ببعضها دون بعض فالصفات التى تشترك فيها كلها الطول والعرض والعمق فحسب وهذه الصفات انما هى صور تحصل فى الهيولى فتكون الهيولى بها موصوفة فن هذه الصور التى تسمى الصفات ماهى ذاتية للجسم مقومة لوجدانه كالطول والعرض والعمق لانها متى بطلت عن الجسم بطل وجدان الجسم ومن الصور ماهى متممة للجسم مبلغة اياه الى أفضل حالاته وهذه الصورة تختص ببعض الاجسام دون بعض و ربما يشترك فيها عدة أجسام فن الصور المتممة مايشترك فيها الاجسام الفلكية والطبيعية وهى الشكل والحركة والنور والشفافة واليبس الذى هو تماسك الاجزاء ومما يختص بالاجسام

الطبيعية الحرارة والبرودة والثقل والتغيير والخفة والاستحالة والحركة على الاستقامة وما شاكلها والذى يختص بالاجسام الفلكية سلب هذه الصفات كلها فن أجل هذا قيل انها طبيعة خامسة لانها ليست حارة ولا باردة ولا رطبة ولا ثقيلة ولا خفيفة ولا يستحيل بعضها الى بعض فيتكون منها شئ آخر ولا يزيد فى مقاديرها ولا ينقص لان البارى جل شأنه أبدعها كلها واخترعها كاملة فهى باقية بحالاتها الى وقت ما يريد بارئها عز وجل أن يفنيها كيف شاء كما أبدعها وصورها واخترعها وركبها وحركها ودبرها فتبارك الله أحسن الخالقين وان كثيرا من أهل العلم ظنوا أن معنى قول الحكما. أن الفلك طبيعة خامسة أنه مخالف لهذه الاجسام الطبيعية فى كل الصفات وليس الامر كما ظنوا لان العيان يكذبهم وذلك أن القمر من أحد الاجسام الفلكية وقد يرى فيه اختلاف قبول النور والظلمة كما يرى فى الاجسام الارضية وله ظل كظلالها وهو غير مشف مثل الارض والافلاك كلها تشارك الهواء والماء والبلور والزجاج فى الاشفاف والشمس والكواكب تشارك النار فى النور وكلها تشارك الارض فى اليبس فقد بان بهذا أنهم لم يريدوا بقولهم طبيعة خامسة الا الحركة الدورية وانها لا تقبل الكون والفساد والزيادة والنقصان كما تقبله الاجسام الطبيعية ثم بين فيها بعد ذلك وجه كونها ليست ثقيلة ولا خفيفة وأنها ليست حارة ولا باردة ولا رطبة مما لا حاجة لنا به * والاجسام الطبيعية هى التى تحت فلك القمر وهى طبيعة الاستقصات الكائنة الفاسدة التى هى العناصر الاربعة ومن هذا تعلم أن كون طبيعة الفلك والاجرام الفلكية ليست كطبيعة الاستقصات الكائنة الفاسدة لا يمنع من تخالفها هى فى نفسها بصور متممة توجد فى بعضها ولا توجد فى البعض الآخر وقد بينا فيما سبق صفة الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة وصفة بعض النجوم الثوابت كى لا ندع مجالا للشك فى أنها فيما بينها متخالفة فى صفات كثيرة جدا وانها متخالفة فى حركاتها سرعة و بطئا ومداراتها فى الاحياز قربا و بعدا والتأثير الاترى أن جميع الكواكب ماعدا الشمس تستمد نورها من الشمس ونور الشمس ذاتى لها فان الشمس سراج وهاج وجسم غازى متقد وباقى الكواكب السيارة أجرام مظلمة جامدة ليست غازية ولا سائلة ولا بخارية وحينئذ لا مانع من كون بعضها سعدا وبعضها نحسا وانها تسعد غيرها وتنحسه كل ذلك على حسب اختلافها فى الصفات وفيما يتجدد لها من الاوضاع وفى الحركات ولا مانع من أن تكون فى نفسها طبيعة واحدة وانما تختلف دلالتها على السعود والنحوس وان كلمة هاتين الفرقتين متحدة فى المعنى وان الخلاف بينهما لفظى وأن القول بان الدلالة الحسية لا تختلف ولا تتناقض ليس على اطلاقه بل ان ذلك انما هو فيما اذا اتحد وجه الدلالة الحسية لا فيما اذا اختلف كما هو الموضوع الذى نحن بصدده وان هذا القول الذى هو قول هاتين الفرقتين هو بعينه ماقدمه قولا فى معنى قوله تعالى (فنظر نظرة فى النجوم) ونقل فيه مانقله عن الكرمانى والخفاجى وانه ليس ممنوعا شرعا وقدمنا مايقتضيه قريبا وتعلم أيضا أنه لا مانع من أن الله يودع فى الكواكب قوة تفعل فى الانفس والابدان كما قال بطليوس أو فى الانفس دون الابدان أى أنها تفعل فى الانفس مباشرة ومتى فعلت فيها كان فعلها فى الابدان تبعا وهو مراد بطليوس فيكان الخلاف لفظى كما قال والحاصل أن القائلين بان للكواكب تأثيرا يعرفه المنجم غير التأثير الذى يجرى على الامر الطبيعى فرق شتى منهم اسلاميون وغير اسلاميين على اختلاف فرقهم وهؤلاء بعد أن اتفقوا على وجود ارتباط بين مايقع فى عالم المواليد من الحوادث من الخير والشر والاعطاء والمنع وغير ذلك من كل مالا يجرى على الامر الطبيعى كما قدمناه وبين الكواكب والاجرام السماوية اختلفوا فى أن ذلك الارتباط هو على وجه الدلالة والعلامة أو على وجه السببية والعلية فذهب فريق من الفرق الاسلامية الى الاول وذهب الباقون الى الثانى وهؤلاء الباقون اختلفوا على أى وجه يكون الارتباط بين هذه الحوادث و بين الكواكب واختلافهم هنا مبنى على اختلافهم

فى كل ارتباط بين الاسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها فمنهم من يقول تفعل بطبائعها فقال هنا كذلك ومنهم من قال إن الاسباب تدل على المسببات بطبائعها فقال هنا كذلك ومنهم من قال ان بعض الاسباب يفعل بالعرض وبعضها يفعل بالذات فقال هنا كذلك ومنهم من قال فى خصوص الكواكب انها تفعل بالاختيار لا بالطبع بناء على قولهم إن للاجرام السماوية أنفسا ناطقة فهى تفعل بالاختيار لكن بالمعنى الاعم كما تقدم ومنهم من يقول ان الاسباب مؤثرة فى مسبباتها باذنه تعالى فقال هنا كذلك ومنهم من ينفى مدخلية الاسباب فى المسببات رأسا ويقول ان الله تعالى يخلق ما يخلق عندها لا بها فقال هنا كذلك وقد علمت أن الالوسى نقل أن الاول من هذين الاخيرين مذهب السلف وأن الثانى مذهب الاشاعرة ومن ذلك تعلم أن هذا الخلاف لا يختص بارتباط الكواكب بالنجوم بل هو مبحث عام تعرض له علماء الاحكام لا باعتبار كونه مما يبحث عنه فى علمهم من حيث هو علم الاحكام لان علم الاحكام انما يبحث فيه عن النجوم من حيث ما يترتب على اجتماعها واستقبالها وارتفاعها وانخفاضها وغير ذلك مما يبحث عنه علماء الهيئة فى القسم الاول وهو القسم الوصفى بقطع النظر عن كون الكواكب مؤثرة أو غير مؤثرة فاختلاف العقلاء فى ارتباط الاسباب بالمسببات على وجه ما تقدم لا يضر بما قاله علماء الاحكام من ارتباط الحوادث الكونية بالكواكب وباختلافها باختلاف أوضاع الكواكب وأشكالها وغير ذلك مما يبحث عنه علماء الهيئة فى القسم الوصفى من علمهم وقد قدمنا انه لا خلاف لاحد فيما يتعلق بالقسم الوصفى من علم الهيئة وأن الخلاف انما هو فى القسم الطبيعى وأما القسم العملى فهو مما يختلف باختلاف العصور والازمان كمالا ونقصا فى آلات الرصد ثم قال الالوسى واختلف رؤساؤهم بطليموس ودوروسوس وريمس وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل فى الحدود وغيرها وتضادوا فى المواضع التى منها يأخذون دليلهم الى آخر ما أطال به ونسبهم فيه الى الهذيان ثم قال بعد ذلك وما لهم فى شئ من ذلك دليل الى آخر ما قال * ونقول ان هذا الخلاف وهذا التضاد انما هو فى الاسباب والمواضع التى أخذوا منها الدليل كما قال وهو لا يستلزم أن ما قالوه جميعا هذيان بل منه طبعا ما هو صحيح وما ليس بصحيح فهم جميعا اتفقوا على ان بين الكواكب وبين الحوادث التى لا تجرى على الامر الطبيعى ارتباطا واختلفوا فى الوجه الذى يكون عليه ذلك الارتباط كما بيناه فى أقوالهم السابقة واتفقوا أيضا على ان ذلك الارتباط انما هو تابع للقسم الوصفى من اقسام علم الهيئة ثم اختلفوا فى الاسباب والادلة والطرق التى منها يأخذون ما بنوا عليه تلك الاحكام ولا شك ان الاختلاف على هذا الوجه لا يقتضى ان كل الاقوال هذيان ولا ان العلم غير صحيح وباطل * الا ترى أن اختلاف الكواكب فى اوضاعها واشكالها ومناظرها وغير ذلك مما يتعلق بالقسم الوصفى ثابت بالمشاهدة فاننا فى شهر (آذار) نرى بعد الغروب قليلا الى جهة الشرق نجما مشعشعا اسمه ذنب الاسد وفى شهر (حزيران) بعد الغروب قليلا نرى ذلك النجم فى كبد السماء أى فوق رءوسنا تقريبا وفى شهر (أيلول) نرى ذلك النجم يغيب مع الشمس أو قبل الشمس قليلا وفى شهر (كانون) اذا فتشت عليه فى قبة السماء نصف الليل تراه مفقودا ولا تجده كما اننا نرى النجم المسمى بالثريا بعد الغروب قليلا فى (تشرين الثانى ثم فى شهر (شاباط) نراها بعد الغروب قليلا فوق رؤسنا تقريبا وفى شهر (آذار) تغيب مع الشمس فانت لا ترى النجوم كل ليلة فى موضع واحد من السماء بل النجوم المشرقة عند الغروب هذه الليلة تطلع قبل الغروب ليلة غد وان كانت قد لا ترى قبل الغروب لحجب نورها بنور الشمس و بعد ثلاثة أشهر تكون فى كبد السماء عند الغروب و بعد ستة أشهر تغيب عند الغروب والنجوم التى تراها فى ساعة مفروضة هذه الليلة لا ترى منها واحدا بعد ستة أشهر تمضى من هذه الساعة بل ترى نجوما اخرى و بعد سنة من الزمان ترى فى تلك الساعة المفروضة نفس النجوم التى كنت رأيتها قبل سنة فى هذه الساعة فمع اتفاق علماء الهيئة القديمة والحديثة

على هذه المناظر والاختلافات لانها محسوسة مشاهدة اختلفوا فى سبب هذه المناظر واختلافها فذهب الاقدمون بناء على مذهبهم من ان الشمس وسائر الكواكب لها حركة ذاتية حول الارض تقطع الدورة فيها فى مدة معينة الى ان سبب هذه الاختلافات وهذه المناظر انما هى حركة الشمس وسائر الكواكب حركة ذاتية ولها حركة اخرى قسرية تبعا لحركة الفلك الاعظم وذهب اهل الهيئة اليوم بناء على مذهبهم من ان الشمس وسائر الكواكب ليس لها حركة حول الارض وان لكل من الشمس وسائر الكواكب حركة على محوره وان الارض وسائر الكواكب تدور حول الشمس كما ان الارض تتحرك على محورها كباقى الكواكب وان حركة الارض على محورها هى التى بها يتعاقب الليل والنهار ويختلفان وبها نرى جميع الكواكب الليلية متحركا من المشرق الى المغرب ونرى الشمس كذلك متحركة من المشرق الى المغرب وحركتها حول الشمس بها تتكون الدورة السنوية وبها تختلف مناظر الكواكب ايضا واحيازها ارتفاعا وانخفاضا وشمالا وجنوبا الى ان سبب هذه المناظر وهذه الاختلافات هى حركة الارض على محورها وحول الشمس واختلافهم فى العلل والاسباب مما يتعلق بالقسم الطبيعى على هذا الوجه لم يضر بما اتفقوا عليه ولم ينسبوا بسببه الى الهذيان غاية الامر أن بعض الاقوال حقيق بالقبول والآخر على الضد وان كان فى نظر قائله صوابا

وكما اننا نرى المناظر المتقدمة واختلافها نرى أيضا ان الشمس فى اواخر شهر (آذار) تشرق فى النقطة الشرقية وتغيب فى النقطة الغربية وفى كل تنتقل قليلا نحو الشمال وفى أواخر شهر (حزيران) نراها تشرق فى شمال النقطة الشرقية بمسافة معينة وتغيب فى شمال النقطة بمثل هذه المسافة ايضا ثم تأخذ فى الانتقال من الشمال الى الجنوب وفى اواخر شهر (ايلول) تشرق فى النقطة الشرقية وتغيب فى النقطة الغربية ولا تزال تنتقل جنوبا الى اواخر شهر (كانون الاول) وحينئذ تشرق الى جنوب النقطة الشرقية بمسافة معينة وتغيب الى جنوب النقطة الغربية بمثل هذه المسافة ثم تأخذ فى الانتقال ثانيا نحو الشمال فى اواخر شهر (آذار) وتكون قد عادت الى الشروق فى النقطة الشرقية والى الغروب فى النقطة الغربية وهذا دأبها فى كل سنة وهذه المناظر المختلفة المشاهدة ثابتة بالحس فلم يختلف فيها المتقدمون والمتأخرون من علماء الهيئة ولا يخالفهم أحد فى ذلك ولكن علماء الهيئة اليوم ينسبون ذلك كله الى حركة الارض على محورها التى هى الحركة اليومية والى حركتها حول الشمس التى هى حركتها السنوية و يقولون ان هاتين الحركتين ليستا على سطح واحد كما بيناه وعلماء الهيئة المتقدمون ينسبون ذلك الى حركة الفلك الاعظم اليومية التى بها تدور سائر الافلاك والكواكب قسرا ومنها الشمس والقمر من المشرق الى المغرب فى أربع وعشرين ساعة تقريبا والى حركة الشمس الذاتية حول الارض و بها تتكون السنة واختلافهم فى هذه العلل وهذه الاسباب لم يضر فيما اتفقوا عليه من تلك المناظر واختلاف الاشكال والاوضاع من كل ما بحثوا عنه فى القسم الوصفى كذلك علماء الاحكام حيث اتفقوا على ما اتفقوا عليه على الوجه الذى قاله الالوسى نفسه لا يضر اختلافهم بعد ذلك فى انه على أى وجه يكون ارتباط تلك الحوادث بالكواكب واختلافها باختلاف اوضاعها واشكالها واحيازها وغير ذلك غاية الامر انه يلزم من يريد البحث فيما قالوه ان ينظر فيما اختلفوا فيه و يأخذ بما يتضح له بالدليل انه هو الحق من اقوالهم فى وجه ارتباط تلك الحوادث بتلك الكواكب واذا بحثنا وجه الارتباط فى ذلك نجد ان الحق ان يقال فيه مثل ما قلناه فى وجه ارتباط الكواكب بما يجرى على الامر الطبيعى من الحوادث الكونية ونسبتها الى الكواكب على معنى ان الله اودع فى الكواكب قوة مؤثرة فاثرت باذنه تعالى وهذا هو مذهب السلف فى جميع ارتباط المسببات بالاسباب ومنها ارتباط هذه الحوادث بالكواكب كما نقله الالوسى عن الكرمانى واقره او على معنى ان الله جرت عادته ان يخلق حادث كذا عند حلول الكوكب الفلانى فى موضع كذا مثلا على ما رآه

الأشاعرة فى ارتباط جميع المسببات بالاسباب على ان الامام المرغينانى صاحب الهداية فى فقه أبى حنيفة قال فى كتاب مختارات النوازل علم النجوم فى نفسه حسن غير مذموم وهو قسمان حسابى وانه حق وقد نطق به الكتاب قال تعالى (والشمس والقمر بحسبان) أى سيرهما بحساب * واستدلالى بسير النجوم وحركة الافلاك على الحوادث وهو جائز كاستدلال الطبيب بجس النبض على الصحة والمرض وقوله صلى الله عليه وسلم (انا أمة أمية لانكتب ولانحسب) ليس فيه مايدل على تخطئة الكتابة والحساب بل يدل على تصويبهما وتصديقهما فان صدوره فى معرض اظهار المعجزة وبيان ان معارفنا آلهية يوحى يوحى من عند الله تعالى فان حاصل المراد منه انا نعرف ذلك باعلام الله تعالى وتعريفه لنا الابغيره لانا أمة أمية لانستعمل الحساب ولانتداول الكتابة وانما يعرفه الحساب بمزاولة حسابهم والكتاب بالكتابة عن غيرهم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) اه ومن ذلك يعلم ان صاحب الهداية وناهيك به من أمام وحسبك به حجة فى الاحكام يرى أن بين الحوادث وسير الكواكب وحركات الافلاك ارتباطا وان وجه هذا الارتباط انه ارتباط دلالة فارتباط الحوادث بما ذكر من قبيل ارتباط المدلول بالدليل على ان اختلاف كل فن فى مسائله أصولا وفروعا لايؤثر فى صحة ذلك الفن وانه ذوقواعد صحيحة وانما الواجب على الناظر فى أى فن كان ان يميز بفكره الثاقب بين الغث والسمين من الاقوال الا ترى ان علم الكلام لاخلاف لاحد فى انه علم جليل وتعلمه دائر بين كونه فرض عين أو فرض كفاية بحسب اختلاف الحاجة اليه فى حفظ الايمان أو توقف الذب عن بيضة الاسلام عليه ولكنا نجد أن علماءه اختلفوا ومنهم من بلغ فى قوله درجة الهذيان والمكابرة كالسوفسطائية واللاأدرية والمرجئة والجبرية وأمثالهم من الفرق التى انحرفت عن جادة الحق ومنهم من هو على الحق كاهل السنة فى اكثر ماذهبوا اليه كذلك تجد علم الفقه اصولا وفروعا مع اتفاق علمائه على حقية الكتاب والسنة وعلى كل ماعلم من الدين بالضرورة وعلى ان الكتاب والسنة هما المرجع الذى لاتجوز مخالفته ولم يختلفوا فى شئ من ذلك كله اختلفوا فيما عدا ذلك من اصول الفقه وفروعه على مذاهب متعددة وكل منهم يعتقد ان ماذهب اليه واخذه من الكتاب والسنة او من احدهما صواب يحتمل خطأ وان ما اخذه غيره خطأ يحتمل الصواب ولم يضرهم ذلك فى جلالة علمهم وان تعلمه يدور كذلك بين كونه فرض عين اوفرض كفاية على حسب الحاجة اليه عملا وفتوى وهكذا يقال فى سائر الفنون ومن هذا كله تعلم ان اختلاف علماء الاحكام على الوجه الذى قاله الالوسى لايقتضى بطلان ذلك العلم وانه هذيان كما يقول

ونقول ايضا ان علم احكام النجوم كما علمت مبنى على القسم الوصفى من علم الهيئة وذلك القسم كالقسم الطبيعى يتوقف الوصول اليه على الارصاد والحساب الصحيح والاصول الهندسية الدقيقة وذلك كله يختلف باختلاف آلات الارصاد ودقة الحساب والنظر فى الاصول الهندسيه ومايظهر لكل واحد منها بحسب مايؤديه اليه آلاته الرصدية وحسابه ونظره فى الادلة الهندسية وبناء على ذلك الاختلاف اختلف روساؤهم بطليموس ودورسوس وانطيقوس وريمس وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل فيما ذكره الالوسى فزعم كل فريق مازعمه بناء على الآلات الرصدية التى استعملها والحساب الذى عمله والادلة الهندسية التى رجع اليها ومنهم المحق ومنهم المبطل الا ترى ان علماء الهيئة المتقدمين كانوا يعتقدون فى عصرهم ان الشمس تدور حول الارض من الغرب الى الشرق بحركة ذاتية لها وجعلوا تلك الحركة علة الدورة السنوية وذلك بناء على ان آلات الارصاد التى لديهم كانت قاصرة فلم يمكنهم رصد الشمس على الوجه الصحيح ولما جاء المتأخرون من علماء الهيئة وعادوا الى ماكان عليه فيثاغورث واصحابه من ان الارض دائرة وان الشمس ليس لها حركة حول الارض واثبتوا ذلك بادلة اقاموها كما ذكرناه جعلوا علة الدورة اليومية والسنوية هى حركة الارض فنسبوا الدورة الاولى الى حركتها

على محورها والثانية الى حركتها حول الشمس ولكن كان فريق منهم يعتقد ان الشمس ساكنة وفريق متوقف لكنه وافق الفريق الاول على ان العلة فى الدورتين اليومية والسنوية هى حركة الارض على نفسها وحول الشمس وذلك بناء على نقص الآت الرصد ايضا ثم لما حدثت آلات الرصد المغطسة والملونة وأمكن رصد الشمس تبين انها متحركة على محورها بالكيفية المتقدمة وتبين خطأ المتقدمين ولكن خطأهم هذا خطأ فى نسبة المعلول الى العلة التى قالوها لافى نفس المعلول فلذلك لم يقتض هذا الخطأ تغييرا فى نظام الدورة اليومية ولافى نظام الدورة السنوية ومايتبع ذلك من اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا واختلاف الفصول واختلاف المناطق السماوية واختلاف مناطق الارض تبعا لمناطق السماء وغير ذلك مما بحثوا عنه فى القسم الوصفى مما لايؤثر فيه ذلك الخلاف ويتحقق على كل واحد من المذهبين كذلك يقال هنا فى خلاف علماء الاحكام فاختلافهم فى الحدود مبنى على اختلافهم فى الطرق التى بها يقفون على هذه الحدود وهو خطأ فى الاسباب والعلل لايؤثر فيما اتفقوا عليه من ارتباط الحوادث والأحكام بالكواكب كذلك اختلافهم فيما يتعلق بقسمة البروج الى حار وبارد ونحو ذلك مبنى على عقائدهم الفاسدة من أن البروج التى هى كواكب على صور مخصوصة كما تقدم فيها حياة ولها نفوس ناطقة فيلزم أن يكون لها مزاج عند هؤلاء على انك قد علمت أن الفلاسفة ينكرون اتصاف الافلاك والاجرام الفلكية بالحرارة والبرودة والرطوبة ويعترفون باتصافها باليبوسة لانهم يقولون ان الافلاك أجسام صلبة ولاصلابة الا باليبوسة فلعل هذا مذهب آخر لهؤلاء وعلى كل حال فالقول بهذا أو عدمه لايترتب عليه خلل فيما اتفقوا عليه من الارتباط كما قدمناه وانما هو من قبيل الاختلاف فى الطريق التى يعتقد سالكها انها توصله الى مايريده من الحادثة وتارة يخطئ وتارة يصيب وهذا لايضر بنفس علم الاحكام لان هذا النقص راجع الى هذا المستعمل للطريق ونقص آلاته لا الى العلم فى ذاته وأما اختلافهم فيما يتعلق بذكورة بعض الكواكب وأنوثتها فالحق أن الكواكب فى ذاتها لاتتصف بالذكورة ولا بالانوثة على وجه الحقيقة كما يتصف بذلك الحيوان بل ذلك يختلف باختلاف تأثيرها قوة وضعفا وبحسب هذا الاختلاف تختلف التسمية بالذكر أو الانثى وذلك مجرد اصطلاح تسهيلا للتعليم وسبب الاختلاف بينهم فى ذلك هو ماقلنا من اختلافهم فى الاسباب فبعد أن اتفقوا على أن كل كوكب قوى تأثيره يسمى ذكرا وكل كوكب ضعف تأثيره يسمى انثى والذى يقوى باعتبار ويضعف باعتبار يسمى ذكرا وأنثى باعتبارين اختلفوا فى الطريق التى بها يتعين ماهو المسمى بالذكر وماهو المسمى بالانثى وماهو مسمى بالذكر والانثى باعتبارين وهو الخنثى وأما كون الذكر هو ما كان تأثيره كذا والانثى ما كان تأثيره كذا وما كان ذكرا وانثى باعتبارين هو ما كان تأثيره كذا فهذا لاخلاف فيه فالقاعدة القائلة كل ما كان تأثيره كذا من الكواكب يسمى ذكرا وكل ما كان تأثيره كذا يسمى انثى وكل ما كان تأثيره كذا باعتبار وتأثيره كذا باعتبار آخر يسمى ذكرا وانثى متفق عليها فتلخص أن الخلاف انما هو فى تطبيق هذه القاعدة على الواقع وتعيين أن كوكب كذا بعينه يؤثر تأثير كذا فهو ذكر وان كوكب كذا بعينه يؤثر كذا فهو انثى وان كوكب كذا بعينه يؤثر كذا باعتبار ويؤثر كذا باعتبار آخر فيسمى ذكرا وانثى وذلك يختلف باختلاف الانظار والخطأ فى تطبيق القاعدة العلمية على الواقع لايجعل العلم وقواعده هذيانا وباطلا * ونظير ذلك أن علماء الاحكام اذا قالوا اذا حل القمر فى منزلة كذا على وجه كذا أمطرت السماء فهذا لايختلفون فيه ولكن فى أى وقت يحل القمر هذه المنزلة على الوجه المعين فهذا الذى يجئ فيه الخلاف لان مبناه على الرصد والحساب والارصاد تختلف باختلاف آلاتها والحساب يخطئ فيه الحاسب ويصيب خصوصا هذا الحساب الدقيق * ومن هذا الذى قررناه تعلم أن ما أجاب به البعض من أنه لامانع من اتصاف شئ بامر بالقياس الى شئ وبضده بالقياس الى شئ آخر وهو فى نفسه غير

متصف بشئ منهما كالادكن الى آخر ماسبق جواب حقيق بالقبول ودعوى الالوسى أنه تلبيس تلبيس وما استند اليه فى ذلك لايصلح مستندا الان مراد المجيب بقوله كالادكن الى آخره التنظير لا التشبيه والتمثيل فلا يتوجه عليه رد الالوسى بالفرق الذى قاله فان ما نحن بصدده ليس الا مجرد تسمية اصطلاحية لسهولة التفهيم والتفهم فقط كما قلنا * وأما ماقاله الالوسى من أنه يعلم مما قرره فساد ماقالوا أن القمر فى أول ما يهل الى وقت انتصافه الاول فى الضوء يكون فاعلا للرطوبة خاصة الى آخر ماقاله فى ذلك فهو مردود أولا بما صرح به هو بعد ذلك من أن الظاهر يقتضى كثرة مدخلية بعض الكواكب فى بعض الآثار كالقمر فى مد البحار وجزرها وبين هناك أن اختلاف البحار من مد الى جزر ومن جزر الى مد تابع لحركات القمر وقال إن منها يأخذ فى الازدياد حين يفارق القمر الشمس الى وقت الامتلاء ثم يأخذ فى الانتقاص ولا يزال نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر الى المحاق ومنها مايحصل فيه المد كل يوم وليلة مع طلوع القمر الى آخر ماقدمناه عنه ومن ذلك يؤخذ أنه لامانع من أن يكون القمر فاعلا للرطوبة خاصة فى أول اهلاله الى وقت انتصافه الاول فى الضوء ويكون فاعلا للحرارة من وقت انتصافه الاول فى الضوء الى وقت الامتلاء ومن وقت الامتلاء الى وقت الانتصاف الثانى فى الضوء يكون فاعلا لليبوسة ومن هذا الوقت الى وقت محاقه يكون فاعلا للبرودة وان ذلك يختلف باختلاف مطالع القمر فى المناطق المختلفة غاية الامر أنا نعتقد أن كل هذه الآثار مستندة فى حدوثها الى الله تعالى وان تأثير القمر انما هو بأذن الله تعالى وارادته وان الله تعالى هو الفاعل المختار وأنه سبحانه خالق ذلك مرتبا على حركات القمر واختلاف أشكاله لانه أودع فيه قوة يترتب بها عليه ماذكر باذن الله تعالى وقدرته أو على معنى أنه تعالى خالق تلك الآثار عند هذه الاسباب لابها كما تقدم * وقد قدمنا مايتعلق بالمد والجزر وانه كما يكون بواسطة القمر يكون بواسطة الشمس على الوجه الذى فصلناه

وأما ماقاله الالوسى فيما يتعلق بقوة زحل وأنه يبرد و يجفف الى آخر ما أطال به فلا علاقة له بعلم الاحكام بل هذا يرجع الى الخلاف بين علماء الهيئة قديما وحديثا ومبناه اختلاف الارصاد باختلاف آلاته وحيث أن آلات الارصاد الآن أتم وأكمل مما كان منها فى عصور المتقدمين فهى أكثر وأقرب دلالة على مطابقة الواقع فلا مانع من القول بما تدل عليه فى اختلاف طبائع الكواكب وألوانها وكل مايتعلق بها من ثقل وجذب ومقدار نور وكتل على ماعليه علماء الهيئة اليوم نعم ان علماء الاحكام يرتبون على ذلك أحكاما ولكن يقلدون فى ذلك علماء الهيئة والفلك ان لم يكونوا منهم وعلى كل حال فالبحث عنها فى علم الهيئة لا فى علم الاحكام

والالوسى بعد أن قرر على وجه ماذكر منكرا تأثير الكواكب مدعيا أن ماقاله علماء الاحكام هذيان قال ولو سلم جميع ماقالوه من اختلاف طبائع البروج والكواكب بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فقصارى مايترتب على ذلك مانجده من اختلاف الاقاليم حرارة وبرودة مثلا واختلاف اشجارها وأثمارها واختلاف أجسام أهلها وألوانهم واختلاف حيواناتها الى غير ذلك من الاختلافات اه وهذا اعتراف منه باختلاف الاقاليم على الوجه الذى قاله وان ذلك مرتبط بسير الكواكب سواء كان ذلك ناشئا عن اختلاف طبائعها كما يقول فريق أو بقوة أودعها الله فيها تؤثر بها باذن الله تعالى * أو ان الله تعالى خالق ذلك عندها لا بها أو غير ذلك على ماقاله المختلفون وعلى كل حال فوجود هذه الحوادث يقارن وجود حركة من حركات الكواكب ووضع من أوضاعها وتكون دليلا على تلك الحوادث الا ترى الى ما قدمناه من انك اذا نظرت الى ما بين دائرة الاستواء وكلا القطبين ظهر لك ان النجوم ترسم دوائر يعظم ميلها على الافق على حسب عظم القرب من القطب فيسمى سكان هذه النواحى ارباب الفلك المائل ونجمة القطب تكون دائما فوق رؤسهم وكذلك سائر النجوم المجاورة وارتفاع نجمة القطب عندهم يكون عدد درجه قدر عدد درج عرض المكان الذى يقع فيه الرصد

فيمكن ان يؤخذ درج ارتفاع نجمة القطب من درج العرض الى آخر ماقدمناه من أن الارض تنقسم الى خمسة مناطق تبعا لانقسام مناطق السماء وكواكبها وان من المناطق الخمس منطقة شديدة الحرارة ومنطقتين معتدلتين ومنطقتين شديدتى البرودة فالاولى هى ما بين المدارين وهى أشد الاماكن حرا بسبب وجود الشمس دائما فى سمت بعض نقطها ويسمى اهلها أرباب الظلين لان الشمس فى وجودها فى نصف النهار تنبعث أشعتها فى تلك المواضع ستة أشهر جهة الشمال وفى الستة الاشهر الاخرى يمتد الشعاع جهة الجنوب الى آخر ماقدمناه فى ذلك وفى المنطقتين المعتدلتين والمنطقة الرابعة والخامسة شديدتا البرودة ولا شك فى أن لكل اهل منطقة من هذه المناطق الخاصة طباعا خاصة وأفعالا خاصة واخلاقا خاصة ومن هنا يمكن القول بان جميع الحوادث فى هذا العالم خيرها وشرها وصلاحها وفسادها وجميع أشخاصه وانواعه وصوره وقواه ومدد بقاء اشخاصه وجميع الاحوال العارضة لها وتكون الجنين ومدة لبثه فى بطن أمه وخروجه الى الدنيا وعمره ورزقه وشقاوته الى آخر ماقدمناه انما هو بتأثير حركات الكواكب بقوة أودعها الله سبحانه وتعالى فيها تؤثر باذن الله تعالى وخص كل كوكب ونجم بقوة تؤثر أثرا خاصا باذنه تعالى وقدرته ونقول ان كل ذلك مرتب على مانجده من اختلاف الاقاليم والمناطق حرارة و برودة واعتدالا كما ترتب على اختلاف تلك الاقاليم وتلك المناطق فيما ذكر اختلاف اشجارها فنحن نعلم ونشاهد ان اشجارا تنبت فى مصر ولا تنبت فى السودان أو الهند أو فى الصين أو فى اوروبا و بالعكس فى كل ماذكر و بالجملة فنشاهد أن من الاشجار ماينبت فى اقليم ولا ينبت فى آخر واختلاف الاثمار فانا نرى ان ثمار النخل فى بلاد السودان تخالف ثماره فى مصر وكذا باقى الثمار نراها تختلف باختلاف الاقاليم مع اتحاد اشجارها واختلاف اجسام اهلها والوانهم واختلاف حيواناتها وغير ذلك وما هو الفرق فى نسبة هذه الاشياء التى نجدها فى الاقاليم مختلفة فيها ونشاهدها و بين آثارها المترتبة عليها فان ما يكون فى البلاد الحارة من الاخلاق والطباع وغير ذلك لا يكون فى البلاد الباردة أو المعتدلة و بالعكس و يترتب على ذلك الاختلاف اختلاف الاعمار طولا وقصرا واختلاف الناس نشاطا فى العمل وكسلا واختلاف الارض صلاحا وفسادا وغير ذلك وكل هذا من علامات السعادة أو الشقاوة نعم ان الطرق الموصلة الى معرفة مايخص كل كوكب من طرق الكواكب متعسر أو متعذر فى هذا الزمان وذلك لان أوضاع الكواكب ومواقعها التى بنى عليها الاقدمون نسبة الحوادث الى الكواكب وعينوها على فرض ان يكونوا قد وصلوا الى الحقيقة فيها قد تغيرت لسبب ان دائرة البروج لا تقطع اليوم خط الاعتدال فى صورة الحمل بل فى صورة الحوت لان نقطة الاعتدال قد تقهقرت فى مرور الادوار منذ انقسام البروج ورجعت الى الوراء نحو برج كامل ولذلك لا توافق البروج الصور التى سميت بأسمائها فالشمس الآن تدخل برج الحمل وهى فى صورة الحوت فى الواقع وتدخل برج السرطان وهى فى صورة الجوزاء فى الواقع وقس على ذلك اعنى انها تحل فى برج نحو ٢٨ يوما قبل حلولها فى صورة ذلك البرج وسبب ذلك ان الارض اذا قطعت خط الاعتدال فى الربيع فى نقطة مفروضة لا تقطعه فى السنة الآتية فى تلك النقطة نفسها بل فى نقطة الى غربى الاولى قليلا و بذلك تتغير جهة المحور الارضى قليلا واذا تغيرت جهة المحور تغيرت حركة الارض فهذه الحركة الارضية الحقيقية توهمنا بحركة النجوم وهذا التغير يسمى مبادرة الاعتدالين

ومردود ثانيا بان سبب الخطأ والخلاف الذى وقع هو أن الاقدمين لم يعرفوا عن الثوابت الا القليل جدا بسبب قصر وسائط الرصد وبعد النجوم بعدا يكاد لا يتصور كما بينوه وان الذى يرى منها بالعين المجردة دفعة واحدة فوق الافق فى وقت مفروض من القدر الاول والسادس نحو ثلاثة آلاف نجم واما الظاهر بواسطة النظارة فكثير

جدا وقد قال علماء الهيئة اليوم ان لديهم دلائل واضحة تدل على كون تلك الكواكب شموسا وبعضها أكبر من شمسنا اضعافا وان لكل شمس منها نظاما كشمسنا وان الذى انكشف منها من الثوابت لغاية القدر السادس عشر والاقدمون من قبل ما كانوا يعرفون ذلك وهذا كله ناشئ عن اختلاف آلات الرصد واذا كان سبب الخطأ هو قصر الآلات فلا يؤثر على قواعد العلم ولا يجعلها هذيانا كما يقول

ومردود ثالثا بانه قد وجد بالرصود الدقيقة الآن ان النجوم الثوابت فى بعض جهات السماء آخذة فى ان يقرب بعضها من بعض وفى الجهة المقابلة آخذة فى أن يبعد بعضها عن بعض فتتسع المسافات بينها وهذا يدل على استمرار التغير فى ابعاد الكواكب الثوابت وبذلك لا يتحد جهة الارصاد عند جميع من رصدوا فيحصل لاختلاف بينهم وهذا السبب لا يدل على بطلان علم الاحكام

ومردود رابعا بانه لبعد النجوم الثوابت عنا جدا يعسر جدا قياس حركاتها واذا أخذنا قطر فلك الارض قاعدة وطوله مائة وأربعة وثمانون مليون ميل وراقبنا نجما منها والارض فى الجدى مثلا ثم بعد ما تبلغ الجانب الآخر من فلكها وهى فى السرطان راقبناه أيضا لا نرى أقل تغيير فى موقعه أى أن خط طوله مثل طول قطر فلك الارض لا يعطى رؤية بعد مع النجم وذلك دليل على بعد لا يدركه العقل فان أقرب الثوابت الينا يصل الينا نوره فى مدة ثلاث سنين ونصف مع أن نور الشمس يصل الى الارض فى أقل من عشرة دقائق وبيننا وبينها اثنان وتسعون مليونا من الميل ومن ذلك يظهر جيدا سبب خطأ بعض المتقدمين واختلافهم وان منشأه الخطأ فى الارصاد ومما لا شك فيه أن مبنى علم الاحكام فى كثير من الاحوال على حلول الكواكب السيارة فى البروج والمنازل والنجوم الشمالية والجنوبية منها وكلها من النجوم الثوابت وعلى رصد غير تلك النجوم أيضا من الثوابت فطبعا كل فريق من هؤلاء الرؤساء وغيرهم بنوا أحكامهم على ما وصلوا اليه منها بالآلات الرصدية التى كانت موجودة فى عصرهم وقد قلنا أن كثيرا من الكواكب الثوابت ان لم تكن كلها لم يضبطوا حركاتها التى باختلافها تختلف الاوضاع والمواقع خصوصا انها شموس وبعضها أكبر من شمسنا ولكل واحدة منها نظام شمسى كشمسنا وهذا النظام لم يكتشف لغاية الآن لبلوغه غاية البعد مما لا يتصوره عقول البشر ولكون نظام كل شمس أجراما مظلمة بذاتها تستمد نورها من شمسها كنظام شمسنا وقد قالوا ذلك بطريق الاستنتاج العقلى الذى قضت به حكمة الحكيم وانه لا يخلق هذه الشموس عبثا وباطلا ولذلك لم يهتم فلاسفة اوربا بعلم الاحكام وأنكروه وهذا كله انما يقتضى عدم امكان تعيين أثر خاص لكوكب خاص لان ذلك لا يكون الا اذا عرفت حركة ذلك الكوكب ومقدار ما يقطعه فى سيره من الدرج والدقائق والثوانى وقد اشترط بعضهم فى ذلك أيضا معرفة ما بعد الثوانى من الثوالث وما دون ذلك ولكن هذا كله شئ والقول بنسبة التأثير للكواكب على وجه الاجمال وبعلم الاحكام وصحة قواعده شئ آخر ولا بأس بالقول بذلك مع اعتقاد أن الفاعل هو الله تعالى وانه فاعل مختار وتكون نسبة الآثار اليها داخلة فى تسخير الله تعالى هذه النجوم لنا فى ذلك كما سخرها لنا فى غيره من الآثار التى تجرى على الامر الطبيعى ولا فرق عند العقل بين هذا وذاك والكل منه تعالى واليه

وأما قول الالوسى وهو مما لا يكاد يصح لان طريق صحته الى آخره فنقول فيه ان أردت نسبة التأثير للكواكب بالكيفية المذكورة على وجه الاجمال فنختار أن أسباب ذلك ثابتة بالحس الصادق وهى ما قدمه واعترف به مما نجده من اختلاف الاقاليم حرارة وبرودة واعتدالا وان اختلاف مناطق الارض على هذه الكيفية تابع لاختلاف مناطق السماء وحركات الكواكب بمشاهدة حصول ذلك وتكراره على الدوام مدى الايام والشهور والاعوام بدون تخلف وان أردت نسبة الآثار على وجه التفصيل ومعرفة كل كوكب وما يترتب

عليه من الاثر على وجه التعيين فهذا مما لم يدعه احد ولا يدعيه وان أردت على وجه التفصيل بمعنى معرفة نسبة بعض الآثار لبعض الكواكب فذلك ثابت فى بعض الكواكب كالشمس والقمر والكواكب السيارة المشاهدة فى السماء بالعين المجردة أو مع آلات كالنظارات المعظمة وبذلك علمنا حركاتها وانتقالاتها ومقدار ما يقطعه كل واحد منها فى سيره ووقفنا على اوضاعها ومواقعها بالارصاد وآلاته التى كان يستعملها الاقدمون لانها كانت كافية فى ذلك بدليل ان هذا النظام الذى نشاهده فيها متفق عليه بين المتقدمين وعلماء الهيئة اليوم واما ما عدا هذه الكواكب القريبة منا المعروفة للمتقدمين والمتأخرين من الكواكب البعيدة عنا مثل اكثر النجوم الثوابت فذلك مما لا وقوف لاحد عليه الآن على وجه التفصيل التام الكافى فيما ذكر وذلك لان المتقدمين منهم من لم يتعرض اليه اصلا لعدم معرفته وعدم ظهوره فى زمنه وعدم وجود النظارات القوية التى تعين النظر على ابصار مثل ذلك فى عصورهم ولان المتأخرين وهم علماء الهيئة اليوم لم يعتنوا بعلم الاحكام ولم يتعرضوا للبحث فيه وفيما يتوقف عليه أو يترتب عليه بناء على اعتقادهم عدم صحته ولذلك لم يتكلموا فى تأثير الكواكب فى العالم السفلى الا فيما يجرى على الامر الطبيعى من الآثار مثل تأثيرها فى حرارة بعض المناطق وبرودة بعضها واعتدال البعض ومثل الكسوف والخسوف وحجبهما عنا ضوء الشمس والقمر وقد تكلموا كذلك فيما يتعلق بتأثير القمر والشمس فى مد البحار وجزرها على كثير غير ذلك وأما ما زعمه بعضهم من ان مجموع الاتصالات ونسب الكواكب بعضها البعض غير شرط فى التأثير لتتوقف التجربة على تكراره بل يكفى بعض الاتصالات وقد يكفى واحد منها وذلك متكرر فى أزمنة قليلة اى قريبة فيتأتى ان يعلم مثلا ان رداءة السفر وقد نزل القمر برج العقرب تستند الى هذا النزول بالتجربة فاننا وجدنا تكرار ذلك وترتب الرداءة عليه كل مرة وهذا هو التجربة وكذا يقال فى نظائره اه فمراده منه ان ذلك فى بعض الحوادث وفى الكواكب التى كالقمر والشمس من الكواكب السيارة المشهورة التى علمت حركاتها ومقادير سيرها وانتقالاتها وأوضاعها وضبطت للمتقدمين والمتاخرين * واما انكار الالوسى للتجربة ودعواه ان التجارب التى دلت على كذب ما يقولون بوقوع خلافه اضعاف التجارب التى دلت على صدقه وما ساقه دليلا على ذلك مما وقع للامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه سنة سبع وثلاثين الى ما ساقه من مثل ذلك فهذا ليس بشئ لان اللازم بطلان التجربة التى ادعاها هؤلاء ان يحقق بالضبط نزول القمر مثلا فى برج العقرب وتخلف الرداءة عنه بلا مانع وتحقق كل ما ادعوه من هذا القبيل ويثبت التخلف واما مجرد اخبار بعض المنجمين بشئ من هذا القبيل وتخلفه فلا يدل على بطلان التجربة الا ترى اننا نثبت بالتجربة حصول الاسهال عند أخذ بعض العقاقير وتكرار ذلك المرة بعد المرة ولكن قد يتخلف ذلك فى شخص او شخصين لموانع او لغلط فى كيفية التعاطى أو وقته على انه لا يمكن تحقق دعوى اجماع الحذاق فى ذلك العصر فى جميع انحاء المسكونة بل فى القارة التى فيها على بن ابى طالب كرم الله وجهه على انهم اخبروا الامام رضى الله عنه ومن أين ثبت للالوسى ان هؤلاء الذين اخبروا الامام رضى الله عنه هم من الحذاق فضلا عن ان يكونوا جميع الحذاق ولم لا يقال انهم ليسوا من الحذاق فى شئ بدليل مخالفة مدينة العلم لهم وقوله نخرج ثقة بالله تعالى وتوكلا عليه سبحانه وتكذيبا للمنجم وبدليل تخلف خبرهم فجاز ان يكون على رضى الله عنه علم ان السفر وان كان رديئا اذا نزل القمر برج العقرب لكن هؤلاء الحذاق قد اخطأوا فى بيان رداءة السفر بقتله وقهره وقد فهم الامام ذلك على انه ان لم يكن فى رداءة السفر الا ما وقع من قتال اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم بعضا وعدم تمام الامر لعلى رضى الله عنه فى هذا السفر على الوجه الذى كان يريده وان قتله رضى الله عنه انما كان من آثار هذا السفر وهذه الفتنة التى لا يزال شررها يستطير وشرها يتطاير الى يومنا هذا وقد عادت على المسلمين بانشقاقهم وتفرقهم شيعا عملا واعتقادا الى ان يأتى الله بامره لكفى ذلك فى رداءة هذا السفر من الامام

ولايستطيع الالوسى ان ينكران عليا رضى الله عنه وان لم يغلب فى الحرب والقتال لكنه غلب بالحيلة وقتل غيلة بعد ذلك بسبب هذا السفر وماترتب عليه من شق عصا المسلمين

على أن بعض علماء الاحكام وان قال أن مجموع الاتصالات ونسب الكواكب بعضها الى بعض غير شرط فى التأثير لتتوقف التجربة على تكراره إلى آخر ماذكره هذا البعض لكنهم قالوا قد يقترن بهذا الكوكب مايمنع تأثيره وقد لايلتفت إليه الحاسب فيخطئ وان كان حاذقا * والظاهر أن كل ماساقه الالوسى من الوقائع التى تبين فيها الخطأ فضلا عن أنها حكايات لاتصلح أن تكون حجة على بطلان العلم هى أيضا من القبيل الذى وقع لعلى رضى الله عنه على أن أهل العقائد الحقة من هؤلاء القوم لايدعون أن ذلك لايتخلف بل غاية مايقولون أن نزول القمر مثلا فى برج كذا أو منزلة كذا دليل وعلامة على رداءة السفر وان كان ذلك قد يتخلف كما يؤخذ مما قدمناه عن صاحب الهداية من أنهم يستدلون بحركات الكواكب على الحوادث كاستدلال الطبيب بجس النبض على الصحة والمرض

ثم قال الالوسى وذكر الامام الرازى عليه الرحمة أن المثبتين لعلم الاحكام والتأثيرات أى من الاسلاميين احتجوا من كتاب الله تعالى بآيات وهى أنواع * النوع الاول الآيات الدالة على تعظيم الكواكب فمنها قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) وأكثر المفسرين على أن المراد هى الكواكب التى تقبل راجعة تارة ومستقيمة أخرى ومنها قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) فقد صرح سبحانه بعظم هذا القسم وذلك يدل على غاية جلالة مواقع النجوم ونهاية شرفها ومنها قوله سبحانه (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) قال ابن عباس الثاقب هو زحل لانه يثقب بنوره سمك السموات السبع ومنها قوله سبحانه (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) فقد بين سبحانه إلهيته بكون هذه الكواكب تحت تدبيره وتسخيره * النوع الثانى مايدل على وصفه تعالى بعض الايام بالنحوس كقوله سبحانه (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات) النوع الثالث الآيات الدالة على أن لها تأثيرا فى هذا العالم كقوله تعالى (فالمدبرات أمرا) وقوله تعالى (فالمقسمات أمرا) قال بعضهم المراد هذه الكواكب * والرابع الآيات الدالة على أنه تعالى جعل حركات هذه الاجرام وخلقها على وجه ينتفع بها فى مصالح هذا العالم كقوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق) وقوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) النوع الخامس أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تمسك بعلم النجوم فقال سبحانه (فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم) السادس أنه تعالى قال (لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون) ولايكون المراد كبر الجثة لان كل واحد يعلمه فوجب أن يكون المراد كبر القدر والشرف وقال سبحانه (ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا) ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لان هذا القدر حاصل فى تركيب البعوضة ودلالة حصول الحياة فى بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الاجرام الفلكية عليه لان الحياة لايقدر عليها غيره تعالى وجنس التركيب يقدر عليه الغير فلما خصها سبحانه بهذا التشريف المستفاد من قوله تعالى (ربنا ماخلقت هذا باطلا) علمنا أن فى تخليقها أسرارا عالية وحكما بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها ويقرب من هذه الآية قوله تعالى (وماخلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) ولايمكن أن يكون المراد أن الله تعالى خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لان كونها دالة على الافتقار الى الصانع أمر ثابت لذاتها لان كل متحيز محدث وكل محدث مفتقر

الفاعل فثبت أن دلالة المتحيزات على وجود الفاعل أمر ثابت لذواتها وأعيانها وما كان كذلك لم يكن سبب الفعل والجعل فلم يمكن حمل الآية على هذا الوجه فوجب حملها على الوجه الذى ذكر * النوع السابع روى أن عمر بن الخيام كان يقرأ كتاب المجسطى على أستاذه فدخل عليهم واحد من المتفقهة فقال ماتقرأون فقال عمر نحن نبحث فى آية من كتاب الله تعالى (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) فنحن ننظر كيف خلق الله السماء وكيف بناها وكيف صانها عن الفروج * الثامن أن إبراهيم عليه السلام لما استدل على إثبات الصانع بقوله ربى الذى يحيى ويميت قال له النمروذ أتدعى أنه يحيى ويميت بواسطة الطبائع والعناصر أولا بواسطتها فان ادعيت الاول فذلك مما لايجدى البتة لان كل مايحدث فى هذا العالم فهو بواسطة العناصر والحركات الفلكية وإن ادعيت الثانى فمثل هذا الاحياء والاماتة حاصل منى ومن كل أحد وهو المراد بقوله أنا أحيى وأميت ثم ان ابراهيم عليه السلام لم ينازع فى كون هذه الحوادث السفلية مرتبطة بالحركات الفلكية بل أجاب بان الله تعالى هو المبدأ لتلك الحركات فيكون الفعل منه سبحانه حقيقة والواحد منا لايقدر على تحريك الافلاك على خلاف التحريك الالهى وهذا هو المراد بقوله (فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وإذا عرفت نهج الكلام فى هذا الباب عرفت أن القرآن مملوء من تعظيم الاجرام الفلكية وتشريف الكرات الكوكبية * وأما الاخبار فكثيرة منها ماروى أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما عند قضاء الحاجة ومنها أنه لما مات ولده صلى الله عليه وسلم ابراهيم انكسفت الشمس فقال الناس إنما انكسفت لموت إبراهيم فقال عليه الصلاة والسلام إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى الصلاة * ومنها ماروى ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال * إذا ذكر القدر فامسكوا وإذا ذكر أصحابى فامسكوا وإذا ذكر النجوم فامسكوا ومن الناس من روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لاتسافروا والقمر فى العقرب ومنهم من رويه عن على كرم الله وجهه وان كان المحدثون لايقبلونه وأما الآثار فكثيرة فعن على كرم الله وجهه أن رجلا أتاه آخر الشهر فقال أريد الخروج فى تجارة فقال تريد أن يمحق الله تجارتك استقبل هلال الشهر بالخروج * وعن عكرمة أن يهوديا منجما قال له ابن عباس ويحك تخبر الناس بما لاتدرى فقال ان لك ابنا فى المكتب يحم غدا ويموت فى اليوم العاشر فقال ابن عباس ومتى تموت أنت قال على رأس السنة ثم قال له ولاتموت أنت حتى تعمى فكان كل ذلك * وعن الشعبى قال قال ابو الدرداء لقد فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا ولا طائر يطير بجناحيه الا ونحن ندعى فيه علما وليست الكواكب موكلة بالصلاح والفساد ولكن فيها دليل بعض الحوادث عرف ذلك بالتجربة * وجاء فى الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم عليه السلام وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل بيت وتفرقوا عنه فى الارض فكان يغتم لخفاء خبرهم فأكرمه الله تعالى بهذا العلم فكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم نظر فى النجوم فعرفه وعن ميمون بن مهران انه قال إياكم والتكذيب بالنجوم فانه من علم النبوة وروى عن الشافعى انه كان عالما بالنجوم وجاء لبعض جيرانه ولد فحكم له بان هذا الولد ينبغى أن يكون على عضوه الفلانى خال صفته كذا وكذا فوجد الامر كما قال وروى ابن اسحاق أن المنجمين أخبروا فرعون انه سيجيء ولد من بنى إسرائيل يكون هلاكه على يده وكذا كان كما خصه الله تعالى يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم وأما المعقول فهو أن هذا العلم ماخلت عنه ملة من الملل ولا أمة من الامم ولم يزالوا مشتغلين به معولين عليه فى معرفة المصالح ولو كان فاسدا بالكلية لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه * والتجارب فى هذا الباب أكثر من أن تحصى انتهى كلام الرازى

قال الالوسى ولعمرى لقد نثر الكنانة ونفض الجعبة واستفرغ الوسع وبذل الجهد وروج وبهرج وقعقع

وفرفع ومن غير طحن جعجع وجمع بين مايعلم بالضرورة إنه كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ومايعلم إنه بالضرورة خطأ فى تأويل كلام الله تعالى ومعرفة مراده سبحانه ولا يروج ماذكره الا على مفرط فى الجهل أومقلد لاهل الباطل من المنجمين وإن اردت الايضاح واحببت الاتضاح فاسمع لما نقول (ماذكره من الاستدلالات أوهى من بيوت العنا كب وأشبه شىء بنار الحباحب * وأما الاستدلال بقوله فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس ففيه انا لا نسلم أن هناك قسما بالنجوم فقد روى عن ابن مسعود أن المراد بالخنس بقر الوحش وهى رواية عن ابن عباس واختاره ابن جبير وحكى الماوردى انها الملائكة واذا سلم ذلك بناء على انه الذى ذهب اليه الجمهور فاى دلالة فيه على التأثير وقد أقسم سبحانه بالليل والنهار والضحى ومكة والوالد وماولد والفجر وليال عشر والشفع والوتر والسماء والارض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والمرسلات والعاصفات والناشرات والنازعات والفارقات والناشطات والسابحات والسابقات والتين والزيتون وطور سنين الى غير ذلك فلو كان الاقسام بشىء دليل على تأثيره لزم أن جميع ماأقسم به تعالى مؤثر وهم لايقولون به وان لم يكن دليلا فالاستدلال به باطل ومثله فى ذلك الاستدلال بقوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وقد فسر غير واحد مواقع النجوم بمنازل القرآن ونجومه التى نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم فى مدة ثلاث وعشرين سنة وكذا الاستدال بقوله سبحانه والسماء والطارق وأما قوله تعالى فالمدبرات أمرا فلم يقل أحد من الصحابة والتابعين وعلماء التفسير انه أقسام بالنجوم فهذا ابن عباس وعطاء وعبد الرحمن ابن سابط وابن قتيبة وغيرهم قالوا إن المراد بالمدبرات أمرا الملائكة حتى قال ابن عطية لاأحفظ خلافا فى ذلك

أقول ان الالوسى نفسه قال فى تفسير هذه الآية بعد ماذكر أن المراد بالمتعاطفات الملائكة مانصه وروى حمل النازعات على النجوم عن الحسن وقتادة والاخفش وابن كيسان وابى عبيدة وحمل الناشطات عليها عن ابن عباس والثلاثة الاول وحمل السابحات عليها من الاولين وحملها أبو روق على الليل والنهار والشمس والقمر منها والمدبرات عليها عن معاذ واضافة التدبير اليها مجاز غاية الامر انه قال بعد ذلك وفى حمل المدبرات على النجوم ايهام صحة مايزعمه أهل الاحكام وجملة المنجمين وهو باطل عقلا ونقلا اه فزعمه هنا انه لم يقل أحد من الصحابة والتابعين وعلماء التفسير انه اقسام بالنجوم غريب ويدل على انه نسى ما كتبت يداه ولو تتبعنا كل ماقاله لظهر فيه مثل هذا النسيان ثم قال وكذلك المقسمات أمرا فتفسيرها بالنجوم تفسير المنجمين ومن سلك سبيلهم وهو تفسير بالرأى والعياذ بالله تعالى وأما وصفه تعالى بعض الايام بالنحوسة كما فى الآية التى ذكرها فليس ذلك لتأثير الكواكب ونحوستها بحسب مايزعم المنجم بل لان الله تعالى عذب أعداءه فيها فهى أيام مشائيم على الاعداء فوصف تلك بنحسات كوصف يوم القيامة بانه عسير على الكافرين وكذا يقال فى قوله تعالى فى يوم نحس مستمر وليس مستمر فيه صفة يوم بل هو صفة نحس اى نحس دائم لايقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن اهلها والقول بانه صفة يوم وان المراد يوم اربعاء آخر الشهر وانه نحس ابدا غلط ولايكاد المنجم يزعم نحوسة يوم الاربعاء آخر الشهر ولو شهر صفر ابدا بل كثيرا مايحكم بغاية سعده حسبما تقتضيه الاوضاع الفلكية بزعمه وأما استدلاله بالآيات الدالة على انه سبحانه وضع حركات هذه الاجرام على وجه ينتفع بها فى مصالح هذا العالم فمن الطرائق اذ الاليق لو صح زعم المنجم ان يذكر فى الآية ماتقتضى النجوم من السعد والنحس وتعطيه من السعادة والشقاوة وتهبه من الاعمار والارزاق والعلوم والمعارف وسائر مافى العالم من الخير والشر فان العبرة بذلك اعظم من العبرة بمجرد الضياء والنور ومعرفة عدد السنين والحساب

واما ماذكره عن ابراهيم عليه السلام من انه تمسك بالنجوم حين قال انى سقيم فسقيم جدا وقد سمعت ماقيل فى الآية ولاينبغى ان يظن بامام الحلفاء وشيخ الانبياء وخليل رب الارض والسماء انه كان يتعاطى علم

النجوم ويأخذ منه احكام الحوادث ولو فتح هذا الباب على الانبياء عليهم السلام لاحتمل ان يكون جميع اخبارهم عن المستقبلات من اوضاع النجوم لا من الوحى وهو كما ترى واما الاستدلال بقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وأن المراد كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ففى غاية الفساد فان المراد من الخلق هاهنا الفعل لا المفعول والآية للدلالة على المعاد أى أن الذى خلق السموات والارض قادر وخلقها اكبر من خلقكم كيف يعجزه ان يعيدكم بعد الموت ونظيرها قوله تعالى اوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وأين هذا من بحث أحكام النجوم وتأثيراتها ومثل هذا الاستدلال بقوله تعالى و يتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا فان خلق السموات والارض من أعظم الادلة على وجود فاطرهما وكمال قدرته وحكمته وتفرده بالربوبية ومن سوى بينهما وبين البقة فقد كابر ولذا ترى الاشياء الضعيفة كالبعوضة والذبابة والعنكبوت انما تذكر فى سياق ضرب الامثال مبالغة فى الاحتقار والضعف ولا تذكر فى سياق الاستدلال على عظمة ذى الجلال جل شأنه على ان الآية لو دلت على ان للكواكب تاثيرا لدلت على ان للارض تاثيرا ايضا كالكواكب وهم لم يقولوا به وماذكره بعد من دلالة حصول الحياة فى ابدان الحيوانات اقوى من دلالة السموات والارض الى آخر ماقاله فى حيز المنع ونظير ذلك الاستدلال بقوله تعالى وماخلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا فانه لايدل ايضا على ان للكواكب تاثيرا وغاية ماتدل عليه هذه الآية ونظائرها ان تلك المخلوقات فيها حكم ومصالح وليست باطلة اى خالية عن ذلك ونحن نقول بما تدل عليه الآية ولكن لانقول بان تلك الحكم هى الاسعاد والاشقاء وهبة الاعمار والارزاق الى غير ذلك مما يزعمه المنجمون بل هى الآثار الظاهرة فى عالم الطبيعة على ماسمعت ونحوها كالدلالة على وجود الصانع وكثير من صفاته جل شانه التى ينكرها الكفرة ولا مانع من أن يقال خلق الله كذا لتظهر دلالته على كذا ولاتتعين العبارة التى ذكرها على انه لابأس بها عند تدقيق النظر ولعل ماقاله من فروع كون الماهيات غير مجعولة والكلام فيه شهير *

وأما ماذكره عن عمر بن الخيام فهو على طرف الثمام واما ماذكره فى محاجة ابراهيم عليه السلام وتقرير المناظرة على ماقرره فلم يقل به أحد من المفسرين سلفهم وخلفهم بل قد يقطع بانه لم يخطر بقلب المشرك المناظر وماهو الا تفسير بالرأى والتشهى نعوذ بالله من ذلك وأما استدلاله بما روى من نهيه صلى الله عليه وسلم عن استقبال الشمس والقمر عند قضاء الحاجة فبعيد عن حاجته بل لا دلالة للنهى المذكور على تأثير الكواكب الذى يزعمونه والا لدل النهى عن استقبال الكعبة عند قضاء الحاجة على ان لها تأثيرا على ان بعض الاجلة (وهو ابن القيم) قد ذكر أن ذلك النهى لم ينقل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة واحدة لا باسناد صحيح ولا ضعيف ولا متصل ولا مرسل وانما قال بعض الفقهاء فى آداب التخلى ولا تستقبل الشمس والقمر فقيل لان ذلك ابلغ فى التستر وقيل لان نورهما من نوره تعالى وقيل لان اسم الله تعالى مكتوب عليهما واما ماذكره من حديث كسوف الشمس يوم موت ابراهيم وقوله عليه الصلاة والسلام ماقاله فصحيح ولكن لا يدل على مايزعمه المنجمون وصدر الحديث يدل على ان الشمس والقمر أيتان وليسا ربين ولا الهين ففيه إشارة الى نفى التصرف عنهما وفى قوله عليه الصلاة والسلام لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته قولان احدهما ان موت احد وحياته لايكونان سببا لانكسافهما وثانيهما لايحصل عن انكسافهما موت احد ولا حياته وانما ذلك تخويف من الله تعالى لعباده اجرى العادة بحصوله فى أوقات معلومة بالحساب لطلوع الهلال وابداره وسراره فاما سبب كسوف الشمس فتوسط القمر بين جرم الشمس وابصارنا كسحابة تمر تحتها فان لم يكن للقمر عرض ستر عنا كل الشمس وان كان له عرض فبقدر مايوجبه عرضه واما سبب خسوف القمر فهو توسط الارض بينه وبين

الشمس حتى يصير ممنوعا من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الارض المخروط فى عمره فقد يقع كله فى المخروط وقد يقع بعضه فيه ويبقى بعضه خارجا الى آخر ماقرر فى موضعه وليس فى الشرع مايأباه والوقوف على وقت الكسوف والخسوف ومقدارهما امر سهل ولا يلزم من صدق المنجم فى ذلك صدق المنجم فيما يزعم من التأثيرات وما الاخبار بهما إلا كالاخبار بوقت طلوع الشمس فى يوم كذا فى ساعة كذا وكالاخبار بوقت الهلال والابدار والسرر * ثم اننا لا ننكر ان الله تعالى يحدث عند الكسوفين من اقضيته واقداره ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم ويجعل الكسوف سببا لذلك ولهذا امر صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالفزع الى الصلاة والعتاقة والصدقة لان هذه الاشياء تكون لرفع موجب الكسوف الذى جعله الله سببا لما جعله فلو لا انعقاد سبب التخويف لما امر عليه الصلاة والسلام بدفع موجبه بهذه العبادات ولله تعالى فى ايام دهره أوقات يحدث فيها مايشاء من البلاء والنعماء ويقضى من الاسباب بما يدفع موجب تلك الاسباب لمن قامت به أو يقلله أو يخففه فمن فزع الى تلك الاسباب أو بعضها اندفع عنه الشر الذى جعل الله تعالى الكسوف سببا له أو بعضه ولهذا قل مايسلم اطراف الارض حيث يخفى الايمان وماجاء به الرسل فيها من شر عظيم يحصل بسبب الكسوف ويسلم منها الاماكن التى يظهر فيها نور النبوة والقيام بماجاءت به الرسل أو يقل فيها جدا وقد جاء انه صلى الله عليه وسلم لما كسفت الشمس فى عهده قام فزعا مسرعا يجر رداءه ونادى فى الناس الصلاة جامعة وخطبهم بتلك الخطبة البليغة وأخبر انه لم ير كيومه ذلك فى الخير والشر وأمرهم عند حصول مثل تلك الحالة بالعتاق والصدقة والصلاة والتوبة وما ذاك إلا لكونه عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بالله وبأمره وشأنه وتعريفه أمور مخلوقاته وتدبيره وأنصحهم للامة واشفقهم على العباد ولم يبين لهم عليه الصلاة والسلام أسباب الكسوفين وحسابهما لان الجهل بذلك لايضر والعلم به لاينفع نفع العلم بما جاءت به الرسل عليهم السلام وقد يقال الامر بالصلاة عندهما كالامر بالصلاة عند طلوع الفجر والغروب والزوال مع تضمن ذلك رفع موجبهما الذى جعلهما الله تعالى سببا له * ومن الناس من انكر أن يكون الكسوفان سببين لشيء من البلاء أصلا وان سبب حصولهما ليس ماطال فيه المنجمون ومر بعضه بل السبب هو تجلى الله تعالى عليهما لما أخرجه ابن ماجه فى سننه والامام احمد والنسائى من حديث النعمان بن بشير قال انكسفت الشمس على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فخرج فزعا يجر ثوبه حتى أتى المسجد فلم يزل يصلى حتى انجلت ثم قال ان ناسا يزعمون ان الشمس والقمر لاينكسفان الا لموت عظيم من العظماء وليس كذلك ان الشمس والقمر لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا تجلى الله تعالى لشيء من خلقه خشع له * وان الامر بالصلاة لظهور آثار تجلى الجلال فى هذين الجرمين العظيمين اوهو كالامر بالصلاة عند غروب الشمس وطلوع الفجر مثلا وحكمته كحكمته والقائلون بهذا مكابرون للفلاسفة فى اشياء لاينبغى المكابرة فيها ولعلها تضر بالدين وتصير سببا لطعن الملحدين فيكابرون فى كون الافلاك مستديرة والارض كروية وان نور القمر مستفاد من ضياء الشمس وان الكسوف القمرى عبارة عن انمحاء نور القمر بتوسط الارض بينه وبين الشمس من حيث ان نوره مقتبس منها والكسوف الشمسى عبارة عن وقوع جرم القمر بين الناظر والشمس عند اجتماعهما فى العقدتين على دقيقة واحدة وقولهم بتاثير الاسباب المحسوسة فى مسبباتها واثبات القوى والطبائع والافعال والانفعالات الى غير ذلك مما تقوم عليه الادلة اليقينية ولا تعارضه النصوص القطعية وماذكروه من الحديث تعقبه حجة الاسلام الغزالى فقال ان زيادة أن الله اذا تجلى الى آخره لم يصح نقلها فيجب تكذيب قائلها ولو صحت لكان تاويلها أهون من مكابرة أمور قطعية فكم من ظواهر أولت بالادلة

العقلية التى لم تبلغ فى الوضوح الى هذا الحد وأعظم مايفرح به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بان هذا وأمثاله على خلاف الشرع فيسهل عليه ابطال الشرع ان كان شرطه أمثال ذلك اه وليس الامر فى هذا كما قال من عدم الصحة فان اسنادها لامطعن فيه فان ماجه يروى الحديث بهذه الزيادة عن محمد بن المثنى وأحمد بن ثابت وحميد بن الحسن وهم يروونه عن عبد الوهاب عن خالد الحذاء عن ابى قلابة عن النعمان بن بشير وكل هؤلاء ثقات حفاظ نعم الحديث الخالى عنها رواه بضعة عشر صحابيا منهم على كرم الله وجهه وابن عباس وعائشة واسماء اختها وابى بن كعب وجابر بن عبد الله وسمرة بن جندب وقبيصة الهلالى وعبد الله بن عمرو ومن هنا خاف بعض الاجلة أن تكون مدرجة فى الحديث لكنه خلاف الظاهر وحينئذ يقال ان كسوف الشمس والقمر يوجب لهما ضعف سلطانهما وبهائهما وذلك يوجب لهما من الخشوع والخضوع لرب العالمين وعظمته وجلاله سبحانه مايكون سببا لتجليه عز وجل لهما ولا يستنكر أن يكون تجلى الله سبحانه وتعالى فى وقت معين كما يدنو سبحانه من أهل الموقف عشية عرفة وكما ينزل تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا عند مضى نصف الليل فيحدث لهما ذلك التجلى خشوعا آخر ليس هو الكسوف فانه انما حدث بالسبب الذى عرفت ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى اذا تجلى لهما انكسفا بل قال إذا تجلى الله لشئ من خلقه خشع له وفى رواية الامام أحمد إذا بدا الله لشئ من خلقه خشع له فهاهنا خشوعان خشوع أوجبه كسوفهما الحادث من وضعهما الخاص وخشوع أوجبه تجليه تعالى لهما لذلك الخشوع الذى أوجبه الكسوف وهذا توجيه لطيف المنزع يقبله العقل المستقيم والفطرة السليمة

اقول هو توجيه لاحاجة اليه على طوله بل الظاهر ان قوله صلى الله عليه وسلم فاذ تجلى الله الخ مرتب بالفاء على ماقبله فهو كالتعليل لقوله صلى الله عليه وسلم وليس كذلك ان الشمس والقمر الى آخره ويكون ذلك بيانا لان سبب الكسوف هو التجلى وان الكسوف من نوع الخشوع والخشوع فى كل شيء بحسبه فالمراد منه هنا الانقياد لنواميس الله تعالى والاسباب التى وضعها ليترتب عليها آثارها فلا ينافى ماقاله علماء الهيئة فى سبب الكسوف بل هو مؤيد له ومبين لعدم تخلف الاسباب عن المسببات مادامت بوصف السببية والمسببية فالمعنى فاذا اراد الله ان يجعل شيئا مسببا لشيء كان ما أراد بدون تعاصى المسببات عن ترتبها على أسبابها اه

وأما استدلاله بحديث ابن مسعود ففيه على ماقيل ان الحديث لو ثبت لكان حجة عليه لاله اذ لو كان علم النجوم حقا لم يأمر صلى الله عليه وسلم بالامساك عند ذكر النجوم فالظاهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يامر بذلك الا لان الخوض فى ذلك خوض فيما لا علم للخائض فيه فتأمل وأما حديث النهى عن السفر والقمر فى العقرب فصحيح من كلام المنجمين دون رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم وروايته عن على كرم الله وجهه كذب أيضا والمشهور عنه خلاف ذلك كما سمعت فى قصة خروجه لقتال الخوارج وأما ما احتج به من الأثر عن على كرم الله وجهه أن رجلا أتاه الى آخره فلا يعلم ثبوته عنه رضى الله عنه والكذابون كثير اما ينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها إليه والى أهل بيته ثم لو صح عنه فليس فيه تعرض لثبوت أحكام النجوم بوجه وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اللهم بارك لامتى فى بكورها ونسبة أول الشهر اليه كنسبة أول النهار اليه وكان صخر راوى الحديث إذا بعث تجارة له بعثها فى أول النهار فاثرى وكثر ماله ولا يبعد أن يكون أول السنة كاول النهار أيضا فللاوائل مزيد القوة كما هو مشاهد فى الشباب والشيخوخة ولله تعالى تجليات فى الازمنة والامكنة والاشخاص وليس ذلك من تأثير الكواكب فى شيء ومثل هذا يقال فيما ذكره الكرمانى وقدمر وأما ماذكره عن اليهودى الذى أخبر ابن عباس رضى الله عنه فلا نسلم صحته ولو سلم ذلك فهو من جنس أخبار الكهان بشئ

من المغيبات وقد أخبرابن الصياد النبي صلى الله عليه وسلم بما أخبرفقال عليه الصلاة والسلام إنما أنت من إخوان الكهان*وعلم مقدمة المعرفة لايختص بماذكره المنجمون بل له عدة أسباب يصدق الحكم معها ويكذب*منها الكهانة ومنها المنامات ومنها الفأل والزجر وضرب الحصى والخط والكف والكشف المستند الى الرياضة وهوكشف جزئى عن بعض الحوادث يشترك فيه المؤمن والكافر ومنها غيرذلك وللعمال فى البحر والسعاة ونحوهم فى البرعلامات يعرفون بها أوقات المطر والصحو والبرد والريح وغيرها وقلما يخطئون فى اخبارهم بل صوابهم فى ذلك أكثر من صواب المنجم وأماماذكره من حديث ابى الدرداء فالمحفوظ فيه توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا وماطائر يقلب جناحيه إلا وقد ذكر لنا منه علما وفيه روايات أخر صحيحة أيضا وكلها ليس فيها وليست الكواكب الى آخره فهى من اعظم الادلة على بطلان قول المنجمين اذ لم يذكر النبى صلى الله عليه وسلم من احكام النجوم شيأ ألبتة وقد علمهم علم كل شىء حتى الخراءة

أقول ان كان لم يذكره بمعنى انه لم ينص عليه بخصوصه فسلم ولكن هذا القدر مشترك بين الاحكام وغيرها مما اندرج تحت العموم الذى افادته عبارة الحديث وان كان لم يذكره بمعنى انه لم يدخل فى عموم الحديث فغيرمسلم واذا كان عموم الحديث دخل فيه كل شىء حتى الخرء كما يقول ذلك الألوسى فما الذى اخرج منه أحكام النجوم اللهم ان هذا تحامل لا يرضيك سبحانك اه

ثم قال وأما قوله انه جاء فى الآثار ان أول من اعطى هذا العلم آدم عليه السلام الى آخره فكذب وافتراء على آدم عليه السلام وقد عمل هذا الكاذب المفترى بالمثل السائر اذا كذبت فابعد شاهدك*ونحوه ماروى عن ميمون ابن مهران واما مانسب للشافعى فهو بعض من حكاية ذكرها ابو عبدالله الحاكم فيما الفه فى مناقبه والحكايات التى ذكرت عنه فى احكام النجوم ثلاث*احداها قال الحاكم قرىء على ابى يعلى حمزة ابن محمد العلوى وا كثر ظنى انى حضرته حدثنا ابو اسحاق ابراهيم بن محمد بن العباس الازدى فى آخرين قالوا حدثنا محمد بن ابى يعقوب الجوال الدينورى حدثنا عبدالله بن محمد البلوى حدثنى خالى عمارة بن زيد قال كنت صديقا لمحمد بن الحسن فدخلت معه يوما على هارون الرشيد فسأله ثم انى سمعت محمد بن الحسن وهو يقول ان محمد بن دريس يزعم أنه للخلافة أهل قال فاستشاط هارون من قوله غضبا ثم قال على به فلما مثل بين يديه أطرق ساعة ثم رفع رأسه اليه فقال أيها قال الشافعى ماأيها يا أمير المؤمنين أنت الداعى وأنا المدعو وأنت السائل وأنا المجيب فذكر حكاية طويلة سأله فيها عن العلوم ومعرفته بها الى أن قال كيف علمك بالنجوم قال أعرف الفلك الدائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائى والنارى وما كانت العرب تسميه الانواء ومنازل النيرين والاستقامة والرجوع والنحوس والسعود وهيآتها وطبائعها وماأستدل به فى برى وبحرى وأستدل فى أوقات صلاتى وأعرف مامضى من الاوقات فى امسائى واصباحى وظعنى فى أسفارى ثم ساق العلوم على هذا النحو ومن له علم بالمنقولات يعلم أن هذه الحكاية كذب مختلق وإفك مفترى على الشافعى والبلاء فيها من عند عبدالله بن محمد البلوى فانه كذاب وضاع وهو الذى وضع رحلة الشافعى وذكر فيها مناظرته لابى يوسف بحضرة الرشيد ولم ير الشافعى أبايوسف ولا اجتمع به قط وانما دخل بغداد بعد موته ويشهد بكذبها انها تدل على أن محمدا وشى بالشافعى الى الرشيد وأراد قتله ومحمد أجل من أن ينسب اليه ذلك وتعظيمه للشافعى ومحبته اياه هو المعروف كتعظيم الشافعى له وثنائه عليه وفيها شواهد أخر على الكذب يعرفها العالم بالنقول اذا اطلع عليها كلها*ثانيتها وهى التى أخذت منها ماذكره الامام قال الحاكم قال أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرملة قال كان الشافعى يديم النظر فى كتب النجوم وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت فقال انها تلد الى سبعة وعشرين يوما ويكون فى فخذ الولد الايسر خال اسود

ويعيش أربعة وعشرين يوما ثم يموت وكان الامر كما قال فاحرق بعد ذلك تلك الكتب وماعاود النظر فى شىء منها وهذا الاسناد رجاله ثقات لكن الشان فيمن حدث أبا الوليد عن الحسن بن سفيان أو فيمن حدث الحسن عن حرملة ويدل على كذب الحكاية انها لوصحت لوجب أن تثنى الخناصر على هذا العلم وتشد به الايدى لأن تحرق كتبه ولايعاد النظر فى شىء منها وأن الطالع عند المنجمين طالعان طالع مسقط النطفة وهو الطالع الاصلى الذى يزعمون دلالته على وقت الولادة والحكاية لم تتضمن ان الشافعى نظر فيه ولو كان لتضمنته وطالع الولادة*واخبار الشافعى قبلها ضرورة انه قال تلد الى سبعة وعشرين يوما* وثالثتها قال الحاكم أنبأنى عبدالرحمن عن الحسن القاضى أن زكريا بن يحيي الساجى حدثهم قال اخبرنى احمد بن محمد ابن بنت الشافعى يقول سمعت ابى يقول كان الشافعى وهو حدث ينظر فى النجوم وما نظر فى شىء الافاق فيه فجلس يوما وامرأة تلد فحسب فقال تلد جارية عوراء على فرجها خال اسود وتموت الى كذا وكذا فولدت وكان كما قال فجعل على نفسه ان لا ينظر فيه ابدا وأمر هذه الحكاية كالتى قبلها فان ابن بنت الشافعى لم يلق الشافعى ولا رآه والشأن فيمن حدث بها عنه وايضا طالع مسقط النطفة لم يؤخذ والخبر قبل تحقق طالع الولادة ثم ان تحقق هذه الحكاية ان كان قبل تحقق الحكاية التى قبلها لم تكد تحقق وان كان تحقق تلك قبل لم تكد هذه تحقق كما لا يخفى على المنصف والذى صح عن الشافعى فى امر النجوم انه كان يعرف ما كانت العرب تعرفه من علم المنازل والاهتداء بالنجوم فى الطرقات واما غير ذلك من الاحكام التى يزعمها المنجمون فلا وكان رضى الله عنه شديد الانكار على المتكلمين مزريا بهم حكمه فيهم ان يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل فما تراه يرى فى المنجمين الذين شاع هذيانهم وقبح عند ذوى العقول السليمة شأنهم نعم كانت له رضى الله عنه اليد الطولى فى علم الفراسة وقد خرج الى اليمن لجمع كتبه فجمع منها ما جمع وله فيها حكايات يقضى منها العجب ولعل اخباره بامر المولود لو صح من ذلك العلم والناقل لجهله او لامر آخر اسنده للنظر فى احكام النجوم وقال ماقال

وأماماذكره عن ابن اسحاق أن فرعون كان يقتل أبناء بنى اسرائيل لاخبار المنجمين اياه بانه سيولد لهم مولود يكون هلاكه على يده فهو كما قال بعض الاجلة من أخبار أهل الكتاب ومخالف لروايات أكثر المفسرين فانهم أحالوا ذلك على أخبار الكهان وروى بعضهم أن قومه أخبروه بان بنى اسرائيل يزعمون أنه يولد منهم مولود يكون هلاكه على يده وفى أخبار الكهان ماهو أعجب من ذلك ومنها خبرهم بظهور خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم وانتشار أمره ونحن لا ننكر علم مقدمة المعرفة باسباب مفضية الى مثل ذلك يختلف قوى الناس فى ادراكها وتحصيلها وانما كلامنا مع المنجمين فى اصول علم الاحكام وبيان فسادها وكذب اكثر الاحكام التى يسندونها اليها

واماماذكره فى الاستدلال بالمعقول من انه ماخلت عن هذا العلم ملة من الملل ولا أمة من الامم وانهم لم يزالوا مشتغلين به معولين عليه فى معرفة المصالح الى آخر ماقال ففرية من غير مرية ويا عجبا من دعواه اطباق اهل المشرق والمغرب من اول بناء العالم الى آخره عليه وهم يقولون انما أسست اصوله واوضاعه فى زمن هرمس الهرامسة يعنون به ادريس عليه السلام وهو بعد بناء العالم بكثير وقد رده كثير من الفلاسفة وجمع غفير من اساطين الاسلام حتى انه قد ألف مايزيد عن مائة مصنف فى رده وابطاله وقد قال ابو نصر الفارابى انك لو قلبت اوضاع المنجمين فجعلت الحر باردا والبارد حارا أو السعد نحسا والنحس سعدا والذكر انثى والانثى ذكرا ثم حكمت لكانت احكامك من جنس احكامهم تصيب تارة وتخطئ تارات وقد زيف امرهم ابن سينا فى كتابيه الشفا والنجاه وكذا أبو البركات البغدادى فى كتاب التعبير له*هذا ما اختاره بعض المحققين فى الرد على المنجمين*واعود فأقول الذى أراه فى هذا المقام ويترجح عندى من كلام العلماء الاعلام ان الله عز وجل لم

يخلق شيئا باطلا خاليا عن حكمة ومنفعة بل خلق الاشياء علويها وسفليها جليلها ودنيها مشتملة على حكم لا تحصى ومنافع لا تستقصى وان تفاوتت فى افرادها قلة وكثرة وخص كلا منها بخاصية لا توجد فى غيرها مع اشتراك الكل فى الدلالة على وجوده تعالى ووحدته وعلمه

وللّه فى كل تحريكة * وتسكينة ابدا شاهد
وفى كل شئ له آية * تدل على أنه الواحد

فالاجرام العلوية مشتركة فى هذه الدلالة يختص كل منها بخاصية وشأن الكواكب فى خواصها وتأثيراتها كشأن النباتات والمعدنيات والحيوانات فى خواصها وتأثيراتها فانها ما خاصته فى نفسه غير متوقفة على ضم شئ آخر اليه ومنها ما خاصته متوقفة على ضم شئ آخر اليه ومنها ما اذا ضم اليه شئ اسقط خاصيته وأبطل منفعته ومنها ما يعقل وجه تأثيره ومنها ما لا يعقل ومنها ما يؤثر فى مكان دون مكان وزمان دون زمان ومنها ما يؤثر فى جميع الازمنة والامكنة الى غير ذلك من الاحوال وكونها زينة للسماء لا يستدعى نفى ان يكون فيها منفعة اخرى على حد ما فى الارض فقد قال الله سبحانه (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) مع اشتمال الازهار وغيرها على ما نعلم وما لا نعلم من المنافع وكذلك كونها علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر وكونها رجوما للشياطين ولا أقول ببساطة الافلاك ولا ببساطة الكواكب ولا بانحصارها فيما يشاهد ببصر أو رصد ولا بذكورة بعض ولا بانوثة آخر الى كثير مما يزعمه المنجمون واقول ان الله اودع فى بعضها تاثيرا حسبما اودع فى ازهار الارض ونحوها وانها لا تؤثر الا باذن الله تعالى كما هو مذهب السلف فى سائر الاسباب العادية وان شئت فقل كما قال الاشاعرة فيها وانه لا يبعد ان يكون بعضها علامات لاحداثه تعالى لا بواسطتها فى احد العالمين العلوى والسفلى يعرفه من يوقفه الله عليها من ملائكته وخواص عباده* وارتباط كثير من السفليات بالعلويات مما قال به الاكابر ولا ينكره الامكابر ولا انسب أثرا من الآثار الى كوكب بخصوصه على القطع لاحتمال شركة كوكب او أمر آخر نعم الظاهر يقتضى كثرة مدخلية بعض الكواكب فى بعض الآثار كالقمر فى مد البحار وجزرها فان منها ما يأخذ فى الازدياد حين يفارق القمر الشمس الى وقت الامتلاء ثم انه يأخذ فى الانتقاص ولا يزال نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر الى المحاق ومنه ما يحصل فيه المد فى كل يوم وليلة مع طلوع القمر وغروبه كبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين وكيفيته اذا بلغ القمر مشرقا من مشارق البحر ابتدأ البحر بالمد ولا يزال كذلك الى ان يصير القمر فى وسط سماء ذلك الموضع فاذا زال عن مغرب ذلك الموضع ابتدأ المد من تحت الارض ولا يزال زائدا الى ان يصل القمر الى وتد الارض فحينئذ ينتهى المد منتهاه ثم يبتدىء الجزر ثانيا ويرجع الماء كما كان ومثل المد والجزر بحرانات الامراض فانها بحسب زيادة القمر ونقصانه على معنى كثرة مدخلية ذلك ظاهرا فيها الى أمور كثيرة ولا أقول ان لكوكب تأثيرا فى السعادة والشقاوة ونحوهما ولا يبعد أن يكون كوكب أو كواكب باعتبار بعض الاحوال لنحو ذلك يعرفها بعض الخواص ولا وثوق بما قاله الاحكاميون وكل ما يقولونه ظن وتخمين لا دليل لهم عليه وهم فيما أسسوا عليه أحكامهم متناقضون وفى المذاهب مختلفون فللبابليين مذهب وللفرس مذهب ولاهل الهند مذهب ولاهل الصين مذهب وقد رد بعضهم على بعض وشهد بعضهم على بعض بفساد أصولهم ومبنى أحكامهم فقد كان أوائلهم من الاقدمين وكبار رصادهم من بعد بطلميوس وطمس جاليموحارس ومانالارس قد حكموا حكما فى الكواكب واتفقوا على صحته وأقام الناس على تقليدهم وبقاء الامر على ما قالوه أكثر من سبعمائة سنة فجاء من بعدهم خالد بن عبد الملك المروزى وحسن صاحب الزيج المامونى ومحمد بن الجهم ويحيى بن ابى منصور فامتحنوا ما قالوه

فوجدوهم غالطين واجمعوا على غلطهم وسموا رصدهم الرصد الممتحن ثم حدثت بعدهم بنحو ستين سنة طائفة أخرى وزعيمهم ابو معشر محمد بن جعفر فرد عليهم وبين خطأهم كما ذكره ابو سعيد شاذان المنجم فى كتاب اسرار النجوم له وفيه قلت لابى معشر الذنب بارد يابس فلم قلتم انه يدل على التأنيث فقال هكذا قالوا قلت فقد قالوا انه ليس بصادق اليبس لكنه بارد عفن ملوى كل الاعراض الغائية توهم لا يكون شىء منها يقينا وانما يكون توهم أقوى من توهم ومن تأمل أحوال القوم علم ان ما معهم تفرس يصيبون معه ويخطئون ثم حدثت بعدهم طائفة أخرى بنحو سبعين سنة منهم أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر المعروف بالصوفى فرد على من قبله وغلطه وألف كتابا بين فيه من الاغلاط ما بين وحمله الى عضد الدولة ابن بويه فاستحسنه وأجرى ثوابه ثم جاءت بعد نحو ثلاثين سنة طائفة أخرى منهم كوشيار الديلمى فألف المجمل فى الاحكام وجهل فيه من يحتج للاحكام من الاحكاميين وقال عن صناعة التنجيم هى صناعة غير مبرهنة وللخواطر والظنون فيها مجال الى ان قال ومن المنفردين بعلم الاحكام من يأتى على جزئياته بحجج على سبيل النظر والجدل فيظن انها براهين لجهله بطريق البرهان وطبيعته ثم حدثت طائفة أخرى منهم منجم الحاكم بالديار المصرية المعروف بالفكرى فوضع هو وأصحابه رصدا آخر سموه الرصد الحاكمى فخالفوا فيه أصحاب الرصد الممتحن وبنوا أمر الاحكام عليه ثم حدثت طائفة أخرى منهم أبو الريحان البيروتى مؤلف كتاب التفهيم فى صناعة التنجيم وكان بعد كوشيار بنحو أربعين سنة فخالف من تقدمه وأتى من مناقضاتهم والرد عليهم بما دل على فساد صناعتهم وختم كتابه بقوله فى الخبء والضمير ما أكثر افتضاح المنجمين فيه وما أكثر اصابة الزاجرين بما يستعمل من الكلام وقت السؤال ويرونه باديا من الآثار والافعال على السائل الى آخر ما قال ثم حدثت طائفة أخرى منهم ابو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى وكان بعد البيروتى بنحو ثمانين عاما وكان رأسا فى الصناعة ومع هذا اعترف بان قول المنجمين هذيان ثم حدثت طائفة أخرى بالمغرب منهم ابو اسحاق الزرقال واصحابه وكان بعد ابى الصلت بنحو مائة سنة فخالف الاوائل والاواخر فى الصناعتين الرصدية والأحكامية وآخر ما نعلم حدوثه زيج «لالنت» والقسينى وفيه من المخالفة لما قبله من الازياج ما فيه وقد ذكر فيه تقويم هرشل ومقدار حركته وهو كوكب سيار ظفر به هرشل أحد فلاسفة الافرنج وسماه باسمه ولم يظفر به أحد قبله وهذا الزيج أضبط الازياج فيما يزعم المنجمون اليوم والافرنج على مهارة كثير منهم بعلم الرصد لا يقولون بشىء مما يقول به الاحكاميون الاوائل والاواخر ويسخرون منهم وقد ذكر من يوثق به وجوها تدل على فساد ما بايديهم من العلم وانه لا يوثق به

الاول ان معرفة جميع المؤثرات الفلكية مما لا تتأتى أما أولا فلانه لا سبيل الى معرفة الكواكب الا بواسطة القوى الباصرة واذا كان المرئى صغيرا أو فى غاية البعد يتعذر رؤيته فان أصغر الكواكب التى فى فلك الثوابت الذى لا تستقل بها قوة البصر مثل كرة الارض بضع عشرة مرة وكرة الارض أعظم من كرة عطارد كذا مرة فلو قدرنا انه حصل فى الفلك الاعظم كواكب كثيرة كل منها كعطارد حجما فكيف ترى ونفى هذا الاحتمال لا بد له من دليل ومع قيامه لا يحصل الجزم بمعرفة جميع المؤثرات وان قالوا جاز ذلك الا ان آثار هذه الكواكب ضعيفة فلا تصل الى هذا العالم قلنا صغر الجرم لا يوجب ضعف الاثر فقد أثبتم لعطارد آثارا قوية مع صغره بالنسبة الى سائر السيارات بل أثبتم للرأس والذنب وسهم السعادة وسهم الغيب آثارا قوية وهى أمور وهمية *وأما ثانيا فالمرصود من الكواكب المرئية أقل قليل بالنسبة الى غير المرصود فمن أين لهم الوقوف على طبيعة غير المرصود* وأما ثالثا فلانه لم

يحصل الوقوف على طبائع جميع المرصود أيضا وقلما تكلموا فى معرفة غير الثوابت التى من القدر الاول والثانى * وأما رابعا فان آلات الرصد لا تفى بضبط الثوانى والثوالث فما فوق ولاشك ان الثانية الواحدة مثل الارض كذا ألف مرة أوأقل أوأكثر ومع هذا التفاوت العظيم كيف الوصول الى الغرض وقد قيل ان الانسان شديد الجرى بين رفعه رجله ووضعه الاخرى يتحرك جرم الفلك الاقصى ثلاثة آلاف ميل فاذا كان كذلك فكيف ضبط هذه المؤثرات *وأما خامسا فبتقديرانهم عرفوا طبائع هذه الكواكب حال بساطتها فهل وقفوا على طبائعها حال امتزاج بعضها ببعض والامتزاجات الحاصلة من طبايع ألف كوكب أوأكثر بحسب الاجزاء الفلكية تبلغ فى الكثرة الى حيث لا يقدر العقل على ضبطها * وأما سادسا فقال هب انا عرفنا تلك الامتزاجات الحاصلة فى ذلك الوقت فلاريب انه لايمكننا معرفة الامتزاجات التى كانت حاصلة قبله مع انا نعلم قطعا ان الاشكال السالفة ربما كانت عائقة ومانعة عن مقتضيات الاشكال الحاصلة فى الحال ولاريب اننا نشاهد أشخاصا كثيرة من النبات والحيوان والانسان تحدث مقارنة لطالع واحد مع ان كل واحد منها مخالف للآخر فى أكثر الامور وذلك لان الاحوال السابقة فى حق كل واحد تكون مخالفة للاحوال السابقة فى حق الآخر وذلك يدل على انه لا اعتماد على مقتضى طالع الوقت بل لابد من الاحاطة بالطوالع السابقة وذلك مما لاوقوف عليه فانه ربما كانت تلك الطوالع دافعة مقتضيات هذا الطالع الحاضر وعلى هذا الوجه عول ابن سينا فى كتابيه الشفا والنجاة فى أبطال هذا العلم

الثانى ان تأثير الكواكب يختلف باختلاف أقدارها فما كان من القدر الاول أثر وقوعه على الدرجة وان لم تضبط الدقيقة وما كان من القدر الاخير لم يؤثر الابضبط الدقيقة ولا ريب فى جهالة مقادير جميع الكواكب فكيف تضبط الآثار

الثالث فساد أصولهم وتناقض آرائهم واختلافهم اختلافا عظيما من غير دليل ومتى تعارضت الاقوال وتعذر الترجيح فيما بينها لايعول على شىء منها

الرابع ان أرصادهم لاتنفك عن وقوع خلل وهو مبنى احكامهم وقد صنف ابو على بن الهيثم رسالة بليغة فى اقسام الخلل الواقع فى آلات الرصد وبين ان ذلك ليس فى وسع الانسان دفعه وازالته واصابتهم فى أوقات الخسوف والكسوف مع ذلك الخلل لا تستدعى اصابتهم فى غيرها ءه

الخامس اننا نشاهد عالما كثيرا يقتلون فى ساعة واحدة فى حرب وخلقا كثيرا يغرقون فى ساعة واحدة مع اختلاف طوالعهم واقتضائها احوالا مختلفة عندكم وهذا يدل على عدم اعتبار ما اعتبرتموه أولا *فان قلتم ان الطوالع قديكون بعضها اقوى من بعض فلعل طالع الوقت أقوى من طالع الاجل فكان الحكم قلنا هذا بعينه يبطل عليكم اعتبار طالع المولود فان الطوالع بعده مختلفة كثيرة ولعل بعضها اقوى منه فلا يفيد اعتباره شيئا

السادس ان العقل لا مساغ له فى اقتضاء كوكب معين أووضع معين تأثيرا خاصا والتجربة على تصورها معارضة بتجربة اقتضت خلافها الى غير ذلك من الوجوه وابو البركات البغدادى وان زيف ماهم عليه الا انه يقر بقبول بعض الاحكام فانه قال بعد ذكر شئ من اقوالهم التى لادليل لهم عليها وهذه اقوال قالها قائل فقبلها قابل ونقلها ناقل فحسن بها ظن السامع واغتر بها من لاخبرة به ولاقدرة له على النظر ثم حكم بحسبها الحاكمون بجيد وردى وسلب وايجاب وسعد ونحوس فصادف بعضه موافقة الوجود فصدق فاغتر به المغترون ولم يلتفتوا الى كذبه فيه بل عذروه وقالوا هو منجم ماهو نبى حتى يصدق فى كل مايقول واعتذروا له بان العلم اوسع من ان يحيط به ولو أحاط به لصدق فى كل شئ ولعمر الله انه لو احاط به علما صادقا الصدق والشأن ان يحيط به على الحقيقة لا على ان يفرض

فرضا ويتوهم وهما فينقله الى الوجود ويثبته فى الموجود وينسب اليه ويقيس عليه والذى يصح منه ويلتفت اليه العقلاء هى اشياء غير هذه الخرافات التى لاأصل لها مما حصل بتوقيف اوتجربة حقيقية كالقرانات والانتقالات والمقابلة وممر كوكب من المتحيرة تحت كوكب من الثابتة ومايعرض للمتحيرة من رجوع واستقامة ورجوع فى شمال وانخفاض فى جنوب وغير ذلك *وكانى أريد أن أختصر الكلام هاهنا وأوافق اشارتك وأعمل بحسب اختيارك رسالة فى ذلك أذكر فيها من علم أحكام النجوم من أصول حقيقية أو مجازية أووهمية أوغلطية وفروع نتائج أنتجت عن تلك الاصول وأذكر الجائز من ذلك والممتنع والقريب والبعيد فلاأرد علم الاحكام من كل وجه كما رده من جهله ولاأقبل فيه كل قول كما قبله من لم يعقله بل أوضح موضع القبول والرد وموضع التوقيف والتجويز والذى من المنجم والذى من التنجيم والذى منهما وأوضح لك انه لوأمكن الانسان ان يحيط بشكل كل ما فى الفلك علما لاحاط بكل ما يحويه الفلك لان منه مبادى الاسباب لكنه لايمكن ويبعد عن الامكان بعدا عظيما والبعض الممكن منه يهدى الى بعض الحكم لان البعض الآخر المجهول قد يناقض المعلوم فى حكمه ويبطل ما يوجبه فنسبة المعلوم الى المجهول من الاحكام كنسبة المعلوم الى المجهول من الاسباب وكفى بذلك بعدا اه وفيه من التأييد لبعض ما تقدم من الاوجه مافيه *وأنا أقول ان الاحاطة بالاسرار المودعة فى الاجرام لا يبعد أن تحصل لبعض الخواص ذوى النفوس القدسية لكن بطريق الكشف اونحوه دون الاستدلال الفكرى والاعمال الرصدية مثلا وهو الذى يقتضيه كلام الشيخ الاكبر قدس سره قال فى الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية ومن الاولياء النقباء وهم اثنا عشر نقيبا فى كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد البروج الاثنى عشر كل نقيب عالم بخاصية كل برج وبما أودع الله تعالى فى مقامه من الاسرار والتأثيرات وما يعطى للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت ثم قال ومنهم النجباء وهم ثمانية فى كل زمان الى ان قال ولهم القدم الراسخة فى علم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطلاع لا من جهة الطريقة المعلومة عند العلماء بهذا الشأن والنقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع والنجباء حازوا علم الثمانية الافلاك التى دونه وهى كل فلك فيه كوكب * ويفهم من هذا القول بالتأثيرات وانها مفاضة من البرج على النازل فيه من الكواكب وقد تكررت الاشارة منه الى ذلك ففى الفصل الثالث من الباب الحادى والسبعين والثلاثماية من الفتوحات ان الله تعالى خلق فى جوف الكرسى جسما شفافا مستديرا يعنى الفلك الاطلس قسمه اثنى عشر قسما هى البروج وأسكن كل برج منها ملكا الى ان قال وجعل لكل نائب من هؤلاء الاملاك الاثنى عشر فى كل برج ملكه اياه ثلاثين خزانة تحتوى كل خزانة منها على علوم شتى يهبون منها لمن نزل بهم ما تعطيه مرتبته وهى الخزائن التى قال الله تعالى فيها (وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) وهذه الخزائن تسمى عند أهل التعاليم درجات الفلك والنازلون فيها هم الجوارى والمنازل وعيوقاتها من الثوابت والعلوم الحاصلة من هذه الخزائن الالهية هى ما يظهر فى عالم الاركان من التأثيرات بل ما يظهر فى مقعر فلك الثوابت الى الارض وجعل لهؤلاء الاثنى عشر نظرا فى الجنان واهلها ومافيها مخلصا من غير حجاب فما فى الجنان من حكم فهو عن تولى هؤلاء بنفوسهم تشريفا لاهل الجنة وأما أهل الدنيا وأهل النار فما يباشرون ماهم من الحكم الا بالنواب وهم النازلون عليهم الذين ذكرناهم *وقال قدس سره فى الفصل الرابع ان الله تعالى جعل لكل كوكب من هذه الكواكب قطعا فى الفلك الاطلس ليحصل من تلك الخزائن التى فى بروجه وبايدى ملائكته الاثنى عشر من علوم التاثير ماتعطيه حقيقة كل كوكب وجعلها على حقائق مختلفة اه المراد منه *وله قدس سره كلام غير هذا أيضا وقد صرح بنحو ماصرح به المنجمون من اختلاف طبائع البروج

وأن كل ثلاثة منها على مرتبة واحدة فى المزاج وأنا لا أزيد على القول بان للاجرام العلوية كواكبها وأفلاكها أسرارا وحكما وتاثيرات غير ذاتية بل مفاضة عليها من جانب الحق والفياض المطلق جل شانه وعظم سلطانه ومنها ماهو علامة لماشاء الله تعالى ولا يتم دليل على نفى ماذكر ولا يعلم كمية ذلك ولا كيفيته ولا أن تاثير كذا من كوكب كذا وكوكب كذا علامة لكذا فى نفس الامر الا الله تعالى العليم البصير (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) الا انه سبحانه قد يطلع بعض خواص عباده من البشر والملك على شىء من ذلك ولا يبعد أن يطلع سبحانه البعض على الكل ووقوع ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم مما لا أكاد أشك فيه وقد نص بعض ساداتنا الصوفية قدست أسرارهم وأشرقت علينا أنوارهم على أن علومه صلى الله عليه وسلم التى وهبت له ثلاثة أنواع نوع أوجب عليه اظهاره وتبليغه وهو علم الشريعة والتكاليف الالهية وقوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وأن لم تفعل فما بلغت رسالته) ناظر الى ذلك دون العموم المطلق أو خصوص خلافة على كرم الله تعالى وجهه كما يقوله الشيعة *ونوع أوجب عليه كتمانه وهو علم الاسرار الالهية التى لاتحملها قوة غير قوته القدسية عليه الصلاة والسلام فكما أن لله تعالى علما استأثر به دون أحد من خلقه كذلك لحبيبه الاعظم صلى الله عليه وسلم علم استأثر به بعد ربه لكنه مفاض عليه منه تعالى ولعله أشير اليه فى قوله تعالى (فاوحى الى عبده ما أوحى) وقد يكون بين المحب والمحبوب من الاسرار مايضن به على الاغيار ومن هنا قيل

ومستخبر عن سر ليلى تركته * بعمياء من ليلى بغير يقين

يقولون خبرنا فانت امينها * وما أنا أن خبرتهم بامين

ونوع خيره الله تعالى فيه بين الامرين وهذا منه ما أظهره لمن رآه أهلا له ومنه مالم يظهره لامر ما فلعل ماوهب له عليه الصلاة والسلام من العلم بدقائق اسرار الاجرام العلوية وحكمها وما أراد الله تعالى بها مما لم يظهره للناس كعلم الشريعة لانه مما لا ينضبط بقاعدة وتفصيل الامر فيه لايكاد يتيسر والبعض مرتبط بالبعض ومع هذا لايستطيع العالم به أن يجعل الاقامة سفرا ولا الهزيمة ظفرا ولا العقد حلا ولا الابرام نقضا ولا الياس رجاء ولا العدو صديقا ولا البعيد قريبا ولا ولا ويوشك لو انتشر أمره وظهر حلوه ومره أن يضعف توكل كثير من العوام على الله تعالى والانقطاع اليه والرغبة فيما عنده وأن يلهوا به عن غيره وينبذوا ماسواه من العلوم النافعة لاجله وكل يتمنى أن يعلم الغيب ويطلع عليه ويدرك مايكون فى غد أو يجد سبيلا اليه بل ربما يكون ذلك سببا لبعض الاشخاص مفضيا الى الاعتقاد القبيح والشرك الصريح *وقد كان فى العرب شىء من ذلك فلو فتح هذا الباب لاتسع الخرق وعظم الشر وقد ترك صلى الله عليه وسلم هدم الكعبة وتأسيسها على قواعد ابراهيم عليه السلام لنحو هذه الملاحظة فقد روى انه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لهدمت الكعبة وأسستها على قواعد ابراهيم * ولايبعد أيضا أن يكون فى علم الله تعالى اظهار ذلك وعلم الناس به سببا لتعطيل المصالح الدنيوية ومنافيا للحكمة الالهية فاوجب على رسوله صلى الله عليه وسلم كتمه وترك تعليمه كما علم الشرائع ويمكن أن يكون قد علم صلى الله عليه وسلم أن العلم بذلك من العلوم الوهبية التى يمن الله تعالى بها على من يشاء من عباده وان من وهب سبحانه له من امته قوة قدسية يهب سبحانه له ما تحمله قوته منه وقد سمعت ماسمعته فى النقباء والنجباء ويمكن ان يكون قد علم عليه الصلاة والسلام ذلك امثالهم ومن هو أعلى قدرا منهم كالامير على كرم الله تعالى وجهه وهو باب مدينة العلم بطريق من طرق التعليم *ومنها الافاضة التى يذكرها بعض اهل الطرائق من الصوفية ويجوز ان يقال ان سر البعثة انما هو ارشاد الخلق الى مايقربهم اليه سبحانه وتعالى زلفى وليس فى معرفة التاثيرات الفلكية والحوادث الكونية قرب الى الله تعالى والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأل جهدا فى دعوة الخلق وارشادهم الى

مايقربهم لديه سبحانه وينفعهم يوم قدومهم عليه جل شأنه ومايتوقف عليه من أمر النجوم أمور دياناتهم كمعرفة القبلة وأوقات العبادات قد أرشد اليه من أرشد منهم وترك مايحتاجون اليه من ذلك فى أمور دنياهم كالزراعة الى عاداتهم وما جرت به كل قوم فى أماكنهم وأشار اشارة اجمالية الى بعض الحوادث الكونية لبعض الكواكب فى بعض أحوالها كما فى حديث الكسوف والخسوف السابق وأرشدهم الى ماينفعهم اذا ظهر مثل ذلك ويتضمن الاشارة الاجمالية أيضا أمره بالاستعاذة من شر القمر فى بعض حالاته وذلك فى قوله تعالى (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب) على ماجاء فى حديث عائشة رضى الله عنها ويقرب فى بعض الوجوه من شأنه صلى الله عليه وسلم شأنه عليه الصلاة والسلام فى أمر النباتات ونحوها فبين لهم مايحل ومايحرم من ذلك وأشار الى منفعة بعض الاشياء من نبات وغيره ولم يفصل القول فى الخواص وترك الناس فيما يأكلون ويشربون مما هو حلال على عاداتهم الا انه قال (كلوا واشربوا ولاتسرفوا) نعم نهى صلى الله عليه وسلم عن الخوض فى علم النجوم لطلب معرفة الحوادث المستقبلة بواسطة الاوضاع المتوقف بزعم المنجمين على معرفة الطبائع سدا لباب الشر والوقوع فى الباطل لان معرفة ذلك على التحقيق ليست كسبية كمعرفة خواص النباتات ونحوها والمعرفة الكسبية التى يزعمها المنجمون ليست بمعرفة انما هى ظنون لادليل لهم عليها كما تقدم وصرح به ارسطاليس أيضا فانه قال فى أول كتاب السماع الطبيعى انه لاسبيل الى اليقين بمعرفة تأثير الكواكب وحكى نحوه عن بطلميوس وكون المنهى عنه ذلك هو الذى صرح به بعض الاجلة وعليه حمل خبر ابى داود وابن ماجه (من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر) وأما الخوض فى علم النجوم لتحصيل مايعرف به أوقات الصلاة وجهة القبلة وكم مضى من الليل أو النهار وكم بقى وأوائل الشهور الشمسية ونحو ذلك ومنه فيما ارى مايعرف به وقت الكسوف والخسوف فغير منهى عنه بل العلم المؤدى الى بعض ماذكر من فروض الكفاية بل ان كان علم النجوم عبارة عن العلم الباحث عن النجوم باعتبار مايعرض لها من المقابلة والمقارنة والتثليث والتسديس وكيفية سيرها ومقدار حركاتها ونحو ذلك مما يبحث عنه فى الزيج أو كان عبارة عما يعم ذلك والعلم الذى يتوصل به الى معرفة ارتفاع الكوكب وانخفاضه ومعرفة الماضى من الليل أو النهار ومعرفة الاطوال والعروض ونحو ذلك مما تضمنه علم الاسطرلاب والربع المجيب ونحوهما فهو مما لا أرى باسا فى تعلمه مطلقا *وإن كان عبارة عن العلم الباحث عن أحكامها وتأثيراتها التى تقتضيها باعتبار أوضاعها وطبائعها على مايزعمه الاحكاميون فهذا الذى اختلف فى أمره فقال بعضهم بحرمة تعلمه لحديث ابى داود وابن ماجه السابق والقائل بهذا قائل بحرمة تعلم السحر وهو أحد أقوال فى المسئلة فيها الافراط والتفريط ثانيها أنه مكروه ثالثها أنه مباح رابعها أنه فرض كفاية خامسها أنه كفر والجمهور على الاول ولان فيه ترويج الباطل وتعريض الجهلة لاعتقاد أن أحكام النجوم المعروفة بين أهلها حق والكواكب مؤثرة بنفسها وقيل يحرم تعلمه لانه منسوخ فقد قال الكرمانى فى عجائبه كان علم النجوم علما نبويا فانفسخ وتعقب هذا بانه لا معنى لنسخ العلم نفسه وان حمل الكلام على معنى كان تعلمه مباحا فانفسخ ذلك الى التحريم كان فى الاستدلال مصادرة وقال بعضهم لا حرمة فى تعلمه انما الحرمة فى اعتقاد صحة الاحكام وتأثيرات الكواكب على الوجه الذى يقوله جهلة الاحكاميين لامطلقا وأجيب عن الخبر السابق بانه محمول على تعلم شىء من علم النجوم على وجه الاعتناء بشانه كما يرمز اليه اقتبس وذلك لايتم بدون اعتقاد صحة حكمه وأن الكواكب مؤثرات وتعلمه على هذا الوجه حرام وبدونه مباح وفيه بحث وقيل فى الجواب ان الخبر فيمن ادعى علما بحكم من الاحكام أخذاله من النجوم قائلا الامر كذا أولا بد لان النجم يقتضيه البتة وهو لاشك فى اثمه وحرمة دعواه التى قامت الادلة على كذبها وهو كما ترى وكلام بعض أجلة العلماء صريح فى إباحة تعلمه متى اعتقد أن الله تعالى أجرى العادة بوقوع كذا عند

حلول الكوكب الفلانى منزلة كذا مثلا مع جواز التخلف واستظهر بعض حرمة التعلم مطلقا متى كان فيه اغراء الجهلة بذلك العلم و إيقاعهم فى محذور اعتقاد التاثير أو كان فيه غير ذلك من المفاسد و كراهته ان سلم من ذلك لما فيه من تضييع الاوقات فيما لا فائدة فيه و مبناه ظنون و أوهام و تخيلات ولا يبعد القول بانه يباح للعالم الراسخ النظر فى كتبه للاطلاع على ما قالوا والوقوف على مناقضاتهم واختلافاتهم التى سمعت بعضا منها لينفر عنها الناس و يرد العا كفين عليها كما يباح له النظر فى كتب سائر أهل الباطل كاليهود والنصارى لذلك بل لو قيل بسنته لهذا الغرض لم يبعد لكن أنت تعلم أن السلف الصالح لم يحوموا حول شئ منه بسوى ذمه وذم أهله ولم يتطلبوا كتابا من كتبه لينظروا فيه على أى وجه كان النظر ونسبة خلاف ذلك الى أحد منهم لا تصح فالحزم اتباعهم فى ذلك وسلوك مسلكهم فهو لعمرى أقوم المسالك (هذا)

واعترض القول باطلاعه صلى الله عليه وسلم على ما ذكر من شان الاجرام العلوية بان فيه فتح باب الشبهة فى كون اخباره صلى الله عليه وسلم بالغيوب من الوحى لجواز أن تكون من أحكام النجوم على ذلك القول وأجيب بان الشبهة انما تتأتى لو ثبت أنه عليه الصلاة والسلام رصد ولو مرة كوكبا من الكواكب وحقق منزلته وأخبر بغيب إذ مجرد العلم بان لكوكب كذا حكم كذا اذا حل بمنزلة كذا لا يفيد بدون معرفة أنه حل فى تلك المنزلة فحيث لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك لا يفتح باب الشبهة وفيه بحث ظاهر و بان علمه صلى الله عليه وسلم بما تدل عليه الاوضاع عند القائلين به ليس إلا عن وحى فغاية ما يلزم على تلك الشبهة أن يكون خبره بالغيب بواسطة علم أحكام النجوم الذى علمه بالوحى وأى خلل يحصل من هذا فى نبوته عليه الصلاة والسلام بل هذه الشبهة تستدعى كونه نبيا كما أن عدمها كذلك وتعقب بانه متى سلم أن للاوضاع الفلكية دلالة على الامور الغيبية وانه صلى الله عليه وسلم يعلم ما تدل عليه يقع الاشتباه بينه و بين غيره من علماء ذلك العلم المخبرين بالغيب اذا وقع كما أخبروا * والتفرقة بانه صلى الله عليه وسلم قد أوحى إليه بذلك دون الغير فرع كونه نبيا وهو أول المسئلة واختير فى الجواب أن يقال إن اخباره صلى الله عليه وسلم بالغيب ان كان بعد ثبوت نبوته بمعجزة غير ذلك لا تتأتى الشبهة إن افهم أن خبره بواسطة الوحى ولا تضر إن لم يفهم إذ غاية ما فى الباب انه نبى لظهور المعجز على يده قبل أن أخبر بغيب بواسطة وضع فلكى وشاركه غيره فى ذلك وان كان قبل ثبوت نبوته بمعجز غيره بان كان التحدى بذلك الخبر ووقوع ما أخبر به فالذى يدفع الشبهة حينئذ عدم القدرة على المعارضة فلا يستطيع منجم أن يخبر صادقا بمثل ذلك بمقتضى علمه بالاوضاع ومقتضياتها فتدبر ثم الظاهر على ما ذكره الشيخ الاكبر قدس سره فى النقبا والنجباء أن لكل من الانبياء عليهم السلام اطلاعا على ذلك إذ رتبة النبى فوق رتبة الولى وعلمه فوق علمه إذ هو الركن الاعظم فى الفضل ولا حجة فى قصة موسى والخضر عليهما السلام على خلافه أما على القول بنبوة الخضر عليه السلام فظاهر وكذا على القول بولايته وانه فعل ما فعل عن أمر الله بواسطة نبى واما على القول بولايته وانه فعل ذلك لعلم أوتيه بلا واسطة نبى فلانه لا يدل الا على فقدان موسى عليه السلام العلم بتلك الثلاثة وعلم الخضر بها ولا يلزم من ذلك أن يكون الخضر أعلم منه مطلقا وهو ظاهر وعلى هذا جوز ابقاء الآية على ظاهرها فيكون ابراهيم عليه السلام قد نظر فى النجوم حسبما علمه الله تعالى من أحوال الملكوت الاعلى واستدل على انه سقيم بما استدل ولعل نظره كان فى طالع الوقت ونحوه أو طالع ولادته أو طالع سقوط النطفة التى خلق منها والعلم به بالوحى أو بواسطة العلم بطالع الولادة والاعتراض على ذلك بانه يلزم عليه تقويته عليه السلام ما هم عليه من الباطل فى أمر النجوم وارد أيضا على حمل ما فى الآية على التعريض والجواب هو الجواب * هذا واذا أحطت خبرا بجميع ما ذكرت لك فى هذا المقام فاحسن التأمل فيما تضمنه من النقض والابرام * وقد جمعت لك ما لم أعلم أنه جمع فى تفسير ولا أبرىء نفسى عن الخطأ والسهو والتقصير والله

سبحانه ولى التوفيق وبيده أزمة التحقيق وقوله تعالى (فتولوا عنه مدبرين) تفريع على قوله عليه السلام انى سقيم أى أعرضوا وتركوا قربه والمراد انهم ذهبوا الى معيدهم وتركوه ومدبرين إما حال مؤكدة أو حال مقيدة بناء على أن المراد بسقيم مطعون أو انهم توهموا مرضا له عدوى كمرض الطاعون أو غيره فان المرض الذى له عدوى بزعم الاطباء لا يختص بمرض الطاعون فكانه قيل فاعرضوا عنه هاربين مخافة العدوى انتهى ما قاله الالوسى بنصه

واقول اما اعتراضه على الامام الرازى فى استدلاله بقوله تعالى (فلا اقسم بالخنس الجوارى الكنس) بمنع ان هنالك قسما بالنجوم فهو اعتراض ساقط لانه مبنى على ما روى عن ابن مسعود ورواية عن ابن عباس واختاره ابن جبير وعلى ما حكاه الماوردى ومبنى كلام الامام الرازى على مذهب الجمهور من ان المراد بالخنس الجوارى الكنس هى النجوم وان الله اقسم بها وقد قال الالوسى نفسه كما سيأتى فى تفسير هذه الآية المراد بها اى بالخنس الجوارى الكنس على ما اخرجه الفريابى وسعد بن منصور وعبد بن حميد وابن ابى حاتم والحاكم وصححه من طرق عن على كرم الله تعالى وجهه الكواكب اى جميعها فقيل لانها تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل اى تطلع وبعد ذكر ما يأتى عنه من بيان معنى تخنس وتكنس قال وروى تفسيرها بالكواكب عن الحسن وقتادة أيضا وأخرج ابن ابى حاتم عن على كرم الله وجهه انه قال هى خمسة انجم زحل وعطارد والمشترى وبهرام يعنى المريخ والزهرة والخنس الرواجع من خنس اذا تاخر ووصفت بما ذكر فى الآية لانها تجرى مع الشمس والقمر وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها بحسب الرؤية وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها وتسمى المتحيرة لاختلاف احوالها فى سيرها فيما يشاهد فلها استقامة ورجعة واقامة فبينما نراها تجرى الى جهة اذا بها راجعة تجرى الى خلاف تلك الجهة وبينما نراها تجرى اذا بها مقيمة لا تجرى وسبب ذلك على ما قاله المتقدمون من اهل الهيئة كونها فى تداوير فى حوامل مختلفة الحركات على ما بين فى موضعه وهى مع الشمس والقمر يقال لها السيارات السبع لان سيرها بالحركة الخاصة مما لا يكاد يخفى على احد بخلاف غيرها من الثوابت واخرج الخطيب فى كتاب النجوم وابن مردويه انها المرادة هنا ووصفها بالخنس بمعنى الرواجع قيل من باب التغليب اذ لا رجعة للشمس ولا للقمر وبالكنس لاختفائها فى تغيبها الى آخر ما ذكر مما لا حاجة لنا به هنا * وقال فى كشف الاسرار القرانية بعد ان ذكر الخلاف فى معنى الخنوس والكنوس فالقول الاظهر ان ذلك اشارة الى رجوع الكواكب السيارة واستقامتها فرجوعها هو الخنوس وكنوسها اختفاء بعضها من ضوء الشمس ولا شك ان هذه حالة عجيبة وفيها أسرار عظيمة باهرة وهذه الكواكب هى اجسام معتمة لها حركة رحوية على محورها وحركة اخرى بها تخط حول الشمس مدارا على شكل ناقص يشغل هذه الكواكب نقطة اختراقه اى مركزه العمومى وهاتان الحركتان تجهان من المغرب الى المشرق فكان السبب المحدث لهما واحد ويشرق من هذه الكواكب ضوء مستعار الى آخر ما يأتى نقله عنه فى تفسيره الآية من ان الله سبحانه جعل لكل جرم من أجرام الشمس والقمر وسائر الكواكب سيرا خاصا وسيرا آخر وبناء على ذلك خص كل واحد منها بتأثيرات فخص جرم الشمس بقوة سارية فى اجرام سائر الافلاك باعتبارها صارت مستولية عليها قادرة على تحريكها على سبيل القهر باذن الله تعالى وارادته وقدرته * وقوله تعالى فى آية اخرى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) يشعر بذلك وكما ان الله اودع فى الشمس تلك القوة فقد اودع تعالى قوة سارية فى شئ مجهول لا نعلمه تدور الشمس حوله فجعل لكل مجموع نجمى قوة قاهرة باعتبارها اقوى على قهر جميع الافلاك والكواكب وتحريكها على خلاف مقتضى طبائعها حيث خص كل واحد من هذه الاجسام بخاصية معينة وصفة معينة وقوة مخصوصة ولهذا كله قال تعالى

(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) ولهذا التسخير اقسم تعالى فقال (فلا اقسم بالخنس الجوارى الكنس) وأقسم بما ينشأ عن ذلك التسخير من تسخير الليل والنهار فقال (والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس اه ومن ذلك تعلم أن الآية بناء على القول بان المراد بالخنس الجوارى الكنس الكواكب كما هو قول الجمهور وهو المروى بالطرق الصحيحة عن السلف الصالح تدل على أن للاجرام العلويه تأثيرا باذن الله تعالى و إرادته وقدرته فى العالم السفلى عالم الليل والنهار الذى جعل الله لهم الليل سكنا والنهار مبصرا * فقول الالوسى و إذا سلم ذلك بناء على قول الجمهور فأى دلالة إلى أخره غير مسلم ومن المعلوم أنه لا يلزم ان يكون الباعث فى كل ما أقسم لك تعالى به واحد هو التأثير حتى يصح قوله وقد أقسم سبحانه بالليل الى آخر ما أطال به بلا طائل

ثم قال الالوسى ردا على الامام الرازى وأما قوله تعالى (فالمدبرات أمرا) فلم يقل أحد من الصحابة والتابعين وعلماء التفسير انه إقسام بالنجوم فهذا ابن عباس الى آخر ماقاله من أن المراد بها الملائكة وأن ابن عطية قال لا أحفظ خلافا فى ذلك وكذا المقسمات أمرا الى آخره

وأقول هذا غريب وعجيب فان الالوسى نفسه فى تفسير قوله تعالى (والنازعات) فسر النازعات وما عطف عليها بالملائكة ثم قال وقيل إقسام بالنجوم السيارة التى تنزع أى تسير من نزع الفرس الى أن قال و روى حمل النازعات على النجوم عن الحسن وقتادة والاخفش وابن كيسان وأبى عبيدة وحمل الناشطات عليها عن ابن عباس والثلاثة الاول وحمل السابحات عليها عن الاولين الى أن قال والمدبرات عليها عن معاذ وأضاف التدبير اليها مجازا * غاية الامر انه قال فى آخر كلامه وفى حمل المدبرات على النجوم ايهام صحة مايزعمه أهل الاحكام والمنجمون وهو باطل عقلا ونقلا اه * فكيف يقول هنا لم يقل أحد من الصحابة والتابعين وعلماء التفسير انه إقسام بالنجوم وأن ابن عطية قال ماذكر و يعد ماقاله الامام الرازى تفسيرا بالرأى

وأما رد الالوسى على الرازى فى استدلاله بالآيات الدالة على انه سبحانه وضع حركات الاجرام على وجه ينتفع بها الى آخره بانه من الطرائف وأن الأليق لو صح زعم المنجم الى آخر ما أطال به * فنقول فيه إن الرازى جعل من جملة المنافع ومصالح العالم كونها سببا ودليلا على مايقوله علماء الاحكام ولم يقل ان الكواكب تعطى شيئا مما ذكر أو تؤثر بذاتها فى شيء مما ذكر بل انها أسباب مؤثرة باذن الله تعالى أو هى علامات على مايحدثه الله عندها ولا نسلم أن الاليق هو مايقول بل الاليق بسوق الآيات ان يذكر فيها ماهو معلوم ومشاهد للمخاطبين وذلك هو ماذكره الله فيها من الضياء والنور وعدد السنين والحساب وغير ذلك مما هو مفصل فى الآيات * الا ترى أن الكل متفقون على أن للشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة تأثيرا فى العالم السفلى على حسب مايجرى على الامر الطبيعى كاختلاف المناطق حرارة و برودة واعتدالا وغير ذلك من الآثار ومع ذلك لم يذكر فى الآيات صريحا وتفصيلا بل اقتصر فيها على ماهو معلوم ومشاهد من تلك الآثار وأشار الى ماليس كذلك اجمالا * فالامام الرازى يقول ان مايقوله علماء الاحكام يعلم بواسطة مادلت عليه الآيات تفصيلا واجمالا غاية الامر أن الله تعالى ترك ذلك لبحث العلماء العقلاء بما وهبه لهم من العقول كما ترك كلا من القسم الطبيعى والعملى من علم الهيئة لبحثهم كذلك

وأما رده على استدلال الرازى بان ابراهيم عليه السلام تمسك بالنجوم بانه سقيم جدا الى آخر ماقال من التشنيع * فاقول فيه ان الالوسى نفسه حكى فى قوله تعالى (فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم) انه من معاريض الافعال ثم نقل قولا آخر أن ابراهيم عليه السلام نظر فى أحوال النجوم أو فى علمها أو فى كتبها واحكامها ليستدل على مايحدث له والنظر فيها للاستدلال على بعض الامور ليس بممنوع شرعا اذا كان باعتقاد أن الله تعالى خلقها علامات عليه والممنوع الاستدلال باعتقاد انها مؤثرة بنفسها والجزم

بكاية احكامها الى آخر ما نقلناه عنه في هذا الموضع ثم قال فى آخر المبحث بعد ان اطال فى اطلاع الانبياء على أحوال الكواكب وعلى هذا جوز ابقاء الآية على ظاهرها فيكون ابراهيم عليه السلام قد نظر فى النجوم حسبما علمه الله تعالى من احوال الملكوت الاعلى واستدل على انه سيسقم مما استدل به ولعل نظره كان فى طالع الوقت أو نحوه الى آخر ما نقلناه ايضا فى هذا الموضع والامام الرازى لم يقل ولم ينسب لابراهيم عليه السلام اكثر مما قاله الالوسى ونسبه اليه عليه السلام فى هذين الموضعين ومنهما علم انه يعترف بان للكواكب دلالة على بعض الحوادث وانه يجوز شرعا الاستدلال بها كما استدل ابراهيم عليه السلام * وبالجملة فانا نقول ان الالوسى قد اعترف فى آخر كلامه أن مانقله عن غيره فى هذا المقام أو قاله فيه من عنده تضمن نقضا وابراما فيما يتعلق بعلم احكام النجوم * والواقع الذى يظهر لمن اطلع عليه ان كلامه تضمن ماذكر فانك تراه بينما هو ينقل عن غيره أو يقول من عنده ماينقض علم احكام النجوم ويبطله و يجعله هذيانا تراه يقول من عنده أو ينقل عن غيره ويبرم مايدل عليه ويؤيده ويثبته فكان كلما أراد ان يخفى نور الحق قابله ذلك النور ساطعا ملقيا أشعته على بصره فيغمض عينيه مخافة أن يخطف بصره فينحنى أمام الحق ثم يعود الى محاولة أخفاء ذلك النور فيغلبه ضوء الحق فيسلم و يستسلم وهكذا تردد مرارا وتكرارا بين الاعتراف بصحة هذا العلم وجلالته و بين انكاره وضلالته فلذلك ذكرنا لك أولا نموذجا مما نقله عن الرازى وخالفه فى صحته ونترك باقيه للعلم بحاله مما ذكرناه * ونقتصر الآن على ما أعترف الالوسى من كلام الامام الرازى بصحة نقله ورده من وجه آخر فنقول قد تمسك الامام الرازى بما ورد فى كسوف الشمس يوم مات ابراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم واعترف الالوسى بصحته وهو متفق على صحته واستدرك عليه بقوله لكن لا يدل على مايزعمه المنجمون وصدر الحديث يدل على ان الشمس والقمر آيتان وليسا ربين ولا إلهين * وفيه إشارة الى نفى التصرف عنهما وأن موت أحد وحياته لا يكونان سببا لانكسافهما على قول أو ان لا يحصل عن انكسافهما موت ولا حياة على قول آخر وانما ذلك تخويف من الله لعباده أجرى العادة بحصوله فى أوقات معلومة بالحساب لطلوع الهلال و إبداره وسراره ثم بين سبب كسوف الشمس وانه توسط القمر بين الشمس و بين أبصارنا وسبب خسوف القمر وانه توسط الارض بينه و بين الشمس حتى لا يكتسب النور منها وقال إن ذلك ليس فى الشرع مايأباه وقد علمت ان فى بعض الآثار مايقتضيه كما قال به الحسن وغيره فى تفسير قوله تعالى (والقمر اذا تلاها) وقال إن الوقوف على وقت الكسوف والخسوف ومقدارهما أمر سهل ولا يلزم من صدق المنجم فى ذلك صدقه فيما يزعم من التأثيرات وجعل الاخبار بهما كالاخبار بوقت طلوع الشمس فى يوم كذا فى ساعة كذا وكالاخبار بوقت الهلال وابداره وسراره ثم قال اننا لا ننكر أن الله تعالى يحدث عند الكسوفين من أقضيته واقداره مايكون بلاء لقوم واعترف بانه صلى الله عليه وسلم أمر بالفزع الى ذكر الله تعالى والصلاة والعتاق والصدقة لان هذه الاشياء تكون سببا لرفع موجب الكسف الذى جعله الله سببا لما جعله فلولا انعقاد سبب التخويف لما أمر عليه الصلاة والسلام برفع موجبه بهذه العبادات الى آخر ما أطال به مما هو صريح فى أن الله تعالى جعل كلا من الكسوف والخسوف سببا لما قضاه وقدره من حوادث الشر عند حصوله ومن أنه عليه الصلاة والسلام قال فى خطبته البليغة انه لم ير كيومه فى الخير والشر وأمرهم عند حصول مثل ذلك بالعبادات المذكورة وهذا يدل دلالة صريحة على ثبوت ارتباط بين الكسوف والخسوف ومايترتب عليهما من حوادث الخير والشر وان هذا الارتباط من قبيل ارتباط المسببات بالاسباب فدعواه بعد ذلك انه لا يلزم من صدق المنجم فى هذا صدقه فيما يزعم من التأثيرات ان كان مراده منه انه لا يلزم صدق المنجم فى دعواه

أن للكواكب تأثيرا فى الجملة فهى دعوى باطلة باعترافه وبالحديث الصحيح الذى ذكره كما أن كلامه صريح فى أن كلا من الكسوف والخسوف انما يحدث اذا كانت الاجرام الثلاثة الشمس والقمر والارض على خط واحد مستقيم وذلك لايحدث الا اذا كان القمر عند الاقتران أوعند الاستقبال بقرب إحدى العقدتين واذا كان فى قسم آخر من فلكه عند الاقتران لايحدث كسوف ولاخسوف وقد اعترف الالوسى بان الوقوف على الكسوف والخسوف ومقدارهما ومدتهما سهل فاذا قلنا أيضا قدصار عند علماء الاحكام وقت نزول الكوكب الفلانى برج كذا فى منزلة كذا ووقت اقترانه بكوكب كذا وانه عند ذلك يحدث من المناظر الظاهرة كظهور مذنب بشكل كذا يمتد ذنبه بطول كذا فى منطقة كذا و يمكث مدة كذا مثل ما يحدث من الكسوف والخسوف عند الاقتران أوعند الاستقبال بقرب إحدى العقدتين وأن ذلك يكون سببا فى حدوث ماقضاه الله وقدره من خير هو كذا أو شر هو كذا فلماذا لايكون ظهور المذنب عندماذكر مثل حدوث الكسوف أو الخسوف عند الاقتران اوعند الاستقبال بقرب احدى العقدتين * ونقول إن ظهور هذا المذنب بالشكل الفلانى يدل على حدوث الخير أو الشر وهل فى الامكان أن يجىء الشرع ببيان جميع مايتعلق بالجزئيات مفصلا جزئية جزئية أوأن الشارع جرت عادته أن يبين الحكم فى جزئية من الجزئيات و بعد ذلك يترك المجال واسعا للعلماء فى أن يقيسوا عليها و يأخذوا الحكم منها و يحكموا به فيما يماثلها فى علة ذلك الحكم من الجزئيات الاخرى * الاترى أن الشارع قد نص على حرمة الربا فى أصناف معينة واخذنا حكم باقى الاموال الربوية من العلة التى من أجلها حرم الله الربا فى الاصناف التى نص عليها الشارع وهكذا وجدنا الشارع يصنع هكذا فى جميع الاحكام التى لم يرد فيها نص بخروجها عن سنن القياس ولذلك قد جعل الالوسى نفسه انكار من أنكر أن كون الكسوف أو الخسوف سببا لشئ من البلاء أصلا مكابرة فى الاشياء التى لاينبغى المكابرة فيها كالمكابرة فى كون الافلاك مستديرة وكون الارض كروية وأن نور القمر مستفاد من ضياء الشمس وأن الكسوف القمرى عبارة عن انمحاء نوره بتوسط الارض بينه و بين الشمس من حيث أن نوره مقتبس منها وأن كسوف الشمس عبارة عن وقوع جرم القمر بين الناظر و بين الشمس عند اجتماعهما فى العقدتين على دقيقة واحدة وقولهم بتأثير الاسباب المحسوسة فى مسبباتها واثبات القوى والطبائع والافعال والانفعالات الى غير ذلك مما تقوم عليه الادلة اليقينية ولا تعارضه النصوص الشرعية القطعية أيضا كل هذا جعل انكاره مكابرة فكيف لايكون تأثير ماعلم حاله من النجوم كما عرف حال الكسوف فى الشمس وحال الخسوف فى القمر مكابرة أيضا ويقال حينئذ حيث جاز شرعا وعقلا أن يترتب على الكسوف والخسوف ماترتب من الخير والشر مما جاء عن الشارع يجوز ذلك فى غيرهما وكما أمكن الوقوف بالحساب الصحيح على كسوف الشمس وخسوف القمر اذا كانت الاجرام الثلاثة القمر والشمس والارض على خط واحد مستقيم وذلك لايحدث الا اذا كان القمر عند الاقتران أوعند الاستقبال بقرب احدى العقدتين يمكن الوقوف بالحساب الصحيح على ظهور مذنب كذا عندما يكون كوكب كذا فى برج كذا ومنزلة كذا الى آخر ماسبق غاية الامر أن الوقوف على كل ما يتعلق باحوال كل الكواكب من سيارات ونجيمات وثوابت متعسر بل متعذر لما قلناه من قبل لكن هذا لايمنع من امكانه فى الكواكب السيارة التى علم حالها علما تاما فيما يتعلق بها كما علموا حال القمر والشمس فى الخسوف والكسوف

وأما ما جاء فى الحكاية الاولى من الحكايات الثلاث التى حكيت عن الامام الشافعى رضى الله عنه من ان فيها البلوى وهو كذاب فاسنادها غير جيد فهى حكاية موضوعة كما قال

وأما الحكاية الثانية فقد اعترف الالوسى بان اسنادها رجاله ثقات وطعن فيها بعد ذلك بوجوه الاول ان لشأن فيمن حدّث أبا الوليد عن الحسن بن سفيان او فيمن حدث الحسن عن حرملة فنقول له قد اعترفت بان رجال هذه الحكاية ثقات فكان الوليد ثقة فروايته عن غيره وسكوته عن ذكره توثيق له اذ لو كان فيه طعن لذكر اسمه ليعرف من هو والا لم يكن ثقة والفرض انه ثقة كما قال فأخذ الوليد عهدة الحديث على نفسه وسكوته عن الشيخ الذى روى عنه دليل على عدالة من روى عنه وكذا يقال فيمن حدّث الحسن عن حرملة هذا اذا سلمنا بوجود الواسطة بين الوليد و بين الحسن و بين الحسن و بين حرملة ويجوز أن لا يكون هنالك واسطة فى الموضعين وذلك بان نقرأ قول الوليد حدّثت عن الحسن ببنا الفعل على صيغة المعلوم لا صيغة المجهول ويكون الوليد حينئذ يخبر بانه حدّثه هو مباشرة عن الحسين وسمعه منه وأما فى رواية الحسن عن حرملة فقد جاء فيها العنعنة فقط والعنعنة ليست صريحة فى وجود الواسطة بين الحسن وحرملة و بالجملة فدعوى وجود واسطة فى الموضعين حتى يكون الشأن فيها من حيث العدالة وعدمها دعوى مخالفة لظاهر الاسناد والعبرة بالظاهر ولو كان كل ما يروى ورجاله ثقات يطعن فيه بمثل هذا الطعن ما سلمت رواية من روايات الثقات إلا القليل وهو تضييق لا داعى اليه خصوصا فى أمثل هذه المواضع التى يكتفى فيها بالظن الراجح * الثانى من وجوه الطعن ومنها أنها لو صحت لاوجبت أن تثنى الخناصر على هذا العلم وتشد به الايدى لا أن تحرق كتبه ولا ان لايعاود النظر فى شئ منها ونقول له إن هذا عمل الامام الشافعى وهو أدرى بما حمله عليه فلا يصلح طعنا على الحكاية وصحة نقلها عن هذا الامام رضى الله عنه وأيضا سيأتى ان السلف الصالح لم يحوموا حول هذا العلم بسوى ذمه وذم أهله ولم يتطلبوا كتابا من كتبه وذلك مخافة أن يشتغل به الناس عن ما هو أهم منه من علوم الدين فالشافعى حينئذ لما بلغ رتبة الاجتهاد أو أنس من نفسه استعداده لبلوغها أحرق كتب هذا العلم ولم يعاود النظر فى شئ منها إقتداء بالسلف الصالح وخوفا من أن يشتغل به عن غيره من الاجتهاد و يقتدى به غيره فيه وهل يتصور أحد عنده ذرة من عقل فى رجل مستعد لان يكون إماما من أئمة المسلمين مجتهدا فى علوم الدين يفضل أن يكون منجما يخبر بحوادث مستقبلة و يشاركه فى ذلك الجهلة باحكام القرآن والحديث هذا والله أعلم هو الذى حمل الشافعى على حرق كتب هذا العلم وترك معاودة النظر فى شئ منه وكيف لا يحرق كتبا يخشى أن يشغله النظر فيها عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واستنباط الاحكام الشرعية منها مع ان استنباط حكم واحد من الكتاب والسنة ربما عدل عبادة العابد الذى ليس بهذه الصفة سبعين سنة * الثالث ان الطالع إثنان طالع مسقط النطفة وهو الطالع الاصلى الذى يزعمون دلالته على وقت الولادة والحكاية لم تتضمن أن الشافعى نظر فيه وطالع الولادة و إخبار الشافعى قبلها ضرورة انه قال تلد إلى سبعة وعشرين يوما اه

ونقول قد جاء فى الحكاية وكان له صديق عنده جارية قد حبلت فقال انها تلد إلى آخره ومتى كان ذلك يتوقف على معرفة طالع مسقط النطفة كان إخبار الشافعى بوقت الولادة دليلا على ان طالع مسقط النطفة كان معلوما للشافعى أما بأن يكون قد نظر فيه أو باخبار صديقه له عنه فيكون هذا من قبيل السكوت عما هو معلوم ومثل ذلك كثير حتى فى الكتاب والسنة يذكر الشئ المترتب على شئ آخر و يحذف الشىء الآخر للعلم به وأما طالع الولادة فحيث اعترف الالوسى انه يدل على وقت الولادة فطبعا يعلم انه كان عارفا بطالعها من معرفته وقتها وانما يعرف وقتها بواسطة معرفة طالع مسقط النطفة كما يقول فاخباره بوقت الولادة قبل الولادة لا يدل على شىء مما قاله الالوسى بل يدل على ان الامام الشافعى انما أخبر بما

أخبر به واتضحت صحته وهو عالم بكل ما يتوقف عليه صحة الخبر

وأما الحكاية الثالثة فقد طعن فيها بوجهين كلاهما مردود الاول انه طعن بان ابن بنت الشافعى لم يلق الشافعى ولا رآه والشأن فى من حدث عنه ونقول هذا غريب وعجيب فان الاسناد حسبما ذكره هو ان ابن بنت الشافعى يقول سمعت من أبى يقول كان الشافعى الى آخر الحكاية وهذا صريح فى ان ابن بنت الشافعى سمع من أبيه وان أباه هو الذى سمع من الشافعى الحكاية وابو ابن بنت الشافعى معلوم معروف فلا وجه لهذا التجهيل* الثانى ان طالع مسقط النطفة لم يؤخذ والخبر قبل تحقق الولادة الى آخره* ونقول يقال فيه ماقلناه فى مثله فى الحكاية الثانية فصحة هاتين الحكايتين عن الشافعى لاتخفى على منصف فان رجال كل من اسنادهما ثقات كما اعترف به والطعن تحامل ظاهر فهو غير مقبول ومن ذلك تبين ان هذا العلم لو كان هذيانا لا أصل له ما اشتغل به الامام الشافعى ولا نظر فيه وتبين صحة ما يقوله علماؤه من دلالة الطوالع الكوكبية على ما لا يجرى على الامر الطبيعى مثل ما وقع من الامام الشافعى ثم اعترف الالوسى بان الامام الشافعى كان يعرف من أمر النجوم ماكانت تعرفه العرب من علم المنازل والاهتداء بها فى الطرقات ولا شك ان مما يعرفه العرب فى المنازل أيضا دلالة القمر على حدوث المطر اذا حل فى أحدها وكانوا يعرفون ماله نوء واحد منها وما له انواء وما ليس له نوء أصلا وكان الامر يقع كما يقولون على ما بيناه سابقا وجاء فى الحديث الذى قدمناه عن الصحيحين ان النبى صلى الله عليه وسلم قال إثر سماء هل تدرون ماقال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فاما من قال مطرنا بفضل الله تعالى ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب واما من قال مطرنا بنوء كذا فهو كافر بى مؤمن بالكواكب ولا شك ان الامام الشافعى كان يعرف ذلك ايضا غاية الامر انه كان مؤمنا بالله تعالى كافرا بالكواكب كما هو شأن مثله رضى الله عنه ومتى علم ذلك علم انه كان يعرف رضى الله تعالى عنه كل ما كانت تعرفه العرب من الحوادث التى كانت تنسبها للكواكب غير انه رضى الله عنه كان ينسب الفعل والخلق الى الله تعالى وحده على حسب عقيدة السلف فى ارتباط المسببات بالاسباب كما هو الغالب أو على حسب عقيدة توافق عقيدة الاشاعرة فيها وأما قول الالوسى ان كثيرا من الفلاسفة وجمعا من اساطين الاسلام قد ردوه حتى انه الف ماينيف عن مائة مصنف الى آخره* فنقول فيه ان هذا العلم قد حرم الاشتغال به تعلما وتعليما كثير من اكابر العلماء على ما فصله الالوسى نفسه لكن تحريمه لم يكن لذاته بل لانهم رأوا فيه انه يشغل المكلف عن العلوم الشرعية التى تعلمها دائر بين كونه فرض عين أو فرض كفاية على حسب الحاجة اليه كما قدمناه فكان الاشتغال به مؤديا الى ترك الفرض على العين أو على الكفاية وترك الفرض كذلك حرام فما أدى اليه حرام فالذين قالوا بذلك يردونه طبعا لذلك ولا يقبلونه سدا للباب ولذلك قال هو أيضا رحمه الله وأعود فاقول الذى أراه فى هذا المقام ويترجح عندى من كلام العلماء الاعلام ان الله عز وجل لم يخلق شيئا باطلا خاليا عن حكمة ومنفعة بل خلق الاشياء علويها وسفليها جليلها ودنيها * الى ان قال فالاجرام العلوية مشتركة فى هذه الدلالة مختص كل منها بخاصة وشأن الكواكب فى خواصها وتأثيرها شأن النباتات والمعدنيات والحيوانات فى خواصها وتأثيرها فمنها ماخاصته فى نفسه غير متوقفة على ضم شئ آخر اليه ومنها ماخاصته متوقفة على ضم شئ آخر ومنها ما اذا ضم اليه شئ آخر اسقط خاصته وأبطل منفعته ومنها مايعقل وجه تأثيره ومنها مالا يعقل ومنها مايؤثر فى مكان دون مكان وزمان دون زمان ومنها مايؤثر فى جميع الازمنة والامكنة الى غير ذلك من الاحوال وكونها زينة للسماء لايستدعى نفى ان

يكون فيها منفعة أخرى على حد مافى الارض فقد قال سبحانه انا جعلنا ما على الارض زينة لها مع اشتمال الازهار وغيرها على مانعلم وما لانعلم من المنافع كذلك كونها علامات فى ظلمات البر والبحر وكونها رجوما للشياطين الى آخر ماقدمناه عنه فلا مانع حينئذ ان يجعل الله تعالى لكل جرم من الاجرام العلوية خاصة وتأثيرا باذنه تعالى فى الحوادث التى لاتكون على مجرى الامر الطبيعى كما جعل لكل واحد منها خاصة وتأثيرا فيما يجرى مجرى الامر الطبيعى وان يكون الشأن فى الكواكب كالشأن فى النباتات والمعدنيات والحيوانات حذو القذة بالقذة وأما قوله بعد ذلك ولا أقول ان لكوكب تأثيرا فى السعادة والشقاوة فنقول له نحن معك فى نفى تأثير الكواكب فى ذلك كما اننا نقول ليس لكوكب تأثير فى شئ اصلا بل التأثير كله لله تعالى وحده ولكن لامانع من ان الله تعالى يودع فى كوكب عند ظهوره فى وقت معين على حال معين قوة وخاصية فيه تؤثر باذن الله فى كون العبد سعيدا أو شقيا أو أن الله تعالى يجعل ظهور كوكب فى وقت معين على حال معين علامة ودليلا على حدوث تلك الحوادث بلا فرق بين السعادة والشقاوة وغيرهما مما لايجرى على الامر الطبيعى ودعوى الالوسى أن ذلك لايعرفه الا بعض الخواص فنقول فيه ان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولا حرج على فضله تعالى ومعرفة بعض الخواص كما تكون من طريق الكشف والالهام الالهى تكون أيضا بمباشرة أسباب المعرفة من طريق التعليم والتعلم على انه متى جاز أن الله تعالى يعلمه بعض الخواص فكيف لايكون علما جليلا وكيف يمنع عن تعلمه وتعليمه من طريقه كسائر العلوم الاترى كيف اعترف الالوسى بتأثير القمر فى البحار مدا وجزرا واختلاف ذلك باختلاف احوال القمر فكيف يقول بعد ذلك ولا أقول إن لكوكب تاثيرا فى السعادة والشقاوة ونحوهما مع انه لا فرق بين ما اعترف به وبين ما انكره من حيث العقل فان الكل ممكن عقلا ويجعل التاثير فى الامرين واحدا بالمعنى الذى يجب اعتقاده عقلا وشرعا وأيضا هو قال ولا يبعد أن يكون كوكب أو كواكب باعتبار بعض الى آخره وهذا اعتراف منه بصحة كون بعض الكواكب علامة على ما ذكر من السعادة والشقاوة وانما حصر معرفة ذلك فى بعض الخواص وادعى انه لاوثوق بما قاله الاحكاميون وأن كل مايقولونه ظن وتخمين الى آخر ماذكره فى هذا الصدد وهذا كله اعتراف منه بصحة العلم فى ذاته ومتانة قواعده وأن النزاع فى الطريق الموصل لمعرفته فقط

وأما ماساقه بعد ذلك من الخلاف بين الطوائف واختلاف الازياج وظهور الغلط فى كثير منها وأن آخر ماعلم حدوثه منها زيج لالنت والقسينى وفيه من المخالفة لماقبله من الازياج مافيه وأن هذا الزيج هو أضبط الازياج فيما يزعم المنجمون اليوم* فنقول إن منشأ الخلاف بين الطوائف على وجه ماذكر انما هو الخطأ فى الارصاد بواسطة اختلاف آلاته قصرا وكمالا باختلاف الازمان الا ترى انه جاء بعد زيج لالنت أزياج أخرى تخالفه ومما جاء بعده أزياج ذكر فيها تقويم نبتون الذى هو أبعد الكواكب السيارة المعروفة لغاية الآن عن الشمس وقد اكتشف فى ٢٤ أيلول سنة ١٨٤٦ واكتشافه برهان لاريب فيه على امكان اكتشاف اجرام سماوية أخرى سيارة كلما تقدمت آلات الرصد وزادت اتقانا وقوة فى مساعدة البصر على رؤية مابعد من هذه الاجرام (ويخلق مالاتعلمون) وبالجملة فكل زيج ياتى بناء على آلات رصدية أقوى يكون أضبط مما قبله وهذا لايضر بنفس العلم ولا بقواعده ولايدل على انه كله ظن وتخمين باطل بل هذا من قبيل الزيادة فى معلومات هذا العلم واتقان آلاته الرصدية فان علماء الاحكام بنوا مايقولون على القسم الوصفى الذى بحثوا عنه فى علم الهيئة ومبناه على القسم العملى منه كما أن مبنى القسم الطبيعى هو القسم العملى أيضا وأما كون الافرنج على مهارة كثير منهم بعلم الرصد لايقولون بما يقول به الاحكاميون

الاوائل والاواخر ويسخرون منهم فذلك لايدل على فساد هذا العلم فى ذاته وكم من علم تركه الافرنج وسخروا منه ومن أهله وهو من أجل العلوم موضوعا وفائدة وأنا على يقين ووثوق تام بان الافرنج الآن ماداموا مثابرين على الاشتغال بالعلوم الشرقية دائبين على التنقيب عنها وعلى مزاولتها بهمة ونشاط لا بد أن يجيء وقت يعتنون فيه بهذا العلم ويقفون على حقيقته لانه نتيجة لازمة لعلم الهيئة الذى أتقنوه اليوم وسيزيد اتقانه بزيادة الاستكشاف كلما ترقت آلات الرصد الاترى أن كثيرا من الافرنج قد عادوا الى القول بعلم الارواح وكل ماوراء الطبيعة واعتقاد صحة ذلك والاشتغال به بعد ان كانوا ينكرونه ويسخرون منه ومن أهله ولا يعترفون الا بالعلوم المتعلقة بالمادة والماديات على أن الالوسى نفسه قال فيما نقلناه عنه ان علم النجوم اذا كان عبارة عن العلم الباحث عنها باعتبار مايعرض لها من المقارنة والمقابلة والتثليث والتسديس وما عطف عليه مما يتعلق بالزيج أو عبارة عما يتوصل به الى ارتفاع الكوكب وانخفاضه وما عطفه مما قدمناه عنه لابأس فى تعلمه مطلقا وهذا الذى ذكره هو بعض مباحث علم الهيئة الذى هو من أقدم العلوم وخاضت فيه العرب جاهلية واسلاما كما قدمناه فى المقدمة وأن هذا العلم ينقسم الى ثلاثة أقسام وصفى وطبيعى وعملى وأن الوصفى هو مايبحث فيه عما يحدث فى الاجرام العلوية من حركات ومناظر وارتفاع وانخفاض ومقارنة ومقابلة وتثليث وتسديس وغير ذلك مما يشاهد من أوضاع الكواكب مفردة ومجملة وان الطبيعى هو مايبحث فيه عن علل تلك الحوادث التى يبحث عنها فى الوصفى وقواعدها وأما العملى فهو مايبحث فيه عن كيفية التوصل الى معرفة القسمين الاولين من آلات وحساب ومع ذلك فقد وقع بين علماء الهيئة قديما وحديثا خلاف كثير جدا فاختلفوا فى علة كل مايبحث عنه فى الوصفى فارجعه بعضهم الى حركتى الارض على محورها وحول الشمس وبعضهم الى حركة الفلك الاعظم وحركة لشمس والقمر وسائر الكواكب حركة ذاتية واختلفوا أيضا فى الحساب النوعى ومقدار السنة الشمسية فنهم من جعلها ثلاثمائة وخمسة وستين يوما فقط ومنهم من زاد على ذلك ست ساعات وثمان عشرة دقيقة ومنهم من زاد ست ساعات فقط ومنهم من زاد خمس ساعات وخمسا وخمسين دقيقة وثلاث عشرة ثانية وهكذا حتى بلغت الاقوال لغاية الآن ثمانية عشر قولا راجع كتاب أصول الهيئة ومع ذلك لم يقل أحد بناء على كثرة الخلاف بين علماء هذا العلم انه هذيان بل غاية مايقال ان البعض مخطئ والبعض مصيب ومنشأ الخطأ فى الحقيقة عند هؤلاء هو الخطأ فى القسم العملى غالبا والاختلاف فى آلات الرصد قوة وضعفا بحسب اختلاف الزمان وعلى فرض وجود خلاف فى قواعده فذلك لايقتضى ان العلم هذيان وباطل قال فى أصول علم الهيئة فى مدح هذا العلم لهذا العلم مزية على ماسواه من العلوم من جراء عظمة موضوعه وتدقيق فحصه وعمومية فوائده لكن تحصيله عسر والزيادة على مايعلم منه أعسر وهو لم يبلغ الى حالته الحاضرة الا بعد اتعاب جزيلة فى أزمان كثيرة اه فانظر كيف لم يمنع عسر تحصيل علم الهيئة وصعوبته من كونه له مزية على سواه ومن عموم فوائده واذا كان مبنى علم الاحكام على علم الهيئة وتحصيله عسير كان تحصيل علم الاحكام وهو فى ذاته عسير أيضا أشد عسرا ولكن كل هذا شيء وصحة العلم فى ذاته شيء آخر

وأما مانقله الالوسى عن أبى البركات البغدادى وبعد نقله قال وفيه من التأييد لبعض ماتقدم من الاوجه مافيه اه فنقول فيه قد قال ابو البركات ايضا ان كتابه قد اشتمل على تفصيل حسن وتمييز بين ماهو حق من علم الاحكام وبين ما هو باطل فدل ذلك على ان فى علم الاحكام ماهو حق فكيف يكون كله هذيانا وباطلا ونعم مافعل ابو البركات فان فى فعله كل البركات حيث سلك سبيل الانصاف ولم يسلك سبيل الاعتساف ولذلك لما لم يستطع الالوسى رد ماقاله ابو البركات التجأ الى ماتعوده فقال وأنا أقول ان الاحاطة بالاسرار

المودعة فى الاجرام لايبعد أن تحصل لبعض الخواص ذوى النفوس القدسية لكن بطريق الكشف ونحوه دون الاستدلال الفكرى والاعمال الرصدية فكانه ينكر كون الآلات الرصدية طريقا لهذا العلم مع ان الآلات الرصدية طريق لمعرفة حركات الاجرام وأوضاعها واختلافها وغير ذلك مما يبحث عنه علماء الهيئة فى القسم الوصفى وكل ذلك معلوم محسوس بالمشاهدة ونطقت به آيات القرآن وبعد ذلك علماء الاحكام بنوا أحكامهم على تلك الحوادث بطريق التجربة كما قدمناه فدلول الآلات الرصدية مما بنى عليه علماء الاحكام علمهم معلوم ومشاهد اما بالعين المجردة واما بالنظارات التى تعين العين على الابصار والكلام بعد ذلك فى أن هذه المناظر والاشكال والحركات وغير ذلك تؤثر فيما لا يجرى على الامر الطبيعى أو لا تؤثر الا فيما يجرى على الامر الطبيعى فهذا هو موضع الخلاف فكيف ينكر دلالة الاعمال الرصدية وما المانع من أن الله تعالى كما كشف لبعض الخواص عن ذلك العلم حتى عرفوا يكشف عن بعض الاسرار لهؤلاء الذين استعملوا كما أمرهم أفكارهم التى وهبها الله لهم ليتفكروا فى خلق السموات والارض واستدلوا بالعلامات التى جعلها الله دليلا عليها وهل هذا الا تحكم على الله تعالى فى فضله وهو سبحانه يؤتى فضله من يشاء ووعد الذين يدعونه باستجابة دعائهم والدعاء بلسان الحال بالاخذ فى الاسباب التى ربط الله بها مسبباتها أقرب الى الاجابة من الدعاء بلسان المقال وسلوك طريق للمعرفة غير معتاد لكل ذوى العقول مما يسلكه أهل الرياضات والمجاهدات أبعد عن العقل من الطريق المعتاد لان دعوى وجود طريق الكشف لا يمكن اقامة دليل عليها بخلاف دعوى معرفة علم الاحكام بطريق الاستدلال بالكواكب فانها يمكن المناظرة فيها ومطالبة مدعيها بالدليل

وأما ما نقله الالوسى عن الشيخ الاكبر محمد بن عربى الحاتمى الملقب بمحيي الدين فهو من قبيل الكشف الذى لايعرفه الا أربابه ولا يمكن مطالبة مدعيه بالدليل فلا يصلح حجة فى شيء غير ان دعواه ان الافلاك تسعة وان النقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع والنجباء حازوا علم الثمانية الافلاك التى دونه مبنية على ماقاله الفلاسفة المتقدمون من ان الافلاك تنحصر فى تسعة وقد علمت مما قدمناه عن الالوسى وغيره انه لا دليل على ذلك الانحصار من العقل ولا من النقل وان الواقع ايضا يخالفه لما ان حصرها فى ذلك العدد كان قبل اكتشاف اورانوس ونبتون وهما كوكبان من الكواكب السيارة وبعد اكتشافهما زادت الافلاك عن تسعة كما زادت الكواكب السيارة عن سبعة فلو سلمنا له دعواه يلزم أن يكون عدد النجباء عشرة لاثمانية ويجوز أن تتقدم الآلات الرصدية والاكتشافات العلمية فيظهر كوكب أو كواكب غير هذين الكوكبين ومقتضى كون النقباء حائزين علم الفلك التاسع بصفة كونه أعلى الافلاك وقد تبين انها أكثر من تسعة أن يكون النقباء حائزين علم الفلك الاعلى مهما كان عدد الافلاك التى دونه ويكون النجباء حائزين علم مادون ذلك من الافلاك ويكون عددهم بعدد الافلاك دائما وكشف الولى يخطئ تارة ويصيب اخرى على الوجه الآتى وذلك لان مايعلم بالكشف ويدرك بعين البصيرة قد يكون تارة بطريق اجمالية بان يكشف له مثلا أن النقباء حائزون لعلم الفلك الاعلى والنجباء حائزون لعلم مادونه ولا يكشف له عن عدد الافلاك ثم الولى بعد ذلك يطبق ماعلمه وأدركه بعين بصيرته على ماهو معروف فى عصره ويكون الخطأ فيما هو معروف فى مثل هذا وفى تطبيق ماعلمه من طريق الكشف عليه واما الكشف نفسه فمتى كان رحمانيا لا يخالف شرعا ولا عقلا فلا خطأ فيه عند صاحبه فلعل الشيخ الاكبر عين عدد النقباء والنجباء وقال انهم لايزيدون ولا ينقصون مجاراة لما كان معروفا فى زمنه من أن الافلاك تسعة لايزيدون ولا ينقصون وعلى كل حال فكلام الشيخ الاكبر يصرح بان للكواكب تأثيرا حيث يقول كل نقيب عالم بخاصية كل برج الى آخره وصريح فى أن علم تسيير الكواكب له طريقان طريق الكشف والطريق المعلومة عند العلماء بهذا الشأن والالوسى يعترف بهذا فى كلامه وبان الشيخ الاكبر صرح بما صرح به المنجمون الى آخره ولذلك عاد الى الحق فقال وأنا لا أزيد على القول بان للاجرام العلوية

كوا كبها وأفلا كها أسرارا وحكما وتأثيرات غير ذاتية بل مفاضة عليها الى أن قال ومنها ماهو علامات لماشاء الله ولايتم دليله على نفى ماذكر الى آخر ماقال هنا ولاشك أن المحققين من علماء الاحكام الإسلاميين لا يقولون الا بهذا القدر من أن للاجرام العلوية كوا كبها وأفلا كها أسرارا وحكما وتأثيرات غير ذاتية الى آخر ماقاله من أن منها ماهو علامات لماشاء الله تعالى * فان كان الالوسى يقول إنه تعالى لم ينشأ جعلها علامات على السعادة والشقاوة فليقم الدليل على دعواه ودون ذلك خرط القتاد وبذلك يكون الالوسى بقوله وأنا لا أزيد على القول الى آخره قد نقض كل ما ابرمه فى ابطال علم الاحكام والرد على علمائه الذين يقولون ان تأثيرات الكوا كب غير ذاتية بل مفاضة عليها من جانب الى الحق والفياض المطلق جل شأنه

وأما ماساقه مما يتعلق باطلاع النبى صلى الله عليه وسلم وغيره من إخوانه الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فنقول مما لاشك فيه أن رسولنا صلى الله عليه وسلم ثبتت رسالته بغير علم الغيب بل هو صلى الله عليه وسلم لم يدع علم الغيب بل القرآن صريح فى تبرمه من تلك الدعوى ونفيها عنه حيث قال تعالى حكاية عنه صلى الله عليه وسلم (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء) فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى وإخوانه عليهم الصلاة والسلام مثله صلى الله عليه وسلم غاية الامر أن الله تعالى تكميلا له وزيادة فى معلوماته صلى الله عليه وسلم أطلعه على ماشاء من غيبه وليس هذا من قبيل علم الغيب فى شىء بل هو من قبيل تعليمه وتعريفه علم الغيب كما يقتضيه قوله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) فيستوى بعد ذلك أن يعلمه علم أحكام النجوم ويطلعه على اسرارها وحكمها وتأثيراتها بالطريق الذى يعرفه علماء هذا الشأن أو يعلمه بغير تلك الطريق ويكون الاعجاز فى تعلمه ذلك العلم على الحالين بغير واسطة البشر ومثله فى ذلك كمثل سائر العلوم المفاضة عليه صلى الله عليه وسلم من جانب الحق على أن الاخبار بالغيب على أى وجه كان لا تتوقف عليه رسالته لثبوتها بمعجزات أخر

وأما ما ساقه من حكم الاشتغال بعلم الاحكام وبعلم السحر وقد قدمنا ذلك مفصلا فى المقدمة فنقول لك هنا اجمالا أن كل علم قال الناس فيه انه قبيح فالجهل به أقبح وتعلم علم الشر لاتقاء الشر والوقوع فيه ودفعه عن الخلق فضيلة كبرى والعلم كله كمال والجهل كله نقص ولا يعرف مقدار ذلك الامن وفقه له خالق الخير والشر

وبعد أن ذكرنا ماتقدم نذكر لك تتميما للفائدة بعض ماقاله بعض الفلاسفة الالهيين فى تأثير الكوا كب والاجرام السماوية فى العالم السفلى الذى هو عالم الكون والفساد وعالم المواليد الحيوان والنبات والمعدن ملخصا من كتاب اخوان الصفا فنقول قالوا ان الاركان الاربعة التى هى النار والهواء والماء والارض اذا اختلطت أجزاؤها بعضها ببعض كان منها المتولدات الكائنات الفاسدات التى هى المواليد الثلاثة المذكورة وأن أصل هذه المولدات كلها ومادتها هى الابخرة والعصارات اذا امتزج بعضها ببعض وأن البخار هو مايصعد من لطائف البحار والانهار والآجام فى الهواء بواسطة اسخان الشمس والكوا كب لها بمطارح شعاعاتها على سطوح تلك البحار والانهار والآجام واما العصارات فهى مما ينجلب فى بطن الارض من مياه الامطار ويختلط بالاجزاء الارضية وتغلظ وتنضجها الحرارة المنشطة فى عمق الارض فاذا استحالت الاركان الاربعة المذكورة الى هذين الخلطين البخار والعصارات صار هذان الخلطان هيولى ومادة لسائر الكائنات الفاسدات التى تحت فلك القمر وسبب ذلك أن الشمس والكوا كب اذا اسخنت المياه باشراقها على سطح الارض والبحار والانهار والآجام حلت أجزاء المياه ولطفت أجزاء الارض وصارت بخارا ودخانا والبخار والدخان يصيران سحابا والسحاب يصير أمطارا والامطار اذا بلت التراب واختلطت الاجزاء الارضية بالاجزاء المائية تتكون منها العصارات والعصارات تكون مادة وهيولى للكائنات الثلاث المذكورة اه

وتوضيح هذا ان الله تعالى بدأ خلق كل نوع من أنواع الحيوانات والنباتات والمعادن أولا من تلك المادة مباشرة بدون واسطة ثم بعد ذلك صار الخلق منها بواسطة الاغذية التى تتكون من هذه العصارات التى تكونت من الاجزاء الارضية والمائية المختلطتين * مثلا خلق الله آدم وحواء من الطين مباشرة بعد أن صار حمأ مسنونا ثم صار صلصالا كالفخار ثم سواهما وأنشأهما خلقا آخر ثم جعل خلق نسلهما وذريتهما بعد ذلك بطريق التناسل من سلالة من طين ثم من ماء مهين والماء المهين يرجع بالآخرة الى الغذاء والغذاء يرجع بالآخرة الى مبدا الاجزاء الارضية المختلطة بالاجزاء المائية وهى تلك العصارات التى هى هيولى ومادة الكائنات الفاسدات وهكذا يقال فى سائر أنواع المواليد الثلاث على اختلافها فى طريق التوالد والتناسل والتكوين وإذا رجعت الى القرآن تجده ناطقا بذلك فى كثير من الآيات فقد جعل من الماء كل شىء حى والحياة حيوانية ونباتية ومعدنية وخلق من كل شىء زوجين وهكذا والله على كل شىء قدير وبكل شىء عليم ثم قال فى ذلك الكتاب ان الكون والفساد صفتان لا يجتمعان فى شىء واحد فى زمان واحد لان الكون هو حصول الصورة فى الهيولى والفساد هو انخلاعها منها فاذا فسد شىء فلا بد ان يتكون شىء آخر لان الهيولى اذا انتزعت منها صورة ألبست صورة أخرى فان كانت التى البستها اشرف تسمى كونا وان كانت أدون تسمى فسادا ومثال ذلك اذا صار التراب والماء نباتا وصار النبات حبا وثمارا وصار الثمار والحب غذاء وصار الغذاء دما ولحما وعظما وتكون من ذلك حيوان سمى ذلك كله كونا والفساد أن يحترق النبات فيصير رمادا أو يموت الحيوان فيصير ترابا وان الانسان وان كان حيوانا وهو أحد هذه الكائنات لكن اختص به نفس ناطقة فصار جسده بالنسبة الى نفسه التى اختصت به كالدار بالنسبة للساكن أو كاللباس بالنسبة للابس فاذا خرب المسكن أو بلى اللباس فالساكن لا يخرب واللابس لا يبلى فالكون والفساد انما يتناوبان على جسدك الذى هو من عالم الكون أو الفساد واما نفسك الناطقة فهى جوهرة خالدة ابدية الوجود وانما تنتقل من حال الى حال كما روى فى الخبر عن على بن ابى طالب كرم الله تعالى وجهه انه قال فى خطبة له (انما خلقتم للابد ولكن من دار الى دار تنقلون من الاصلاب الى الارحام ومن الارحام الى الدنيا ومن الدنيا الى البرزخ الى الجنة أو الى النار اه) فمن جعل همه فى النظر الى نفسه وطلب معرفة جوهرها ومبدئها ومعادها وعمل لما بعد فساد الجسد كملت نفسه وانتقلت الى جهة عالية قطوفها دانية وان فرط فى واجباته التى أوجبها الله عليه أو أفرط فى شهواته التى حرمها الله عليه ولم يعمل لما بعد الموت فامه هاوية وما أدراك ماهيه نار حاميه وقالوا أيضا كما فى الكتاب المذكور ان الذين تكلموا فى الحوادث الكائنات التى دون فلك القمر من الفلاسفة والحكماء كانوا ينسبونها وكل الآثار والافعال الى الطبيعة وان قوما من العلماء أنكروا أفعال الطبيعة وأنكروا الطبيعة أيضا وان سبب انكار هؤلاء لما قاله الحكماء والفلاسفة هو عدم وقوفهم على حقيقة مايقولون وذلك ان الفلاسفة والحكماء قالوا ان الطبيعة هى قوة من قوى النفس الكلية منبثة منها فى جميع الاجسام التى دون فلك القمر سارية فى جميع أجزائها تسمى باللفظ الشرعى الملائكة الموكلين بحفظ العالم وتدبير الخليقة باذن الله تعالى وتسمى باللفظ الفلسفى قوى طبيعية وهى فاعلة فى هذه الاجسام باذن البارى جل ثناؤه والذين أنكروا الطبيعة وأفعالها انما ذهب عليهم هذه التسمية وظنوا أنها متوجهة نحو الجسم وان القوى الطبيعية أوصاف وكيفيات قائمة بهذه الاجسام مع أنهم لو رجعوا الى أن الجسم من حيث هو جسم لافعل له ولا تأثير له ألبتة باجماع العقلاء واتفق عليه الفريقان بدلائل قد صحت وبراهين قد قامت عند الجميع لو رجعوا الى هذا والى أن مع هذا الجسم جوهرا آخر روحانيا غير مرئى لتحققوا أن هذه الاجسام على اختلافها وكثرة أنواعها بمجردها لافعل لها ولا للاعراض الحالة فيها وانما الافعال كلها للجوهر الروحانى الذى هو النفس وأما الجسم واعراضه فانها للنفس بمنزلة الادوات والآلات لصانع من الصناع يظهر بها وعنها أفعاله كما ترى ذلك فى صناع

البشر فانهم بادواتهم الجسمانية يظهرون صنائعهم فى الاشياء * مثال ذلك النجار فانه يظهر أفعاله فى الخشب الذى هو جسم طبيعى بآلات وأدوات هى جسمانية طبيعية أيضا كالفأس والقدوم والمنشار والمثقب وغير ذلك وكلها أجسام صناعية طبيعية وأجسام الصناع أيضا هى من الاجسام الطبيعية فكذلك هنالك نفس كلية فلكية لها قوى هى جواهر تسمى بذلك اللسان الفلسفة وبالملائكة بلسان الشرع والطبيعة قوة من هذه القوى وانه لا فعل الا للنفس وانها تفعل ما تفعل بقواها السارية فى جميع الاجسام وان الاجسام كلها أدوات وآلات ومفعولات لها * ونظير ذلك الفكر والعلم بمعنى الملكة آلات للنفس فى ادراك المعقولات والمعلومات واخراجها من القوة الى الفعل وان كان الفكر حركة النفس والعلم بمعنى الملكة من الكيفيات النفسية وتلك القوى التى منها الطبيعة جواهر وعلى ذلك تكون الاجسام البسيطة التى دون فلك القمر هى هيولى ومواد موضوعة للطبيعة التى هى تلك القوة الجوهرية فهى تفعل باذن الله تعالى فيها جميع الاشكال والصور وتصنع منها الحيوان والنبات والمعدن وان الاشخاص الفلكية ليست بالنظر اليها الا كأدوات وآلات للصانع وذلك أن الفلك على ما قالوا يدوم دورانه حول الارض فى كل أربع وعشرين ساعة دورة وبحركات كواكبه ومطارح شعاعاتها فى سمك الهواء على سطح الارض والبحار وإسخانها تحلل المياه فتصيرها بخارا وتلطف أجزاء الارض فتصيرها دخانا ويختلطان ويكون منها ضروب المزاجات كما يكون من اصباغ المصورين * هذا على رأى الفلاسفة الاقدمين وان شئت قلت ان الارض تدور على محورها فى كل أربع وعشرين ساعة دورة وبحركات الكواكب ومطارح شعاعاتها الى آخر ما ذكرناه فان هذه المناظر وهذه الافعال والانفعالات والآثار لا تتغير بل كل ذلك نظام دائم فى عالم الكون والفساد سواء قلنا إن الدورة اليومية التى ينشأ عنها ما ذكر حركة منسوبة لحركة الفلك الاعظم كما يقول فريق او لحركة الارض على محورها كما يقول علماء الهيئة اليوم * ثم ان القوة المسماة بالطبيعة التى هى من افراد قوى النفس الكلية تنقش وتصور وتصوغ من تلك المزاجات والاخلاط أجناس الكائنات التى هى الحيوانات والنباتات والمعادن وكل ذلك باذن الله تعالى وإرادته وقدرته وأن أول اختلاط ومزاج يحدث فى الاركان الاربعة تغييرات الهواء وحوادث الجوّ لسهولة انفعاله وسرعة استحالته ثم حال المياه ثم حال بقاع الارض وذلك انهم قالوا ان كرة الهواء محيطة بكرة الارض من جميع جهاتها وأن سمكها من ظاهر سطح الارض الى أدنى فلك القمر مثل قطر الارض ست عشرة مرة ونصفا وأن سمكها ينفصل بثلاث طبائع متباينة إحداها مما يلى سطح فلك القمر والأخرى مما يلى الارض والثالثة هى الوسط منه وذلك ان الهواء الذى مما يلى فلك القمر نار سموم فى غاية الحرارة يسمى الاثير والذى فى الوسط بارد فى غاية البرودة يسمى الزمهرير والذى يلى سطح الارض معتدل المزاج فى موضع دون موضع يسمى النسيم وأن العلة فى اختلاف هذه الطبائع الثلاث هو ان الهواء المماس لفلك القمر لدوام دورانه معه وسرعة حركته قد حمى حميا شديدا حتى صار نارا سموما ثم لما كان منهبطا الى اسفل كانت حركته ابطأ وأقل لحرارته وكلما قلت الحرارة غلبت البرودة فلا يزال كذلك الى ان يصير فى غاية البرودة التى تسمى الزمهرير والذى يلى سطح الارض معتدل المزاج فى موضع دون موضع ولا يكون سمك كرة الاثير بالاضافة الى كرة الزمهرير إلا يسيرا ولولا مطارح شعاعات الشمس والقمر والكواكب على سطح الارض وانعكاسها فى الهواء وإسخانها له لكان الهواء المماس لظاهر سطح الارض أشد بردا مما سواه كما يعرض ذلك تحت قطب الشمال وذلك انه يصير هنالك ستة اشهر ليلا كلها فيبرد الهواء بردا شديدا وتجمد المياه ويظلم الجو ويغلظ ويهلك الحيوان والنبات وأما فى مقابلة هذا الموضع مما يلى قطب الجنوب يكون فى هذه الاشهر الستة نهارا كله فيدوم إشراق الشمس الكلى على تلك البقاع ويتصل

انعكاس شعاعاتها الى الهواء فيحمى ويسخن اسخانا شديدا حتى يصير نارا سموما محرقا للحيوانات والنباتات * وعلة أخرى هى أن الشمس فى وقت مسامتتها لهذه البقاع تكون قريبة من الارض لأن حضيضها فى آخر القوس فاما إذا كانت فى البروج الشمالية فان تحت قطب الشمال يكون أيضا ستة اشهر نهارا كله لكن لا تسخن تلك البقاع كاسخانها البقاع التى تحت قطب الجنوب لانها تكون بعيدة عن الارض مرتفعة الى الفلك لان اوجها فى آخر الجوزاء وبين بعدها فى الاوج وقربها فى الحضيض مقدار قطر الارض مائة مرة ومن أجل هذا صار العامر من الارض فى الربع الشمالى من خط الاستواء الى نيف وست وستين درجة وهو بين ممر رأس الحمل على سمت الرأس الى حيث ممر الكف الخضيب على سمت الرأس وفى هذا الربع الاقاليم السبعة وعلى سمت هذه الاقاليم يخترق من الهواء النسيم اكثر وفى هذه البلدان تعتدل الطبائع وتارة يزيد سمك كرة النسيم وارتفاعه وتارة ينقص بحسب زوايا شعاعات الشمس والكواكب المنعكسة فى طرفى النهار وأنصافه وايام الشتاء والصيف وذلك ايضا بحسب ارتفاعات الشمس والكواكب من الأفاق وممراتها على سمت البقاع وبيان ذلك ان الزوايا التى تحدث من انعكاس شعاعات الكواكب والشمس على وجه الارض ثلاثة أنواع حادة وقائمة ومنفرجة وهذه الزوايا كلها مسخنة للمياه والارض والهواء محركة لها ولكن اشدها اسخانا الزوايا الحادة ثم القائمة ثم المنفرجة * ولما كانت الزوايا المنفرجة بعضها اشد انفراجا من بعض والحادة بعضها أحد من بعض والزوايا القائمة كلها متساوية بينوا متى تكون الزوايا منفرجة ومتى تكون قائمة ومتى تكون حادة فقالوا اذا ابتدأت الشمس من الافق أو القمر أو أى كوكب كان من الكواكب وأشرقت اشعتها على وجه الارض والبحار فان زوايا شعاعاتها كلها تنعكس منفرجة فى غاية الانفراج ثم لا تزال كلما ارتفعت يقل انفراجها وتتضايق حتى اذا صار الارتفاع خمسا وأربعين درجة صارت زوايا انعكاس الشعاع كلها قائمة فى تلك البقعة فقط فاذا زاد الارتفاع نقصت الزوايا وضاقت وصارت حادة ولا تزال كلما ارتفعت وزاد ارتفاعها زادت الزوايا حدة الى ان تسامت الكواكب البقعة فتنطبق الزوايا وتلتقى الاضلاع فاذا زالت الى ناحية المغرب انفصلت الاضلاع وانفتحت الزوايا الحادة فى غاية الحدة ولا تزال كلما انحطت الشمس أو أى كوكب كان ازدادت الزوايا انفراجا الى أن يصير الارتفاع من جهة الغرب خمسا وأربعين درجة مرة ثانية فتصير الزوايا كلها قائمة مرة اخرى فاذا نقص الارتفاع عن خمس وأربعين درجة صارت الزوايا كلها منفرجة ولا يزال كلما انحط الكوكب الى المغرب انفرجت الزوايا الى وقت الغروب فتصير كلها فى غاية الانفراج كما كانت غدوة فمن اجل هذا صارت انصاف النهار اشد حرارة من طرفيه لان الزوايا بالغدوات والعشيات تكون منفرجة وفى انصاف النهار تكون حادة وفيما بين الوقتين تكون قائمة ويكون الجو متوسطا بين الحرارة والبرودة ولا يكون نصف نهار الشتاء شديد الحر كما يكون نصف نهار الصيف لان ارتفاع الشمس فى الشتاء لا يبلغ خمسا وأربعين درجة وقالوا ان أكثر ما يكون سمك كرة النسيم ستة عشر ألف ذراع ارتفاعا فى الهواء وأقله ما يطابق سطح الارض * وبينوا ذلك بما يطول وليس له كبير تعلق بما نحن بصدده من ارتباط العالم العلوى بالسفلى وتأثير الاول فى الثانى وكل ما قالوه على وجه ما ذكر صحيح ومشاهد أو ثابت بالأدلة الحسابية والهندسية التى هى براهين قطعية ما عدا ما قالوه من ان كرة الهواء ينفصل سمكها بثلاث طبائع متباينة نار سموم فى غاية الحرارة وزمهرير فى غاية البرودة ومعتدل وأن العلة فى اختلاف هذه الطبائع الثلاث هو أن الهواء الى آخر ما تقدم لان ذلك مبنى على ان منشأ الحرارة هو الحركة ومطارح اشعة الكواكب وان الشمس ليست حارة وهو خلاف الواقع والحق ان الهواء كله كرة واحدة وطبيعة واحدة وانما يكون معتدلا فى موضع دون موضع على الوجه الذى فصلناه فى المناطق الخمس التى انقسمت اليها الارض تبعا للمناطق الخمس التى انقسمت اليها السماء واختلفت حرارة وبرودة واعتدالا للعلة التى قدمناها واشير اليها هنا أيضا ثم قالوا أيضا ان أول ما يقبل الهواء من التغيرات والاستحالات هو النور

والظلمة والحر والبرد * ثم مايحدث فيه من اختلاف الرياح من كثرة البخارات المتصاعدة والدخانات الصاعدة
المطبقة ويتبعها الزوابع والهالات والضباب والغيوم والرعود والبروق والصواعق والهزات ثم الامطار والطل
والندى والصقيع والثلوج والبرد وقوس قزح والشهب وكواكب الاذناب ومايتبع هذه من هيجان البحار والمد
والجزر في البحار والانهار وهذه التغيرات التي تكون في الجو يحدث بعضها في سمك النسيم وبعضها في سمك
كرة الزمهرير وبعضها في سمك كرة الاثير وبعضها في السطوح المشتركة بينها فلذلك فصلوا كل واحدة منها على وجه
يطول ولا يهمنا فيما نحن بصدده لانه مبني على ماقالوه من انقسام الهواء الى ثلاث طبائع متباينة وقد علمت مافيه
ثم قالوا إن للقمر حالات ومنازل واتصالات بالكواكب وهي الموجبة لاثارات البخارات والدخانات والتسخين
الموجبة لوجود الرياح التي هي عبارة عن تموج الهواء في جهات مختلفة على مابيناه سابقا فقالوا إن للقمر ثمانية
وعشرين منزلا كما ذكر الله تعالى فقال جل شأنه (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) ولهذه
المنازل خواص يظهر تأثيرها في هذه الاركان الاربعة وفي المكونات منها عند نزوله يوما بيوم وليلة بليلة
وللشمس والكواكب أيضا اتصالات بالكواكب وبعضها ببعض تقوى أفعالها وتأثيراتها فيما ذكر أيضا وهي
وان كانت كثيرة مبينة في كتب الاحكام لكن نذكر منها مالابد من ذكره ليكون نموذجا للباقي منها فنقول إن من
تلك المنازل مايقوى افعاله في إثارة البخارات من البحار والبطاح والآجام ومنها مايقوى أفعاله في إثارة
الدخانات من وجه الارض والبراري ومنها مايقوى فعله في تبريد الهواء وزيادة الماء ومنها مايقوى فعله في
اسخان الهواء ونقصان المياه وخاصته اذا اتفق نزول القمر بمنزل وكان اتصاله بكوكب مشاكل فعله لخاصية المنزل
وكل ما قاله علماء الاحكام مما هو متفرع على تلك التأثيرات الطبيعية معقول لان علله ظاهرة وماعدا هذا فلا
يقول به الافريق منهم والزاجر أيضا يقول بذلك ولهذا ماقالوا في بيان علة وجود قوس قزح إنها اشراق الشمس
على اجزاء البخار الرطبة الواقف في الهواء المستعد لان تسيره الرياح الى بلد ميت فيحيي به باذن الله تعالى وانعكاس
شعاع الشمس منه الى ناحيتها والوانه التي ترى أربعة مطابقة للكيفيات الاربع التي هي الحرارة والبرودة
والرطوبة واليبوسة ولخاصية الاركان الاربعة التي هي النار والهواء والماء والارض ولفصول الزمان الاربعة
التي هي الصيف والخريف والشتاء والربيع ولمشابهتها الاخلاط الاربعة التي هي الصفراء والسوداء والدم
والبلغم ومشاكلة ألوانه ألوان زهر النبات قالوا ان هذه القوس اذا حدثت وكانت اصباغها متشعبة
دلت على ترطيب الهواء وكثرة العشب والكلأ وزكاة ثمر الشجر وحب الزرع فيكون ظهورها
ورؤيتها كالبشارة التي تقدمها الطبيعة للحيوان والناس منذرة ومعلمة بشريف الزمان وخصبه
وأما ما يقوله العامة من ان حمرتها تدل على اهراق الدماء في تلك السنة وصفرتها تدل على الامراض
فيها وزرقتها تدل على الجدب وخضرتها تدل على الخصب وعلى حسب كثرتها وقلتها تكون
دلالتها فان هذا يكون دليلا عند الزاجر وأهل الفراسه ولا علاقة لها بعلم أحكام النجوم وكذا يقال فيما
يتعلق بالسعادة والشقاوة والسعد والنحس وما ماثل هذا فان علماء الاحكام بها على ان المراد منها سعادة وشقاوة
وسعد ونحس ترتبط تمام الارتباط بالحوادث التي تجري على الامر الطبيعي فان قوس قزح مثلا اذا دل حدوثه
متشعب الاصباغ على ترطيب الهواء وكثرة العشب والكلأ وغير ذلك مما سبق باعتبار أن علة وجوده هي
اشراق الشمس على أجزاء البخار الرطبة الواقعة في الهواء المستعدة لان تسوقها الرياح الى بلد ميت فيحيا به فلا
شك ان هذا سعادة لاهل هذا البلد وسعد لهم كما ان ضد هذه الحالة شقاوة ونحس لهم وبالجملة فالفلاسفة
الاسلاميون الصالحون لم يثبتوا شيئا من الآثار للكواكب لذاتها ولا لحركاتها ولا لاتصالاتها ولا لاوضاعها ولا
لاشكالها ولا لطبائعها وانما جعلوا هذه الكواكب بحركاتها واتصالاتها وأوضاعها وأشكالها وغير ذلك آلات

وأدوات مسخرات باذن الله تعالى للانفس الجوهرية المسماة بالقوى الطبيعية في اصطلاح الفلاسفة وبالملائكة
الموكلين بحفظ المخلوقات وتدبير الخليقة باذن الله تعالى وارادته وقدرته بلسان الشرع وتلك الجواهر سواء سميت
قوى طبيعية كما هو عند الفلاسفة أو سميت ملائكة كما هو عند أهل الشرع وآلاتها وأدواتها والأفعال
والحوادث المترتبة على ذلك كله مخلوقة لله تعالى وأثر من اثاره سبحانه لافاعل سواه ولا خالق الا هو جل شانه
ولكن أفعاله تعالى التي يخلقها على يد الملك او الانسان أو الحيوان أو بأي واسطة كانت لكونها حادثة موجودة
بعد العدم يستحيل عقلا ولا يمكن بحال أن تقوم بذاته تعالى ومن ضروريات وجودها واحداثها أن تكون
قائمة بموصوف أجراها سبحانه علي يد من أجراها على يده وجعله سببا في وجودها أو خلقها فيه وجعله محلا لها لا
فرق في ذلك بين مايجريه على أيدي خلقه من العالم العلوي أو العالم السفلي ويكون لهم في وجوده مدخل
واختيار وبين مايخلقه فيهم بدون أن يكون لهم فيه شيء من ذلك وجعل لكل واحد من هذه الخلائق قدرا يليق
على حسب حكمته العالية سبحانه من فاعل حكيم أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ومن ذلك أيضا نعلم ان علم الاحكام
حسبما دونه علماؤه انما هو كغيره من العلوم قواعد كلية عامة لمعرفة تأثيرات الكواكب في الحوادث بواسطة أو
بغير واسطة والكل باذن الله تعالى وتدبيره وارادته وقدرته وأما معرفة الجزئيات وتطبيق هذه القواعد عليها
وأخذ تلك الجزئيات على حسب مايطابقها فهذه المعرفة تابعة لقواعد علم الفلك والهيئة باقسامه الثلاثة المتقدمة
ومدار قواعده على القسم الطبيعي والعملي أولا ثم على القسم الوصفي آخرا وقد علمت ان كلا من القسم الوصفي
والطبيعي مبني على القسم العملي والقسم العملي يرجع الى الحساب وآلات الرصد والاعمال الهندسية والكثير
من ذلك كله صار الآن معلوما بالحساب والآلات الرصدية والادلة الهندسية بطريقة قاطعة قديما وحديثا فما يتعلق
بالكواكب السبعة السيارة المعروفة المشهورة لدى الخاص والعام وما نسب لكل واحد منها من الآثار فيما يجري
مجرى الطبيعي ثابت اما بالمشاهدة بالعين المجردة أو بواسطة الاستعانة بآلات الرصد أو بالحساب والادلة الهندسية
القطعيين وما رتبه علماء الاحكام على تلك الآثار مما لا يجري علي مقتضى الامر الطبيعي أخذوه بطريق
التجربة المتكررة ومما لا شك فيه ان أوضاع تلك الكواكب السبعة ومناظرها وأشكالها وكل ما يتعلق بها
من الحركات معلوم ومتكرر في كل سنة ولا يتوقف معرفة ما يترتب على ما ذكر من الحوادث التي لا تجري
على مقتضى الامر الطبيعي الا على معرفة تلك العلل لانها تابعة للحوادث الجارية على مقتضى الامر الطبيعي
تحدث بحدوثها فكما لا تتوقف تلك الحوادث الا على ماذكر لا تتوقف هذه الحوادث ايضا الا على ماذكر ومن
ذلك تعلم ان الخطأ أو الخلل أو الغلط لا يوجد واحد منها في العلم نفسه وقواعده التي اتفق عليها الكل
وانما يتطرق الخلل والخطأ والغلط الى ما اختلفوا فيه وهذا لا يختص بهذا العلم بل ذلك جار في كل ما اختلف
فيه العلماء من العلوم واما الخطأ والغلط في تطبيق الجزئيات على تلك القواعد فينشأ إما من جهل
من باشر العمل أو عدم ضبطه وخطئه في الاعمال الحسابية أو القصور في الآلات الرصدية أو نحو ذلك
ولولا خوف الاطالة والملل لاشبعنا الكلام فيما يتعلق بعلم الاحكام وعلم السحر وغيرهما من علوم الاسرار
والحقائق التي لو ظهرت لسحرت الالباب وأدهشت العقول مما أودعه الله تعالى من أسرار الحكمة
في كل ذرة من ذرات العالم علويه وسفليه والله بكل شيء عليم وهو العزيز الحكيم ومن أراد الوقوف
على بعض ما يتعلق بعلم الاحكام وبالسحر والعزائم والزجر والفراسة وغير ذلك فعليه برسائل اخوان الصفا
خصوصا الرسالة الحادية عشر من القسم الرابع منه ولكن كلا من العلم والعمل يحتاج الى موقف موفق
فان قلت ماذا تقول في قوله تعالى (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا
إن أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا) قلت قال الالوسي في تفسيره وغيره في غيره
بمعناه استئناف مقرر لقبح الشرك وان الله يحفظ السموات والارض كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا

وتضمحلا فان الممكن كما يحتاج الى الواجب سبحانه حال ايجاده يحتاج اليه حال بقائه وقال الزجاج يمسك بمعنى يمنع وان تزولا مفعوله على الحذف والايصال لانه يتعدى بمن أي يمنعهما من ان تزولا * وفي البحر يجوز ان يكون ان تزولا بدل اشتمال من السموات والارض أي يمنع سبحانه زوال السموات والارض وبعضهم فسر الزوال بالانتقال عن المكان أي ان الله تعالى يمنع السموات من ان تنتقل من مكانها فترتفع أوتنخفض ويمنع الارض أيضا من ان تنتقل كذلك * وفي أثر أخرجه ابن حميد وجماعة عن ابن عباس ما يقتضيه وقيل زوالهما دورانهما فهما ساكنتان والدائرة بالنجوم افلاكها وهي غير السموات فقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد عن شقيق قال قيل لابن مسعود ان كعبا يقول ان السماء تدور في قطبة مثل قطبة الرحى في عمود على منكب ملك فقال كذب كعب ان الله تعالى يقول (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا) وكفى بها زوالا ان تدور والمقرر عند السلف ان السموات لاتدور وانها غير الافلاك وكثير من الاسلاميين ذهبوا الى انها تدور وانها ليست غير الافلاك واما الارض فلا خلاف بين المسلمين في سكونها والفلاسفة مختلفون والمعظم على السكون ومنهم من ذهب الى انها متحركة وان الطلوع والغروب بحركتها ورد ذلك في موضعه والاولى في تفسير الآية ماسمعت أولا وكذا كونها مسوقة لما ذكرنا (ولئن زالتا) أي اشرفتا على الزوال على الفرض والتقدير وقيل ان ذلك اشارة الى مايقع يوم القيامة من طي السموات ونسف الجبال (ان امسكهما من أحد من بعده) أي ما امسكهما من أحد من بعده أي من بعد امساكه تعالى أومن بعد الزوال (إنه كان حليما غفورا) فلذا حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضى لتعجيل العقوبة وعدم امساك السموات والارض وتخريب العالم الذى هم فيه اه مع حذف مالاحاجة اليه * وقد قدمنا لك حقيقة الحال في مايتعلق بالسموات وكونها ساكنة أو متحركة غير الافلاك أو عينها وانها ليست هي الا الاجرام السماوية أي الكواكب ومداراتها التي هي جزء من السموات التي يجب بمقتضى ان النجوم تسبح في افلاك هي منها أن تكون جرما يمكن فيه السباحة كالماء أوالهواء عملا بما ورد أن الكواكب تسبح في افلاكها كما يسبح السمك في الماء وكما يقال لجرى السمك في الماء سباحة كذلك يقال لجرى الفرس ونحوه كالطير في الهواء سباحة وحقيقة الحال فيما يتعلق بالارض وكونها دائرة أوساكنة والخلاف في ذلك بين علماء الهيئة قديما وحديثا اسلاميين وغيرهم * فدعوى الالوسى أنه لا خلاف بين المسلمين في سكونها دعوى لاحقيقة لها على أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يتكلموا في سكون الارض ولا في دورانها ولم يخض المسلمون في ذلك الا بعد دخول فلسفة اليونان في بلاد المسلمين ونقلها الفارابي من فلاسفة المسلمين في كتبه العربية في اوائل القرن الرابع من الهجرة وتبعه ابن سينا وغيره ممن جاؤا بعده ونقلوا الخلاف في سكونها ودورانها وممن نقل الخلاف في ذلك صاحب المواقف كما قدمنا ذلك مفصلا وكما هو معروف مشهور وقد اقتصر الالوسى وكثير غيره من المفسرين في تفسير الآية على بيان معاني الفاظها لغة وبيان الغرض الذى سيقت له ولكن لم يتعرضوا لبيان القوة التي أودعها الله سبحانه في السموات والارض وكانت سببا في امساكهما عن الزوال باذن الله تعالى بها أوعندها على خلاف العلماء في مثله

ولبيان ذلك نقول قال في كشف الاسرار القرآنية في تفسير هذه الآية انه تعالى خلق في جميع الاجسام قوة التماسك في اجزائها المفردة وخلق قوة الانجذاب في جميع الاجرام تقريرا للتوحيد وابطالا للشرك وكان مقتضى شرك هؤلاء أن تزول السموات والارض كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) لكنه تعالى لما كان حليما غفورا امسكهما ولم يزولا ولو شاء لأزالهما ولئن زالتا إن أي ما أمسكهما من أحد من بعده ولذلك قال في آخر الآية إنه كان حليما غفورا أي أنه تعالى ما ترك

تعذيبهم الا حلما منه ونعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة في نوعين نعمة الايجاد ونعمة البقاء فانه تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا مانقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بخلقنا مرة أخرى وخلق مانقوم به أيضا في هذه النشأة الاخرى فلنا حالتا ابتداء الخلق والاعادة وفي كل حالة منهما له علينا تعالى نعمة الايجاد ونعمة البقاء فلذلك خلق الله الاجرام السماوية والارض ومافيهن وربط المسببات باسبابها فاودع في الاجسام القوى التي بها تتركب وهي ثلاث قوة الجذب وقوة الاتحاد وقوة التماسك في الجواهر الفردة وجعل تعالى قوة الجذب والدفع بين الاجرام فالجذب قوة بها تنضم الاجزاء الفردة بعضها الى بعض وتتقارب حتى يتكون عنها جسم بسيط أو مركب وقد تكون هذه القوة بين أجسام متعددة لمناسبة طبيعية بينها وهي التي بها أيضا تقع الاجسام المنقذفة في الجو ساقطة على الارض وهذه القوة تزيد فيما بين الاجسام على حسب الكتل وتنقص على حسب بعد المسافة فكلما كبرت الكتل زادت وكلما بعدت المسافة بينها نقصت وتختلف بالنظر لما تركبت منه الاجسام ولطبيعتها ولاجزاء الجسم الواحد وكثير من الاجسام ما تنضم اجزاؤه وتتحد بمجرد المماسة ومنها مايحتاج لتوسط درجات عن الحرارة أو غيرها وهي بين اجزاء بعض الاجسام اكثر منها بين اجزاء البعض الآخر

والقوة الدافعة كذلك في كل ماسبق وكل من قوتي الجذب والدفع معلوم انهما خاصيتان موجودتان في جميع الاجسام وبهما الكون والفساد وهما موجودتان في الانسان أيضا وتسميان بالائتلاف والتنافر ويجدهما الانسان في نفسه اذا نظر الى اشخاص ولو لم يكن يعرفهم فانه يجد في نفسه انه يألف منهم بعضا ويأنف من بعض

وأما قوة التماسك فهي قوة الجذب الحاصلة بين الاجزاء المتماثلة وهي في الجامدات اقوى منها في المائعات ولذا لاتنفصل اجزاء الصلب من بعضها الا بعنف وأما الغازات فلا تماسك فيما بين اجزائها

وأما قوة الاتحاد فهي قوة الجذب الحاصلة بين الاجزاء الغير المتماثلة اى الغير المكونة للاجسام البسيطة وتكون بين جزأين وثلاثة واربعة وكونها بين خمسة نادر وحالات الاجسام من الصلابة والميوعة والسيولة لاتمنع من اتحادها فيقع الاتحاد بين الاجسام الجامدة والمائعة وبينهما وبين الهوائية اذا علمت هذا فاعلم ان الله جعل قوة التماسك في الجواهر الفردة أي التي لاتقبل الانقسام فكلما عظمت الاجسام كانت قابلية الجذب بها أكثر من غيرها لانها تجذب الشئ بقدر عظم الشئ الجاذب ويضعف جذبها بقدر مربع بعد الشئ المجذوب يعني ان الجاذبية قوية مرتين في جسم عظيم مرتين وضعيفة اربع مرات في جسم ضعيف مرتين وضعيفة ست عشرة مرة في جسم بعيد أربع مرات وهكذا فلذلك كانت الكواكب الاصغر كتلة مجذوبة ومرفوعة من كوكب اكبر منها كتلة فلهذا قال سبحانه (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن امسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا)

ومن الثابت الجلي عند العقلاء انه سبحانه كما هو حليم غفور هو أيضا حكيم خبير خلق هذه الاشياء بالحكمة ومن المعلوم ايضا ان صفة الحكمة ثابتة له تعالى لايمكن زوالها فكما أوجد هذه الاجرام بحكمته يمكن منه تعالى عقلا ان يزيلها ويوجد امثالها مرة اخرى باحوال غير هذه الاحوال اذا اقتضت الحكمة ذلك فان الحكمة هي الفعل على مقتضى مايعلمه الفاعل المختار من المصلحة المترتبة على فعله فان من يعلم امرا فلم يأت به على وفق ماعلمه من المصلحة التي ترتب على فعله لايقال له حكيم واما الفاعل الذى فعله على وفق العلم فهو الحكيم الخبير الذى يعلم عاقبة الامور ظواهرها وبواطنها اه مع حذف وزيادة للايضاح ومن هذا الذى نقلناه تعلم ان هذه الآية تنطبق فيما دلت عليه كل الانطباق على ماقرره الحكماء وعلماء الهيئة قديما وحديثا في القوى الجاذبية العامة وثبت الآن

بالاستكشاف الحديث كما قدمناه فى المقدمة

فان قلت ما تقول فى قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس)

قلنا قال الآلوسى فى تفسيره وغيره فى غيره بمعناه المراد بالخنس الجوارى الكنس على ما اخرج الفريابى وسعد بن منصور وعبد بن حميد وابن ابى حاتم والحاكم وصححه من طرق عن على كرم الله تعالى وجهه الكواكب أى جميعها فقيل لأنها تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل أى تطلع فى أماكنها كالوحش فى كنسها وفى تفسير تكنس بتطلع خفاء وقيل لانها تخنس نهارا وتخفى عن العيون مع طلوعها وكونها فوق الافق وتكنس بعد طلوعها فى المغيب فيه كما تكنس الظباء الكنس فتكون تحت الافق بعد ان كانت فوقه وروى تفسيرها بالكواكب عن الحسن وقتادة أيضا وأخرج ابن ابى حاتم عن الامير على كرم الله وجهه انه قال هى خمس انجم زحل وعطارد والمشترى وبهرام يعنى المريخ والزهرة والخنس الرواجع من خنس اذا تأخر ووصفت بما ذكر فى الآية لانها تجرى مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها بحسب الرؤية وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها *وتسمى المتحيرة لاختلاف أحوالها فى سيرها فيما يشاهد فلها استقامة ورجعة وأقامة فبينما تراها تجرى الى جهة اذا بها راجعة الى خلاف تلك الجهة وبينما تراها تجرى اذا بها مقيمة لا تجرى وسبب ذلك على ما قال المتقدمون من أهل الهيئة كونها فى تداوير فى حوامل مختلفة الحركات على ما بين فى موضعه وللمحدثين منهم النافين لما ذكر غير ذلك مما هو مذكور فى كتبهم وهى مع الشمس والقمر يقال لها السيارات السبع لان سيرها بالحركة الخاصة مما لا يكاد يخفى على احد بخلاف غيرها من الثوابت *وأخرج الخطيب فى كتابه النجوم وابن مردويه عن ابن عباس انها المراد هنا ووصفها بالخنس أى الرواجع قيل من باب التغليب إذ لا رجعة للشمس ولا للقمر وبالكنس لاختفائها فى مغيبها وكون السيارات هى السبع هو المعروف عند المنجمين واما اليوم فقد ضموا اليها كواكب أخر يقال لها (وسنا) (وزونو) (وبالاس) (وسربس) (واورانوس) ويسمى هرشل وهو اسم المنجم الذى ظفر به بالرصد وبينوا مقدار أقطارها وابعادها وحركاتها ولولا مخافة التطويل لذكرت ذلك *وعدوا من جملة السيارات الارض على زعمهم ان لها حركة حول الشمس واشتهر انهم لم يعدوا القمر منها لكونه من توابع الارض وهنالك اقوال أخرى أعرضنا عنها لان ما قلناه هو المشهور وما استكشفوه ايضا بعد اورانوس من السيارات (نبتون) وقد قدمنا الكلام على السيارات السبعة واورانوس ونبتون وغيرها وبينا ان هذه السيارات السبع هى التى اشتهرت واعتبرت السيارات الكبرى

وقوله تعالى والليل إذا عسعس قيل معناه أدبر ظلامه وقيل أقبل وكلاهما مأثوران عن ابن عباس وغيره وهو من الاضداد عند المبرد وقال الراغب العسعسة والعساس رقة الظلام وذلك فى طرفى الليل فهو من المشترك المعنوى عنده وليس من الاضداد وفسر عسعس هنا باقبل وأدبر معا وقال ذلك فى مبدأ الليل ومنتهاه وقال الفراء اجمع المفسرون على ان معنى عسعس أدبر وقيل كونه بمعنى اقبل ظلامه اوفق بقوله تعالى والصبح اذا تنفس فانه اول النهار فيناسب اول الليل وقيل كونه بمعنى ادبر انسب بهذا لما بين إدبار الليل وتنفس الصبح من الملاصقة فيكون بينهما مناسبة الجوار والمراد بتنفس الصبح على ما قال غير واحد إضاءته وتبلجه وفى الكشاف انه اذا أقبل الصبح أقبل باقباله روح النسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز وقيل تنفس الصبح والظاهر ان التنفس فى الآية إشارة الى الفجر الثانى الصادق وهو المنتشر ضوؤه معترضا فى الافق بخلاف الاول الكاذب وهو ما يبدو مستطيلا أعلاه اضوأ من باقيه

ثم يعدم ويعقبه ظلمة أو يتناقص حتى ينغمر فى الثانى على زعم بعض اهل الهيئة أو يختلف حاله تارة وتارة بحسب الازمنة والعروض ثم الظاهر ان تنفس الصبح وضياءه بواسطة قرب الشمس الى الافق الشرقى بمقدار معين وهو فى المشهور ثمانية عشر جزءا وقول الامام انه يلزم على ذلك بناء على كروية الارض واستضاءة اكثر من نصفها من الشمس دائما ظهور الضياء وتنفس الصبح اذا فارقت الشمس سمت القدم من دائرة نصف النهار وذلك بعيد نصف الليل والواقع خلافه تشكيك فيما يقرب ان يكون بديهيا وفيه غفلة عن احوال ظل الارض وانعكاس الاشعة عن ابصار سكنة اقطارها فتأمل ولا تغفل اه مع حذف ما لا حاجة لنا به وقد قدمنا عند قوله تعالى (فالق الاصباح) ما فيه الكفاية لبيان وجه الحق فى هذا المقام كما انى أقول لا معنى للاختلاف فى معنى الخنوس والكنوس ولا فى معنى عسعسة الليل وتنفس الصبح بعد ان علم من اللغة ان الخنوس معناه الرجوع والكنوس معناه الاختفاء والكواكب المتحيرة فيها هذا وهذا بالمشاهدة فتعين ان تحمل الآية عليه وهو الذى أشار اليه بقوله والخنس الرواجع الى آخره لان هذه المناظر لا خلاف فيها والخلاف بين المتقدمين والمتاخرين فى سببها لا يهمنا لان القرآن كما قلنا انما جاءت آياته بما لا خلاف فيه وأعرض عن ذكر الاسباب لان غرضه من الاستدلال بالحركات والمناظر لا يتوقف على بيانها وقد ترك سبحانه الخوض فيها للبشر لتتسابق فى ميدانها سوابق الافكار ويكون الفضل للسابق الذى يصيب الغرض ويصل اليه *وبعد ان علم ان العسعسة كما تطلق على اقبال الليل تطلق على ادباره وان ابن عباس وهو ترجمان القرآن وغيره فسروها مرة بالاقبال ومرة بالادبار وانه متى دار الامر بين كون اللفظ مشتركا لفظيا كما يقول المبرد أو مشتركا معنويا كما يقول الراغب تعين جعله مشتركا معنويا لما بينوه فى محله فيتعين ان يكون المراد من العسعسة رقة الظلام الصادقة بالاقبال والادبار وهما مرادان معا وبعد ان تبين أن المراد بتنفس الصبح كما قال غير واحد إضاءة الصبح وتبلجه فاسناد التنفس الى الصبح دليل على أن المراد الفجر الصادق فهو المتعين لا الظاهر فقط ولذلك قال فى كشف الاسرار القرآنية بعد ان ذكر الخلاف فى الخنوس والكنوس فالاظهر ان ذلك إشارة الى رجوع الكواكب السيارة واستقامتها فرجوعها هو الخنوس وكنوسها اختفاء بعضها من ضوء الشمس ولا شك ان هذه حالة عجيبة وفيها اسرار عظيمة باهرة وهذه الكواكب هى أجسام معتمة لها حركة رحوية على محورها وحركة أخرى بها تخط حول الشمس مدارا على شكل قطع ناقص يشغل هذه الكواكب نقطة اختراقه أى مركزه العمومى وهاتان الحركتان تتجهان من المغرب الى المشرق فكأن السبب المحدث لها واحد ويشرق من هذه الكواكب ضوء مستعار من غيرها فلا نشاهد الا بواسطة انعكاس منها الينا وكلما كانت ابعد عن الشمس التى هى مركز الحركة والحرارة كان زمن اجتيازها الدائرة التى تخطها حولها اطول ولا تخرج من تلك الحركة الرحوية من الدائرة الكسوفية وتنقسم هذه الكواكب الى كواكب أولية والى كواكب ثانوية تسمى أيضا الشبيهة بالثوابت وقال علماء الهيئة ان الكواكب السبعة السيارة كانت معروفة قبل جاهلية اليونان والثانوية أربعة موضوعة بين المريخ والمشترى وهى السنبلة وأبو الفلق أو الصبح وقرينة المشترى والمجرة السيارة وقد ظهر بالارصاد أن صورة ما عدا عطارد والزهرة من الكواكب السيارة تشبه صورة الارض فى كونها منتفخة جهة خط استوائها ومسطوحة جهة قطبيها ثم ان جملة الكواكب السيارة لا تجرى فى سطح واحد بل هى متمائلة الافلاك فالكواكب السيارة المعروفة من قديم الزمان لا تخرج فى سيرها أبدا عن منطقة فلك البروج بخلاف السنبلة وأبى الفلق أو الصبح فانهما يميلان فوق هذا الفلك زيادة عن الباقى ولزحل خاصية خاصة به وهى ان يحيط به حلقة مظلمة غير مماسة له تدور حوله فى عشر ساعات وربع

ويظهر عرضها كانه مساو لثلث قطر هذه الكواكب وتسمى هذه الحلقة خاتم زحل اهملخصا وهذا الذى قاله فى كشف الاسرار مبنى على ان المراد بالخنس الجوارى الكنس ماعدا الشمس والقمر من الكواكب السيارة لما علمت أنه لا رجعة للشمس ولا للقمر فى فسرنا الخنوس بالرجوع المخصوص كما هو الظاهر لانه المشاهد المعروف تعين أن المراد من الكواكب ماله خنوس ورجوع وذلك ماعداهما كما أن قوله ان صورة ماعدا عطارد والزهرة من الكواكب السيارة الى آخره خاص بالكواكب الليلية ولا يشمل الشمس كما هو ظاهر من قوله قبل ذلك وهذه الكواكب هى أجسام معتمة الى آخره فان هذا القول لا يدخل فيه الشمس لان نورها ذاتى كما علم مما سبق وقال أيضا بناء على ان المراد بالخنس الجوارى الكنس الكواكب السبعة السيارة ان السبعة السيارة تختلف مطالعها ومغاربها بدليل قوله تعالى (رب المشارق والمغارب) ولا شك ان فيها مطلعا واحدا ومغربا واحداهما أقرب المطالع والمغارب الى سمت رؤوسنا ثم انها تأخذ فى التباعد عن ذلك المطلع الى سائر المطالع طول السنة ثم ترجع اليه يعنى القرب والبعد فخنوسها عبارة عن تباعدها فى ذلك المطلع وكنوسها عبارة عن عودها اليه اه المقصود منه *وهذا الذى قاله فى كشف الاسرار موافق لما عليه أهل الهيئة اليوم فى سبب الخنوس والكنوس وحاصل ماقاله هؤلاء فى حركات الكواكب أن الشمس لها حركتان حركة ذاتية على محورها وتقطعها فى خمس وعشرين يوما وست ساعات وست عشرة دقيقة وثمان ثوان وحركة اخرى ظاهرية تابعة لحركة الارض على محورها فى أربع وعشرين ساعة وبها يكون الليل والنهار ويتعاقبان وللارض حركة اخرى حول الشمس تقطع الدورة فيها فى سنة ولعطارد دورتان دورة على محوره يقطعها فى أربع وعشرين ساعة وخمس دقائق ودورة اخرى حمائلية يقطعها فى ثمانية وثمانين يوما وللزهرة دورتان دورة على محورها تقطعها فى ثلاث وعشرين ساعة واحدى وعشرين دقيقة وأخرى حمائلية تقطعها فى مائتين وأربعة وعشرين يوما وسبع عشرة ساعة وللمريخ دورتان دورة على محوره يقطعها فى أربع وعشرين ساعة وست عشرة دقيقة وأخرى حمائلية يقطعها فى سنة واحدة وثلاثمائة واثنين وعشرين يوما ولزحل دورتان دورة على محوره يقطعها فى عشر ساعات وست عشرة دقيقة وأخرى حمائلية فى تسع وعشرين سنة ومائة وستة وستين يوما وللمشترى دورتان دورة على محوره فى تسع ساعات وست وخمسين دقيقة ودورة اخرى حمائلية يقطعها فى احدى عشرة سنة وثلاثمائة وخمسة وعشرين يوما وللقمر دورتان دورة على محوره يقطعها فى سبعة وعشرين يوما وثمان ساعات تقريبا واخرى حمائلية حول الارض فى ستة وعشرين يوما وسبع ساعات وثلاثة أرباع ساعة ولكن لا يبتدىء فى التجدد الا بعد تمام تسعة وعشرين يوما ونصف يوم فلا بد له من يومين وأربع ساعات حتى يمكن أن يقترن بالارض وبالشمس ثم انه بسبب الحركة فى فلكه التى تكون من المغرب الى المشرق يظهر لنا كانه يتخلف كل يوم عن الشمس باحدى وخمسين دقيقة وذلك أن القمر فى حالة تجدده يوجد فى دائرة نصف النهار فى وقت الزوال كالشمس فيكونان متحدى الزمن على هذه الدائرة ثم اذا كان القمر فى الربع الاول كانت الساعة ستا بعد انتصاف النهار واذا كان فى حالة التمام كان دخوله فيها فى نصف الليل ودخل فى الربع الاخير وقد مضى ست ساعات بعد نصف الليل حتى يصل درجة التجدد فى نصف النهار فلا يمكن ان نعد بين هلالين الا ثمانية وعشرين يوما ونصف يوم ويمكن أن نحسب يوما زائدا بالنسبة للشمس *والحركة التى يكون بها الليل والنهار أن الشمس والقمر وسائر الكواكب تخرج كل يوم فوق الافق جهة المشرق وتختفى جهة المغرب وهذه الحركة تتم فى اليوم والليلة

اذا علمت هذا كله علمت أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل جرم من أجرام الشمس والقمر والكواكب سيرا خاصا وسيرا آخر وبناء على ذلك خص كل واحد منها بتأثيرات فخص جرم الشمس بقوة سارية فى أجرام

سائر الافلاك التى يشتمل عليها نظامها باعتبار أنها مستولية عليها قادرة على تحريكها على سبيل القهر فكل الاجرام الداخلة فى نظامها تدور حولها بتلك القوة باذن الله تعالى وارادته وقدرته ولذلك قال تعالى فى آية أخرى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) وكما أن الله تعالى أودع فى الشمس تلك القوة فقد أودع الله تعالى قوة سارية فى شئ مجهول تدور الشمس مع نظامها حوله فجعل لكل مجموع نجمى قوة قاهرة باعتبارها اقوى باذنه تعالى وارادته على قهر جميع الافلاك والكواكب وتحريكها على خلاف مقتضى طبائعها حيث خص كل واحد من هذه الاجسام بخاصية معينة وصفة معينة وقوة مخصوصة ولذلك كله قال ايضا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره كما قلنا ولهذا التسخير وما أودعه الله فيها من الاسرار والحكم أقسم بالخنس الجوارى الكنس وأقسم ايضا بما ينشأ عنها من تسخير الليل والنهار لما ينشأ عنها من المنافع والفوائد الجمة كما بينه تعالى فى عدة آيات قدمنا بعضها فقال والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس فسبحانه من قادر عليم حكيم ومن هذا تعلم ان للاجرام العلويه تأثيرا باذن الله تعالى فى العالم السفلى عالم الكون والفساد على عالم المواليد الثلاثة على ما فصلناه سابقا

فان قلت ماتقول فى قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) فان هذه الآية صريحة فى انشقاق القمر والفلاسفة وعلماء الهيئة ينكرونه

قلت نعم ان الفلاسفة المتقدمين انكروا انشقاق القمر بناء على زعمهم الفاسد استحالة الخرق والالتئام على الاجرام العلوية استدلالا بما قدمناه غير مرة وان دليلهم أوهى وأوهن من بيت العنكبوت وقال بعض الملاحدة لو وقع الانشقاق فى القمر لنقل متواترا واشترك أهل الارض كلهم فى معرفته ولم يختص به اهل مكة لانه امر محسوس والناس فيه شركاء والطباع حريصة على رؤية الغريب ونقل مالم يعهد ولا أغرب ولا أعجب من انشقاق هذا الجرم العظيم ولم يعهد فى الزمن القديم ولو كان له اصل لخلد أيضا فى كتب التسيير والتنجيم ولذكره اهل الارصاد فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير واطباقهم على تركه واغفاله مع جلالة شأنه ووضوح امره مما لا تجوزه العادة وايضا لا يعقل سبب لخرق هذا الجرم العظيم وايضا خرقه يوجب صوتا هائلا اشد من اصوات الصواعق المهلكة باضعاف مضاعفة لا يبعد هلاك اكثر أهل الارض منه وايضا متى خرق وصار قطعتين ذهبت منه قوة التجاذب كالجبل اذا انشق فيلزم بقاؤه منشقا ولا أقل من أن يبقى سنين كثيرة *واجيب عن ذلك بان انكار الفلاسفة مبنى كما علمت على أصلهم الفاسد وهو ان كل جسم فيه مبدأ الحركة المستديرة لا يمكن ان يوجد فيه الحركة المستقيمة لانها لو وجدت فيه الحركة المستقيمة لوجد فيه مبدؤها فيجتمع فيه مبدآن متضادان وحيث وجد فى الافلاك والاجرام السماوية مبدأ الحركة المستديرة بدليل أنها تتحرك دائما على الاستدارة فيستحيل ان يوجد فيها مبدأ الحركة المستقيمة فيستحيل وجود هذه الحركة فيها لاستحالة وجود مبدئها فلا يقبل الخرق والالتئام لما يلزم ذلك من وجود الحركة المستقيمة وهى محالة وما استلزم المحال محال وقد قدمنا الدليل على بطلان دليلهم هذا وعلى جواز وجود المبدئين واجتماعهما معا فى جسم واحد وان ذلك موجود مشاهد فى حركة العجلة والدحروجة كما فى المواقف وغيرها فان كلا من العجلة والدحروجة ونحوها يتحرك بالاستدارة على محوره وبالاستقامة والانتقال من كون الى كون لقطع المسافات البعيدة فكان دليلهم كذهبهم كما قلنا اوهى وأوهن من بيت العنكبوت وانه لأوهى واوهن البيوت

واجيب عن قول الملاحدة لو وقع لنقل متواترا الى آخر ماقالوه بان انشقاق القمر وقع ونقل متواترا فان القمر انفصل بعضه عن بعض وصار فرقتين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة

بنحو خمس سنين فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن انس ان اهل مكة سألوه صلى الله عليه وسلم ان يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة على الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا * ومن حديثه ايضا انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش هذا سحر ابن ابى كبشة فقال رجل انتظروا ما يأتيكم به السفار فان محمدا لا يستطيع ان يسحر الناس كلهم فجاء السفار فاخبروهم بذلك رواه ابو داود والطيالسى وفى رواية البيهقى فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا رأيناه فانزل الله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر والاحاديث الصحيحة فى انشقاق القمر كثيرة * واختلفوا فى تواتره فقيل هو غير متواتر وفى شرح السيد الشريف على المواقف انه متواتر وهو الذى اختاره العلامة ابن السبكى قال فى شرحه لمختصر ابن الحاجب الصحيح عندى ان انشقاق القمر متواتر منصوص عليه فى القرآن مروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمترى فى تواتره اه باختصار وقد جاءت احاديثه فى روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم على كرم الله وجهه وانس وابن مسعود وابن عباس وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم * نعم ان منهم من لم يحضر ذلك كابن عباس فانه لم يكن مولودا اذ ذاك وكانس فانه كان ابن اربع أو خمس بالمدينة وهذا لا يطعن فى صحة الخبر وذلك لان كلا من ابن عباس وانس انما يروى الواقعة بعد وقوعها اما بالسماع من النبى صلى الله عليه وسلم أو من احد اصحابه صلى الله عليه وسلم فيكون الحديث مرفوعا ومتصلا على كل حال ولا طعن بجهالة الواسطة على فرض وجودها لان الواسطة لا يكون الا صحابيا وهو عدل ثقة وقد وقع فى نظم السيرة للحافظ أبى الفضل العراقى ما هو نص فى وقوع الانشقاق مرتين وظاهر فى انه مجمع على وقوعه كذلك حيث قال وانشق مرتين بالاجماع وكان مستند الاول ما أخرجه عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طريق مجاهد عن أبى معمر عن ابن مسعود قال رأيت القمر منشقا شقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبى صلى الله عليه وسلم الحديث وأما الاجماع فغير مسلم وفى المواهب قال الحافظ ابن حجر اظن ان قوله بالاجماع يتعلق بالشق لا بمرتين فانى لا اعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق فى زمنه صلى الله عليه وسلم ولعل قائل مرتين أراد فرقتين وهذا الذى لا يتجه غيره جمعا بين الروايات اه قال الالوسى ولا يخفى أن هذا التأويل مع بعده لا يتسنى فى خبر ابن مسعود المذكور آنفا لمكان شقتين وهى بمعنى فرقتين ومرتين معا والذى عندى فى تأويل ذلك أن مرتين فى كلام ابن مسعود قيد للرؤية وتعددها لا يقتضى تعدد الانشقاق بان يكون رآه منشقا فصرف نظره عنه ثم أعاده فرآه كذلك لم يتغير ففيه اشارة الى انها رؤية لا شبهة فيها وقد فعل نحو ذلك الكفرة * أخرج أبو نعيم من طريق عطاء عن ابن عباس قال انتهى أهل مكة الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا هل من آية فاخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالة جبريل عليه السلام فخرجوا ليلة أربع عشرة فانشق القمر نصفين نصفا على الصفا ونصفا على المروة فنظروا ثم قالوا بابصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا ما هذا الا سحر فانزل الله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) فلو قال أحد هؤلاء رأيت القمر منشقا ثلاث مرات على معنى تعدد الرؤية صح بلا غبار ولم يقتض تعدد الانشقاق فليخرج كلام ابن مسعود على هذا الطرز ليجمع بين الروايات ثم هذا الحديث ان صح كان دليلا لما أشار اليه البوصيرى فى قوله

شق عن صدره وشق له البد … ر ومن شرط كل شرط جزاء

من أن الشق كان ليلة أربع عشرة لان البدر هو القمر ليلة أربع عشرة ويعلم من ذلك ما فى قول العلامة

ابن حجر الهيتمى ظاهر التعبير بالبدر دون القمر أن الشق كان ليلة أربع عشرة ولم أر له فى ذلك سلفا ولعله أراد بالبدر مطلق القمر ويؤيد كونه ليلة البدر ما أخرجه الطبرانى وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سحر القمر فنزلت اقتربت الساعة وانشق القمر الى مستمر فان الكسوف وان جاز عادة أن يكون ليلة الثالث عشرة والخامس عشر الا أن الاغلب كونه ليلة الرابع عشرة ولا ضرورة الى حمل الكسوف فى هذا الخبر على الانشقاق اذ لا مانع كما فى البداية والنهاية أن يكون قد حصل للقمر مع انشقاقه كسوف نعم ذكر فيها أن سياق الخبر غريب

وقد روى غير ما تقدم روايات أخرى بعضها يدل على أن القمر دخل فى جيبه صلى الله عليه وسلم وبعضها يدل على انه انشق فصار قمرين قدر ما بين العصر الى الليل وان الانشقاق وقع لطلب اليهود قال الالوسى وأولها موضوع ولعنة الله على من وضعه وثانيها مخالف لما نطقت به الاخبار الصحيحة الكثيرة فلا يعول عليه ومثله خبر أبى نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس أن اليهود سألوا آية فاراهم الله القمر قد انشق لا يعول عليه كما ان ما شاع من انه صلى الله عليه وسلم اشار الى القمر بسبابته فانشق لم أره فى خبر صحيح اه

وأجيب أيضا عما قاله الملحدة بان الصحيح أن القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعتاه السماء بل بقيتا فيها متباعدتين تباعدا ما لحظة ثم اتصلتا وان الانشقاق وقع فى الليل وهو زمان الغفلة وكان فى زمن قليل ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلدان ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعا على قوم غائبا عند آخرين ومكسوفا عند قوم وغير مكسوف عند آخرين ومثله الشمس فى ذلك واعتناء أهل الارصاد بامر الارصاد وان كان موجودا فى زمن الجاهلية لكنه لم يكن بمثابة اليوم على أن غفلة أهل الارصاد لحظة غير مستبعدة خصوصا وأن الذى يعرفه أهل الارصاد من ان القمر وغيره من الكواكب هى الحوادث التى تعلم من طريق حسابهم وبعد أن يعينوا وقت حدوثها من طريق علمهم يرصدونها عند حدوثها فى الوقت المعلوم لهم وذلك خاص بالحوادث التابعة للنواميس الطبيعة المعلومة لهم أما ما نحن بصدده ليس كذلك فلا علم لهم بحدوثه من قبل حدوثه ولا يخطر لهم على بال فكيف يرصدونه بدون علم سابق به والانشقاق الذى حصل على ما هو الصحيح لم تختلف به منازل القمر ولم يتغير به سيره غاية ما فى الباب أن يقال عند الانشقاق يحدث الله تعالى فى القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية وأى مانع من أن يخلق الله تعالى فيهما من السرعة نحو ما خلق الله فى ضوء الشمس فقد قال أهل الحكمة والهيئة الجديدة أن بين الارض والشمس ثلاثمائة الف وأربعون الف فرسخ وان ضوءها يصل الى الارض فى مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية فيقطع الضوء فى كل ثانية سبعين الف فرسخ ولا يلزم أن يعلم أهل الارصاد ولا غيرهم سبب كل حادث بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على اسبابها كرؤية الكواكب قريبة مع بعدها المفرط فقد ذكروا انهم لم يقفوا على سببه ويكفى فى ذلك عدم وقوفهم على سبب الابصار بالعين على الحقيقة بدليل خلاف الرياضيين والطبعيين فى ذلك ولو اخبرهم مخبر بغير حق أن لم يكن لهم ابصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغير معروفة أجزاؤها عند أهل التشريح لانكروا عليه غاية الانكار وكذبوه غاية التكذيب ونسبوه الى الجنون ومن علم تأثير النفوس الى حد أن يصرع الشخص آخر بمجرد النظر اليه وتوجيه نفسه نحوه لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك وقد صح فى أصابة العين أن بعض الاعراب ممن له عين صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين وربما تصور له من رمل فينظر اليه ويفلقه فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها وهذا كله من باب المماشات ومجارات الخصم والا فارادة الله تعالى وقدرته كافية فى الانشقاق وكذا فى كل المعجزات وخوارق العادات ولو كان لكل حادث سبب والاسباب حادثة أيضا لزم التسلسل وقد

اقامت الادلة على بطلانه هكذا قيل * واقول ان بطلان التسلسل لغاية اليوم لم يقم عليه دليل برهانى سالم مما يبطله كما انا اذا قلنا يلزم لكل حادث سبب لانسلم انه يلزم أن يكون لكل حادث سبب وجودى يتقدم عليه بل الواجب عقلا ان يكون امكان الحادث الاول كافيا فى صدوره عن الواجب جل جلاله بدون حاجة الى شئ آخر سوى هذا الامكان وأما ماعدا الحادث الاول فقد جرت عادة الله تعالى فى خلقه ان يكون كل حادث مسبوقا بسبب وجودى أو اعتبارى صادق له منشأ وجودى غير ان المعجزات التى يجريها الله تعالى على يد من يدعى الرسالة عند تحديه قائمة مقام قول الله تعالى صدق عبدى فى كل مايبلغ عنى فوجب ان تكون خارقة لعادة الله تعالى وفعلا له سبحانه بدون مدخل للخلق لا بكسب ولا بغيره باتفاق العقلاء حتى المعتزلة الذين يقولون على ما اشتهر عنهم بخلق العبد أفعال نفسه الاختيارية فالمعجزة باتفاق الجميع ليست إلا فعلا لله وحده خارقا لعادته ومخالفا فى نواميسه للنواميس المعروفة للخلق وهذا لا يمنع من ان يكون لهذه الخوارق أسباب ونواميس يعلمها الله سبحانه وحده ولا يمكن للخلق ان يقفوا عليها لانه لو جاز للخلق ان يقفوا و يطلعوا على أسباب المعجزات ونواميسها الطبيعية لم تكن معجزات ومتى ظهر السبب بطل العجب وأما سائر الخوارق مما ليس بمعجزة لرسول كالكرامات للاولياء والسحر ونحوه فهى من خوارق عادات البشر لخفاء اسبابها عليهم ويجوز عقلا ان يقفوا عليها وعلى أسبابها ونواميسها وقد لا يقع لهم ذلك * ومن هذا القبيل مايسميه الطبيعيون بفلتات الطبيعة ومن ذلك تبين ان المدار فى المعجزة على ان يشاهدها من تحدوا مدعى الرسالة فى دعواه وعلى كونها خارقة لما يعرفونه من مقتضيات العادة ونواميس الطبيعة فلا يضر بعدها عن العقول بل أن ذلك من لوازم كونها خارقة لعادة الله تعالى و يكفى فى علم من لم يشاهدها انه تنقل اليه بطريق التواتر المعروف بان ينقلها ممن شاهدها عدد جم يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب وهكذا يكون ناقلوه فى كل طبقة عددا يمتنع تواطؤهم على الكذب عادة ولا يلزم فى المعجزة ان يشاهدها كل الخلق فى عهد الرسول الذى صدرت على يده وان كانت مما يعم وجودها كل الامكنة لانهم قد يكونون غير عالمين بالرسول و بعثته جاهلين باحواله وأخباره فلا يلتفتون لما حدث او يحدث على يده من المعجزات ولا يتنبهون لحدوثها لعدم علمهم باسباب حدوثها ولا يسألون اذا حدثت لم حدثت ولا كيف حدثت خصوصا اذا كان حدوثها ليلا وفى لحظة قصيرة من الزمن فان مثل هذا الحادث لا يلتفت اليه و يراه إلا كل من كان متربصا له منتظرا حدوثه وانشقاق القمر قد حصل ليلا ولا يكون إلا كذلك وفى لحظة يسيرة ولم تفارق قطعتاه السماء بل بقيتا فيها متباعدتين تباعدا ما لحظة ثم اتصلتا كما سبق والانشقاق فى ذاته ممكن عقلا ولم يغير شيئا من احوال القمر سوى انه انشق فرقتين انشقاقا لم تختلف به منازله ولم يتغير به سيره ولم تبطل به قوة الجذب ولم تنقص بل تضاعفت القوة فى القطعة الغربية حتى حدث بسببها فى القطعة الشرقية قوة سير لتلحق اختها الغربية كما هو المشاهد فى كل جزء ينفصل من كتلته عن مركزه الطبيعى بقوة قاسرة اذا زال القسر اسرع ذلك الجزء فى العود الى كتلته ومركزه الطبيعى الاترى انك لو ألقيت حجرا الى أعلى يرتفع بقوة القسر فاذا زالت عاد الحجر مسرعا بقوة الارض الى الارض ومركزه الطبيعى ومعنى تضاعف القوة فى هذه الحال أن قوة الجذب الى المركز الطبيعى جذب تنضم اليها قوة الدفع الى المركز الطبيعى فى الجزء المنفصل عن كتلته كما أن من ضروريات الانشقاق أن يزول الضوء فيرى القمر منكسفا ولذلك جاء فى بعض الروايات أنه انكسف وخفى ضوؤه ويجب أن يكون ذلك الكسوف جزئيا اذ لو كان كليا لاظلم جرم القمر كله وما أمكن أن يعلم انشقاقه وكونه فرقتين ولو لم ينكسف أصلا وكان جرمه على حاله مضيئا كله لم يعلم ماذكر مع انه انشق فرقتين كما جاء فى الاحاديث الصحيحة البالغة حد

التواتر كما علمت * و هذا الذى قلناه قال الالوسى فى تفسيره والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ولا يستطيع أن يأتى بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق والاستبعاد فى هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سليم اه على أن انشقاق القمر فى ذاته ليس بمستبعد عقلا لما قدمناه من أن أهل الهيئة الجديدة يقولون اذا نظرنا الى القمر ولو بنظارة صغيرة لرأيناه جبالا وأودية وسهولا كلها قاحلة الى آخر ماتقدم ولا شك أن الكتلة التى تكون مركبة من جبال وأودية تقبل الانشقاق كما هو مشاهد فى الارض وجبالها وانما المستبعد هو حصوله بدون سبب معلوم للخلق و بغير الطريق المعهود عندهم وذلك هو الشأن دائما فى كل معجزة يأتى بها الرسل نعم هو مستبعد بل هو مستحيل على مذهب الفلاسفة أهل الهيئة القديمة القائلين بامتناع الخرق والالتئام على الافلاك والاجرام السماوية وقد علمت بطلان مذهبهم وكما لا استبعاد على مذهب أهل الهيئة الجديدة فى الانشقاق من حيث قبول جرم القمر له فى ذاته كذلك الاستبعاد فى الانشقاق من حيث حركات القمر ونظامه وتسخير الله تعالى له فى كل أطواره المستمرة لما قلناه من أن هذا الانشقاق لم يغير شيئا من سير القمر ولم تختلف به منازله بل كل نظامه باق على حاله وقت الانشقاق كما كان بدونه وهذا كله مما يقتضيه كون الانشقاق معجزة فلا استبعاد فيه الا من جهة كونه خارقا للنواميس الطبيعة المعهودة فقط وهذا لا استحالة فيه اذا لم يغير نظاما معلوما بالمشاهدة كما هو الحال فى الانشقاق على أنك قد علمت أن الآية فى هذه الحادثة وهى قطعية الثبوت لتواترها وهى وان كان بحسب دلالتها الذاتية ظنية الدلالة نظرا لما روى عن الحسن أنه قال هذا الانشقاق بعد النفخة الثانية والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع و يروى ذلك أيضا عن عطاء لكن الذى عليه جمهور العلماء هو ماتقدم من أن ذلك قبل يوم القيامة وانه وقع بمكة معجزة له صلى الله عليه وسلم و يشهد له الاحاديث الصحيحة الكثيرة البالغة حد التواتر كما سبق ويؤيدها قراءة حذيفة وقد انشق القمر فان الجملة عليها حالية فتقتضى المقارنة لاقتراب الساعة وقوع الانشقاق قبل يوم القيامة وكذا قوله تعالى (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر فان هذا القول يقتضى أن الانشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها وقالوا فيها سحر مستمر وهذا بعينه مانطقت به الاحاديث وكل هذا قرائن تعين المعنى المراد من قوله تعالى وانشق القمر وانه وقع حقيقة معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم وعلى هذا تكون الآية دالة على وقوع الانشقاق بالفعل قبل نزولها وانها نزلت حاكية عنه وتكون قطعية الدلالة قطعية الثبوت غير أن الجاحد لا يكفر لمكان الخلاف كما يأتى

وبما قدمناه تعلم أن ماقاله الملاحدة من أن انشقاق القمر يوجب صوتا هائلا وذهاب التجاذب الى آخر ماقالوه قول باطل لا يعول عليه ولا يلتفت اليه وذلك لما علمت أن الانشقاق ممكن عقلا وقد وقع معجزة وخارقا لعادة الله تعالى فلا يترتب عليه شئ من لوازمه العادية الطبيعية على فرض أنها من لوازمه وغاية مايلزم استبعاد الوقوع لخفاء السبب وعدم جرى العادة به وذلك لا يضر فيما نحن فيه على أن الاجسام وان كانت متساوية متماثلة فى الجسمية ولوازمها لكنها مختلفة فى الخواص لمعان اخرى فلا يلزم اتحاد جرم القمر فيها ألا ترى ان الارض فيها جبال وبحار وانهار واشجار وحر وبرد واعتدال والقمر خال من ذلك كله كما سبق بيانه ولا مانع عقلا من ان تكون احدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة الى الارض اذا ارتفع عنها بقاسر مثلا * جذبته اليها اذا لم يخرج ذلك الجزء عن حد جذبها على مازعموه و يلتزم فى تلك القطعة التى انفصلت من القمر عدم الخروج عن حد الجذب فلا تذهب قوة التجاذب منه اذا انشق ولا يلزم بقاؤه منشقا كما زعموا على اننا فى غنى عن ذلك كله بعد ماتقدم من اثبات امكان الانشقاق فى ذاته وشمول قدرة الله تعالى وانه سبحانه فعال لما يريد وان الواجب فى المعجزة بمقتضى كونها معجزة ان تكون فعلا لله وحده خارقا لعادته فى خلقه وانها على الدوام موضع استغراب واستبعاد ولذلك كانت دلت على صدق مدعى الرسالة عند وقوعها تحديا فاعرف الرجال بالحق

واماماقاله البعض تفاديا عن تلك الاعتراضات من ان انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه وهذا كما يسمى الصبح فلقا عند انفلاق الظلمة عنه وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق وماقاله بعض آخر من ان معنى انشق القمر وضح الامر وظهر فكلاهما لا يعول عليه ولا يلتفت اليه لمخالفة كل منهما لظاهر الآية فان ظاهر قوله تعالى (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) ان الانشقاق آية جعلتهم يقولون فيها انها سحر مستمر ولو كان الانشقاق كما يقول هذا البعض او ذاك البعض لم يكن فيه ادنى غرابة حتى يكون آية و يقال فيها سحر مستمر ولمخالفة كل منهما ايضا لما نطقت به الاحاديث الصحيحة الكثيرة البالغة حد التواتر كما سبق * قال الالوسي ولا اظن الداعى الى هذين القولين عند من يقر بالساعة ومافيها من البعث والحشر و يعترف بعقائد الاسلام التى وقع الاتفاق عليها ونحو ذلك مما هو اعظم من انشقاق القمر وابعد عند عقل من لم يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر سوى عدم ثبوت الاخبار فى وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده ومنشأ ذلك القصور التام والتمسك بشبه هى على طرف الثمام ومع هذا كله لا يكفر المنكر بناء على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصا قاطعا فيه واخراج المؤمن من الدين امر عظيم يجب ان يحتاط فيه مالا يحتاط فى غيره والله الموفق اه على ان التواتر يختلف باختلاف الناس فقد يكون التواتر عند قوم ولا يكون عند آخرين الا ترى ان ابن مسعود رضى الله عنه قبل أن يصل اليه كون المعوذتين قرآنا بطريق التواتر كان ينكر قرانيتهما ولم يكتبهما فى مصحفه وكان اذا وجدهما مكتوبتين فى مصحف حتهما منه وكان كونهما قرآنا متواترا عند غيره فلما وصل الى ابن مسعود كونهما كذلك بطريق التواتر رجع وقال بانهما سورتان من القرآن راجع ما كتبناه فى ذلك بكتابنا الكلمات الحسان فى الاحرف السبعة وجمع القرآن

والظاهر ان المراد باقتراب الساعة فى الآية القرب الشديد الزمانى وكل آت قريب كيف وقد جاء قوله عليه الصلاة والسلام (بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه الحديث) ومن هذا الذى قررنا تعلم أن هذه الآية لايصادمها ماقاله علماء الهيئة اليوم وانما يصادمها ماقاله الفلاسفة المتقدمون وقد علمت بطلان مذهبهم وعلماء الهيئة اليوم يخالفونهم فى هذا المذهب كما قدمناه مرارا فليحفظ هذا الذى قلناه فى هذه العجالة ليكون نموذجا فى سائر الآيات القرآنية والاحاديث النبوية مما جاء فيما يتعلق بالسموات والارض والاجرام السماوية فتهتدى بما فيها الى فهم تلك الآيات والاحاديث على الوجه الذى ينفعك فى دينك و ينصره بطريقه ولا تمكن الملحدين بانكار ماهو ثابت معلوم بالبرهان من ابطاله وتمزيقه وتزييفه

فان قال قائل انا نراك قد سلكت فى هذه العجالة خلاف المعتاد بين كثير من قدماء المفسرين ففسرت الآيات القرآنية التى ذكرتها وجعلتها نموذجا لتفسير غيرها من نظائرها بما يوافق مايقوله علماء الهيئة والنجوم قلنا اذا تأملت أيها الناظر فى هذه العجالة حق التأمل تجد اننا لم نخرج فى تفسير هذه الآيات عما قاله المحققون من المفسرين غاية الامر اننا اذا وجدنا المحققين منهم اختلفوا فى تفسير آية فقال فريق فى تفسيرها مايخالف ماعليه علماء الهيئة وفريق قال فى تفسيرها مايوافقه نختار القول الموافق لما قاله علماء الهيئة لوجوه الاول اننا وجدنا الله تعالى ملأ كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بالاستدلال على وجوده وتوحيده وعلمه وارادته وقدرته وتمام حكمته وكونه فاعلا مختارا بخلق السموات والارض وباحوالهما و بتعاقب الليل والنهار وايلاج الليل فى النهار وايلاج النهار فى الليل واغشاء الليل النهار و بالعكس وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم وتسخيرها بامره وذكر كل هذا فى أكثر آيات القرآن وكررها وأعادها مرة بعد أخرى على حسب مقتضيات الاحوال ومقامات الاستدلال وأمرنا بالتفكر فى كل ذلك ومدح الذين يتفكرون فى خلق السموات والارض وجعل فيها آيات بينات لقوم يعقلون فلولم

يكن التفكر فيما ذكر والبحث عنه وعن أحواله بقدر الطاقة البشرية جائزا وممدوحا شرعا لما ملأ الله تعالى كتابه بذلك ومدح الناظرين المتفكرين فيه

الثانى انه تعالى قال (أولم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) فقد حض الله تعالى خلقه وحثهم بهذه الآية ونظائرها على النظر والتفكر فى انه تعالى كيف بنى السماء وخلقها ولا معنى لعلم الهيئة الا التفكر والبحث بقدر الطاقة البشرية فى أن الله تعالى كيف بناها وعلى أى حالة خلقها وخلق كل واحدة منها فكانت مباحث علم الهيئة مأمورا بها من قبل الله تعالى لانه علم يبحث فيه عن أحوال النجوم من جهة خاصة و باعتبارها انقسم الى ثلاثة أقسام وصفى وطبيعى وعملى فالاول هو الذى يبحث فيها عن أحوال النجوم من حيث حركاتها وسيرها ومناظرها ومايعرض لها من مقارنة ومقابلة وارتفاع وانخفاض واجتماع واستقبال وتثليث وتسديس وغير ذلك مما يحدث لها مفردة ومجملة والطبيعى يبحث فيه عن علل تلك الحوادث وقواعدها والعملى يبحث فيه عن كيفية التوصل الى القسمين الاولين بالآلات الرصدية والحساب وكيفية بناء السموات والارض وخلقهما لاتخرج عن هذا

الثالث قال تعالى (لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون) فبين الله سبحانه فى هذه الآية وفى نظائرها أن عجائب الخلقة و بدائع الفطرة فى اختراع السموات والارض وخلقهما وابداعهما أكثر وأعظم وأكمل منها فى خلق أبدان الناس وكذا مايماثلهم من سائر أنواع الحيوان ثم وجدناه سبحانه حض عباده فى كتابه على النظر فى الارض وفى ابدان الناس وأنفسهم فقال تعالى (وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) أى وفى الارض وما اشتملت عليه من أنواع المعادن والنباتات والحيوانات ومن دحوها باخراج مائها ومرعاها وارساء الجبال وارتفاع بعضها عن الماء لتكون مهادا وذلولا وفراشا وبساطا واختلاف أجزائها فى الكيفيات ومناطقها وخواصها دلائل واضحة للموقنين على وجود الصانع واحاطة علمه وكمال ارادته وقدرته ووحدته وسعة فضله وفرط رحمته فقد خلقها الله تعالى فراشا ومهادا وذلولا و بساطا فكانت آيات للموقنين الموحدين الذين سلكوا الطريق السوى البرهانى الموصل الى المعرفة والاذعان والاستسلام باطنا وظاهرا بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر فهؤلاء هم الناظرون بعيون باصرة وقلوب مملوءة بالاعتبار الدراكون للحقائق بعقول نيرة وافهام الى كنهها نافذة (وفى أنفسكم) أى ذواتكم آيات ودلائل أيضا اذ ليس فى العالم شئ الا وفى ذات الانسان له نظير يدل مثل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الافعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة المتنوعة وما اشتمل عليه جسمه من الاجزاء ووظائفها وما أودع فيها من القوى المتعددة التى بها يتغذى وينمو كالقوة الماسكة والهاضمة والممثلة وما أودع فيه من قوتيه العلمية والعملية واختلاف الالسنة واللغات والصور والطباع وطرق الطعام والشراب وغير ذلك من آيات الانفس التى لاتعد ولا تحصى (أفلا تبصرون) أى أعميتم فلا تنظرون ولا تبصرون بعين البصر ولا بعين البصيرة وهذا تعنيف منه تعالى على ترك استعمال الحواس الظاهرة المترتب عليه استعمال النظر والتفكر فى الآيات فهو سبحانه يوبخهم على ترك النظر والتفكر وترك استعمال أسبابه التى توصل اليه واذا كان الله تعالى عنف ووبخ العباد على ترك النظر فى الانفس فكيف لا يعنفهم و يوبخهم على ترك النظر والتفكر فى خلق السموات والارض واحوالهما وما اشتملتا عليه من معادن ونباتات وحيوانات وهو سبحانه يقول (لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس) وعلماء الهيئة هم الذين نصبوا انفسهم للبحث فى السموات والارض وكيفية ذلك ومايتعلق بهما من حيثية مخصوصة على الوجه الذى فصلوه فى أقسام علمهم الثلاثة المتقدمة كما ان علماء المعادن هم الذين نصبوا

أنفسهم للبحث عنها و بينوا كل مايتعلق بها من تكوين وكيفيته وأوصافها وخواص كل معدن وغير ذلك من حيثية مخصوصة أيضا على الوجه الذى فصلوه فى علمهم وعلماء النباتات هم الذين نصبوا أنفسهم للبحث عنها و بينوا تكوينها وكيفيته وكيف تغتذى وتنمو و بينوا صفاتها وخواصها من حيثية مخصوصة على الوجه الذى فصلوه فى علمهم وعلماء الحيوانات هم الذين نصبوا انفسهم للبحث عنها فاعتنوا ببيان تكوينها وكيفيته وأطوارها وصفاتها و بينوا خواص كل نوع من أنواعها واحوالها وخواصها .

وكما وجب على الباحثين ان يرجعوا فيما يتعلق بالمعادن الى العلماء الذين نصبوا انفسهم للبحث عنها والى مادونوه فى كتبهم وفيما يتعلق بالنباتات الى العلماء الذين نصبوا انفسهم أيضا للبحث عنها والى مادونوه فى كتبهم وفيما يتعلق بالحيوانات الى العلماء الذين نصبوا انفسهم للبحث عنها ومادونوه فى كتبهم كذلك يجب أن نرجع فيما يتعلق بالاجرام السماوية التى الارض واحد منها الى علماء الهيئة الذين نصبوا انفسهم الى البحث عنها على وجه ماسبق و بذلك كله تقف عقولنا على ما أودع الله تعالى فى العالم العلوى والسفلى من الحكم والاسرار والآيات والبراهين الدالة على وجود الصانع ووجوب وجوده واحاطة علمه وتمام إرادته وقدرته وانه فاعل مختار و بذلك يتم الاستدلال على المطلوب الذى سيقت له الآيات القرآنية با كمل وجه وأتمه

الرابع انه تعالى قال (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) أى ان فى ايجاد السموات والارض على ماهما عليه من العجائب والبدائع واختلاف الليل والنهار على حسب ما بينه تعالى فى كتابه من انه تعالى يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل و يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا أى ويغشى النهار الليل يطلبه حثيثا لآيات ودلائل واضحة و براهين قاطعة لأولى الالباب أى اصحاب العقول السليمة المستقيمة وقال تعالى (الم يروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) وقد بينا فيما سبق ان هذه الآية نص صريح فيما قاله علماء الهيئة من وجود سموات متعددة طباقا بعضها فوق بعض وجعل القمر فيهن جميعا نورا فدل ذلك على ان المراد بالقمر الجنس فيشمل كل مايسمى قمرا من عامة الكواكب السيارة التى تستفيد نورها من الشمس وتكون تابعة لغيرها من السيارات ايضا وذلك ان الارض جرم سيار دائر حول الشمس كما قلنا ولها سيار آخر يتبعها و يستفيد نوره من ضياء الشمس وهو القمر الذى نشاهده فى السماء كل ليلة من الليالى المقمرة طول السنة وللمشترى وهو جرم سيار أيضا على ماقالوا وثبت بالرصد الصحيح ان له أربعة أقمار تابعة له وتستفيد نورها من نور الشمس ولزحل وهو جرم سيار ثمانية اقمار تابعة له وتستفيد نورها من الشمس وقد صرح فى كشف الاسرار القرآنية بما يفيد ان هذا هو المراد من قوله تعالى وجعل القمر فيهن نورا وكذلك أورانوس جرم سيار وله أربعة أقمار تابعة له ونورها مستفاد من نور الشمس ولنبتون وهو جرم سيار قمر واحد تابع له ونوره مستفاد من نور الشمس فتعين ان يكون المراد بالقمر فى الآية جنس القمر الصادق بالمتعدد والواحد والمراد مافوق الواحد بدليل جعله فى جميع السموات السبع التى هى طباق نسبة كل طبقة لما فوقها كحلقة ملقاة فى فلاة كما فى الحديث الصحيح ولما كانت تلك الاجرام كلها دائرة حول الشمس وتستمد نورها من الشمس قال تعالى (والشمس سراجا) أى وجعل الشمس سراجا فيهن ايضا من قبيل الحذف من الثانى لدلالة ماقبله عليه فدل ذلك على ان الشمس سراج وهو فيهن ايضا فافاد ان ضوء الشمس ذاتى لها كضوء السراج فهو اقوى من النور فجعل الاضعف للقمر والاقوى للشمس كما يشير الى ذلك قوله تعالى فى آية أخرى (وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) وكان فى ذلك اشارة الى ان نور جميع الكواكب السيارة ماعدا الشمس وجميع أقمارها التابعين لها مستفاد من الشمس كما قلنا ومن هذا تعلم انه لا يمكن ان يكون المراد بالقمر خصوص القمر

الذى نشاهده فى سماء الدنيا لان هذا القمر لا يمكن ان يكون فى الطباق السبع جميعا مع التفاوت الذى أشار اليه الحديث فى طباقها وعلى فرض امكان ذلك بالتأويل الذى قالوه كما تقدم فالتأويل خلاف الحقيقة التى هى ظاهر لفظ الجمع فلا يصار اليه اذا أمكن الحقيقة وابقاء اللفظ على ظاهره خصوصا اذا كان التاويل بعيدا ولا قرينة عليه الا دعواهم ان حمل الآية على ظاهرها من تعدد الاقمار حمل للقرآن على مايخالف الواقع وقد علمت ان الواقع هو ما يقتضيه ظاهر الاية من تعدد الاقمار وان فى كل طبقة قمرا واقمارا وقد قدمنا ذلك مستوفى فى تفسير هذه الآية فارجع اليه

وقد قال تعالى (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) وقال عز من قائل (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) وقال جل شأنه (الذى رفع السماء بغير عمد ترونها) وقال جل جلاله (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) وقد بينا فيما سبق ان كل هذه الآيات تدل صريحا على مايوافق ماقاله علماء الهيئة الا ترى ان الله تعالى خلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ليتعاقب الليل والنهار ولنعلم عدد السنين وحساب الاوقات على مافصلناه من قبل وكل ذلك ليوجد فى العالم السفلى من المنافع بتعاقب الحر تارة والبرد تارة والاعتدال تارة ما اراد الله ان يوجده مما نشاهده متكررا فى كل سنة ولولا ذلك لم تتكامل نعم الله على عباده ولم ينتظم أمر معاشهم وذلك انما يتم بحركات الشمس والقمر والنجوم وسيرها وأوضاعها وغير ذلك ولا يعرف هذا كله الا من مباحث علم الهيئة كذلك ايضا ثبت بالارصاد الصحيحة التى لا تدع مجالا للشك ان حركات الكواكب السيارة مختلفة فمنها حركة تشملها جميعا آخذة من المغرب الى المشرق وكل ما كان منها اسرع حركة إذا قارن ماهو ابطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو الشرق وهذا ظاهر جدا فى القمر فانه يظهر بعد اجتماعه مع الشمس بيوم أو يومين من ناحية الغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الى ان يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته فى ممر البروج فيزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا أدركه ستره بطرفه الشرقى وتنكشف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا ان لهذه الكواكب السيارة كواكب اخرى سيارة لها أيضا حركة من المغرب الى المشرق ثم ان كل ما كان من الكواكب أقرب الى الشمس كان اسرع حركة وما كان ابعد عنها كان أبطأ حركة فهذا ماقاله علماء الهيئة فى حركات هذه الاجرام والافلاك فى اطوالها فدل على اختلاف تلك الكواكب على وجه ماذكر مع انها تقتضى كونها متساوية متماثلة فى الجسمية ولوازمها يجوز على كل واحد منها مايجوز على الاخر فيحتاج كل واحد منها فى تحقيقه بحركة من تلك الحركات دون غيرها الى فاعل مختار ويدل كمال نظامها واتقانه وماترتب عليها من المنافع المعلومة بالمشاهدة أو بالبرهان القطعى فى العالم السفلى على ان صانعها عليم حكيم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء كما ان من المشاهد فى الكواكب ان لها حركات فى عروضها وذلك ظاهر جدا مما نشاهده من أختلاف ميولها وانتقالاتها الى الشمال والجنوب ولو لم تكن للكواكب حركة الميل شمالا تارة وجنوبا تارة أخرى لكان تأثير الكواكب مخصوصا ببقعة واحدة فيكون سائر الجوانب خالية من المنافع الحاصلة منها باذن الله تعالى و يكون الذى يقرب منها متشابه الاحوال وكانت القوة هنالك بكيفية واحدة فان كانت حارة أفنت الرطوبات باحالتها كلها الى البخارية وبالجملة يكون خط المواضع المحاذية لممر الكواكب على كيفية وخط مالا يحاذيه على كيفية اخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية ثالثة فيكون فى موضع شتاء دائم و يكون فيه الهواء والعجاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع غير تام ولو لم يكن عودات الكواكب متتالية وكانت الكواكب أبطأ حركة من هذه لكان ليل قليل المنفعة والتأثير شديد الافراط وكان يعرض قريبا مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما وجدت المنافع وما تمت لانه لولا هذه الحركة التى عليها الكواكب الآن

لاختل نظام قسمة السنين الى الفصول الاربع فلا يترتب على كل فصل خواصه وأما اذا كان هنالك ميل محفظ الحركة فى جهة مدة ثم ينتقل الى جهة اخرى بمقدار الحاجة ويبقى فى كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى معتدلا مصونا عن جانبى الافراط والتفريط

وبالجملة العقول لاتقف الا على قليل من أسرار خلق السموات والارض فكيف باسرار سائر المخلوقات علويها وسفليها (ومايعلم جنود ربك الاهو) فسبحان الخالق المدبر خلقه بحكمته البالغة وقدرته الكاملة الغير المتناهية أعطى كل شئ خلقه ثم هدى * ولولا علم الهيئة ومباحثه التى بينوا فيها أحوال الاجرام السماوية وحركاتها ومناظرها وخواصها وتأثيراتها واثباتها بالمشاهدات تارة وبالآلات الرصدية والادلة الحسابية والهندسية تارة أخرى ماعلمنا ذلك القليل الذى دلنا على وجود الصانع وانه فاعل مختار قد أحاط بكل شئ علما وهو العزيز الحكيم ولولا علم الهيئة ومباحث علمائه لكنا نرى الكواكب التى جعلها الله زينة السماء تتحرك وتطلع وتغيب وتميل الى الشمال تارة والى الجنوب تارة اخرى وترتفع تارة وتنخفض تارة اخرى ومانعلم من ذلك كله ان الله تعالى خص كل كوكب بحركة وخاصية عجيبة وتدبير غريب لايعلمه بتمامه الا هو سبحانه وجعله مختصا بتلك الخاصة العجيبة فلا تكون لغيره من الكواكب وذلك التدبير الغريب فى تلك التاثيرات وكل ذلك انما هو مبين فى مباحث علم الهيئة فقد بينوا فيها ان للشمس التأثيرات العمومية فى العالم العلوى والعالم السفلى وان للقمر التأثير الارضى بواسطة نوره الذى يستفيده من ضياء الشمس ثم لسائر الكواكب تأثير آخر فى عالم الارض بواسطة انوارها التى تستفيدها من ضياء الشمس وبهذا تبينت الحكمة وظهر السبب فى ان الله تعالى بدأ بذكر الشمس وثنى بالقمر ثم اتبعه بسائر النجوم فى قوله عز من قائل (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) وقد بين سبحانه أن كلا من الشمس والقمر وسائر النجوم لاتأثير له بذاته ولا بطبعه بل أن كل واحد منها انما هو سبب أودع الله فيه قوة يترتب عليها الاثر الذى أراد الله سبحانه أن يترتب عليه باذنه فالمؤثر فى كل الآثار هو الله وحده فقال (الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) فدلت هذه الآية على أنه لا موجد الا الله ولا مؤثر سواه تعالى لان هذه الآية دلت على الحصر وأن كل الخلق والامر له تعالى دون غيره فبعد أن ذكر سبحانه أن تأثير الكواكب وتسخيرها بامره رد صريحا على من ينسب اليها التأثير بنفسها أو بطبعها فقال الا له الخلق والامر فدلت هذه الآية أن كل أمر يصدر عن كوكب أو عن ملك أو غيرهما فهو سبحانه فى الحقيقة خالقه وهو له وكل ماقلنا فى السموات يقال أيضا فى الارض كما قدمناه من ان انقسام السموات الى مناطق طبيعية يتبعه انقسام الارض أيضا الى مناطق كيف والسماء بمنزلة الفاعل والارض بمنزلة القابل كما قال سبحانه (جعل السماء بناء والارض فراشا) فهذه الآية تشير الى أن السماء كالرجل والارض كالانثى فراش له هذا فضلا عما اشتملت عليه الارض من أسرار الحكم فيما اشتملت عليه من الحرارة المركزية المبطنة بها وينابيعها التى فيها وخلق الجبال فيها رواسى سبلا فجاجا وارتفاعها وأسباب الارتفاع وازمانه وأن ذلك يقلل اضطراب الارض بواسطة مااشتملت عليه من البراكين وظواهرها ومايحدث فيها من الزلازل وغير ذلك مما هو مبين فى العلوم الباحثة عن تكوين الارض والجبال وطبقاتها ومعرفة اجزائها ومعادنها وكيفية تكوين تلك المعادن فيها بتدبير عجيب وحكمة باهرة تدل دلالة واضحة على وجود الصانع واحاطة علمه وكمال ارادته وقدرته وتمام الحكمة وأن فاعلها مختار فعال لما يريد ومن هذا القليل والنذر اليسير الذى بيناه يتحقق العاقل المنصف مصداق قوله تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الألباب) حيث أتى بجمع القلة ورمز بقوله لآيات الى أن الآيات التى ظهرت لنا ووصلنا اليها بعقولنا وبواسطة مباحث علم الهيئة وان كانت كثيرة فى نفسها قليلة جدا فى جنب ماخفى علينا منها فى خزائن العلم ومكان الغيب ولم يظهر لغاية الآن لاولى الباب أى لاصحاب

العقول الخالصة من شوائب قيود الحس والوهم والوقوف مع المواد والماديات وقد مدح الله تعالى أولى الالباب هؤلاء بقوله تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وقد جاء فى الحديث عن ابى هريرة رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينادى منادى يوم القيامة أين أولو الالباب قالوا أى أولى الالباب تريد قال الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم عقد لهم لواءهم فاتبع القوم لواءهم وقال لهم ادخلوها خالدين) والظاهر أن المراد بالذكر الذكر باللسان مع حضور القلب اذ لاتمدح بالذكر بدونه بل أجمعوا على انه لاثواب لذاكر غافل واليه ذهب كثير وقال بعض المحققين المراد به ذكره تعالى مطلقا سواء كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والافعال وسواء قارنه ذكر اللسان أولا والمعنى عليه الذين لايغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم فى مراقبته والمراد من ذكره هذه الاحوال الاشارة الى الدوام وليس المراد الدوام الحقيقى لاستحالته بل المراد غالب الاحوال فالمراد يذكرون الله كثيرا ولما كان أكبر مزايا الذكر سواء كان المراد منه الذكر باللسان مع حضور القلب أو عدم الغفلة عنه تعالى باستحضار عظمة ذاته أو صفاته أو افعاله أو باستحضار الجميع سواء كان مع ذلك ذكر لسانى أولا أن يتفكر الذاكر فى صنع الله المتقن وفيما اشتمل عليه من الاسرار والحكم والمنافع قرن الله تعالى ذلك الذكر بالتفكر فى أكبر المصنوعات خلقا وأكثرها أسرارا وحكما ونفعا وعطفه عليه فقال تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) أى يتفكرون وينظرون متأملين بعقولهم السليمة المستقيمة فى خلق ماذكر وما اشتمل عليه الخلق من الاتقان والمخلوق من الحكم والاسرار والمنافع حال كونهم قائلين باللسان معتقدين صدق ماقالوا بالجنان ربنا أى يا ربنا ومدرجنا فى مدارج الكمال فضلا ورحمة ماخلقت هذا المخلوق الذى خلقه أكبر من خلق الناس باطلا وعبثا لاحكمة فيه ولا منفعة سبحانك ننزهك تنزيها بالغا حد الغاية عن أن تخلق شيئا باطلا وعبثا فضلا عن أن تخلق هذا المخلوق العظيم باطلا وأشار بالتفكر فيما ذكره الى أن الممدوح المأمور به انما هو التفكر فى الخلق والمخلوق وما اشتملا عليه من الاتقان والحكم دون التفكر فى الخالق لان وصول العقول الى كنه ذات الخالق وصفاته محال فلذلك نهى الشارع عن التفكر فى كنه الذات والصفات فقد جاء فى الحديث انه عليه الصلاة والسلام خرج على أصحابه وهم يتفكرون فقال لاتفكروا فى الله تعالى ولكن تفكروا فى ماخلق وفى حديث آخر مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون فقال تفكروا فى الخلق ولاتفكروا فى الخالق وعن ابن عمر انه صلى الله عليه وسلم قال تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله تعالى وعن ابن عباس تفكروا فى كل شئ ولا تفكروا فى ذات الله تعالى الى غير ذلك مما ورد فى هذا وقال تعالى (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون به علما) اذا تقرر هذا فنقول

من المعلوم انه لا معنى للتفكر فى خلق السموات والارض الا التفكر فى انشائهما وابداعهما وما اشتملا عليه من عجائب المصنوعات ودقائق الاسرار ولطائف الحكم والاستدلال بذلك على وجود الصانع ووحدته فى ذاته وصفاته وأفعاله وانه الملك العالم المريد القادر الحكيم القاهر الذى أتقن كل شئ وانما اقتصر فى الآية على ذكر اختلاف الليل والنهار الذى يكون على حسب طلوع الشمس من المشرق وغروبها من المغرب التابعين لسباحتها فى بحر فلك قدرة الله تعالى حسب ارادته لان هذا الاختلاف مشاهد محسوس معلوم للخاص والعام بقطع النظر عن كون ذلك تابعا لحركة الفلك الاعظم وسكون الارض كما يقول فريق من علماء الهيئة أو تابعا لحركة الارض على محورها كما يقول فريق آخر وبقطع النظر عن كون الافلاك نفسها متحركة والكواكب تتحرك بحركتها كما يقول الفريق الاول أو أن الكواكب هى التى تتحرك

بانفسها فى مداراتها وأفلاكها والافلاك ساكنة كما يقول به الفريق الثانى وقول الفريق الثانى قريب مما يقوله جمهور أهل السنة من المحدثين وغيرهم من سكون السموات وتحرك النجوم أنفسها فيها بتقدير العزيز العليم وموافق تمام الموافقة لما قاله الشيخ الاكبر قدس سره حيث قال أن الله تعالى جعل هذه السموات ساكنة وخلق فيها نجوما وجعل لها فى سيرها فى هذه السموات وسبحها الى آخر ما قدمناه عنه وتبين منه ان ما قاله فى صدر كلامه من أن النجوم نفسها دائرة بحركات لا تزيد ولا تنقص وأن السموات ساكنة الى آخر ما يتعلق بهذا الصدد موافق تمام الموافقة لما يقوله علماء الهيئة اليوم وأما ما يتعلق بنغمات الافلاك وما يتعلق بها فهذا شئ يختص به أهل الكشف دون غيرهم كما أن قوله فى ما ادعاه أهل الهيئة الاقدمون فى ترتيب الافلاك من أن ذلك كله ترتيب وضعى حق وقد تحقق بما أقامه علماء الهيئة اليوم من الادلة على أن الشمس انما تتحرك على محورها وانها مركز العالم وأن الارض وسائر السيارات تدور حول الشمس وقالوا ان تلك الادلة براهين قاطعة على ذلك وبنوا على ذلك الكسوف والخسوف وسائر الاوضاع واختلاف المناظر وبالجملة لم يتخلف شئ من نظام الاجرام السماوية ومناطقها ولم يتغير شئ منها كما لم يتخلف ولم يتغير شئ من مناطق الارض سواء قلنا بما يقوله الاقدمون أو بما يقوله علماء الهيئة اليوم لان خلافهم فى العلل والاسباب لا فى المعلولات والمسببات والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما ومجئ كل منهما خلف الآخر وتفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بزيادته باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة والامكنة أما الطول والقصر فان البلاد القريبة من قطب الشمال ايامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة عنه ولياليها وأما فى أنفسها فان كروية الارض تقتضى أن يكون بعض الاوقات فى بعض الاماكن ليلا وفى مقابله نهارا وفى بعضها صباحا وفى بعضها ظهرا مثلا أو عصرا أو غير ذلك وهذا كله مما لا شبهة فيه لاحد فان اختلاف الاوقات بحسب الازمنة والامكنة مشاهد محسوس لا يختلف فيه اثنان ويشترك فى معرفته الخواص والعوام

فانت ترى ان الله سبحانه استدل بخلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وذلك كله محقق وكلما كان المخلوق مشتملا على حكم اكثر ومنافع أوفى واوفر كانت دلالته على وجود صانعه واحاطة علمه وشمول ارادته وتمام قدرته أقوى واكبر ولاشك ان مباحث علم الهيئة أظهرت كثيرا مما اشتمل عليه السموات والارض اجتماعا وما فى كل منهما انفرادا من العجائب والبدائع والغرائب والاسرار والحكم والمنافع بما يدهش العقول ويحير الالباب وكما اقتصر القرآن فى هذه الآية على خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لكون ذلك مشاهدا لا اختلاف فيه لاحد كذلك اقتصر فى شأن آياته القرآنية فيما يتعلق بالسموات والارض والشمس والقمر وسائر الكواكب على ما هو متفق عليه ولا يختلف ولا يتغير باختلاف العلماء فى علله وأسبابه وتغير الوقوف على ذلك بتغير الآلات الرصدية من قصور الى تمام ومن نقص الى كمال لان الغرض الذى يرمى اليه القرآن انما هو كما قلنا الاستدلال فيلزم لالزام الخلق ان يكون بما هو معلوم محقق لا يختلف باختلاف العلماء على ممر الزمان والحاصل ان علم التفسير كعلم الحديث كما قدمناه مركب من عدة علوم يرجع اليها علماء التفسير فى تفسير آيات القرآن والاحاديث فيرجعون فيما يتعلق بمعانى الفاظها مفردة ومركبة حقيقية ومجازية الى ما قاله علماء اللغة وعلماء البيان مع أن طريق النقل فى ذلك ظنى ويرجعون فيما يتعلق بالاعراب والبناء ونحو ذلك الى ما قاله علماء النحو وفيما يتعلق بصحة الالفاظ واعلالها وتصريفها الى ما قاله علماء الصرف وفيما يتعلق بالفصاحة والبلاغة فى الكلام الى ما قاله علماء المعانى وفيما يتعلق بالمحسنات الى ما قاله علماء البديع وكل ذلك ظنى وفيما يتعلق بمفاهيم الالفاظ وكون المفهوم كليا يصدق على كثيرين متفقين أو مختلفين فى الحقيقة أو جزئيا لا يصدق إلا على معنى لا يقبل الشركة وما يتعلق بالقضايا

وأقسامها وجهات نسبها وما يتعلق بالاقيسة وأقسامها من حيث الاشكال والمواد يرجعون فيه الى ما قاله علماء المنطق وفيما يتعلق بالآيات المتعلقة بالعقائد والتوحيد وما يتوقف عليه ذلك من مباحث الامور العامة الى علماء الكلام وفيما يتعلق بحقائق الموجودات والكائنات والوقوف على ذلك بقدر الطاقة البشرية بالطرق العقلية الى ما يقوله الحكماء فيأخذون منهم فيما يتعلق بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية من ذلك ما لا يخالف ما علم من الدين بالضرورة الا ترى ان العلماء قاطبة فى بيان اعضاء الانسان وسائر الحيوانات وبيان وظائفها رجعوا الى ما قاله علماء التشريح فى وظائف الاعضاء وفى بيان تركيبها وحملوا الآيات القرآنية والاحاديث النبوية المتعلقين بما ذكر على ما قاله هؤلاء العلماء وفيما يتعلق بالادوية وأجزائها وتركيبها ومنافعها وخواصها الى ما قاله علماء الطب فى ذلك وعول الفقهاء فى استنباط الاحكام فيما يتعلق بما ذكر على ما قاله هؤلاء العلماء وغير ذلك مما لا يكاد يحصى فوجب علينا حينئذ ان نرجع فى بيان معانى الآيات القرآنية والاحاديث النبوية المتعلقة بالسموات والارض والكواكب وحوادث الجو ونحو ذلك الى ما قاله العلماء المختصون بالبحث فيما ذكر وهم علماء الهيئة قديما وحديثا خصوصا وأن ما جاء فى آيات القرآن والاحاديث متعلقا بما ذكر لم يتعرض فيه لمواضع الخلاف ومذهب دون مذهب بل الذى جاءت به الآيات القرآنية والاحاديث النبوية متعلقا بما ذكر يقول به الجميع ويصح أن يتفرع على كل المذاهب ولا يختلف باختلافها لما قلناه غير مرة من أن نظام حركات الكواكب طولا وعرضا وارتفاعا وانخفاضا واجتماعا واستقبالا وطلوعا وغروبا وغير ذلك وعدد السنين وحساب الاوقات واختلاف الفصول واختلاف مناطق السماء وما يتبعه من اختلاف مناطق الارض كل ذلك ونحوه مما يتعلق بالقسم الوصفى من علم الهيئة وجاءت به الآيات والاحاديث لا يتغير ولا يتخلف سواء قلنا بمذهب أهل الهيئة الاقدمين أو بمذهب أهل الهيئة اليوم كما يظهر ذلك ويتضح وضوحا لا خفاء فيه لمن رجع لما قلناه فى هذه العجالة وتتبع آيات القرآن والاحاديث الصحيحة النبوية المتعلقة بما ذكر ولا يلزمنا فى فهم الآيات القرآنية والاحاديث النبوية المتعلقة بما ذكر والوقوف على ما ترمى اليه من الاغراض العالية الا معرفة ما دلت عليه مما اتفق عليه الجميع وعلم بالحس والعيان وأما ما يتعلق بالعلل والاسباب التى تختلف باختلاف الآلات الرصدية حسب اختلاف الازمنة وتختلف باختلاف الافهام والادلة الحسابية والهندسية صحة وفسادا فلا يتوقف عليه فهم شئ من معانى آيات القرآن والاحاديث المتعلقة بما ذكر ولا هى تتعرض لشئ منه بل ترك الله ذلك لذوى العقول والهمم العالية من عباده الذين فطرهم على حب البحث والاستطلاع على حقائق الكائنات علوية كانت أو سفلية بقدر طاقتهم البشرية

من ذلك تعلم أن البحث فى القسم الوصفى من علم الهيئة لازم وضرورى لفهم آيات القرآن والاحاديث النبوية المتعلقة بما ذكر وأما البحث فيما يتعلق بالقسم الطبيعى والقسم العملى فذلك كمال انسانى كالبحث فى سائر العلوم التى لا يتوقف عليها فهم آيات القرآن والاحاديث

فطلبا للكمال يلزمنا ان نبحث فى هذه المذاهب ونأخذ منها بعد النظر فى أدلة اصحابها ما هو الاقرب للصواب بحسب أفهامنا كما فعلنا ونفعل مثل ذلك فى سائر العلوم التى يرجع اليها علماء التفسير فاننا رأيناهم فى تفاسيرهم كثيرا ما يحملون الآيات القرآنية على ما هو الاقرب للحق بحسب افهامهم من المذاهب المختلفة فى العلوم وان كان فهم ما جاء فى القرآن من الآيات لا يختلف حاله باختلاف هذه المذاهب وقد قلنا لك غير مرة نقلا عن الالوسى فى تفسيره وغيره فى غيره ان بعض المحققين قطع بانه لم يجئ فى الاحاديث الصحيحة المرفوعة ما يفصل أمر السموات والارض اتم تفصيل وان تفصيل ذلك ليس من المهمات فى نظر الشارع والمهم فى نظره منها هو ما بينه وهو واضح لا مرية فيه ولا يختلف باختلاف المذاهب وما اهتم

به الشارع وبينه فى الآيات القرآنية مما يتعلق بالسموات والارض والنجوم وغيرها من المخلوقات كاف فى الغرض الذى يرمى اليه الشارع فان غرضه الذى يرمى اليه هو حض عباده وحثهم على النظر فى مخلوقاته سبحانه لاسيما فى السموات مع ما منها وفيها من الشمس والقمر وسائر النجوم واختلاف الليل والنهار والمشارق والمغارب وايلاج الليل فى النهار وبالعكس وكون الليل يغشى النهار يطلبه حثيثا وبالعكس وكون الشمس سراجا وضياء فى السموات السبع وكون القمر فيهن نورا والاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر وتفيء الظلال ذات اليمين والشمال ولو شاء لجعل الظل ساكنا وقد جعل الشمس عليه دليلا ونحو ذلك مما جاء فى الآيات القرآنية وهو لا يختلف ولا يتغير ولا يتخلف بل هو مستمر على أى مذهب من مذاهب علماء الهيئة كان النظر فى الارض وما عليها من البحار وما فيها من العيون والينابيع والانهار والجبال الراسيات والمعادن وكيفية تكوينها بما اودعه الله فيها من الحرارة المركزية وما عليها من حيوانات ونباتات واختلاف انواعها وصفاتها واحوالها وخواصها بحسب اختلاف الازمنة والامكنة وغير ذلك كل ذلك ايضا ظاهر واضح معلوم للخلق لا يختلف فيه أحد سواء قلنا ان الارض كروية أو غير كروية أو انها متحركة حول الشمس وعلى محورها أو ساكنة لا حركة لها أصلا او ان اصلها كتلة نارية ثم بردت قشرتها او انها كوكب سيار من جملة الكواكب السيارة او انها خلقت من زبد البحر او من جوهرة خلقها الله تعالى وأبدعها وتجلى عليها بالهيبة والجلال فذابت وصارت ماء ناريا أبيض عليه زبد ويعلوه دخان فان كل هذه المذاهب لا يلزمنا القول بها أو ببعضها ولا الخوض فى معرفة صحيحها وباطلها ولا يجب علينا ان نعتقد منها مذهبا بخصوصه واختلافها لا يؤثر فى تحقق ما أمر الله تعالى به عباده فى آيات القرآن من النظر فى خلق السموات والارض وما بينهما بل ان ما بينته الآيات من ذلك كاف لنظر العقلاء فيه وانهم متى نظروا فى ذلك بعقول سليمة مستقيمة علموا علما يقينا وعرفوا معرفة حقيقية وأذعنوا اذعانا تاما واستسلموا استسلاما كاملا ظاهرا وباطنا بان لهذه المخلوقات ربا رباها ودرجها فى مدارج الكمال وصانعا صنعها بارادته وقدرته عالما بكل شئ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا اكبر إلا فى كتاب مبين فاعلا مختارا واعترفوا باللسان كما اعتقدوا وأذعنوا بالجنان بان فى كل ذرة من ذرات هذه المخلوقات حكما ومقاصد واغراضا صحيحة ومنافع جمة وفوائد لا تحيط بتفاصيلها العقول والافكار فقالوا ربنا ما خلقت هذا باطلا * ولما تأملوا احوال هذه المصنوعات ووجدوا ان شيئا منها لا يصلح ان يكون الها وصانعا لها وان صانعها يجب بمقتضى البرهان العقلى القطعى ان يكون مخالفا لها فى ذواتها وصفاتها وفى كل شئ لها وانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وانه لابد ان يكون منزها عن مشابهة شئ منها فحينئذ لا يكون جسما ولا عرضا ولا فى حيز ولا فى جهة ولا مفتقرا بل هو الغنى المطلق عما سواه المفتقر اليه كل ما عداه قالوا (سبحانك) أى تنزيها عما لا يليق بك ثم لما استغرقوا فى بحار العظمة والجلال وبلغوا هذا المبلغ الاعظم وتحققوا ان من قدر على ما ذكر من انشاء السموات والارض وإبداعهما لا على مثال يحتذيه أو قانون ينحيه واتصف بالقدرة الشاملة الكاملة وبالحكمة البالغة الباهرة الظاهرة كان على اعادة من نطقت الكتب السماوية باعادتهم وبعثهم واحيائهم خلقا جديدا أقدر وعليه أهون وان ذلك ليس الا لحكمة بالغة عالية غالية هى جزاء العاملين فى هذه الدار دار العمل فى الدار الاخرى دار الجزاء بحسب استحقاقهم المنوط باعمالهم القلبية والقالبية طلبوا من الله تعالى النجاة مما يحيق بالمقصرين ويليق بالملحدين العاصين من العذاب الاليم فقالوا (فقنا عذاب النار) فدلت هذه الآية على أن أفعال الله تعالى

وأحكامه معللة بالاغراض والمصالح على معنى أن تلك الاغراض هى حكم ومصالح ومنافع للعباد تترتب على أفعاله تعالى وأحكامه سبحانه هو الغنى بذاته عن أن يستكمل بغيره وتدل أيضا على أن الله تعالى خلق الافلاك والكواكب وأودع فيها قوى مخصوصة فجعل فى كل فلك وكل كوكب قوة تخصه وجعلها بحيث يحصل من حركاتها واتصال بعضها ببعض وسائر أوضاعها مصالح ومنافع فى هذا العالم السفلى عالم الكون والفساد وبذلك ارتبط العالم العلوى بالعالم السفلى كما أشار الله تعالى الى ذلك بقوله تعالى (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم) فجعل السماء بمنزلة الرجل والارض فراشا بمنزلة الانثى وجعل الماء النازل من السماء سببا فى خروج الثمرات من الارض كما يخرج الجنين من بطن امه ويتكون بماء الرجل فى رحمها الاترى الى قوله تعالى (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقد شبه النساء بالارض التى تحرث وتسقى بالماء فينبت الولد فى رحمها والمرأة فراش الرجل كما أنه فى هذه الآيه جعل السماء بناء ينزل منها الماء الى الارض وجعل الارض فراشا كالنساء يخرج من بطنها الاشجار والزروع فيخرج به من الثمرات رزقا لنا ولانعامنا

وبيان ذلك أن الافلاك والكواكب لو لم تكن كذلك لكانت باطلا وعبثا لانها حينئذ تكون منافعها قاصرة على الاستدلال بها على الصانع فقط وكل ذرة من ذرات الماء والهواء يشاركها فى ذلك فلا يبقى لخصوصياتها فائدة وحينئذ يكون تنويع العالم وجعل بعضه علويا متنوعا الى أنواع شتى وسفليا متنوعا كذلك الى أنواع شتى باطلا وعبثا

وأما ما قاله بعض علماء الكلام من أنه يجوز أن يكون كل ذلك أسبابا عادية للارضيات والعالم السفلى عالم الكون والفساد وليست اسبابا حقيقية لما ذكر وأن التأثير عندها لا بها ويكفى ذلك فى فائدة خلقها فهو لا ينافى ما قاله حكماء الاسلام مما ذكرناه لان القول بايداع القوى فى الفلكيات من أفلاك وكواكب وفى جميع الاسباب والعلل مع القول بانها مؤثرة باذن الله تعالى وأنها وما فيها من القوى أثر من آثار الله تعالى لا يقتضى أن التأثير بها لذاتها على معنى أنه يقتضى استكمال الواجب فى فعله بالغير فان كان مراد المتكلمين بان التأثير عندها لا بها ذلك المعنى الذى قلناه فنحن نوافقهم فيه ونرحب بالوفاق وان كان مرادهم ان لا دخل لها أصلا ولا حاجة بالمسببات والمعلولات اليها بمعنى أن المسببات والمعلولات لا تتوقف فى وجودها على وجود أسبابها وعللها مادية وغيرها فهو خلاف ما يقتضيه العقل والنقل أما النقل فان القرآن صريح فى أن الله تعالى خلق الانسان من نطفة ثم من علقة فخلقها مضغة فخلق المضغة عظاما فكساها لحما ثم انشأه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين وبين أن النطفة التى هى ماء الرجل يخرج من بين الصلب والترائب فادتها الدم ومادة الدم الغذاء والغذاء مادته الطين المركب من الاجزاء الارضية والمائية فانت ترى أن الله تعالى بعد أن بين أنه سبحانه خلق الانسان من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب وهو النطفة رتب كونه علقة على كونه نطفة ورتب كونه مضغة على كونه علقة وهكذا وكل ذلك لنقص فى الممكنات وحاجة بعضها البعض لا لعجز فى الواجب الفاعل المختار جل شأنه بل هذا هو الذى أراده الله تعالى وفطر الخلق عليه وهذه سنته فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا

وأما العقل فانا نشاهد من توقف الحوادث بعضها على بعض ما لا ينكره الا من أراد أن ينكر نفسه ويكابر حسه الا ترى انا نشاهد أن جميع المواليد الثلاث تحتاج فى كونها وفسادها الى علل فاعلية ومادية وغائية وأسباب ومعدات تفضى اليها ويتوقف وجودها أو كمالها عليها على ما سبق تفصيله فكان ما قاله حكماء الاسلام على وجه ما ذكرناه هو الموافق لما يقتضيه العقل والنقل ولا بأس بالقول به بل هو المذهب المنصور وهو المذهب الذى عليه سلف الأمة وحققناه فيما تقدم وقلنا انه لا ينافى استناد كل الآثار لا فرق فى ذلك بين سبب ومسبب وعلة

ومعلول الى مسبب الاسباب وخالق العلل بل أن جريان الامور كلها انما هو بقضائه وقدره تعالى لان تعلق الارادة فيما لايزال بشئ أن يكون لايكون الا على حسب ماتعلق به علمه أن يكون ولان تعلق القدرة بالايجاد تابع لتعلق الارادة نعم أن القول بان الفلكيات من أفلاك وكواكب ونحوها من سائر الأسباب والعلل مؤثرة بنفسها ولو لم يأذن الله تعالى ضلال واعتقاده كفر وعلى ذلك يخرج ماجاء في الخبر (من قال أمطرنا بنوء كذا فهو كافر بالله مؤمن بالكواكب ومن قال أمطرنا بفضل الله تعالى فهو مؤمن بالله تعالى كافر بالكواكب ومن ذلك تعلم أننا في هذه العجالة لم نخرج عما قاله المحققون من علماء التفسير المنصفون لانفسهم من غيرهم ولغيرهم من انفسهم فداروا مع الحق أينما دار وعضوا عليه بالنواجز فاقتد باولئك الاخيار ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فدر مع الحق حيث دار كما قال تعالى و بشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه و بالجملة فكل علم من العلوم وفن من الفنون على اختلاف موضوعاتها مهما قيل فيه من الذم ومهما ورد فيه من النهى ومهما قيل فيه أنه هذيان فتعلمه وتعليمه للاطلاع على مسائله والوقوف على حقه وباطله وغثه وثمينه لتتمحص مسائله ويؤخذ حقه ويترك باطله كمال انسانى فينبغى لكل انسان وفقه الله أن يأخذ من كل علم قسطا على قدر الطاقة البشرية وبحسب الحاجة اليه بل تارة يكون فرضا عينيا أو كفائيا أو مباحا للغرض المذكور ومتى صدق المزاولون للعلوم في المعاملة مع الله تعالى وحسنت النية منهم في تعليمه وتعلمه وخلصت الطوية وحمدت السرائر وصفت الضمائر وطهرت قلوبهم من العيوب الباطنة وقوالبهم من النقائص الظاهرة وتمسكوا في ذلك كله بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أرشدهم الله وهداهم الى الصواب وأراهم الحق حقا فاتبعوه وعملوا به والباطل باطلا فتركوه واجتنبوه وحينئذ يعلمون علم اليقين أو حق اليقين أو عين اليقين ان الكل منه سبحانه واليه وانه تعالى اليه المرجع والمنتهى وله الآخرة والاولى والله الموفق فليحفظ هذا وليكن آخر مايسره الله تعالى مما قصدناه ليكون تذكرة لاولى الالباب والابصار ونموذجا يحتذيه ذوو العقول السليمة والافكار ومنوالا ينسج على مثله ذوو الانظار والاعتبار فان هذه المباحث التى ذكرناها في هذه العجالة درر مستخرجة من بحر ذاخر ان كان له أول فليس له آخر والله تعالى هو الاول الذى لا أول له وهو الآخر الذى ليس له آخر وهو ولى التوفيق الذى يعلم ما في السرائر وهو القادر على أن يلحق بالأوائل الاواخر واسأله تعالى أن ينفع بها كما نفع باصولها وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن لا يحرمنا أجره العظيم بفضله ورحمته وكرمه وجوده وانى لمعترف بان ماجئت به فيها من عندى انما هو بضاعة مزجاة يعرضها على النظار عاجز قصير الباع قليل البضاعة قليل الاطلاع لكنه لم يأل جهدا في تنقيح مانقله الا بذله ولا ترك وسعا في تحقيق الحق واحقاقه الا استعمله فجاءت هذه العجالة كافية في الغرض المقصود وافية فهى جهد المقل الذى جعل اعتماده في كل شئ على مولاه المعين المغيث فخاض اعتمادا على عون الله وقوته عباب هذا البحر الخضم الزاخر قياما بالواجب بالقدر المستطاع فمن وجد فيها خيرا وصوابا فليحمد الله تعالى وليشكره ومن وجد فيها خلاف ذلك فليصلحه أو يؤوله بالقدر الممكن فان كل انسان محل للخطأ والنسيان ماعدا من عصمهم الله تعالى من رسله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين واستغفر الله العظيم لى ولجميع المسلمين وأصلى وأسلم على نبيه ورسوله الكريم وآله وصحبه وسائر أتباعه وحزبه انه هو الغفور الرحيم

وكان الفراغ من تأليفه في يوم الاحد سادس شهر رجب الفرد من شهور سنة ١٣٤٠ (الف وثلاثمائة وأربعين هجريه) كتبه بخطه مؤلفه الفقير اليه تعالى محمد بخيت المطيعى الحنفى غفر الله له ولوالديه ولجميع اخوانه واسلافه وشيوخه آمين

انتهى طبعه في غرة ذى القعدة سنة ١٣٤١ من الهجره النبويه على صاحبها افضل الصلاة والتحيه

فهرست كتاب توفيق الرحمن

صحيفة

٢ خطبة الكتاب

٣ مقدمة تشتمل أولا على تعريف علم الهيئة وأقسامه وموضوعه ثانيا على منزلته من العلوم وفائدته ومباحث اخر ثالثا حكم الله فيه وفى علم أحكام النجوم رابعا ماقاله العلماء في ذلك العلم

١١ في الكلام على كروية الارض وانها لاتصادم شيئا من الآيات القرآنية

١٣ الكلام على مانراه من القبة الزرقاء وعلى ماهو المراد من السماء في مثل قوله تعالى ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وفيه بيان ماهو الحق في السموات السبع عند أهل الهيئة اليوم

١٥ الكلام على ما يخطر على البال من ان مازعمه اهل الهيئة من ان هذا الذى نراه أزرق ونسميه سماء ليس سماء والجواب عن ذلك وعما اذا كانت السماء امورا اعتبارية أو هى أجسام موجودة

١٦ الكلام على قوله تعالى ءأنتم أشد خلقا أم السماء بناها الآية وانها لم تصادم شيئا مما قاله علماء الهيئة وما هو المراد من التسوية ومعنى الليل والنهار

١٨ الكلام على قوله تعالى يولج الليل في النهار الآية وقوله تعالى يكور الليل على النهار الآية وقوله يغشى الليل النهار الآية

٢٠ الكلام على قوله تعالى «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار الآية

٢٢ الكلام على قوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها وبيان ماهو الراجح في معنى المستقر وفى ذلك مباحث تتعلق بالشمس وحركاتها وحرارتها وغير ذلك

٢٤ الكلام على الاحاديث الصحيحة المروية عن ابى ذر من ان الشمس تذهب لتستأذن الى آخر ماجا وبيان التوفيق بينها وبين ما قاله علماء الهيئة وان اشكل التوفيق على بعض أكابر العلماء المحققين

٢٦ الكلام على ماقاله الالوسى من ان الظاهر ان للشمس قرارا حقيقية وان النووى قال قال جماعة بظاهر الحديث وبيان ماهو الحق في ذلك وان ظاهر الحديث ليس كما قالوا

٢٨ الكلام على قوله تعالى والقمر قدرناه منازل وفى ذلك بيان هذه المنازل والبروج وما يتعلق بذلك

٣٢ الكلام على قوله تعالى حتى عاد كالعرجون القديم وعلى قوله تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وفى ذلك مباحث تنقلات حركات الشمس جنوبا وشمالا وحركات القمر من اول ليلة في الشهر الى آخره وحركات الاجرام السماوية على العموم وانه لولا ذلك ماتعاقب الليل والنهار

٣٥ الكلام على المقارنة بين ماتقدم من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وبين ما قاله علماء الهيئة قديما وحديثا وان معانى تلك الآيات لاتصادم شيئا مما قاله علماء الهيئة مطلقا

٣٦ الكلام على مايتعلق بالدورة السنوية ومنشؤها قمرية كانت او شمسية وان ماجاء بالآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة هو ما اتفق عليه الجميع وثابت بالادلة القطعية

٣٨ الكلام على بيان السبب في أن الدورة السنوية لم تكن في أقل من سنة

صحيفة

٣٨ الكلام على قوله تعالى عدد السنين والحساب ووجه تخصيص العدد بالسنين
٣٩ الكلام على قوله تعالى لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر الآية وانها لاتصادم ماقاله علماء الهيئة
٤٠ فى الكلام على قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون وان هذه الآية مع قوله تعالى الم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا الآية تدلان على ان القول باتحاد السموات والافلاك يخالف لما عليه سلف الامة من ان الفلك غير السماء وان الظاهر ان الذى يسبح ويسير هو الكوكب نفسه فى فلكه
٤٢ الكلام على الضمير الذى ناب عنه التنوين فى لفظ كل من قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون وضمير الجمع فى يسبحون وانه يعود على الشمس والقمر وشئ آخر ولا شئ يصلح لان يعود الضمير عليه معهما سوى الارض فتدل الآية على دوران الارض
٤٣ الكلام على قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب الآية وانها بظاهرها تدل أيضا على دوران الارض
٤٥ بيان ان القول بان الفلك الذى تجرى فيه الشمس أو القمر موج مكفوف تحت السماء وان القول بان الكواكب معلقة بسلاسل من نور تحت السماء مما لا يكاد يصح ويخالف للآيات القرآنية وبيان وجه المخالفة
٤٦ الكلام على مايتعلق بالجبال وبيان الخطأ الذى ارتكبه كثير من المفسرين فى تفسير قوله تعالى وجعلنا فى الارض رواسى ان تميد بهم ونظائرها
٤٩ بيان بطلان قول الفلاسفة ان الارض فيها ميل مستقيم فلا يوجد فيها مبدأ ميل مستدير الخ
٥٠ الكلام على أن الجبال جزء من الارض سواء قلنا ان الارض ساكنة أم متحركة
٥١ بيان سبب وقوف الارض فى وسط الهواء على القول بسكونها
٥٣ بيان انه لاخلاف فى تكون الجبال من الارض وانما الخلاف فى ان هنالك وسائط أو ليس هنالك وسائط وبيان ماقيل فى تفسير قوله تعالى والقى فى الارض رواسى ان تميد بكم
٥٤ الكلام فى ان الارض كانت ملتهبة فى مبدىء أمرها وفى علة تكون الجبال وانها باقية مستمرة
٥٥ فى الكلام على بعض الحكم التى رتبها الله على خلق الجبال وقوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون
٥٦ الكلام على ان مما رتب الله على الرياح من الحكم انها تسوق السحاب الى البلدان المحتاجة للمطر
٥٧ الكلام على قوله تعالى أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز الآية وقوله وهو الذى أرسل الرياح بشرا الآية وقوله ولقد صرفناه بينهم الآيه
٥٨ الكلام على قوله تعالى وتصريف الرياح الآية وقوله وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى الآيه وما دلت عليه هذه الآيات وما قبلها
٥٩ الكلام على الخلاف فى كون الارض متحركة أو ساكنة وبيان أدلة الدوران من القرآن وغيره
٦١ الكلام فى قوله تعالى والجبال أوتادا
٦٢ الكلام على قوله تعالى أولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا
٦٣ الكلام على قوله تعالى وأنزل من السماء ماء وفيها الكلام على أن الماء والهواء بحران الخ

صحيفة

٦٤ الكلام على التوفيق بين ماجاء فى الاخبار من ان الرعد صوت الملك والبرق لمعان مخاريقه التى هى من نار وبين ماقاله الحكماء فى ذلك
٦٧ الكلام على قوله تعالى ألم تر ان الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه الآية
٦٩ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من ان حركة الارض على محورها فى سطح وحركتها حول الشمس فى سطح آخر وأدلة ذلك وفيه بيان ان الآيات القرآنية تدل على ان الحركة التى يكون بها الشروق والغروب تغاير الحركة التى يكون بها اختلاف الليل زيادة ونقصا واختلاف الفصول
٧٢ الكلام على قوله تعالى تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وذكر مايتعلق بالبروج وانها كواكب
٧٣ الكلام على التوفيق بين ما جاء فى آيات القرآن من ان الله جعل القمر نورا ومنيرا وبين ماقاله علماء الهيئة من ان القمر جسم مظلم وبيان سبب الخسوف والكسوف
٧٤ فى بيان السبب فى ان حدوث الكسوف والخسوف لايكون فى كل شهر الكسوف فى أوله كما كنا نتوقع والخسوف حيث يكون القمر بدرا كما كنا نتوقع
٧٥ فى بيان ان قوله تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا يشير الى ان نور القمر مستفاد من الشمس والرد على من انكر ذلك وادعى انه مما لم يجىء من حديث من عرج الى السماء
٧٧ الكلام على ماقاله علماء الهيئة ان جرم القمر مقدار نصف جرم الارض وماقالوه من ان الارض من الاجرام السماوية وما يتعلق بما ذكر
٧٨ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من ان عطارد يدور حول الشمس وقطر فلكه نحو ثلثى قطر فلك الارض وماقالوه أيضا من انه يعسر رصده ومايتعلق بما ذكر
٧٩ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من ان فلك الزهرة بين فلك الارض وفلك عطارد وغير ذلك مما يتعلق بالزهرة
٧٩ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من ان المريخ اقرب السيارات العليا الى الارض الى آخر مايتعلق به
٨٠ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من ان بين فلك المريخ وفلك المشترى مساحة واسعة فيها تدور عدة اجرام صغيرة سموها السيارات الصغار
٨٠ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من ان فلك المشترى خارج فلك السيارات الصغار وانه اكبر اجرام النظام الشمسى الى آخر مايتعلق بالمشترى
٨١ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من ان زحل اغرب السيارات منظرا ومايتعلق باقماره وحلقاته
٨٢ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من انهم اكتشفوا سيارا سموه اورانوس لم يكن معروفا عند القدماء وما يتعلق به وباقماره
٨٢ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من انهم اكتشفوا سيارا آخر بعد اكتشاف اورانوس سموه (نبتون) وما يتعلق به
٨٣ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من ان الاكتشاف المذكور يؤكد ان فى الامكان اكتشاف سيارات اخرى
٨٣ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من انه يوجد فى النظام الشمسى غير الارض والسيارات الكبار والصغار اجرام اخرى منها ذوات الاذناب

صحيفة

٨٤ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من انه يوجد فى النظام الشمسى حجارة ونيازك وكرات نارية وشهب وتفصيل ذلك
٨٥ بيان ان وجود الحجارة فى السماء لا شبهة فيه والكلام على قوله تعالى وامطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود الآية
٨٦ الكلام على ماقالوه من ان الارض وسائر السيارات تدور حول الشمس وتستمد نورها منها على مسافات مختلفة وانها انقسمت الى عليا وسفلى
٨٧ الكلام على ان السنة فى ارضنا والسنين فى سائر الاجرام الدائرة حول الشمس هى المدد التى يقطعها كل جرم ليدور حولها دورة كاملة
٨٧ فى بيان ان الشمس فى هذا النظام واحدة وان الاقمار متعددة وان الشمس كرة نارية لا نجد عبارة نعبر بها عن درجة حرارتها
٨٩ الكلام على ماقاله علماء الهيئة من انهم رصدوا النجوم الثوابت وعددما اكتشفوا منها وان بعضها انور من بعض
٩٠ الكلام على قوله تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره وقوله تعالى وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وبيان انهما لا يصادمان ماقاله علماء الهيئة
٩١ الكلام على قوله تعالى وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر الآية وفى الرد على ماقاله الالوسى من ان الشمس لاتطلع ولاتغرب فى عرض ٠ ٩ بحركة الفلك بل بحركتها الخاصة وبيان مايتعلق بالتسخير
٩٣ فى بيان وجه كون الشمس واحدة فى عالمنا هذا وان جميع السيارات وأقمارها تستمد منها أنوارها الخ
٩٥ فى بيان ان ماقاله علماء الهيئة من ان النجوم الثوابت فى المجرة وفى غيرها شموس مثل شمسنا مما لا يمنعه العقل ولا يصادمه النقل
٩٦ الكلام على قوله تعالى الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن والكلام على مايتعلق بالارضين وتعددها
٩٨ فى بيان انه علم من الاحاديث ان لكل سماء سمكا وثخنا وبيان انه لامانع من ان يكون كل كوكب باعتبار ذاته أرضا لما فوقه وهو مع ما فيه ومداره سماء لما تحته وذكر ما يؤخذ منه ذلك
٩٩ فى الكلام على قوله تعالى ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وتفصيل ما قيل فى ذلك
١٠٢ الكلام على قوله تعالى هو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ونظائرها من الآيات وتفصيل ما يتعلق بالعرش والماء وما هو الحق فى ذلك
١١١ فى بيان ان كلا من القاضى البيضاوى والامام الرازى والمفتى ابى السعود ومن حذا حذوهم خالفوا ماقرروه غير مرة فى معنى العرش لغة وشرعا وبيان خطئهم فى ذلك
١١٢ الكلام على قوله تعالى ثم استوى الى السماء وهى دخان وبيان ان ماورد فى الاثر وأشارت اليه هذه الآية من كون الدخان المرتفع من الماء مادة للسموات مصروف عن ظاهره
١١٣ الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن معه شئ وكان عرشه على الماء الحديث وبيان الحق مما قيل فى ذلك

صحيفة

١١٧ بيان ان الحق الذى ينبغى ان لايلتفت الى ماسواه ان كرة النار التى يزعمها الفلاسفة ليست موجودة ولا يتوقف حدوث الشهب على وجودها
١١٨ بيان ان الاجسام التى تحت فلك القمر سبعة أجناس وفيه بيان الصور المقومة والمتممة للامهات منها
١٢١ بيان ما قاله علماء الهيئة اليوم من ان الارض كرة عظيمة سابحة فى الهواء وما قاله حكماء الاسلام من ان الارض كرة واحدة بجميع ما عليها من الجبال وغيره
١٢١ الكلام على قوله تعالى حتى اذا بلغ مغرب الشمس الآيه وان العلماء اولوا هذه الآية بما يوافق ماقاله علماء الهيئة
١٢٢ بيان ان ماقاله علماء الهيئة من ان فى السماء بروجا وبينوا ذلك بما ذكروه فيها مما لا يخالف آيات القرآن التى جاءت مشتملة على ذكر البروج وتفصيل ذلك
١٢٧ بيان مراد الشيخ الاكبر مما قاله متعلقا بتأثير الكواكب والافلاك ان ذلك انما هو صادر من الله تعالى على يد الملائكة الموكلين بحفظ العالم وتدبير الخليقة
١٢٨ الكلام على قوله تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم وبيان اسئلة للرازى فى ذلك
١٣١ بيان ان آدم مخلوق من طين وبالتركيب صار حيوانا ناطقا كذلك الشياطين والجان مخلوقون من نار وبالتركيب صاروا أجساما لطيفة قادرة على التشكل بأذن الله
١٣٢ بيان انه ليس كل ماتراه من الشهب يحرق به الشياطين وفيه مباحث
١٣٣ الكلام على قوله تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع الآية
١٣٠ بيان ان ما رواه غير واحد عن ابن عباس من ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الخ لا يدل على انهم يصلون الى السماء او يقربون منها
١٣٦ بيان بطلان استدلال الامام الرازى بقوله تعالى فارجع البصر هل ترى من فطور على منع نفوذ الشياطين فى السماء وبيان الحق فى معنى الآية
١٣٧ الكلام على قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا الآية وان الله خلق الاجسام وخلق فى اجزائها قوة التمسك وغيرها من القوى الخ
١٣٨ الكلام على قوله تعالى اذا الشمس كورت الاية وقوله تعالى اذا السماء انفطرت الآية
١٣٩ الكلام على قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح الآية
١٤٠ بيان ان ما قاله علماء الهيئة من ان الكواكب سفن عجائب القدرة مواخر فى بحر جو الفضاء الى آخر ماقالوه منطبق على ما جاء عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى كل فى فلك يسبحون
١٤١ الكلام على قوله تعالى أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها الآيه ودلالتها على ان السماء مرئية وبطلان ماقاله الفلاسفة المتقدمون فى ذلك
١٤٣ بيان معنى قوله تعالى وجعلناها رجوما للشياطين
١٤٤ بيان اجمالى عما أورده الامام الرازى من الاسئلة والاجوبة فيما دلت عليه الآيه المذكورة وبيان الحق فى ذلك
١٤٥ بيان ماقاله أهل صناعة النجوم من أنهم متفقون على أن الكواكب الثوابت فى الفلك الثامن

صحيفة

١٤٨ الكلام على قوله تعالى لايسمعون الى الملاء الاعلى
١٥١ فى بيان أن مما لاشك فيه أن الشهب من الحوادث الكونية الجوية الخ
١٥٣ فيما قاله المتقدمون أن هيولا الشهب والنيازك واحدة وهو الدخان اليابس وان ذوات الاذناب تظهر فى بعض الاحيان قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها
١٥٣ بيان أن المتأخرين من علماء الهيئة قالوا ان ذوات الاذناب أجرام غير السيارات الكبار والصغار
١٥٤ بيان أن أسباب الاتقاد والاحتراق فى الشهب والنيازك عند علماء الهيئة اليوم هو سرعة الحركة الخ
١٥٥ الكلام على قوله تعالى وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا
١٥٦ الكلام على قوله تعالى (رب السموات والارض ومابينهما ورب المشارق) وماهو المراد بالمشارق
١٥٧ الكلام على قوله تعالى فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل الآية
١٦٠ الكلام على قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان
١٦٠ الكلام على قوله تعالى فالق الاصباح الآية
١٦٥ بيان ان انقسام الصبح الى صادق وكاذب وان الكاذب يبدو مستطيلا والصادق يبدو مستطيرا معترضا فى الافق مما يشاهد بالعيان
١٦٧ بيان ان الاجسام متماثلة فى الجسمية والاستدلال على وجود الصانع المختار بهذه الآية
١٦٨ الكلام على قوله تعالى وجعل الليل سكنا
١٦٩ الكلام على قوله الشمس والقمر حسبانا
١٧٠ الكلام على مايتعلق بالنوم وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها الآية
١٧٢ الكلام على قوله تعالى أولم يروا الى ماخلق الله من شئ يتفيأ ظلاله الآية
١٧٣ الكلام على أن الله بفضله ورحمته جعل جميع النيرات الفلكية والاشخاص الكوكبية على وجوه مخصوصة والكرة الارضية محاطة بجسم شفاف الخ
١٧٤ الكلام على أن الجسم لايكون متحركا لذاته
١٧٥ الكلام على قوله تعالى (الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا الآية
١٧٧ الكلام على قوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان الآية) وماجاء فى ذلك من رد الشمس لسليمان عليه السلام وماورد من أنها ردت لنبينا عليه السلام وحبست للامام على وليوشع عليه السلام
١٨٤ الكلام على قوله تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) وهل فيها مايخالف ماقاله علماء الهيئة
١٨٦ الكلام على قوله تعالى (هو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر الآية)
١٩٠ الكلام فى أن المد والجزر من آثار الشمس والقمر المشاهدة فى العالم السفلى الخ
١٩٣ الكلام على قوله تعالى وان من شيعته لابراهيم الى قوله فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم) وفى ذلك مباحث تتعلق بعلم أحكام النجوم
٢٠٤ الكلام على ان علم احكام النجوم مبنى على القسم الوصفى من علم الهيئة وذلك القسم كالقسم الطبيعى يتوقف الوصول اليه على الارصاد والحساب الصحيح والاصول الهندسية الدقيقة الخ وفى ذلك مباحث تتعلق بتأثير الكواكب وماحكى عن الشافعى من اشتغاله بعلم الاحكام
٢١٨ بيان ان الاجرام العلوية يختص كل منها بخاصية ومشتركة فى الدلالة على وجود الله تعالى ووحدته

صحيفة

وعلمه وشأن الكواكب فى خواصها وتأثيراتها كشأن النبات والمعدنيات والحيوانات فى خواصها وتأثيراتها
٢١٩ الكلام على مااعترض به الالوسى على علماء الاحكام ورددنا عليه فى ذلك
٢٢٢ مانصت عليه الصوفية من أن علومه صلى الله عليه وسلم وأنواع ثلاثة الخ
٢٢٤ الاعتراض على القول باطلاعه صلى الله عليه وسلم على ماذكر من شان الاجرام العلوية بان فيه فتح باب الشبهة فى كون اخباره بالغيوب من الوحى
٢٢٦ الكلام على قوله تعالى فلا اقسم بالخنس الجوارى الكنس)
٢٢٨ بيان الرد على قول الالوسى فى الحكايات الثلاث التى حكيت عن الامام الشافعى
٢٣٤ الكلام فيما قاله بعض الفلاسفة الالهيين فى تاثير الكواكب والاجرام السماوية فى العالم السفلى
٢٣٩ الكلام على قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا الآية
٢٤٥ الكلام على قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر)
٢٥٠ بيان الاسباب التى دعت الى تقسيم الآيات القرآنية فى هذا الكتاب بما يوافق مايقوله علماء الهيئة والكلام على الايات التى استند عليها فى ذلك
٢٥١ الكلام على قوله تعالى أولم ينظروا الى السماء كيف بنيناها الآية وقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس الآية
٢٥٤ فى بيان ان العقول لاتقف الاعلى قليل من اسرار خلق السموات والارض
٢٥٤ الكلام على قوله تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الآية
٢٥٧ فى بيان ان طلبنا للكمال يلزمنا أن نبحث فى مذاهب علماء الهيئة ونأخذ بما هو أقرب الصواب

874
C62
833
A36

بيان الخطأ والصواب الواقع فى هذا الكتاب

صحيفه	سطر	صواب	خطأ
٧	١٩	اورانوس	اورالوس
١١	١١	تعاليمهم	تعاريفهم
١١	٣٣	ولاتستطيعون	ولاتستطيون
١٩	١٦	يغشى الليل النهار	يغشى الليل والنهار
٢٠	٧	القرآن	القرآت
٢٢	٣	التكوير	اليكوير
٢٢	١٥	مر الماء	عمر الماء
٢٢	٢٤	فتكون	فكانت
٢٢	٢٥	تتقصاها	تتقضاها
٢٣	١٢	المروى	لمروى
٢٨	٣٣	اولها	اولهما
٣٩	٤	اشهر	الشهر
٤٢	٩	وشئ	وسير
٤٣	٢٠	السحاب	الحساب
٤٣	٢٢	الذى تسوقه	التى تسوقها
٤٥	١٩	بآلات	بايات
٤٥	٣١	ولولم يكن	ولم يكن
٤٧	١٠	القسر	القسرى
٥١	٨	ويحيط الهواء بها	ويحيط بها
٧١	٢٤	من الاستدلال	عن الاستدال
٧٢	٣٤	جمهور	شهور
٧٤	٢٤	فظل الارض قد	فظل قد
٨٠	١٤	كل سنة	نحو سنة
٨٧	٣١	منهما	منها
٩٢	٥	أشهروهى النهارومده	أشهر ومدة
٩٣	٤	ورتب	وركب
٩٣	٥	يجرى مجرى الطبيعى	يجرى من مجرى الطبيعة
٩٨	١٩	يجب	يحسب
١٣٩	١٩	ضد	عنه
٢٤٥	٢٠	عما	بما
٢٤٧	١٩	فليس كذلك	ليس كذلك
٢٤٨	١٩	بقوة جذب الارض	بقوة الارض
٢٤٨	٣١	الطبيعى تنضم	الطبيعى جذب تنضم
٢٥١	٣٣	بهما	بها
٢٥٣	٢٣	تخصيصه	تحقيقه
٢٥٥	٢٨	الاستدلال	الاستدال
٢٦٠	١١	سمينة	ثمينة